جمال الدّين القاسِمي
وعصره



جمال الدين القاسمي وعصره

الطبعة الاولى

دمشق ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

أكتب عن أبيك بحُبّ

هذا ما قاله لي صديق أثق بعقله وأدبه ، مجيباً عن سؤالي ' هل أكتب ترجمة أبي بنفسي ، أم أترك الكتابة لغيري من أصدقائه وتلاميذه ، وهم بحمد الله كثر ؟

والواقع أن كلمة — بحب — قد استهوتني ، وأخذت عليّ تفكيري ، ودفعتني إلى الكتابة دفعاً ما عهدته في نفسي منذ سنوات ، بعد أن ترددت في الكتابة أشهراً أسأل الأصدقاء والأهل ، وأكثر من الاستشارة والاستيضاح ، وأستمع إلى الآراء ، وأعلق عليها ، وأنقدها حيناً ، وأؤيدها حيناً ، ثم أرجع إلى ترددي . إلى أن قال لي هذا الصديق الأديب : أكتب عن أبيك بحب ، فقد كتبتُ عن أبي وهو نجار ، وما أظنني كتبت خيراً مما كتبت عن أبي ،

على كثرة ما كتبت ، لأني كتبت عنه بحب ، وأبوك قد ملأ الدنيا علماً ، وإصلاحاً ، وفكراً ، وهداية ، وأنت قادر على الكتابة ، فما لك تترك هذا لغيرك ، ولن يبلغ أحد في الدنيا مبلغك في حبه ؟

كنت أتردد لأني أعلم أن ترجمة الأبناء للآباء ، وإن كان موضوعاً قد تصدى له القدماء والمحدثون ، من المشارقة والمغاربة ، والعرب والفرنجة ، إلا أنه أدق أنواع التراجم والسير ، وأكثرها مجالاً للتحفظ والحذر ، وكثيراً ما كان أبعدها عن الثقة واليقين . ذلك لما ينبغي أن يتوفر في المترجم من التجرد عن جميع بواعث العاطفة ، والنوازع الشخصية ، والعوامل الذاتية ، حتى تتوفر القيمة العلمية فيما يكتب ، وحتى تتسم الترجمة بالتاريخ الصحيح .

ثم قلت لنفسي : أليس الحب مفسداً للحقيقة ؟ وهل برىء المحبون من الهوى ؟ وهلاّ مرت بك تجارب علمتك أن المساوىء كثيراً ما انقلبت حسنات في أعين المحبين ؟ وهلا سمعت من إخوان لك — ولعلك كنت في ظرف ما مثلهم — مبالغات مضحكة ، مبعثها الحب ؟ فهل يمكن أن يستقيم الحب مع البحث العلمي ؟ وهل في استطاعتك أن تنسلخ عن الإعجاب بأبيك ، وهل ستغمض العين عن المساوىء ، إذا كانت موجودة ، وهلا ستتجسم في عينيك المحاسن ؟

ألم تتعلم في طفولتك قولاً تردد على ألسنة الناس من أقدم العصور :

كل فتاة بأبيها معجبة

ألم تسمع قول الشاعر العربي القديم :

أين في الناس أب مثل أبي ؟

وأنت إنما تتصدى لموضوع ما ينبغي لك فيه إلا البحث عن الحقيقة ، وهل يمكن أن تجرد الحقيقة من بين هذه العوامل والبواعث ، فتدعها فريدة وضاءة ، لا يشوبها أي مغمز من المغامز التي يمكن أن تلحق تراجم الرجال !

ثم قلت : نعم أكتب وأنا أسير على منهج علمي خالص ، فلا أنظر إلا إلى الناحية الموضوعية المحضة ، ولا أتعداها ، وأترسم خطة لا تحيد بي عن جادة الصواب .

ولكن هل يمكن أن تبرأ الترجمة من أي نقص ، بعد أن ارتسمت في ذهني صور الهوى ، وصلة الأبناء بالآباء ، ومفاتن الإعجاب ، ومزالق العاطفة ؟

أليس التزمت في التزام الصدق ، والإحفاء في البحث عن الحقيقة ، كثيراً ما يخرج عن جادة الصواب ، ويحيد عن المقصد ؟

وهلا أنت غامط أباك حقه ، إذا أردت أن تكتب بهذا الروح الضيق ، فتبتعد عن الحق ، خيفة الخوض في الباطل ، وتخفي بعض ما ينبغي أن يظهر ، وتغلق باباً كان ينبغي أن يكون مفتوحاً ؟

بقيت في هذا الصراع النفسي ، بعد أن كتبت أسطراً جاء في بعضها :

لهذا رأيتني أقدم على تأريخ سيرة أبي — جمال الدين القاسمي — بكثير من الرهبة والحيطة ، لرغبتي العميقة في أن أقدم إلى القراء صورة صحيحة عن حياة رجل ما عاش إلا للعلم ، فتوخيت بأدق الطرائق العلمية صحة الحوادث ،

وصدق الأقوال ، وصواب الآراء ، وسلامة النقل . جاهداً في أن تكون هـذه الترجمة خالية من المبالغة ، بريئة من الغلو ، سليمة من الشطط . فإذا كنت قد وفقت في كل ذلك أو في بعضـه ، فذلك قبس من الروح الأمين ، قد أنزله الله على قلبي وقلمي ، لعلي أرضي به العلم والتاريخ ، وتطمئن إليه روح جمال الدين في العليـاء .

وبقيت تتردد في خاطري كلمات — الرهبة والحيطة — فأمسكت ، لا أجد الشجاعة على الـكتابة ، واستعصى عليّ القلم ، فمـا تقع عيني على الوريقات الـتي أعددتها ، لا أدري هل أنا محسن أو مسيء ، وهل أنا في سبيل القيام بالواجب أو التنكب عنه ، وهل في إقدامي أو إحجامي الخير أو الشر ، إلى أن قال لي هذا الصديق بكثير من العاطفة الحلوة العميقة التي انصبت فى نفسي انصباباً :

« أكتب عن أبيك بحب »

على أنــ صعوبة أخرى قد وقعت في طريقي ، كنت قادراً على تخطيهـا وتذليلها ، تلك هي أني لم أدرك أبي ، ولم ترتسم في ذهني صورته الجسمية ، إنما ارتسمت في نفسي صورته الروحيــة ، فقد مات ولي من العمر سنة وثلاثة أشهر وبضعة أيام ، فنشـأت في بيتي ، لا أعرف كيف كان يعيش ، ولا كيف كان يعامل زوجه وأولاده وأباه وأمه وإخوته والناس إلا من الأفواه . ولم يكن ممكناً أن تبقى في ذهني صور حنانه وعطفه ، ولا ابتسامه وتقطيبه ، ولا رضاه وسخطه ، ولا كيف كان يتعبد ربه ، أو يفرغ إلى دراسته وتأليفه ، ولا حلقـات دروسه

الخاصة والعامة ، ولا استقباله لضيوفه ، وغير ذلك مما يمر في حياة الرجل . حتى صورته الشمسية كانت مطوية في أحد الأدراج ، لا يكاد يراها أحد من الأهل ، إلى أن بلغت العشرين من العمر ، فنشرتها من مكمنهـا ، وعلقتها في صدر مكتبته الخاصة .

فكان عليّ أن أجمع ذاكرتي ، وأن أستعيد قصص أمي — رحمها الله — ، وأحاديث الشيخ عمي قاسم خير الدين القاسمي — رحمه الله — ، وأن أجلس إلى شقيقاتي وقد وعته كبراهن وعياً تاماً ، أسألهن عن حياته الخاصة ، وأستقصي الصغير والكبير من قصصه وأحاديثه ، وأتعمق في بحث التوافه من شؤونه ، علّي أحاول بعث صورة حية عنه ، فأسجل ما يستحق التسجيل ، وأنفث زفرات الحزن على ما فاتني من عشرة هذا الرجل الذى كان سبباً لوجودي بعد الله ، وترك لي كنوزاً معنوية دونها كل كنوز الأرض .

ثم توكلت على الله واستعدت شجاعتي ، واستأنفت الكتابة ، فألفيت الوريقات التي كتبتها وها أنا أقدم على التدوين بكثير من « الرهبة والحيطة » مع كثير من الشجاعة و « الحب » .

* * *

ورأيتني بعد هذا أعود إلى بعض ما في مكتبتي من كتب التراجم والسيَر ، قديمها والحديث ، تالدها والطريف ، عربيها وأعجميها ، أجدد بها الصلة ، وأستعيد العلاقة ، وأستأنف الدراسة والمراجعة ، وكانت قد انقطعت منذ زمان بعيد ، صرفتني عنها وعن غيرها من شؤون الحياة الفكرية بعض الصرف شواغل

الحياة . وقد أفدت منها جميعاً خيراً كثيراً ، وأعانتني على المضي فيما أخذت نفسي به . وتلك عادة قديمة لزمتني . وما أذكر أنني تهيأت للكتابة في أي موضوع إلا وأقبلت على كتاب من كتب الأدب ، ومن أقربها إلى نفسي « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، و « البيان والتبيين » للجاحظ ، أروض قريحتي ، وأعيد إلى نفسي نشاطها الأدبي ، فما أشعر إلا وسبل القول قد انفتحت ، وأساليبه قد اتسعت ، والمعاني قد تدفقت ، وأرى محفوظاتي قد تنبهت من الذاكرة ، ومنها ما لم أستعده منذ طفولتي أو شبابي .

رأيتني ، دون عمد ، أعود إلى كتب التراجم والسير ، وكأني أستوحيها ، فتعددت أمامي الطرائق ، وتشعبت المسالك ، وانتشرت أمامي صور رائعة من عقول الرجال في أساليب التاريخ والتدوين ، أشهد أن مكتبتنا العربية قد زخرت بكنوز غنية منها ، ما أظن أن مكتبة أخرى من لغات العالم قد حفلت بقدر ما حفلت به مكتبتنا العربية ، على ما فيها من الفوضى حيناً ، والبعد عن القصد حيناً ، وتداخل المواضيع أحياناً . فقد ضمت من الطرائف واللطائف ، والعظات والعبر ، والمآسي والمحن ، وصروف الزمن ، ما هو خليق حقاً بالمتعة والفائدة . كما حوت في مجموعها صور النفس الانسانية بكاملها : إحساناً ونكراناً ، وصلاً وهجراناً ، وفاء وغدراً ، عدلاً وجوراً ، رحمة وظلماً ، حقداً وتسامحاً ، رضى وسخطاً ، أنساً ووحشة ... وفي ظني أن كتب التراجم والسير أغزر مادة لعلماء النفس ، ففيها من مظاهر الحياة العقلية والعاطفية والإرادية ، ما يشبع نهم الباحثين عن النفس الانسانية خلال العصور ، ولعل المتتبع يرى أنها على تقلبها ثابتة منذ أن كان الإنسان ، إلى نهاية الزمان .

كانت المتعة التي نعمت بها من استئناف الدراسة والبحث في كتب التراجم والسير عميقة كل العمق ، بالغة الفائدة ، حتى خشيت أن تصرفني عما انتويت ، أو أن تشغلني عما عليه عقدت العزم ، فعدت إلى أوراقي أكثر عزيمة ، وأوفر مضاء ، وأنا أسائل نفسي كيف أبدأ ؟

كان طبيعياً أن أبدأ بجميع المصادر ، وقد وجدت بين يديّ فيضاً منها ، يحتاج بعضها إلى كثير من التنسيق والتبويب والتصنيف ، ويقتضي بعضها البحث والدرس والتدوين . ويستلزم بعضها التقصي في السؤال والاستيضاح ، ولا بد في هذا كله من جمع البَدَد ، ولمّ المفرق ، وتقريب المتشابه ، وغير ذلك مما يوجبه تكامل عناصر الموضوع .

ولعل أثمن هذه المصادر وأغناها ، ترجمة القاسمي لنفسه ، فقد كتبها بخطه الفارسي الأنيق ، من غير أن يترك لها عنواناً أو اسماً . والترجمة الذاتية طريقة عرفها الكثيرون من أعلام الشرق والغرب ، وسماها الفرنسيون Auto - biographie ، وقد نهج فيها على أسلوب خاص ، فجاءت في خمسين صفحة من القطع الكبير ، بدأها بمقدمة (في ذكر من ترجم نفسه من الأئمة المتقدمين الذين اقتفى العبد الضعيف في ذلك أثرهم) [1] .

---

(١) قال : منهم الامام عبد الغافر الفارسي في تاريخ نيسابور . والشيخ ياقوت الحموي في معجم الأدباء . ولسان الدين بن الخطيب في تاريخ غرناطة . وتقي الدين الفارسي في تاريخ مكة . وأبو شامة في الروضتين ، وهو أورعهم وأزهدهم . وابن خلدون في آخر تاريخه . والحافظ وأبو الفضل بن حجر العسقلاني من قضاة مصر . والحافظ السخاوي تلميذه في الضوء اللامع . والحافظ جلال الدين السيوطي في حسن المحاضرة . والعارف الشعراني في المتن . والحافظ ابن طولون في الفلك المشحون . والعلامة اليوسي المغربي في محاضراته . والشهاب –

ثم ذكر نسبه وولادته ونشأته ومشيخته ، وما منّ الله تعالى به عليه من طبع بعض مؤلفاته ، ومحنة بعض علماء الوطن سنة ١٣١٣ المسماة « بحادثة المجتهدين » ، وابتداء تدريسه العام بين العشاءين في جامع السنانية بعد وفاة والده ، ورحلته إلى بيت المقدس ، ورحلته للأقطار المصرية عام ١٣٢١ هـ ، وشذرة من منظوماته ، وبعض المراسلات التي دارت بينه وبين بعض علماء وأدباء العصر ، ورحلته إلى حوران ، وتقاريظه الشعرية على بعض المؤلفات ، وبعض مقالاته في المجلات والصحف ، وتاريخ رحلته إلى المدينة المنورة ، وقائمة ثانية بما منّ الله به عليه من طبع مؤلفاته وتعليقاته مرتبة على حسب سنيّها التي طبعت فيها .

وهذه الصفحات قبس من نور حياته ، ونفحة من أرج جناته ، جرى فيها بأسلوب محكم السبك ، مضطرد السلك ، لا يشوبها ضعف ولا لغو ولا تجوز ولا قلق ، طابعها التواضع ، تخلل سطورها كثير من الدعوة إلى الإصلاح ، والعودة إلى طريقة السلف الصالح .

ولقد قرأت هذه الصفحات مرات ومرات ، فما أحسست أنني ارتويت منها أو شبعت . فقد تلمست فيها العزيمة القوية على أداء الرسالة ، وتبليغ الأمانة ، والمضي في الطريق القاصد ، في كثير من الهمة والوفاء ، والشجاعة والكبرياء ، منذ أن شب عن الطوق ، إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى .

– الخفاجي في الريحانة . والمؤرخ المحبي في نفحة الريحانة . والنجم الغزي في بلغة الواجد . والمسند الشهير الشيخ اسماعيل العجلوني في أول ثبته حلية أهل الفضل والكمال . والشهاب أحمد المنيني في ثبته القول السديد . وغيرهم ممن لا يحصى .

وثاني هذه المصادر : ما وعيت في بيتي الذي نشأت فيه من القصص والأحاديث ، سمعتها من أمي وإخوتي وأعمامي ، تتعلق بحياته العامة والخاصة . ولقد كانت هذه القصص والأحاديث منبعاً خصباً لكثير من العظات والنصائح ، ما زلنا ننعم بعطرها حتى اليوم في كثير من ندواتنا العائلية ، لأن حياة القاسمي كانت كلها في بيته ، وخارج بيته ، دروساً قيمة في التوجيه والتقويم ، ومكارم الأخلاق .

وثالث هذه المصادر : ما حفظه تلاميذه وأصدقاؤه عنه في دروسه الخاصة والعامة من لفتات ذهنية سامية ، وحوادث وأحاديث نادرة ، وهي شيء كثير ، وقد سجلت ما أمكنني الوصول إليه ، ورأيت فيه فائدة تذكر وتنشر .

ورابع هذه المصادر : مؤلفات القاسمي ، وهي أهم مصادر تاريخ حياته الفكرية وقد قاربت المئة ، وفيها الرجل كله : عقله وعاطفته ، إرادته وغرائزه ، آراؤه وأفكاره ، طريقته في الإصلاح ، مزاجه . . .

وخامس هذه المصادر : مكتبة القاسمي التي خلفها ، وقد نيفت على ألفي مجلد . إذ ندر أن يخلو كتاب منها من كتب المطالعة من تعليق أو نقد أو تأييد أو ملاحظة . وهي بعد صورة كاملة عن ثقافته العامة ، لأنه لم يترك كتاباً من كتب المطالعة إلا وفهرسه فهرساً خاصاً ، حسب ما بدا له من أهمية المواضيع التي اطلع عليها .

وسادس هذه المصادر : مفكراته اليومية ، فقد عثرت منها على خمس ، أغناها وأوفاها مفكرة عام ١٣٢٤ هـ ، فقد ضمت بعض أخبار الرجال والتعليق على الحوادث ،

وصلاته بمعاصريه ، وكثيراً من الآراء والأفكار ، إضافة إلى الحوادث الخاصة والشؤون العائلية .

وسابع هذه المصادر : ما كتب عن القاسمي بعد وفاته ، شعراً أو نثراً ، وقد جمعته بنفسي بإرشاد عمي قاسم — رحمه الله — منذ نحو ثلاثين سنة .

ولا بد أن تكون هنالك مصادر أخرى قد فاتتني ، وليس من سبيل للوصول إليها ، كرسائله إلى أهله وأصدقائه — التي ضاعت في أيدي من أرسلت إليهم — وبعض المقالات في الصحف اليومية أو المجلات الأسبوعية والشهرية التي لم أهتد إليها ، وبعض ما طواه خلال حياته من آثاره لعدوله عنها ، فهذه توضح مرحلة من مراحل تطور حياته الفكرية ، أو ما أتلفه من آثاره خوفاً من الطغاة والظالمين من الحكام .

* * *

عصر القاسمي

عاش القاسمي معظم حياته في أشد أيام الظلم والظلام . فقد وُلد ونظام الحكم المطلق قائم في الدولة العثمانية ، مما يذكر مآسيه الكثيرون من المعاصرين حتى اليوم . فالحريات بجميع أنواعها مفقودة ، والأقلام مغلولة ، والعقول مقيدة ، والصحافة على ضعفها وقلّتها مكبلة ، والأحرار مطاردون ، والدستور معلق ، والمجالس النيابية معطلة ، والناس يحاسبون على الهمسة والنبسة ، وأعوان السلطان وزبانيته مبثوثون في كل مكان ، والجاسوسية تفتك بالأبرياء ، والعدالة تكاد تكون مفقودة لفساد النظام القضائي ، وشراء مراكز القضاء ، وانتشار الرشوة علناً بين موظفي السلطة العامة والمواطنين ، والامتناع كلياً عن البحوث السياسية حتى حرم لفظ (الدستور) ، لا بل حرم على الناس أن يسموا أولادهم (عبد الحميد) ومن شاء التشبه سمى ولده حمدي أو حامد . ولم يشم نسيم الحرية نسبياً إلا في عام ١٩٠٨ م حين أعلن الدستور ، واستؤنفت الحياة النيابية ، ولكن في كثير من رواسب الماضي وشروره .

في هذا الجو السياسي الخانق عاش القاسمي معظم حياته ، فاستطاع من وراء دعوته الدينية أن يبث كثيراً من آرائه السياسية في طائفة من شباب العصر النابهين ، على ما سنبينه فيما بعد .

أما الحياة الثقافية في ولاية سورية ، فكانت مفقودة أو بالمفقودة أشبه ، فلا مدارس ، ولا معاهد ، ولا جامعات . والطباعة والصحافة ضعيفتان ليس فيهما أي غناء ، واعتماد القلة من الناس على الكتاتيب وحلقات الجوامع والدروس الخاصة في البيوت . فالأمية منتشرة ، حتى لتصل الرسالة إلى أحد الناس في الحي ، فيبحثون عمن يقرؤها فلا يجدون إلا واحداً أو اثنين ، أو لا يجدون ، وكثيراً ما يكون القارئ غائباً فلا بد من انتظاره . وتصل الجريدة إلى أحد المتعلمين في الحي ، فيتحلق حوله الناس في المقهى أو أمام إحدى الدكاكين ، أو في السهرة ، ليقرأ لهم ما فيها قراءة ركيكة ، ويشرح لهم مضامينها على مقدار فهمه وإدراكه . جهل مطبق فرضته الدولة على الناس ، ليعيشوا في جو من الظلام والغباء ، وليسهل على حكامها ومستغليها اضطراد الأمور في مسلك من الظلم والبطش والخنوع .

وكان حال الحياة الدينية نتيجة طبيعية للحياة الثقافية : جمود على القديم ، وكتب صفراء يتداولها الطلاب ، ومتون كثيراً ما يحفظونها من غير فهم ، وحواشٍ وشروح وتقريرات وتعليقات تزيد في اضطراب عقول الطلاب ، هذا إذا وصلوا إليها .

وتقليد أعمى غلت معه العقول . حتى كتب الحديث ، ما كانت تقرأ على الأغلب إلا للتبرك . أما كتب التفسير فممتنعة عن الخاصة بله العامة . وحسب الرجل أن يقرأ بعض كتب الفقه ، ليعتم ويقال إنه عالم . وكتب اللغة والنحو والصرف والأدب يقرؤها بعض الطلاب ، على أنها أداة لفهم الكتاب والسنة ،

لا لذاتها ، وليتهم استخدموا هذه الأداة . أضف إلى هـذا كله أن بحوث الفقه نفسها لم تكن بالمستوى الذي يخدم أغراض الشريعة كما أراده الأئمة من الفقهاء ، فترى مثلاً مناقشات طويلة حول مواضيع تافهة ، لا تقدم ولا تؤخر في جلاء مهمة الدين وفي تقدم المجتمع الإسلامي . فقد شغل بعض رجال الدين كثيراً من أوقاتهم في بحث (هل فضلات الأنبياء طـاهرة أم لا)[1] وفي (هل الملائكة ذكور أم إناث) ، وغـير ذلك مما هو مضيعة للوقت حقاً . وقـد نشأت خصومات فعلية بين أدعيـاء الدين حول هذه المواضيع ، ونشأ أنصـار لـكل فرقة ، ولا أبالغ إذا قلت إن الخصومة حول هـذه التوافه قـد وصلت أحياناً إلى حد الاتهـام بالـكفر .

وقد كانت الطرق في ذلك العصر في أوج انتشارها ، يعتنقها بعض رجال الدين ، ويجمعون العـامة حولهم ، ويشغلونهم عن العمل النـافع لإقامـة المجتمع الإسلامي الصالح . وقد تعددت هذه الطرق ، تعدد الأحزاب السياسية في هـذه الأيام وقامت بين زعمائها خصومات واتهامات لا يكاد يصدقها العقل[2] .

---

(١) أدركت بنفسي في جامع بني أمية مدرساً يبحث هذا الموضوع للعـامة في رمضان . كما أدركت البحوث الطويلة التي قامت حول : هل تعليم الجغرافيا حلال أم حرام ؟ وهل تعلم اللغات الأجنبية والعلوم العصرية (الكيميا والفيزيا) حلال أم حرام ؟ وشهدت إنشاء مدارس خاصة لبعض الحشوية والجامدين من رجال الدين حذفت من برامجها هـذه العلوم ، ثم تطورت هذه المدارس نفسها وأخذت بالبرامج الرسمية للدولة .

(٢) لقد شهدت هذه الخصومات والاتهامات في الفترة الواقعة بين عام ١٩٢٢ – ١٩٢٥ .

أما حقيقة الدعوة الإسلامية وأهدافها السامية ، وغاياتها العليا ، فلم يكن أحد من رجال الدين عارفاً بها ، أو مهتماً بنشرها ، أو داعياً للأخذ بأسبابها ، والانتفاع بخيرها ، وصلاح الدنيا والآخرة بتعاليمها .

والحياة الاجتماعية كانت كذلك مفقودة ، إذ لم يعرف النـاس أي نوع من أنواع الاجتماع إلا في الولائم وصلاة الجمعة والسهرات التي كان يسميها أهل الشام (الدَّور) . فلا ندوات ثقافية ، ولا جمعيات إصلاحية ، ولا حلقـات اجتماعية حتى ولا جمعيات خيرية .

والمرأة التي هي نصف المجتمع غائبة [1] ، فليس لهـا في خدمته إلا نصيب قعيد البيت . وقد عرفت بنفسي أشخاصاً لا يعرفون حقاً أسماء بناتهم ، ولا عددهن ، وعرفت أناساً يعتبرون ذكر اسم الزوجة أو الأم معيباً مخجلاً . لا بل نشبت في بعض الأوقات مشاجرات دامية منشؤها الاستيضاح عن اسم الأم . . .

في هذا الجو الخانق العجيب ، المتخلف في جميع مرافق الحياة ، نشأ القاسمي ، فكان كالطائر المغنّي في غير سربه ، غريباً عن أهل الزمان ، ولعل هــذا كله كان أدعى لإقدامه ، والقناعة برسالته ، وضرورة العمل لها ، والسعي لنشرها ، والمضي في تبليغها . لا يبالي في ذلك تـكفيراً ، ولا اتهـاماً بالوهابية ، ولا منعاً بالقوة عن قيـامه بواجب « الإمام الراتب » من قبل بعض أوباش العـامة الذين

(١) سنرى في أحد فصول الكتاب رأي القاسمي حول مهمة المرأة في المجتمع الإسلامي .

فعلوا فعلتهم الشنيعة هذه بتحريض خصومه من أدعياء الدين . لا بل إنه لا يبالي في سبيل ذلك محاكمة ولا حبساً . فثبت لهذه المحن كلها ، وأكثر منها ، كالطود الراسخ ، لا يزعزع يقينه وعيد ولا تهديد ولا تكفير ولا حبس . ومضى على الرغم من هذه العوائق التي كان واحد منها كفيلاً بصرف غيره عن طريقه ، لا تزيده الأيام إلا قوة وعزيمة ، ولا تنتج الصدمات المتعاقبة إلا تصميماً على الخطة ، وشجاعة في المهمة ، وفناءً في قدسية المثل الأعلى الذي يصبو الى تحقيقه .

* * *



حقق القاسمي نسبه في كتابه المطبوع المعروف « شرف الأسباط » .

وذكر في ترجمته نفسه ما نصه بالحرف [1] :

« نهاية ما يعلم ، هو ما يذكره وهو : أنه محمد جمال الدين أبو الفرج بن محمد سعيد بن قاسم بن صالح بن اسماعيل بن أبي بكر المعروف بالقاسمي ، نسبة إلى جده المذكور وهو الإمام ، فقيه الشام وصالحها في عصره ، الشيخ قاسم المعروف بالحلاق ، ولا يعرف من أجداده من خدم العلم حق الخدمة إلا جده المنوه به ، وهو الذي غرس المجد لسلالته رحمه الله تعالى » .

وكان أبوه (محمد سعيد) رحمه الله فقيهاً أديباً ، غلب عليه شعر أهل عصره . اشتغل أول حياته بالتجارة ، فكان له في العصرونية متجر معروف . ثم اعتزل التجارة لأسباب لا أعرفها . وقد جمع شعره في ديوان سماه ولده جمال الدين « الطالع السعيد في ديوان الإمام الوالد السعيد » . ولم أعرف من مؤلفاته إلا كتاباً واحداً موضوعه في غاية الطرافة ، (وهو قاموس الصناعات الشامية) . وقد وصل فيه إلى حرف السين ، ثم أتمه ولده من بعده [2] . كما أنه عني

---

(١) ص ١

(٢) طبعه ونشره معهد الدراسات العليا في باريس .

بكتاب اسمه « يوميات ابن بدير الحلاق » سجل فيه مؤلفه باللغة العامية حوادث دمشق اليومية من سنة ١١٥٤ هجرية إلى سنة ١١٧٦ ، وقد عمد إلى تهـذيب الـكتاب من اللغة العامية إلى لغة قريبة من الفصحى . وقد ضاع الأصل ، ولم يبق إلا المهذب .

وقد سمعت من أمي وأعمامي أنه كان رحمـه الله عصبي المزاج ، كثير المرح منفرداً بين علمـاء الدين في عصره بولعه في الموسيقى ، ومتعه الله بجمال الصوت . وقد أدركت بعض من صلى وراءه في « جامع السنانية » ، فكان كثـير الحنين لعذوبة تلاوته للقرآن الـكريم .

وأمه عائشة بنت أحمد جبينة (كجهينة) . وجدّته لأبيـه فاطمة بنت محمد الدسوقي .

* * *

ولادته

في زقاق المكتبي ، ظاهر باب الجابية ، وبالقرب من قصر حجاج في محلة القنوات ، كان مسكن والد القاسمي في دار واسعة الفناء ، متعددة الغرف ، بنيت على الطراز الدمشقي القديم ، فيها كثير من الأشجار الحمضية ، وفي وسطها بركة ماء متسعة . وفي هذه الدار ولد رحمه الله . قال :

« ولادتي كما رأيتها بخط والدي الماجد وخاله العالم النحرير الشيخ حسن جبينة الشهير بالدسوقي قد كانت في ضحوة يوم الاثنين لثمان خلت من شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين ومئتين وألف ، بوطننا دمشق الشام ، منبت الآباء ، ومستقر الأجداد ، في محلة القنوات . وقد رآه جده المتقدم (الشيخ قاسم) ، ووضعه في حجره ، ودعا له بما يرجو حصول بركته » .

نشأة ومشيخة

كان لنشأة القاسمي في بيت عرف بالعلم والتقوى أثر كبير في توجيهه الوجهة التي تولاها ، واختاره الله لها . فقد كان جده الشيخ قاسم فقيه الشام وصالحها ، وكان أبوه فقيهاً أديباً ، وفي جو من حرمة الدين وجلاله ، وهداه وسلطانه ، ورقة الأدب وروائه ، وتهذيبه وصفائه ، وطلاوة الموسيقى وحلاوتها ، وعذوبتها ونشوتها ، فتح عينيه على النور ، فأخذ يعب من معين ثرّ قوي ، مستعيناً بتشجيع أبيه الذي لا ينقطع ، من الدعاء له ، وإهدائه الكتب ، وتنشيطه شعراً بأبيات يوجهها إليه ، أو نثراً في رسائله حين سفره . فأعانه هذا كله على نشأة صحيحة صالحة ، لم يعرف فيها لهو الفتيان إلا بالقدر المشروع ، ولم يستمله من مفاتن الشباب ما يمكن أن يحرفه عن الطريق القويم .

قال في ترجمته لنفسه [1] :

« قد ربي في كنف والده » .

« وقرأ القرآن على الحافظ المعمر الشيخ عبد الرحمن بن علي بن شهاب المصري نزيل دمشق . وكان يعلم الأطفال في حجرة قبالة جامع الشادبكية في محلة القنوات

---

(١) ص ١

إلى أن توفي سنة ١٣١٦ هـ ودفن بمقبرة الدحداح . وبعد ما كبرت[1] حضر كثيراً من مجالس دروسي الفقهية والحديثية والتفسيرية . وكان ربما أراد تقبيل يدي ، فأجل ذلك لمشيخته ، فينشدني صدر مواليا مصري وهو :

« كم من صغير انتشا باس الكبير يده »

« وبعد أن ختمت القرآن ، أخذت في تعلم الكتابة عند الأستاذ الكامل الشيخ محمود أفندي بن محمد بن مصطفى القوصي نزيل دمشق ، من صلحاء الأتراك وكرامهم . كان قاطناً في تربة درويش باشا في القبة التي على الساباط ، جوار جامع الدرويشية على الجادة . وبها كان يعلم الأطفال وغيرهم . فمكثت عنده نحواً من ثلاث سنين ، إلى أن أتقنت الخط بالقلمين[2] . وذلك في أثناء سنة خمس وتسعين ومئتين وألف .

« ثم انتقلت إلى مكتب في المدرسة الظاهرية ، في إيوانها القبلي . وكان معلمه العالم الفاضل الشيخ رشيد أفندي قزيها ، الشهير بابن سنان . فقرأت عنده في المكتب المذكور مقدمات فنون شتى ، قراءة جد واجتهاد ، من توحيد وصرف ونحو ومنطق وبيان وعروض وغيرها .

« وكنت في خلال ذلك شارعاً في قراءة المختصرات الفقهية والنحوية أيضاً ، عند سيدي الوالد زيد فضله ، صباحاً في دارنا مع طلبة كثيرين ، ومساء أيضاً في جامع السنانية ، في مجالسه الحديثية .

---

(١) يلاحظ أن القاسمي استعمل في ترجمته لنفسه صيغة الغائب مرة وصيغة المتكلم مرة أخرى .

(٢) أي الرقمي والفارسي .

« ثم جودت القرآن المجيد على شيخ القراء بالشـام ، الشيخ أحمد الحلواني عليه الرحمة والرضوان . وقد ترجمته في تاريخي (تعطير المشام ، في مآثر دمشق الشام) . فقرأت عليه ختمة وأكثر من نصف أخرى ، على رواية الإمام حفص عليه الرحمـة . وحضرته من كتب التجويد في الميدانية ، وشرح الجزرية لشيخ الإسـلام مرتين ، وللشيخ خالد الأزهري مرة . وقرأت عليه معظم شرحه على منظومته في التجويد المسمى باللطائف البهية . كل ذلك صباح الثلاثاء والجمعة ، ما عدا حصة القراءة من التنزيل العزيز ، فإنه صباح كل يوم .

« كنت أخرج من دار الأستاذ المذكور إلى دار شيخنا مسند الشام ، وعمدة فضلائها الأعلام ، الشيخ سليم بن ياسين بن حامد بن أحمد العطار ، لقراءة حصة من الكتب المعينة وقتئذ . وقد حضرته في شرح الشذور المصنف ، مع مراجعة الحواشي ، وابن عقيل ، وشرح القطر للفاكهي ، ومختصر السعد ، وجمع الجوامع ، وتفسـير البيضاوي ، والشنشوري ، مع مطـالعة حواشي كل . وكذا حضرته في حصص من حواشي البجيرمي على الاقناع ، والأربعين العجلونية وأسمعته الدور الأعلى . وحضرته في حصة وافرة من صحيح البخـاري رواية ، كل ذلك في داره داخل باب السلام .

« وسمعت منه مجالس من البخاري دراية ، في الجامع الأموي ، ليلة الثلاثاء والجمعة بين العشاءين . وفي خميس رجب وشعبان في التكية السليمانية سنين عديدة . وحضرته في كتب وافرة في المشهد المعروف الآن بمشهد الحسين في الجامع الأموي . وذلك في رمضان ، خاصة بعد العصر . فمنها حصة من الموطأ والشفـاء بتمامه ،

ومعظم مصابيح السنة ، والجامع الصغير ، والطريقة المحمدية ، وغيرها . وكتب لي إجازة عامة بجميع مرويات سنة إحدى وثلاثمئة وألف .

فصل

« ومن كبار مشايخي العلامة النحرير الشيخ بكري بن حامد بن أحمد العطار عم شيخنا المتقدم . حضرته في فنون متعددة منها : شرح الشافية للسيد عبد الله بتمامه ، وشرح العزي للسعد ، وشرح لامية الأفعال لبحرق ، وإيساغوجي وشروحه للفناري وشيخ الإسلام ، ومغني الطلاب ، والمقصود ، وشرح الشمسية للقطب مع حواشيه للسيد ، ومراجعة حواشيه للسيلكوتي . وحضرته في حصص من ملاجامي ، مع حواشي العصام ، ومغني اللبيب ، ومختصر السعد ، والتحرير في الفقه ، والشذور ، وحواشي السمرقندية في البيان ، وحواشي السنوسية ، والجوهرة في التوحيد . وسمعت منه حصة وافرة من البخاري ، ومعظم مسلم ، والموطأ ، وسنن أبي داوود . وابن ماجة ، والشمائل وغيرها . وأجاز لي إجازة عامة ، وكتبها في غرة محرم سنة اثنتين وثلاثمئة وألف .

فصل

« ومن أجلاء مشايخي صوفي عصره ، الأستاذ الجليل المحقق ، الشيخ محمد ابن محمد الخاني النقشبندي . قرأت عليه حواشي كتب كثيرة بالحرف منها : حاشية الخضري على الملوي على السمرقندية ، وحواشي الصبان على العصام على السمرقندية ، وحواشي ابن أبي شريف على العقائد ، ونصف حاشية الصبان على الأشموني ،

وحاشية الأمير علي عبد السلام بتمامهـا ، وقد قرأناها قراءة تحقيق وإتقـان ، وعلقت عليها بحمده تعـالى تقريرات ، وفي النية تجديدها لولا الاشتغال الآن بالأهم ، وهو خدمة التنزيل العزيز . وحضرته في حواشي عطية على شرح المنهج ، وفي حواشي ابن سليمان على شرح الحضرمية ، وفي حاشية الخضري على الشنشوري ، وحاشية عطية على شرح البيقونية في المصطلح ، وحاشية العطار على شرح المقولات ، وفي شرح جمع الجوامع ، مع مراجعة حواشيه ، وفي حاشية الصبان على شرح آداب البحث .

وسمعت منـه أبواباً كثيرة من البخـاري ، ومن شرحه للقسطـلاني ، ومن الموطـأ مع شرحه للزرقاني ، ومن سنن أبي داود مع حاشيته للسندي ، ومن سنن الترمذي .

وسمعت منه الأربعين العجلونية ، ومسلسلات ابن عقيلة . ولمهارته رحمه الله في فن التصوف قرأت عليه من كتبه لطائف الأعلام للقاشاني ، وشرح الفصوص للاّجامي ، ومواقف أستاذه الأمير عبد القـادر الحسني ثم الدمشقي ، وحصة من شرح مواقع النجوم ، وغير ذلك مما لم يحضرني الآن . وحضرته في كتـاب والده البهجة السنية في آداب الطريقة النقشبندية .

« وكان رحمه الله لقنني ذكر الطريقة النقشبندية ، ولازمت حلقته مدة ، ثم تركتها لأمرٍ ما .

« وأجاز لي إجازة عامة .

« ولم أنقطع عن زيارته ، وكان يتودد إلي ويعظمني ، خصوصاً في آخر أمره ، وكثيراً ما أتى بقصد زيارة الفقير وسيدي الوالد .

« وبالجملة فهو من أفضل أشياخي الذين انتفعت بمجالسهم ، وتأدبت بآدابهم ، واغتبطت بصحبتهم . وكان يحضني دائماً على تأليف رسائل في بعض مباحث علمية ، وأريته كثيراً مما جمعته فسُرَّ به . وقبل وفاته بنحو شهر كنت أنا وإياه والوالد العزيز في دعوة في قصر الأمير في دمر . كان ذلك خاتمة الاجتماعات اللطيفة معه رحمه الله تعالى وإيانا .

فصل

« ومن أشياخي وأساتذتي خال والدي ، العالم الفاضل ، والفقيه الكامل ، الشيخ حسن بن أحمد بن عبد القادر جُبَيْنَة ، الشهير بالدسوقي . وهو من أخص تلامذة سيدي الجد . حضرته في كتب فقهية ، وسمعت منه الشمائل ، والأربعين النووية . وأجاز لي إجازة عامة ، كما أجاز له سيدي الجد . وقد انتفعت بصحبة هذا الأستاذ ، وتهذبت بآدابه وإرشاداته ، ونوادره عن الأقدمين . وكان يحض على الأخلاق الحسنة دائماً ، ودواعي رقة الحاشيه ، وله لطائف كثيرة ، ومحاسن غزيرة رحمه الله تعالى .

فصل

وقرأت على مشايخ غير من تقدم ذكره ، إلا أنها قراءة تَحَلٍّ وصحبة . وأما الانتفاع ، فكان بمن سبق وجزى الله الجميع خيراً .

فصل

وقد أجاز لي اجازة عامة كثير من كبـار الشيوخ ، ممن هو في طبقة من تقدم وأعلى :

« منهم العلامة محمود أفندي الحمزاوي مفتي الشام ، وصاحب الآثار الشهيرة في الأنام . ترددت إلى داره مراراً ، وسمعت منه حديث الرحمة المسلسل بالأولية ، وأطلعته على لغز نحوي نظماً للجالقي ، وطلبت منه جوابه ، فكتب لي جوابه كذلك . وأجاز لي إجازة عامة .

« ومنهم الإمام المعمر طاهر أفندي بن عمر أفندي الآمدي مفتي الشام أيضاً . أجاز لي أيضاً إجازة عامة .

« ومنهم العلامة الفريد الشيخ محمد الطنطاوي الأزهري ثم الدمشقي . سمعت منه رسالة الأمير في فضل عاشوراء . وأجاز لي إجازة عامة بخط يده .

« وممن راسلني بالإجازة من غير الدمشقيين :

« الفاضل الصالح المربي السيد الشيخ محمد بن خليـل القاوقجي الطرابلسي ، من أفاضل طرابلس الشام ومعمريها ، وصاحب التآليف الشهيرة .

« ومنهم العلامة الكبير السيد نعمان خير الدين الألوسي البغدادي ، ذو الآثار الجليلة . استجزته من بلده بغداد ، فراسلني باجازة بديعة .

« واستجزت عدة فضلاء مشافهة وكتابة .

« والعمدة من أشياخي على من ذكرته هنا ؛ وفي شرحي للأربعين العجلونية المسمى بالفضل المبين .

فصل

« وقد صاحبت بحمده تعالى كثيراً من فضلاء العلماء ، وطالعت أنا وهم بعض المصنفات المفيدة ، وانتفع كل منا بالآخر بوجوه من المعارف الدقيقة :

« منهم الأستاذ الفاضل الأديب الجليل الشيخ عبد الرزاق أفندي البيطار .

« ومنهم نبيه أقرانه السيد أحمد بن السيد محيي الدين الحسني الجزائري ثم الدمشقي ، فقد كان لنا ولم يزل اجتماعات ودية ، ومجالس حبية ، نصرفها في المذاكرة في أجل المسائل ، وأدق المشاكل ، على محاورات ومراجعات بلطائف التحقيقات ، ولا ننقطع عن المزاورة والمواصلة ، وإن نأت بنا الدار فبالمراسلة .

فصل

« وقد حبّب المولى إليّ من حداثتي القراءة والمطالعة ، ونسخ الكتب ، وتأليف الرسائل ، فكنت تحدثاً بنعمة المولى أنصرف من دروسي ، وآوي إلى دارنا ، إلى محل مكتبتي على ما ذكرت ، وأذهب المولى بفضله عن عُبَيْده حب البطالة ، وصرف الأوقات سدى . فطالعت من كتب الأدب والتاريخ ما لا أحصي . حتى أتذكر أني في سن الخامسة عشرة من عمري أصابني مرض مكثت فيه نحو ثلاثة أشهر ، فصرت أنسلى بمطالعة بعض الكتب ، وجمعت في تلك الحالة كتاباً غريباً ،

مملوءاً من الفوائد واللطائف والنوادر ، والأبيات الرائقة . وكنت في صغري جمعت سفائن كثيرة من المرور على الكتب المتنوعة ، لو جمعت لغدت مؤلفاً حافلاً كبيراً ، يسامي الكشكول ، والكنز المدفون . هذا عدا عن الأوراق المنثورة في محافظي المتنوعة من الفوائد وتقريرات الشيوخ .

فصل

« وكان سيدي الإمام الوالد رضي الله عنه حينما يراني مواظباً على دروسي ومطالعتي يزداد في دعواته الصالحة للفقير ، وينظم في رضائه عني أبياتاً يشوقني في دوام الاجتهاد .

« وأما دعواته لي النثرية في مكاتباته فلا تحصى . وأعظم شيء عندي من جليل أدعيته قوله لي أغلب الأوقات : « ألله يرضى عليك كما رضي على الصديق » وفي جمل غيرها متنوعة كافأه المولى عني بخير الجزاء . آمين . » انتهى

* * *

وقد رأيت أن أثبت هنا هذا النص بكامله ، كما كتبه القاسمي بخطه ، لأني وجدت — فيما وجدت من الأسباب — أنه يتعلق بفترة من حياته ، لا يعرفها أحد معرفته لها . ولأن ما كتبه لا يمكن أن يزاد عليه أو أن ينقص منه ، خال من الحشو والتعقيد .

ولم يترك رحمه الله ، خلافاً لعادته ، تاريخاً لهذا الفصل من سيرته ، وإن كان يبدو أنه قد كتبه في عام ١٣١٧ هجرية . لأن فيه إشارة إلى أن والده ما

زال على قيد الحياة . ووالده قد انتقل إلى الرفيق الأعلى في ذاك العام . وفيه إشارة إلى أنه مشغول « بخدمة التنزيل العزيز » ، وقد شرع في هذا العمل الجليل في ذلك العام ، والعام الذي قبله على ما أوضح ذلك في محاسن التأويل . فهو إذن قد بدا له أن يكتب ترجمته بنفسه وله من العمر أربعة وثلاثون أو ثلاثة وثلاثون عاماً . أي في ميعة الصبا ، وريق الشباب . فالنص المنقول يوضح لنا أيضاً أسلوب القاسمي في سنه هذه ، بساطة في التعبير ، وبعد هذا التعقيد ، واجتناب لما ألف الكتاب في ذلك الزمان من التزام السجع المتكلف ، الثقيل على السمع والطبع .

على أن هذا النص يكشف عن نواح نفسية عميقة ، وسجايا عقلية أصيلة ، قد تحلى بها رحمه الله منذ نعومة أظفاره ، ولازمته حتى آخر حياته :

١ — ففيه اعتراف بالفضل لمشايخه الأول الذين أخذ عنهم مبادىء العلوم الأولية : قراءة القرآن ، وتجويده ، والخط ، والصرف والنحو والمختصرات الفقهية وما إلى ذلك .

٢ — وفيه إقرار بالمعروف لمشايخه الذين لقنوه العلوم المتداولة في عصره ، وتنقله بينهم خلال فترات النهار والليل .

٣ — وفيه تعبير عن ميله الفطري إلى الكتب والمطالعة والنسخ والجمع والتأليف .

٤ — وفيه أسمى معاني خفض جناح الأبناء للآباء .

٥ — وفيه تنويه بفضل مصاحبته الرفاق من العلماء والأدباء .

وهذا النص يكشف من ناحية أخرى عن أمرين خطيرين :

أولهما — أن شيخ الشام المرحوم الشيخ سليم العطار كان يقرأ صحيح البخاري رواية .

ثانيهما — أن شيخه محمد الخاني قد لقَّنه ذكر الطريقة النقشبندية ، ولازم حلقته مدة ثم تركها لأمر ما ؟ !

★ ★ ★

وفي هذا النص بعد هذا كله عبر — وأي عبر — لطلاب العلم في هذا الزمان ، الذين تهيأ لهم الكهرباء والتدفئة المركزية ، وحدائق الأطفال ورياضها ، ووفرة المطبوعات ، والانتقال بالحافلات أو السيارات الفخمة إلى المدارس ، وغير ذلك من وسائل المدنية الحديثة ، وأسباب رفاهها ونعمتها . ولعل الذي يقرأ هذا النص منهم تأخذه العظة — ولا أقول الإعجاب — من هذا العسر الذي كان يلازم طلاب العلم قبل قرابة قرن ، ولم يكن ذلك مانعاً لهم من المضيّ في الطريق ، مصممين على بلوغ الغاية :

فمعلم القرآن كان يلقنه للصبيان في حجرة قبالة الجامع .

ومعلم الخط كان قاطناً في تربة درويش باشا في القبة التي على الساباط جوار جامع الدرويشية على الجادة ، وبها كان يعلم الأطفال وغيرهم .

ومعلم مبادئ العلوم كان في مكتب في المدرسة الظاهرية في إيوانها القبلي .

وأجلاَّء الشيوخ يجمعون الطلاب في بيوتهم أو في الجوامع .

ولا بد لطالب العلم من أن يتنقل بين هذه الحلقات جميعاً ، وقد يكون بيته في أقصى المدينة وليس هنالك من وسائل المواصلات إلا الأنعام ، ولا يقتنيها عادة إلا الأغنياء . فالشيخ سليم العطار مثلاً يجمع الطلاب في داره في القيمرية ، ثم ينتقل ليلتي الثلاثاء والجمعة من كل اسبوع إلى التكية السليمانية ليقرأ صحيح البخاري . ولا بد للطلاب من هذا الانتقال ، ولو من أقصى المهاجرين ، أو أقصى الميدان . وقل مثل ذلك عن غيره من أجلاء العلماء ، وعن غير القاسمي من طلاب العلم .

هذا الصبر على حياة ملؤها الشظف ، والبعد عن الترف ، أنبغ طبقة من العلماء ، أعتقد أننا نفتقدها في هذا العصر ، الذي كاد يكون كل شيء فيه ميسوراً .

* * *

إقــراؤه

بعد أن فرغ القـاسمي من تدوين مراحل تلقيه للعلم ، أخذ يحدثنا عن بدء تلقينه للعلم ، وإمامته للناس في الصلوات الخمس بشكل راتب[1] قال :

فصل

« وفي نحو الرابعة عشرة من سنيّ الفقير ، طُلبت لإقراء بعض الطلبـة ، فشرعت في مقدمات بعض الفنون ، أتقوى بإقرائهـا . وقرأت وقتئذ بعد صلاة المغرب في جامع السنانية ابن قاسم على الغاية في الفقه مراراً ، وذلك بعد أداء فرض المغرب إلى قرب الساعه الواحدة ، وبعدها أتهيأ لحضور مجلس سيدي الوالد العام ، وكنت المعيد له ، ولم أزل على هذا الترتيب إلى سنة ١٣٠٣ » .

في هذه السن المبكرة في الرابعة عشرة ، يطلب بعض المبتدئين إلى القـاسمي الإقراء ، فيغتبط لذلك ، وينهض للمهمة منشرح الصـدر ، ولـكن لا يفوته أن يشير في أن ما طلب إليـه كان ذا فائدة مزدوجة : يعلم النـاس ما تعلم ، ويتقوى بتعليمهم .

---

(١) ص ٦

وكان من عادة الحكومة العثمانية انتداب بعض علماء الدين خلال شهر رمضان إلى الأقضية القريبة من دمشق ، لبث روح الفضيلة ، وتقوية دعائم الدين . ويقع اختيار أولي الأمر عليه في عام ١٣٠٩ لهذه المهمة فيقول في ذلك[1] :

فصل

« وفي سنة ١٣٠٩ ، في أواخر رجب ، دعينا إلى دار الحكومة ، الفقير وجماعة من أهل العلم ، وكان انتخبنا أعضاء مجلس الإدارة ، وذلك لإقراء دروس عامة في شهر رمضان في أقضية ولاية سورية . فذهبنا واجتمعنا بالوزير عثمان نوري باشا ، فتذاكرنا معه حصة مذاكرة خاصة ، وأفهمنا سر هذه الوظيفة . ثم انصرفنا ، وعين لنا راتب ذلك الشهر ألفي قرش .

« واخترت قضاء وادي العجم ، فذهبت من أول الشهر المبارك ، وبثثت الدروس العامة في أشهر قراه ، وصنفت في ذلك رحلتي المسماة (بذل الهمم ، في موعظة أهل وادي العجم) .

« ثم عيّنا في سنة ١٣١٠ أيضاً ، فاخترت قضاء النبك ، وقمت بالوظيفة في معظم قراه ، وصنفت في ذلك الرحلة التي سميتها (حسن السبك ، في الرحلة الى قضاء النبك) . ثم طلبنا في سنة ١٣١١ أيضاً ، فاخترت قضاء بعلبك . وكذا في سنة ١٣١٢ أيضاً سرت إليها . ثم كثر طالبو هذه الوظيفة فرفضتها الحكومة عندنا في الشام ، مع أن بها النفع العام ، لمن قام بها حق القيام » .

---

(١) ص ٧

وينتقل والده في عام ١٣١٧ هجرية إلى الدار الآخرة ، فتعطل حلقة الدرس العام الذي كان يلقيه بين المغرب والعشاء في جامع السنانية ' ويشعر الناس بهذا الفراغ ، فيرون في جمال الدين الرجل الذي ينقع الغلة ، و يصل الحلقة ، فيفزعون إليه ، فيقول في ذلك [1] :

« ثم بعد مضي أيام — على وفاة والده — صار جيران الجامع وقوامه يحثون الفقير على بداءة درس في الجامع ، مكان سيدي الوالد ، لإحياء البقعة ' وجمع شمل الناس فيه ، فاعتذرت بفقدان المفكرة والذاكرة ، لما دهمنا وحل بنا ، ثم ألحوا كثيراً ، وتوسلوا بمن لا يرد كلامه لدينا ، فعزمت على ذلك ، واستعنت بالقوي المالك ، وعينت لهم البداءة ليلة الأحد في ٣ ذي القعدة الحرام سنة ١٣١٧ واخترت قراءة كتاب رياض الصالحين ، لكون الجد كان قرأه في هذه البقعة ' وكذلك سيدي المرحوم ؛ وكونه كتاباً لم يؤلف نظيره في موضوعه . وقد نوَّه بانفراده في بابه الإمام المجتهد محمد بن المرتضى اليماني في كتابه ايثار الحق . فبدأته من أوله وأحب حضرة سيدي عمي الفاضل الكامل الشيخ محمد افندي القاسمي أن يدعو لحضور بداءته أعيان العصر وفضلاءه ، فدعاهم ، ولم يتخلف أحد إلا لعذر ، فممن حضر ليلتئذ شيخ العلماء ، ومقدم الفضلاء ، شيخنا الشيخ بكري افندي العطار ، ومفتي الشام الفقيه النبيه الشيخ صالح افندي قطنا ، ونخبة العلماء الشرفاء ، الفاضل السيد أحمد الحسني الجزائري أخي الأمير عبد القادر الحسني الجزائري ، والعالم الصالح الجليل الشيخ سليم سمارة الميداني ، والفاضل الفقيه

---

(١) ص ٢٤

الخطير الشيخ أبو النصر الخطيب ، وريحانة الأدباء الأجلاء الشيخ عبد المجيد أفندي الخاني ، وبهجة الأدباء اللطفاء الشيخ محمد بن محمد المبارك الجزائري ، والأستاذ الفقيه المعمر البركة الشيخ أمين البيطار إمام الحنفية بالجامع المذكور (السنانية) والمولى توفيق أفندي المنيني ابن المفتي السابق محمد أفندي المنيني ، والأديب الشريف السيد عبد الباقي الحسني الجزائرى . وسواهم من طبقات وسطى وصغرى . وممن كان دعي فلم يحضر لمرضه الأستاذ الشيخ عبد الرزاق أفندي البيطار ، وعُدْتُهُ في اليوم الثاني في صحبة صفينا السيد أحمد الحسني ، فوجدناه في الفراش .

« فحضر المتقدمون جميعاً بعد المغرب ، وانتظرت المفتي ، فجاء بعد مضي نصف ساعة ودقائق من أذان المغرب ، فقعدنا نحن وإياه حصة في بيت الساعات في الجامع المذكور . ثم دخلنا نحن وإياه إلى الحرم . فبعد أن جلسنا ، وقرأ أحد الحفاظ عشراً من القرآن الكريم ، أعاد الدرس أخي محمد قاسم خير الدين ، سلمه الله تعالى ، وبعد فراغه قرأت خطبة الدرس بعونه تعالى ، ثم قلت بعد أن تلوت شيئاً من خطبة رياض الصالحين هذه المقالة وهي :

« قد جرت عادة أسلافنا وأشياخنا المحققين ، قدس الله أرواحهم أجمعين ، أن يذكروا في مثل هذا المجلس سندهم لمؤلف مقروئهم ، وأن يذكروا بعض مشايخهم والآخذين عنهم ، والمجازين منهم ، تجديداً لذكرهم ، وطلباً للترضي عنهم ، والترحم عليهم . وإني مع قصر باعي ، وقلة بضاعتي ، ووفور انكساري ، أتأسى بهديهم ، وأقتدي بصنعهم تشبهاً بهم ، كما قيل :

إن لم تكونوا مثلهم فتشبهوا ... إن التشبه بالكرام فلاح

وأقول :

لولا التبرك ما جلست بمجلسٍ حلت به الفضلاء والكبراء
فلئن أصبت فمنهموا أو إن يكن خطأً وسهواً إنهم كرماء

فأقول متلطفاً على موائد عفوهم : إن من أعظم أشياخي عندي ، وآمنهم عليّ ، وأكثرهم حقوقاً لديّ ، سيدي وسندي والدي المرحوم ، أغدق الله على روضته سحائب الرضوان ، وأحله في أعلى فراديس الجنان ، وجزاه خير ما جزى والداً عن ولده ، ومرشداً عن مرشده . رب اغفر لي ولوالديّ . رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ، فقد قرأت لديه — عليه الرحمة — جملة كثيرة من فنون العربية ، وكتباً فقهية وحديثية وتوحيدية ، وقد أحسن تربيتي غاية الإحسان . ولم يزل يربيني في حجره ، ويغدق عليّ بما تصل إليه يد الإمكان ، فجزاه الله أحسن الجزاء وأتمّه ، ولقاه من النعيم الأخروي أعمه . »

ومضى بعد ذلك يذكر شيوخه الذين أشار إليهم في بحث مشيخته ، واحداً واحداً مع الاعتراف بفضلهم ، والتنويه بذكرهم ، والدعاء للأحياء منهم بالعمر المديد ، وللأموات بالرحمة ، إلى أن قال :

« ... ولنقتصر على هؤلاء الأساتذة الأخيار ، بوأهم المولى دار نعيم الأبرار . وإلا فاستقصاء من شملتني بركته وإجازته ، لا يسعه هذا المجلس .

« وأما أعلى سند للفقير إلى سيدنا النووي قدس سره ، مؤلف هذا الكتاب ، فهو روايتي لهذا الكتاب وسائر مصنفاته عن سيدي الوالد ، عن سيدي وجدي بركة عصره العلامة الشيخ قاسم . ولسيدي الجد أسانيد عديدة ، فإنه قدس سره

أخذ عن مسند الشام الشيخ عبد الرحمن الكزبري ، وهو من أجل أساتذته . ومن مشايخه أيضاً العلامة الشيخ سعيد الحلبي . ومنهم الامام الجليل السيد الشيخ محمد الدسوقي نسباً ، الدمشقي . ومنهم ولده العلامة السيد الشيخ صالح الدسوقي . ومنهم العلامه الشيخ ابراهيم الباجوري ، فإنه عام رحلته إلى مصر سنة ١٢٧٠ هـ استجاز منه ، فكتب له اجازة فخيمة ، ومن مشايخه العلامة الشيخ يوسف الصاوي المدني ، استجاز منه في إحدى حجاته سنة ١٢٦٦ ، وله أشياخ أخر .

« وأعلى إسناد له في هذا الكتاب ، وسائر مصنفات الامام النووي عن أستاذه جد جدتي السيد محمد الدسوقي المنوه به ، وهو يرويه عن أستاذه العلامة الشيخ علي السليمي الصالحي ، المترجم في تاريخ المرادي . وهو يرويه عن شيخه العارف بالله تعالى الشيخ عبد الغني النابلسي ، وهو يرويه عن الامام نجم الدين الغزي ، عن والده بدر الدين الغزي ، عن القاضي زكريا الأنصاري ، عن حافظ عصره أبي الفضل أحمد بن حجر العسقلاني ، عن الحافظ زين الدين عبد الرحيم العراقي ، عن علاء الدين العطار ، عن شيخه الامام النووي ، رضي الله عنه ، أحد الأفراد الأعلام ، المنعوتين بشيوخ الاسلام ، مشى على قدم السلف الأعيان ، وسار سيرة لم يختلف في كالها اثنان . وقد ترجمه التاج السبكي في طبقاته ، والأسنوي ، وابن شاكر في ذيله على تاريخ ابن خلكان وغيرهم .

ولد رضي الله عنه سنة ثلاثين وستمئة بقرية نوى ، وقدم به أبوه إلى دمشق ، وتوطنها للتعلم والتعليم ، ثم سار إلى بلده ، وتوطنها في آخر أمره لبعض البواعث ، وتوفي بها سنة ست وسبعين وستمئة ، عن ستة وأربعين عاماً .

قال السبكي في طبقاته : وأنا إذا أردت أن أجمل تفاصيل فضله ، وأدل الخلق على شرف مقداره ، لم أزد على بيتين سمعتهما من الشيخ الوالد — يعني والده — التقي السبكي ، لما سكن في قاعة دار الحديث الأشرفية سنة ٧٤٢ هـ ، وكان يخرج في الليل إلى إيوانها ، فيتهجد تجاه الأثر الشريف ، ويمرغ وجهه على البساط الذي كان الامام النووي يجلس عليه وقت التدريس وينشد :

وفي دار الحديث لطيف معنى ... على بسط بها أصبو وآوي

عسى أني أمسّ بحُرّ وجهي ... مكاناً مسّه قدم النواوي

نفعنا المولى بعلومه ، ووفقنا للمشي على منهج الاستقامة بفضله وكرمه آمين .

والحمد لله رب العالمين .

* * *

إمامته للناس

أمّ النـاس للمرة الأولى ، وله من العمر عشرون سنة (عام ١٣٠٣) في جامع العنّابة الكائن في محلة باب السريجة ، من أحياء دمشق [1] .

ومن الجدير بالذكر أن أهل الحي طلبوا منه عام ١٣٠٧ الاحتفال بمولد الرسول الأعظم ، وأن يدعو لهم شيوخ المدينة المعروفين ، فتلا على الحـاضرين في تلك الليلة المباركة مختصر مولد السيدة عائشة الباعونية [1] .

وموضع الملاحظة هنا كما لا يخفى اختياره لمولد الباعونية ، مع أن المألوف في ذلك العصر ، وحتى هذا الزمان ، الموالد التقليدية التي حوت كل شيء ، إلا سيرة الرسول الأعظم .

وبقي في واجبه هذا الذي انتدب نفسه إليه يؤم النـاس في جامع العنابة ، لا يبغي إلا الطاعة وثواب الله ، إلى أن توفي أبوه (١٣١٧) فأم النـاس غداة الوفاة في جامع السنانية ، مكان أبيه الراحل [2] .

---

(١) ص ٦

(٢) ص ٢٤

محنة عام ١٣١٣ المسمّاة بحادثة المجتهدين

وفيما بين الفترتين ١٣٠٣ — ١٣١٧ وقعت أعظم حادثة في تاريخه ، وكان لها أكبر الأثر في توجيه تفكيره ، وفي طريقته في التأليف ومواعظه ودروسه العامة .

لا بل يمكن أن تعتبر هذه الحادثة أعظم حادثة تتعلق بالحياة الدينية والفكرية في ذلك العصر .

ولقد عرفتَ من البحث الذي قدمناه عن (عصر القاسمي) ما كان يرين عليه من جمود ، وما وضع فيه على الأفكار من قيود ، وما فَرضت سياسة الدولة من غلّ للحريات .

واتفق أن أخذ فريق من علماء دمشق عام ١٣١٣ هـ يأنس بالاجتماع والمذاكرة ، فابتدأت الحلقة بعدد محدود ، وانتهت بعشرة من الأصفياء ، جمع بينهم حب العلم ، والاخلاص له ، وحرية العقل والبحث . ولا تخلو الدنيا من حساد ومفسدين ، يسعون للأذى ، ويختلقون ما لم يكن . فاندس بين هؤلاء الأصفياء من ليس منهم ، والغريب أن القاسمي لم يسمهم بأسمائهم ، وأخذوا ينشرون بين الناس أخبار الجماعة ، متزيدين فيما وقع ، ومختلقين ما لم يقع ؛ حتى

وصل نبأ اجتماعاتهم إلى الوالي ، فذاكر المفتي في موضوعهم يوم انعقاد مجلس الادارة ، فلم يكن من المفتي إلا أن عقد مجلساً خاصاً في المحكمة الشرعية لمحاكمتهم ، ودعاهم إليه بواسطة الشرط .

أما المدعوون للمحاكمة ، فقد كانوا أولئك العلماء ، الذين ستقرأ أسماءهم خلال البحث ، وأضيف إليهم شيخان معروفان ، هما : الشيخ بدر الدين المغربي ، والشيخ توفيق الأيوبي .

كانت المحكمة التي عقدت محكمة استثنائية — كما اصطلح اليوم على تسميتها — وكان يرأسها القاضي . فأما الوشاية التي قدمت إلى الوالي فخلاصتها :

١ — ان الشيخ بدر الدين المغربي قد جهر في دروسه العامة بأمور هي :

آ — تحريم الدخان .

ب — ذم ترك العمائم .

ج — التشنيع على الحيل في الربا التي تجري في المحاكم .

د — ان الخلافة صارت ملكاً عضوضاً .

٢ — وان الشيخ توفيق الأيوبي قال بنجاسة أعيان المشركين .

٣ — وان الباقين (وهم الجماعة) عدّوا أنفسهم مجتهدين ، ويجتمعون على قراءة الحديث ، ويطلبون الدليل على أقوال الفقهاء .

والذي يتضح من هذه التهم أن أخطرها ما نسب إلى الشيخ بدر الدين ، من أن الخلافة صارت ملكاً عضوضاً . ومع ذلك فإن الشيخ لم يحضر ، ولم

يبـد من المعذرة أكثر من أنه مشغول ، فلم يمسوه بسوء ، ولم يأتوا به إلى المحـكمة قسراً .

وأما الشيخ عبد الرزاق البيطار فقد تمارض ولم يحضر .

وأما السيد أحمد الحسني فلم يُدْعَ إلى المحاكمة ، وهو أحد أفراد الجماعة ، لأنه أخ الأمير عبد القادر .

قال القاسمي : « فانظر إلى عدولهم عن الانصاف ، وقصدهم بالايذاء من رأوهم من الضعاف » معللاً ذلك بوجاهة الأمير وأخيه لدى الدولة الفرنساوية ! !

وأما الشيخ توفيق الأيوبي فاستجوبوه عن التهمة الموجهة إليـه ، ثم أطلقوا سراحه .

وأما المحاكمة الجدية ، فقد بدأت باستجواب القـاسمي ، وسؤاله عن التهمة الموجهة اليه وهي :

— إنكم تجتمعون على تفسير القرآن الـكريم والحديث برأيكم ، وتردون على الأئمة المجتهدين ؟

— هل قلتم بطهارة الخمر ؟

— هل وضعتَ حاشية على كتاب الشعراني : كـشف الغمة ؟

— هل قلت لرجل استفتاك : خذها على مذهبي (الجمالي) ؟

وبعد أن أجاب على النحو الذي ستراه فيما دونه القاسمي نفسه قال له المفتي :

« ما لـكم ولقراءة الحديث ؟ ! يلزم قراءة الـكتب الفقهية ، والحجر على قراءة الـكتب الحديثية والتفسيرية ! !

أُخرج القاسمي بعد استجوابه ، ووضع في حجرة خاصة ، ثم أدخل الباقون ، ووضع كل واحد منهم في حجرة مستقلة بعد الانتهـاء من استجوابه . وأطلق سراحهم جميعـاً ، إلا القاسمي ، فإنه اقتيد إلى دائرة الشرطة ، موقوفـاً ، على ذمة المفتي .

لاحظ القاسمي أن القاضي ، وهو رئيس المحـكمة ، كان صامتاً ، وأن المفتي هو الذي كان يدير الجلسة . وهو الذي يوجه التهمة ويستمع الجواب عليها .

والظاهر أن القاضي كان رجلاً تركياً تقياً ، فلم يجد في التهم ما يدعو إلى أية ملاحظة أو مؤاخذة ، فأطرق صامتاً ، ولم يكد المجلس ينفض ، حتى قضى سهرته عند الوالي ، وأنبأه أن هؤلاء العلماء مفخرة دمشق ، وليس في سلوكهم ما يغضب الدولة ، فأمره بالإفراج عن القاسمي ، فأفرج عنه في اليوم التالي بنفسه ، واعتذر إليه ، بعد أن دام توقيفه عشرين ساعة .

وسترى أن القاسمي كان في تسجيل هذه الحادثة ، على خلاف عادته ، حاد اللسان ، لذلك مهد لها بقوله تعالى : (لا يُحِبُّ ٱللهُ ٱلْجَهْرَ بِالسّوءِ إلاَّ مَنْ ظُلِمَ) . ومرد ذلك في نظري إلى عاملين اثنين :

أولهما — أن وقع الظلم أليم على النفوس ، وأن محاكمة الجـاهل للعالم غذاء تَضْوىٰ به الأجسام .

وثانيهما — أن القاسمي كان في شرخ الشباب ، لم تتجاوز سنه الثلاثين .

وفي يقيني أن هذه الحادثة كانت أعظم حوادث العصر ، فلم يكن في البلاد سياسة ، ولا أحزاب ، ولم يشع نور الحرية ، ولا يعرف الناس إلا أن الخـلافة

إسلامية ، وأن شرع الله يؤخذ عن مذهب أبي حنيفة .

ولم يكن اقتياد عشرة من علماء العصر إلى محاكمة استثنائية أمراً عادياً ، وإنما كان من الأمور الاستثنائية التي ينبغي أن تشغل الرأي العام ، على ضعفه ، وأن تجعل من المحاكمة حديث الناس .

ومن الواضح البين ، أن القاسمي وحده كان مقصوداً من بين الجماعة ، فاستجوابه لا يشبه استجواب الآخرين ، وانفرد من بينهم بكرامة السجن .

أضف إلى ذلك أن ما أسند إليه لم يكن فيه أي طابع سياسي ، بينما نرى أن ما أسند إلى الشيخ بدر الدين كان يهز الدولة ، ويقيمها ويقعدها ، وعلى الرغم من ذلك فلا يلاحق ، ولا يكره على المثول أمام المحكمة .

وإذا كان خصومه قد اعتقدوا أنهم يستطيعون أن يفلّوا من عزمه ، وأن يثنوه عن قصده ، فقد اخطؤوا . ذلك بأن القاسمي قد اشتد قناعة بصحة مذهبه ، ومضى فيه بعزيمة أقوى ، وإن كانت هذه الحادثة قد تركت أثراً واضحاً في طريقته في التأليف ، وفي الإصلاح ، كما سترى ذلك في موضعه من هذا الكتاب .

ولندع القاسمي يتحدث بنفسه عن هذا الموضوع الخطير قال رحمه الله [١] :



---

(١) ص ١٠

ذكر محنة الفقير وبعض علماء الوطن سنة ١٣١٣ المسماة بحادثة المجتهدين

« قال الله تعالى في كتابه العزيز : (لا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِالسّوءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إلاّ مَنْ ظُلِمَ) الآية .

« فتأمل أيها اللبيب في هـذه الآية الشريفة ، لتعذرنا فيما نتلوه عليك من غرائب هذه الحادثة الطريفة ، فإنها حادثة خفّت فيها أحلام أكابر زماننا المتأخرين ، الذين هم فضلة السادة المتقدمين .

رأيتُ الدهر يرفع كل وغد ويخفض كل ذي شيم شريفة
كمثل البحر يغرق فيه حيٌّ ولا ينفك تطفو فيـه جيفة
أو الميزان يخفض كل واف ويرفع كل ذي زنة خفيفة

وذلك أنه يوم الجمعة العاشر من شعبان سنة (١٣١٣) وردت علينـا رسالة من دائرة الحـكومة مضمونها أن يحضر يوم السبت إلى المحـكمة هؤلاء الأفاضل وهم :

الشيخ عبد الرزاق البيطار ، والشيخ سليم سمارة ، والشيخ بدر الدين المغربي ، والشيخ توفيق أفندي الأيوبي ، والشيخ أمين السفرجلاني ، والشيخ سعيد الفرا ، والشيخ مصطفى الحلاق ، والفقير جامع الـكتاب .

وكان قد وشى على هؤلاء الجماعة ، من أضاع عمره في اللهو وقلة الطـاعة ، ومن نقلة الغيبة والنميمة ، وشيمته كل صفة ذميمة ، فذهب إلى والي الشام عثمان نوري باشا ، ووشى له عن الجماعة المنوه بهم ما شاء ، فقال له عن الشيخ بدر الدين

إنه قرر في درسه بعد الجمعة في الأموي على رؤوس العالمين، تحريم الدخان، وذم ترك العمائم، وشنع على الحيل في الربا التي تجري في المحاكم، وكون الخلافة صارت ملكاً عضوضاً، وغير ذلك مما نقله ذلك النمّام، عن هذا النحرير الهمام.

وأما الشيخ توفيق أفندي الأيوبي فوشوا عليه بأنه تكلم في درسه بين العشاءين في الأموي بنجاسة أعيان المشركين، وغير ذلك مما لفقوه من المين.

وأما بقية الجماعة، فوشوا عليهم بأنهم عدّوا أنفسهم من المجتهدين، وأنهم يجتمعون على قراءة الحديث الشريف، ويريدون أن يستنبطوا منه كل معنى شريف، وأنهم صاروا يتذاكرون في أقوال الفقهاء، ويبحثون فيها ويتطلبون الأدلة على تلك الآراء، إلى غير ذلك مما نسبوه إليهم.

ولنذكر أول سبب هذا الاجتماع، الذي شاع نبؤه في دمشق وذاع، وذلك أن صفينا الفاضل الحسيب والنحرير النسيب، السيد أحمد الحسني أخا ذي الفضل الباهر، والمكرمات الشهيرة والمآثر، الأمير السيد عبد القادر الحسني الجزائري ثم الدمشقي قدس سره أحب يوماً أن يزور كلاً من العالمين الشهيرين، والفاضلين الكبيرين، الشيخ عبد الرزاق أفندي البيطار، والشيخ سليم سمارة، حفظهما المولى الغفار، فأشار عليّ السيد أحمد المذكور، أن أكون رفيقاً له في هذا المسير، وكان لنا عادة في زيارتهما، والتأنس بطلعتهما، وهما لا يقطعان مواصلتنا، ويحسنان مكافأتنا، وبيننا من الود ما لا يحتاج إلى تكلف، ولا يشوبه تعسف ولا تصلف، فسرنا لزيارتهما المشكورة، وكان ذلك في جمادى الثانية من السنة المذكورة، فبدأنا أولاً بزيارة الشيخ سليم سمارة، وفي ظاهر باب المصلى عند جامع صهيب

من الميدان كان مشيداً داره . فلما قضينا زيارته سار معنا لقصد الشيخ عبد الرزاق البيطار ، وعند جامع الدقاق كانت داره المعمورة الأقطار .

فلما اجتمعنا شكونا جميعاً تنائي الديار ، التي يقل بسببها اجتماع الاخوان الأخيار ، وقضينا معظم النهار في محاضرة لطيفة ، ومباحث علمية شريفة ، ثم أحببنا أن نعين يوماً في الاسبوع ، تجتمع به هذه الرفقة وتؤنس به الربوع ، وتدور النوبة فيه بين الجماعة ، ولا يتأخر أحد عن الميعاد ساعة . فتم الرأي على أن يجتمعوا أولاً عند الفقير ، فحضروا إلى حجرتي في جامع العنابة ، الكائن في باب السريجة ، صباح الأربعاء ثاني رجب من السنة المذكورة ، وهم الشيخ عبد الرزاق البيطار ، والسيد أحمد الحسني ، والشيخ سليم سمارة ، وعزهم الشيخ مصطفى الحلاق ، وكان بلغه ما حصل عليه الاتفاق . وكان مع الجماعة حاضراً أيضاً بعض تلامذة الفقير ، فجلسنا إلى الظهر على أنس كبير ، ومذاكرة شهية ، ومحاضرات بهية . ثم دعا جماعتنا يوم الأربعاء الذي بعده الشيخ مصطفى المذكور ليجتمعوا عنده ، وزاد معهم سيدي الوالد الماجد ، وغيره من الأماجد ، فجاؤوا على ميعادهم ، وحظوا من دواعي السرور بمرادهم . ثم دعاهم حضرة السيد أحمد المتقدم ذكره أن يأتوا داره في الأربعاء الآتية ، فوافوا جميعاً وزاد بعض أصدقائه ، وحصلت للجميع المسرة الوافية . ثم دعاهم في الأربعاء بعدها الشيخ سليم سمارة ، فلبوا دعوته بغاية البشارة ، وكان دعا صفييه الفقيهين الكاملين الشيخ أمين السفرجلاني ، والشيخ سعيد الفرا .

وبينما نحن عنده إذ قدم علينا اثنان من الوجهاء ، ممن يفسدون في الأرض ،

ودأبهم الفحش والنميمة والبذاء ، فقعدا يتلقفان أبحاث إخواننا ويخزنانها ، ثم جادل أحدهما بعض فضلاء الإخوان ، فانتدبت لقمعه وأنه ليس من فرسان هذا الميدان . وبعد انصرافنا دعانا قبل الأربعاء أحد أدباء الميدان ، وعين يوماً توافيه لداره الإخوان . فأجابوا وما تأبوا ، وزاد معنا شيخنا العلامة الشيخ بكري أفندي العطار فحضر وآنس تلك الديار . ولما علمت جماعتنا أن أمامهم أدواراً آتية ، وأن المدة ليست قريباً متناهية ، قالوا : الأولى أن نطالع كتاباً نشغل به مجلسنا ، نزداد بمراجعته علماً يكمل أنسنا . وغب المذاكرة اتفقوا على كتاب كشف الغمة ، عن الأمة ، للعـارف الرباني ، الشيخ عبد الوهاب الشعراني ، قدس الله سره ، وأناله رضوانه وبره . فبدأنا بقراءته عند هذا الأديب . وكان القارىء من الإخوان الأستاذ الشيخ عبد الرزاق أفندي البيطار ، لما أنه أكبرنا سناً ، وأفصحنا لساناً . وبدا لي وقتئذ أن أكتب حاشية على كشف الغمة أخرّج أحاديثه ، وأشرح بعض معانيها . ثم دعاهم يوم الأربعاء الأستاذ المنوه به ، وزاد في الدعوة بعض أخصائه ، وأخاه العالم الفاضل الشيخ عبد الغني البيطار ، فأكملوا يومهم في غاية النشاط ، ونهاية الانبساط . وكانوا بحثوا ذلك اليوم في دليل نجاسة الخمر ، وأحبوا تحقيق هذا الأمر ، وتذاكروا في مسائل سواها ، وأفكارهم مطلقة في مسراها ، لا يروقهم إلا التحقيق ، ولا يقنعهم إلا البرهان الواضح مع التدقيق .

واتفق أن حضر يومئذ رجل ينتمي بزيه للعلماء ، بيد أنه مَشّاء بنميم ، عُتُلّ زنيم ، فعد عليهم أبحاثهم وأحصاها . وبعد انفضاض الجمع قلب موضوعها في المجالس وأفشاها ، فعزز هذا السفيه أخويه السابقين ، وأضحى ثالثهم ، وتعاونوا في الجامع

على أن ينشروا مبـاحثهم ، ففشا أمر اجتماعنا وانتشر ، وطـار صيته في أقطار دمشق وانتشر ، ولقبوه جمعية المجتهدين ، ونسبوا مذهبهم إلى الفقير ، وقالوا : المذهب الجمالي ، وصار إناء كل إنسان ينضح بما فيه عليهم ، ويرى مرآته فيهم ، ويحكم بطوية نفسه عليهم . ثم دعانا الشيخ أمين الـفرجلاني ، ودعا العـلامة مقدم علماء الشام الشيخ بكري العطار ، فحضر معنا ضحوة ذلك النهار . وقصد بدعوته أن يطلعه على هذا الاجتماع ، ويريه هل يرى فيه ما ينكره سليمو الطباع ؟ فلم ير في مباحثنا ما يستنكر ! بيد أنه قال : قد ذاع صيتكم بالاجتهـاد وانتشر . فقلنـا : أين الاجتهاد ونحن على ما ترى ؟ وهل نباهة المرء وحرية أفكاره تعد نكراً ؟ وانشرح الشيخ المنوه به لجمعنـا أعظم انشراح ، ودعاه أحـد الإخوان فوعده أن يباكر في الصباح .

ثم لم تشعر الأصحاب إلا والقضية صارت لدى الحاكم ، نمَّ بها بعض من يتشوف للمظالم ، وقلبوا على الجماعة ، ونسبوا لهم عجـائب الأمور ، وأخبر النمّام الوالي بمـا نقله عن الشيخ بدر الدين ، وضم إليـه جماعتنا ، وأنهم رفضوا آراء الأقدمين . وغير ذلك بما رشح من إنائه القذر ، وسنح لفكره الـكدر . ثم لما حضر المفتي المنيني مجلس الإدارة ، قال له الوالي : ألم يبلغك ما شاع عن هؤلاء الأشياخ ؟ فلم يظهر له أنـكاره ، وأبدى تغيظه على هؤلاء الأعـلام ، مشياً مع رضىٰ الحاكم وحفظاً للمقام . فتذاكر أهل المجلس في إحضارهم جميعاً للمحكمة الشرعية ، واستنطاقهم عن المسائل التي يتباحثون عنها في هذه الجمعية ، وكتبوا أسماءهم أجمعين ، وأمر البوليس أن يخبرهم بحضورهم للمحكمة الـكبرى آمنين . وعينوا عقـد مجلس كبير رئيسه القاضي مكي بك أفندي ، وأعضاؤه المفتي وأعوانه من المتنفشين .

وكان الوالي حنق على الشيخ بدر الدين ، لبثه تلك المقالات على ملأ السامعين .
وظن الوالي أنا عصبة في هذا الشان ، وأنا متعاضدون على ما لا يناسب سياسة الأوان . فاجتمعت يوم السبت في ١١ شعبان هيئة المجلس المشكل من فضلات الأعيان ، وأتوا بالبواليس والشرط . وفي زعم المفتي أن الجماعة سينالهم أسوأ شطط .

فحضرت جماعتنا على الميعاد ، ولم يتخلف إلا الشيخ عبد الرزاق البيطار ، والشيخ بدر الدين . فأما الأول فقد أظهر أنه مريض قبل أيام وأقام في الفراش بينما ينتظر بماذا يقضى على الأقوام . وكان أسرّ إليه أحد خاصته بأن في نية الحكومة تكديراً لجماعته ، فتخلص بالتمارض (كذا تحققته أخيراً) ، وكنت أظن أولاً أنه مرض قطعاً . وكنا سهرنا عنده ليلتئذ وشاورناه عن هذا الحضور ، فقال : اذهبوا ، أليس السؤال إلا عن حالنا المشهور ؟ وما في مذاكرتنا ما ينكر ، أو يعترض على مسائلها المعشر . فلما ذهب إليه البوليس وجده في الفراش مقيماً ، فشرح عليه أنه مريض ليس سليماً . وأما الشيخ بدر الدين فسار إليه البوليس لما تأخر عن الميعاد ، فأظهر له أنه الآن لا يمكنه الحضور لأمور ، ثم أعادوه إليه ، فأصر على أنه مشغول ومعذور ، وأنه يكتب ما وعظه إن أحبوا الآن بكتاب ، يرسله للمجلس المذكور فينظروا الجواب ، فأمهلوه لوقت آخر ، واكتفوا بمن حضر . وأما حضرة السيد أحمد الحسني الجزائري فإنهم لم يطلبوه بالكلية ، لما علموا من وجاهة عائلة أخيه عبد القادر لدى الدولة الفرنسوية . فانظر إلى عدولهم عن الإنصاف ، وقصدهم بالإيذاء من رأوهم من الضعاف . وأما حضرة والدي الجليل فاكتفوا بابنه الفقير ، وحمى المولى سمو قدره الخطير . وأما بقية جماعتنا فحضروا . وقعدنا في جامع المحكمة ننتظر الخلوص من هذه المظلمة . فبعد أن صلينا في الجامع المذكور الظهر ، وإذا

بنائب التزكية مرسلاً لطلب الفقير أولاً للحضور للمجلس في قاعة القاضي الكبير ، فدخلت معه على هـذا المجلس ، الخالي من النصير والمؤنس ، وسلمت عليهم ، وقعدت بلا مبالاة مني إليهم ، فإذا هم مهيئون سجلاً للاستنطاق ، مملوءاً من الاختلاق ، مرتباً على أسئلة ملبسة ، من أخبار مدلسة .

فقال المفتي لأحد كتاب المحكمة — وقد أعطي ورقة المسائل المعلمة — : سلهُ ، فقرأ عليَّ من الورقة أولاً ما ملخصه : بناء على الأخبار الواصلة إلينـا عنكم أنـكم تجتمعون على تفسير القرآن والحديث برأيكم ، وتردون على الأئمة المجتهدين ، فهل صدر ذلك منكم ؟ فقلت لهم : إننا نبرأ إلى المولى من ذلك ، ومعاذ الله أن نسلك هذه المسالك ، ثم قالوا : ما هذه الجمعية ؟ فذكرت لهم مبدأها بما مضى في الكيفية . فقام مفتي الحنفية وقعد ، وأبرق في المجلس وأرعد . وجمجم وبعبع ، وأبدى لؤمه ، وأظهر شؤمه ، وقال : قلتم بطهارة الخمر ، وشاع عنكم ذلك ، فما هـذا الأمر ؟ فقلت إنا ننظر مرة في دليل نجاسة الخمر ، ثم قلت له : وإن لي رسـالة سميتها « تنبيه الغمر ، في رد شُبه طهارة الخمر » وها هي معي ، فطلبها ، فناولته إياها ، فتأملها ومر على معظمها ؛ أقول : قد أحرقتهـا بعد ذلك ، لأني لم ارتضها ، أسوة بما رجعت عنه . ثم قال المفتي : بم كنتم تتذاكرون ، وعمّ كنتم تبحثون ؟ فقلت : إما في معنى حديث ، أو أثر ، أو آية قرآنية ، أو في مسألة فقهية أو أدبية ، تنويراً للفهم ، على عادة مجالس أهل العلم . فقال : بيّن ما به تذاكرتم ، وما عنه تباحثتم . فقلت : مسائل عديدة لا تحصى ، من غرة رجب إلى الآن فكيف تستقصى . ثم قال : بلغنا أنكم تطالعون كتاب كشف الغمة للشعراني ، وأنك وضعت عليه حاشية تبين فيها ما تجتهده من المعاني ، فقلت : أما الكتاب

فنطالعه لأنه من كتب الحديث ، ولا يزال يقرؤه أئمة التحديث . وأما الحاشية فكنت علقت على أوائله حل بعض ألفاظ لغوية ، أو ضبط كلمات خفية . فقال : ما لكم ولقراءة الحديث ؟ وعزز بعض مجالسيه هذا القول الخبيث ، بأنه يلزم قراءة الكتب الفقهية ، والحجر على قراءة الكتب الحديثية والتفسيرية ، ظناً منه أن العلماء يمتثلون أمره ، فقبح الله فكره ، وأخمد ذكره ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره . ثم قال : بحثتم في حديث من قال (أنا مؤمن فهو كافر) فقلت : نعم فقد استشكلنا معناه ، ثم وجدنا الغزالي في الإحياء أماط اللثام عن وجهه السافر . فقال : شاع ذلك عنكم في الأنام ، وتناقله أهل الشام — وتربّد وجهه واصفر ، وتغير واكفهر . وأعضاء المجلس منهم الساكت ، ومنهم المعين للسائل الماقت . هذا والقاضي منحن وساكت ، وعن هذه المسائل المضحكات صامت — ثم قال لي المفتي : إنك قلت في جواب مسألة : خذها على المذهب الجمالي ! فقلت : لا أتذكر أنه صدر مني ذلك في حال من أحوالي . فقال : عندي على ذلك شاهدان ، يثبتان هذا الشان . فقلت له : هذا افتراء وتزوير ، فالحكم لله العلي الكبير . فقال : أحد الشاهدين أبو زوجتك . فقلت له : إنه متوفى من نحو من عشر سنين — يعني وكفى ذلك تكذيباً لمقالتك — ثم خاض في مسائل لم أتذكرها بعد . وثرثر وبربر ، وكلح بوجهه وبسر ، وكاد يطير مع بنات نعش ، وحاص حيصة حمر الوحش . ثم أذن لي بالانصراف . فخرجت من القاعة ، وأُدخلت لحجرة في المحكمة بين برانيها وجوانيها . وكان بها ابن المفتي وبعض الوجوه ، فجلست معهم حصة ، ثم قال لي البوليس : تفضل ، فرافقني مع عسكري في المسير إلى دائرة البوليس ، وأدخلوني على قصر رئيسهم ، فدخلت

عليه ، فرحب بي ، وسألهم عن السبب في إحضاري إليه فأجابوه بأن المفتي حكم بذلك عليه ، وأن يوقف عندكم وقتياً ، حتى يتضح الأمر جلياً ، فقعدت وأنا أتأمل في هذه القضية ، وأقول : هل يعدّ بحثنا في المسائل الدينية ذنباً عند مفتي الحنفية ؟ فإنا لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . ويغفر الله للقائل :

لا تعتب الوغد اللئيم إذا أسا	واصبر على مر الإساءة والأسا
لا ذنب إلا للزمان فقد بغى	حتى دعا الأذناب أن تترأسا
زمن يؤخر رب كل شهامة	ويقدم السفهاء أن تتحمسا
زمن به ذل الأسود كما به	عز الكلاب جراءة وتفرسا
زمن بنى بيت الكمال على شفا	جرف وبيت النقص شاد وأسسا
زمن تنكّر كل معرفة به	أو ما ترى عَلَمَ العلوم منكسا

هذا ما كان من أمر الفقير .

ثم بعدُ أتوا بالشيخ مصطفى الحلاق إلى مجلس الجماعة ، وسألوه عما سئلت عنه تلك الساعة ، فقلب الأمر إلى المجون ، وقال لهم : كنا نجتمع على البطون ، وليس في أحد منا أهلية لما بلغكم عنا ، وأوصيكم بوالدتي إذا في الحبس بتنا ، فإنه ليس لها من يسأل عنها غيري ، وهي الآن في البيت وحدها تنتظر عاقبة أمري . فضحك بعض أهل المجلس عدا المفتي ، فإنه سأله عما سألني عنه ، فأخذ يحاوله بمضحكات منه ، ثم قرعه ووبخه وهدده ، وأمر أن يوضع في حجرة بالمحكمة وحده ، فأخذوه إليها ، وحرسوه لديها .

ثم أتوا بالأستاذ الكبير الشيخ سليم سمارة ، ولم يراعوا سنه ولا مقداره ، فسألوه فأجاب ، ونطق بالحق والصواب ، وقال : والله ما في هذا المجتمع ما ينكر شرعاً ولا عرفاً ، ما هو إلا مذاكرة في مسائل ، ومراجعات على حل مشاكل ، وتزاور وموالاة ، وتعاطف وتحابّ في الله . فأخذ المفتي يقرّعه ويقول : أنت رجل مسنّ كبير ، فكيف انخدعت ولم تشفق على قدرك الخطير ؟ فقال له : وهل من اجتماع العلماء من باس ، لا سيما إذا ضمَّ مذاكرة تفيد الجلاس ؟ فقال له : أما بلغك ما تواتر عنكم من الاجتهاد ، وانتشر ذلك بين العباد ؟ ثم قال له : ما تلك الحاشية التي كتبها فلان — يعنون الفقير — ؟ فقال لهم : هي في حل ألفاظ لغوية ، أو توضيح جملة خفية . فقالوا له : إذن ثبت أنه يكتب حاشية على الكتاب ! فقال لهم : نعم ، وما أبدى لهم من ارتياب ، وتالله ما بها ما ينكر ، ففيم هذا التهويل أيها المعشر ؟ وبعد مسائل وكلام ، أمر به أن ينصرف إلى حجرة أخرى ، من حجر المحكمة الكبرى .

ثم أتوا بالشيخ سعيد الفرا ، فدخل المجلس ودموعه أجرى ، وبدأ بتقبيل يد المفتي وبعض الشيوخ ، ولم يكن له في ذلك المقام رسوخ . وغب أن سئل أقسم بأنه ما عنده خبر بهذا الحال ، وأنه اجتمع مدعواً مع أولئك الرجال ، وتبرأ بالأيمان من أن يكون له ميل إلى ما يخالف المذاهب ، وقد شرق بدموعه ، وتململه لديهم كان من الغرائب . فعنفه المفتي بالكلام . ورحمه بعض الحاضرين ، وكان ترجاه الشيخ سعيد في صباح ذاك النهار برجاء متين ، فقال مساعده للمفتي : هذا ليس من الجماعة ، ولا من أهل تلك الإشاعة . فأمر به إلى حجرة في المحكمة أيضاً .

ثم أتوا بالشيخ أمين السفرجلاني فسألوه عن هذا الحال ، فصدق في المقال ، وأخبرهم بأنه اجتماع على مذاكرات حسنة ، في مسائل مستحسنة . ثم قال لهم : وها شيخنا الشيخ بكري أفندي العطـار قد حضر في بيتي ، وشاهد أن ليس في جمعنا إنكار . فقـال له المفتي لا تذكر الشيخ في هذا المقام ، فإن أخبـاركم قد شاعت في نوادي الشـام . وبعد محاورته معهم أمر المفتي بوضعه في حجرة في المحـكمة المذكورة .

ثم طلبوا توفيق أفندي الأيوبي ، وكان حاضراً في المجلس ابن عمه رئيس كتاب المحـكمة سعيد أفندي الأيوبي . فقال له المفتي : ما هذه المسائل التي تسوقهـا في درسك من نجاسة أعيان الكافرين وغير ذلك ؟ فأخذ يجيب عما قرره ، وما كانت المناسبة فيه ، وأنه مر عليه حديث أبي ثعلبة الخشني ، رضي الله عنه ، في التفسير . فعنفَّه المفتي ، وقال له بعض أهل المجلس : ما لـكم وللتفسير ، وأين أنتم من كتب الفقه الخطير ؟ واشترطوا عليه أن لا يعود لمثل هـذا المقال ، وأمروه بأن يراقب سياسة الحال ، ونظراً لـكونه ليس من جماعتنا المعنيّين ، وإن كان على مشربنا بيقين ، أمروه بالانصراف وسرحوه ، وراقبوا خاطر قريبه المذكور وراعوه .

ثم تذاكر أهل المجلس بعضهم مع بعض ، ورأوا أنهم قد أدوا ما لزمهم في تعزير الجماعة من الغرض وكان بودهم أن يقرّ أحدنا بصريح الاجتهاد ، أو أن يزل واحد منا فيلحقه الحمق منهم والعناد ، فيبلغوا مأربهم من نفيهم من الشام ، كما صمّم عليه المفتي وقال : ما لهم في هذه البلدة من مقام ! فردَّ الباري كيدهم في نحرهم ، وانقلبوا صاغرين عن مكرهم .

ولما أمسى المساء ، وفرغوا من هذه الأعمـال المبرورة الحسناء ، أمر المفتي بإحضار بقية جماعتنا المحبوسين بالحجرات إلى مجلس القاضي ، وقال لهم : قد خطر للقـاضي الآن العفو عنكم وتسريحكم ، بشرط أن تتعهدوا بعدم العود للمـاضي ، فـكفَّ البوليس يده عنهم ، وانصرفوا من المحـكمة ، نائلين من هؤلاء الأكارم بل الأعاجم تلك الرحمة .

ثم خرج أهل المجلس من المحـكمة وفي مقدمتهم المفتي ، وقد غصت أرجاء المحكمة وشعب أبوابها الثلاثة بالناس ، وكانت حادثة في البلد قامت لها وقعدت . فلما خرج المفتي من باب المحكمة لاقاه أخي محمد عيد وقال له : لِمَ لم تأمر بسراح أخي ؟ أهكذا الرأي السديد ؟ واستطال عليه الأخ وبعض الحاضرين بالكلام ، فخاف المفتي على نفسه من أن يناله الضرب لما رأى من المساعدة للأخ من بعض العوام . وكان المفتي قصد بعدم سراحي تلك الليـلة أن يجعلني مكان رهبة لبقية الجماعة ، لما أني أصغرهم سناً وجسماً .

ثم ذهب سيدي الوالد الماجد في المساء إليه ، فأراد المفتي أن يثرثر عليه ، فرفع الوالد صوته وأسكته ، وأخرسه وأبهته ، ولم يبال بالمقال ، ولم ير له أدنى احتشام ، ولا عبأ بما له من المقـام ، وقال له . أنت تعرف ترجمة ابني وحاله ، وانفراده عن أقرانه بالتحصيـل وكماله ، وما استفرغت قوتك إلا في أصغر الجمـاعة سناً . أظننت أن آله يذرون ما صنعت وهناً ؟ أين أنت ممن ينتقم الله لهم ، ويرفع إلى الملأ الأعلى ابتهالهم ؟ أما تخشى على ابنك الوحيد ، فـلا أحزنك المولى عليه كما لوعك على أخيه الفقيد ؟ — وكان للمفتي ابن كبير توفي قبل حادثتنا بشهرين ،

وأنسته قصتنا عن مصابه الكبير — فلما أكثر الوالد من تهكمه قال له المفتي : غداً خذه من ذقني . وأخذ يلاطف الوالد ويؤنسه عني .

وشرعت الأصدقاء والأقرباء بعد المغرب في زيارتي بدائرة البوليس ، حتى دهشت وجوه تلك الدائرة من مرؤوسيها والرئيس . ودعاني بعض رؤساء هذه الدائرة ، إلى العشاء معه وقد هيّئ فيه من أبدع الألوان الفاخرة ، وصار يؤانسني ايناساً عجيباً ، ويبدي من اللطائف حالاً غريباً ، وأنا أحمد الله على هذا الحال ، وأعلن بشكره تعالى أمامهم في المقال ، وسهر عندي ليلتئذ في قصر منيف ، في تلك الدائرة مشرف على مرجة لطيف ، جماعة من الأصدقاء ، وفي مقدمتهم سيدي الوالد والأشقاء . ولما جاء ميعاد المنام ، هيأ لي بعض وجوه الدائرة تختاً بديع الانتظام . فازددت حمداً للمولى ، على ما تكرم به على عبيده وأولى . ثم ترجيت سيدي الوالد والجماعة بالانصراف لبيوتهم ، فذهبوا بعد إباء شديد ، لعظم شفقتهم . ثم نمت حسب عادتي ، وقرأت وردي ، وأخذت راحتي . ثم استيقظت ميعادي وقت السحر ، وبعد أداء فريضة الصبح ، إذا بنور سيدي الوالد عليَّ قد سفر . فقمت لتقبيل يده ، فدعا لي بما أرجو إجابته من المولى لخلوصه إليه . وبعد أن طلعت الشمس ودعاني للفطور من دعاني للعشاء وأظهر غاية الأنس ، وكان قد هيأ أقداح الشاهي ، مع ما أعد من الطعام الزاهي . ثم تواردت علينا الناس ، لسؤال الخاطر والإيناس ، ومهما أراد أحد منهم أن يذكر لي ما يخفف الحال ، أظهر له حمد المولى وأبث له من الصبر جميل المقال . هذا ما كان من أمرنا .

ثم إن القاضي سهر ليلتئذ عند الوالي ، وأعلمه أن ليس فيما وشي إلى دولتكم عن الجماعة أمر ينافي الرضاء العالي . وكان قد ظن الوالي أن في الجمع سراً سياسياً ،

فعب الفحص تحققوا أنه ليس إلا جمعاً علمياً . وأخبرت أن القاضي قال له : يحق أن يفتخر بهكذا جماعة ، يتباحثون في مسائل علمية ويحفظون وقتهم عن الإضاعة ، وفكرهم من أحوال السياسة خال ، ولا خطر لهم شيء من شأنها على بال . فأسف الوالي على ما هيجوه ، وعلى جماعتنا أحنقوه . وكان ذهب بعض الوجهاء الموالي ، إلى بيت الوالي ، وقال : أنا لا أحب في أيامكم إلا أن ينال العلماء غاية الإكرام ، حتى يخلد لكم الثناء الحسن مدى الأيام ، وهؤلاء الجماعة زهرة الشام ، فالأولى ملاحظتهم بالإحسان التام .

فأشار الوالي على القاضي بتدارك الحال ، وأمره بأن يسرحني بلا إمهال ، فلم أشعر يومئذ قبيل العصر إلا والقاضي آت إلى دائرة البوليس ، وداخل إلى مجلس ما بها من الرئيس ، فعب جلوسه برهة من الزمان ، إذا داع يدعوني إلى القاضي ذي الشان . فحينما دخلت عليه سلمت ، فقام ناهضاً على قدميه ، ثم قال لي من ترجم عنه : لا تأسفوا ، فما حصل إلا كل خير ولطف ، فانصرفوا بالأمان ، وادعوا لمولانا السلطان .

وكان عندي وقتئذ في القصر ينتظرني والدي وبعض الاخوان ، فدخلت عليهم وأخبرتهم بكلام القاضي وما أبداه من اللطف في هذا الشان . فخرجنا حامدين لله ، على ما لطف وما بنا أولاه . وحينما وصلت للدار ، كأن غيبتي هذه العشرين ساعة وقعت عند الناس أعواماً عديدة ، فهرعوا للسلام علينا ، وأبدوا غاية اللطف إلينا . وقال لي شيخنا الأستاذ الشيخ محمد الخاني : هذه الحادثة سبب لرفعتك ، وظهور فضيلتك . وكنت أقول كما قال بعض العارفين بمولاه ، ومما مَنَّ الله به

عليّ أن أدرجني في سلك الذين أُوذوا في الله . وكنت أتذكر لطف الله بي في هـذه القضية ، وأتفكر فيما حل بالسادة السالفين من المصائب القوية . وزارني بعض العلماء الأفاضل فقـال : لقد أحرزت منقبة ما أحرزهـا فاضل . فقلت : الحمد لله حيث نَقِمَ منا على دعوى الاجتهـاد ، ولم يك ذلك على منكر يبغضه الله والعبـاد .

هذا ولمـا امتنع الشيخ بدر الدين عن الحضور إلى المجلس المتقدم المذكور ، واعتذر بما مر ، وأخبر الوالي بإصراره على إنكاره ، وكانت مواعظه الـتي شدد بها النكير على ولاة الأمور وتطرف بهـا للأمير الـكبير ، هي التي في الحقيقـة ضاعفت قضيتنا ارتفاعاً ، وأوجبت لخرقها اتساعاً ، وانضم أمرنا بهـا إلى أمره ، وظن أنا يد واحدة في سيره ، حنق الوالي منـه أشد الحنق ، واعتمد على نفيه ألبتة من جلّق ، حيث أن خوضه في السياسة جهراً ، وليس لمثل هذا الحال عند الحكام غفر . ولـكن العناية أدركت الشيخ بدر الدين ، فذهب أحد أولاد الأمير عبد القـادر الحسني وهو عبد الله باشا ، فاستعطف خاطر الوالي عليه ، وأبدى له غاية الرجاء إليه . وفي اليوم الثاني ذهب الباشا المذكور بالشيخ بدر الدين إلى القاضي ، فكلمه في مراعاة سياسة الوقت وقال له : عفا الله عن الماضي .

ولما سكن الأمر بعد أيام ، خرج الشيخ عبد الرزاق البيطار من بيته بسلام ، وأخذه صديقه رئيس كتاب المحـكمة سعيد أفندي الأيوبي إلى القاضي ، وأبدى له الاعتذار عن تخلفه بمرضه وتذاكر في المسألة إلى أن حصل التراضي . هذا ما كان من أمر الجماعة .

وأما أهل الشام ، من العقلاء إلى العوام ، فكلهم عادوا باللوم على المفتي ، وقالوا : كان الأولى لما سأله الوالي عن هذه الجمعية ، وذكر له ما نم به عليهم ، أن يتلو عليه الآية الكريمة (يا أَيُّها ٱلَّذينَ آمَنوا إنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَاءٍ فَتَبَيَّنوا) الآية . ويتعهد بأن يجمعهم في داره ، ويسألهم عن الحال بما لا يخل من أحد بمقداره ، ويشير عليهم بترك ذلك ، حيث أن الوالي مضطرب في هذه المسالك . ولكن هيهات من ذاك المفتي هذا التدبير ، فإنه يحتاج أن يكون لذي عقل كبير ، لا لأحمق أخرق ، يستفزه الطيش فيكاد يتمزق ، كما امتلأ صدره منا غيظاً ، وأصبح لئيماً غليظاً فظاً .

ونحن لا ننكر أن كثيراً من الأعيان أغروه علينا . بل من الأغرب ما وشى له بعض من يخلص الحب ظاهراً إلينا ، ولقد قال له بعض المشايخ المتصدرين : إن هؤلاء إن دام جمعهم لا نأمن أن يردوا فتوى المفتي ، حيث أنهم يناقشون الأقدمين . كما أن بعض المشهورين قال له : لو كان المفتي الحمزاوي حياً ما جسر أحد على دعوى الاجتهاد ، وقد مات من كان يغار على مثل هذا الحال من الأمجاد . إلى غير ذلك مما قام به وقعد ، وأرغى وأزبد ، ولكن أين حرمة خرق العلم ، وأين العقل في مغبة الأمور وقوة الفهم ، وأين التثبت والرزانة ، وأين الدهاء والرصانة ؟ واستبان للعامة أن هذه الخمة من الحسد الكمين ، كما قالوا : وهل المفتي من رجال الجماعة في الفضل المبين ؛ فإن أصغرهم (يعنون الفقير) يُقرؤه سنين .

ولقد غصّ المفتي بريقه لما بلغه مجيء قاضي الشام لتسريحي بنفسه ، وما ظن

أن يحصل للفقير هذا الاعتناء التـام ، ولـكن قهره المولى وأعزني ، رغماً عن أنفه ورأسه [1] .

وإذا كان العلامة الخفاجي يقول في الريحانة ، مما شكا به زمانه ، ما نصه :

« قد انهدم من الفضل بنيانه ، وانقضت عمده وأركانه ، وقوضت خيامه ، واندرست رسومه وأعلامه ، وصـــار أمر الفتوى والقضاء والمناصب العلمية ملعبة وشعبذة وسخرية ! » انتهى . فـكيف بهذا الزمان الذي ظهرت فيه أشراط القيامة ، ولبس لبـاس الجهل من النعل إلى العمامة ، وكيف لا ورياسة مفتيه المذكور هجو الزمان . وإظهـار لعداوة الأحرار والأعيان ، فلو لم يخسف بأهاليه ، لمـا ارتفعت أسافله على أعاليه ؟

كالبحر ترسب في أسافله درر وتعلو فوقـه جيفه

أما خشي هذا اللئيم لما أخذه الغضب ، أن تؤرخ مثالبه أهل الأدب ، فتبقى سبة له مدى الأيام . ومذمة تتناقل إلى ساعة القيام ؟ أيخال هذا الوغد أن ما فعله نقص بالجماعة ؟ كلا فإنه بذلك أظهر كامل فضلهم وأشـاعه ، حيث أشهر أنهم ادعوا الاجتهاد ، ولا مزية أعلى منها ، إذ هي حلية الأئمة الأمجاد . ولـكن تحاسد العلماء شهير ، ومن القديم يقيمون على مثل هذا النكير .

وإني لأعجب من هذا المفتي كيف لا يستحي من الناس ، ولا يخاف مقـام

---

(١) روى القاسمي بعد هذا أبياتاً نظمها في هذه الحادثة . وقد حذفناها بعد أن عرفنا رأيه في الشعر والشعراء الذي دونه في السوانح (راجعه في موضعه من هـذا الكتاب) . ولو امتدت الحياة بالقاسمي لحذف الأبيات كما حذفناها .

رب البرية ، حيث يجعل برانيه المدرسة الـكبرى العادلية ، يغلق أبوابها متى شاء ، كأنها ملك أبيـه ، ولا يقدر أحد أن يدخلها إلا لحـاجة عند سكانها تعنيه . فانظروا يا أهل المروءة والدين ، كيف جعل إيوانهـا الشمالي صالوناً كبيرة ، ووضع بها الـكراسي المزخرفة والثريات الثمينة والأمتعة الخطيرة ، وجعل حجراتها للحطب والفحم وأثاث بيته ، ونقب حائطها القبلي وهدم بعضه من الطريق وفتح منه باباً لدوابه وكروسته . وغرس في أرضها الأشجار ، وملأ حول بركتها الأزهار ، وجعل بعض حجراتها للتنباك والقهوة . وكان أحد أسلافه لما استولى عليها عمر بها قاعة فأحب أن يزيد عليه ويكون له به أسوة ، فاقتدى به في تلك المظـالم والحرم ، ومن يشابه أباه فما ظلم .

ولما هدم أحد حيطانها هذا العام ، وأراد أن يشيد فوقه قصراً للشتاء يليق بالمقام ، زيادة عمـا أحدثه من القصور الحسنة ، والغرف المستحسنة ، فلم يتم من هذا الحائط العمار إلا وسلط الله على أكبر أولاده ، واسمه أحمد ، مرض السل ، وفاجأته الأكدار ، وكان يؤمل أن يشتري كأبيه بالدراهم منصب الفتوى ، فجعل المولى له المنية والبلوى ، وهلك في جمادى الثـانية ، ولم يبلغ من رجائه أمانيه . كل ذلك لشؤم فعله وكبره ، نعوذ بالله من بطشه ومكره .

وليت شعري من كان مصابه جديداً ، كيف يكون جباراً عنيداً ؟ وأظن أنه لما علم أن من جماعتنا من لا يقول بفضله ، ولا يقر بعلمه ونبله ، بل منهم من كان قرأ عليه ، واستسمن منه الورم ، ثم لما تبين له حاله ولاّه دبره وقطع حبل وده وصرم ، فأراد أن ينتقم من بعضهم لما كمن في قلبه من بغضهم ، لـكن لم يدر

أن الطاعن في جنسه ، كالطاعن في نفسه ، وهذا كالذي يضرب نفسه ، ويظن أنه يضرب غيره ، ولا كثر الله خيره :

ومن الحزامة لو تكون حزامة　　　أن لا تؤخر من به تتقدم

هذا وبعد أسبوع من هذه القضية ، وظهور براءة الجماعة من كل حالة غير مرضية ، نهض أحد إخواننا وهو أمين أفندي السفرجلاني لتقديم عرضحال إلى الوالي يطلب فيه جزاء المفتري ، وختمه منا ، وغرضه الشكاية باطناً على المفتي في ذلك ، ثم أشرنا عليه بتركه غضاً عن هذا الحال وعفواً عما مضى .

ثم إن قاضي الشام ، أراد في رمضان ذاك العام ، أن يصنع وليمة خاصة لجماعتنا ، استرضاء لخاطرنا . فانتدب رئيس الكتاب في محكمته ، وقال : أنا أقوم عن الوالي في قصد وليمته . فدعا الرئيس المذكور جماعتنا في رمضان ، فحضرنا عنده ، وأبدى لنا كل رفعة شان . ثم إن معظم جماعتنا أعرضوا عن المفتي وزيارته ، وألقوه في زوايا الخمول على رتبته ، وبالأخص الفقير والشيخ عبد الرزاق البيطار ، فإنا أهملناه وأظهرنا له كل أنفة وانقباض وازورار ، مما لم يخطر له على بال ، ولم يتصوره بحال . إذ كان يأمل أن تفد إليه جماعتنا بعد انفضاض القضية ، ويسألوا خاطره نفاقاً على ما أبداه من التلطف في التخفيف من حالتهم القوية . فهناك يبدي منته عليهم ويقول : لولا ما أجريناه لكان الأمر أشد منه إليهم . ويبدي التمويهات الباطلة ، والامتنانات العاطلة . وإذا بمعظم جماعتنا عاملوه بعكس أمنيته ، فغص بريقه . إذ فقدت جلالة حيثيته ، وانقلبت مجالسنا في كل محفل بلومه وتعنيفه ، وسوء تدبيره وتهريفه ، وما بقي أحد من العقلاء والكبراء ، إلا

وعاد باللائمة عليه من كل الأنحاء ، خلا من كان على شاكلته ، ممن لا يميز فريضة الفضل من نافلته .

وبقي الحال نحو عشرة أشهر على ما شرحناه ، ونحن لم نقطع اجتماعاتنا السالفة ، وقد كان نهى عنها ، فما عبأنا بما رسمه وعناه . فلما ضاق الأمر عليه ، صار يتطلب زيارة أكبرنا ، وهو الشيخ عبد الرزاق البيطار ، ويقول لأخصائه صار لنا مدة ما رأيناه ، ظناً منه أن الشيخ يأتي إليه ابتداءً بلا افتكار . فتوسط أحد أحباء الشيخ وترجاه في ابتداء زيارته ، فأقسم لا يبدؤه ما دام في قيد حياته . فحينئذ تجشم المفتي لقاءه وذهب لزيارته في داره ، وأظهر له من الود صفاءه . فبعد نحو اسبوعين أو أكثر قابله الشيخ برد الزيارة ، وبسط للعتاب المقال الأوفر ، واعتذر المفتي له بأن من أغراه علينا غير واحد ، وأن نصرنا كان من فضل الله الواحد الماجد ، ولم يكن بواسطة أحد من الأعيان ، كما يوهمكم من يشيع ذلك عن بعض كبراء الزمان .

وكان شاع لدينا أن بعض البشوات في مجلس الإدارة هو الذي لطف الأمر إلى هذه الدرجة مع الوالي ذي الوزارة ، وأن الوالي كان قال : أنا أجليهم عن الأوطان ، رأساً بلا استئذان ؛ حتى أحاله الباشا في المذاكرة ، إلى مجالس القاضي غب المحاورة . هكذا ذاع ، وفيما بيننا شاع . فأقسم المفتي ثلاثة أيمان أنه لم يأخذ بيدنا أحد إلا الرحمن جل جلاله ، وعم نواله . وقال : لا تحتملوا منة أحد ؛ ولا تشكروا إلا الفرد الصمد . ورأى المفتي أن مصالحته مع أكبرنا . تقوم لدى جمعيتنا مقام إرضاء خاطرنا .

ثم إن الشيخ رأى أن انفراده بالمصالحة دون الاخوان ، ليس من وفاء الوداد وكامل الإحسان . فانتدب حفظه الله لعمل وليمة شائقة ، ودعوة فائقة ، دعى إليها جمعيتنا بتمامها ، والمفتي ، والأستاذ الجليل المقدار ، الشيخ بكري أفندي العطار ، وسيدي الوالد وأخاه داعينا الشيخ عبد الغني البيطار ؛ وذلك في إحدى الجمادين من سنة ١٣١٤ . فغب تناول الغداء ، ثم أداء صلاة الجمعة في جامع الدقاق ، عدنا جميعاً مع المفتي ومن ذكر إلى دار الشيخ بغاية الصفاء ، ومكثنا إلى قبيل العصر في الدار . ثم استأذن المفتي في الانصراف ، ودعانا إلى الذهاب معه للعسالي ، فأبدينا الاعتذار ، وغب انصرافه مكثنا برهة من الزمان ، ثم ودعه الاخوان ، وسقط في أيدي المفسدين ، لما رأوا ما كان من أمر الصلح المكين ، وأصبحوا ساقطين من العيون ، وبسيماهم وتملقهم يعرفون .

ومع ما أظهره المفتي من اللطف مع الاخوان ، لم تسمح نفسي بالذهاب لزيارته في حين من الأحيان ، حتى جاء رمضان سنة ١٣١٥ ، ففيها أرسل مكتوبين فخمين لحضرة سيدي الوالد الكبير ، ولابنه الحقير ، يدعونا للافطار عنده . وتتميماً لودنا دعا في ذلك النهار أيضاً الشيخ عبد الرزاق افندي وأخاه والشيخ سليم سمارة ، فاجتمعنا عنده في الفطور ، واحتفل بنا غاية الاحتفال بالسرور ، وبقينا لقرب العشاء ، ثم ذهبنا وودعنا بتمام الاحتفاء . وكان هذا الاجتماع آخر اجتماعاتنا معه ولم تطل مدة حياته بعد ذلك إذ مرض في رجب ١٣١٦ وعدته مع سيدي الوالد . وفي غرة شعبان درج ومضى كأنه ما كان .

ومن العجب العجاب أن الحق تعالى انتقم من كل من سعى بالفساد في هذه

القضية ، وعاجلهم بعدله سبحانه ، ورأى كل واحد أدهى بلية . فمنهم والله الذي لا إله غيره من عمي وفقد بصره من عينيه ، ومنهم والله من فلج ، ومنهم من عجلت له منيته ، وهم ثلاثة أشخاص . ومن عاش منهم قُيّض له من هجاه في قصيدة في بعض الحوادث جرت بينهم وبين آل الخطيب شاعت ، وفي كافة البلاد ذاعت ، حيث ذكرت فيها مساويهم ومثالبهم ، نعوذ بالله من مكره ، ولو شئت أن أسميهم واحداً واحداً لفعلت ، ولكن الستر أولى وأحسن ، وكفاهم ما حل بهم من هذه المحن .

وبعد هذه الحادثة ارتفع بحمد الله قدرنا . وعلا بفضله وستره أمرنا . أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله . فالحمد لله ثم الحمد لله . » [1]

* * *

(١) حذفنا من هذا الموضع أبياتاً لم يكن القاسمي ليقر بقاءها لو طالت به الحياة .

طريقته في التأليف

لم تثن الصدمة العنيفة التي أصابت القـاسمي ، وله من العمر ثلاثون عاماً ، في محاكمته وحبسه ، عن المضي في طريقه السوي ، لاصلاح المجتمع الاسلامي ، ونشر العقيدة الصحيحة ، وبث تعاليم الدين السامية . لا بل كانت هذه الصدمة -- على التحقيق — من أقوى البواعث التي شجعته وزادت في عزيمته . ولا أدل على ذلك من أن عدد تآليفه التي وضعها بعد هذه الحادثة ، أضعاف أضعاف عددها قبلها . أضف إلى ذلك أنه قد تصدى لتفسير القرآن الكريم بعدها ، وهو أجلُّ عمل قام به في حياته العلمية .

إلا أن هذه الحادثة قد أثرت في طريقته في التأليف تأثيراً لم يستطع التخلص من قيوده إلا بعد عام ١٣٢٠ هـ ، وبطريقة تدريجية .

فلقد مر معنا في بحث « عصر القاسمي » أنه كان عصر الجمود والتقليد ، وأن كتب الحديث كانت تقرأ للتبرك ، وأن كتب التفسير قلما تصل إليها الأيدي . وأشـار القاسمي نفسه إلى أنه قرأ قسماً كبيراً من صحيح البخاري رواية . وجاءت هـذه الحادثة ، فإذا فيها الاتهـام بالاجتهاد — ويا لهـا من كبيرة في نظر

الجامدين — وإذا بالمحكمة تنهى عن قراءة كتب الحديث والتفسير ، وترى في كتب الفقه الغناء عن كل ما عداها .

والقاسمي في هذا كله لا يرغبه ثناء ، ولا يثبط همته هجاء ، ولا يشغل فكره إلا نشر الدعوة ، وتبليغ الرسالة ، وأداء الأمانة ، بالطريق الذي يمكن أن يصل إلى أفهام أهل الزمان ، ويدخل إلى قلوبهم من غير أن يكون لهم على ذلك اعتراض أو استنكار .

فلقد بلغ الجمود من بعض أدعياء الدين أن امتنعوا عن الاحتجاج بالكتاب والسنة ، في أي أمر من أمور الدنيا والدين ، وقنعوا بكتب الفقهاء وحدها ، على ما فيها من اختلاف . وأصبح قول الفقيه عندهم هو وحده الحجة والسند . وردوا ذلك إلى عدم القدرة على الفهم ، وإلى العجز عن الدرس والاستيعاب .

فلما أدرك القاسمي هذه الحقيقة المرة ، وأكدها ما مر معه في محنته التي عرفت بحادثة المجتهدين ، رأى أن الإصلاح لا يمكن أن يتم بالاستشهاد بالكتاب وحده ، وإن كان دستور المسلمين الخالد ، الذي لا يمكن أن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا بالسنة معه ، وإن كانت متممة له . لذلك عمد إلى الإكثار من نقل أقوال أئمة المسلمين الغابرين في كتبه ، يختار ما كان منسجماً مع دعوته السامية ، ذلك لأن خصومه من رجال الدين ، إذا كان لهم أن يعترضوا على أقواله ، فليس لهم أن يعترضوا على أقوال الفقهاء الأقدمين ، بل عليهم أن يسلموا بما جاء فيها . وهي في كل حال ، لا تخرج عن تأييد الطريقة السلفية .

ولقد بدا لمحمد كرد علي في نقده لـكتاب القاسمي « قواعد التحديث من فنون مصلح الحديث » أن اعتبر الـكتاب خالياً عن الرأي الشخصي إلا في مواضع نادرة وأن معظمه نقول منوعة تدور حول موضوع الـكتاب .

ولا يهمني هنا أن أشير إلى خطر الـكتاب ، ولا إلى ما قاله فيه الإمام محمد رشيد رضا ، من أنه لم يعرف في المـكتبة الإسلامية مثله في نوعه ، وإنما يهمني أن أشير إلى أمرين اثنين :

١ — أن القاسمي لم يكن عاجزاً عن أن يكتب بقلمه في أي موضوع من المواضيع التي ألف فيهـا ، وما أكثرها . ولا أدل على ذلك من مقدمات كتبه التي اختار في بعضها السجع ، وفي بعضها الآخر — آخر حياته — الترسل ، ومما تخلل كتبه التي قاربت المئة ، من البحوث التي بدا فيها أسلوبه العربي المشرق ، وتمكنه من لغة العرب .

٢ — أن اختيار المرء قطعة من عقـله . هكذا قرر العلماء الأقدمون . وأن هذه النقول إنما هي في الحقيقة آراء القاسمي نفسه : رأى فيها ما يدور في خلده . فآثر نقلها ، على أن يكتب مثلها في موضوعها ، لأن الناس ما كانوا يقبلون قولاً للقاسمي ولو كان تنزيلاً من التنزيل ، أو قبساً من آي الذكر الحـكيم ، وإنمـا كانوا يقبلون أقوال العلماء الأقدمين .

هذه هي العوامل والأسباب التي حملت القاسمي أن يختـار طريق النقل في كثير مما ألف . وهي طريقة ، إن لم يكن فيها من الفضل إلا جمع المفرق ، ولم

المشتت من الأقوال للأئمة الذين خدموا الشريعة طوال أربعة عشر قرناً ، لكانت فخراً لصاحبها وشرفاً . فما بالك إذا كانت تهدف إلى أبعد من ذلك وترمي إلى إبادة الظلمة ، وانبلاج فجر الحقيقة ، والدعوة إلى الدين الخالص من شوائب الخرافات والأباطيل ؟

وأخرى تميزت بها كتب القاسمي : تلك هي أنه كان يبحث عن الحقيقة أينما وجدت ، وحيثما كانت ، فلا يقتصر في نقوله عن الأئمة المعروفين من المذاهب الأربعة وغيرهم من فلاسفة المسلمين كابن تيمية وابن القيم والغزالي وغيرهم . وإنما كان يجد القول الصحيح لدى زيدي أو معتزلي أو خارجي أو غيرهم ، فلا يمنعه ذلك من الاستشهاد بقوله . لا بل قد يرى قولاً لأحد علماء الفرنجة ، فيسارع إلى التقاطه وضمه إلى كتابه .

وقد يمر بك في كتبه قوله : « قال بعض المحققين » ، من غير أن يشير إلى اسمه ، ولعلي لا أعدو الصواب في تفسير اغفال اسم المحقق إذا قلت إنه قد يكون هو المؤلف نفسه ، لتشابه الأسلوبين في بعض الأحيان . ويعود ذلك إلى ما أسلفنا من طريقته في الدعوة ، لقلة مبالاة الناس بما يكتب المعاصرون . وإنه في بعض الأحيان الأخرى أغفل اسم المحقق لأنه من غير المعروفين لدى الناس ، فذكر اسمه قد يقلل من قيمة القول .

على أن هذا لا يعني أن القاسمي قد ساير عقلية العصر المسايرة كلها ، وإلا لخرج عن الرسالة التي ندب نفسه إليها . وإنما عمد إلى وضع الأسس الأصلية في فهم الشريعة ، فجعل الكتاب الكريم المرجع الأول ، والسنة الصحيحة متممة

له ، ثم أخذ في فهمها وتفسيرها عن الأئمة والفقهاء السابقين . ولهذا عزف عن الكتب التي تداولها الناس ، والتي اعتمدت في عصور الانحطاط ، ولم يشأ أن يستند في نقوله إلا إلى كتب الأئمة . وقد أشار إلى ذلك فقال :

« لم تجر عادتنا بالبحث في كلام المحشّين ، والمناقشة مع المتأخرين[1] » .

هذه طريقته في التأليف في أكثر كتبه ، أوضحنا أسبابها ، وبينا مزاياها ، ولا سيما في عصرها الذي وضعت فيه .

* * *

(١) شرف الأسباط – ص ٢٠

أسلوبه

كان والد القاسمي مولعاً بالأدب إلى جانب تعمقه بالفقه ، فنشأ ولده تنشئة أدبية على الطريقة التي عرفها أهل ذلك الزمان . ويخيل إليّ أن الطريقة نفسها عاشت في بيتنا الذي ربيت فيه ، إلى أن شببت عن الطوق . فما زلت أذكر أنني حفظت « مناجاة القمر » للمنفلوطي ولي من العمر عشر سنوات ، وقد كان ذلك بإرشاد عمي قاسم رحمه الله . ثم حفظت « المقامات العشر » التي اختارها من مقامات الحريري أديب جيله المرحوم محمد المبارك الشهير بالطيب والد أستاذنا العظيم الشيخ عبد القادرالمبارك . وقد حفظت معظمها كالببغاء ، وكنت ألقى كثيراً من العنت في الفهم ، وأبذل كثيراً من الجهد لمعرفة معاني الألفاظ . ورأيت شيوخ الجيل الذين كانوا يترددون على بيتنا يعتبرون الحريري إمام الكتابة ، وأن أسلوبه في الإنشاء غاية في الإتقان ، وهو الاسلوب الأعلى الذي ينبغي أن يحتذى .

وأكبر ظني أن القاسمي قد حفظ المقامات أو أكثرها ووجدت منها في مكتبته نسختين صححتا بكثير من العناية والدقة ، وضمتا كثيراً من التعليقات والحواشي .

على أن أسلوب معظم الكتّاب في ذلك العصر ، كان يعتبر السجع أصلاً

في الإنشاء . وقد التزمه القاسمي في مقدمات كتبه كلها تقريباً ، جرياً على ما ألف الناس ، ولكنه كان سجعاً قليل التكلف ، أقرب إلى الفطرة منه إلى الصنعة ، مع بُعد عن الحوشي ، وهجر للعامي ، واختيار لرقيق الألفاظ وحلوها . وقد كان سجعه هذا مختلفاً بين الكتب التي ألفها في مطلع حياته والكتب التي ألفها في أواخرها . فكان في الأولى أقرب إلى سجع المبتدئين ، وكان في الثانية أقرب إلى سجع أئمة الكتاب الأقدمين .

ومن الأمثلة التي نقدمها على التزامه السجع المقبول ، هذه الصفحة الرائعة التي وردت في الصفحة ٧٥ من الجزء الثاني لمحاسن التأويل قال :

« العرب فرسان الكلام ، وأرباب النظام ، وقد خصوا من البلاغة والحكم ، ما لم يخص به غيرهم من الأمم . وأوتوا من ذرابة اللسان ، ما لم يؤت إنسان . ومن فصل الخطاب ، ما يقيد الألباب . وجعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة ، وفيهم غريزة وقوة . يأتون منه على البديهة بالعجب ، ويدلون به إلى كل سبب . فيخطبون بديهاً في المقامات وشديد الخطْب ، ويرتجزون به بين الطعن والضرب . ويمدحون ، ويقدحون ، ويتوسلون ، ويتوصلون ، ويرفعون ، ويضعون . فيأتون بالسحر الحلال ، ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل . فيخدعون الألباب ، ويذللون الصعاب . ويذهبون الإحن ، ويهيجون الدمن . ويجرئون الجبان ، ويبسطون يد الجعد البنان . ويصيرون الناقص كاملا ، ويتركون النبيه خاملا . منهم البدوي : ذو اللفظ الجزل ، والقول الفصل ، والكلام الفخم . والطبع الجوهري ، والمنزع القوي . ومنهم الحضري : ذو البلاغة البارعة ، والألفاظ

الفاصعة ، والكلمات الجامعة والطبع السهل ، والتصرف في القول القليل الكلفة ، الكثير الرونق ، الرقيق الحاشية . »

ثم شاعت طريقة الترسل ، وكان الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله من الذين دعوا إلى نشرها ، وكان القاسمي أحد المعجبين بالأستاذ الإمام ، فعدل عن السجع في بعض ما كتب إلى الترسل ، فجاء أسلوبه فيه عربياً صافياً ، رائعاً في قوة التركيب ، وجزالة الألفاظ ، ودقة الأداء .

وترسله على قلته ، يمثل صفاء ذهن القاسمي ، وتمكنه من اللغة العربية ، وغوصه على المعاني ، وسعة اطلاعه على مخلفات التراث العربي القديم ، وعلى ما ضمّت المكتبة العربية من طريف المؤلفات وحديثها . ومن أمثلة ترسله ما كتبه رحمه الله في معرض تفسير قوله تعالى :

« وَأَعِدّوا لَهُم ما اُسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » قال (1) :

« دلت هذه الآية على وجوب إعداد القوة الحربية ، اتقاء بأس العدو وهجومه . ولما عمل الأمراء بمقتضى هذه الآية ، أيام حضارة الإسلام ، كان الإسلام عزيزاً ، عظيماً ، أبيَّ الضيم ، قوي القنا ، جليل الجاه وفير السنا ، إذ نشر لواء سلطته على منبسط الأرض ، فقبض على ناصية الأقطار والامصار ، وخضد شوكة المستبدين الكافرين ، وزحزح سجوف الظلم والاستعباد ، وعاش بنوه أحقاباً متتالية ، وهم سادة الأمم ، وقادة الشعوب ، وزمام الحول والطول ، وقطب رحى العز والمجد ، لا يستكينون لقوة ، ولا يرهبون لسطوة .

(1) ج ٨ ص ٣٠٢٥ - محاسن التأويل .

« وأما اليوم ، فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة ، ومالوا إلى النعيم والترف ، فأهملوا فرضاً من فروض الكفاية ، فأصبحت جميع الأمة آثمة بترك هذا الفرض . ولذا تعاني اليوم من غصته ما تعـاني . وكيف لا يطمع العدو بالممالك الإسلامية ، ولا ترى فيها معامل للأسلحة وذخائر الحرب ، بل كلها مما يشترى من بلاد العدو ؟ أما آن لها أن تنتبه من غفلتها ، وتنشيء معامل لصنع المدافع والبنادق والقذائف والذخائر الحربية ؟ فلقد ألقى عليهـا تَنَقُّصُ العدو بلادَها من أطرافها درساً يجب أن تتدبره وتتلافى ما فرطت به ، قبل أن يداهم ما بقي منهـا بخيله ورجله ، فيقضي والعياذ بالله ، على الإسلام وممالك المسلمين ، لاستعمار الأمصار ، واستعباد الأحرار ، ونزع الاستقلال المؤذن بالدمار » .

هذا ويرى المتتبع لكتبه أنه كان أحرص على الفكرة منـه على الأسلوب . أما أسلوبه في الإلقـاء ، فلقد حدثني تلامذته الكثر ، وأخصهم الأستاذ حسين الجـارودي من علماء بيروت ، أن اللغة العربية قد أطاعت لسانه على شكل لم يؤلف لدى رجال الدين في ذلك العصر ، وأن سحره في الحديث والمساجلة ، لم يكن له فيه شبيه ولا قرين ، وأن الألفاظ كانت تنثال على لسانه في كثير من الانسجام والرقة والعذوبة .

وسمعت من المرحوم ذكي الشطي أنه كان كثيراً ما يأتي إلى دارنا ، فإذا لقي فيه الشيخ عبد الرزاق البيطار يتساجل مع القاسمي نسي نفسه ، ونسي الوقت والزمان . وكان يقول ما نصه بالحرف : « والله أحلى من نوبة آلات » !

* * *

ثقافته العامة

روى القاسمي في ترجمته لنفسه مصادر العلوم الأساسية التي كانت عدة طالب العلم في ذلك العصر ، والتي قرأها على مشايخه . فالمقصد الأصلي عند علماء الدين هو خدمة الشريعة ، بدراسة الكتاب والسنة وفهمهما ، والعمل بتعاليمهما . فكان طالب العلم يبدأ بحفظ القرآن الكريم منذ الطفولة المبكرة . ثم يأخذ بأطراف العلوم الأخرى تباعاً ، وفقاً لتوجيه أستاذه ، ولاستعداده الشخصي . وكان لا بد لفهم الكتاب والسنة من إتقان علوم أخرى ، كاللغة والنحو والصرف والأصول والبلاغة والبديع والبيان وغير ذلك . ولهذا كان كل ما عدا الكتاب والسنة يسمى علوم الآلة ، أي أنها آلات لفهمهما .

درج القاسمي على الطريقة نفسها ، ثم أخذت الملكة الأدبية تنمو لديه بتوجيه من والده رحمه الله ، وباستعداده الشخصي . فأخذ بالاطلاع على أمهات كتب الأدب ودراسة بعضها دراسة تعمق واتقان . ثم دفعه ولعه بالاطلاع ، وغرامه بالمطالعة إلى اقتناء معظم ما أنتجته المطبعة العربية في عصره ، سواء أكان ذلك من مطبعة الجوائب في القسطنطينية أم كان من المطابع المصرية أم المغربية أم الهندية أم الشامية أم غيرها .

ولعل أوضح عنوان لثقافته العامة مؤلفاته ومكتبته الخاصة التي ما زالت محفوظة حتى اليوم ، والتي بدأ بتأسيسها جده الشيخ قاسم ، والتي ضمت كثيراً من المخطوطات ووسعها أبوه ، ثم أضاف إليها هو نفسه ما استطاع اقتناءه من مخطوط ومطبوع .

ولم يكن لرجال الدين في عصره أي اهتمام بغير كتب الفقه والآلة . أما القاسمي فقد صرف اهتمامه إلى جميع أنواع المعرفة التي أخذت في الانتشار ، وعزم على أن يتعلم في شبابه وكهولته ما فاته تعلمه في طفولته .

ففي مكتبته الخاصة كتب شتى ، لم يخل واحد منها من تصحيح أو تعليق أو إشارة إلى قراءته على أحد الاختصاصيين . فإلى جانب كتب التفسير والحديث والفقه واللغة والتصوف والأدب والتاريخ والأصول وغيرها ، ترى كتب الفلسفة القديمة والحديثة ، وكتب الاجتماع ، وكتب الرياضيات القديمة والحديثة . وقد رأيت في مكتبته أنه قرأ أحدها على صادق النقشبندي كما وجدت كتاباً في الرياضيات ، مطبوعاً على الحجر ، اسمه شرح أشكال التأسيس لموسى قاضي زاده ، صححه على نسخة شيخه الشيخ محمد الخاني والمقروءة على شيخه الشيخ محمد الطنطائي ، وذلك عام ١٣٠٨ . وكتب الجغرافيا ، وقد قرأ أحدها على الشهيد عبد الوهاب الانكليزي . وكان كل من النقشبندي والانكليزي أصغر منه سناً ، ومن شباب الجيل الذين أخذوا العلم في المدارس الحديثة العالية .

أضف إلى ذلك رغبته في الاطلاع على الدراسات القانونية الحديثة ، التي ألفت في مطلع هذا القرن ، وأخرجتها المطابع العصرية ، فترى في مكتبته

« مقابلات » وهو أحد الكتب الذي قارن الشريعة الاسلامية بشرائع اليهود ، والقوانين الفرنسية الحديثة .

ولم تخل مكتبته من كتب الفرق الإسلامية ، كالشيعة والزيدية والمعتزلة والظاهرية وغيرها وأخذ عنها في تآليفه ما وجد فيه تأييداً لفكرته ، أو تقوية لطريقته . ورد على بعضها في بعض مؤلفاته .

كما أنها لم تخل من كتب الديانات الأخرى ، كاليهودية والنصرانية [1] . ففيها مجموعة قاربت مئة كتاب ، قرأها كلها ، ودرس مضامينها ، وانتفع بكثير منها لتأييد آرائه وأفكاره .

أضف إلى هذا أنه كان مواظباً على مطالعة المجلات الشهرية العلمية والتاريخية والأدبية التي كانت تصدر في زمانه كالمقتبس والمقتطف والهلال . لا بل كان يطالع المجلات التي كانت تصدرها الجمعيات الدينية المسيحية كمجلة « المشرق » . فقد ورد في مذكراته (السبت ١٩ محرم ١٣٢٥ ـ ٢ آذار ١٩٠٧) نقلاً عن هذه المجلة ـ ص ١٠٤٣ ـ السنه التاسعة ـ العدد ٢٢ — أن أهل قريتي بخعة وجبعدين يتكلمون بالسريانية ، وقد قصدهم بعض السياح لتدوين كلامهم في هذه اللغة .

ومن الآثار الواضحة لثقافته العامة ، مؤلفاته العديدة . فقد ألف في مواضيع نادرة ومتعددة . ويكفي أن تلقي نظرة على أسماء الكتب التي ألفها ، سواء أكان في صباه أم في كهولته ، لترى من هذه الأسماء ، شغف القاسمي بفنون المعرفة

---

(١) في مذكرة عام ١٣٢٤ - ٢١ جمادى الاولى - ١١ تموز ١٩٠٦ : « وأرسل لي في النهار الشيخ طاهر المغربي عدة كتب من كتب النصارى هدية » .

وألوانها . ورغبته الواسعة في تنـاول العلم والإحاطة فيه ، لو أن الإحاطة ممكنة .
فإلى جانب مؤلفاته في التفسير والحديث والأصول ، ترى كتاباً في تاريخ دمشق ، ورسـالة في الجن ، وكتيباً في الشاي والقهوة والدخان ، ومقالة عن القلب ، وسفراً في دلائل التوحيد ، ومبـاحث في أحكام الشريعة في الجمـاعة المتمالئة بالواحد ، وكتاباً في الآداب والأخلاق ، إلى غير ذلك مما تراه واضحاً في عناوين كتبه وأسمائها .

وترى آثار ثقافته العامة في هذه الـكتب نفسها أيضاً ، وتعجب لهذا الشيخ الذي عرف قبل أكثر من نصف قرن ما هي الاشتراكية ، وما مدلولها وما معناها . وكان ذلك في زمان ما أظن أن في البلاد الشامية كلها ، لا بل وفي العالم العربي ، أكثر من أفراد معدودين قد سمعوا بالاشتراكية ووعوا معناها . اسمعه يقول [1] :

« إن العالم لما أخذ الله عليه الصدع بالحق ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وأن لا يخاف في الله لومة لائم ، كان معرّضاً من أعداء أنفسهم ، وعبيد أهوائهم للشنآن والنبز بالألقاب ، فتراهم إن وجدوه يميل للنظر في الأدلة على الأحكام ، والوقوف على مآخذ المذاهب والأقوال ، وتحري الأقوم والأصلح ، بدون تعصب لإمام ، ولا تحزب لآخر ، نبزوه بالاجتهاد ، وسموه (مجتهداً) تهكماً ، مع أنه بذلك لم يقم إلا بواجبه .

« وإن أبصروا ميـله لعلوم الحـكمة والرياضيات ، وتشويقه لاقتطـاف ثماره سموه (طبيعياً) .

---

(١) الفتوى في الاسلام ص ٦٦ .

« وإن رأوا حثه على البذل والانفاق في سبيل الله ، ودعواه الموسرين للعطف على البؤساء ، لقبوه اشتراكياً . . . »

وإذا قرأت كتابه « دلائل التوحيد » رأيت فيه حصيلة حسنة من علوم الفلك والجغرافيا والحيوان والنبات والجيولوجيا[1] . وينقل عن الفارابي بحثاً فيرى أنه قد استعمل كلمة (اثولوجيا) فيصححها في الهامش ويقول[2] : كذا في الأصل ، وصوابه (ثه‌ئولوجيا) ومعناها علم الإلهيات .

ويوم ألف في موضوع الجن رسالته الشهيرة « مذاهب الأعراب وفلاسفة الإسلام في الجن » ، لم تفته الاستعانة بطلابه الذين أتقنوا الفرنسية والانكليزية ، فنقلوا له — على ما يظهر — ما جاء في معجم لاروس وفي دائرة المعارف البريطانية ، تحت كلمة « جن »[3] .

ثم يؤلف كتابه « إرشاد الخلق إلى العمل بخبر البرق » ، فيجعل خاتمة (في طرف تاريخية ولطائف أدبية) ، يبحث فيها عن « التلغراف »[4] ومعناه ، واشتقاقه من اللغة اليونانية ، وأول من استعمل الكهرباء في المخابرة عن بعد ، وكذلك « التلفون » ثم يحيل المطالع إلى دوائر المعارف وإلى المعاجم . ولا يغيب عن ذهنه أن يشير في بضعة أسطر إلى (التلغراف اللاسلكي) الذي كان حديث العهد بالظهور ، يوم وضع هذا الكتاب ، حيث لم يمض على تجاربه الأولى أكثر من ثلاث سنوات .

---

(١) ص ٤٨ وغيرها .

(٢) ص ٦٤

(٣) ص ٤٧ - ٤٨

(٤) ص ٧٥

ويحدث أن يصاب عام ١٣٢٠ بمرض « البواسير » ، فيتألم ، ويدفعه ألمه إلى البحث عن هذا المرض بحثاً علمياً ، ويضع في ذلك رسالة معروفة سماها : « ما قاله الأطباء المشاهير ، في علاج البواسير » التي قال عنها الأستاذ الدكتور عزة مريدن عميد كلية الطب وأستاذ علم الأدوية وفن المداواة ، بعد أن اطلع عليها : « رسالة جامعة لكل ما يريد الباحث معرفته مما قيل عن هذا المرض قديماً وحديثاً . ولئن كانت الرسالة لم تتضمن من الأدوية ما عرفت تأثيراته في الأيام الأخيرة ، فلأن المؤلف رحمه الله لم يلحق عهد المُرْدِيَات ، وعهد النهضة الطبية الحديثة . ومع ذلك فإن الرسالة تظل تحمل قيمتها العلمية والأثرية ، فضلاً عما تحمله بين طياتها من معاني الدأب ، والدقة في البحث ، والحرص على الاطلاع . . . »

ويبدو له أن يؤلف كتاباً في « شرف الأسباط » ، ليؤكد أن الاتصال من ناحية الأم ، هو كالاتصال من ناحية الأب ، لا فرق بينهما من الوجهة الشرعية ، ويروي أدلته من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين والأئمة ، ثم يضيف إلى هذا كله ما قاله علماء (البيولوجيا) [1] — علماء الحياة — من موافقة الأولاد لوالديهم في بعض الأوضاع الجسدية ، والصفات النفسية . . .

ويعقد في كتابه « تعطير المشام ، في مآثر دمشق الشام » فصلاً عن « الزراعة في الشام والذرائع لإصلاحها » ، فتراه يشير إلى السمادات الكيماوية وأنواعها : الفسفورية ، والبوتاسية . . . وإلى ضرورة استعمال الآلات الميكانيكية في الحرث والحصاد ، وإلى الآفات والأمراض والحشرات الزراعية وطرق مكافحتها [2] . . .

---

(١) ص ٤٥

(٢) تعطير المشام : ج ٣

ويؤلف كتاباً يسميه « جوامع الآداب » ، فيتحدث فيه عن (أدب النائب في مجلس المبعوثين)[1] . فترى في هذا البحث من معاني الديمقراطية ، ما لم يكن معروفاً ولا مألوفاً في ذلك الزمان ، فالنائب « لا يطلب بين خزائن النقود ، ولا من وراء سجوف النعمة ورغد العيش ، فإن من ترفَّع عنك لا يهبط إليك . »

ولا يفوته حين يشير إلى صفات النائب أن يشترط تضلعه في علم الحقوق ، ومعرفته لحركة المجالس النيابية عند الأمم الراقية ، وإدراكه علائق حكومته بحكومات أوربا ، وما ناليه منا من الامتيازات[2] ، وأن يكون قادراً على الاستخراج من كتب السياسة والإدارة والقضاء بإحدى اللغات الأجنبية .

ويدرك ببصيرته النافذة ما للمخترعات الحديثة من خطر في تطوير المجتمع ، وما ينتظر لها من تقدم وارتقاء فيعلن أن « ما ظهر من التلغراف هو قطرة من بحر ما سيظهر في العصور التالية من المكتشفات والمخترعات (ويخلق ما لا تعلمون) مما فيه مرتفق للناس ، ومنتفع لهم ، وخدمة لعامة طبقاتهم[3] . . . »

ويضيف إلى هذا ضرورة الاستفادة منها فيقول : « فإذا لم تطبق أمورها على الأصول المقررة بالاستنباط أو القياس ، فهل نجمد في الدين ، ونخالف طريقة المتقدمين والمتأخرين ، ونضيق ما وسعه الله من الفهم والاستنباط أبد الآبدين[3] ؟ »

ولم يقف رحمه الله عند حدود كتب الشريعة واللغة والأدب والتاريخ ، وإنما تعداها إلى كتب القوانين الحديثة وشروحها ، والمبادىء التي أخذت بها ،

---

(١) ص ١١٢

(٢) يلاحظ أن هذا البحث كتب في ظل الحكم العثماني .

(٣) إرشاد الخلق ص ٤

فيستشهد بقانون التجارة وشروحه ، وقوة المراسلات — ومنها البرق — في الاثبات بين الخصوم [١] .

ولا يتردد في تقرير كروية الأرض ، في وقت كان الناس يرون القول بها كفراً [٢] .

ويؤلمه جهل المفتين ، فيدعو لا إلى ضرورة إحاطتهم بعلوم الشريعة فحسب ، بل إلى وجوب معرفتهم العلوم الرياضية ، فيعقد لذلك فصلاً هاماً في كتابه « الفتوى في الإسلام [٣] » .

ومن مشاكل العالم الكبرى في العصر الحديث « التمييز بسبب العنصر أو العرق أو اللون » وقد استأثرت هذه المشكلة بأبحاث الكثيرين من العلماء في الشرق والغرب ، كما كانت وما زالت موضوعاً رئيسياً من مواضيع المؤتمرات والهيآت الدولية [٤] . وقد تعجب حين تعلم أن القاسمي قد عالج هذا الموضوع عام ١٣٢١ — ١٩٠٤ فقرر أن « منشأ هذه الخرافة استعباد الزنوج ، وأن من أحنى قامة الذل والهوان ، نهض يطالب بحقوقه المهضومة ، ويناقش ظُلّامَهُ الحساب [٥] . »

---

(١) ارشاد الخلق ص ٥٧

(٢) دلائل التوحيد ص ٣٥

(٣) ص ٤٠

(٤) راجع قرارات مؤتمر الحقوقيين الأسيويين الافريقيين المنعقد في دمشق بين ٧ - ١٠ تشرين الثاني ١٩٥٧ ص ١٥٦ وقرارات مؤتمر التضامن الأسيوي الأفريقي المنعقد في القاهرة .

(٥) دفتر أواخر شوال ١٣٢١ (مخطوط) الورقة ٣٩

ويرى أن « السياسة مصابرة المكاره ، ومسايرة الأهوال والمصاعب ، وركوب الأسنة ، وتحيّن الفرص والظروف . وأن أصارع القويّ وأنا الضعيف ، وأكافح الكميّ وأنا الأعزل[1] » .

وقد أولع عام ١٣٢٤ — ١٩٠٧ بفقه اللغات (فيلولوجيا) ، وأخذ يبحث عن أصول بعض الألفاظ المعرّبة من لغاتها الأصلية : اليونانية ، والسريانية ، والعبرية ، والفارسية ، والقبطية ، والألمانية ، والإيطالية ، والفرنسية وغيرها . وقيد في مفكرته اليومية[2] لذلك العام بعض دراساته في هذا الموضوع العلمي ، مشيراً أحياناً إلى مصدرها .

وعلى الجملة فقد كان آخذاً بأطراف المعرفة من كل سبب ، لم يمنعه عن ذلك مخالفة في الدين أو المذهب أو العقيدة أو الطريقة . وأتاحت له حريته الفكرية أن يجول في آثار عقول الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم ، يحدوه إلى ذلك رغبته في خدمة الشريعة ، وهدفه في الإفادة والاستفادة .

* * *

---

(١) المصدر نفسه الورقة ٤٢

(٢) ٢١ - ٣٠ ذي الحجة ١٣٢٤

دراسته للكتب

كانت للقاسمي طريقة فريدة في دراسة الكتب التي يقتنيها . فإذا كان الكتاب من كتب المطالعة ، فقد قرأه القاسمي حتماً من ألفه إلى يائه ، وإذا كان من كتب المراجعة ، كالمعاجم ، فإن القاسمي قد رجع إليه مرات .

فأما كتب المطالعة ، فلها فهرس خاص ، يضعه القاسمي نفسه على غلاف الكتاب ، المواضيع التي يحتاج إليها ، وإذا كان الموضوع هاماً أشار بين هلالين بلفظ (مهم) ، أو (مهم جداً) ، وربما وضع هذه الإشارة بالحبر الأحمر ، وندر أن خلا كتاب في مكتبته التي بلغت حتى يوم وفاته أكثر من ألفي مجلد ، من هذا الفهرس .

وتشترك كتب المطالعة وكتب المراجعة بالهوامش والحواشي ، إما للايضاح ، وإما للتعليق ، مخالفاً للمؤلف أو موافقاً له . وهذه الهوامش والحواشي تعطيك صورة واضحة عن الطريقة التي كان يسلكها لدراسة كتبه ، وعن عقله وآرائه وأفكاره ، وعما كان يعتلج في صدره خلال الدراسة .

ولقد اخترت انموذجاً من كتب المطالعة ، كتاب « أدب الكاتب » لابن قتيبة . فلقد اقتناه القاسمي عام ١٣٢٠ هـ ، أي في السنة التي كان له فيها من العمر

سبعة وثلاثون عاماً . وهي السنة التي اعتبرها حداً فاصلاً بين مؤلفاته التي أجازها ، وبين مؤلفاته التي « له فيها وقفة ونظر » ، كما دون ذلك في مفكراته الخاصة . هذه النسخة من « أدب الكاتب » مطبوعة سنة ١٣٠٠ في مطبعة الوطن بمصر ، وأظن أنها أول طبعة لهذا الكتاب . وقد خلت من الضبط والشكل والفواصل . والكتاب كما تعلم من كتب الأمهات ، التي لا بد للأديب من أن يقف عليها . ولهذا رأيت القاسمي يهتم بالكتاب اهتماماً بالغاً . والظاهر أنه قد أقرأه لبعض طلابه من الشباب ، ورأى أن لا تضيع الفوائد التي يلقنها للطلاب ، فسجلها على هوامش الكتاب ، كما ترى انموذجاً عنها في القسم المخصص للصور من هذا الكتاب .

كتب القاسمي هذه الهوامش بمنتهى العناية ، بخطه الفارسي الأنيق ، فجاءت كالوشي المنمنم ، الذي لا تتقنه إلا اليد الصَّنَاع الماهرة . ولعلك تلحظ جمال الخط ، وإذا ما قارنته بالأصل ، الذي يفترض أن يكون غاية في جمال حروف المطابع في ذلك العصر ، رأيت أن الهوامش أجمل خطاً من الأصل ، أضف إلى ذلك العناية الفائقة في إيضاح كل لفظ ينبغي إيضاحه ، بحيث لا يدع مجالاً للطالب المبتدئ أن يرجع إلى المعاجم لايضاح ما استغلق عليه : فالاصطفاق مثلاً : الصوت ، والمزاهر : جمع مزهر ، وهو عود الغناء ، والمعاطات (كذا بالأصل) فيصححها القاسمي في الهامش ويكتب : (المعاطاة : المناولة ، أن تأخذ منه ويأخذ منك) .

كذلك لم يدع القاسمي مجالاً للطالب الناشئ أن يرجع إلى الكتب الاصطلاحية ، ولا سيما الفلاسفة وعلماء الكلام : فالقضاء : الحكم بدلائل النجوم

على ما يحدث من الأمور . والكون : هو خروج الشيء من العدم إلى الوجود . والفساد : خروج الشيء من الوجود إلى العدم . . .

ولا بأس في أن أشير هنا أيضاً إلى أن هذه الأرقام التي تراها في الأصل وفي الهامش ، مكتوبة بالحبر الأحمر .

كذلك لم تخل كتب المراجعة من هوامش مفيدة . فعلى نسخته من « تاج العروس » مثلاً تعليقات كثيرة نافعة . ويغلب على ظني أنه كتبها ، أو كتب معظمها في الفترة التي ألف فيها تفسيره « محاسن التأويل » . وقد أشار إلى ذلك في عدة مواضع بقوله : « كما في القاموس وشرحه » ، أو بقوله : « وعبارة التاج . . . » .

* * *

وقف المكتبة

عرف القاسمي قيمة الكتاب ، وأدرك منزلته في البيت ، وفي المدرسة ، وفي المكتبات العامة ، وفي المجتمع . كما عرف أثره في بناء الأمة ، وارتقاء عقول أبنائها . فهو لهذا كان يدعو طلابه لاقتناء الكتب ، ولم يكن يضنّ على طلابه وعلى أصدقائه بإعارتها .

ولقد وصف القاسمي الكتاب في إحدي رسائله إلى محمد نصيف فقال : « الكتاب خيرٌ من ألف داعية وخطيب ، لأنه يقرؤه الموافق والمخالف . . . » .

والظاهر أنه قد خاف على مكتبته من التشتت أو الضياع ، أو أنه خشي أن تمس الحاجة من تصل إلى أيديهم كتبه ، فيبيعونها ، ولذلك فقد سجل على معظمها وقفاً لها بعبارة تكاد تكون متماثلة قال فيها[1] :

« وقف هذا الجزء والتسعة بعده الفقير محمد جمال الدين القاسمي على أولاده وأولادهم ، ثم على أقربائه من بعدهم ، ثم على طلبة العلم . في ٢٠ شعبان ١٣١٩ » .

---

(١) نقلت هذه العبارة عن الجزء الأول من تاج العروس .

دروس الخاصّة

تفرد القاسمي بين علماء الدين في عصره بمزايا لم تجتمع في غيره ، كالحرية الفكرية ، وطلاقة اللسان ، وعذوبة البيان ، والتمكن من اللغة ، وسعة الاطلاع ، وقوة الحجة ، واستحضار الدليل ، والبراعة في إدارة الحديث ، والرقة في المناقشة ، والدفع بالتي هي أحسن . إلى ما وهبه الله من خصال شخصية ، وسجايا ذاتية ، كالإيناس ، ورقة الحاشية ، ومكارم الأخلاق ، وتقوى في طاعة الله .

ولقد حببت هذه المزايا إلى شباب الجيل المتعلم الشيخَ ومجالسه ، فأخذوا في ارتيادها ، والعب من معينها ، والتقاط فوائدها .

ولقد سمعت من عمي قاسم خير الدين ومن غيره من تلامذة القاسمي ، أنه قد نظم لهم اجتماعاً دورياً في داره ، مرة أو مرتين في الاسبوع ، كان الغرض المبدئي منه قراءة كتاب من الكتب ، كتهافت الفلاسفة للغزالي تارة ، أو مقدمة ابن خلدون تارة أخرى . وقد كان الكتاب يقرأ فعلاً ، ويتخلل القراءة كثير من المناقشات والمساجلات ، بعضها يتعلق بالدين ، فيرد على استيضاحات يطرحها أحد هؤلاء الشباب ، أو على شبه حاكت في الصدر ، وكثيراً ما كانت هذه المساجلات محاضرات مطولة في موضوع من مواضيع الدين . وقد مكنت بلاغة القاسمي من اغتصاب انتباه السامعين وإصغائهم .

وكثيراً ما تطور البحث إلى شؤون السياسة التي كانت مشغلة فريق من هؤلاء الشباب . وكان القاسمي يبحث فيها بكثير من الحرية والسداد .

وكان بين المترددين على هذه المجالس الأمير شكيب أرسلان ، يوم يكون في دمشق ، والدكتور عبد الرحمن شهبندر ، وشكري العسلي ، وعبد الوهاب الانكليزي ، وفارس الخوري ، ولطفي الحفار ، ومحمد كرد علي ، وصادق النقشبندي ، وسليم الجزائري وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم .

وقد بلغ غرام هذه الفئة من الشباب بالقاسمي أن طلبوا إليه الموافقة على عقد اجتماعات مطولة تستغرق النهار بكامله في بعض متنزهات دمشق . وقد أجابهم إلى طلبهم هذا ، وحضر بعضها الشيخ طاهر الجزائري . وكانت هذه النزهات وما زالت تسمى باصطلاح الشاميين (سيران) . وقد سمعت ممن حضر بعض هذه السيارين حنيناً إلى أيامها ، وكم كان فيها من المتع والفوائد .

إن التفاف فئة من شباب الجيل المثقف ، تعلمت الطب أو القانون أو الهندسه ، أو غير ذلك من العلوم ، في أرقى المعاهد المعروفة في ذلك العصر ، كالجامعة الاميركية ، أو في القسطنطينية ، أو باريس ، واستئناسها بمجالس الشيخ ، وحرصها عليها ، ودؤوبها على متابعتها ، أمر يستدعي كثيراً من الوقوف والتأمل . فما كان لهذه الفئة من الشباب أن تأنس بغير مجالسها ، ومواضيعها ، وما ألفت من بحوث . وهم بعدُ خلاصة رجال القومية العربية في ذلك الزمان ، وطليعة العاملين في النهضة الحديثة . ولولا أن هنالك حساً عميقاً لدى هذه الفئة بفضائل

القاسمي ومزاياه ، وإمكان الانتفاع منها ، لما رغبت في هذه المجالس ، ولما حرصت عليها ، وثابرت على متابعتها .

ولا شك في أن جاذبية شخصية القاسمي قد كانت عاملاً قوياً في هذه الألفة الوثيقة ، ولا شك كذلك في أن القاسمي قد انتفع ببعض ما تعلمت هذه الفئة ، بحكم ثقافتها العصرية ، واطلاعها على اللغات الأجنبية . وقد مر بك أنه قرأ على واحد منها كتاباً في الرياضيات ، وعلى آخر كتاباً في الجغرافيا .

لقد تضمنت مذكرات القاسمي إشارات هـامة إلى صلة الشباب المثقف به ، ومبلغ تقديره لهم ، وإعجابه بهم ، سأسرد بعضها على سبيل المثال ، لا على سبيل الحصر ، وسترى من هذه الإشارات أحكاماً خاطفة على طليعة العـاملين للقومية العربية . قال :

« زارنا في الضحوة الشيخ أحمد بن الشيخ عبد الرزاق (البيطار) ، يقدم المعذرة عن أبيه في عدم إمكان حضوره على الموعد ، وهو موعد الذهاب إلى المليحة ، إذ كان الوعد أن نذهب إليها إجابة لدعوة عبد الوهاب أفندي الانكليزي ، صديقنا الكاتب النبيه ، وقد خرجنا نحن والشيخ طاهر بعد العصر ، ومعي قاسم أخي ، ونمنا في بيته داخل بستانه [1] » .

« زارني في الضحوة الأمير شكيب ومعه صديقنا شكري أفندي العسلي الأديب النبيه ، فأنست بهما ، وطالت الحصة معهما وطابت [2] » .

---

(١) الثلاثاء ٦ ربيع الثاني ١٣٢٤ - ٢٩ أيار ١٩٠٦

(٢) الخميس ٢٥ رجب ١٣٢٤ - ١٣ ايلول ١٩٠٦

« زارني بعد العشاء الشيخ طاهر والشيخ عبد القادر الدوماني ـ صاحبنا ـ ثم الرفقة الثلاث : عبد الرحمن أفندي الشهبندر ، وشكري أفندي العسلي ، وعبد الوهاب أفندي الانكليزي ، وطال المجلس وطاب لهم [(١)] » .

« بعد العشاء زارني . . . وعبد الرحمن أفندي الشهبندر ـ الطبيب الجديد ـ وشكري أفندي العسلي ، وعبد الوهاب أفندي الانكليزي ، وسليم أفندي الجزائري فأنست بهم [(٢)] » .

« . . . وبعد العشاء زارني سليم أفندي الجزائري ، وعبد الوهاب أفندي الانكليزي . . . وطال السمر إلى نحو الساعة الخامسة [(٣)] » .

« . . . وحضر في غيابي عبد الوهاب أفندي وسليم أفندي الجزائري ، فراجعوا من عندنا مجاميع خطية ، وصادفوا في إحداها بيتين نقلوهما ، وهما :

بلينا بقوم كالبهائم لم يعوا — أراذل خلق في صفات أكابر
ولو شاء ربي خصهم بثلاثة — قرون وأذناب وشق حوافر [(٤)] » .

فاعجب لهذين الشابين ، يحضران إلى بيت الشيخ ، وهو غائب عنه ، فلا ينصرفان عنه ، ويدخلان للانتفاع من المكتبة ، إن لم يقدر لهما الانتفاع من صاحبها . ثم لا يلبث الشيخ أن يحضر ، فتعجبه مطالعاتهما ، ومختاراتهما ،

---

(١) الاربعاء ١ شعبان ١٣٢٤ - ١٩ أيلول ١٩٠٦
(٢) الجمعة ٣ شعبان ١٣٢٤ - ٢١ ايلول ١٩٠٦
(٣) الاربعاء ٢٩ شعبان ١٣٢٤ - ١٧ تشرين الاول ١٩٠٦
(٤) الاحد ١٠ رمضان ١٣٢٤ - ٢٨ تشرين الاول ١٩٠٦

فيسجلها في مذكراته ، وفيها ما فيها من الدلالة على روح العصر وأمراضه ، وما يشكو منه أحراره ومثقفوه .

ويخطر للشهيد سليم الجزائري أن يكتب مقالاً موضوعه « ميزان التعقل » وقبل أن ينشره على الناس يعرضه على القاسمي ليبين له رأيه فيه . يقول القاسمي :

« وبعد العشاء زارني الأديب سليم أفندي الجزائري ، وأراني مقالة سماها (ميزان التعقل) ، بحث فيها عن مسيس الحاجة للمنطق بحثاً في قالب بيان سره ، وخلاصة مباحثه .

ولا يكتفي الشهيد سليم الجزائري بهذه الجلسة ، فيعود بعد يومين مع رفاق له ، لاستئناف البحث ، يقول القاسمي :

« زارني بعد العشاء سليم أفندي الجزائري ومعه أسعد أفندي بنباشي وبقية رفقتهم ، وتم ما صححته له من مقالة (ميزان التعقل) ، وفيها عبارات أشرت عليها بحذفها ، والاستعاضة عنها . فلا أدري أيمتثل أم لا ! نسأله تعالى أن يجعل كتابنا ونبهاءنا ممن يعضد الدين ، ويدعم قواعد اليقين ، ويوقف نفسه على نشر محاسن الإسلام ، بمنّه وكرمه » .

* * *

رحلاته

عرف القاسمي ما للسياحة من فوائد ، وقد أشار إليها مفصلاً بمعرض تفسير قوله تعالى : « عَسىٰ رَبُّهُ إنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تَائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ » وقد عزا هذا الفصل إلى بعض المحققين [1] .

وكانت رحلته الأولى إلى وادي العجم عام ١٣١٠ هـ . وهذا الوادي ، على قربه اليوم من دمشق ، إلا أنه كان يعتبر بالنسبة إلى وسائل المواصلات في ذلك العصر ، من الأماكن التي تشد الرحال إليها . وقد ذكر السبب الذي حداه إلى هذه الرحلة في رسالة له مازالت مخطوطة سماها : « بذل الهمم في موعظة أهل وادي العجم » .

وكانت رحلته الثانية إلى النبك عام ١٣١١ هـ ، ووضع فيها رسالة سماها : « حسن السبك في الرحلة إلى قضاء النبك » ، وقد أشرنا إليها سابقاً .

وفي عام ١٣١٤ هـ رحل إلى حوران .

وفي عام ١٣٢١ هـ قام برحلتين هامتين : إحداهما في محرم ١٣٢١ إلى بيت

(١) محاسن التأويل ج ١٦ ص ٥٨٦٤ وما بعدها .

المقدس ، والثانية في أواخر رجب من السنة نفسها إلى مصر . كما رحل عام ١٣٢٨ هـ إلى المدينة المنورة . وقد دون هذه الرحلات بخطه .

وقد آثرنا نشرها بكاملها ، لما فيها من الفوائد ، على الرغم من أنه لم يكن يتصور نشرها يوم كتبها ، بدليل أنه قال في خاتمة رحلته إلى البيت المقدس :

« هذا ولما كان مقصدي تقييد زمن هذه الرحلة في هذا الدفتر ، لتكون تذكاراً لي ولمن يتشوف إلى وقتها من أهلي ، اقتصرت على هذه الكلمات ، وأضربت صفحاً عن تاريخ البلاد التي مررت عليها ، وذكر جغرافيتها ، وحالها قديماً وحديثاً ، خشية الطول ، والخروج عن الموضوع » .

ولكن هذه الصفحات وإن كانت قد كتبت « تذكاراً » له ولأهله ، إلا أنها اليوم وثيقة هامة في أمور شتى ، نستطيع أن نستخلصها منها ، وحرية بأن تكون موضوع دراسة جدية . وقبل أن أسردها عليك بحروفها ، أرى أن أحاول إبراز بعض خطوطها ، وبيان جزء من مضامينها الهامة ، تنبيهاً عليها ، وتسهيلاً لقراءتها :

فلقد عرفت أن القاسمي كان رجلاً فريداً بين رجال الدين ، وهو اليوم إذ يتهيأ للرحلة ، يقرأ ورد السفر ، ولكنه إلى جانب ذلك يفكر كيف سيقضي رحلته هذه ، إنه سيمر ببقاع لا يعرف عنها شيئاً ، ولا يتوسم معرفة ذلك عند أحد من الرفاق أو الأدلاء ، ولهذا يلجأ إلى ما يلجأ إليه اليوم علماء الغرب ، والطبقة العليا من الرحالة والسائحين ، فيصطحب معه ثلاثة كتب ، بغية الرجوع إليها ، والاسترشاد بما جاء فيها عن البلاد التي سيمر بها ، فيقول :

« وكنت أراجع لجغرافية ما مررنا عليه من الجبال والبلاد والقرى كتاب الجغرافية العمومية ، وكتاب تاريخ المملكة السورية ، وكتاب دليل الزوار ، ففيها من تحقيق الكتابين لبعض شؤون ذلك ما يزداد به إحاطة » .

فالرحلة قد تكون للترويح عن النفس ، وقد تكون للهو ، وقد تكون لزيارة البيت المقدس ، وقد تكون لذلك جميعاً ، ولكنها إلى جانب ذلك ، رحلة من رحلات العلم ، يحقق فيها القاسمي عن جغرافية البلاد وتاريخها ، ليزداد إحاطة بعلم ما ترى عيناه .

وسترى القاسمي في هذه الرحلة إنساناً يحب الطبيعة ، ويفتتن بمغانيها ، ويبتهج بجمالها ، ويمتع نفسه « بالضواحي الخصبة ، والجبال المملوءة بالكلأ ، المفروشة بأصناف الزهور المتنوعة الأشكال . . . » وإذا رأى عيناً جارية أحب أن يقضي نهاره بالقرب منها . ولما دخل قصر آل الدجاني في متنزه قريب من يافا ألفى « قصراً شائقاً ، تحف به رياض بديعة ، وللبصر في جوانبه مجال ، ولا يحجب فيحاءه جبال ولا تلال » . وحينما زار متنزهاً في يافا للألمان وجده قد « ضم صنوفاً من الطيور الغريبة ، والحيوانات العجيبة » .

كذلك كان القاسمي مولعاً بالآثار ، حريصاً على زيارتها :

فإذا ما وصل إلى مدينة عمان « تجول في معظم أرجائها ، وشاهد آثارها وخرائبها ، المدهشة ببقاياها ، وبعض مقابرها الحجرية التي أخذت في الظهور . . . وصعد إلى جبلها ، ورأى سور القلعة والحصون والأسوار والأعمدة المنقضة فيه ، وسار إلى مدخل سرداب تلك القلعة فأبصر غرائب جمة ، وآثار عمران سلفت مدهشة » .

ولقد كان له في الرحلة رفيقان ، أحدهما الشيخ عبد اللطيف الصفدي ، وثانيهما الشيخ ياسين الفرا . ولكنه قد اصطحب رفاقاً آخرين ، وهم أصدق الرفاق ، وأوفى الأصدقاء ، أعني بعض الكتب ، التي قال عنها إنها « زاد أرواحنا » . فإذا ما حل بلداً ما ، أسرع إليه علماؤها ، وأخذوا بمذاكرات علمية ، هي « أحلى من منادمة العروس ! ! » .

ولا يفوته أن يلاحظ في مدينة عمان ازدياد تجارتها ، ونماء عمرانها ، وأن يذكر تهافت الناس على مدينة السلط ، ويرى أن سبب التهافت هو « لذة مورد الثروة الذي ذاقوه من معاملة الأعراب حولها . . . » .

ولما هبط عمان « وفد فقهاء الشراكسة لزيارته » ، فإذا هو يرى لدى هذا العرق المسلم عادات وتقاليد ، اجتماعية ودينية ، لم يألفها عند قومه ، « فلهم تأنق في تهيئة الشاي ، واقتصاد في المعيشة غريب » ، وينكر عليهم حملهم للسلاح في صلاة الجماعة ، ويذاكر فقيههم في ذلك ، فيجيبه : هذا من أخذ الحذر من العدو ، فيقول : أما في وقت الخوف فمسلّم ، وأما في الأمان فلا معنى له ! ويلاحظ أن لهم عادات خاصة في دفن الموتى ، وفي التعزية ، وفي الإعلام عن الميت ، فلا تفوته الإشارة إليها . ويثني على تمهلهم بعد صلاة الجماعة ، وعلى عزوفهم عن اللغو في المسجد .

ويرى من واجبه أن ينقد بعض ما يتفق له من سوء استعمال السلطة ، فإذا صادر « بعض العسكر الهمج » الدواب التي كانت معدة لركوبه ، فأخرت سفره ، قال عمن صادرها (أخزاهم الله !) ، ثم يضيف : « ومثل هذه العادة في تسخير

الدواب قهراً عن أربابهـا مألوفة في دمشق أيضاً كثيراً ، ولا زاجر ولا رادع ، وإنا لله ! » .

وإذا مرّ على جسر وجد بابه مغلقـاً لا يفتح إلا بجعل معلوم ، فيقول : « وليت إذ أبوا إلا الخراج أو الضريبة على من يمر عليه ، وفقوا لبنائه من قناطر حجريه ، أسوة بمن كان يبني من الأمراء الأقدمين . كذلك فإنا لله وإنا إليه راجعون ! ! » .

وإذا كان في العربة على الطريق مع مفتي يافا ، استوقفهم إنسان ، وطالبهم برسم المرور ، فيقول المفتي : « هذا ونظراؤه من جباة المكوس ، من يصدق عليهم قوله تعالى : « وَتَقْعُدُونَ بِكُلِّ صِراطٍ تُوعَدُونَ » .

وإذا ما دخل البيت المقدس « حسبه قطعة من الجنة » ، فدخله وهو يكفكف « الدمع فينهمل » ويودعه وهو « يكفكف الدمع وينهمل » . ويأبى أن يقيم إلا في الحرم ، لأنه الغرض من هذه الرحلة . ولـكن الرحلة لا تتم إلا بزيارة المكتبات ، فيتردد على المـكتبة الخالدية ، ويكثر من الترداد عليها ، حتى إذا وجد فيها نسخة جيدة من كتـاب الشفاء للقاضي عياض ، استعـارها مغتبطاً ، وقابل نسخته التي اصطحبها عليها ، وأعانه على المقـابلة رفيقاه . ويُطلب إليه أن يقرأ درساً عاماً ، فيمتنع « خوفاً من العُجب ، فتحبط الرحلة » .

ويزور المدرسة الصلاحية التي أصبحت كنيسة « بسعاية من باع دينه بدنياه » ، ويرتاب في ذلك على الرغم من أنه شـاهد « التاريخ الصلاحي » على بابهـا ،

فيحقق في الكتب ، حتى يرى في كتاب الروضتين ما يطمئن معه قلبه إلى صدق الرواية ، وإلى أن أصلها مدرسة .

ويزور كنائس أخرى ، منها « الجسمانية » التي قيل إن قبر السيدة مريم عليها السلام فيها ومنها « كنيسة القيامة » فيراها « موضعاً موضعاً » . والظاهر أنه قد وجد من اعترض على هذه الزيارات ، وإذا هو يعقب عليها بما سماه « فائدة » يورد فيها النصوص التي تجيز زيارة الكنائس ، رداً على المعترضين .

ويسمع بمطبعة اسمها « مطبعة اللاتين » ، فيها (وابوراً بخارياً) ، فيقصد إليها ، ويتتبع ما فيها ، ويعجب به أصحابها الرهبان على ما يظهر ، فيهدون إليه مختصر التوراة من طبعهم .

ولا ينسى القاسمي أنه أب ، فيتزود ببعض الهدايا « للأولاد والعيال » .

وتعرض بعض الرؤى فيؤولها مستبشراً بها .

وستمر معك بعض الألفاظ الأعجمية التي كانت شائعة في ذلك العصر ، ولم يوضع لها مقابل بالعربية ، أو وضع ولكنه لم يصقل في الاستعمال ، كالوابور ، والفركون ، والقومندان ، وما ماثلها . وعذر القاسمي في استعمالها أنها كانت وحدها الدائرة على الألسن وعلى الأقلام ، وأن المصطلحات الحديثة لم تبلغ يومئذ ما بلغت في هذه الأيام .

هذا بعض ما في رحلة البيت المقدس من الفوائد ، أشرنا إليها إشارة سريعة . وقد تكون لدى الباحثين مصدراً من المصادر الموثوقة الهامة .

وقد آن أن تقرأ ما كتب القاسمي بخطه ، قال رحمه الله :

في رحلتي إلى البيت المقدس

« لم أزل كثير التشوق لزيارة تلك الأماكن المباركة منتظراً للفرصة حتى حانت ، فشددنا ساعد الهمة ، وأبرزناها من القول إلى الفعل ، وذلك في أواخر شهر محرم فاتح سنة (١٣٢١) ، ونوينا الذهاب من طريق البر .

« ثم في صباح الأحد ٢٩ محرم المذكور خرجنا من دارنا طلوع الشمس ، بعد أن قرأنا ورد المسافر ، وجيء لنا بعربة فوقفت أمام حارتنا وهي زقاق العلامة المكتبي ظاهر باب الجابية ، المجاور لجامع الزيتونة ، فاستطرناها إلى محطة الميدان ، وسار لوداعنا لفيف من الأهل والأصحاب .

« ثم تحرك بنا وابور مزيريب ، ولم يزل يجوب تلك البلاد الحورانية المخصبة المونقة ، إلى أن وصلنا إلى قرية مزيريب قرب الظهر ، فنزلنا ثمة . وبعد أداء فريضة الظهر مقصورة مجموعة مع العصر قرب عين البجة تجولنا في أرجاء أخبية التجار ريثما يسافر الوابور الحجازي إلى عمان . وبعد العصر تحرك الوابور المذكور وسار إلى درعا فوصلنا قرب المغرب .

« واتفق أن رافقنا من مزيريب إلى درعا أحد ضباط العسكرية فنوه بنا لدى قومندان العسكر المقيمة هناك ، فأوفد إلينا القومندان من العسكر من نقل أمتعتنا

إلى فركون مشير الخط الحجـازي . وغب وضع أمتعتنا فيـــه تجولنا في تلك الفيحاء النضرة .

« وكان طير خبر قدومنا إلى قاضي درعا أحد وجهاء دمشق ، وكان مرافقاً لنا في الوابور وحل ضيفـاً عنده . ففي الحال أرسل القاضي لنـا ثلاث دواب لطول المسافة ما بين المحطة والبلد . وكنا أدينا فرض المغرب ونافلته والورد عقبه ، فامتطينا تلك الجياد ، وتلقانا القاضي على بعد بالترحاب ، وأنزلنا في داره ، وبذل جهده في الإيناس والإكرام . وغب أداء فريضة العشاء أعد لنـا من التخوت والفرش أبدعها ، فحمدنا المولى على ذلك ، وتفاءلنا بالمسرة والرفاهية في هذه الرحلة من هذا العنوان . ثم عزم في الصباح علينا القاضي في المقام عنده بضعة أيام ، فأبينـا . ثم ودعنا ضحوة النهار وسرنا إلى محطة الوابور ، ودعانا بعض ضباط العسكر ثمة ، فأقمنا عندهم ريثما يتحرك الوابور . وبعد تناول الغداء عندهم حضر وقت الظهر ، فجمعناه مع العصر ، ثم ركبنا الوابور الحجازي ، وطار بنا يجوب قرى حوران ، إلى أن بلغ منتهاها ، ثم السهل بعدها إلى الزرقاء ، ثم إلى محطة عمان ، فوقف هناك قبيل الغروب .

« وكان خرج لاستقبالنا من عمان بعض الخلان ، وأحضر لنا الدواب فركبناها ، وسرنا إلى عمان فوصلناها بعد الغروب بنحو ساعة . ووفد لزيارتنا في الصباح فقهاء الجراكسة هناك ، ووجهاؤها ، وأقمنا فيها عشرة أيام ننتظر فراغ أحد رفقائنا من علاقة له تجارية بها . وتجولنا في خلال هذه المدة في معظم أرجائهـا ، وشاهدنا آثارها وخرائبها ، المدهشه بقاياها ، وبعض مقابرها الحجرية التي أخذت في الظهور في ناحيتها القبلية ، من بيت شيد هناك ، وصعدنا إلى جبلها ورأينا رسوم تلك

القلعة والحصون والأسوار والأعمدة المنقضة فيه ، وسرنا يوماً إلى مدخل سرداب تلك القلعة من جهة جنوب البلدة تحت طرف جبلها ، وأبصرنا غرائب جمة ، وآثار عمران سلفت مدهشة . »

وأعقب ذلك بذكر نبذة من تاريخ عمان ثم قال :

عوداً على بدء

« وقد قيّض المولى لنا في عمان أحد الأخلاء الدمشقيين المقيمين ثمة لمأمورية ، فبذل وسعه في الإكرام والإيناس الزائد ، ورأينا من إقبال فقهاء الجراكسة ووجهائها المقيمين هناك ما لم نتأمله ، فكانوا يتسابقون للاجتماع بالمحالّ التي نتنزه في فيحائها ، ونقيم سحابة النهار في وارف أفيائها . ولم تفتر ولائمهم لأجلنا في الصباح والمساء ، ولهم تأنق في تهيئة الشاي ، واقتصاد في المعيشة غريب . ورام خطيب عمان أن يوكلني في خطبة الجمعة بها فأبيت عليه ، كيلا يختلف الحال على المصلين ، وظهر لي أن إبقاء ترتيبهم بخطيبهم أولى . ودعانا أيضاً في خلال ذلك أحد ضباط العسكر المقيمين هناك لمأمورية الخط الحجازي ، وكان مع رفقته ضارباً خباءه في قمة جبل عمان الشمالي ، فذهبنا إليهم ، وأشرفنا على تلك البطاح الغنـــاء ، وانتشقنا ذاك الهواء .

« هذا ولم تخل بحمده تعالى مجامعنا عن مذاكرات علمية ، ولطـائف أدبية ، ومفاكهات تستروح إليهـا النفوس ، واستصحاب كتب أشهى لدينـا من منادمة العروس . هذا وتجارة البلدة آخذة في المزيد ، كما أن عمرانها ، لـكثرة النازلين فيها ، وتوالدهم ، في تقدم أيضاً .

« وذاكرت فقيههم في عادة حملهم السلاح ، وشده بزنارهم ، حضراً وسفراً ، وأن الأولى بهم تركه حضراً ، ولاسيما في الجماعة في المسجد ، فقال : هذا من أخذ الحذر من العدو . فقلت : أما في وقت الخوف فمسلّم ، وأما في الأمان فلا معنى له ! ثم علمت أنهم ماشون في هذا مع عوائدهم وأزيائهم . وشاهدتهم في دفنهم الموتى يختارون اللحد ، ويتقدم فقيههم معيناً للحفار في المقبرة بلا مبالاة ، ويصلون على موتاهم قرب المقبرة ، ثم ينصرفون إلى تعزية أهل الميت في بيته ، ويجلسون بضع دقائق ، ولا يقف المعزّى في محل كما جرت العادة بالشام ، ويعلمون على الميت صغيراً أو كبيراً . ولهم تمهل حسن بعد أداء الجماعات في المسجد ، فلا يسرعون الانصراف ، ولا يلغون في حرم المسجد أصلاً . وقبل صلاة الجمعة يتحلقون في المسجد حول صفّ من القرآن ، يقرؤون مناوبة ، كل واحد ربعاً ، وهكذا إلى الأذان . وقد كانت مدة إقامتنا في عمان عشرة أيام .

« ثم مساء الخميس عاشر صفر الخير ، بعد أداء فريضة العصر ، توجهنا من عمان بقصد السلط ، فودعنا الأحباب وسرنا من الطريق الآخذ إليها ، وشاهدنا ضواحيها المخصبة ، وجبالها المملوءة بالكلأ ، المفروشة بأصناف الزهور المتنوعة الأشكال . ولما أبصرت الخصب المدهش في بطاحها ، علمت أن لذلك اتخذت قديماً عاصمة مملكة ، وشيدت لها القلاع والحصون ، وبسببه يضرب المثل بسمن البلقاء . ومررنا في الطريق على عيون لطيفة ، صادفنا عند إحداها المغرب ، فتوضأنا ثمة وأدينا الفريضة . ثم أخذنا بعد ذلك في وهاد منخفضة ، وجبال شامخة ، إلى أن وصلنا بعونه تعالى نحو الساعة الرابعة ليلاً إلى السلط . وكان خرج لاستقبالنا عند المساء أصحابنا هناك ، وبقوا بعد الغروب حصة كبيرة ، ولما استبطؤوا قدومنا عادوا

إلى بيوتهم . وسبب تأخرنا عنهم ، مع أنهم أرسلوا لنـــا الدواب من عندهم ، وتحققوا وصولنا لطرفهم المغرب ، أن دوابهم لما وصلت لعمان وقت الظهر ، سلط على المكاري بعض العسكر الهمج فاستاق دوابه منه ، وعيي أن ينقذها منهم فما قدر ، بل جلدوه على فخذه عدة جلدات ، أخزاهم الله تعالى ! وكان بعض ظلمة الضباط أمرهم إذا ظفروا بدواب أن يأتوا بها ، ليحملوا عليهـا عند محطة عمان بعض أمتعة العساكر القـادمة من الحج . ولما بلغنا ذلك أرسلنا أحد أحبابنـا لاستنقاذهـا ، فسار من عمان إلى محطة الوابور وقت الظهيرة ، وكلم مقدم العسكر هنـاك فسرحها ، وأتى المـكاري في صحبته ، فعندئذ أخـذنا في التأهب ، وتأخر الوقت المنتظر قدومنا فيـه للسلط . ومثل هذه العادة في تسخير الدواب قهراً عن أربابها مألوفة في دمشق أيضاً كثيراً ، ولا زاجر ولا رادع ، فإنا لله !

« وكان نزولنا في السلط عند أخوال ابني ضياء الدين سلمه الله تعالى ، وعمره بالعلم والطاعة ، حيث متجرهم مع العرب ثمة ، ولهم هناك دار يقطنونها بالتناوب نحو نصف عام ، ثم يعودون للشام .

« وفي الصباح قدم لزيارتنا وجهاء السلط ولفيف من موظفي حكومتهـا ، ثم أخذ يتوافد علينا من عرفنا قبل ، ومن تعرف بنا هناك ، ليلاً ونهاراً ، وغصت مجالسنا بهم وزادت على مجتمعات عمان . وكان أحد رفقائي يقول لي : إن طالعنا طالع جمع شمل ، وصفو وقت .

« واستحسنت من متنزهات السلط حدائق عين الجادور ، في أغلب الأوقات نستغرق

لديها النهار إلى المساء ، ومعنا كتبنا التي هي زاد أرواحنا . وكان يأتينـا غداؤنا بحمده تعالى إليها ، ويفد إلينا عند المساء بقية أصحابنا ، ونقرأ عليهم مما معنا ، ويمضي الوقت في مسائل ولطائف . وهكذا قضينا عشرة أيام كانت مظهراً للأنس والسرور ، بحمد الله الشكور . وانتزهنا يوماً جهة قبة الجادور بين حدائق العنب ، وتجولنا في تلك الرياض الشماء .

« وقد أخذ الآن يستفحل عمران السلط ، وأصبحت تشاد فيها البيوت المرتفعة ، بنهضة عجيبة ، وأكثر أهلها من نابلس ، ولا يزالون يتوافدون إليهـا للتجارة والعمارة والولاية في الحكومة ، بحيث كادت تسمى نابلس الثانية ، أو الصغرى . وسبب تهـافتهم عليها لذة مورد الثروة الذي ذاقوه من معاملة الأعراب البـادين حولها ، ومعاملتهم لهم على أصناف من المعاملات التجارية . ولأهلها تعصب زائد ، وتعاضد عجيب ، ومتى لم يوافقهم حاكم أو مأمور يذيقونه ألواناً من الجفـاء ، ثم يتآمرون على عزله أو ارتحاله ، وتنجح مآربهم في ذلك . والسلط الآن مركز قائمقامية ، تتبعها مديرية عمان . وفي القاموس وشرحه : « السلط موضع بالشام ووهم من كتبه بالصاد والتاء ويقال له السنط » انتهى .

« ثم عزمنا على المسير منها إلى الأرض المقدسة ، فخرج لوداعنا إلى منحدر عين الجادور في طرف الوادي جمع من الأصحاب ، وسرنا على بركة الله تعـالى قبيل المغرب بساعة مساء الأحد في ٢٠ صفر الخير ، حتى قطعنا حدائق السلط البديعة ، في منفرج تلك الجبال المخصبة ، المتخلل بينهـا عيون عذبة جارية ، وهي بمقدار ساعة ونصف . ثم تخللنا مسالك بين جبال ، فصرنا تارة في انخفاض ، وآونة في

انحدار ، وسلكنا في واد يقال له وادي شعيب ، لزعمهم أن شعيب عليه السلام مدفون على جبل عال هناك ، إلى أن أنخنا على حافة نهر ذلك الوادي قبيل العشاء وصليناها مع المغرب مجموعة جمع تأخير . ثم أحضرنا ما زودنا به من العشاء ، وأحضر لنا المكارون من القصب والحطب ، وأوقدوا لنا ناراً فأضاءت ما حول النهر عن أشجار من الدفل البديع المونق ، مكلل بتيجان حمر بهيجة المنظر . وبعد تناول الطعام أخذنا في الاضطجاع ثمة ، ولم ينلنا برد أصلاً ، بحمده تعالى ، لأن ذلك الأسبوع زادت فيه الحرارة بحكمته تعالى ، حتى إذا كانت الساعة الخامسة من الليل ، وقرب ظهور القمر من رؤوس الجبال تحرك الركب للمسير ، فامتطينا متون الجياد ، وسرنا في ذلك الوادي جانب النهر إلى أن قطعناه ، وارتقينا على ظهر جبل ، ومنه إلى جبال الغور الهائلة التي كان من الحكمة قطعها ليلاً ، وإلا فليس الخبر عن هولها كالعيان ، خصوصاً في مسالك منها على حرف الجبل في غاية الضيق ، ومنها ما هو في غاية الانحدار مع التوعر ، إلى أن وصلنا مع الفجر إلى منحدر جمعنا مع ذلك النهر في منزل يقال له (مشرع سارّة) ، فنزلنا وصلينا الصبح بغلس . وفي جنبة ذاك النهر بستان قدم لنا منه خيار ، فأكلنا ، ثم امتطينا الخيل وسرنا مجدين ، وخضنا مراراً في ذلك المشرع ، وجاوزناه إلى حافته الأخرى ، وكان الطريق أسهل مما مر ، حتى أشرفنا بعد طلوع الشمس على فيحاء واسعة ، ولاح لنا من بعيد سواد أريحا ، ولم نزل مجدّين حتى أنزلنا أحد أخوال ولدي ضياء الدين ـ وكان معنا ـ عند بعض معارفه من العرب ، وغب أن فرشوا

لنا ما لديهم نمنــا نحو ساعة . ثم جلسنا ، وأحضروا لنا غداءنا ، ودعونا للمقـام عندهم فأبينا .

ثم ركـبنا من عندهم ضحوة ، وسار معنا خال ولدي خطواً واسعاً ، ثم أمرناه بالانصراف وودعناه ، ووالينا المسير إلى أن وصلنا إلى نهر الشريعة ، وعلونا على جسره الخشبي ، وأردنا النفوذ منه ، فإذا بابه مغلق ، ولديه بواب لا يفتح إلاّ بجعل معلوم ، فإن كان راكباً فعليه ثلاثة قروش ، أو ماشياً فنصف قرش ، فدفعنا له ثلاث بشالك ، وبلغنا أن ضمان هذا الجسر الخشبي ألف وعشرون ليرا عثمانية ، تضمنه الدولة في كل عام . وليت إذ أبوا إلاّ الخراج أو الضريبـة على من يمر عليه ، وفقوا لبنائه من قناطر حجرية ، أسوة بمن كان يبني من الأمراء الأقدمين . كذلك فإنا لله وإنا إليه راجعون ! واشتهر أن أول من عمر هــذا الجسر الملك الظاهر برقوق من ملوك الجراكسة بمصر فقال أحد الأدباء وقتئذ :

بنى سلطاننـا برقوق جسراً ... بأمر والأنام لــه مطيعة
مجازاً في الحقيقــة للبرايا ... وأمر بالسلوك على الشريعة

وبعد أن جاوزناه اخترقنا في جبال ملحة لانبات فيها ، إلى أن وصلنـا نحو الظهر إلى أريحا ، ونزلنا في دار حكومة مديريتهـا ، ريثما يبرد الهــواء ونؤدي الفرض ، فصلينا الظهر وتناولنا الشاي بعد القيلولة ، ثم صلينا العصر ، وركبنـا منها إلى خان بين أريحا والقدس ، وقوّامه نصارى فنزلناه بعد المغرب ، وكان الهواء هب عاصفاً ، وبرد الجو ، فاضطررنا إلى المبيت ، لا سيما وفي المسافـة إلى المقدس بقية بعد ، فصلينا المغرب في حجرة فيه واسعة ، ونمنا فيه ، ثم استيقظنا

قبل الفجر فتوضأنا ، وغب الوتر سرنا من ذلك الخان ، إلى أن أسفر الوقت فنزلنا على جانب الطريق ، وأدينا الفجر ، ثم ركبنا ، والطريق أخذت بالمارة تقبل وتدبر منها ، إلى أن بدت أعلام قرية يقال لها العزرية ، ومنها لاحت مباني بيت المقدس من ضواحيه .

« ثم دخلنا المدينة من باب الأسباط ضحوة الثلاثاء في ٢٢ من صفر الخير الموافق لخمس من أيار ، فأنزلنا المكاري في خان هناك ، وبعد أن وضعنا أمتعتنا في حجرة فيه أتينا إلى الحرم الشريف ، فلا تسل عما هجم علينا من السرور المفرط ، وانشراح الصدر ، وبهجة النفس ، وانتعاش الفؤاد ، وحسبناه قطعة من الجنة قد دخلناها حامدين شاكرين لفضله ، ونحن نكفكف الدمع فينهمل .

« ثم وردنا الصخرة الشريفة ، وأرينا آثارها . ثم استقبلنا شخص من خدامها ، وسألنا عن نزلنا ، فقلنا : الآن أمتعتنا بالخان ، فدلنا على الزاوية الداودية ، وقال : هي منزل الفضلاء القادمين لهذه البلدة ، ولها إطعامية سلطانية ، لذلك ذهبنا بعد العصر إليها ، فاستقبلنا قيموها الكرام ، وأصعدونا إلى غرفة فخيمة ، ثم أكدوا علينا في تناول العشاء والمنام فامتثلنا ، وشاهدنا منهم غاية الترحاب والايناس ، ورغبوا أن نكون نزلاءهم مدة مقامنا فأبينا ، رغبة في أن يكون نزولنا في الحرم نفسه .

« وفي يوم الأربعاء نوهوا بنا في الحرم ، فتقاطرت علينا أرباب الحجرات في صحن الحرم ، وحول الصخرة ، كل يرغب أن نأخذ حجرته إن شئنا . ثم دلنا شخص على حجرة داخل الحرم الأقصى في قبليه ، جهة منبره الأيمن ، جانب

مقصورة الحديد ، فآثرتها على كل حجرة لقربها من الحرم ، الذي هو البغية من الرحلة ، وتيسر بيت للطهارة فيها ، ولإشراف برانيها على ما حول الحرم من المباني والبطاح الفيحاء . ولقد زارني من لا أشك في صلاحه وقال لي : أبى الله إلا أن تكونوا في حرمه ، وأضياف بيته ، فأبكاني سروراً ، وسجدت لله شكراً . ثم راجعت تاريخ أنس الجليل ، فرأيته ذكر أن منزلنا المذكور كان في الأصل زاوية ، ونص عبارته في مبحث ما في بيت المقدس من المدارس والمشاهد بجوار المسجد الأقصى : « الزاوية الخنشنية ، بجوار المسجد الأقصى ، خلف المنبر ، وقفها الملك صلاح الدين تغمده الله برحمته على رجل من أهل الصلاح ، وهو الشيخ الأجل الزاهد العابد المجاهد جلال الدين محمد بن أحمد الشاشي ، المجاور في البيت المقدس ، ثم من بعده على من يحذو حذوه » . ولما زرت المكتبة الخالدية في جوار الحرم ، طالعت بعضاً من نفائس كتبها ، وترددت إليها كثيراً ، واستعرت منها الشفاء للقاضي عياض ، عليه سماعات كثير من المحدثين ، وهو مقابل على نسخة مقابلة على نسخة المؤلف ، فشرعت في مقابلة نسخة لي عليه في الحجرة المذكورة ، وكان يساعدني في المقابلة من كان راحلاً معي من دمشق إلى انتهاء الرحلة المذكورة الشيخ عبد اللطيف بن حسين بن محمد الشهير بالصفدي من أهالي دمشق ، وأحياناً رفيقنا الثالث الشيخ يسن بن الحاج رشيد الفرا الدمشقي ، وفقهما الله تعالى لخدمة العلم الشريف ، هما وذريتهما .

« ثم طلب مني مجاورو الحرم قراءة درس عام فأبيت خوفاً من دخول العُجب عياذاً بالله ، فتحبط الرحلة . وشكوا إليّ فقد العلماء من تلك الديار المباركة ،

فاسترجعت وحوقلت . ودعانا في مدة إقامتنا بعض التجار المياسير ، وبعض أهل الأدب لداره والإقامة عنده ، فأجبت الدعوة دون المُقام ، ضناً على جوار الحرم الشريف .

« وفي أثناء ترددي على المكتبة الخالدية ، طلب مني أربابها الكرام أبياتاً ، يأثرونها في دفترهم الذي فيه يأثرون من كل قادم يتوسمون فيه الفضل ، فاعتذرت بأني لست من أولئك الرجال ، فألحوا ، فكتبت على عجل هذه الأبيات ، واختلستها رغماً عن مهماتي في تلك الأوقات ، فقلت مشيراً إلى آداب الزيارة ، والمجاورة في الحرم ، وفضله ، وفضل الصخرة ، وتطرقت لحجرتنا التي نزلنا بها فقلت :

أيها الزائر بيت المقدس	يبتغيه بعد شق الأنفس
إحمد المولى بما أولى إذا	ما بدت أعلام نور القدس
وأقم في الحرم الأسمى على	طاعة والذكر وقت الغَلَس
وابتهل لله في جنح الدجى	وأسل دمعك كالمبتئس
وتجرد فيه عن كل الذي	يظلم القلب كلهو المجلس
وتضرع ثم لا تنسَ نصيبك من صخرته	في الحندس
يا له من موطن طاب بمعراج طه	منه نحو الأطلس
حبذا معبد ذكر وتقى	لصفاء القلب أبهى مؤنس
يذهل العاكف في هيكله	عن حلى ربة ثغر ألعس
فاكحل الطرف بمرآه وجا	فِ عيوناً كحلت بالنعس

كم بـه ليـلاً أناب الأنبيـا ونهـــاراً في حياة الأنفس
وكـفى أن خيرة الخلق دعي ليـلة الإسـرا لذاك الأقدس
كل من لم يأته من بعد ما لاحت الفرصـة أدنى بئس
يا بنفسي حجرة جانب منـــبره تزهـو بروض السندس
أصلهـــا زاوية أنشأهـا ملك الفضل صلاح المقـدس
صاحب الأنس دعاهـا الخنشـــنية في تاريخـه للقـدس
فاعتكف فيها لدى شبا كها وانتشق ما فاق نفـح النرجس
وإذا ما شئت تجوالاً فسر لســـنا مكتبة واقتبس
كتب آل الخالدي أنعم بها مورداً للفضل منـــه فاحتسي
من أتى منهلها العذب يرى منه بالي فهمـــه فضلاً كسي
هكذا فليأتسى من كان يطـــلب مجـداً هكذا فليأتسي
غرسوا في القدس فخراً باهراً ورثوه عن كرام المغرس
فجزاهم ربنـا خـير الجزا ما سرى ركب لأرض المقـدس

« وبعد عصر يوم الأحد في ٢٧ صفر سار بنا أحد فضلاء دمشق المقيمين هناك في مأمورية إلى مقام يقال إن قبر السيدة مريم عليها السلام فيه ، وهو في كنيسة تسمى الجسمانية . وقد روى صاحب أنس الجليل أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل هذه الكنيسة وصلى فيها ، ثم ندم على ذلك .

وبعده سار بنا رفيقنا إلى المدرسة الصلاحية التي أعطيت للمسيحيين ، وعادت كنيسة لهم ، فأسفنا لذلك غاية الأسف . وأخبرنا أن ذلك جرى بسعاية من باع دينه

بدنياه من وجهاء القدس ، واستعان بحاكم كان على شاكلته ، فتم على هـذه المدرسة ما تم . ولقد شاهدت التـاريخ الصلاحي على بابهـا ، وأرانا قيِّمها بركة داخلها ، يزعمون أن السيد المسيح عليه السلام أبرأ من مائها ، وأن لهـا ذكراً في إنجيلهم .

« وأخبرني قيمها بأن هذه المدرسة كانت قبل الفتح الصلاحي كنيسة ، فارتبت في ذلك ، ثم راجعت كتاب الروضتين للامـام أبي شامة ، فقرأت مصداقـه ، وعبارته في آخر فصل الكلام على الصخرة المقدسة ما يعلم به أصل الزاوية الداودية أيضاً ، قال : « وأما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الأقصى ، فإنه في حصن عند باب المدينة منيع ، وموضع عال رفيع ، وهو الحصن الذي يقيم بـه الوالي ، فرتَّب السلطان له إماماً ، ومؤذنين وقواماً ، وهو مثابة الصالحين ، ومزار الغادين والرائحين ، فأحياه وجَدَّده ، ونهج لقاصديه جَدَده . وكان موضع هـذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام ، وكان ينتابهما فيهما الأنام . وكان الملك العادل (يعني صلاح الدين) نازلاً في كنيسة صهيون ، وأجناده على بابها مخيمون . وفاوض السلطان جلساءَه من العلمـاء والأكابر الأبرار ، والأتقيـاء الأخيار ، في أن يبني مدرسة للفقهـاء الشافعية ، ورباطاً للصلحاء الصوفية ، فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنه ، عنـد باب أسباط ، وعين دار البطرك ، وهي بقرب كنيسة قمامة للرباط ، ووقف عليهما وقوفاً ، وأسدى بذلك إلى الطائفتين معروفاً . وارتاد أيضاً مدارس للطوائف ، ليضيفها إلى ما أولاه من العوارف » .

« ثم في صباح الإثنين ٢٨ صفر ذهب بي أحد الأحباب المقدسيين إلى طور زيتا ، فصعدت إليه ، وأراني غالب مزاراته ، ومنها مصعد السيد عيسى عليه السلام ،

على ما يروونه ، وهو صخرة فيها أثر قدم داخل قبة ، وجلسنا في الزاوية العلمية في جواره طلباً للراحة ، وقدمت كؤوس المرطبات . ثم انحدرنا منه . وبعد عصر ذاك اليوم سار بنا رفيقنا المذكور إلى كنيسة القيامة الشهيرة ، فتقدمنا أحد بوابيها المسلمين ، وأرانا جهاتها العلوية والسفلية ، موضعاً موضعاً . ثم انعطف بنا رفيقنا إلى الخانقاه الصلاحية ، وصعدنا إليها ، واحتفل بنا قيمها ، وجلسنا ثمة برهة ، وأرانا غرفها وطباقها العلوية .

« ثم في صباح الثلاثاء ذهب بنا رفيقنا المذكور إلى نواحي البلدة ، وأرانا غرائب أماكنها ، ومنها دار مطبعة للاَّتين مهمة جداً ، مشتملة على دار حدادة ونجارة وطحن بأدواتها ، ويديرها وابور بخاري . فاحتفل بنا قيموها ، وأهداني مصحح مطبعتها كتاب شذور الإبريز ، مختصر التوراة ، مطبوع في المكان نفسه . هذا وفي كل ذلك ننقلب إلى حجرتنا في الأقصى بسرعة ، بحيث لم تفتنا بحمده تعالى في مدة إقامتنا الصلاة أول الوقت فيه ، إلاّ ما كان وقت المغرب أحياناً ، لوجودنا في دعوة بعض المحبين . ثم في يوم الثلاثاء المذكور زارنا قبيل العصر في حجرتنا أحد وجهاء القدس ، وغب أداء العصر نادى بمن يأتي بمفتاح الأقصى التحتاني ، المنحدر في درج أمام أبواب المسجد ، فدخلنا وصلينا فيه ركعتين تحية المسجد ، ثم انقلب بنا إلى محل البراق غربي المسجد ، فانحدرنا في درج إليه ، إلى موضع الحلقة ، وصلينا ركعتين تحية المسجد أيضاً . ثم ذهب بنا من باب المسجد ، المعروف بباب المغاربة ، في أواخر الجهة الغربية من صحن المسجد ، وقد ذكر صاحب أنس الجليل أن موقتي الحرم ذهبوا إلى أن هذا الباب هو الذي دخل منه النبي ﷺ ليلة الإسراء . ثم تجولنا خارج السور ، وأشرفنا على عين

سلوان ، وتلك المناظر المباركة ، وكنا في دعوة أحد الصلحاء ليلتئذ .

« ثم صباح الأربعاء سلخ صفر ، عقدنا النية على المسير إلى بلدة الخليل عليه السلام ، وبينما نحن في التهيؤ لاستئجار عربة ، وإذا بأحد محبينا التجار قادم لزيارتنا ، وقد هيأ لنا عربة تنتظرنا ، فحمدنا المولى على هذا التيسير ، وسرنا في الحال من حجرتنا في الأقصى ، وركبنا العربة من باب العمود قبيل الظهر ، ولا زلنا حتى وصلنا بيت لحم ، فدخلنا المكان المشهور بولادة السيد عيسى عليه الصلاة والسلام فيه ، وأرانا قيّمه محل الولادة ، والنخلة ، وما جاورهما ، وتجولنا في أنحاء ذاك المكان . وأحببت أن أصلي ركعتين عند محل الولادة ، اتباعاً لما ورد في قصة المعراج ، إلا أني رأيت المكان مملوءاً من الصور والتماثيل ، فتجافيت عنه ، وصليت ركعتين خارج هذا الموضع ، بين الأعمدة الكبيرة ، عند مدخل ذلك المكان ، لشبهها بقطعة من مسجده ، إذ لا تمثال فيها ولا صورة ، ويصدق عليها أنها محل الولادة . وقد روى عبد الرزاق في مصنفه عن ابن عباس أنه كان يكره أن يصلي في الكنيسة إذا كان فيها تماثيل ، رواه السيوطي في الجامع الكبير .

« ثم خرجنا منه إلى جامع البلد ، فصلينا الظهر جماعة ، واشترينا من بعض التجار ثمة بعض قطع صدفية ، أعددناها هدية للأولاد والعيال . وقد انفردت هذه القرية بدقة الصنعة في التفنن بالقطع الصدفية ، بما يدهش الألباب . ثم سرنا متوكلين عليه تعالى في ذاك الطريق البهيج ، وقد راقني منه وادي بيت جالا ، المملوء بشجر الزيتون ، ووقفنا في بعض المحلات لإراحة الدواب ، ومنها لدى عيون عذبة ، كعين عروب ، وعندها صلينا العصر ، ثم عين الدروة . وأبصرنا في

الطريق البركة التي فيها نبع ماء يساق للحرم الأقصى الشريف ، وقرية حلحول التي يقال إن بها قبر سيدنا يونس بن متى ثم تبدت لنا أعلام مدينة الخليل عليه السلام قرب المغرب ، فسرنا تواً إلى الجامع الشريف ، ودخلنا رباطاً في جواره ، توضأنا فيه .

« ثم دخلنا الجامع ، وغب صلاة المغرب والنافلة جاءنا أحد الطلبة فيه وسلم علينا ، وجال بنا في أنحائه ، لزيارة تلك المقامات الجليلة . ثم بعد زيارة الجميع عليهم الصلاة والسلام ، استندنا إلى المنبر ، فتحلق لدينا من أهالي المسجد ثلة ، وسألني بعض الطلبة هناك عن بعض مسائل ، وغب الجواب طلب مني قراءة درس في الصباح فاعتذرت بأنا على جناح السفر ، ومقامنا قليل . وغب اداء العشاء سار بنا إمام الحرم الحنفي وخطيبه ، وأنزلنا في داره ظاهر البلدة ، على غاية من الرفاهية ، فحمدنا الباري تعالى على ما ألهم .

« وصباح الخميس دعينا لتناول الغداء عند أحد الوجهاء ثمة ، ثم أعدنا الكرة إلى الجامع الشريف ، وصلينا الظهر هناك ، وبعده اجتمعنا بقاضي البلدة فيه ، فرحب ودعانا لطول المقام فاعتذرت بأن رفقتنا في نيتها بعد الغداء العود إلى البيت المقدس ، فألح هو ومن نزلنا عنده إلحاحاً زائداً ، فأبينا . وفي نحو الساعة السابعة من النهار ودعنا الأحباب ، وركبنا العجلة ، وسرنا على بركة الله تعالى ، ووافينا بيت المقدس بعد الغروب ، وصلينا المغرب في الأقصى الشريف . وفي تلك الليلة رأيت كأني في قصر عال صعدت إليه مع بعض فضلاء دمشق ، فلما جلسنا فيه أبصرتُ فرشاً عديدة ، فرام بعض إخواننا أن يفرش لنا على

بعض شرفات ذلك القصر ، فقال له ذلك الفاضل ما معنـاه : حسبك يا أخي ، فما فوق منزلـكم إلا منزل السلطـان . واتفق أن رأى تلك الليلة أيضاً بعض رفقائنا قائلاً يقول لنا : تقبل الله زيارتـكم . فرجونا أن تـكون هـذه الرؤيا من المبشرات .

« هذا ولمـا كان مقصدي تقييد زمن هذه الرحلة في هذا الدفتر ، لتكون تذكاراً لي ولمن يتشوف إلى وقتها من أهلي ، اقتصرت على هذه الكلمات ، وأضربت صفحاً عن تاريخ البلاد التي مررت عليها ، وذكر جغرافيتها ، وحالهـا قديمـاً وحديثـاً ، خشية الطول ، والخروج عن الموضوع . ومن أراد الوقوف على شأن البيت المقـدس ، فعليه بأنس الجليل ، وكتاب الروضتين لأبي شامة فإنه تطرف لكثيرٍ من مهمات آثاره ، لا سيما من نثر مثل القاضي الفاضل ، والعماد ، كاتبي الحضرة الصلاحية . وكنت أراجـع لجغرافية ما مررنا عليه من الجبـال والبلاد والقرى كتاب الجغرافية العمومية ، وكتـاب تاريخ المملكة السورية ، وكتاب دليل الزوار ، ففيهـا من تحقيق الـكتابين لبعض شؤون ذلك ما يزداد بـه إحاطة . ولسهولة الوقوف على هـذه الـكتب بواسطة طبعها وانتشارها ، اكتفينا بالإحالة عليها .

فـائدة

« رب متفقه قحٍّ يعترض علينا في دخولنا الـكنائس التي مرّ ذكرها ، مقلداً في ذلك لبعض الناعقين ، فنقول له : كان الأجدر بنا أن نقف مع قاعدة الإمام الغزالي التي قررها في أول « فيصل التفرقة » ، من أن حق المقـلد أن يسكت ،

ويسكت عنه . ولكن نتنزل معه إفادة للقاصرين أمثاله ، و نورد له من أدلة الجواز ما تلقمه حجراً فنقول :

« روى الإمام أحمد في مسنده ، عن ابن مسعود ، قال : إن الله عز وجل ابتعث نبيه لإدخال رجل الجنة ، فدخل الكنيسة ، فإذا يهود ، وإذا يهودي يقرأ عليهم التوراة . . . الحديثَ .

« وقال ابن القيم في إغاثة اللهفان ، في بيان بعض هديه ﷺ ما نصه : ومن ذلك أن النبي ﷺ كان يجيب من دعاه فيأكل من طعامه ، وأضافه يهودي بخبز شعير وإهالة سنخة . وكان المسلمون يأكلون من أطعمة أهل الكتاب ، وشرط عمر رضي الله عنه ضيافة من مرّ بهم من المسلمين ، وقال : أطعموهم مما تأكلون . وقد أحل الله عز وجل ذلك في كتابه . ولما قدم عمر رضي الله عنه الشام ، صنع له أهل الكتاب طعاماً ، فدعوه ، فقال : أين هو ؟ قالوا : في الكنيسة ، فكره دخولها ، وقال لعلي رضي الله عنه : إذهب بالناس ، فذهب علي بالمسلمين ، فدخلوا وأكلوا ، وجعل علي رضي الله عنه ينظر إلى الصورة وقال : ما على أمير المؤمنين لو دخل وأكل ؟ » . انتهى كلام ابن القيم .

« نعم ! كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، يكره دخول الكنائس في أعيادهم ، أو إذا رأى في ذلك تعززاً لهم . فقد روى عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، والبيهقي ، عن أسلم ، قال : لما قدم عمر الشام أتاه رجل من الدهاقين فقال : إني صنعت لك طعاماً فأحب أن تجيء ، فيرى أهل عملي كرامتي عليك ، ومنزلتي عندك ، فقال : إنا لا ندخل الكنائس التي فيها هذه الصور . وروى

عبد الرزاق والبيهقي أيضاً عن عمر أنه قال : إياكم ومراطنة الأعاجم ، وأن تدخلوا في بيعهم يوم عيدهم ، فإن السخط ينزل عليهم .

« ثم في صباح السبت ٣ ربيع الأول عزمنا على مبارحة البيت المقدس ، فقـدم لوداعنا يومه وقبله لفيف ممن صادقنا هناك . وبعد ارتفاع الشمس ودعنـا حرم الأقصى بركعتي السفر ، ثم صلينا ركعتين أيضاً في محراب داود عليه السلام ، في صحن المسجد الشرقي ، ثم ركعتين يمين الصخرة ، وابتهلنا إلى المولى في دعوات جمة ، ومنها أن يغفر لنا ما فرطنا من التقصير في مقام هـذا المسجد الجليل . ثم خرجنا من روض ذاك الحرم الشريف ، ونحن نكفكف الدمع وينهمل :

ولمـا قضى التوديع فينا قضاءه خرجت ولكن لا تسل كيف مخرجي

« ثم سرنا إلى محطة الوابور بعربة ركبناها من باب الخليل ، فألفينا هناك جمعاً من صلحاء الحرم ، وأخيار القدس ، وفدوا لوداعنا أيضاً ، فشكرنا سعيهم . ثم تحرك الوابور ضحوة النهار المذكور ، وجاب في بطاح جميلة المنظر ، حتى وصل يافا قبيل الظهر .

« وصادفنا في الوابور أحد فقهاء قرية اللد قد ركب منها قاصداً يافا أيضاً ، فترافقنا ، ونزلنا جميعاً في دار مفتي يافا ، العـلامة المفضال ، والشاعر البليغ ، السيد الشيخ علي أفندي أبي المواهب ، ابن الأستاذ الكبير الشهير الذكر ، الشيخ حسين الدجاني ، فأجلّ وفادتنا ، وسررنا بمحاورته العلمية ، ومطارحته الأدبية ، واطلعنا على جملة من تأليفاته اللطيفة ، وشعره الفـائق .

ثم في صباح الأحد بعد تناول الشاي دعانا المفتي المنوه به وأفاضل بني عمه

إلى متنزه لهم في قرية بيت دَجَن ، فركبنا العربات ، وسرنا في طريق تحف به حدائق ناضرة ، والخيل تشق عباب الرمل ، وبينما نحن سائرون ، إذ بإنسان يستوقف سائق العربة ، ويطالبه برسم المرور ، فقال لنا المفتي : هذا ونظراؤه من جباة المكوس ، ممن يصدق عليهم قوله تعالى : « وَتَقْعُدُونَ بِكُلِّ صِراطٍ تُوعَدُونَ » ثم قصَّ لي أن في عهد نور الدين الشهيد ، كان صدر أمره الصارم بمنع الخمر ، فقال بعض الفضلاء يخاطبه ويعظه :

عطلت كاسات الخمور تعففاً ... وعليك كاسات المكوس تدور

تدعى بنور الدين فاحذر في غد ... تدعى ظلام الدين مالك نور

« قال : فأبطل الرسوم المكوسية من وقتئذ . ثم وصلنا لذاك المتنزه الأرفع ، فألفينا لديه قصراً شاهقاً ، تحف به رياض بديعة ، وللبصر في جوانبه مجال ، ولا يحجب فيحاءه جبال ولا تلال . وهناك مكنة كازية تسحب الماء وترفعه من بئر فيه ، وتدير ناعورة لسقي أراضيه . فقضينا سحابة ذلك النهار ثمة في مباحث علمية ، ونوادر تاريخية ، ومطارحات أدبية .

« وكان المفتي المنوه به اصطحب لأجلنا جملة كتب من مكتبته ، ومنها مجموعة أشعاره ، فتصفحتها فألفيتها كلها غرراً ، وراقني من مقاطيعه قوله :

ولما تجلى نور فرق جبينه ... وراح بقدٍّ كالرديني يخطر

تذكرت بدر التم في عنق الدجى ... وغصن النقا والشيء بالشيء يذكر

« وقوله موريًا :

أخجلتْ للغصن لما ... خطرتْ تسحب ذيلا

فأرتنـــا الشمس تجلى في سمـاء الحسن ليـلا

« وقوله في مطرب اسمه فريد :

بدا يشدو فأطربني بلحن حسينيّ به شوقي يزيـد
ووحد صبوتي لمـا تثنى ولا عجب فمن أهوى فريد

« وقوله :

صافيتهم وسبرتهم فإذا ُهمُ أخوان إلا أنهم خوّان
وأجبت لما قيل لي : هل أحسنوا ؟ ترك الإساءة منهم إحسان

« وقوله :

بروحي مليك الحسن من ضنّ باللقا على مغرم ضاقت عليه مذاهبه
رفعت له عرض الشكاية في الهوى فوقع لي بالصدّ ذو القوس حاجبه

« وقوله مضمناً :

لله ليـــلة زارني نشوان من خمر الدلال
وسَّدتُه مـني اليميـــن ومنه وسدني الشمال
فجرى لنا ما قد جرى (ما كل ما يعلم يقال)

« وقوله :

قل للذي أضحى يحدث نفسه ببقـاء صفو زمانه وثبـاته
ما الدهر إلا ضيغم في غابه فاحذره واخش البطش من وثباته

« ولما عُزي بولد له أنشد :

لك نفسي الفدا يا منية النفـــس فمنها قد كنتَ عندي أعزا
بك عزيت في الأنام وإني كنت أختار أن أكون المعزى

« وفي يوم الاثنين سار بنا أحد أدباء يافا إلى متنزه للألمان ، ضم صنوفاً من الطيور الغريبة ، والحيوانات العجيبة . وترددنا إلى جامعها الـكبير مراراً ، وإلى مسجد في جوار دار المفتي مرتفع مطل على البحر أحياناً .

« ثم عزمنا على المسير من يافا نهار الثلاثاء ٦ ربيع ، فجمعنا الظهر والعصر تقديماً في دار المفتي ، وسار معنا الى المينا ، وركبنا الزورق ، ولطف المولى ، وله الحمد ، حيث لم يكن في البحر تموج زائد ، والمسافة الى الوابور كانت نحواً من ثماني دقائق . ثم ارتقينا الى الوابور ، وبدأ الدُّوار يأخذ بنا ، فأشير إلينا بالاضطجاع . ثم سار من مينا يافا الساعة التاسعة من النهار ، ولم يزل يشق عباب البحر الى أن وافينا بعناية الله وفضله ولطفه ثغر بيروت ، بعد طلوع الشمس بأقل من ساعة ، واجتمعنا يومئذ بأخلائنا الفضلاء هناك ، ودعينا للاقامة بها ، وعزم علينا فأبينا ، خشية من أن يطول بنا المقام ، والنفس نزعت الى الأوطان . وأخبر بعض رفقائنا محرر الثمرات بالقصيدة التي طلبت مني في القدس المار ذكرها ، وكان وفد لزيارتنا ، واركبنا عربة لقصد بعض أعزائنا ، فاستملاها ونشرها في الثمرات في عدد ١٤٣٣ ، وتطرف لمرورنا بالثغر . ثم عزمنا على المسير من بيروت نهار الخميس ، فامتطينا الوابور ، ثم وافينا دمشق مساء الخميس على حين غفلة . وتمت الرحلة أربعين ليلة . والحمد لله أولاً وآخراً . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . »

انتهى ما دونه القاسمي بمذكراته عن رحلته إلى البيت المقدس .

رحلته إلى الأقطار المصريّة

أما رحلته الى مصر ، فقد أوضح الغرض منها في فاتحة ما كتب فقال :

« كان سبب العزم عليها ... تعرفاً بآثارها ، ووقوفاً على شأنهـا ومرتبتها من التقدم ، وزيارة لأخصائنا وأصدقائنا بها » . وما دونه القاسمي في هذه الرحلة يتفق مع ما دونه عن رحلته إلى البيت المقدس في أمور ، ويختلف عنها في أمور . فترى فيها مثلاً افتتانه بالطبيعة ، وتقديره لارتقاء المدن المصرية وتقدمها . ففي بور سعيد « ما يدهش النـاظر ، من اتساع طرقاتها ، وهندسة مبانيها ، ووفرة نفائس بضاعاتها ، وكثرة أضوائها الـكهربائية التي عمت نواحيها ، وأعادت ليلها نهاراً ، ورأينا في الليـل حوانيتها مفتحة ، ولطرّاقها مطلقة ، وقوّامها ما بين قائم وقاعد ، وساهر وسامر ، وصانع دائب » . وقل مثل ذلك عن المدن الأخرى التي مر بها ، كما سترى ذلك بقلمه . وهو ينكر البدع التي يراهـا في المساجد ، وفي عادة المحمل والكسوة وما إليها . ويبتهج في زيارة حديقة الحيوانات ، والأهرام ، وغيرها من الآثار . ويحرص على زيارة المتحف (الأنتكخانة) . ويرى بحثاً في مجلة علمية عن الآثار ، وشأنها لدى الأمم المتمدنة ، وفوائد الحفاظ عليها ، فينقله بكامله .

ويوم حط رحاله في القاهرة مع صفيه العلامـة البيطار ، قصد الى الفندق ،

« وغب أن وضعا أمتعتهما ، سارا الى الأزهر لزيارة الأستاذ ، نادرة العصر ، الشيخ محمد عبده مفتي مصر » ، فليس في مصر ما يقدم على لقائه ، حتى إذا اجتمعا به ، يرى القاسمي في هذا الرجل العظيم ما يدعو لأعمق التجلة ، فيقول : « أقبل الينا مرحباً ، فقبلت يده » . وما عهدت القاسمي قبل يد أحد غير والديه ، ولم يسمح حتى لأولاده بتقبيل يده . كذلك يوم ودعه « لثم يده » . ذلك أثر من آثار الأستاذ الامام ، على المشيخة من العلماء ، فما أظن أن أحداً قد استطاع أن ينفذ الى قلب القاسمي وعقله كما نفذ .

وكما اختار في البيت المقدس النزول في الحرم ، اختار في مصر النزول في الأزهر ابتداء . الا أن قدسية الحرم قد حالت دون انتقاله منه . أما الأزهر ، وإن يكن من دور العلم التي يقدسها العقل ، الا أنه ليس فيه ما يدعو الى التعلق في الاقامة فيه . فما كانت الغداة حتى حضر صديق حميم ، وعالم عظيم ، هو رفيق العظم ، رحمه الله ، ونقل الشيخين إلى داره ، ولم يفارقهما أبداً طوال مـــدة إقامتهما . وقد سماه القاسمي في مذكراته (رفيقنا) .

لم يطل اللقاء الأول بين الأستاذ الإمام والشيخين إلا بمقدار ما تقضي المجاملة والترحيب . حتى إذا اختارا الاقامة في الأزهر ، دعاهما إلى بيته في عين شمس على العشاء ، على أن تكون غرفته في الأزهر مكاناً للاجتماع ، قبل الغروب بساعة . وبينما هم في العربة من الأزهر إلى المحطـــة ، دخلوا فوراً في أخطر المواضيع ، وأدق الأبحاث ، قال : « وكان من كلامه — المفتي — لنا في العربة — وقد جر الـــكلام إلى الاجتهاد — قال : مذهبي وجوب الاجتهاد على كل عالم ، لأنه

صريح القرآن في آيات لا تحصى ، حيث خاطب العقل ، وأمره بالتدبير ، ومن أنكر ذلك فقد أنكر القرآن ! . » هذه فاتحة الأبحاث بين الأستاذ الامام والشيخين : الاجتهاد ، من أنكره فقد أنكر القرآن ! ولا بد لي من أن أذكرك في أن هذا يجري عام ١٣٢١ — ١٩٠٤ ، ، ولعلك لم تنس ما حدثتك به عن عصر القاسمي ، من أن القرآن الكريم ، وكتب الحديث ، لم تكن تقرأ إلا للتبرك . فانظر إلى هذه العقول النادرة التي وهبها الله للعالم الإسلامي ، فكانت مناره الحقيقي في نهضته الحديثة .

وتتعاقب الزيارات بين الأستاذ الامام والشيخين ، وليس فيها إلا المذاكرات العلمية الخالصة ، ويبتهج القاسمي لاتفاق العقول ، واتحاد الآراء . فيقول « وما فاتحناه في مسألة ، أو سألناه عن مشكلة ، إلا وافقنا على ما نعتقد بهـا ، أو نراه الوجهَ في حلها » .

والظاهر أن القاسمي حضر دروس الأستاذ الإمام في الأزهر ، دون البيطار . وعلى الرغم مما رأيت من التبجيل الفريد ، الذي قدمه القاسمي للمفتي ، حتى وصل إلى تقبيل اليد ، فإن ذلك لم يمنعه من تسجيل بعض الخواطر التي خالفه فيها ، أو بعض الملاحظات التي تمنى فيها أن يكون البحث على غير ما رأى . فإذا ما بحث المفتي في موضوع (الكلالة) قال : « الا أنه لم يتوسع فيما للفقهاء من مسألة الكلالة ، وما روي فيها ، بل لم يزد شأنها على ما في الجلالين » .

ويسأله خلال عشاء عما ذكره البقاعي في تفسيره من أقاصيص الكتابيين ، فيسرد المفتي مذهبه ، ويعقب القاسمي على ذلك بقوله : « هـذا مذهبه ، ولي

بحث أوردته في مقدمة التفسير ، في هذه المسألة ، فليراجع » .

ويحضر درسه في تفسير قوله تعالى : « وَٱللَّاتِي يَأْتِينَ ٱلْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ » ، فإذا هو يخالف الأستاذ الامام بشكل صريح فيقول : ورأيت المفتي جنح إلى ما قاله أبو مسلم الأصفهاني ، الذي حكاه الفخر الرازي ، ونقله النيسابوري أيضاً ، وقواه المفتي جداً ، إلا أني ما ارتضيته لكونه مخالفاً لما صح في تفسيرها ، مما رواه مسلم — انظر محاسن التأويل للفقير » .

بمثل هذه الحرية الفكرية ، التي لم تغلها شخصية الأستاذ الامام ولا علمه ، استطاع القاسمي أن يتفرد بين علماء عصره ، وما أدري هل جرت مناقشة حول هذه الخلافات ، أم أن القاسمي آثر السكوت عنها . فالنصوص التي بين يديّ ترجح أنه قد آثر السكوت ، ولو أن مناقشة جرت ، لما تردد القاسمي في تسجيلها ، وليته فعل !

على أن القاسمي قد ترك لنا وصفاً حياً لدروس الأستاذ الإمام ، حتى كأنك تراه ، وأبدى إعجابه العميق بهذا المفرد العلم فقال :

« وحضر المفتي بعد المغرب بنحو ثلث ساعة ، فدخل وسلم ، والطلبة متحلقة على كرسيه المرتفع ، ولم يقم له أحد حسب العادة في الأزهر . وحينما جلس على كرسيه تربع ، وخلع من كتفه جبته ، ثم وضع النظارة ، وأخرج الكرّاس من ظرفه ، ثم تعوذ وبسمل ، وقرأ عبارة المصنف . ثم أخذ يربط البحث بسابقه ، ويقرر خلاصة البحث سابقاً ولاحقاً ، بعبارة بليغة جـــداً ، يتروى ويتمهل في إلقائها . وله غوص غريب على أسرار مقاصد البحث ولطائفه . . . وجلست ليلتئذ

على يمين كرسيه ، وكان كثيراً ما يوجه الخطاب إلى ناحيتي ، ويخصني بنظرة . »

ويعجب القاسمي من تدوين الطلبة لكل ما يقول المفتي ، لأن ذلك لم يعهده في حلقات دروس دمشق ، ويقدر أثر ذلك في المستقبل ، فيقول :

« ورأيت من همة كثير من طلبة المفتي أنهم يكتبون بقلم الرصاص جميع ما يقرره من أول كلمة يلفظها إلى الختام ، حرصاً على درره . وأظن أن ما سيجمع عن المفتي في المستقبل شيء يفوق الحصر ، مما سيرفع المستقبل من شأنه وذكره ، زيادة عن شهرته الآن في التفرد ، بحيث أصبح مطمح أنظار الفضلاء » .

وفي ليلة ثانية يرى المشهد نفسه ، فيؤثر فيه أيضاً ويقول :

« وقد كتب عنه في القلم الرصاص كل تقريره ، حسب العادة ، مما سيبرزه المستقبل في أحسن حلة » .

ويستحسن القاسمي ما رأى من تلاميذ الأستاذ الإمام فيتهيأ لكتابة درره ، ويحضر درسه مزوداً بالقلم والقرطاس ، ويأخذ فيما أخذ فيه الناس فيقول : « وقد كتبت عن تقريره إلى عدة صحف على قاعدة نجباء تلامذته في ذلك » .

ويسأله القاسمي عن أقرب كتاب ينبغي تدريسه للعامة . . . لأنا مبتلون بالشام بالدروس العامة ، « فيتنفس الأستاذ الإمام متأسفاً ويقول : ما كتب المسلمون في ذلك . . . وأحسن شيء في هذا الموضوع كتب الغزالي ، بشرط تجريدها من الواهيات من الآثار والقصص » . ويعود القاسمي إلى دمشق ليختصر احياء علوم الدين ، ويسميه « موعظة المؤمنين » .

ولا بد من أن يقرن الأستاذ الإمام بتلميذه وخليفته السيد رشيد رضا ، فتتوالى الزيارات والاجتماعات ، « ويأتي منشىء جريدة المنار ، ومعه الحافظ ابراهيم ، الأديب البليغ ، صاحب الديوان الشهير » . والظاهر أن حافظاً ، رحمه الله ، قد أنس بالشيخين ، وبمجالسهما ، فإذا هو لا ينقطع عنهما . وقد أثمرت هذه الزيارات تأليف كتاب خلال الرحلة ، سماه القاسمي « شذرة من السيرة المحمدية » ليكون قصة للمولد تقرأ في الاجتماعات العامة . وقد تم طبعه خلال وجوده في القاهرة .

وقد اشترى كثيراً من الكتب على عادته . إلا أنني ما رأيته زار من المكتبات العامة إلا مكتبة واحدة ، هي « كتبخانة الأزهر ، راجع فيها من أجزاء تاريخ ابن عساكر الجزء الذي فيه ترجمة عمرو بن العاص ، وعليه خط ابن المؤلف » . ولم يزر من المكتبات الخاصة إلا مكتبة المقتطف . وما أدري السر في ذلك . ففي مصر مكتبات عامة ، حوت من نفائس المخطوطات ونوادرها ما كان خليقاً بالقاسمي ، لو اطلع عليه ، أن يشير إليه . وما أظن أن ضيق الوقت يمكن أن يحول دون رغبته هذه ، فما كان وقته ، في معظمه ، إلا لهذا الغرض ! !

ويلقى عالماً لغوياً اسمه الشيخ محمد محمود الشنجيطي ، فيذاكره في بعض المسائل اللغوية ، ثم يهدي إليه هذا الرجل كتابه الذي سماه : الحماسة السنية ، فيقرأ الكتاب ويدون هذه الملاحظة :

« ومن طالع حماسته المذكورة ، رأى أن الرجل في عقله شيء . وذلك لما

ملأه من مدح نفسه ، نظماً ونثراً . . . ولما حشاه من الشتائم البذيئة التي لم يعهد في كتب الردود النزول فيها إلى درجة السفهاء . . . ! ! »

ويرد على هذا الشنقيطي بلديُّهُ الشيخ أحمد الشنقيطي ، فيلقاه القاسمي في جامع الحسين ، ويطلعه على هذا الرد فيقول : « فراقني ما كتبه ، وأشرت عليه أن يحذف في النقل أسماء النحاة المتأخرين ، أرباب الحواشي والشروح ، لأنهم ليسوا من أهل الرأي ! » .

ويدهش للهاتف (التلفون) فما كان معروفاً في ذلك الزمان في بلاد الشام ، ويروي انه ذهب مع البيطار إلى عين شمس لزيارة المفتي من غير اتفاق سابق فلم يجداه . وأن صديقاً ثالثاً لهما ، اتصل بالهاتف قبل ذهابه ، فعرف ما عرفا ، قال : « فتوفر له الأجرة التي صرفت ، والوقت الذي أضعناه ، وهذه ثمرة العلوم المكتشفة ، التي عادت على الناس بفوائد لا تحصى ! ! » .

ولقد عرفت أن القاسمي كان معجباً بالامام الشافعي ، وأنه كان يتعبد على مذهبه ، وهو اليوم في القاهرة ، فلا بد من زيارة قبره ، ويختار لمرافقته في هذه الزيارة الشيخ أحمد الشنقيطي . إلا أن الطريق بين جامع الحسين وبين القبر طويلة ، فلا يجد الشيخان حرجاً في استئجار حمارين لركوبهما ، ويتفكهان خلال الطريق بأبيات عن الحمير ! !

وانظر إلى هذين الشيخين الجليلين ، يستقبلان قبل ستين سنة سيدة مصرية اسمها زينب فواز . قال :

« زارتنا الأديبة زينب خانم فواز المصرية ، صاحبة التاريخ المسمى بالدر

المنثور ، في طبقات ربات الخـدور ، وكانت تعرفت بصفيفنا الشيخ عبد الرزاق أفندي من دمشق . . . » .

والعلامة البيطار موسيقار ، والقاسمي يتذوق الموسيقى ، فهل يقضيان أيام رحلتهما من غير أن يأنسا بجلسة من جلسات الطرب البريء ؟ إن (رفيقهما) — رفيق العظم — يعرف ذلك عنهما ، فيعمد إلى إدخال البهجة على نفسيهما وإراحتهما من عناء البحث والدرس والتنقل ، ويأتي لهما بمطرب إلى داره . ومصر يومئذ أم الموسيقى العربية . قال القاسمي في وصف هذه الليلة هذه الجملة المقتضبة :

« سار بنا رفيقنا إلى داره ، وأحضر لنا مطرباً تتروح القلوب بنغماته ، وتتهادى الأنفس بطيب ألحانه » .

ويتفق أن يقع عيد جلوس الخديوي خلال وجود القاسمي في مصر ، فيصفه وصفاً بليغاً ، ويعدد ما رأى من مظاهر الزينة ، ويعقب على ذلك بهـذا القول الحكيم :

« ويا ليت هذه المبالغ الطائلة المصروفة في مبتدع هذا العمل كانت تصرف لجهة نافعة ! ! »

وتنتهي الرحلة بزيارة الاسكندرية ، حيث يصف ما رأى على عادته ، ويعود إلى بيروت ، فيزور فيها الأستاذ العلامة السيد محمد أبو طالب ، فاستمع إلى وصف هذا المجلس :

« كانت المذاكرات العلمية تركض خيولها في ميدان ذاك المجلس ، ولا ترى إلاّ أيدي تنهال على مكتبته ، فتقطف منها ما شاءت ، وتراجع كما أحبت » .

عاد إلى دمشق فاستقبل المهنئين أربعة أيام ليلاً نهاراً « مما أوجب أن يرثي لنا بعض الأصدقاء ، على إعادة الأخبار ، وتحمل الاستخبار ! ! » .

وبعد فهذه خلاصات عن هذه الرحلة التي قام بها القاسمي إلى مصر . فاستمع إليه يحدثك عنها بنفسه ، قال :

رحلتنا الى الاقطار المصرية

« كان سبب العزم عليها أني في أواخر رجب من هذه السنة ١٣٢١ ، دعيت مع الأستاذ العلامة صفينا الشيخ عبد الرزاق أفندي البيطار إلى قرية تل منين ، من متنزهات ضواحي جلق ، فسرنا إليها ، ومكثنا بضعة أيام ، وقع في قلبي في أثنائها خاطر الرحلة إلى مصر ، تعرفاً بآثارها ، ووقوفاً على شأنها ومرتبتها من التقدم ، وزيارة لأخصائنا وأصدقائنا بها . ولما قدمنا من التل لم نزل مع الأستاذ في مذاكرة هذا الخاطر ، حتى قدم رمضان ، وانقضى عن الشام الحجر الصحي للوباء العام ، الذي كان نزل بها أكثر من عام . ثم أشار الأستاذ أن نمضي رمضان في الشام وتكون حركة الرحلة في آخره . فأما هو فسار منها يوم السابع والعشرين منه ، وأما الفقير فأكملت أيام اعتكافي العشر الأخير منه ، وصباح العيد ، الأحد غرة شوال ، الموافق لسابع شهر كانون الأول ، أدينا صلاة العيد جماعة بجامع السنانية ، ثم توجهنا إلى محطة البرامكة ، ومعنا لفيف من الأهل والأصحاب ، ولما تحرك القطار ركبناه قاصدين بيروت ، فوصلناها بعد الغروب ، وصادفنا على المحطة هناك الأستاذ السالف الذكر ، وشقيقه ، والأمير أحمد الحسني ،

والأديب الشيخ أحمد طبارة محرر الثمرات ، وصهرنا خليل بك ، وشقيقه عبد الله بك ، وسواهم واقفين لانتظارنا واستقبالنا . ثم نزلنا في النزل الذي حل فيه الأستاذ المتقدم . وهو لوكندة القدس . ثم وفد للسلام علينا الأعزاء والأصدقاء . وأقمنا في بيروت إلى عصر الثلاثاء (٣ شوال) ، وبعد العصر نزلنا في البحر للوابور الفرنساوي ، وودعنا من تقدم وغيرهم على الميناء ، وكثير منهم ركب الزوارق وصحبنا إلى الوابور . ثم بعد العشاء تحرك الوابور وسار يشق عباب البحر ، حتى أصبحنا مقبلين على يافا نهار الأربعاء ، ولم نزل في الوابور على سطح البحر إلى أن أقلع من يافا قبيل الغروب بنحو نصف ساعة ، وأخذ يعوم في ذلك التيار ، والهواء معتدل ، والبحر ساكن ، إلى أن أرسى طلوع شمس الخميس على بور سعيد ، فأشرفنا على بلدة منظرها بهيج ، يحف مرساها عدة وابورات ، فنزلنا إلى الميناء ، وأخذ منا رسم الدخول ، ثم نظر في أوراق تذاكر المرور ، وبعد كتابة المأمورين عليها سار بنا صاحب لوكندة سورية وأنزلنا بها ، وتجولنا ليلتئذ في شوارعها ، فرأينا ما يدهش الناظر ، من اتساع طرقاتها ، وهندسة مبانيها ، ووفرة نفائس بضاعتها ، وكثرة أضوائها الكهربائية التي عمت نواحيها ، وأعادت ليلها نهاراً ، ورأينا في الليل حوانيتها مفتحة ، ولطرّاقها مطلقة ، وقُوّامها ما بين قائم وقاعد ، وساهر وسامر ، وصانع دائب .

« وضحوة الجمعه ركبنا الترامواي الكهربائي إلى الجامع الجديد التوفيقي ، في محلة الصعايدة ، المقيمين في جواره ، فأدينا فيه صلاة الجمعة ، وقد غص بأهله ، وذكر لنا أن في البور جامعين آخرين ، وأنكرت من البدع في الجماعة هناك رفع

أصوات المأمومين بالنية قبل التكبير وجهرهم به جهراً فاحشاً ، وجهرهم بدعاء قبل تأمين الامام جهراً مقلقاً .

« وبعد أداء الجمعة تجولنا في بعض شوارعها اللطيفة ، وسرنا إلى الترعة لمشاهدة مصب النيل على البحر المالح مشاة ، إذ لم نصادف الترامواي . ولما بلغنا الترعة أشرفنا على حدائق بهجة ، طرقها منظمة ، ونخيلها مصففة ، وشربنا من مورد النيل ، وشاهدنا انحداره على البحر من مصب قناة . وتجولنا بين ظلال تلك الحدائق ، وانتشقنا طيب نسيمهـا الرائق . وصليت العصر هناك . ثم حضر الترامواي قبل المغرب بساعة ونصف فركبناه إلى البلدة .

« وصباح السبت (٧ شوال) تهيأنا للسفر من بور سعيد ، فركبنا الترامواي الساعة الرابعة ، وسرنا إلى ناحية البحيرة ، من الطريق التي انتزهناها قبل ، حتى وصلنا بعـد الساعة الخامسة إلى محطة البحيرة ، فركبنا في مركب هوائي صغير ، يقل نحواً من عشرين نفساً ، وسار بنا نحو الساعة السادسة ، ولم يزل يشق المـاء والريح تساعده ، وعناية المولى تلحظه ، إلى أن وصلنا قرية المطرية الساعة العاشرة ، فكانت مدة الركوب أربع ساعات . وأديت صلاة الظهر في ذلك المركب قاعداً . ثم سير بنا إلى لوكندة مقدونيا ، وهي مشرفة على البحر ، وأقمنا بها ليلة .

« وبعد أداء صلاة الفجر نهار الأحد (٨ شوال) ركبنا القطار مغسلين ، وسار بنا يجوس كثيراً من قرى مصر ، ويقف على محطاتها ، إلى أن بلغنا بلدة المنصورة . وكانت المسافة من المطرية إليها خمس ساعات ، فنزلنا بلوكندة ، وذهبت إلى حمام

بها في جوار جامعها الذي جدّده توفيق باشا ، فاغتسلت فيه . ثم تجولنا في بعض شوارعها اللطيفه ، وصلينا العصر جماعـة بجامعها الجديد المتقدم يصعد إلى حرمه بدرج من داخله . ورأيت من البدع فيه قراءة القرآن من حافظ بصوت جهوري ، قبيل إقامة الصـلاة ، والناس آخذون في سنة العصر ، مما يشوش على المصلين صلاتهم .

« وصباح الاثنين (٩ شوال) ركبنا الوابور من المنصورة الساعة الرابعة وقصدنا طنطا ، فوصلناها الساعة الخامسة ونصف ، واجتاز الوابور في الطريق على كثير من قرى مصر الشهيرة يقف على محطاتها ، ومن أفخمها بلدة المحلة الكبيرة . وفي تلك البطاح تنساب مشارع النيل وجداوله ، وآثار الخصب والنمو في المزروعات بادية ، بلونها الزمردي الذي يروق ناظره ، ويجلو ناظره . ولما وصلنا طنطا عرفنا بعض وجهائها بكتاب وصل إليه ، فسار بنا الى دار السيد القصبي نقيب أشرافها وانزلنا عنده ، بعد إباء منا ، فبتنا على غاية من الترحاب والاكرام والمؤانسة ، وأدينا الظهر والعصر والمغرب والعشاء جماعة في الجامع الأحمدي ، وشاهدنا الغلو في الزيارة الأحمدية ، كالسجود على عتبة باب الضريح ، والتمسح بقفصه ، مما لا يختلف الفقهاء من أرباب المذاهب على منعه وحظره ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

« ثم في ضحوة الثلاثاء الساعة الرابعة ركبنا القطار من طنطا قاصدين مصر ، فوصلنا إليها بعد ساعة ونصف . وأول ما أدهشنا منها فخامة محطتها ، من ارتفاع ابنيتها ، وسعة أماكنها ، وتسقيفها بسقف من حديد على أقواس منه أيضا . ولما خرجنا منها استقبلتنا ساحة كبرى ، فسرنا أولاً الى لوكندة في جوار جامع الحسين ،

فعقب أن وضعنا أمتعتنا بها سرنا الى الأزهر لزيارة الأستاذ ، نادرة العصر ، الشيخ محمد عبده مفتي مصر . وكان له مودة سابقة مع صفينا الأستاذ الشيخ عبد الرزاق افندي ، أيام قدم المفتي البلاد السورية . وقد بلغه من بعض الاخوان قرب مقدمه الى مصر . فدخلنا الأزهر ، وسألنا عن المفتي ، فتقدمنا الدليل الى الرواق العباسي ، وصعدنا في درجة الى غرفة المفتي العليا . ولما دخلنا وسلمنا ، نهض المفتي وعانق الأستاذ حصة ، ثم أقبل إلينا مرحباً ، فقبلت يده ، وجلسنا عنده ، فطفق يؤانسنا ويلاطفنا ، ويسأل عن حركتنا ، وما مررنا عليه من البلاد في الطريق نحواً من الساعة ، ثم أمر باحضار أمتعتنا من اللوكندة الى الرواق العباسي ، وأكد علينا على النزول عنده ، أو في دار أخيه إن شئنا ، فرجوناه أن يسمح لنا في النزول في غرفة من غرف الرواق ، وأن يعفينا من تكليف النزول عنده ، فأبى وأبينا ، ولما قوي إباؤنا قال : على حريتكم ! ثم أمر أمين الفتوى عنده في انتخاب غرفة ، فسار بنا الى غرفة بديعة مطلة على باب الأزهر ، مفروشة بالسجادات البديعة ، ونقلت أمتعتنا إليها . ثم قال المفتي : أنتظركم في غرفتي قبل المغرب بساعة ، فتحضرون ونسير إلى الدار . فحضرنا إلى غرفته ، ثم نهض وسرنا معه إلى رأس شارع الحسين ، فأمر باحضار العربات ، فركب هو والأستاذ عن يمينه ، والفقير أمامهما إلى المحطة .

« وكان من كلامه لنا في العربة ـ وقد جرّ الكلام الى الاجتهاد ـ قال : مذهبي وجوب الاجتهاد على كل عالم ، لأنه صريح القرآن في آيات لا تحصى ، حيث خاطب العقل ، وأمره بالتدبير ، ومن أنكر ذلك فقد أنكر القرآن . وقال

أيضاً : بعد بحث ، يجب عندي التدقيق جداً فيما صح من الأحاديث .

« ولما وصلنا الى محطة الليمون كان مشى وابور المرج ، فمكثنا حتى جاء الوابور بعد المغرب بنصف ساعة ، إذ في كل نصف ساعة يحضر وابور المرج . فأمر المفتي بركوبنا في الدرجة الأولى معه على نفقته ، ولا زلنا حتى وقف الوابور على محطة عين شمس ، محل سكن المفتي ، فسرنا الى داره البهجة ، في وسط حديقة بديعة ، وأمامها مرج أنيق ، يتخلله شجرات نخيل ، وبعد صلاتنا المغرب ثم العشاء تناولنا الطعام ثم مكث في مسامرتنا الى نحو الساعة الخامسة . وكانت هذه الحصة من الفرص النادرة ، إذ كانت المباحث الرائقة ، والحكم الشائقة ، تفوق الوصف . وما فاتحناه في مسألة ، أو سألناه عن مشكلة ، إلاّ ووافقنا على ما نعتقد بها ، ونراه الوجهَ في حلها .

« ولما أصبحنا دعينا للغداء ، ثم جولنا المفتي في بستانه ، وسررنا بتلك الرياضة في صحبته التي كان يتخللها من فوائد الزراعة بتعريفه ما لا يحصى . ولما استأذناه للسير إلى الأزهر تهيأ للنزول معنا ، وأركبنا معه في الوابور إلى كبري الليمون ، حيث ذهب إلى بعض شؤونه ، وذهبنا نحن في عربة إلى الأزهر ، ولما وقفت بنا على بابه رأينا في انتظارنا على باب مكتبة الأزهر رفيقنا وصديقنا الكاتب البليغ رفيق بك العظم ، صاحب كتاب أشهر مشاهير الإسلام . وبعد السلام ، واستقباله الحسن ، تجولنا في تلك المكتبة . ثم سار بنا (رفيقنا) المحترم إلى داره في شارع خيرت ، وكان هذا المسير أوّل التجول في شوارع مصر الأنيقة ، المحفوفة بشجر البلح ، الواسعة الأطراف ، المهندسة البناء . وبعد تناول الغداء

سار بنا حفظه الله بالترامواي إلى الفسطاط ، ثم إلى بحيرة الجيزة ، فركبنا الوابور منه إلى جنينة الحيوانات المنوعة ، فتجولنا فيها قريباً من ساعة ، ولولا ضيق الوقت علينا بقرب المغرب ، لكان ينبغي تمضية معظم النهار عندها ، إذ بها من المدهشات : غراساً ، وتنميق أرض ، وتخطيط طرق ، وأنواع حيوانات ، وسعة منظر ، ولطف موقع ، ما يبهج الأنفس ، ويدهش النواظر . ثم ركبنا الترامواي إلى المحطة ، ومنها بعربة إلى دار الرفيق ، حيث كان المبيت عنده .

« وضحوة الخميس (١٢ شوال) تجولنا في شوارعها الفخيمة ، من ناحية سراي عابدين . ثم انقلبنا إلى مستقر رفقائنا بالأزهر . وبعد أداء العصر ذهب بنا صاحبنا الأديب الشيخ أحمد المحمصاني إلى إدارة الأزهر في الرواق العباسي ، فاجتمعنا بشيخ الأزهر البيلاوي وجلة من العلماء ، وقدم المفتي ونحن ثمة . وبعد تناولنا القهوة سرنا ، فذهب بنا أيضاً إلى شارع النحاسين ، وهناك مجمع المساجد الفخيمة ، وإن شئت فقل : جمع الجوامع . فدخلنا معظمها ، وأبصرنا من ضخامة بنائها ما يدهش . ثم انقلبنا إلى دار (رفيقنا) وفاء لوعده بانتظارنا ، فبتنا عنده .

« وضحوة الجمعة (١٣ شوال) تجولنا في شارع عابدين إلى الأزبكية ، فراقنا انتظام ذاك الشارع واتساقه ، ، وأبنيته المونقة ، ولطف حوانيته . وبعد أداء الجمعة في جامع الشامية ، الذي بنته خالة (رفيقنا) رحمها الله تعالى ، تناولنا الغداء في دار (رفيقنا) ، ثم هيأ لنا عربتين فركبناهما إلى الأهرام ، ورأينا تلك الآثار القديمة ، وما احتفها من النواويس ، وتمثال أبي الهول ، وما

بجانبه مما يقال إنه معبد ، وصعدت إلى باب الهرم الكبير ، ودعيت للانحدار إليه ، والتجول في داخله ، فرأيت المنحدر فيه صعوبة لشدة ملاسة الأحجار ونعومتها التي يتعثر بها ، وإن أعانه مجاورو ذاك المحل وانحدروا به ، فلذلك رغبت عنه ، ووجدنا هناك من السياح الأجانب ما لا يحصى ، نساء ورجالاً . وأبصرت فتاة منهم تنحدر من قمة الهرم الكبير تتهادى بين فلاحين يعينانها ، فقال رفيقنا : « ما تجشمت هذه الفتاة مشقة هذا الصعود والهبوط ، إلا لتكتب في رحلتها إذا رجعت إلى قومها أنها ارتقت ذروة الهرم الكبير » . ولما تجولنا في نواحي الهرم الكبير ، صعدنا إلى أرض مرملة ، فأدينا العصر جماعة هناك ، وبعد أن استرحنا حصة واستقبلنا ذاك السهل المخصب . ثم انقلبنا قبل المغرب إلى دار (رفيقنا) حرسه الله ، وبتنا عنده .

« وضحوة السبت (١٤ ش) سار بنا (رفيقنا) إلى إدارة مجلة المقتطف ، فلقينا حفاوة زائدة من مديريها ، وإيناساً ولطف إقبال ، واستملوا من رفيقنا أسماءنا . وبعد أن طفت في مكتبتهم وأروني غرائب ما شاهدته فيها بكل ارتياح انصرفنا . ثم تبين لي أنهم أدرجوا أسماءنا في جريدتهم المقطم ، وقد أحضر لي رفيقنا تلك الجريدة وهذا صورة ما كتبوا :

١٤ شوال سنة ١٣٢١ و ٢٣ كيهك سنة ١٦٢٠ السبت ٢ يناير ٢٠ (كانون اول) سنة ١٩٠٤

« قدم العاصمة حضرة العالِمين الفاضلين الشيخ عبد الرزاق أفندي البيطار والشيخ جمال أفندي القاسمي من علماء دمشق الأعلام ، ووجهاء سورية الكرام ، فراقهما ما رأيا في هذا القطر من دلائل التقدم والارتقاء ، وآثار اليسر والرخاء . »

« وبعد غروب شمس السبت أديت صلاة الجماعة في الرواق العباسي ، ثم حضرت درس الأستاذ المفتي . وكانت ليلة بداءته من مسامحة فرصة العيد ، حسب العوائد المعلومة في الأزهر وغيره ، في رفع الدروس العقلية قبيل رمضان إلى نصف شوال . فبدأ المفتي مما وقف عليه في دلائل الإعجاز من بحث الحال . وحضر المفتي بعد المغرب بنحو ثلث ساعة ، فدخل وسلم ، والطلبة متحلقه على كرسيه المرتفع ، ولم يقم له أحد حسب العادة في الأزهر . وحينما جلس على كرسيه تربع ، وخلع من كتفه جبته ، ثم وضع النظارة ، وأخرج الكرّاس من ظرفه ، ثم تعوذ وبسمل ، وقرأ عبارة المصنف . ثم أخذ يربط البحث المذكور بسابقه ، ويقرر خلاصة البحث سابقاً ولاحقاً ، بعبارة بليغة جداً ، يتروى ويتمهل في إلقائها . وله غوص غريب على أسرار مقاصد البحث ولطائفه . (وكان ترتيبه في دروسه وقتئذ أنه يقرأ ليلة الأحد والاثنين والثلاثاء في دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، وليلتي الأربعاء والخميس تفسير الجلالين ، ويسامح القراءة ليلة الجمعة والسبت) وجلست ليلتئذ على يمين كرسيه ، وكان كثيراً ما يوجه الخطاب إلى ناحيتي ، ويخصني بنظرة . ثم استوقفه التلامذة عند رأس بحث انتهت إليه مطالعتهم فوافقهم . وكانت مدة القراءة نحو ثلثي ساعة . وبعد أن قام قبل يده كثير من الطلبة ، ثم سلمنا عليه فآنسنا ، ووقف معنا برهة ، ثم دعانا لداره بعين شمس فاعتذرنا ، ثم ودعنا . ورأيت من همة كثير من طلبة المفتي أنهم يكتبون بقلم الرصاص جميع ما يقرره من أول كلمة يلفظها إلى الختام ، حرصاً على درره . وأظن أن ما سيجمع عن المفتي في المستقبل شيء يفوق الحصر ، مما سيرفع المستقبل من شأنه وذكره ، زيادة عن شهرته الآن في التفرد ، بحيث أصبح مطمح أنظار

الفضلاء . وصليت ليلتئـذ العشاء في حرم الأزهر مـع إمامه الشافعي ، ورأيت عادتهم في الظهر والعصر ترك سنتهما ، وأنه بمجرد فراغ المؤذن تقـام الصلاة ، إلاّ في الصبح ، فيؤدون سنتها بالعجل .

« وفي يوم الأحد (١٥ ش) أمضينا معظم النهار في الأزهر ، تعرفاً بمواضعه ، ووقوفاً على عوائد التدريس فيه ، ومشاهدة مبانيه . وبعد العصر تجولنـا ، ثم حضرنا قبيل المغرب للأزهر ، وصعدت حجرة المفتي ، وأطلعته على كتابي (الجواب السني) ، فأخذه مني . وبعد المغرب حضرت أيضاً في درسه . وبعد العشاء سرنا في الترامواي الـكهربائي إلى دار رفيقنا فبتنا عنده .

« وصباح الاثنين (١٦ ش) سرنا إلى إدارة المنار ، لرد زيارة مديرها الأديب الشيخ رشيد أفندي رضا ، وأهدانا من مطبعته كتباً . وبعد أن مكثنا حصة وافرة ، تجولنا في شوارع لطيفة . ثم سار بنا رفيقنا إلى داره . وبعد تنـاول الغداء سرنا إلى الأزهر ، فدعانا صديق بعد العصر لسماع قارئ متقن الأداء ، حسن الصوت ، فأجبنا دعوته .

« وصادفت يومئذ بعد العصر اللغوي الشهير الشيخ محمد محمود الشنجيطي ، وكنا عرفناه قبل أيام ، فرأيته جالساً على جلد في صحن الأزهر ، وأمامه اثنان . فرحب بي وصافحني ، ورأيت آثار كبر السن آخذة عليه ، ففاتحته في فن اللغـة الذي اشتهر بإتقانه ، وسألته عن كتب اللغة ، فمدح « المصباح » ، وقال : إن ضبط ثلاثيه جيد يعتمد عليه . وسألته عما يفيـد معرفة أساليب العرب ، حتى ينتهج على نهجها ، ويعطي ملـكة الرسوخ فيها ، فذكر لي المعلقـات ، وكلام من في

طبقة أصحابها . فسألته عن ديوان الحماسة ، فقال : هو من هذا الموضوع أيضاً .
وطلب مني أن أبحث له عن حاشية ملاّ عبد القادر البغدادي على شرح بانت سعاد لابن هشام في مكاتب الشام ، وأني إن ظفرت به أتفقد له من ينسخه بأجرة ، وأهدانا تأليفه الذي سماه : الحماسة السنية في الرحلة الشنقيطية . وقد رد فيه على الـكتاب الذي ألفه العلامة السيد أحمد البرزنجي المدني في الاعتراض عليه ، وسماه فتكة البراض بالتركزي المعترض على القاضي عياض . وهو كتاب مدهش بلاغة ، وترتيباً ، وحسن مناقشة ، فزعم الشنقيطي أن يرد عليه ، فألف حماسته . ومن طالع حماسته المذكورة ، رأى أن الرجل في عقله شيء ، وذلك لما ملأه من مدح نفسه ، نظماً ونثراً ، ولِماَ حاول فيه تصحيح أغاليطه بتأويلات يمجها كل ذي ذوق ، ولما حشاه من الشتائم والمسبات البذية التي لم يعهد في كتب الردود النزول فيهـا إلى درجة السفهاء في المحاورات .

« واتفق أن قدم لمصر ونحن ثمة صاحبنا وصديقنا الشيخ أحمد الشنقيطي ، بلديّ هذا المذكور ، فلما اطلع على كتابه الحماسة ، أخذته الحماسة ، وعزم على الرد عليه في أغلاطه ، ثم صار يطلعني على ما كتبه ، والآن هو شارع في ذلك ومصمم على جمع كتاب في ذلك ، وسيكشف المستقبل كل غريبة .

« ثم بعد عشاء ليلة الثلاثاء زارنا أيضاً منشئ جريدة المنار المتقدم ، ومعه الحافظ ابراهيم ، الأديب البليغ ، صاحب الديوان الشهير .

« وضحوة الثلاثاء (١٧ ش) اشتريت جملاً من الـكتب النادرة ، وزارنا قبل العصر في الأزهر الأستاذ العلامة الشيخ عبد القادر الرافعي الطرابلسي ، شيخ رواق

الشوام ، فرددنا له الزيارة قبل المغرب ، وبعده حضرنا في تفسير المفتي ، وكان يقرأ الجلالين ، في تفسير آية الكلالة . وبعد أن فرغ من حل ألفاظ الجلالين إجمالاً ، عاد فذكر تعلق الآية بما قبلها ، وأخذ يبدي لطائف في الآيات ، وقال في أثناء تقريره ما معناه : إن الله تعالى بيَّن من أمر الميراث في هذه الآية ما كان مختلفاً فيه عند العرب ، وما كان أمره مقرراً عندهم تركه إبقاء لما كان على ما كان ، مما فيه الحكمة . قال : ولذلك لم يتعرض لذكر ميراث كل فرد في مسألتنا . ثم قال : فلا حاجة إلى تقدير بعض المقدرات في الآية ، فإن حذفها من إيجاز القرآن البديع ، الذي انفرد فيه ، وإنما ترك ما ذكر ما يقدرونه ضناً على بلاغته أن يلصق بها ما لا حاجة إليه ، لكونه معلوماً . وذكر حفظه الله أن الولد في خطاب العرب ينصرف إلى ولد الولد ، وأما الذرية فتطلق عليه وعلى ولد البنت . قال : على خلاف فيها . وذكر عدة لطائف بيانية ، إلا أنه لم يتوسع فيما للفقهاء من مسألة الكلالة ، وما روي فيها ، بل لم يزد في شأنها على ما في الجلالين ، إلا اللطائف التي كان يقررها من ملكته . وقد كتب عنه في القلم الرصاص كل تقريره ، حسب العادة ، مما سيبرزه المستقبل في أحسن حلة .

« ثم عدنا بعد العشاء لدار الأديب حقي بك العظم ، صاحب كتاب حرب اليونان ، إجابة لدعوته ، وكانت دعوته فخيمة ، والاحتفال الذي أبداه يفوق الوصف .

« وضحوة الأربعاء (١٨ ش) ذهبنا للأزهر ، ومنه لدار العالم الفاضل السيد أحمد بك الحسيني ، صاحب كتاب نهاية الأحكام ، ودليل المسافر ، إجابة لدعوته ،

فأركبنا في عربته إلى محطة قطار حلوان ، ثم أركبنا في الدرجة الأولى من القطار ، إلى أن بلغنا بلدة حلوان ، فسرنا إلى منزله بها ، وهو في لطف الموقع ، وحسن البناء ، وكثرة الأثاث والرياش الفخيمة ، بالغ النهاية . وكان تناول العَشاء وقت العِشاء ، وقاعدة أكابر المصريين تناولهم العشاء إما في هـذا الوقت ، أو بعده ، وهو الغالب . وسببه تأخيرهم تناول طعام الغداء بعد الظهر . وقد تأنَّق في هـذه الدعوة تأنقاً يفوق الوصف ، بحيث يخال الحاضر أنه في دعوة أمير أو وزير . ثم بقينا عنده إلي أن قربت حركة القطار في ميعاده ، فودعنا السيد ، وانصرفنا على نفقته ذهاباً وإياباً ، فركبنـاه من حلوان الساعة الخامسة ، ووصل بنا إلى محطته في مصر الساعة السادسة ليلاً ، ومعنا رفيقنا الفاضل ، فبتنا عنده .

« وضحوة الخميس (١٩ ش) سرنا إلى الأزهر ، لحضر لزيارتنا ثانية الأستاذ العلامة الشيخ عبد القادر الرافعي ، ودعانا لتناول طعام العشاء عنده مساء الجمعة .

« ثم يوم الخميس (١٩ ش) أرسل المفتي خبراً لأجل أن يزورنا في غرفتنـا في الرواق العباسي ، فبادرناه بزيارتنا له ، لئلا يطول انتظارنا ، وذلك بعد الظهر ، فجلسنا في غرفته حصة كانت مظهر لطفه وإيناسه ، وناولني كتابي (الجواب السني) ، ووعدني البحث فيه مشافهة .

« ومساء ذاك اليوم كنا في دعوة أحد الوجهاء وكان دعا المفتي لأجلنا ، فذهبنا بعد الغروب ، وجلسنا حتى صلينا العشاء ، وجاء المفتي بعـد ذلك ، وبعد أن مكثنا معه حصة قمنا للطعام ، وكنت عن يمينه . سألته ونحن على المائدة عما ذكره البقاعي في تفسيره من أقاصيص الكتابيين ، نقـلاً عن كتبهم ، فقال :

لا أرى أن يتمم كتابنا مما في كتبهم ، لأن في إجمال التنزيل كفاية ومقنعاً .
قال : ومحاولة ذلك لا داعي لها ، إذ لو كان في بسطه خير لنـا لقص علينا .
قال : وينبغي أن نطالع كتبهم لنستعين منهـا بالرد عليهم ، لا أن نستمد منهم .
قال : وقد صرفت ردحاً من الزمن فيها لتلك الغاية . قال : بل إن اعتقدنا صحة قصصهم ، وقعنا في إشكال ، فانهم يزعمون أن قصة جالوت ، وقصة الشرب من النهر ، كانتا في عصرين متباعدين ، والتنزيل قص ذلك في وقعة واحدة ، وهو الحق الذي لا مرية فيه . فان ما لديهم لا يوثق به (هذا مذهبه في ذلك ، ولي بحث أوردته في مقدمة التفسير في هذه المسألة فليراجع) وهكذا كانت المباحث آخذة النهاية في المواضيع المهمة . وغب الطعام جلس المفتي معنـا حصة وافرة ، ثم استأذن فودعناه .

« ثم ذهب بنـا (رفيقنا) لداره ، فرأينا الشيخ رشيد صاحب المنـار ، والأديب حافظ ابراهيم ، وفاضلاً آخر ينتظروننا ، فسمرنا معهم معظم الليل في مسائل ولطائف .

« وضحوة الجمعة (٢٠ ش) اغتسلت في حمام قرب الأزهر ، ورأيت ما كنت أسمعه من عدم الاعتناء بالعورات في الحمامات ، وصليت الجمعة يومئذ في الأزهر ، قرب محرابه . ومساء الجمعة أجبنا دعوة العلامة الرافعي إجابة لدعوته ، ونالنا منه تمام اللطف والأنس ، وكان فيما أورده من ألوان الأطعمة البالغة الكثيرة دليلاً على سخاء نفسه .

« وليلة السبت كان الاحتفال بزينة عيد جلوس الخديوي بالغاً الغاية في تأنيق نصب

الأعلام ، وتصفيف فوانيس الشموع ، وتلوين الأضواء الكهربائية ، بما ليس فوقه زيادة في الحسن . ويا ليت هذه المبالغ الطائلة المصروفة في مبتدع هذا العمل كانت تصرف لجهة نافعة . وبتنا ليلتئذ في غرفتنا في الرواق العباسي .

« وضحوة السبت (٢١ ش) تجولت في حوانيت باعة الكتب ، واشتريت كثيراً مما راقني . ثم راجعت في كتبخانة الأزهر من أجزاء تاريخ ابن عساكر الجزء الذي فيه ترجمة عمرو بن العاص ، وعلى هذا الجزء خط ابن المؤلف .

« وذهبنا مساء السبت لدعوة أحد كبار التجار الشاميين المقيمين في مصر ، وأركبنا العربة من شارع الأزهر الى محلة في العباسية ، وكانت دعوة فخيمة ، ودعا إليها كثيراً من الوجهاء والعلماء ، وفي مقدمتهم السيد أحمد بك الحسيني . ثم رجع بنا (رفيقنا) الى داره .

« وبعد ظهر الأحد (٢٢ ش) رجعنا الى الأزهر ، واشتريت كتباً أخرى . وصليت العصر بجامع الحسين ، وصادفت هناك صاحبنا الأديب الشيخ أحمد الشنقيطي ، فجلس عندي برهة ، أطلعني بها على مسودة الكلام على اجماع النحاة على منع صرف عمر ، مما شرع في الردّ به على بلديِّه الشيخ محمد محمود الشنقيطي ، فراقني ما كتبه ، وأشرت عليه أن يحذف في النقل أسماء النحاة المتأخرين ، أرباب الحواشي والشروح ، لأنهم ليسوا من أهل الرأي ، حتى يستشهد بموافقتهم أو مخالفتهم ، فاستحسن ذلك .

« ثم بعد المغرب حضرت درس المفتي في دلائل الاعجاز ، في بحث الحال ، وسألني بعد أن ارتقى الكرسي عن حالنا وراحة الأستاذ ، وكانت حصة الدرس

نحواً من ثلثي ساعة . واستوقفه التلامذة عند رأس بحث بصوت جهوري فوقف .
وبتنا ليلتئذ في غرفتنا في الرواق العباسي .

« ويوم الاثنين (٢٣ ش) ذهبنا قبيل العصر لدار السيد أحمد بك الحسيني ، وفاء لوعده بانتظارنا وقتئذ ، فأركبنا في عربته الى شارع كامل ، ومنه الى الجزيرة ، الى متنزه في سفينته الذهبية ، المقيمة في نيل تلك الناحية ، فصلينا العصر ثمة ، وتناولنا أكواب الشاي ، وطالعنا من الجرائد اليومية المقالات العلمية ، ولا زلنا متنزهين بها الى قبيل الغروب . ثم ركبنا العربة وسرنا جميعاً الى دعوة أحد تجار مصر الشاميين المياسير . وبعد العشاء عاد بنا رفيقنا الى داره .

« وصباح (الثلاثاء ٢٤ ش) ذهبنا برفيقنا لإدارة المنار ، وعوّلنا على طبع الشذرة من السيرة المحمدية عند منشىء المنار صديقنا . وبعد ترتيب طبعها عدنا للأزهر . ثم حضرت بعد المغرب درس المفتي في التفسير ، وكان يقرأ في قوله تعالى « وَٱللَّاتِي يَأْتِينَ ٱلْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ » الآية . فقرأ كلام الجلال إلى آخر الآية التي بعدها ، ثم قرر أقوال المفسرين في الآية ، بتأنٍّ وتروٍّ زائدين ، واستراحة بين كل جملة يقررها . ورأيت المفتي جنح في هذه الآية إلى ما قاله أبو مسلم الأصفهاني ، الذي حكاه عنه الفخر الرازي ، ونقله النيسابوري أيضاً ، وقوّاه المفتي جداً . إلا أني ما ارتضيته ، لكونه مخالفاً لما صح في تفسيرها ، مما رواه مسلم (انظر محاسن التأويل للفقير) . وكأني رأيت من المفتي من تقريره أنه يذهب مذهب الأصفهاني المذكور في مسألة النسخ . واستحسنت من المفتي لطيفة قررها ، وهي أن كثيراً من العلماء يأصلون مسألة غريبة يلجأون إليها كثيراً وهي

قولهم : (إن السلف لم يتكلم في هذا بشيء) . يقول حفظه الله : إن عدم تكلمهم في مسألة لا يكون قطعاً لنا عن التكلم فيها ، وإعمال الفكر للوقوف على معناها بما تبلغه طاقتنا . ففي هذا الأصل صدّ عن النظر والتأمل والتدبر فلا يعول عليه . وبعد الدرس وأداء العشاء سار بنا الرفيق إلى داره .

« وضحوة الأربعاء (٢٥ ش) تناولنا الغداء عنده ثم سار بنا الظهر ركباناً على عجلة إلى محطة الوابور الكبرى ، ومنها ركبنا أحد القواطر إلى القناطر الخيرية وكانت المسافة إليها ساعة ، فنزلنا عند محطتها ، وركبنا عجلة حديدية على خط حديدي ممدود إلى حديقتها الغناء . ولما نزلنا صلينا الظهر ثم العصر ، ثم تجولنا في متنزهها الفائق ، وانتعشنا بنسيمها الرائق ، وجلونا العيون ببديع تلك المناظر ، فيالها من حديقة تتخللها حدائق ! وماذا أصف منها : منظرها المدهش ، أم تخطيطها المبهج ، أم زهورها المتنوعة ، أم طرقها المونقة ، أم القيام على خدمتها وتنظيفها ؟ ورأيت في ناحية منها عجلة تقص نباتها وكلأها بآلة فتسوي وجه الأرض بسوية واحدة . وبالجملة فليس الخبر كالعيان . وبعد أن تجولنا في أنحائها قصدنا مبنى فيها فخيماً ، ومعرضاً لطيفاً ، فيه مصغر أعمال الري في القطر المصري ، مثلت فيه مسارب النيل في قوالب خشبية . وغب أن وقفنا على تلك الأعمال الهندسية المدهشة ، تجولنا في بقية تلك الحديقة ، ثم ركبنا العجلة على الخط الحديدي نجتاز في تلك القناطر البديعة ، وجلسنا على طرف محطة الوابور ننتظره . ولما قدم القطار ركبناه وبتنا ليلتئذ عند (رفيقنا) .

« ويوم الخميس (٢٦ ش) زارتنا الأديبة زينب خانم فواز المصرية ،

صاحبة التاريخ المسمى بالدر المنثور ، في طبقات ربات الخدور ، وكانت تعرفت بصفينا الشيخ عبد الرزاق أفندي من دمشق ، أيام قدمت لدمشق مخطوبة لصديقنا الأديب البليغ أديب بك نظمي ، ثم بعد تزوجه بها طلقها وعادت إلى وطنها .

« ويوم الجمعة في (٢٧ ش) سار بنا رفيقنا إلى محطة الوابور ، ومنه ركبنا القطار إلى عين شمس ، وقصدنا زيارة المفتي في داره ، فلما وصلنا إليها أخبرتنا كريمته بأنه سار إلى بلبيس . ثم رجعنا وكان أحد أصدقائنا وعدنا أن يسير معنا ، إلا أنه تنبه قبل أن يقدم إلى المحطة ، فاستخبر من التلفون في البلدة عن المفتي من التلفون الموجود في داره فأخبر كما أخبرنا عنه ، فتوفر له الأجرة التي صرفت والوقت الذي أضعناه ، وهذه ثمرة العلوم المكتشفة ، التي عادت على الناس بفوائد لا تحصى . وأديت الجمعة يومئذ بالأزهر ، والعصر أيضاً . وبعده قدم رفيقنا وسار بنا إلى داره ، وبتنا عنده وأحضر لنا مطرباً تتروح القلوب بنغماته ، وتتهادى الأنفس بطيب ألحانه .

« وضحوة السبت في (٢٨ ش) عدنا إلى الأزهر ، وصادفنا في الطريق الجموع والأفواج من الناس تنتظر قدوم كسوة الكعبة التي جرت العادة بالاحتفال بها من ميدان محمد علي إلى جامع الحسين ، وبينما نحن على رأس الشارع الجديد إذ قدمت الكسوة محمولة على أكتاف الرجال ، في محامل لها ممدودة فوقها على مقدارها ، ووراءها المحمل المصري ، ويتقدمها الجنود والموسيقى العسكرية ، ثم أعلام مشايخ الطرق ، بطبولهم وزمورهم ، مما يفوق الاحتفال في دمشق بالمحمل ، في البدع المنكرة . ثم عدت إلى الأزهر ، وصليت الظهر فيه . ثم ذهبت إلى

إدارة المنار لتفقد طبع السيرة المحمدية ، وصليت العصر في جامع راحيل عند باب الخلق ثم انقلبت إلى الأزهر ، وبتنا في غرفتنا فيه . وكانت ليلة ماطرة مطراً غدقاً .

« ويوم الأحد (٢٩ ش) صليت الظهر في جامع الحسين ، وكانت الطرق موحلةً جداً من أثر المطر ، وذهبت أيضاً لإدارة المنار ، وقدم عليّ هناك رفيقنا ، فسار بي إلى داره ، وأرسل وراء الأستاذ ، فتقدمنا إليها ، وزارنا بعد العشاء الأديب حافظ ابراهيم .

« وضحوة الاثنين غرة ذي القعدة سار بنا رفيقنا الى دار الآثار المصرية وهي (الانتيكخانة) ، فأركبنا عربة من شارع خيرت إليها ، فدخلنا فسيح الجنينة التي تحفه ، وراقنا تنسيقها ، وإحكام غراسها ، ثم قصدنا صرح تلك الآثار ، وطفنا في مكنون تلك الأسرار ، التي تستوقف الأبصار ، للاعتبار والأذّكار ، وتجولنا ثمة أكثر من ساعتين ، وهي بالنسبة إلى الوقوف على تفاصيل الموجود بها قليلة جداً ، ربما استقل لها يوم أو أكثر ، ويحتاج الإنباء عن تفصيل ما حوت إلى مجلد ضخم . وقد وقفت في مجلة الظاهر على مقالة لطيفة في مغزى الاعتناء بمثل هذه الآثار ، ساقها محرر الجريدة في عدد ٤٠ بتاريخ ١٢ شوال سنة ١٣٢١ في افتتاحها حيث قال ما صورته :

سائحة الآثار العربية لسنة (٢٠٠٤)

« تتناجى الضمائر الحية عن معنى موقف العبرة البالغة ، والذكرى التاريخية ، ذلك الموقف الذي وقف فيه عظماء مصر خلف سمو أميرهم المحبوب ، عصر يوم الاثنين الماضي ،

فيأخذ هذا التناجي بالأفئدة إلى الفكر في مستقبل هذه الأمة التي ورثت مدنية العرب ، ورأت من آثار عظمائهم ما يحملها على أن تترك لخلفها آثاراً كآثار سلفها الذين جعلوا لها مقاماً في التاريخ لا ينكر ، وذمة في الحضارة لا تخفر ، ودنيا في المدنية لا تكفر ، وعهداً في الوجود السياسي لا ينقض ، وعصمة أدبية لا تفصم عراها ، فماذا أنتم يا قوم بعد هذه العبرة فاعلون ؟ ليس الموقف موقف إعجاب ببدائع التنسيق ، وزينة المتحف التي كانت على شكل جميل ذي رواء وتأنيق ، وإنما الموقف خلق للعبرة ، والاستشعار بشعائر الحياة الأولى التي كانت سياج الحضارة العربية ، والمدنية الشرقية ، فكأن آثار الآباء تنادينا بأن نسلك سبيلهم ، ونعمل كما عملوا ، حتى نخلد لوسطنا في صحف التاريخ سطوراً أثرية ، تكون سبباً من أسباب التنشيط لخلفنا بعد قرن يمر ونحن لا نشعر ، فالأيام تطوى في الشهور ، وهذه تندمج في السنين ، وآحادها تلاحق عشراتها ، والشبيبة تشيخ وتكهل ، والمنون تأخذ قسطها ، والدول ترتفع وتنحط ، والشعوب تصعد وتهبط ، والأفراد يشقون ويسعدون ، وكل هذا يسطو على الآمال فيقطعها ، وعلى الروابط فيمزقها ، وكأن القوم في غفلة ساهون ، والغربيون بنا ساخرون لاعبون ، ونحن عن مستقبل ذريتنا لاهون . فلا ندري ماذا تكون آثارنا بعد مائة عام تنقضي ، وتتقلب فيها الشهور والأيام ، بحوادث تتوالى على الأنام . لكل زمان دول ، ولكل دولة عظماء ، ولكل عظيم أثر . فأين آثار عظمائنا التي يدونها التاريخ ، لتكون عبرة للأعقاب بعد أعوام ؟ أصبح المصريون ولا عظماء بينهم ، إلا وزراء وَهْمٍ ! فإذا أردنا أن نسأل التاريخ عما دونه في دفاتره من آثار هؤلاء الوزراء الذين ملكوا مقاليد التصريف في هذه الأمة ، وسيطروا عليها ، وذهبوا بها

مذاهبهم المعروفـة ، فبأي شيء يجيبنا التاريخ ؟ هل أثبت التاريخ في صحفه غير جنـايات وغِيَر ، وتصرفات كلها عِبَر ، قضت بتمكين مدى الأغيار من مقاتل الديار ، قضت بإراقة الدماء الغزيرة على جوانب السودان ، حتى فتح بأموال مصر وأرواحها ، ثم سلمه الوزراء لأصدقائهم المحتلين ، من غير ضمانة وكفالة لحقوق المصريين التعساء في هـذا الفتح الذي جرّ عليهم الويل تلو الويل ، وقضى على خزائن المالية المصرية بأن تنزح بدلاء المآرب والشهوات الاستعمارية ، حتى أصبحنا لا نفقـه للتصرفات الحاضرة في مصر معنى ، ولا ندرك سر هـذا التزلف الغريب المريب ! بمـاذا ينطق تاريخ الوزراء وأي أثر صالح يدون في الدفاتر غير ما فعلوا من فعائل أدهشت العالمين ، وبلبلت ألباب الساسة والمفكرين ، وشذت عن حدود المعقول ، حتى أنكرتها العقول ، وسخرت بها الأيام ، كأنها ذنوب وأوزار وآثام ، أثقلت كاهل التاريخ ، ففر منها هارباً ، وطمس معـالم الحياة المصرية ، فلا تذكر بخير بعد حين ! إن الآثار تنبىء بمجد ذويها فتحيي ذكرهم وهم رفات نخرة ، تبعث في القلوب تبجيلهم وتمجيدهم ، إذا دفنوا بقي اسمهم خالداً ، ومجدهم شامخاً ، وفخرهم تدول الأيام وهو لا يدول ، وتزول الممالك والأمم وهو باق لا يزول . هذا شأن العظماء مع التاريخ ، وهذا حال الأمم المجيدة الحية التي عرفت قـدر الحياة والخلود ، فعملت لتبقى حية سرمـداً ، فاذا فنيت الصور والأشباح ، وثلت العروش ، وتداعت الصروح ، فلا يقضي هذا على مجدها ، ولا ينسخ آية فخرها ، بل يزيدها عظمة واحتراماً في نظر كل مفكر ، شاعر بمعنى المجـد والشرف والعز والسؤدد والاستقلال العزيز . » انتهى .

« ويوم الثلاثاء (٢ ذي القعدة) تراوحت حركتي ما بين إدارة المنار ، لتفقد طبع السيرة ، والأزهر . وبعد العصر استأجرت حماراً لي ، وآخر لصديقنا الأديب الفاضل الشيخ أحمد الشنقيطي ، وذهبنا من باب الخلق إلى جهة القلعة ، وشاهدنا في طريقنا جامع السلطان حسن ، فاستوقفنا برهة فخامة بنائه ، وشموخ جدرانه . وقد حكى لنا في مصر بعض الأدباء أن السلطان عبد العزيز لما قدم مصر وزار معاهدها قال عن هذا الجامع لما رآه : هو جامع قلاع ، وقال عن جامع المؤيد إنه جامع ملوك ، وعن جامع الغوري قاعة تاجر ! ثم سرنا إلى جامع الإمام الشافعي ، فصلينا العصر في برانيه ، ثم دخلنا الحرم ، وزرنا الإمام قدس الله روحه . وراقني خدمة ذاك الجامع وفرشه ، وتجديد بنائه . وبعد أن تجولنا فيه برهة انقلبنا ركباناً إلى الأزهر ، فوافيناه غروب الشمس . وذكرت للشنقيطي ملاطفاً له قول بعضهم في حمار ركبه :

هـذا حماري في الحمير حمار في كل خطو كبوة وعثار

قنطارُ تِبنٍ في حشاه شعيرة وشـعيرة في ظهره قنطار

« وقلت له : الحمد لله على أن لم يكن ما ركبناه كالذي حدث عنه الشاعر ! فقال لي : جريُ هذا الحيوان منفرداً ، لا كجريه مع شبهه ، كما قيل :

إن الحمـار مع الحمـار مطية فاذا خلوت به فبئس المركب

« وبعد صلاة المغرب في الرواق العباسي حضرنا في درس المفتي ، وكان يقرأ في تفسير قوله تعالى : « إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ » فبعد أن فرغ من قراءة الجلال ، قرر وأبدع في التقرير ،

وأسند عن الغزالي ليلتئذ في بحث التوبة جملاً لطيفة . وقد كتبت عن تقريره إلى عدة صحف على قاعدة نجباء تلامذته في ذلك . ولما أذن العشاء كان انتهى تقريره فنهض ثم وقف معنا برهة ، وقد بلغه تأهبنا للسفر ، فأظهر التأسف وقال: مصر لا يكفي لها هذه الأيام . وأخذ يرغبنا في المقام ، بألطف كلام ، فاعتذرنا بعزيمة بقية الإخوان ، وذكرى الأهل والأوطان . ثم ودعنا .

« وبعد صلاة العشاء جماعة في الرواق سار بنا الشيخ رشيد صاحب المنار إلى إدارته ، وكان دعانا لتناول العشاء عنده ، وسمرنا عنده حصة وافرة في مباحث شائقة .

« ويوم الأربعاء (٣ ذي القعدة) تجولنا في المدينة لبعض الشؤون ، وصليت العصر بجامع الحسين ، وجلست في ناحية منه ، فحضرني الأديب الشيخ أحمد الشنجيطي ، وأراني مسودة رسالة للرد على بلديه الشيخ محمد محمود الشنجيطي ، نزيل مصر ، في مسائله التي خبط فيها في كتابه الحماسة السنية . وبعد المغرب حضرنا في درس المفتي في التفسير ، وبتنا ليلتئذ في الأزهر .

« ويوم الخميس (٤ ذي القعدة) تهيأنا لإجابة دعوة المفتي ، إذ هو دعانا قبل يومين أن نتغدى عنده ، فأتانا قبيل الظهر أحد أخصاء المفتي ، وسار بنا إلى محطة الليمون ، وأركبنا القطار إلى عين شمس ، فوصلنا إليها بعد الظهر ، وصلينا الظهر هناك . ثم قدم المفتي ، ومعه المحسن الشهير أحمد باشا المنشاوي ، صاحب المبرات الشهيرة في مصر . وبعد تناول الغداء ، جلسنا حصة وافرة مع المفتي . ثم رافقنا في النزول من عين شمس إلى مصر ، وكنت بجانبه في مركبة الدرجة الأولى من

القطار ، فسألته عن قول بعض المفسرين : نزلت هذه الآية مرتين ، فقال : أنا لا أعتقد هذا ، ولكن أرى أن معنى قولهم : نزلت في كذا ، ونزلت في كذا ، أنه ﷺ كان يسأل عن حادثة ، فيتلو عليهم الآية التي نزلت فيما أشبه الحادثة المسؤول عنها ، فيذكر بالحادثة من لم يكن يعرف المشابهة بين الحادثتين ، أعني حادثة النزول ، وحادثة الواقعة . وبعد وصول القطار إلى المحطة ، ودعنا المفتي ، ثم ذهبنا إلى جامع عنان ، وأدينا العصر فيه . ثم ركبنا عربة إلى قرب الأزهر ، ولما دخلته سمعت شخصاً يحدث بوفاة العلامة الشيخ محمد الأشموني ، أكبر العلماء سناً وقدراً ، وأنه توفي عصر الخميس ، وأنه سيحتفل بجنازته الجمعة . وكان حديث المصريين ليلتئذ ترجمة هذا الأستاذ . وليلتئذ بتنا بالأزهر .

« ويوم الجمعة (٥ ذي القعدة) أديت صلاة الجمعة بالأزهر وكان احتشد بأمم لا تحصى لانتظار الأشموني . وبعد أن قضيت الصلاة ذهبت لإدارة المنار ، واستلمت نسخ السيرة التي طبعتها ، واستبقى الشيخ رشيد منها مائة نسخة عنده ، وقال لي : أظن أنها ستطلب مني . ولما قدمت العصر إلى الأزهر ، أبصرت الأفواج خارجة من بابه لتشييع جنازة الأشموني رحمه الله تعالى .

« ومساء الجمعة أجبنا دعوة بعض التجار المياسير في محلة الظاهر ، ثم عدنا إلى الأزهر وبتنا فيه ، وأدينا صلاة الصبح فيه .

« ثم تأهبنا للسفر من مصر ، فسرنا من الأزهر قبيل طلوع شمس السبت (٦ ذي القعدة) إلى المحطة الكبرى ، فوجدنا بها فضيلة المفتي متقدماً لوداعنا ، إذ نزل حفظه الله من محله بعين شمس باكراً لهذا الوداع ، كما وعدنا . فبعد

السلام عليه ومصافحته سار بنا إلى أحد بيوت المحطة الفخيمة ، المفروش بالأثاث الثمين ، فجلسنـا معه حصة لطيفة ، وسألته في تلك الفرصة عن أقرب كتاب ينبغي تدريسه للعامة ، وقلت له : إنا مبتلون بالشام بالدروس العامة ، ولا أزال في حيرة من كتاب بعيـد عن الواهيات ، يناسب حالتهم ، وينتفعون به حق الانتفاع . فتنفس متأسفاً ، وقال لي : ما كتب المسلمون في ذلك . ثم تفـكر وقال لي : أحسن شيء في هـذا الموضوع كتب الغزالي ، بشرط تجريدها عن الواهيات من الآثار والقصص . وسألته عن يأجوج ومأجوج ، وهل حق ما يقال بأنهم الترك التتر ؟ فقال : نعم هو كذلك ! ويؤيده خرجاتهم الشهيرة . فسألته عن السَّدّ ، فقال : هو إما في باب الأبواب ، أو في جدار الصين . قال : وقد اندحر من قرون . ثم شكا مما وقع في التفاسير من واهيـات الأحاديث والآثار ، التي شانت وجه الحقائق . واستغرق الكلام في ذلك ممـا كان خاتمة اجتماعنا مع فضيلته هذه الأبحاث المهمة . ثم ختم إكرامه لنـا حفظه الله بأن أركبنا في الوابور على نفقته من مصر إلى الاسكندرية وبقية رفقائنا الثلاثة . ولما صفَّـر القطار قمنا وقام معنا ، فلثمت يده ، وعانق الأستاذ ، ولم يزل حفظـه الله ورعاه واقفاً أمام ألواح البلور يشاهد استقرارنا ، حتى تحرك القطار فحييناه بالاشارة ، وطار بنا القطار من مصر الساعة الثانية صباحاً عربية ، ووقف في الطريق على بنها ، وعلى دمنهور وغيرها .

« ثم وصل الإسكندرية الساعة السادسة نهـاراً ، فنزلنا في لوكندة لطيفة ، ثم تجولنا في شوارعها فألفيناها في غاية الحسن والهندسة البديعة ، ومعظم شوارعها

مصفح بالبلاط الأسود الكبير القطع ، المحكم الوضع ، وكذلك رصفها . ومنها ما هو مبلط بالبلاط الملون ، ومنهـا ما هو مفروش بالحجر الزفتي ، فتخال الرصيف قطعة حجر واحدة . وفيهـا مبانٍ شاهقة ، تحاكي القلاع . وأما وفرة أضوائهـا الكهربائية في جهة المنشية ، وفخامة مخازن تجارتها ، فحدث عنها ولا حرج . وتجولنـا بعد ذلك في ناحية مرسى البوابير البحرية ، فألفيناها تقل كثيراً من البوابير الهـائلة . ومما شاهدناه من جوامعهـا جامع الأبوصيري رحمه الله تعـالى ، وجامع أبي العبـاس المرسي قدس الله سـره ، وجوامع أخرى في خلال الشوارع . وبعد أن أقمنا بهـا خمسة أيام استأجرنا في الوابور الفرنساوي إلى بيروت .

« وركبنا فيه ضحوة الخميس (١١ ذي القعدة) بعد أن بُخّرت أمتعتنا في محل الكرنتينا ، وأجريت علينا المعاينات الطبية ، وتحرك الوابور الساعة الرابعة ، ولم يزل يشق عبـاب البحر (والقَطْرُ هَامٍ وَالرِّيَاحُ عَواصِفُ) إلى أن أرسى على بور سعيد الساعة الرابعه ليلاً . وعند الصباح سار وأرسى قبيل المغرب بنحو ساعة على يافا ، والجو منهمر بمـائه ، والأمواج متلاطمة ، فمكث الوابور بمقدار ساعتين . ثم سار فأصبح مغلساً على بيروت . ثم أجريت على بعض أمتعة ركابه التبخيرات الطبية ، وأخذ من كل راكب ستة قروش. ثم أذن لهم بالنزول منه ، فقدمت الزوارق تقل ركابه . وكان أرسل إلينـا بعض معارف الأستاذ زورقاً فنزلنـا فيه نحو الساعة الخامسة ، وبادر في زورق آخر من أرسل ذلك الزورق ، فركبوا فيه ، واستقبلنا على الشاطىء الفاضل السيد محي الدين الحسني والأديب

الشيخ أحمد طبارة وكثير من معارفنا . ثم دعينا مع الأستاذ فنزلنا عند أحد معارفه التجار .

« ويوم الأحد (١٤ ذي القعدة) تجولنا لبعض الشؤون في بيروت ، وجلنا في عواليها ومتنزهاتها ، وكان يوماً متلوناً بيننا تراه صاحياً ، إذ تلبد بالسحب ، وسحّ بالقطر . وفي المساء انقلبنا إلى دار الأستاذ العلامة السيد محمد أبو طالب الحسني الجزائري ، نزيل الثغر ، وصفينا من الشام ، إجابة لدعوته . وكانت المذاكرات العلمية تركض خيولها في ميدان ذاك المجلس ، ولا ترى إلا أيدي تنهال على مكتبته ، فتقتطف ما شاءت ، وتراجع ما أحبت . وكان من أمهات ما راجعناه منها ، واستغرق معظم الوقت فيه ، الجزء الرابع من موافقات الإمام الشاطبي ، ذاك الكتاب الذي جمع من بدائع مسائل الأصول ما يبهج الألباب . وقد سردت منه على الإخوان من فصوله في المسألة الثانية ، قوله : فصل وعلى هذا الأصل ينبني قواعد ، منها أنه ليس للمقلد أن يتخير في الخلاف كما إذا اختلف المجتهدون على قولين ، فوردت كذلك على المقلد ، فقد يعد بعض الناس القولين بالنسبة إليه مخيراً فيهما ، كما يخير في خصال الكفارة فيتبع هواه وما يوافق غرضه دون ما يخالفه الخ . . . والفصل مهم جداً كالكتاب جميعه .

« ثم بعد الغروب ذهبنا من بيروت فنزل معي إلى المحطة الأستاذ وشقيقه ، وكثير من الأصحاب ، وقبيل المغرب وافينا محطة البرامكة ، حيث استقبلني أشقائي والأصدقاء ، وبقي الأستاذ وشقيقه ، في بيروت ليمضيا العيد الأكبر بها . ولما شاع خبر مقدمنا وفد للزيارة أحبابنا ، وبقينا نستقبل زيارتهم أربعة أيام ليلاً

ونهاراً ، ممـا أوجب أن يرثي لنـا بعض الأصدقاء على إعادة الأخبار ، وتحمل الاستخبار . وأخبرني شقيقي قاسم خير الدين أن أخبارنا المصرية ، وما جرى لنا من الاحتفال ثمة ، والاعتناء الزائد ، وصل بحروفه إلى الشام ، بحيث دهش كثير من فريق العلماء لذلك ، إذ لم يعهدوه ولم يسمعوا بمثله ، فحمـدت المولى ، على ما أنعم وأولى . »



رحلته إلى المدينة المنوّرة

أما رحلته إلى المدينة المنورة عام ١٣٢٨ فيختلف ما كتب عنها عن سابقتيها ، لاختصارها ، وعدم الإفاضة في الحديث عنها . ولم يكن ما تركه القاسمي في الواقع إلا خواطر دونها في مفكرته اليومية ، والظاهر أنه لم يجد فراغاً لشرحها ، فاكتفى بأن نقل إلى الدفتر الذي ضم ترجمة حياته ، هذه الخواطر ، كما كتبها في حينها وهذا سبب ما قد تلحظ من قلق في بعض عباراتها .

وقد لاحظ القاسمي الخلاف بين ما كتب عن الرحلتين السابقتين ، وما كتب عن هذه الرحلة ، فاعتذر عن ذلك في مطلعها بقوله :

« كانت الأيام تسمح لي أن أسهب المقال في غرائب ما يطرأ لنا أو علينا من الأحوال ، وأما الآن فقد رأيتني في ضيق من الوقت ، وذلك لصرفه ، والحمد لله ، إلى ما هو خير وأبقى » .

ولا شك في أن « ما هو خير وأبقى » هو انصرافه إلى إتمام تفسيره « محاسن التأويل » ، وإلى غيره من الكتب النافعة ، وإلى دعوته للاصلاح .

ومهما يكن من أمر هذه الخواطر ، ففي بعضها ملاحظات تستحق التوقف ، وهي جديرة بالدرس ، على الرغم من إيجازها .

فلقد وجه نظره أن القطار ربما كان مدعاة للعمران في هذه الصحارى المنبتة ، وتمنى أن تبذل لها العناية اللازمة لتؤتي أكلها ، فهو يقول :

« سار بنا الوابور يجوب تلك البقاع الواسعة ، الجديدة بالعمران ، وبذل العناية في تمصيرها ، لما بها من جودة التربة ، والميل إلى الحرارة ، فتؤتي أكلها في العام مرات ، لو عُني بها حق العناية ، ولعله يكون بحوله تعالى » .

حتى إذا أقبل على المدينة المنورة ، هاجه الشوق إليها ، وحن إليها حنين المؤمن الصادق ، الذي عرف حقائق الرسالة ، وامتلأت نفسه بحب صاحبها ، قال :

« ... وما زلنا على هذه المناظر ، حتى أشرفنا على المدينة المنورة ، فلم أطق القعود شوقاً والتياعاً ، وأخذت دموعي تهطل ، ولساني يردد الصلاة على رسول الهدى ... »

فإذا ما حط رحاله ، سارع إلى المسجد النبوي الشريف ، ليصلي العصر جماعة ، وليزور الحضرة النبوية ، وليسلم أنواع التسليمات الزكية ، وليدعو الله له ولأولاده ولإخوته ولإخوانه وذريتهم .

وفي اليوم التالي يزور قبور الصحابة رضوان الله عليهم في البقيع . ومن أحق بعد الرسول الأعظم ﷺ ، بالزيارة من أصحابه . فإذا ما وصل إلى المقبرة أسف « لعدم انتظام حفر القبور ، وشاهد كثيراً من عظام الموتى وشعورهم مبعثرة ... » ويشير إلى الطريقة المثلى ، التي يحافظ معها على كرامة الأموات ، وجلال الموت ، ويعقّب على ذلك بقوله : « وهذا ما يفعله حفارو الشام » .

ويواظب على الحرم ، ليؤدي فيه الصلوات ، فإذا ما كان قبيل الفجر ، رأى أن النساء قد سبقن إليه ، فيسر ، ويحاول أن يرى بنفسه مدى تعلق النساء بالسبق ، وحرصهن على البكور ، فلا يجد إلا أن فريقاً منهن قد سبقه ، فيعطي المرأة حقها من الثناء ويقول :

« وقد جهدت في البكور بعد ذلك ، ولم أر في تلك البكورات إلا السابقات منهن ، ولا غرو فكم في النساء من عابدات ، وخاشعات سابقات . »

ويقضي بقية أيامه بين مكتبتين : مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة ، والمكتبة المحمودية ، « يطالع فهارسهما ، وينتخب كثيراً من نفائسهما للمطالعة » . ويختار كتباً أخرى . فينسخ منها ما يسمح الوقت بنسخه ، منها : رسالة في فن الكتابة ، وهي شرح منظومة لابن البواب البغدادي الكاتب ، ومنها مقدمتا المحلَّى لابن حزم في مسائل أصول الدين وأصول الفقه . ويرى أن المكتبتين تغلقان أبوابهما يومي الجمعة والثلاثاء فيأسف لحرمان الناس من الإفادة خلال هذين اليومين ، ويناقش قيمي المكتبتين في هذا الموضوع . ويأسف لضيق وقته ، وحرمانه من الاطلاع كما يشتهي ، والنسخ لما يشتهي ، فيقول :

« وبعد الظهر ذهبت لمكتبة شيخ الإسلام ، ونقلت أسماء كتب مهمة في الكلام واللغة ، وودت لو يتاح لي الإقامة في المدينة المنورة نحو عام ، لأنسخ تلك الكتب المهمة ، ولعل المولى يتفضل علينا بذلك بعد حين . . . »

هذا ما في مذكراته الشخصية . والظاهر أن الواقع هو أكثر مما دونه في

المذكرات . فقد اطلعت على الجزء الحادي عشر من المجلد الرابع من مجلة المقتبس (ص ٧١٨) فإذا فيه فصل بعنوان :

« مخطوطات نادرة من كتب شيخ اللغة في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة بك في المدينة المنورة » .

وجاء في الهامش : « اختارها من مكاتب المدينة المنورة الشيخ جمال الدين القاسمي » .

ثم جاء في الصفحتين ٧١٩ و ٧٢٠ مختاراته من المكتبة المحمودية[1] .

وأعقب ذلك باحصاء عن مخطوطات هاتين المكتبتين فقال : « وقد بلغ مجموع ما في المكتبة المحمودية من الكتب / ٤٥٦٩ / وفي مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة بك / ٥٤٠٤ / » .

ثم أضاف : « ويوجد مكتبات أخر ، كمكتبة بشير آغا عند باب السلام ، ومجموعها / ٢٠٦٣ / ، ومكتبة شيخ الإسلام فيض الله أفندي ومجموعها / ١٢٤٦ / ، ومكتبة عمر أفندي قره باش أحد كبار العلماء ومجموعها / ١٢٦٩ / ، ومكتبات أخر معروفة يتراوح عددها ما بين المائة والألف » . اهـ

ومن هذا الفصل المنشور في (المقتبس) يتضح بأنه قد زار المكتبات الأخرى وعرف ما فيها ، وحصل على إحصاء عددها ، فأثبته ونشره في أشهر مجلة

---

(١) راجع ثبت المختارات في الصفحات ٧١٨ - ٧٢٠ من المجلد الرابع من المقتبس ، فهو طويل ، فاكتفينا بالاشارة اليه .

علمية كانت تصدر في الشام ، بغية اطلاع العلماء على هذه الكنوز ، وتنشيطاً لتجار الكتب على طبعها ، وتعميم النفع بها .

ولا يفوته وهو في المدينة المنورة أن يتفقد بعض رحمه ، فقد كانت له بنت عمة تقيم فيها ، فذكرها وزارها ، براً بالأهل ، وحرصاً على دوام الصلة .

وإذا ما حان موعد العودة ، ودع الحرم النبوي الشريف بالصلاة فيه ، وبالإكثار من السلام على رسول الله ، والدعاء للاخوان ، وحينما تحرك القطار :

« أطار الشوق منا والأسف إلى المدينة كل مطار . ولولا تصميم الرفقة على المسير ، لكان مقامي بها أكثر من تلك الأيام ، ولكن المسافر برفيقه . وقد دعونا الله تعالى ورجوناه أن لا يجعل هذه الزيارة آخر العهد بتلك البقاع الشريفة . »

أطل على الشام « فأخذت تهب نسائم الشام البليلة » ، وأعاد « أسفه أشد الأسف على عجلة الرفاق في الأوبة . »

وسجل ما أنفق في تلك الرحلة فبلغ / ١١٢٨٫٥ / من القروش .

وإليك ما قال القاسمي نفسه :

تاريخ رحلتي الى المدينة المنورة

« كانت الأيام تسمح لي أن أسهب المقال في غرائب ما يطرأ لنا أو علينا من الأحوال ، وأما الآن فقد رأيتني في ضيق من الوقت ، وذلك لصرفه والحمد لله إلى ما هو خير وأبقى .

« وقع بصري اليوم على المفكرة اليومية لعام ١٣٢٨ ، فرأيتني معلقاً بقلم الرصاص حركة مسيري إلى المدينة المنورة ، فخطر لي أن أنقل الى هذه الورقات أوقات تلك الرحلة ، حفظاً لها من الضياع ، وذكرى لأيام قرّت لها العيون ، وسرت الأسماع . وهذا ما جاء في المفكرة :

(الاثنين ٢٢ مارت ١٣٢٦ — ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٢٨)

« بحمده تعالى عزمنا أمس على الرحلة إلى المدينة المنورة ، نحن وصهرنا خليل بك العظم ، وشقيقه عبد الله بك ، وصهرنا حسن أفندي بركات ، ورفيق آخر . وظهر اليوم — الاثنين — الساعة السادسة بعد الظهر ، سار بنا القطار الحجازي من دمشق ، بعد أن ودعنا أشقاؤنا و إخواننا و أصدقاؤنا ، ونحن في سرور وحبور ، والوقت في اعتدال . ولم يزل يقطع الوابور محطة بعد أخرى . إلى أن وافينا الغروب محطة درعا . و بعد أن صلينا المغرب في الوابور ، سار بنا مسرعاً يقطع تلك الفيافي الواسعة ، إلى أن اصبحنا قرب محطة القطرانة ، فصليت الصبح في الوابور بغلس قاعداً ، و حمدت المولى أن يسّر لنا هذا المسير ، وتضرعت إليه أن يمدنا بعونه ولطفه » .

(الثلاثاء ٢٣ مارت — ٢٥ ربيع الأول سنة ١٣٢٨)

« بعد أن أصبحنا في القطرانة ، ومكث الوابور برهة ، أخذ في المسير ، واجتزنا على محطات عديدة ، كان أهمها موقفاً معان ، وقف عندها الوابور نحو ساعة ، ورأيت عمرانها آخذاً بالازدياد ، و بعض تجار الشام استأجر حانوتاً بها مهماً لجلب بضائع

مهمة ، وفق الله الأمة لعمران البلاد ، بعونه وكرمه . ثم طار بنا القطار يجوب موقفاً فموقفاً ، إلى أن أناخ بنا في آخر الليل في محطة تبوك ، فثمة وقف الوابور أكثر من ساعتين ، حتى طلع الفجر ، فسار بعده في غلس ، ولم يتيسر لنا التجول بها لظلمة الليل » .

(الأربعاء ٢٤ مارت — ٢٦ ربيع أول سنة ١٣٢٨)

« سار بنا الوابور بغلس هذا اليوم من تبوك ، ولم يزل يقطع موقفاً فموقفاً إلى أن انتهى بنا بعد العصر إلى موقف المدائن ، فنزلنا وتجولنا في أنحائها ، ورأينا أثر اندكاك بيوتها ، بما شاهدناه من تقطع أوصال جبالها ، وانفكاك بعضها عن بعض ، حتى بقي كثير من أطوادها مثل العمود ، مما دل على وقوع زلازل بها ، وحلول عذاب سماوي وأرضي على أهلها ، وهي من الغرابة بمكان . ثم سار الوابور قبل الغروب من المدائن ، إلى أن وصل بعد الشمس في محطة هدية ، ودعونا بالرحمة لجدنا محمد الدسوقي ، أحد أكابر علماء دمشق وصلحائها ، فانه توفي بها عام سنة ١٢٤١ » .

(الخميس ٢٥ مارت — ٢٧ ربيع أول سنة ١٣٢٨)

« سار بنا الوابور يجوب تلك البقاع الواسعة ، الجديدة بالعمران ، وبذل العناية في تمصيرها ، لما بها من جودة التربة ، والميل إلى الحرارة ، فتؤتي أكلها في العام مرات ، لوعني بها حق العناية ، ولعله يكون بحوله تعالى . وقد أراني بعض الرفاق فصيلة ذات أغصان ، كلها سنابل شعير ، وقال لي : هذه شعيرة سقطت هنا ،

فانظر إلى ما أتى منها . وما زلنا على هذه المناظر ، حتى أشرفنا على المدينة المنورة ، فلم أطق القعود شوقاً والتياعاً ، وأخذت دموعي تهطل ، ولساني يردد الصلاة والسلام على رسول الهدى ﷺ . ودخلها القطار أصيل هذا النهار ، قبل المغرب بنحو ساعة وربع فذهبنا للمسجد النبوي الشريف ، وصلينا العصر جماعة ، ثم زرنا الحضرة النبوية ، وسلمنا أنواع التسليمات الزكية ، ودعوت الله لي ولأولادي ولإخوتي واخواني وذرياتهم ، وانصرفنا إلى المنزل الذي نزلنا فيه ، وهو بيت قريب من باب المجيدية أحد أبواب الحرم الشمالي . »

(الجمعة ٢٨ ربيع أول سنة ١٣٢٨)

« نزلنا قبيل الصبح بنحو ساعة إلى الحرم الشريف ، وصلينا ودعونا وتلونا ، وانتظرنا صلاة الفجر مع الإمام الأول . وبعد ذلك عدنا إلى منزلنا . وفي الضحوة ذهبنا إلى حمام يسمى حمام النبي ، في حارة قبلي المسجد الشريف . ثم قبيل الصلاة بنحو ساعة ونصف ذهبنا إلى المسجد الشريف وجلنا في الروضة المباركة ، لانتظار الخطبة والصلاة ، وبعد ذلك عدنا إلى القيلولة في المنزل ، وبعد صلاة العصر في الحرم مكثنا مع صديقنا الشهم الفاضل ، والشجاع الباسل ، علي بك المؤيد — وكان سبقنا إلى المدينة قادماً من مكة حاجاً — وقد جلسنا في إيوان الحرم الغربي من صحنه ، حول عمود يستقبل جالسه القبة الخضراء ، وأعمدة الحرم ، وصحن الحرم ، والنخلة فيه ، وهو منظر حوى المحاسن أجمع . وبعد أن مكثنا برهة ، سرنا مع علي بك المنوه به إلى زيارة الصحابة في البقيع . وتجولنا حصة ، كان رائدنا في تلك الزيارات

ومعرفنا علي بك ، وقد أسفنا لعدم انتظام حفر القبور ، وبناياتها ، وشاهدنا كثيراً من عظام الموتى وشعورهم مبعثرة ، بسبب جهل الحفارين بأمور الدين ، بل وفي حرقتهم أيضا . ذلك أنهم يحفرون حفيرة ثم يدفنون بها الميت ، فربما حفروا بعد برهة لميت آخر ، ورموا عظامه وشعره ، ووضعوا هذا الآخر . ورأيتها ضيقة مع إمكان شراء ما وراءها من الحديقة ، وضمها إليها . ولو أن هؤلاء الحفارين يبنون القبور من داخلها ، ويطينونها من ظاهرها ، لكان أبقى لحرمة الميت ، وهذا ما يفعله حفارو الشام . »

(السبت في ٢٩ ربيع أول سنة ١٣٢٨)

« كان النزول إلى الحرم قبل الفجر كاليوم الأول ، وهذا ما اعتدناه ولله الحمد . وقد سرني أني كلما باكرت إلى الحرم أجد في الصفّة التي يصلي بها النساء من يسبق منهن الرجال ، وهذا ما يسر . وقد جهدت في البكور بعد ذلك ، ولم أر في تلك البكورات إلا السابقات منهن ، ولا غَرْو ، فكم في النساء من عابدات وخاشعات سابقات .

« وضحوة هذا اليوم ذهبنا إلى مسجد قباء ، وانتظرنا العربات ، نحن ورفقتنا علي بك المويد ، والشيخ عبد الله الرواف ، أحد علماء نجد ، وصديق لنا ، على صخور عاليات ، قرب باب المناخة ، عند القلعة . ولما قدمت العجلات ركبنا ووصلنا في نحو ساعة ، وتوضأنا من بركة هناك داخل حديقة نخل . ثم دخلنا المسجد ، وصلينا الضحى ثمانياً ، وتجولنا في أنحاء ذلك المسجد ، وذكرنا ما صح أن النبي ﷺ كان يزور قباء كل سبت ، وحمدنا المولى على أن أتاح لنا هذه

الزيارة . والطريق إلى قباء لطيف ، تحف بجانبيه حدائق النخيل . وفي جوار مسجد قباء بئر أريس ، الذي سقط فيه خاتم النبي ﷺ من يد عثمان . وقد تجولنا حوالي البئر ، ورأيناه ، ودخلنا إلى حديقة في جواره ، وذكرنا للاخوان نبذة مما قصته السيرة النبوية علينا في قباء والخيف ، فيا لله ما أجلّ ذلك المكان اللطيف ! »

(الأحد ٣٠ ربيع أول سنة ١٣٢٨)

« ضحوة اليوم سرنا إلى مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بك ، وطالعنا أجزاء فهارسها ، وانتخبت كثيراً من نفائسها للمطالعة . ثم تخيرت رسالة في فن الكتابة لطيفة ، وهي شرح منظومة لابن البواب البغدادي الكاتب ، فشرعت في نسخها قبل الظهر ، وبعد أدائه في الحرم مع الجماعة عدت إلى المكتبة ونسخت منه جانباً . ودخل في أثناء كتابتي الشيخ يوسف النبهاني الشهير ، شيخ الحشوية والقبورية ، فسلّم فرددت عليه السلام ، ومكث جانباً ، ونحن على كتابتنا . وكان عندي الشيخ عبد القادر الشلبي الطرابلسي المقيم بالمدينة ، وهو من طلبة العلم الحشوية ، يميل لمشرب النبهاني ، ويتاجر على الزوار بالخرافات والبدع التي نبذها الشرع القويم ، وبعث النبي ﷺ لمحوها . »

(الاثنين ١ ربيع ثاني سنة ١٣٢٨)

« ذهبت في الضحوة إلى مكتبة شيخ الاسلام في المدينة المنورة ، وأتممت فيها نسخ الرسالة المتقدمة في فن الكتابة . وبعد أداء الظهر جماعة في المسجد الشريف ،

زرت ابنة عمتي فاطمة ، بنت السيد علي الغبرا ، وزوجها الشيخ أبو الخير حمدان الدمشقي ، المقيم في المدينة المنورة للتجارة . ثم عدت إلى المكتبة المحمودية ، وطالعت طرفاً من فهارسها ، فرأيت فيها المحلى لابن حزم في ثمانية أجزاء ، فأردت تجريد مقدمتيه في مسائل أصول الدين وأصول الفقه ، فشرعت في مسائل أصول الفقه ، ونسخت منها إلى العصر — وعادة المكتبتين أن تفتح أبوابهما للطلبة والمطالعين من الضحوة الكبرى إلى العصر ، وبعد العصر لا يمكَّن أحد من المطالعة ، لأنهما تغلقان ، وفي يوم الثلاثاء والجمعة تغلقان من الصباح إلى المساء. وقد قلت لقيّم مكتبة شيخ الاسلام : يا أخي ! إرحموا الغريب ، وافتحوا الأبواب من الصباح وعطلوا الثلاثاء أو الجمعة ، فقال : هكذا العادة ، يوم الثلاثاء يوم فسحة ونزهة وتزاور ، ويوم الجمعة يوم عبادة ، فأسفت جداً لضيق وقت المطالع .

« ثم بعد العصر سرنا مع علي بك المؤيد إلى حديقة للسيد عبد الله أحد الشرفاء السادة ، ومكثنا حتى صلينا المغرب جماعة وقد حضر صاحبها وأمر باحضار الشاي والقهوة ، وأظهر من اللطف ما هو أهله . »

(الثلاثاء في ٢ ربيع ثاني سنة ١٣٢٨)

« ذهبنا في الضحوة إلى بيت الشيخ عبد الله الرواف صديقنا ومكثنا حصة طويلة ، ولم نتجاوز معظم النهار الاعتكاف في الحرم . وبعد الظهر أجلسني الشيخ عبد القادر الشلبي المتقدم حصة طويلة ، أضاق صدري بلغطه وغلطه ، لاسيما ونحن في الحرم ، ومذاكراته كلها في الحشو وما أحببت أجادله إلا بالتي هي أحسن ، مع الإعراض عن كثير من مسائله ، تهيباً للحضرة النبوية ، أن نكون وراء الحجرة

على هـذه الحال . ولما أطال ، استأذنته غير آسف على فراقه . وبعـد العصر ذهبنا إلى الحديقة التي مرّ ذكرها قبل . »

(الأربعاء ٣ ربيع الثاني سنة ١٣٢٨)

« ذهبنا في الضحوة نحن وعلي بك والشيخ الرواف وكل رفقتنـا إلى زيارة سيد الشهداء ، سيدنا حمزة رضي الله عنه ، وشهداء أُحد ، فركبنا العجلة ، والمسافة نحو نصف ساعة ، فوصلنا المسجد هناك ، وصلينا ركعتين ، وقرأنا آيات من سورة آل عمران في قصة غزوة أُحد ، ودعونا لأولئك الشهداء الأبرار ، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه . وتجولنا في ذلك الوادي الأنور ، وشاهدنا تلك الآثار في السهل والجبل ، وتلونا على الإخوان ما بذل لأجله أُولئك الشهداء من أرواحهم وأموالهم في سبيل إعلاء الحق .

« ثم رجعت إلى المكتبة المحمودية ، وأخذت في تقييم نقل مقدمة المحلَّى ، ومكثت إلى العصر ، واشتريت من بائع كتب أمام المدرسـة المحمودية كتـاب (وفا الوفا) للسمهودي بمجيديين ، وسررت به . وطـالعت جانباً منـه فرحم الله مؤلفه . »

(الخميس ١ نيسان — ٤ ربيع ثاني سنة ١٣٢٨)

« اليوم في المدينة المنورة بلغت درجة الحرارة في ميزانها المعروف نحو الثلاثين — كما أخبرني مختار بك المؤيد ، وكان مجاوراً للمنزل الذي نزلنـا فيه — وقد ذهبت في الضحوة إلى المكتبة المحمودية وأتممت نسخ مسائل الأصول من مقدمة

المحلّى . وبعد الظهر ذهبت لمكتبة شيخ الإسلام ، ونقلت أسماء كتب مهمة في الكلام واللغة ، ووددت لو يتاح لي الإقامة في المدينة نحو عام لأنسخ تلك الكتب المهمة ، ولعل المولى يتفضل علينا بذلك بعد حين .

« وكنت أتجول بعد الغروب في الحرم النبوي ، والتطلع إلى قراءة الدروس . وممن اجتمعت به من مدرسيها الفقيه الشيخ عبد الله القدومي الحنبلي النابلسي ، وهو ممن يقرأ الفقه الحنبلي في المسجد النبوي ، فبعد أن ختم الدرس ، وذُكرت له ، وكنت بحذائه ، نهض ورحب وأهل ودعا بخير . »

(الجمعة ٥ ربيع ثاني سنة ١٣٢٨)

« دعينا بعد العصر إلى السيد أحمد البرزنجي مفتي الشافعية في المدينة المنورة ، وقيل لي إنه ينتظرك مع جماعة من أهل العلم . فسرنا إلى منزله ، فرحب وابتهج ، وقد كف بصره ، فأنسنا بمذاكرته ، وتبادلنا المحاضرات ، وغرائب الأخبار ، وسيرة المتقدمين ساعات . وكان أهدي له من مؤلفاتي (دلائل التوحيد) وغيرها ، فأثنى خيراً ودعا . ولم نزل عنده من بعد العصر إلى أن صلينا العشاء ، وكانت ليلة زاهرة ، ولا غرو فالرجل أجل علماء المدينة ، وأديبها الوحيد . وأهداني من رسائله ما شكرته عليه ، وأهداني أيضاً ذيل تاريخ المدينة لأخيه السيد جعفر ، ورجاني أن أكتب إلى بعض أصدقائي من المبعوثين بإعادته إلى الفتيا ، وكان عزل منها ، لما نسق الموظفون بعد الدستور ، فوعدته بذلك ، إلا أني أعلم أن الأمر لا يفيد ! »

(السبت في ٦ ربيع ثاني سنة ١٣٢٨)

« عقد إخواننا العزم على السفر هذا النهار من المدينة المنورة ، ولما نزلنا قبيل الفجر إلى المسجد النبوي على عادتنا وصلينا ، دعونا لإخواننا ، وأكثرنا من السلام على رسول الله ﷺ ، وودعنا ذلك المقام الأعطر .

« وفي الضحوة سرنا إلى المحطة ومكثت هناك القطارات ساعات زيادة على المعتاد ، لعدم انتظامها . وفي الساعة السادسة بعد الظهر سار بنا القطار ، وأطار الشوق منا والأسف إلى المدينة كل مطار ، ولولا تصميم الرفقة على المسير ، لكان مقامي بها أكثر من تلك الأيام ، ولكن المسافر برفيقه . وقد دعونا الله تعالى ورجوناه أن لا يجعل هذه الزيارة آخر العهد بتلك البقاع الشريفة إنه القريب المجيب . »

(الأحد ٧ ربيع ثاني سنة ١٣٢٨)

« أصبحنا اليوم على منزلة هدية ، وقد واصل القطار السير بعدها إلى محطة المدائن ، ومكث هناك طويلاً . ثم سار قبيل العصر وأخذ ينهب الأرض عجلة إلى أن عرّس بنا في المعظم . ثم سار حتى وصل إلى تبوك ، وقد أصبح بها . وكان نومنا في الليل مفرّقاً مختلساً . »

(الاثنين ٨ ربيع ثاني سنة ١٣٢٨)

« بعد أن أدينا الفجر في تبوك ، ومكثنا في القطار برهة ، سرنا بعد طلوع الشمس إلى مسجد تبوك ، فرأيناه قد جدد تجديداً لطيفاً . ثم إلى العين التي بجانبه ، وغسلت وجهي منها ويدي تبركاً ، فإن لها في غزوة تبوك نبأً شهيراً ،

وظهرت معجزة للنبي ﷺ في تفجير مائها . والآن ماؤها غزير ، يسير نهراً لطيفاً ، ولو أنه يحافظ عليه ويراعى كما تراعى المياه في البلاد ، لزادت غزارته وتفجره . والأرض هناك كغيرها مما جاورها ، جيدة التربة لا يعوزها إلا الرعاية على الأصول الحسنة . »

(الثلاثاء ٩ ربيع ثاني سنة ١٣٢٨)

« أصبحنا على منزلة القطرانة ، وكان بدأ من حين ظهرنا من بطن الغول اختلاف القُطر ، وكأنا ودعنا القطر الحجازي الحار ، وأخذت تهب نسائم الشام البليلة ، وطفقنا نتدثر مما ألقيناه من الثياب ، ولم يزل الوابور ينهب الأرض بسرعة ، إلى أن وافينا الشام عند العشاء ، فصادفنا في انتظارنا الأشقاء والأصدقاء ، وحمدنا المولى على السلامة ، وأسفنا أشد الأسف على عجلة رفقائنا في الأوبة ، ورجونا من المولى أن ييسر لنا العودة ، إنه الكريم المجيب . وقد بلغ ما صرفه كل واحد من الرفقة على هذه الرحلة من القروش ١١٢٨،٥ . »

* * *

رحلة إلى حمص وحماة

لم تكن المواصلات في العصر الذي عاش فيه القاسمي من السهولة واليسر على النحو الذي نراه اليوم . ولهذا نجده يسمي مغادرته دمشق إلى قرية من قراها « رحلة » ، بينما نحن نسميها في هـذه الأيام « نزهة » . فاذا قصد إلى قرية جسرين مثلاً ، أعد العدة لذلك ، ونوى قضاء بضعة أيام فيها ، ودوّن في كل يوم ما يقع له من الحوادث ، والمذاكرات ، ونسخ الكتب ، وتصحيحها ، ولقاء الناس ، وغرائب الأمور ، وغير ذلك . ولهذا ليس عجيباً أن يعتبر القاسمي ذهابه إلى حمص وحمـاه « رحلة » ، وأن يذكر في يوميـاته ما وقع له في هذه الرحلة .

على أن ما دونه في هـذه اليوميات لم يخل من فكرة إصلاحية ، أو من دعوة إلى رأي صائب ، أو من ندب إلى عمل صالح . ولم تقتصر يومياته على من لقي من العلماء والأصدقاء ، وعلى ما رأى من المشاهد والآثار .

عزم القاسمي على الرحلة إلى حمص وحماه في ربيع عام ١٣٢٥ — ١٩٠٧ ، فأحسن اختيار الزمان . والظاهر أن هذه العزيمة كانت بنت ساعتها ، وقد أكد لي ما سجله القاسمي عن هذه الرحلة أنه قـد تنزه عن التردد الذي يشلّ الإرادة ،

ويضعف العزيمة ، فاذا ما خطر له خاطر حسن ، عمد إلى تنفيذه فوراً من غير إبطاء . قال[1] :

« زرت البارحة صاحب الفضيلة صفينا ، وصديق الوالد المرحوم ، الشيخ سليم « افندي الكزبري . فتذاكرنا لطف الوقت ، ودرجة الرحلة من الحسن . فاعتمدنا « أن نسير إلى حمص ، ومنها إلى ما يفتح الحق تعالى . وليلة الاربعاء ، الساعة « الخامسة ذهبنا إلى محطة البرامكة ، ومعي أخي قاسم . . . فصادفنا الشيخ سليم « افندي ونجله علي أفندي ينتظران . ثم جاء الوابور الليلي ، فركبنا فيه ، ووصلنا « قبيل الشمس إلى رياق ، وأديت الصبح بالتيمم ، لأني لم أصادف ماءً . ثم « سار الوابور الحلبي ، ولا زلنا حتى دخلنا حمص في الضحوة الصغرى ، وأنسنا « برفقته معنا . ونزلنا في حمص عند عبد المجيد آغا سويدان ، صديق الشيخ « سليم افندي . وقدم للسلام علينا كثير من علماء حمص وأعيانها ، منهم المفتي « خالد افندي الأتاسي وإخوته الثلاثة . . ثم من علمائها ومدرسيها من يطول « سرد أسمائهم ، جزاهم المولى خيراً » .

وفي اليوم التالي يسعى القاسمي ورفيقاه إلى جامع خالد بن الوليد ، وكان بناؤه القديم قد أزيل ، وبناؤه الجديد قيد التشييد . فيرى القاسمي أن الإسراف في تعظيم الحيطان ليس في موضعه ، ولكنه ينسب هذا الرأي إلى غيره بقوله : « وقد رأى كثيرون » . إسمع إليه يقول[2] :

---

(١) الثلاثاء ١٧ ربيع الاول ١٣٢٥ — ٣٠ نيسان ١٩٠١

(٢) الاربعاء ١٨ ربيع الاول ١٣٢٥ — ١ أيار ١٩٠٧

« ذهبنا صباحاً للتجول في أنحاء البلدة ، وزرنا المقام الخالدي ، ورأينا فخامة
« بناء الجـامع الذي شيد في مكانه القديم ، وهو بعد لم يتم . ارتفعت جدرانه
« وأطراف قبته . وقد رأى كثيرون أن شدة العناية بتعظيم حيطانه وتكبيرهـا
« في غير موضعه ، لمـا يعوزهم من وفرة المال ، وقد قلّ الآن لديهم ما جُمع
« وأُعدّ له . . . » .

ويتفق أن يكون اليوم التالي يوم خميس المشايخ ، فيذهب القاسمي إلى مشاهدته ، ويرى فيه حسنة وسيئة . فأما الحسنة فهي سباق الخيل ، الذي يتبارى فيه الفرسان . وأما السيئة فهذه البدع التي تقع فيه ، والتي ليست من الدين ، وإنمـا هي تقليد لأهل الكتاب . فيسجل القاسمي كلاً منهما ، ويروي مشاهداته على النحو الذي ينبه إلى التزام الحسنة ، واجتناب السيئة . قال :[1] .

« ذكر لنا أن هذا اليوم في حمص يسمى « خميس المشايخ » ، وهو يوم يجتمع
« قبله في حمص من لا يحصى ، ويخرجون فيه إلى خارجها ، إلى محل يسمى « باباعمرو » .
« فهنـاك تجتمع الألوف من النساء والرجال ، من أهالي البـلدة وغربائها ،
« وتلعب الفرسان بالجريد ، وتتسابق على الخيل . وقد هيئت لنا عربة ، فخرجنا
« إلى هـذا المجمع ، ونظرنا إلى لعب الخيل ، وتذكرت ما ترك أهل المدن من
« هذا العلم المهم ، ألا وهو فن السباق ، لانغماسهم في الترف الزائد ، والنعيم ،
« ورضاهم بما هم عليه . ثم بعد أن تجولنا هناك مكثنا برهة في متنزه قريب من

---

(١) الخميس ١٩ ربيع الأول ١٣٢٥ — ٢ أيار ١٩٠٧ .

« « بابا عمرو » . ثم أحضرت لنا عربة فركبناها ، و بلغنا أن السيارات [1] ومشايخ
« الطرق يحتفلون بجماعاتهم ، وطرازهم القديم ، والمشي أمام الأعلام والطبول ،
« مما محي من دمشق من سنين ، والحمد لله . وهذا الاحتفال بهذا النهار أصله
« من احتفال أهل الكتاب ، كما تراه مسمًّى بخميس الأسرار فوق [2] .
« ولا حول ولا » .

وحيثما كان القاسمي ، ارتسمت أمام المشتغلين بالمسائل العلمية صورة للمجتهد والاجتهاد . كان ذلك أثراً من آثار المحنة التي أصابته عام ١٣١٣ ، حيث حوكم بتهمة « الاجتهاد » كما مر بك ، والتي انتشر خبرها في الآفاق . كما كان ذلك ناشئاً أيضاً عن أفكاره التي بثها في دروسه الخاصة والعامة ، وعن آثاره المختلفة التي نشر قسم منها ، وفيها تصريح أو تلميح يتعلق بهذا الموضوع . ولهذا لم يكد يهبط حمص حتى جاءه من يسأله عن كثرة المجتهدين في دمشق . اسمع بما ذا أجاب القاسمي [3] :

« ... زارني بعض أهل الأدب مساءً ، وسألني عما يبلغهم من كثرة المجتهدين
« في دمشق ؟ فقلت له : ألحشوية يلقبون كل محقق بالمجتهد . يعني : ان كل
« من يبحث في المسألة : عن دليلها ، ووجه الخلاف فيها ، وأقوى ما يُتمسك
« في مأخذها ، يرمونه بذلك . يريدون أن لا يبحث ، ولا يحقق ، ولا ينظر

(١) السيارات بمعنى قوافل الناس المتجمعة .
(٢) ذكر في أعلى المفكرة أن هذا اليوم هو خميس الأسرار ، وهذا هو معنى الاشارة الواردة .
(٣) الجمعة ٢٠ ربيع الأول ١٣٢٥ - ٣ أيار ١٩٠٧ .

« أحد ، بل يتقبل كل مسألة على علاتها . وهذا مما لا يمكن لطالب الحقيقة أن « أن ينهجه ألبتة . فقال : هذا هو الواجب على كل أحد أن ينظر ويدقق ويحقق » .

فانظر كيف كان القاسمي يوحي إلى الناس ضرورة البحث والفهم و إعمال الفكر ، حيثما حلّ . ولو حللت عبارة القاسمي ، وحاولت أن تفهم ما وراء سطورها ، لرأيت أن هذا الذي سماه « بعض أهل الأدب » قد جاء منكراً في أول الأمر وجود كثرة المجتهدين في دمشق ، كما يدل على ذلك روح العبارة ، حتى إذا استمع إلى القاسمي ، عن وجوب البحث في الأدلة . . . انتهى به المجلس إلى الاقتناع بما قال ، واعتبار النظر والتدقيق والتحقيق واجباً على كل فرد .

ثم ينتقل يوم السبت ٢١ ربيع الأول ١٣٢٥ — ٤ أيار ١٩٠٧ إلى حماه ، فلا يرى إلا أهل الفضل ، وعلى رأسهم الشيخ سعيد النعسان ، ويلقى علي المؤيد فيثني عليه ويقول : « أنست بمذاكرته ونباهته وكماله » . ويقضي أوقاته بين العبادة ومطالعة تاريخ أبي الفداء ، وحواشي القزويني على القوانين ...

* * *

أخلاقه وأسلوبه في الدعوة

رزق القاسمي رحمه الله مكارم الأخلاق . وقد عرف أهله وأصدقاؤه وشيوخه وتلاميـذه ومريدوه وأعداؤه على السواء ، رقة حاشيته ، ولين عريكته ، وبشاشته لضيفه ، وتفقده لرحمه ، وبره بهم ، والحدب عليهم .

كان كثير الإيناس لأهل بيته ، صغيرهم وكبيرهم ، لا يفتأ يوجه ويربي بكثير من الرقة ، يعلمهم الأدب ، والمحافظة على الصلوات ، وحسن معاملة الجيران ، والرحمة بالفقير ، واغاثة اللهفان ، والبر بالسائل .

وكان يكرم ضيوفه من الرجال ، وأقرباءه من الرجال والنساء ، فلا يدخر وسعاً في ادخال السرور على نفوسهم ، والترفيه عنهم ، واشاعة الرضا في نفوسهم ، والضحك في وجوههم .

وكان كثير التوقير لشيوخـه ، يعرف حقهم عليه ، وينهض بواجبه نحوهم ، ولا سيا بعد أن امتد العمر بفريق منهم .

وكان كثير الحنـان على تلاميذه ، كثير التشجيع لنابههم ، كثير الصبر على غبيهم ، لم يرد لأحد منهم سؤلاً ، ولا ضاق بأحد منهم ذرعاً .

وكان وفياً لأصدقائه ، حريصاً على بقاء المودة ، والإمساك على المحبة ، يمتن

أواصر الولاء بينه وبينهم ، ويسترضي الغاضب منهم ، ويقرب النافر ، ويصلح بين المتخاصمين .

كان له تلميذ صديق ، نابه الذكاء ، وافر النباهة ، ولكنه كان عصبي المزاج ، كثير النفور ، أذياً ، فكان يوصي أصدقاءه وتلاميذه بمراعاته ومسايرته . وقد أدركت في شرخ شبابي تلاميذ الشيخ وأصدقاءه يتواصون بوصاياه في شأن هذا التلميذ الصديق .

عرف عنه رحمه الله أنه قد عاش حياته كلها ، فلم يسمح لأحد بتقبيل يده لا لأهله ولا لبنيه ولا لتلامذته ومريديه . على أنها كانت عادة مألوفة بين الأبناء والآباء ، وكثيراً ما تهافت بعض العامة حين لقائه ، في البيت أو في الطريق أو في المسجد ، أو في أي مكان آخر ، على تقبيل يده ، فما كان يسمح لأحد منهم بذلك .

أما أسلوبه في الدعوة ، فكان منسجماً مع هذه الأخلاق ، كان متمسكاً بقوله تعالى : « ادفع بالتي هي أحسن » فلم يعرف عنه رغبة في لجاجة ، ولا إلحاح مع معاند ، ولا استمرار مع مكابر أو مغرض .

كان عفّ اللسان والقلم ، لم يتعرض بالأذى لأحد من خصومه ، سواء أكان ذلك في دروسه الخاصة أم العامة ، أم في مجالسه وندواته . وإنما كان يناقش بالبرهان والدليل ، من الكتاب والسنة ، وأقوال الأئمة ، والمراجع المعتمدة .

اتهمه خصومه — فيما اتهموه — بالوهابية ، فلم يأبه لهم ، ولا لاتهامهم ،

بل مضى في دعوته ، دون أن يلقي إلى هذه التهمة بالاً ، مع ما كان يمكن أن يتعرض المتهم بها إلى الأذى والنكال .

وكانت له طريقة في مناقشة خصومه لم يعرف أهدأ منها ، ولا أكثر صبراً عليها . وكثيراً ما قصده بعض المتقحمين في داره ، لا مستفيداً ، ولا مستوضحاً ، ولا مناقشاً ، بل محرجاً . فكان يتقبلهم بصدره الواسع وخلقه الرضي الكريم ، وعلمه العميق ، فلا يخرج المتقحم من داره إلا وقد أفحم ، وامتلأ اعجاباً وتقديراً .

أراد أحد الناس من أتباع خصومه أن يؤذيه في بيته ، بطرح المواضيع المحرجة ، التي كان العامة يتلقونها من أفواه مشايخ ذلك الزمان ، وكان مما اعتقد هذا الزائر أنه لا مفر للشيخ من الإجابة عليه هو سؤاله عن مذهبه ، معتقداً أنه لا بد من أن ينتسب إلى أحد الأئمة الأربعة المعروفين ، فأجابه الشيخ ، وعلى فمه ابتسامة الرضا والاطمئنان :

إني أتعبد على مذهب الإمام الشافعي .

أما كتبه – على كثرتها – وبعضها إنما وضع للرد على مخالفيه[1] ، من ألفه ليائه ، فلم تتضمن لفظة نابية ، أو كلمة مستهجنة ، وإنما اعتصم بالنقاش العلمي الأدبي ، بينما كان يلقى من بعض خصومه الاتهام بالكفر والوهابية والخروج على الدين . وكتبه المطبوعة خير شاهد على ذلك .

ومن الواضح لمن يطلع على هذه الكتب ، ان القاسمي لم يكن يقصد من الكتب التي وضعها في الرد على مخالفيه ، افحام خصومه ، أو تصغير أقدارهم في

---

(١) منها : نقد النصائح الكافية – واقامة الحجة وغيرهما

المجتمع ، أو الحط من مكانتهم بين العلماء ، وإنما كان يهدف إلى الهدى والرشاد ، وسواء السبيل ، والدعوة إلى الصراط المستقيم ، حتى ينقلب المخطىء مصيباً ، وحتى يعود المنحرف إلى الحق .

وكثيراً ما اتبع طريقاً فريداً ، ذلك بأن يورد هجوم خصومه عليه ، وفيه من هجر القول ما فيه ، فلا يرد عليه ، ولا يعلق ، ضابطاً أعصابه ، ومستعيناً بهدوء نفسه ، ومتمكناً من الخروج على طبيعته البشرية ، فلا يغضب ولا يقابل الإساءة بمثلها ، بل يكتفي بأن يترك للقارىء الحكم على هذا القول الجائر .

« الدفع بالتي هي أحسن » طريقته الوحيدة في الدعوة إلى الحق ، لأن الغضب يجر الغضب ، وهو مخرج عن الصواب ، ومفقد للرشاد ، فلا يريد أن تضيع الغاية الأصلية ، والهدف الأسمى من النقاش والحوار ، سواء أكان شفهياً أم كان مكتوباً .

عرف فيه خصومه هذه السجية الرفيعة ، فلجأوا إلى تهييج العامة عليه أحياناً ، وألزموه بالانقطاع عن إمامة الناس في المسجد الجامع أياماً ، فصبر على هذا الأذى ، إلى أن عاد إلى أداء الواجب على غير الطريقة التي أبعد فيها عنه .

* * *

ورع

خوف الله في السر والعلن ، سجية العلماء الذين نهلوا العلم للعمل ، لاطلباً لجاه ، أو للتباهي بين الأقران ، أو تزلفاً لأبناء الزمان ، أو تعالياً على الخلان . وترى في سير بعض العلماء الغابرين ، ما تطمئن له النفس باليقين ، وما يوحي بالتأسي بأخلاقهم بين العالمين ، والنهج على منوالهم لادراك الحسنيين . كما ترى في سير علماء آخرين ، ما يندى له الجبين ، ويجعل من أعمالهم حجة على الاسلام والمسلمين .

ولقد عرف القاسمي رحمه الله بالورع الحميد ، فما تقرب إلى سلطان ، ولا تزلف إلى أحد من ذوي الشان ، على شدة حاجته للمال ، ورزوحه تحت أعباء نفقة العيال . ومرت حقبة كان يمكن أن يكون فيها مقدماً لدى رجال الدولة ، مقضيّ الحاجة ، نافذ الكلمة ولكنه آثر الانقطاع الى ما خلق له من الهدى والاصلاح .

لم يعرف عنه طوال حياته إلا العيش من المال الحلال ، وأداء الحقوق إلى أصحابها ، والعزوف عن كل منكر سوغه بعض رجال الدين بالحيل التي نحلوها اسم (الحيل الشرعية) ، وما هي من الشرع في شيء .

مات ولم يترك مالاً ولا عقاراً ، ولولا أن الدار التي كان يسكنها قد اشتراها جده ، وأصلحها أبوه من بعده لما خلف لأسرته سقفاً يؤويها من الطريق .

كان على هذه الدار حق للوقف ، وكانت مستندات الوقف قد ضاعت ، ولم يعد بين يدي نظاره حجة على أحد ، ولكن هذا لم يمنع القاسمي من دفع حق الوقف لأصحابه . قال في مذكراته اليوميه[1] :

« دفعنا اليوم ١٥ قرشاً للسيد محمود الحلو من أهالي باب السريجة أجرة دارنا السنوية المفروضة من قديم على هذه الدار . وكان يدفعها لهم الجد والوالد رحمهما الله ، ولم أطلب منه وصلاً ، لعدم الحاجة ، لا سيما وتقرير نظارتهم ضاع من أيديهم ، ولكن الحق لهم ، والورقة تذكرة ، فإذا ذهب الورق ، لا يذهب الحق عند عارفه . »

وجاء مثل هذا في مذكرات ١٣٢٥ حيث قال[2] : « والورقة لا تغني عن الحق شيئاً ، إن هي إلا تذكار ، والمدار على القلوب التي بها يعرف المرء ما له وما عليه . »

* * *

(١) ١٧ محرم ١٣٢٧ - ٨ شباط ١٩٠٩ .

(٢) ١٩ محرم ١٣٢٥

حياته الخاصّة

في حياة الأعلام والأبطال الخاصة ، على الأعم الأغلب، حوادث توجه النظر ، وتسترعي الانتباه ، وقد لا يلقي إليها أحد بالاً في زمانها ، وانما تضحي مدار البحث والتحقيق والتعليق بعد وفاة أصحابها ، أو بعد نباهة أمرهم ، وانتشار صيتهم .

وفي حياة القاسمي الخاصة فرائد وشوارد ، رأيت أن اقتصر منها على ما بدالي أنه ينبغي أن تضمه سيرته هذه :

١ — طفولته

لم أعرف شيئاً خاصاً عن طفولة القاسمي ، وقد طوى الموت جميع الذين كان يمكن أن يستهدى بهم ، أو يسترشد برأيهم ، من النساء أو الرجال . وكل ما لدي هو ما ذكره في ترجمته لنفسه .

٢ — شبابه

عرف القاسمي بوداعته مع الأقران ، وهـذه خلة لازمته طول حياته — على قصرها — ولعل الحادث الوحيد الذي وعته ذاكرتي ، هو ما حدثني به عمي قاسم رحمه الله ، حيث قال :

كان المرحوم أخي الشيخ — وكذلك كان يسميه في أحاديثه — فتى يافعاً ، لم يجاوز الرابعة عشرة من عمره ، يقرأ كتاباً على الشيخ محمد الخاني ، وكان هذا أديباً مولعاً بالجناس ، وكان أبوك رقيق البنية ، ضعيفا ، تخاف عليه أمه برد الشتاء القارس ، ولا سيما في جو كجو دمشق ، ولهذا كانت تلجأ الى اتخاذ الحيطة في لباسه ، فتلبسه ثياب الصوف الثقيلة ، وتعمره بما يسمى في عرف أهل الشام بـ (الحَطَّة) — وهي وشاح من الصوف يلف به الرأس والعنق — فأقبل ذات صباح مبكر على الشيخ الخاني وهو معتمر بها ، وكان الشيخ عالي الهمة ، رياضياً ، يكره هذا النوع من التحفظ الشديد ، فقال للطالب الفتى :

— ما هذا ياشيخ جمال ؟ قال :

— سيدي حَطَّة ! فأجاب الشيخ الخاني :

— بل هذه حِطَّة ! !

وعاش القاسمي بعدها حياته كلها ، يخالف أكثر ما ألف الناس من الاحتياط الشديد لبرد الشتاء ، وأثرت هذه الحادثة في سلوكه ، فكان ينصح أهله وأقرباءه بقوله : (ليكن كل جسمك وجهاً) ولم يكن في ذلك يعني أكثر من الاعتياد على مقابلة برد الشتاء ، وائتلاف تحمله ، كما يتحمله الوجه — وفيه أدق الأجزاء — من غير أن يتأثر ، طرحاً للخمول ، وابتعاداً عن الكسل .

٣ — معاملته لأبويه

كان رحمه الله مثلاً عالياً في تقديس أمه وأبيه . وما قدَّما له أية خدمة من

الخدمات المألوفة ، التي اعتاد الآباء تقديمها للأبناء ، إلا وأقبل على يديها يقبلهما ، اعترافاً منه بالفضل ، وتقديراً للمعروف ، وخفضاً لجناح الذل من الرحمة .

حدثني الشيخ حامد التقي أن والد القاسمي اشترى لمكتبته شرح كتاب إحياء علوم الدين — وكان مولعاً بالكتب — فلما وصل الكتاب إلى البيت ، بادر القاسمي بتقبيل يدي والده ، اعلاناً منه على الشكر العميق . ولعل الصفحات التي تركها القاسمي في ترجمة والده هي عنوان على العرفان بالجميل .

وقد ظل يذكر والديه بعد وفاتهما ، ويقرأ لهما الأدعية المأثورة ، ويحرص على ذكراها ، كما يحرص على قبريهما من أن ينالهما أي سوء . قال في مذكراته اليومية [1] :

« اليوم نقدت سليم بن الشيخ أديب التقي ثمن أحجار لضريح والدي الذي حوطته . وقد دعاني لتحويطه بها أني في هذه المدة الأخيرة رأيت ثغراً في جوانبه من حيوان التربة ، فخفت أن يعشش ويتخذه وكراً ، فعمدت إلى إصلاحه وسده بحجر على قدره ، بواسطة نحات . ثم رأيت الحيوان نفذ من جانب آخر فأهمني . لذلك عمدت إلى تحويطه بالأحجار من جوانبه كلها . ومثل هذا الحال — والله أعلم — كان يدعو المتقدمين إلى جعل القبر كله من الأحجار الكبيرة ، كقبر ابن تيمية رحمه الله وأمثاله . وبالجملة فاني بحمده تعالى لا أنسى الأحياء ولا السابقين إلى رحمة الله تعالى . ويعلم المولى أن همي لا ينقطع عليهم جميعاً . ولذلك كان وردي بين سنة

---

(١) ١١ صفر ١٣٢٧ - ٣ آذار ١٩٠٩

الفجر وفرضه الدعاء لوالديّ المذكور في كتابي الأوراد المأثورة . وثمن الأحجار ١٣٩ قرشاً » .

والقاسمي يكره البدع ، ويحاربها ، ولكنه لا يرى بأساً في تطوير بعض البدع إلى غايات حسنة ، لأن الأعمال بالنيات . ولهـذا لا يرى حرجاً في قراءة ختم عن روح أبيه ، ويقول في مذكراته اليومية [1] :

« ليلة هذا النهار دعونا إخواننا لقراءة ختم شريف عن روح سيدي المرحوم الوالد ، فحضروا بعد العشاء ، وغب قراءة الختم والدعوات الصالحة ، تناولوا الحليب والعنب ، وقبله الشاي ، وانصرفوا مسرورين . واتفق صباح هذا اليوم أن شقيقتي حدثتني أنهـا رأت ليلتئذ المرحوم الوالد في حجرته مسروراً ، مستبشراً ، بحالة حسنة ، ونشاط وصفاء . فذكرت لي ذلك ، فقلت لها : لا شك أن الأرواح تسر بما تذكر به من الدعوات ، والمآثر الحسنة ، والأخلاق الفاضلة . ثم قلت لها : إن هذا الاجتماع ، وإن لم يكن مشروعاً وهو بدعة ، لكني أراه لا بأس به ، لما فيه من تجديد ذكرى المتوفين ، والأنس بأخلاقهم ، وتعليم أولادهم وأحفادهم أن لا ينسوهم من الدعاء المشروع ، وإنما الأعمال بالنيات » .

٤ — زواجه

تزوج القاسمي ليلة الجمعة الخامس عشر من ذي الحجة عام ١٣٠٧ من سيدة اسمها فاطمة بنت المرحوم محمد أبو قورة ، وكان أبوها من كرام التجار ، الذين

---

(١) ٢٢ شوال ١٣٢٧ — ٥ تشرين الثاني ١٩٠٩

ألفوا التعامل مع العشائر . وكانت رحمها الله وأعلى غرفتها في الجنة أُمية ، فأخذ في تعليمها قصار السور ، وبعض الأدعية والأوراد المـأثورة ، وقد حفظتها حتى آخر حياتها ، والتقطت من لسـانه بعض الأبيات والفوائد وكانت ترددها بشيء من اللحن .

أحسن في معاملتها إلى حد أنها ظلت تذكره حتى أيامهـا الأخيرة . وقد انتقلت إلى رحمة الله عام ١٩٤٨ م ، أي بعده بأربعة وثلاثين عاماً .

حدثتني رحمها الله أنها عاشت معه قرابة ربع قرن ، فلم تسمع منه كلمة نابية ، أو ملاحظة ، أو تأنيباً ، أو تهديداً أو وعيداً . ولم تر له عصبية في أي يوم ، أو أي شأن من الشؤون .

قالت رحمها الله :

طلب إليّ ذات يوم أن أصنع له حلوى يسميها أهل الشام (كنافة بصمة) وقد اعتاد الشاميون في القديم صنعها في البيوت — ولا زال قسم منهم يصنعهـا في بيته حتى اليوم — ولا بد من شيّ وجهي الصينية على النار ، فغدرتها النار ، واحترقت الـكنافة ، إلى حد أنها أصبحت لا تؤكل ، فبعثت بها إليه ، وخجلت أن تؤاكله ، فما كان منه إلا أن خرج إلى المطبخ وهو يقول لها :

— الله يعطيك العافية ، لقد أتعبناك في هذا اليوم !

من غير أن يبدي أية ملاحظة !

٥ ــ معاملته لإخوته

كان رحمه الله أكبر إخوته ، توفي أبوه عام ١٣١٧ هـ ، فأشرف على تربيتهم وتوجيههم . كان أخوه الأصغر المرحوم الدكتور صلاح الدين القاسمي ، الذي قضى في عمر زهرات الربيع ، يوم وفاة والده فتى يافعاً ، له من العمر اثنا عشر عاماً . وقد رأى بنافذ بصيرته اتساع آفاق العلم والمعرفة في ذلك العصر السحيق ، فأدخله المدارس الرسمية ، وعلمه من اللغات الأجنبية الفرنسية والتركية ، وقد أتقنهما ، وحذقهما إلى أن كانت مراسلاته مع فريق من أصدقائه باللغة الفرنسية ، وكان قادراً على الترجمة منها وإليها ، ثم أدخله كلية الطب ، فتخرج طبيباً ، وكان من أوائل الأطباء المأذونين في ذلك العصر ، ولم يغفل عن تربيته الدينية وتنمية ملكته الأدبية ، فكانت له مقالات وخطب وقصائد تناولت كثيراً من شؤون الدين والأدب والسياسة والاجتماع [1] ، وتوفي ولما يجاوز الثلاثين من عمره .

وقد يبدو هذا كله في هذا الزمان أمراً عادياً ، ولكنه كان في ذلك الزمان أمراً خطيراً ، لأن الذين كانوا يلمون بالقراءة والكتابة في الحي الواحد ، وعدده آلاف ، لا يجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة .

فإدراكه لروح العصر ومقتضياته ، قبل الأوان ، في الأخذ بالنافع من المدنية الحديثة وتعلم اللغات الأجنبيه ، مع الحفاظ على الروح الديني الصميم ، وهو ما نفتقده اليوم وندعو إليه ، أمر يدل على بعد النظر ، والرغبة في التطور ، والسير مع حاجات المجتمع ويدعو إلى كثير من الإعجاب والتقدير .

---

(١) نشرت تحت عنوان : صلاح الدين القاسمي – آثاره – المطبعة السلفية بالقاهرة عام ١٩٦٠

٦ — تربيته لأولاده

رزق القاسمي سبعة أولاد ، ثلاثة من الذكور ، وأربع بنات . فأما كبرى بناته ، فقد علمها في مدارس الدولة حتى نالت الشهادة الابتدائية ، وهي أرقى ما كان يمكن أن تصل إليه درجات تعليم البنات في ذلك العصر . وكذلك بنته الثالثة . أما البنتان الأخريان ، فقد حال زواجهما المبكر دون نوالهما الشهادة ، وإن كان قد تولى حتى بعد الزواج إتمام تعليمهن بنفسه ، أو بواسطة أشقائه . فلا يزور بنته الثانية مرة إلا ليطلب إليها قراءة القرآن أمامه ، ويلقنها من مبادىء المعرفة ما يناسب مستواها .

كانت البنات في ذلك العصر تنادي الأب والجد بلفظ (سيدي) . وقد أدركت بنفسي بعض أسر دمشق قد احتفظت بهذه الآداب التقليدية إلى وقت قريب ، وقد حدثتني شقيقتي الكبرى أنها ما نادت أباها مرة ، منذ أن وعت ، بقولها : (سيدي) ، إلا وأجابها (يا ستي) ! ثم علمها الخياطة ، بعد نوال الشهادة الابتدائية ، واشترى لها بنفسه آلتها[1] . وكثيراً ما خاطت لنا بعض ثيابنا ونحن أطفال بالآلة نفسها .

حرص على دين أولاده ، حرصه على ثقافتهم ، كان يعود بعد صلاة الفجر

---

(١) قال في مذكراته اليوميـة – ٢ جمادي الثانية ١٣٢٤ – ٢٣ تموز ١٩٠٦ : « ... وبعد العشاء زارنا الشيخ طاهر ، وكان البحث في مواضيع ، منها في عدم نجاح البنات اللاتي تعلمن في المكاتب الابتدائية ، لعدم النظر في اصلاحها ، واعداد معلمات ماهرات . قلت له : ولذلك اخترت ان تكون بنتي ، بعد أن ختمت وأخذت الشهادة الابتدائية من المكتب الابتدائي ، أن تتعلم فن الخياطة ، فتعلمته وصارت معلمة فيه بحمده تعالى » .

في المسجد الجامع ، وقبل بزوغ الشمس ، فيوقظ أهل البيت جميعاً ، لأداء الصلاة ، وكثيراً ما أفرحهم بالحليب الذي يسميه أهل الشام (الماسية) ، والكعك الطازج ، تنشيطاً للأطفال على النهوض المبكر ، لأداء الصلوات .

حدثوني أنه لم يرتفع صوته على طفل ، في سبيل تربيته ، إلا في الندرة النادرة . فقد كان يرى أن العنف في التربية يؤدي إلى عكس الغاية المرجوة منها . فضلاً عن أن تمتد يده إلى أحدهم بالضرب تأديباً .

أحب أولاده حباً منقطع النظير . وقد حمل على زواج بنته الثانية في سن مبكرة ، فلم يشأ عصيان والدته ، ولكنه خلا بنفسه في حجرته ، فدخلت عليه زوجته رحمها الله ، فرأته يبكي بكاء الأطفال ، جزعاً على بنته .

كان يخاف على أولاده من العين ، وكان يعتقد بها ، كما أشار إلى ذلك في تفسيره بمعرض تأويل قوله تعالى في سورة يوسف (يا بني لا تدخلوا من باب واحدة وادخلوا من أبواب متفرقة) . وقد حدثني أحد تلاميذه أنه كثيراً ما غطاني بجبته في دهليز الدار ، إذا فتح الباب فجأة ، خوفاً عليّ من أعين الحاسدين .

أحاط أولاده بكثير من الحنان ، فلم يرفض لأي منهم طلباً ، لغلبة عاطفته عليه . حدثتني شقيقتي الكبرى أنها ما طلبت إليه طلباً إلا لباها ، وحمل إليها طلبها بنفسه ، ليدخل الفرح على قلبها .

تولى في بيته تعليم أولاده جميعاً ما فاتهم في المدرسة ، فله ساعات خاصة لتثقيفهم ، واطلاعهم على ما لا يمكن أن يطلعوا عليه إلا في جوه الخاص . ولم

يحرمهم من حضور الجلسات التي تعقـد في البيت ، لتنمو مداركهم ، وتنشأ ملكاتهم نشأة قوية .

عبّر عن حبه لأولاده بكلمة كتبها بخطه قال[1] :

« الأولاد منحة من الله تعالى ، وزينة في الحياة ، ولا يشعر بلذة العيش معهم إلا من يحبهم من الآباء . وما يبديه الأطفال من الألعاب ، والغضب ، وبعض الطلبات ، وفطري الكلام ، أسباب سرور وتسلية لمن يسرّ بهم ، ويحب الاستئناس بهم . ومن لا يحب زوجته وأولاده يكن كمن يطعم حيواناً مفترساً ، يجاب على نفسه المصائب ، ولا يرتاح باله ، ولا يبلغ السعادة أبداً » .

زوج بنتيه الكبرى ، فكتب يوم عقدها[2] :

« ليلة هذا اليوم المبارك كان عقد بنتي الكبرى منيرة على السيد حسن أفندي بركات الرفاعى ، جعله الله عقداً ميموناً ، وبارك فيهما ولهما ، ورضي عنهما ، وأعزهما ، وأغناهما ، وأقر عيني بطيب عيشهما ، هما وبقية أولادي وإخوتي وأهلي ، إنه أرحم الراحمين . » ، « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » ، « ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماماً » .

وكتب يوم زفافها[3] :

« مساء هذا اليوم ، كان زفاف بنتي الكبرى منيرة ، وكنت في المزة ،

---

(١) دفتر شوال ١٣٢١ - الورقة ٥٢

(٢) المفكرات اليومية : ٢٧ ربيع ثاني ١٣٢٦ - ٢٨ أيار ١٩٠٨

(٣) المفكرات : ٢٣ جادي الثانية ١٣٢٦ - ٢٢ تموز ١٩٠٨

سرت إليها بعد أن ذكر لي ترتيب الزفاف ، رضي الله عليها وعلى بعلها ، وبارك لهما وفيهما ، وأخرج منهما الكثير الطيب » .

٧ — ترويح عن أهله

عرف القاسمي حق أهله عليه ، فلم يذرهم في الدار قعداء ، ليس لهم من عمل إلا القيام على خدمته . فكان يسعى لإدخال السرور على قلوبهم بكل الوسائل . ولم يكن العبوس من شيمه ، ولم يحمل همومه وأحزانه إلى بيته ، بل كان إذا دخل الدار ، جعل بينه وبين أعماله وخصومه ومنافسيه حجاباً لا يمكن أن يتخطى بابه الخارجي . وكان يرى أن واجبه في الترفيه عنهم ، ومشاركته في نزهاته و (سيارينه) . وقد عرف عنه هذا الخلق الرضي ، فأطمع فيه الأقرباء . رأيت في مذكراته اليومية ، هذه الكلمات الحلوة [١] :

« كانت طلبت مني أم الأولاد ، وامرأة أخيها ، أن أسير بهما ، وبأولادهما إلى الوادي ، ترويحاً لنفسهما . وكنت من سنين أعزم على تنشيطهما ، لكثرة ما يطالباني بذلك ، لا سيما ويعلمون كثرة ذهابنا إلى المتنزهات بالدعوات . فرأيت من القيام بحق المعاشرة بالمعروف ، أن أسير بهن . فذهبت صباح اليوم إلى وادي الغزي — على بردى قبيل الربوة — واستأجرت عربتين ، وهيأنا من مساء البارحة وصباح (اليوم) طعام الغداء والعشاء ، وقد حظين بهذا المسير ، وانطلقت البنات انطلاقاً مسراً ، ولعبوا على الأرجوحة ، وخاضوا في النهر ، وأطلقنا لهن

---

(١) المفكرات اليومية : ١٠ رجب ١٣٢٤ — ٢٩ آب ١٩٠٦

الإذن ، لما يقتضيه مقام البستان . وصحبت معي شرح الأربعين للطوفي لأصحح نسختي على أصله . ثم نزلنا قبل المغرب ، وقـد سر الأهل والحمد لله سروراً كثيراً . . . »

٨ — معاملته لبنيه

لم أدرك والدي جمال الدين ، ولم أمتع بحنانه ، ولا أعرف عنه إلا ما سمعت من الأفواه .

عرفت أنه كان إنساناً في معاملته لأولاده ، بكل ما تحمل كلمة « الإنسان » من المعاني القدسية السامية ، ولعل أوضح دليل على هذا أن أُمي الأمية رحمها الله ، كانت تتمثل ببيت حفّظها إياه فتقول :

يا حبذا ريح الولد ريح الخزامى والبلد

وكانت رحمها الله تلفظه « يا هبذا » .

كان كثير الخوف على أولاده ، كثير الحرص على تنمية شخصيتهم ، كثير العنـاية بتربيتهم الدينية ، وتعليمهم ، علم بنته الـكبرى ، إلى آخر مرحلة من مراحل تعليم البنات في ذلك العصر ، وقد نالت شهادة التعليم الابتدائي ، وقد كان ذلك في زمان لا يعرف فيه كثير من الآباء أسماء بناتهم ، ولا يجالسونهن ، ولا يعرفون شيئاً من أمورهن ، بل يتركون ذلك لأمهاتهن ، لأن البنت (عورة) في عرفهم .

نشأ ولده الأكبر ضياء الدين على طريقته ، وأما الثاني (مسلّم) فقد كان

له من العمر سبع سنوات يوم وفاته ، فكفله عمه إلى أن نال شهادة الطب عام ١٩٣١ واختطفته يد المنون في ذلك العام ، بعد أشهر من نوالها ، وله من العمر ثلاثة وعشرون عاماً ، وكان كاتباً أديباً خطيباً . أما كاتب هذه السطور ، فقد كان له من العمر سنة وأربعة أشهر وبضعة أيام يوم وفاته .

رحم الله القاسمي ، كان براً بوالديه ، وأباً رحيماً ، وزوجاً ودوداً ، وأخاً شفيقاً ، ومربياً كريماً ، وموجهاً عظيماً ، إنساناً يعرف للأبوة حرمتها ، وللبنوة رحمتها ، وللأخوة شفقتها .

ولعلك تعجب كيف قوي هذا الرجل على أن يكون مؤلفاً يترك قرابة مئة مؤلف في خدمة الشريعة — أحدها تفسيره للقرآن الكريم — وأعباؤه العائلية كما ترى ؟ ! ذلك تقدير العزيز العليم .

* * *

إضطهاده

زعماء الاصلاح الذين عاشوا في كل عصر ومصر ، والذين لم يخل منهم زمان ولا دهر ، في الشرق ولا في الغرب ، قوم تغلبت فيهم صوفية العقيدة ، على كل ما عداها ، وأكثرهم عمل لا طمعاً في ثواب ، ولا خوفاً من عقاب ، وإنما حداهم إلى السير في طريقهم القاصد ، ما يجـدون من راحة الضمير ، وما يلقون من لذة الاقتراب من الأهـداف والمثل العليا ، وما أظن أن كثيراً منهم قـد نجا من مقاومة المجتمع ، وحرب المعاصرين ، وعداوة الخصوم ، واضطهاد السلطان . ولعل القاسمي كان أحد الأمثلة الواضحة على ما يمكن أن يلقى رجال الاصلاح . ولقـد مر معك في الفصل الذي كتبه بنفسه عن محنة ١٣١٣ ﻫ ما لقي من العنت والارهاق ، وما سامه السلطان من العسف والظلم ، ممـا أدى إلى محاكمته واعتقـاله ، ثم الافراج عنه .

كذلك سنرى في الفصل الذي عقدناه عن (القاسمي ورشيد رضا) ما كان من انعكاس أثر الحادثة التي دبرتهـا الرجعة للسيد رشيد على القاسمي والبيطار ، وما كان من اعتكافهما في داريهما أشهراً ، درءاً للفتنة ، واطفاء لنارها .

وفي مذكرات القاسمي إشارات إلى مضايقة السلطان له في فترات أخرى من

حياته . فلم يكن خافياً على رجال الحكم في تلك الحقبة من الزمان ، أن القاسمي لم يكن فقيهاً ليس غير ، وإنما كان رجلاً من رجال العرب الذين يعملون دائبين لرفع الظلم عنهم ، ولبعث النهضة الصحيحة في نفوسهم . عرفوا ذلك من كتبه ، كما عرفوا ذلك من دروسه العامة ، وكما تأكدوا ذلك من خطبه أيام الجمع ، وزادهم ذلك يقيناً من تردد ألمع شباب الجيل على داره ، الذين لم يكن معقولاً أن يلتقوا بالقاسمي للفقه واللغة والحديث والتفسير وما إليها ، ولا بد أن تكون أحاديثه معهم دائرة حول المجتمع الاسلامي والعربي وطرق إصلاحه والنهوض به . ولهذا كانت الشكوك تساور نفوس الحكام حول سلوك القاسمي واخوانه ومشروعاته ، والأفكار التي يبثها ، والكتب التي يقتنيها .

ولم يجدوا سبباً ظاهراً لازعاجه قبل اعلان الدستور (١٩٠٨) ، ولكنهم لم يكونوا مطمئنين إليه ، فاتخذوا حجة واهية ، خيل إليهم من ورائها أنهم لا بد أن يعثروا على ما يمكن أن يطيح بالشيخ ، أو أن يدينه ، أو أن يكون ذريعة لاعتقاله أو ابعاده أو الحكم عليه . فداهم زبانيتهم سدته في جامع السنانية يوم الأربعاء ٨ صفر ١٣٢٦ — ١١ آذار ١٩٠٨ ، كما داهموا حجرته في الدار ، وضبطوا بعض الكتب التي لم ترقهم أسماؤها ، أو أسماء مؤلفيها ، وذهبوا بها ، وكتب في مذكراته اليومية هذه الجملة المقتضبة :

« اليوم فتشت كتبي بالسدة في الجامع ، وفي حجرتي في الدار ، ولطف المولى بمنه » .

كان القاسمي في تلك الفترة يطبع كتابه « دلائل التوحيد » ، من غير ترخيص ،

خلافاً للأنظمة النافذة يومئذ ، وقد كان يخشى ، على ما حدثني عمي قاسم خير الدين ، أن تضبط ملازم الكتاب ، وأن يكون من وراء ذلك قصة ، ولكنهم لم يعثروا عليها ، وهذا الذي أشار إليه القاسمي بقوله : « ولطف المولى بمنه » .

وقد بقيت الكتب المضبوطة إلى يوم الأحد في ١٦ ربيع الثاني ١٣٢٦ — ١٧ أيار ١٩٠٨ ، فكانت غيبتها سبعين يوماً ، ثم أعيدت إليه ، من غير أي اعتذار ، وقد فرح القاسمي باعادتها وانظر إلى فرحته البالغة ، مع تواضعه الصادق ، في هذه الجملة التي سجلها :

« اليوم حضر أخي بالكتب المفتشة ، والحمد لله على لطفه ، وقد كانت غيبتها من ٨ صفر ، العام هذا ، نهار فتشت كتبي في سدة الجامع ، وفي حجرتي البرانية فقط . وقد لطف المولى بحمده ، لم يمسني بلطفه إلا كل خير ، كما عودنيه ، مع كثرة ذنوبي ، فأستغفره وأتوب إليه ، واسأله اللطف لي ولأهلي وأولادي وإخوتي وأحبابي » .

ان الإشارة الى « الحجرة البرانية فقط » تعني عند من عرف بيت القاسمي أن التفتيش لم يصل إلى مكتبته . فقد كان في بيتنا القديم ، في زقاق المكتبي ، ظاهر باب الجابية ، حجرتان متصلتان ، إحداهما لها باب من الدهليز ، وهي صغيرة ، وهي التي سماها « البرانية » ، وكان القاسمي يستقبل فيها ضيوفه المعتادين وتلاميذه ، وكان إلى جانبها حجرة أخرى متصلة بها ، وفيها مكتبته الكاملة ، وكنا نسميها (مربع الكتب) ، وقد كان في المكتبة كثير من الكتب الممنوعة التي كانت تطبع

في مصر ، وكانت تصل إلى القاسمي مع المسافرين ، من أصدقائه وأقربائه وتلاميذه . وقد أعمى الله زبانية السلطان عن الوصول إليها .

وفي ٢٤ تموز ١٩٠٨ يعلن استئناف الحياة الدستورية في المملكة العثمانيـة ، ويتنسم الناس عطر الحرية ، وتقام الافراح والزينة ، ولكن الحكام الأتراك الجدد ، لم يكونوا أرحم من سابقيهم بالعناصر العربية المتحررة فقد كانوا يريدونها حرية تركية فقط ، لهم ولعرقهم ، وأما العناصر الأخرى فما كانوا يريدون لها إلا الخضوع والخنوع ، والسير في ركاب التتريك ، وأنى لهم ذلك ، وقـد قامت حركات النهضة ، وبزغ فجر القومية العربية في ظل الحكم المطلق وطغيانـه ، فهل يمكن أن يغيب في ظل الدستور والحرية ؟!

ولقد كان رجال الحـكم المطلق أرحم بأحرار العرب ، من رجال الدستور . ومن عاش تلك الحقبـة من الزمن ، عرف اضطهاد العرب في ظل الدستور . ولا أدل على ذلك من أن القاسمي قد ترك وشأنه من عام ١٣١٣ إلى عام ١٣٢٦ ، واقتصر اضطهاده على اتهامـه بالاجتهاد وتفتيش كـتبه ، أما في ظل الدستور ، فان دعوى الحق العام تحرك عليه ، ويستحضر أمام قاضي التحقيق ليسأل عن تهم سياسية معينة . لم يكن ذلك بعد اعلان الدستور بزمن طويل ، وانمـا كان بعد سنة وشهرين وأربعة أيام فقط ، يدلك هذا على روح الحكم التركي في جميع العهود .

وإليك ما قال القاسمي في مذكراته اليومية : [١]

---

(١) ١٤ رمضان ١٣٢٧ – ٢٨ ايلول ١٩٠٩ .

« دعيت اليوم لدائرة الاستنطاق في العادلية ، وملخص ما وشي علينا ، أن الفقير والشيخ عبد الرزاق البيطار ، وعبد الرحمن بك اليوسف ، ما انشئت جمعية النهضة السورية[1] إلا بتشويقنا ، واننا من أركانها ، وانها فرع لجمعيات في البلاد ، كاليمن ونجد ، وانها تطلب الاستقلال الإداري ، وتريد تشويش الأمور الداخلية بطلب حكومة عربية ، وأن لنا مكاتبات مع أمراء نجد ومواصلات ، وكذلك مع المتمهدي في اليمن ، وأن الشيخ طاهراً المغربي هو المحرض للمتمهدي على القيام ، لأنه مغربي مثله . وما مذهب الوهابية ، وكم عدتهم في الشام ؟ إلى نحو ذلك . . . فأجبنا بالسلب في كل ذلك ، وأن جمعية النهضة لسنا من رجالها ، وأنها فيما استفاض جمعية أدبية .

« ومن جملة ما وشي به علينا أننا نخدم فكرة عزة باشا العابد في ذلك ، فقلت : نحن وإياه على طرفي نقيض .

---

(١) وكانت تسمى قبل الدستور « جمعية النهضة العربية » . ألفها نخبة من شباب العرب في دمشق عام ١٣٢٤ – ١٩٠٦ ، أي قبل الدستور بسنتين ، كانت تهدف الى احياء مجد العرب والى تعليم اللغة العربية ، ومن آثارها إحداث غرف قراءة باللغة العربية في المساجد ، كما كان من مبادئهـا الاساسية العمل على جمع شمل العرب الممزق واقامة وحدتهم . وكان الاستاذ محب الدين الخطيب أول رئيس لها ، والمرحوم الدكتور صلاح الدين القاسمي أول سكرتير لها . ومن أعضائها محمد وأحمد كرد علي ، عثمان وجميل ورضا مردم ، لطفي وجمال ومحمد الحفار ، ورشدي الحكيم ، وزكي الخطيب ، والدكتور حكمت المرادي ، وعبد الفتاح الجندي ، وعارف وفائز الشهابي ، ومحمود كرد علي ، وجمال القوتلي ، وصبحي المليحي ، وأديب مردم ، وكمال الحلباوي وغيرهم : (راجع عن الجمعية وتاريخها كتاب : صلاح الدين القاسمي آثاره ص ٤ – ٦٨) .

وستطلب أفراد جمعية النهضة ، وسيخزي الله المفسدين[1] » .

كيف نجا القاسمي من هذه التهمة ؟

الذي اعتقده أن القاسمي كان في طليعة المقصودين بالتنكيل ، فقد سيق إلى الاستجواب وهو في سنّ النضوج ، وقد بلغت شهرته ذروتها ، وطبق صيته الخافقين ، وطار اسمه في المشرقين والمغربين . ولو أن الذين دبروا التهمة قد اقتصروا فيها عليه وحده ، لما كانت له منها منجاة . ولكن الله جلت قدرته ، قد أراد بالقاسمي خيراً فزين للحكام اتهام عدد كبير من رجال البلاد ، بعضهم من الشباب المثقف ، وبعضهم من رجال الدين ، وآخرون من ذوي الجاه والمجد التليد ، فأدى هذا الخليط ، واتساع عدد المتهمين ، على ما في التهمة من جرائر ، وما يمكن أن تجر من شرور ، إلى طيّ القضية ، وتقرير منع المحاكمة فيها . ولو أن الأمر كان على خلاف ذلك ، لحدثني به الناس ، ان لم يدونه القاسمي في مذاكراته .

وقد عثرت بين أوراقه على إجمال لما مرّ به من حوادث الاضطهاد ، بلغت سبعاً ، دونها بقلمه ، وواضح من مضامينها أنها من رسالة إلى صفيه السيد رشيد رضا ، قال :

---

(١) حاولت العثور على اضبارة هذه القضية في مستودع وزارة العدل بدمشق فلم أفلح ، لأن جميع اضبارات القضايا الجزائية التي كانت قائمة في العهد التركي فقد أتلفت . وقد أسفت لهذا كل الأسف ، لأن في الرجوع الى الاضبارة تنويراً لحقائق الموضوع ، وكشفاً عن كثير من خفاياه !

« لو علمت جمعية الاتحاد والترقي بما نالني ، على الخصوص من ظلم المخلوع وأعوانه الأخباث ، لأحلّتنا في المنزلة العليا . والله لقد مر عليّ ما يشيب الأطفال ، ويزلزل الأبطال . أذكر لكم شيئاً منها ، عساه أن يذكر لأولي الغيرة والحمية على إخوانهم ، وإن نأت بهم الديار :

(١)

« أقيمت علينا فتنة سنة ١٣١٣ بدعوى الاجتهاد ظاهراً ، وأن الجمعية للسياسة باطناً . وطُلبنا إلى المحكمة الشرعية مع رفاقنا ، إلا أني خصصت دونهم بالسجن ليلة ، ولطف المولى » .

(٢)

« في سنة ١٣١٨ لما أوقف السيد عبد الحميد أفندي الزهراوي عندنا ، ووقع الإرجاف باخواننا ، تلك الليالي الهائلة ، طرقني ليلة[١] مختار المحلة والبوليس ، وأنذراني بدفع رسالة السيد المطبوعة ، فأخرجتها ، وسلمتها لهم ، وبقيت والله لا أدري ماذا يتم عليّ ، لا سيما والعهد في الأولى ليس ببعيد ، والتقول على ما يجري على السيد شديد ، ولم يهدأ لنا بال إلى أن فرج عن السيد حفظه الله[٢] » .

---

(١) كذا في الأصل ولعلها : ليلا .

(٢) سألت المعاصرين عن الحادثة التي أشار اليها القاسمي ، وعن توقيف الزهراوي عام ١٣١٨ ﻫ فلم أستطع الحصول على أية معلومات حولها ، لا قليلا ولا كثيراً . أما الرسالة المطبوعة التي نوه عنها فلعلها « الفقه والتصوف » ، ولكنها مطبوعة عام ١٣١٩ لا عام ١٣١٨ ، ولعل مرد الخطأ الى بعد الواقعة ، وتدوينها بعد أوانها بنحو ثمانية أعوام .

(٣)

« في سنة ١٣٢٢ قدم أحمد بك الحسيني إلى دمشق ، فزرناه — والرجل تعلمون أنه دعانا لما كنا عندكم في مصر إلى حلوان دعوة فخيمة — فإذا بالبوليس يطلبني إلى دائرة الجندرمة ، فمكثنا بها حصة عند المدير ، وقد أقبل بعض الوجهاء يكلمونه في شأني ، فلم يفد ، ثم سار بي إلى الوالي ناظم باشا عامله الله بما يستحق ، فوقفت على باب حجرته حصة طويلة . ثم أذن لي بالدخول ، فأخذ الوالي يتهددني ، وينذرني ، ويقول : سبق لي سوابق في الاجتهاد ، والدعوة إليه ، وتعلّمون تلامذتكم الاجتهاد . أو لا تعلمون أن هذا مما لا يرضاه مولاه ؟ أخزاه الله وإياه . ثم هددنا على زيارة الحسيني ، والعودة لمثلها ، وأنذرنا بالنفي إن عدنا لمثلها . »

وقد أوضح القاسمي هذه الحادثة مفصلاً في الدفتر الذي ترجم فيه لنفسه فقال :

« قدم في أواخر ربيع الأول سنة ١٣٢٢ دمشق من مصر ، العالم الفاضل ، السيد أحمد بك الحسيني المحامي الشهير ، ثمة . وكان سبق له الاعتناء بنا في مصر ، أيام رحلتنا إليها ، كما بينته في تاريخ رحلتي للأقطار المصرية ، اعتناءً ندر نظيره . فذهبت للسلام عليه ، وكان نزل في لوكندة في المرجة ، ووفد للسلام عليه كثير من أهل الفضل ، فلم نشعر إلا بطلب من الحكومة ، لمواجهة مدير البوليس . فذهبت ، ورأيت جماعة ممن وفدوا لزيارته ، مأتياً بهم .

« فلما دخلنا على المدير ، قام واحتفل ، وأمر بالقهوة ، وقدم لنا شراب الدخان ، فأشرنا له بأنا لا نستعمله . ثم طفق بعد برهة يتلطف بنا ، بالسؤال عن سبب

معرفتنا بالسيد أحمد بك ، فذكرنا له اجتماعنا به في مصر ، وإكرامه لنا بها ، وأنه لما بلغنا مقدمه زرناه ، لأن القادم يزار . فقال : قد بلغ مسامع الحكومة عنه ما يسوء ، وقد نمي إلينا بأنكم تجتمعون به ، فننصح لكم أن لا تجتمعوا به . فقلنا : سمعاً وطاعة .

« ثم انتظر المدير من أرسل وراءهم ، من بقية من زاره ، فلم يحضر إلا اثنان غيري من أهل العلم . فقام وقال : نذهب للوالي . فسرنا معه ، فسبقنا إلى قصر الوالي ، وناجاه حصة ، ثم أُذن لنا بالدخول على الوالي ، وهو الوزير ناظم باشا . فصادفناه واقفاً ، فسلمنا عليه ، فرحب وأشار بالجلوس قريباً منه فجلسنا .

« ثم نادى بأن يحضر لمجلسه محمد باشا العظم ، وكان بحجرة قريبة من حجرة الوالي ، فقدم . فقام له الوالي ، فقمنا . وبعد أن جلس ، اتخذه الوالي ترجماناً يترجم لنا بالعربية ما يتكلم به الوالي بالتركية .

« فكان خلاصة الكلام المترجم : إن الوالي بلغه أنكم تقولون بالاجتهاد ، وتدعون الناس له ، وأنه تكرر منكم ذلك . وهذا لا يناسب ما تقرر من أمر المذاهب ، وأنه لما يعهده من فطنتنا وذكائنا يتأمل أن لا يبلغ مسامعه ذلك عنكم ، وأنه عاملنا الآن بلطف ومرحمة ، ولو كان غيره والياً ، لربما أجرى ما لا يحمد . فالتفت أحد رفقائنا وأنكر ما بلغ دولته ، وأخبره بأنا مشتغلون بشؤوننا .

« ثم قال الوالي بعد حصة طويلة موضوعها تكرار ما تقدم : من هذا الرجل القادم من مصر ، ومن أين لكم المعرفة به ؟ فأخبرناه بما تقدم . فطفق يبحث :

هل هو من أهل الاجتهاد ، ومن القائلين به ؟ فقلنا : هو فقيه شافعي ، وله مؤلفات فقهية ، ومشربه الظاهر هو هذا ، وسوى ذلك لا ندري .

« وذكر أحد رفقائنا للوالي موضوع بعض مؤلفاته التي ناقش بها الحنفية في مسألة الصاع (التي أوغرت صدور بعض وجهاء الحنفية في الشام عليه ، فأتم السعاية عليه) .

« وبعد تحذيرنا من الاجتماع معه أذن لنا بالانصراف ، فانصرفنا ، وذلك عصر يوم الثلاثاء ٢ ربيع الثاني من السنة المذكورة .

« ثم تبين لنا أن البيك المنوه به قدم به جرنال في سوء أمره للوالي ، بما هو بريء منه ، وقيد في دفتر أسماء الواردين لزيارته ، فاحتاطت الحكومة ، على عادتها ، وكأنه حصل مذاكرة في الجماعة الذين زاروه ، فقيل له إنهم من المجتهدين ، ولعله منهم ، فتم ما تم على هذا الضيف . وقد روقب في حركاته وسكناته ، ووضع له من يتأثر ذهابه وإيابه من الشُّرَط .

« وقد بعث البيك يريد رد الزيارة لي ، فأعفيته ، وتباعدت عنه . وسيلقى الذي سعى به ، واتهمه بما هو بريء منه جزاء ما قدمت يداه ، فلا حول ولا قوة إلا بالله . (كتبته يوم الخميس في ٤ ربيع الثاني سنة ١٣٢٢) .

« ولما بلغ ما جرى للبيك المنوه به مسامع صديقنا الفاضل رفيق بك العظم كتب إليّ من مصر كتاباً منه :

« وقد تأسفت على صاحبكم ، ولم أستغرب ما حصل له ، مع استقامة مشربه ، فإن هذا داء سرى في نفوس الأدْنياء الذين يتذرعون بمثل هذه السفاسف ، إلى

ما يعلم الأخ ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، وهو المستعان على مثل هذه الحال » .
انتهى ما كتبه القاسمي في دفتره .

(٤)

« لما أقام تلامذة شيخ الحشوية[١] . . . الفتنة على الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرزاق البيطار ، في مسألة الوهابية عام ١٣٢٤ ، واستنطق في المحكمة هو و[١] . . . وتلامذتهما[٢] ، ذُكرت معهما ، وأُرجف بنا ، إلا أني كنت في صيدا مع الشيخ طاهر[٣] ، فحال سفرنا دون أمنيتهم ، وبقيت الدعوى نحواً من شهرين ، ونحن على وجل شديد ، لا يعلمه إلا المولى . »

(٥)

في سنة ١٣٢٤ ، في رمضان ، أقام الحشوية عليّ فتنة بسبب مجموعة الأصول التي فيها رسالة الشيخ ابن عربي ، والطوفي ، في المصالح المرسلة ، وأهاجوا القاضي والوالي شكري باشا ، وكل حشوي ، وخائن . ولا تخفى مجامعهم اللعينة في رمضان ، حيث يجتمعون بعد العصر ، في الأموي ، ويحيون ليله بالقذف ، والفساد والافساد . ولم يزل ذلك سمرهم وسعيهم طول الشهر . ولولا توسط بعض المخلصين ، وفي مقدمتهم عطوفة عبد الرحمن بك ، ومدير المعارف السابق ، لكان الأمر على

---

(١) آثرنا اغفال الاسم .
(٢) سألت أستاذنا الشيخ محمد بهجة البيطار سبط العلامة الشيخ عبد الرزاق البيطار عن الدعوى فأجابني بأنه لا يذكر عنها شيئاً .
(٣) الشيخ طاهر الجزائري .

غير ما نحب . ولـكن كيف كان الصحب والآل ، في هـذه الليـال ؟ حدث ولاحرج !

(٦)

« تفتيش كتبي في داري والجامع ، بواسطة هيأة موفدة ، مؤلفة من مميز قلم المـكتبجي وغيره وبواليس . وقوميسير بقي عند كتبي التي في الجامع ، وبوليسان على باب الدار . وأخذ ثلاثة أكياس كتب مخطوطة ومطبوعة . وذلك في صفر سنة ١٣٢٦ ، قبل الانقلاب بأشهر ، وقـد أشرت إلى الحادثة في آخر (دلائل التوحيد) . وبقيت الأوراق شهرين في دائرة الحكومة . ولمـا علم بعض الحشوية المتهمين بالجاسوسية نية الحـكومة في ارجاعهـا ، استأنف الـكرة ، وقدم معروضاً بأن الهيأة ليس فيها عالم ، والأوراق كلها اجتهاد ، وهم لا يعلمون مطاويها . فصدر الأمر باحالتها إلى المحـكمة الشرعية ، وتألفت لها هيأة من القاضي ، وأمين الفتوى ، وعضو من المعارف ، وآخر من قلم الادارة ، ففتشت ورقة ورقة ، ولطف المولى بعد ذلك بارجاعها ، وبرأنا القاضي باعلام شرعي . فماذا كان حال العائلة والأهل هذه الأشهر ؟

(٧)

« الفتنة الرمضانية ١٣٢٦ الـكبرى ، التي أقاموها على سيادتكم وعلينا ، بجريمة أنا دعوناكم إلى دمشق . ثم ما نالنـا إثر سفركم ، من اضطرارنا إلى الاقامة في الدار ثلاثة أشهر إلا أياما ، وتسلح أخي عيد بالمسدس طول تلك المدة ، محافظة

عليّ وعليه، في ذهابه و إيابه ، وبقاء أهلنا وأصحابنا في أكدار وأحزان ، ولا أحزان المـآتم ! مما وقفتم على بعضه .

« إلى غير ذلك من الأراجيف التي كنـا نقصد بها ، كلما هبت نسمة حرية على الوطن . ويكفينا هـذه السبع ، يالها من سبعة سود قتام ! وما أظن مضى على غيرنا هـذا العدد في تنوعه وتلونه ، فان غيرنا كان يتخذ المبارحة عوناً على التخلص ، واراحة الفكر ، وأمـا نحن ، ففي وسط اللجة . فان نسيت أحرار الوطن ، والعاملون على نهضة الأحرار ، فلا ينساه الله تبارك وتعالى .

« قلت مرة لأحد كبار الأحرار العقلاء عندنا ، ويقال إنه من الهيأة المركزية : لم لم تطبع تقارير الجواسيس حتىالآن ؟ فقال لي : ان المخلوع نخر جسم الأمة ، وأفسد رجالها ! ثم سمى لي من كبار الآستانة الآن من وجد له عدة منها . ثم قال : أوليس من العجيب أن لا يكون في سورية عالم حر إلا أنت والأستاذ » ؟

« أراني أطلت ، ولـكن هل إلا إلى مثلكم مشتكى أمثالنا » ؟

انتهى ما دونه القاسمي في أوراقه

* * *

القاسمي والحرية

آمن القاسمي بالحرية وقدّسها ، وأحب رجالها ، وعشق أبطالها ، وسعى إليها ، وجاهد في سبيل الظفر بها ، وقضى حياته كلها ، وهو يرى أن الحياة التي لا تلازم الحرية ، لا معنى لها ، ولا قيمة ولا عائدة . لا بل اعتقد أن الانسانية ملازمة للحرية .

والحرية في نظر القاسمي وحدة كاملة لا تتجزأ . فالحرية الدينية ، والحرية الفكرية ، والحرية السياسية ، حريات أساسية ، لا بد من تحققها حتى يكون المجتمع الاسلاميّ سليماً صحيحا ، وحتى يكون الانسان إنساناً .

ولئن كانت هذه الآراء في أيامنا هذه بدهية معروفة ، عامة الانتشار ، يجاهر بها الناس في الشرق والغرب ، فانها كانت قبل سبعين سنة غير معروفة ولا شائعة إلا لدى الخاصة من الناس ، لا بل خاصة خاصتهم . أما المجاهرة بها ، أو التحدث عنها ، أو الاشارة إليها في الأحاديث العامة أو الخاصة ، أو في خطب المساجد ، فكان ممتنعاً كل الامتناع ، لأنها من الجرائر الكبرى التي تودي بالكرامات ، إن لم تزهق الحياة .

ولقد مر معك أن القاسمي قد اتهم بالاجتهاد ، وانه حوكم وحبس ، ويغلب على ظني أن هذه الحادثة لم تزده إلا تمسكاً بالحرية ، وعشقاً لها ، وسعياً وراءها .

ترى أثر ذلك واضحاً في كتبه ، كما تراه في مذكراته اليومية . ولا شك في أن مجالسه الخاصة التي كانت تنعقد في داره ، قد استأثرت الحرية بالكثير من أوقاتها ومناقشاتها . ولا أدل على ذلك من أنه قضى عام ١٣٢٤ هـ — ١٩٠٦ م ، أي قبل استئناف الحياة الدستورية في المملكة العثمانية بسنتين ، مع الشيخ طاهر الجزائري ليل نهار ، والشيخ طاهر من عرفت ، إمـام الأحرار في عصره . كما أن هذه السنة نفسها ، كانت فجراً جديداً للجمعيات السياسية التي ولدت لتدعو إلى العصبية العربية ، وإلى الأمجاد العربية ، وإلى تعلم وتعليم اللغة العربية ، ففيها ألفت جمعية النهضة العربية .

ويذهب بعض المؤرخين للحركة القومية في سورية الى أن البذرة الأولى التي كان لها الفضل الأول في نشور الروح القومي ، كانت هذه الجمعية ، التي لم يكن القاسمي غريباً عنها ، إن لم يكن واحداً من الذين وضعوا برامجهـا ومناهجها . ولا شك أنه على الأقل أحد الذين أوحوا بتأليفها . يدل على هذا أن أخاه المرحوم الدكتور صلاح الدين القاسمي ، هو أحد المؤسسين لها ، وأول أمين عام لهـا . وصلاح الدين ربي في حجر أخيه ، ونشأ على مبادئـه ، ولو لم يكن راضيـاً عن خطته هذه ، أو مشجعاً عليها ، أو موحياً لها ، لما وسع صلاح الدين أن يكون في سلكها .

أضف إلى هذا أن الحكام الأتراك أنفسهم ، حينما اتضحت لهم أغراض جمعية

النهضة ، وعرفوا أنها تعمل للقومية العربيه ، وأن أغراضها الخفية سياسية ، وإن تكن أهدافها الظاهرة ثقافية وأدبية ، جعلوا من التشويق لتأسيسها جريمة دُعي القاسمي أمام قاضي التحقيق يسأل عنها [1] !!.

ولقد كان الأتراك محقين في ظنهم هذا ، لأن مذكرات القاسمي قد ملئت في عام١٣٢٤ — ١٩٠٦ بزيارات أنبه شباب العصر له ، كالدكتور عبد الرحمن شهبندر والشهيدين عبد الوهاب الانكليزي وشكري العسلي ورفاقهم .

وسترى في بحث (آرائه وأفكاره) كم كان القاسمي يقدس سلطان العقل ، وحرية الفكر . ولقد أعلن هذا في كتابه دلائل التوحيد في بحث تأويل النقل بالعقل .

وعرفت أيضاً في بحث (حياته الخاصة) ، القدر الذي كان القاسمي يمنحه لأولاده وأهله من الحرية ، في وقت لم تكن كلمة الحرية فيه معروفة !

ولقد كان القاسمي أحد الأحرار الذين عاشوا في ظل الحكم المطلق قرابة نصف قرن ، (١٢٨٣ — ١٣٣٢) ، يعمل في الخفاء ، محبوس الأنفاس ، لا يقوى على إطلاق لسانه كما يريد ، إلا في مجالس محدودة ، وليس لقلمه الحرية التي يشتهي . فلما استؤنفت الحياة الدستورية ، لم يزد القاسمي في مذكراته على الإشارة التالية :

« ورد إلى الولايات اليوم تلغراف من الصدر سعيد باشا بناء على صدور

---

(١) ص ٢٠٣ من هذا الكتاب . فصل : (اضطهاده)

الإرادة السنية بإجراء العمل على القانون الأساسي ، وانتخاب أعضاء مجلس المبعوثين[1] » .

ويضيف على هذه الجملة المقتضبة ، هذه الملاحظة التاريخية الهامة :

« وقد صادف في ٤ تموز حرية أمريكا ، وفي ١٤ حرية فرنسا وفي ٢٤ حرية المملكة العثمانية » .

ليس غريباً أن تكون الإشارة إلى هذا الحدث الخطير ، بهذا الاقتضاب الوجيز . ذلك أن المفاجأة بهذه الفرحة الكبرى قد عقلت أقلام جميع الناس يومئذ ، وقد علمتهم الأحداث أن الانتقاض كثيراً ما يقع ، وأن الأخبار الأولى لا بد للتأكد من صحتها ، من أن تدعمها أخبار متواترة أخرى . والذين عاشوا تلك الفترة ، ما زالوا يحدثون أن الناس يومئذ كانوا بين مصدق ومكذب ، وأن أخبار الحرية الدستورية ، كانت تنقل في اليوم الأول بكثير من الحيطة والحذر .

زد على هذا أن عمال الدولة القائمين يوم ورود النبأ ، كانوا من صنائع العهد القديم ، وكانوا قادرين على الفتك والأذى ، ولم يكن موقفهم في اليوم الأول واضح المعالم ، ولا معروف الاتجاه . ولهذا تهامس الناس بالنبأ الخطير ، ولم يعلنوا فرحتهم به إلا بعد مضي وقت ليس باليسير ، لا سيما وأن الدولة نفسها لم تحتفل باستئناف الحياة الدستورية إلا بعد عشرين يوماً . ولقد سجل القاسمي في مذكراته اليومية ما جرى يوم تلاوة الفرمان ، قال[2] :

(١) الجمعة ٢٥ جادي الثانية ١٣٢٦ – ٢٤ تموز ١٩٠٨ (مخطوط)

(٢) الخميس ١٦ رجب ١٣٢٦ – ١٣ آب ١٩٠٨

« اليوم ونحن على الغداء سمعنا ضرب ٢١ مدفعاً . ثم علمنا أن المدافع ضربت لما فرغ من تلاوة فرمان العمل بالقانون الأساسي ، والحلف من الموظفين على العمل به » .

ثم أضاف إلى هذا :

« دعاني اليوم علي أفندي الكزبري للذهاب لدار والده الشيخ سليم بعد الغروب ، للاحتفال بأمر الدستور ، في مجمع خاص ، وأكد عليّ كثيراً ، فذهبت ومعي أخي قاسم ، فلم يلبث أن حضر عبد الرحمن بك محافظ الحج ، وأحمد بك الشمعة ، وعبد الله باشا الأمير ، وسامي باشا ومحمود باشا بوظو ، وعطا باشا البكري ، وكثير من العلماء والمدرسين ، ورفيق بك العظم ، وأسعد بك البينباشي . فخطب عبد الرحمن بك عن أعمال الجند الآن ، وقيامهم برفض العمال الخائنين ، وطلب من الأعيان الموجودين أن يحالفوا الجند الشاهاني على ذلك ، فوافقه الكل . ثم خطب رفيق بك ، ثم أسعد بك ، ثم قام عبد الرحمن بك فصافح أسعد بك وكيل حزب الأحرار الشاهاني ، وأقسم له ، وكذلك الكل . ثم تلا أخي قاسم خطبة في منزلة القانون من الدين ، فصفق له الكل . ثم انصرفوا بعد تناول المرطبات » .

وجدير بالذكر أن مذكرات القاسمي قد خلت في الأيام العشرين السابقة من أية إشارة إلى الحدث الجديد ، خلا استقباله في اليوم السابق لرفيق العظم . . وفي هذا دلالة على أن اليقين لم يصل إلى ولاية سورية باستتباب الأمر لأصحاب الانقلاب إلا بعد عشرين يوماً من ورود البرقية الأولى .

والذي يدل عليه النص السابق أن الاحتفـال بالدستور كان خاصاً ، وفي دار أحد الوجهاء . ولم يكن احتفالاً رسمياً بالمعنى الذي نفهمه اليوم . فلا تجد ذكراً لحضور الوالي مثلاً ، أو المشير ، أو أعوانهما ، أو أحد من ذوي المراكز الرسمية في الدولة . وإنما ترى أن الحفل كان يحضره رجل اسمه (أسعد بك) وقـد لقب بأنه وكيل حزب الأحرار الشاهاني وأن القسم كان له ، وكأنه مفوض في سماعه .

ويلاحظ كذلك أن الخطباء أربعة ، أحدهم قاسم القاسمي ، وأن الموضوع الذي كتبه أخوه وتلاه هو (منزلة القانون من الدين) .

لقد عثرت مؤخراً على هذا الخطاب ، في مسودته الأولى ، بخط جمال الدين نفسه . والذي يبدو من قراءته في هذه الأيام ، أن الغرض منه إنما كان طمأنة العامة على دينهم ، وأن الأحداث الجديدة التي قامت في المملكة العثمانية ، ليس فيها ما يخالف الشرع ، بل على العكس ، هي مما أوجبه الدين وأمر به .

كان بعض رجال الدين ، كما عرفت ، مغلول العقل ، وكان بعضهم يعيش في ظل مبادىء الدولة التي حمت الظلم ، واضطهدت الأحرار ، فكان إلباً على الحرية ورجالها ، والظاهر أن هؤلاء أخذوا في التهويش على العهد الجديد باسم الدين ، فأخذوا يشيعون بين العامة أن الدولة تريد أن تخرج بالناس عن دينهم ، وأن القرآن والسنة لم يعد لهما من مكان ، وأن الحكم للدستور والقانون والنظـام ، التي هي من وضع البشر ، وعلى الجملة فإن أحكام الدين أضحت مرفوعة ، وأحكام البشر موضوعة .

وكان أكثر الناس يجهل معاني هذه الألفاظ الجديدة التي دخلت في المجتمع

الإسلامي : الدستور ، القانون ، النظام . وأخذوا في التساؤل عن حقائقها ومفاهيمها ودلالاتها ، وكاد الاضطراب يقع بين العامة . والمستغلون من المتمشيخين جادون في إذاعة أقوال السوء ، ونشر الأراجيف ، خوفاً على مقاماتهم التي احتلوها بغير استحقاق ، وإنما وصلوا إليها بالشقاق والنفاق . فرأى القاسمي أن واجبه يدعوه لأن يقف الوقفة التي تقتضيها المصلحة العامة ، وتوجبها رعاية حقوق الشعب ، وتوحي بها هذه البلبلة القائمة ، فيطمئن القلق ، ويهدىء المضطرب ، ويبعث الأمن في نفس الخائف ، لا سيا وأن كلمة منه ، وهو رجل الدين الثقة الثبت المعتمد ، خير من آلاف الكلمات تنطلق من السنة الرجال الرسميين ، أو الشباب المثقفين ، الذين نهلوا العلم في المدارس الحديثة . لهذا نراه يفتتح خطابه بقوله :

« كان سألني بعض أصحابي ممن لا أُنس له إلا بالفقه ، ولا مساس له
« بالقوانين وموضوعاتها ، عن منزلة القانون من الفقه ، ومداه عند العلماء ،
« فأجبته : بأن القانون والنظام والدستور ، وما شئت فقل ، يشبه الفروع المدونة
« في كتب الفقه ، التي مأخذها الاجتهاد والاستنباط من الأصول الأربعة :
« الكتاب والسنة والإجماع والقياس . »

بهذه اللهجة القوية المحكمة ، يبدأ القاسمي كلمته عن منزلة القانون من الدين ، فينزل الدستور والقانون والنظام منزلة الفروع من الأصول .

إن الحرية السياسية التي فتحت أبوابها للناس تتيح للقاسمي شيئاً جديداً ، لم يكن يجرؤ عليه ، لا في المجتمعات العامة ، ولا في دروسه ومواعظه ، وإن كان

قد أتيح له في كتبه ومؤلفاته ، ذلك هو الجهر بالاجتهاد ، الذي لم يكن لفظه محرماً ، ليس غير ، وإنما التفكير فيه .

وفي افتتاح القاسمي لخطابه بهذا التصريح القوي : « مأخذها الاجتهاد والاستنباط من الأصول . . . » دليل واضح على هذا الكبت الطويل الذي عاناه ، والذي طواه على نفسه ، أعواماً طوالاً ، من غير أن يقدر على الإفصاح عما يعتقد أنه الحق ، ودون أن يستطيع الدعوة له .

واستمع إليه بعد ذلك يقول :

« بيد أن أصحاب الفروع علماء فقط ، وأصحاب القوانين علماء أمراء ، « وقد ألفت الأنفس التسليم للفقهاء ، والتوقف فيما لغيرهم . . . »

إن لفظ « العلماء » الوارد هنا إنما يعني علماء الدين ، الذي يرعون حرماته ، ويلتزمون حدوده ، فهو يؤكد أن هذه القوانين إنما هي من وضع رجال لم يضيعوا دينهم ، ولم يتجاوزوا أحكامه ، وإنما هم « علماء أمراء » ! فلا تتوقفوا في الأخذ عنهم ، والتسليم لهم ، فهم إنما يصدرون عن الشريعة ، ولا يأتمرون إلاّ بأوامرها ، ولا ينهون إلا عن زواجرها .

ويستطرد القاسمي بعد هذا إلى الاستشهاد ببعض أقوال الأئمة والعلماء ، جرياً على العادة التي ألفها في جميع كتبه ، فيشيد بفضل الشيخ محمد الشطي الحنبلي ، وبيرم التونسي المالكي ، اللذين ألفا في تطبيق المواد النظامية على الفروع الفقهية ، وينقل عن القرافي قوله بأنه « اشتهر عن مالك القول بالمصلحة ، وأن مرد الشرع

إليها ، احتجاجاً بأن الله تعالى إنما بعث الرسل عليهم السلام لتحصيل منفعة العباد ، عملاً بالاستقرار ، فمهما وجدت مصلحة غلب على الظن أنهـا مطلوبة للشرع » .
وأخذ عن الشافعية قولهم بأن « اليقين لا يرفع بالشك ، والضرر يزال ، والمشقة تجلب التيـسير ، والعادة محكمة » . وأن الإمام عز الدين بن عبد السلام أرجع الفقه كله إلى قاعدتين : « اعتبار المصالح ، ودرء المفاسد » . وأن القاضي زكريا أرجع هذا كله إلى « جلب المصالح » . وأشار بعد هذا كله إلى أن الذي نقل هـــذه الأقوال هو العلامة العطـار ، في حواشي جمع الجوامع ، وهو كما تعلم ، من كتب أصول الفقه المعتمدة .

ثم عقب على هـــذا بأقوال الطوفي والشاطبي ، وهي شبيهة بمـا أسلفنـا ، وأضاف إليها :

« وبالجملة فعلماؤنا وفقهاؤنا ، وأئمة الأصول من السلف الصالح رضي الله عنهم ،
« سبقوا كل واضع قانون ونظام إلى اعتبار رعاية المصـالح ، التي لا قوام للأمة
« إلا بها . إنما ذكرت ذلك وكررته ليخفّ أمر القانون على من لم يسمع به ،
« ويظنه أمراً نـكراً ، وما هو إلاّ فروع ومسائل ، قال بمثلها من تقدمنا من
« الفقهاء — كما أوضحنا — . »

أرأيت إلى هذا الإيضاح السافر ؟ إن فريقاً من الناس لم يسمع بلفظ « القانون » ، ويظنه « أمراً نـكراً » . إن هذا الظن لم يكن إلا وليد الفرقة التي لم يخل منها عصر ولا مصر ، تعادي النهضات ، وتقف في وجه كل تطور ، ولـكن إلى حين ،

ثم لا تلبث أن تنقلب على عقبيها ، وتمر القافلة في هديرها ، تذهب بالزبد ، وتبقي في الأرض على ما ينفع الناس .

ثم يعرض القاسمي بعد هذا إلى الفرحة التي عمت الناس ، « فوجوههم باشة ، وأنفسهم هاشة ، والصدور مفعمة بالمسرات ، والجوانح تهتز بالبشارات . . . » وينحي باللائمة على الظلم والظالمين الذين أرهقوا أحرار الأمة وخيارها بآلام النفي والسجن والعذاب والاضطهاد ، ويحمد الله على الخروج من تلك الظلمات المدلهمة ، إلى نور الحرية ، حرية العلم ، والجهر بالحق . »

ويخشى القاسمي على الأمة أن تسيء فهم الحرية ، وأن تنطلق في تطبيقها إلى غير ما أريد لها ، فينبه إلى آدابها وحدودها ، فيقول :

« إن الأنفس كادت تثملها لفظة الحرية ، وتسكرها نشأتها الفكرية ، ويحق « لها ، فإن لذة الإطلاق إثر التقييد ، والتحرير بعد التعبيد ، لذة تفوق التوصيف ، « وتفوت التنويه بها والتعريف . إلا أن العاقل يعلم أن الحرية إذا لم تكن مقيدة « بالآداب الشرعية ، مصونة بسياج الأخلاق المرعية ، وإلا فليست هي الغاية « المتوخاة . إذن لا بد من مراعاة أدب الدين ، والتمسك بعرى اليقين ، والاهتداء « بهدى الأنبياء والمرسلين ، وأتباعهم من الحكماء الناصحين . »

انظر إليه كيف يعذر هؤلاء الذين استيقظوا من رقدة كادت تكون رقدة العدم ، وكيف يغوص بنظرات نفسية عميقة على تحليل هذا الفرح الذي عم الناس كافة ، ولكن لا يفوته مع ذلك أن ينظر إلى الحرية النظرة الصحيحة التي أقرها جميع المفكرين المصلحين ، إنها ليست الحرية المطلقة التي ليس لها رادع أو وازع ،

والتي لا تعرف القيود ولا الحـدود ، بل إنهـا الحرية المقيـدة بالآداب الشرعية ، والمسيجة بالأخلاق المرعية . ويعود ليؤكد وجوب مراعاة أدب الدين ، والتمسك بعرى اليقين . . . .

ولا يخامرني شك في أن نظر القاسمي إلى الحرية والآداب والأخلاق والدين واليقين ، هذا النظر العلوي ، كان أبا عذرته ، ومن نسيج أفكاره ، لأن القاسمي كان يجهل اللغـات الأجنبية ، فاطلاعه الشخصي على ما كتب الفرنجة في هـذا الموضوع ، في القديم والحديث ، غير متيسر ولا ممكن ، أللهم إلا أن يكون قد نقل ذلك في مجالسه ، من أحد طلابه أو أصدقائه ، ولأن موضوع الحرية لم يتناوله أحد من الباحثين قبله في لغة العرب ، لامتناع ذلك على الناس عدا ما ورد مفرقاً في كتابي الكواكبي رحمه الله : « طبائع الاستبداد ، وأم القرى » ، وما ورد في « العروة الوثقى » . ولا غرابة في تحديد القاسمي للحرية على النحو الذي رأيت لأنه هـذا هو الذي يوحي به العقل السليم ، ويفرضه المنطق القويم ، فمـا بالك بعقل القاسمي ومنطقه ؟ !

ويعود القاسمي بعد هذا ، ليضع نظام الدولة الجديدة ، والأسس التي ينبغي أن تقوم عليها ، فيقول :

« هل يخفى على أحـد سيرة النبيين من الصدع بالحق ، والقول بالصدق ، « ونبـذ الهوادة ، ورفض المحاباة ، وأن لا يخاف في الله لومـة لائم ، وأن « يقام بالعدل . »

كان من الطبيعي أن يسترشد القاسمي بالنبيين وسيرتهم ، لإقامة الدولة الجديدة ،

فسيرتهم هي المثل الأعلى الذي ينبغي أن ينسج على منواله . إنه لا يستشهد بما قام في الدول الأخرى التي نقل الناس أنباء مدنيتها ، ومبادىء حضارتهـا ، وهي وإن كانت مشابهة من بعض الوجوه إلى ما أقره القاسمي ، إلا أنها عيال على النبيين ، في الصالح من خططها ومناهجهـا ، فما له ولهذه الدول يستهدي بهديها ، وأمامه سـيرة النبيين ، تفتح باب كل خير ، وتهـدف إلى كل حق ، وتدعو إلى كل فضيلة .

« الصدع بالحق ، والقول بالصدق » دعامتان أساسيتان لإقامة الدولة الجديدة ، لا بد من توفرهما ، حتى تـكون مراقبة المحـكوم للحاكم ممكنة ، وحتى تـكون أمور الدولة وشؤونها في محورها المستقيم .

« نبذ الهوادة ، ورفض المحاباة » خلتان ألفت نقيضهما الدولة السابقة ، فقامت مصالح الخلق على الفساد ، وارتفع الوضيع ، واتضع الرفيع .

أما « أن لا يخاف في الله لومة لائم ، وأن يقام العدل » ، فهـذا ما يجعل الدولة مستقرة الأركان ، مدعمة البنيان ، صالحة في كل الأزمان .

ويدلف القاسمي إلى وضع الأسس القويمة للمجتمع الجديد فيقول :

« وأن يجاهد ببذل المال ، إذا أعوز الحال ، وأن تعف الأبصار عن الحرام ، « وتكف الأسماع عن قول الزور ، وتطلق الألسنة بالخير ، وتصمت عن الباطل » .

هذه هي الدعوة الأخلاقية السامية التي أطلقهـا القاسمي في المجتمع الجديد ، ضمت رفيع الفضائل ، وكريم السجايا ، التي ينبغي أن يتحلى بهـا الأفراد جميعاً ،

فيستقيم المعوج ، ويعم التسامح ، ولا تنطق الأفواه إلا بالصدق ، ولا يصل إلى الأسماع إلا الحق .

ويحس القاسمي آلام الجهل التي أمضت المجتمع الإسلامي ، فيدعو إلى العلم والتعلم هذه الدعوة الحارة :

« وأن ينهم في العلم ، ويكبّ على تحصيله ، ويسعى الليل والنهار لنيل
« حقائق جمله وتفصيله . العلمَ ! العلمَ ! ما سادت أمة إلا بالعلم ولا ارتفعت
« إلا بالعلم ، ولا استفحل شأنها إلا بالعلم ألا فأعملوا هممكم على اكتساب العلم ،
« والازدياد من العلم ، والاجتهاد في التعلم والتعليم » .

ما أعجب هذا التأكيد المتتابع في زماننا هذا ! إن لفظ « العلم » ورد تسع مرات في ثلاثة أسطر . ولكنه لم يكن عجباً يوم ألقي هذا الخطاب ، وإنما ضرورة تدعو إليها الأوضاع القائمة ، والظروف المحيطة . إن القاسمي يعني هنا « العلم » بمعناه الواسع ، بما حوى من ألوان المعرفة الانسانية على اطلاقها ، ولم يكن يريد العلوم الدينية دون غيرها .

ويعود القاسمي قبل ختام الخطاب إلى واجبه الأصلي الذي عاش حياته كلها في سبيل أدائه ، والوصول إلى أهدافه ، إنه الدين الذي هو الأصل ، وما عداه فمن الفروع ، فيقول :

« واعتصموا بحبل الدين ، فما أربح تجارة من تمسك بأدبه ، واعتصم من
« أصله بأقوى سببه ، فبالدين يقوى النجاح ، ويكمل الفلاح » .

ثم يختم خطابه بهذه الدعوة الوطنية الصادقة :

« وبالختام أقول : إننا قـد دخلنا الآن ، والحمد لله ، في حياة جديدة ،
« ومنحنا نعمة حميدة . فيجب علينـا أن نخصص للوطن أنفسنا ، ونسعى جهدنا
« لاعلاء شأنه وتعزيزه ، حقق الله الآمال » .

هذه النفثات الرائعات ، التي جرت على قلم القاسمي في هذا الخطاب التاريخي ، صدى للآلام التي عاناها ، وصورة للحياة المريرة التي عاشها ، ومرآة لكثير من من الأفكار التي سعى لتحقيقها ، وعلاج للمجتمع الذي أنبته . إن قيمة هذا الخطاب تظهر للمؤرخين والسياسيين والأخلاقيين والمربين ورجال الدين جميعاً . وما أظن أن في تاريخ تلك الفترة وثيقة مشابهة لهـا ولا مقاربة . ولقد عدت إلى صحف تلك الفترة ، على قلتها ، وهي المرجع الوحيد في الموضوع فلم أجـد فيها إلا قبساً ضئيلاً من نور هـذا الخطاب ، لقد حامت حول بعض المعـاني ، دون إفاضة ولا إحكام .

وبعد ، فلمـاذا آثر القاسمي أن يتلو الخطاب أخوه ، ولم يقف أمام الجمهور ليتلوه بنفسه ؟

الواقع أنني لم أجد جواباً مقنعاً عن هـذا التساؤل ! لست أشك أن أثر الخطاب في الناس ، لو أن القاسمي تلاه بنفسه ، كان أعمق وأبلغ . ولست أشك أن القاسمي كان قادراً على الخطابة ، كما كان قادراً على الكتابة ، فهو قد خطب الناس سنوات في المساجد ، وقد ألّف كتاباً في الخطب المنبرية ، وأكد الذين عرفوه أن اللغة العربية كانت تنثال على لسانه كالعـذب السلسل ، من غير لكنة ولا ضعف

ولا لغو ولا قلق . وأن اختياره للألفاظ ، وتركيبه للجمل ، واتساق المعـاني ، كل هذا كان من صفاته التي تفرد بها بين رجال الدين . فمـا باله يتولى الـكتابة ، ويترك لغيره الخطابة ؟

أظنه التواضع ، والابتعاد عن كسب اعجاب الجماهير ، والزهد بالشهرة .

* * *

هذا وقد وردت في مذكرات القاسمي قبل استئناف الحياة الدستورية (١٣٢٦ — ١٩٠٨) نتف كانت أشبه بالإرهاص للحدث العظيم الذي وقع . فلقد دون يوم الخميس (١٧ ذي الحجـة ١٣٢٤ — ٣١ كانون الثاني ١٩٠٧) هـذه الـكلمة الرائعة ونسبها للمرحوم الشهيد عبد الحميد الزهراوي :

« لـكل شيء زمن ، ولـكل عمل ثمن ، ومن لا يستطيع نشر مطويّ
« الحقائق ، حسبه أن لا يطوي منشورهـا ، ومن لا يقوى على نصر مظلومها ،
« يكفيه أن لا يظلم منصورها ، بهذا سبقت الوصية ، وهي أعدل قضية » .

كذلك دون في يوم السبت (٢٣ ذي القعـدة ١٣٢٥ ـــ ٢٨ كانون الأول ١٩٠٧) هذه الفريدة :

« قال بعضهم : إن للاضطهاد جاذباً يجذب كبار النفوس إليه ، كأن الطبيعة
« البشرية متى رأت ألوفاً من الناس الذين هم أحط منها شأناً وعقلاً ، يقومون
« عليها ، لمقاومة عظمتها ، يحلو لها أن تقتحم عَددهم وعُددهم ، اعتماداً على أن
« الحق في جانبهـا ، وأنه إذا خذل وخذلت في سـاعة ، أو يوم ، أو سنة ،
« أو قرن ، فانها تنال معـه اكليل النصر في المستقبل الأبدي » . قال :
« الحقيقة متى وجدت طريقاً ، جرت فيهـا بقوة الصاعقة ، فلا يقف في وجههـا

« شيء . وما طريق الحقيقة سوى القوى الأدبية العظيمة التي هي كل الإنسانية
« في الإنسان ، والتي تدفع النفس إلى العمل الحر ، والقول الحر ، مهما
« كانت النتيجة » .

★ ★ ★

لقد شغلت أفراح الدستور الناس زمناً ليس بالقصير ، ولقد سمعت أن شركة الترام أباحت للناس الركوب في حافلاتها مجاناً عدة أيام ، ولكن القاسمي لا يشير إلى هذا النوع من المباهج ولا يسجل شيئاً عنها في مذكراته .

والذي يبدو أن القاسمي قد أعرض عن هذه المظاهر ، وانصرف إلى عمله الذي خلق له . فلا ترى في مذكراته شيئاً عن وصف الأفراح التي قامت في البلاد ، وإنما اكتفى بتسجيل ما رآه هاماً في الموضوع .

فاذا قدم صديقه المرحوم رفيق العظم من مصر ، بعد أن لجأ إليها ثلاث سنوات ، هرباً من ظلم الدولة العثمانية ، سجل قدومه بهذه اللغة الصحيحة الساذجة[1] :

« استقبلنا البارحة بعد العصر صديقنا رفيق بك العظم قادماً من بيروت من مصر ،
« وكان متغيباً فيها نحواً من ثلاث سنين ، على أثر اضطهاد أرباب الأفكار ،
« فاستصحب له أحد رفقائه من ضباط العسكرية (الموزيكا) العسكرية ،
« لتصدح عند قدومه ، فلما وصل القطار ، صدحت ، وهتف إخوانه ، بعد
« أن حملوه على أكفهم إلى العربة ، وألقى خطاباً شكر فيه استقبالهم
« وحفاوتهم به » .

والظاهر أن القاسمي يبحث عن كلمة « دستور » في المعاجم ، فلا يرى لها

---

(١) ١٥ رجب ١٣٢٦ — ١٢ آب ١٩٠٨ .

أثراً ، فيسأل فيجاب ، أو يعثر في إحدى المجلات أو الصحف على معناها فينقله في مذكراته [1] :

« الدستور معرب من الفارسية . وهو مركب من (دست) أي قاعدة ومن « (ور) بمعنى صاحب ، وجمعه دساتير . والدستور الآن اسم لمجموعة قوانين ونظامات « وفرمانات مؤلفة من أربعة مجلدات بالتركية » .

وقد اعتاد الناس قراءة المولد في المناسبات ، والظاهر أن احتفالاً شعبياً ورسمياً قد اقيم في تكية السلطان سليمان ، قرأ فيه المولد النبوي الشيخ عبد الرزاق البيطار ، عن روح الأحرار ، فيبادر القاسمي لتسجيل هذه الحادثة [2] :

« قرأ اليوم ، بعد الجمعة ، المولد النبوي عن روح الأحرار الشيخ عبد الرزاق « أفندي البيطار ، بحضور الوالي والقاضي وأعيان البلدة في تكية السلطان سليمان . « وبعد ذلك استرحنا تحت الرواق ، وتناولنا (الضوندرمة) ، وسمعنا خطباً وقصائد « تليت في تأبين شهداء الأحرار ، وفي الحرية » .

وكان القاسمي يطبع كتابه (دلائل التوحيد) قبيل اعلان الدستور خفية ، فلم يكد يتم طبعه حتى وقع الحادث العظيم . فاذا هو يسجل في آخر كتابه هذه الخاتمة الرائعة [3] :

« وههنا وقف بنا القلم ، فالحمد لله على ما ألهم ، والشكر لله على ما أنعم .

---

(١) ٢٠ شوال ١٣٢٦ – ١٤ تشرين الثاني ١٩٠٨ .

(٢) الجمعة ٢٣ جمادى الأولى ١٣٢٧ – ١١ حزيران ١٩٠٩

(٣) ص ٢٠٥ وما بعدها من الطبعة الأولى عام ١٣٢٦ هـ – مطبعة الفيحاء بدمشق .

وقد بلغت مدة تسويده أربعة أشهر ، أولها العشر الأخير من رمضان عام ١٣٢٥ .
ولما أعدت النظر في تنقيحه طرأ ما أوقف النظر فيه شهري صفر وربيع ، أوأخّر ،
(أجل ! المصادرة ، والاضطهاد ، وبلوغ الروح الحلقوم من الاستبداد !)[1] .
ثم منَّ الله ببزوغ ما احتجب منه في ربيع الثاني ، فرجعت إلى إتمام تبييضه ،
حتى كمل في أواخر جمادى الثانية سنة ١٣٢٦ ، في الأسبوع الذي مُنحت فيه
الأمة العثمانية العمل بالدستور ، المبنيّ على قواعد العدل ، واحترام الشورى ، ونشر
العلوم ، وتحرير الأنفس من قيود الاستعباد . فللّه ذلك الأسبوع الذي قلب نظام
الملك ، وغير هيئة البلاد ، وبدل الأرض غير الأرض : إذ انسلخت عنها حياتها
الأولى ، حياة الخمول والذل ، والضعف والجهل ، واستبدلت بحياة العز والنشاط ،
والقوة والعلم والارتباط . فلك الحمد ربنا على سحائب مكروه أجليتها ، وغوامر
كربات كشفتها ، وسماء نعمة أمطرتها ، وجداول كرامة أجريتها ، وناشئة رحمة نشرتها ،
وجُنَّة عافية ألبستها . اللهم ولك الحمد على ما أيدتنا بقوتك ، وشددت أزرنا
بنصرك ، وأخزيت من انتضى سيف عداوته ، وشحذ ظُبَةَ مديته ، فأعليت
كعبنا عليه ، ووجهت ما سدد من مكايده إليه . . . » .

الدستور

ورأيت بين أوراق القاسمي كتاباً غير مؤرخ ، من رجل اسمه : حسن بن
مصلح ، أحد أعضاء الجمعية الدينية الاسلامية الكائنة بمصر ، المتجول بسورية ،

---

(١) راجع بحث (اضطهاده) من هذا الكتاب ، ففيه تفصيل لهذا الايجاز .

ولعل الاسم مستعار بدليل أن الكاتب يطالب بارسال الجواب إلى رجل في مصر ، لا يعرف الكاتب ، ولكن الكاتب يعرفه . والظاهر من هـذا الكتاب أنه اعتراض على مقال نشره القاسمي في جريدة (ثمرات الفنون) التي كان يصدرها في بيروت الشهيد الشيخ أحمد حسن طبارة ، عنوانه (بلى ! من سبر عرف) . وخلاصة ما جاء في الكتاب أن :

« النظام أو القانون أو الدستور ، لا يطابق جل الأحكام الشرعية ، حيث لا يوجد به ذكر حد من الحدود الشرعية ، ولا يطالب باقامتها ، ويبيح الربا ، ويحصله لصاحبه ، ولا يقبل الشهادة من الأقارب بلا استثناء ، ويجوّز تولية الكفار أمر المسلمين ، وكل هذا يخالف الشرع . . . » .

ويضيف الكاتب قوله :

« اننا ننصح جمال الدين القاسمي ونقول : لا يحق له أن يذكر مسألة في الجرائد مناقضة للشرع ، لأنه من العلماء . إلا أن عدم الاطلاع من المذكور على القانون ، وذكر بعض المنافقين ممن يتدين بدينٍ أمام حضرة الأستاذ بعض مواد من القانون موافقة للشرع جعله يحسب أن كل مواده مطابقة للشرع ، وهذا خلاف الحق . . . والأمل من جمال الدين ، وعلو همته ، أن ينشر ضد مـا ذكره في (الثمرات) في الجرائد . . . » .

وعلى الرغم من أن أسلوب الكتاب يدل على أنه لم يصدر عن ندّ للقاسمي ، لا سيما وأنه قد تضمن ألفاظاً لا تليق بالعلماء ، فالظاهر أن القاسمي قد وجد من

واجبه أن يجيب سؤله ، وأن يكتب بما يوضح له ما استغلق عليه . فقد وجدت بين أوراقه بحثاً جاء فيه :

أصل وضع الدستور

« الدستور أو القانون : عبارة عن كتاب يحوي فروعاً ومسائل من أحكام المعاملات الفقهية (لا العبادات) ، وتدبير المملكة ، وقوانين الحسبة ، وقيادة الجيوش ، وتوسيع العلوم والمعارف ، وحفظ الأموال ، والأعراض ، والأنفس ، وسائر الحقوق ، ومنع التعدي ، والاغتصاب ، واستبداد الحكام ، وكف يد المرتشين ، والمفسدين ، وجعل الحكومة شورى ، يرأسها سلطانها ، بمعنى أن ينتخب من كل بلد يحوي عدداً عديداً من الأنفس رجالاً ذوي كفاءة ، ولياقة ، ومعرفة في أحكام المعاملات ، وتسهيل الإصلاحات ، ثم يجتمع جميع من انتخب من أولئك الرجال الأخيار ، في مجلس يرأسه السلطان ، فيتفكرون في إصلاح المملكة من وجهة إدارتها العامة .

« أصل من تفكر في أن تكون الحكومة شورية ، رجل من المصلحين ، علم مصداق ما ورد عن النبي ﷺ ، من قوله : « الخلافة بعدي ثلاثون سنة ، ثم تكون ملكاً عضوضاً » ، فرأى أن الملوك ، بعد الخلفاء الراشدين المهديين ، استبدوا بالأمر استبداداً نزعوا منه أمر الشورى ، الذي أشار له القرآن الكريم بقوله تعالى : « وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ » . وبقوله تعالى عن بلقيس : « ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّىٰ تَشْهَدُون » .

« ومعلوم أن الحاكم إذا استبد ، ولم يَزَعْهُ عن الظلم تقوى ولا صلاح ، أهلك الحرث والنسل . ولئن وجد في بعض العصور خلفاء صالحون ، كعمر بن عبد العزيز ، ومحمود نور الدين ، ويوسف صلاح الدين الأيوبي ، وأمثالهم ، فهم من النادر . وإلا فمن سبر سيرة الملوك المستبدين ، يجد أن انفرادهم برأيهم ، ورفعهم للشورى ، قهقر الأمة الإسلامية ، وجعلها أضعف الأمم ، بعد أن كانت أقواها وأغناها ، فلذا كان يختلج في فؤاد المصلحين من المحكومين محبة نزع سلطة الواحد ، وجعل الأمر شورى ، يديره الخيار الذين يختارهم أهل كل بلد منهم ، ليرفعوا عن الأمة المظالم ، ويدفعوا عنها كيد العدو ، وليطالب كل فرد من أفراد الأمة بحقه ، ويواجه فيه السلطان فما دونه ، ولا يخاف بأسه ومكره ، وليقوم الناس بالقسط ، وليتآمروا بالمعروف ، ويتناهوا عن المنكر ، ولينطق بالحق ، ويصدع به كل من علمه ، غير وجل ولا هياب . فإن القانون يبيح كل ذلك لكل أحد ، بلا نكير ، ولا يجوّز التعدي على أحد بحبس ، ولا غرامة ، إلا إذا تعدى على حقوق الغير . ولا يخفى أن من أعظم النعم والرحمة على الأمة ، أن يرتفع عنها ظلم الأمراء ، واستبدادهم بأهوائهم ، وضغطهم على غيرهم .

« وأما الحرية التي وجدت في القانون ، فمعناها أن الأديان والمذاهب أهلها أحرار ، فالنصراني حر في دينه ، لا يمس فيه ولا يؤذى ، وهكذا اليهودي ، لأنهم أهل ذمة .

« وهكذا من أراد أن يتمذهب بأي مذهب كان من مذاهب الإسلام الأربعة المعروفة وغيرها ، لا يصدُّ عنه ، لأنه ما دامت الأصول محفوظة ، أعني أنه يأتي

بالشهادتين ، ويقر بأركان الإسلام ، فله أن ينتحل أي مذهب كان ، وقد قال تعالى : « لَا إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ » .

« وليس معنى الحرية أن يفعل من المحرمات ما شــاء ، مباحةً له ، ولو وجد شيء منه يخـالف ما تقرر في كتاب الله تعـالى وسنة رسول الله ﷺ ، المتواترة ، فهو مردود .

« ولذا كان واضع القانون يجوّز تغيير كثير من فروعه ونظاماته ، بحسب ما تدعو إليه الحاجة ، ولا يلزم العمل بها دائماً . ومعلوم أن أصل ذلك كله رعاية المصالح ، ولذا كان مرد الفقه إلى المصالح .

« وقد ألف الإمام نجم الدين الطوفي رسالة في (المصالح المرسلة) ، ردّ سائر فروع المعاملات إليها . وكذلك ابن القيم ، له في كتابه (السياسة الشرعية) اعتناء بالمصالح ، وكذلك شيخه الإمام تقي الدين له جنوح إلى رعاية المصالح التي تقتضيها سياسة الأمة في بعض المسائل . وقد ألف من المتأخرين الشيخ محمد الشطي كتاباً في تطبيق القوانين الوضعية على المسائل الشرعية ، وهو مطبوع متداول .

« وبالجملة فالدستور لا ينافي الدين ، بل يؤيده ، ويحفظ الحقوق بطريقة لا أقوى منها . وموضوعه بالإجمال فروع اجتهادية لصلاح الأمة وسياستها ، ولتقويتها ، وإعلاء شأنها ، مع حفظ الدين ، والآداب ، والأخلاق . فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها » . انتهى كلام القاسمي .

ولست أدري ، والثمرات ليست بين يدي ، هل كان كلام القاسمي جواباً عن كتاب حسن بن مصلح ، أم أن كتـابه كان رداً على كلام القـاسمي . ولـكن

الذي أدريه هو أن معالجة القاسمي لموضوع الدستور والحرية ، لا تخرج من حيث المبادىء عما تقرؤه اليوم في كتب الحقوق الدستورية .

ولقد كتب القاسمي ما كتب ، في عصر لم تكن فيه هذه الكتب قد عرفت ، ولا الجامعات قد أنشئت ، ولا كليات الحقوق قد أسست . وإنما عرف هذه المبادىء التي قرأتها من فطرته السليمة ، ومن مطالعاته المتفرقة في المجلات العلمية كالمقتطف والهلال ، ومن مذاكراته مع أنبه شباب العصر (كما كان يسميهم) ، فجاء بهذا الوصف للدستور ، الذي جعله حافظاً لحقوق الأفراد كافة ، يستطيعون معه أن يواجهوا السلطان فما دونه ، من غير أن يخافوا بأسه ومكره . . . ! !

أما الحرية فقد عرف حدودها ، فأوقفها عندها ، ولم يتعدها .

* * *

أمانته العلمية

ليس غريباً أن ينسب القاسمي كل قول ورد في آثاره إلى قائله . فذلك أقل ما ينبغي على العالم الذي استفاد من كتب من سبقه من الباحثين . ولكن القاسمي لم يقف عند هذا الحد ، وإنما ذهب إلى ما هو أبعد منه : فلقد يرى الرأي ، وهو يعتقد أنه غير مسبوق إليه ، أو لم يكتب في موضوعه ، أو أن الفكرة لم ترد على قلم أحد من المؤلفين — وهو في هذا كله لا يدعي الإبداع ولا الابتداء — ثم يرى أن غيره قد سبق إلى ما يشابه فكرته ، فيسارع إلى تدوين ذلك على نسخته الخاصة . رأيت هذا في كتاب الأجوبة المرضية قال في الصفحة / ١١ / : « الدليل والبرهان ما اطمأنت عنده النفس ، وأنتج اليقين ، ولم يوجد فيه نظر ما . » وإذا به يسطر هذه الجملة بالقلم الأحمر ، ثم يكتب في هامش نسخته الخاصة بالحبر الأحمر ، زيادة في التنبيه وتوجيه النظر :

« رأيت بعد كتابة هذا ما يقرب منه للامام السيد صديق حسن خان ، عليه الرحمة والرضوان ، في باب الشفعة ، من كتابه الروضة الندية قال : — وساق قول الصديق — ثم عقب عليه : فالحمد لله على الموافقة ، فإني لما وردت على قلبي هذه العبارة ، ما علمت أني سبقت بمن بحث في مثلها . » اهـ جمال الدين .

لم يكن تدوين القاسمي لهذه الجملة إلا لإبراء النفس من الغرور ، ولحمل القلب على الصفاء ، ذلك بأنه ليس في كتاب الأجوبة المرضية ، ولا في غيره من كتبه ، ما يشير إلى أن هذه الفكرة أو تلك ، لم يسبقه إليها أحد ، كذلك لم يناقشه أحد في هذا الأمر ، وإنما حاك ذلك في صدره ، وكأنه أصابه شيء من العجب ، فلما عرف أن غيره قد سبقه إلى ما قال ، جنح إلى إعلان ما حدثته به نفسه ، ثم سجل الفضل لأهله ، وحمد الله على الموافقة .

* * *

حب لدمشق

أحب القاسمي المدينة التي ولد وعاش فيها . وقـد ألف في تاريخها كتاباً في أربعة مجلدات ضخام ، سماه « تعطير المشام ، في مآثر دمشق الشام » . بدأ فيه عام ١٣٠٨ هـ وله من العمر خمس وعشرون سنة ، وأتمه عام ١٣١٩ هـ . فهو من الكتب التي له فيها وقفة ونظر — على ما قال في مذكراته — ، لأنه مما وضع قبل عام ١٣٢٠ هـ . ونحن نقتطف هنا فقرات من مقدمات الكتاب تدل على وفائه لبلده ، ورعايته لعهده ، قال [١] :

« لا ريب أن دمشق الشام ، هي في وجنة الدنيا أزهى الشام . . . فهي الأرض المقدسة ، والبلدة الطيبة التي على طالع المسرات مهندسة ، وعلى أشكال المحاسن مؤسسة . . . »

« لا سيما وأداء حق الوطن ، بنشر محاسن ما ظهر منه وما بطن ، من آيات الفتوة ، التي هي بلسان الفضل متلوة . وقد قالت الحكماء : حرمة بلدك عليك ، كحرمة والديك ، فإنك رضعت ماءها ، وطعمت غذاءها ، ومن كرم المحتد ، الميل إلى موضع المولد ، لقولهم : الكريم يحن إلى وطنه ، كما يحن النجيب إلى عطنه . . . »

---

(١) مقدمة الجزء الاول من تعطير المشام

آراؤه وأفكاره

ان رجلاً كالقاسمي ، عاش حياته للعلم ، فلم يعرف غير القراءة والإقراء ، والتدريس والتأليف ، ولم ينصرف إلى أي عمل من أعمال الدنيا التي تشغل الناس عادة عن الحياة العقلية ، وتصرفهم عن شؤون الفكر ، وهو إلى ذلك دائم الاهتمام باصلاح المجتمع الإسلامي وترقيه ، نَهِمٌ إلى تذوق ألوان المعرفة المنشورة في عصره ، طليق العقيدة من قيود الأوهام والخرافات والأباطيل ، صحيح التفكير ، متحرر مما جمدت عليه الكثرة من رجال الدين . . . . . إن رجلاً هذا شأنه ، وقد ترك قرابة مئة مؤلف ، حَرِيٌّ أن تجد له من الآراء والأفكار ، ما يضيق عن إحصائه مثل هذا البحث .

ولقد مر معك في بحث « طريقته في التأليف » أنه اعتمد في كثير من كتبه على ما كتب غيره من المؤلفين السابقين . ومن الواضح أن كل قول نقله ولم يرد عليه أو ينقده ، فهو قوله . والرأي الذي حواه هو رأيه . ولم أشأ أن أعود إلى هذه النقول لأستخلص منها الآراء والأفكار التي دعا إليها ، وعاش في سبيل نشرها ، وإنما رأيت أن أجمع طائفة من أفكاره التي خطها بقلمه :

١ — إما لأنها كانت غريبة في العصر الذي عاش فيه ، ولو كانت في هذه

الأيام من البدهيات . لأنها تعطي صورة لرجل الدين الذي حاول أن يتعرف إلى كل مجهول أو غريب .

٢ — وإما لأنها تدعو إلى إصلاح الدولة أو المجتمع أو الأسرة أو الفرد .

٣ — وإما لأنها كانت جريئة إلى الحد الذي لم يكن مألوفاً في زمانه .

٤ — وإما لأنها تضمنت حكمة تدل على عقل القاسمي وسمو تفكيره .

ولغير ذلك من الأسباب التي ستلحظها حين الاطلاع على هذه الباقة الفريدة بزهرها وعطرها .

وأؤكد أن هذا البحث ليس استقصاءاً لآراء القاسمي وأفكاره ، فأنا لا أستطيع أن أزعم ذلك ، ولا أعتقد أن القارىء يطمع في أن يطلبه مني . فاذا كان الأستاذ مصطفى الزرقاء[1] — وهو من هو في علوم الشريعة — يرى أن قراءة « محاسن التأويل » وحده تحتاج إلى عمر كامل ، فمن أين لي أن أضطلع باستقصاء آراء رجل ترك عشرات الآلاف من الصفحات وحسبي أنني قد قيدت بعض الأوابد التي مرت بي ، خلال قراءتي لكتبه وآثاره :

أولا — الدين

آ — الدين مدرسة أخلاق :

« دين الأمة هو مدرسة أخلاقها ، ودستور عقولها ، ومصباح حياتها ، وقانون وجودها ، فلا تشرف عواطف الأمة وتتهذب أميالها ، وتتزكى سرائرها ،

(١) رئيس قسم القانون المدني في كلية الحقوق بجامعة دمشق ، وأحد كبار المؤلفين في الشريعة الاسلامية .

إلا بالعقائد الصحيحة . ولا يصان نظامهـا من الخلل والتفرق إلا بالدين . ولا يندفع خطر الفوضي التي تهوي بالشعوب من الهلكة إلى مكان سحيق إلا بالإيمان الصحيح فبقدر تمكُّن العقيدة من نفوس أفراد الأمة تكون سعادتهم ، وقوام حياتهم . »[1]

ب ـ دعوة الدين للوحدة لا للتفرق :

« إن الآيات الكريمة تنهى عن التفرق والتحزّب في الدين ، وتنبه على أن الله تعالى لم يشرع الدين لِيُتفرق فيه ، ولكن ليهدي إلى اتفاق العمل في جميع مناحيه[2] . »

« والآيات الكريمة التي تعيب على أهل الدين ما نزعوا إليه من الاختلاف والمشاقَّة ـ مع ظهور الحُجَّة ، واستقامة المَحَجَّة ـ معروفة لكل من قرأ القرآن ، وتلاه حق تلاوته . ولا شك أن بتطهير النفوس من دنس التحزب والتفرق ، تقوى رابطة عزة ائتلافها ، وتنكشف غشاوة الفشل ، وتتجدد بعوامل الإخاء المبين صلة اعتصامها بحبل الله المتين[3] . »

ج ـ محاسن الاسلام وخصائصه :

« إن من محاسن الإسلام انطباق أصوله على نواميس العمران ، ووفاء قواعده بحاجيات كل زمان ومكان ، وابتناء أحكامه على جلب المصالح ، ودرء المفاسد ،

---

(١) دلائل التوحيد ص ١٣٤ طبعة دمشق .

(٢) اقامة الحجة ص ٤

(٣) اقامة الحجة ص ٥

وتميزه برفع الآصار والأغـلال ، وفتحه أبواب اليسر والتيسير ، وسـده مسالك الحرج والتعسير [4] . »

« ومن خصائصه إرشاده لمناهج الاستنباط ، وموارد التفقه والاستخراج ، حتى سهل على راسخيه رد كل ما ينفع النـاس إلى نصه ومحكمه ، أو مجمله وظـاهره ، وتطبيقه على سماحته وتوفيقه ، على يسره ورحمته [1] . »

« إن دين الإسلام تكفل بما فيـه اليسر ورفع الحرج في سـائر الأحكام . وقد فتح من أبواب التسهيل في الأمور ، ما لا يوجد أيسر منه ولذلك كان رحمة وشفاء لما في الصدور [2] . »

ثانياً ـــ العقل

آ ـــ مطابقة الشرع للعقل :

« العقل حجة الله القـاطعة البالغة ، وأصل براهينه الساطعة الدامغة . والنقل لا يأتي بما يناقض العقل ، وإنما يرد بما يزكي قضـاه ، ويصقل مرائي أحكامه أحسن صقل [3] . »

وأضاف في حاشيه الصفحة نفسها :

« الذي عليه المحققون أن جميع الأحكام المشروعة ، أصولها وفروعها ، كلياتها

(١) ارشاد الخلق ص ٣

(٢) المسح على الجوربين ص ٣ طبعة دمشق .

(٣) دلائل التوحيد ص ١٢٩ طبعة دمشق .

وجزئياتها معقولة المعنى ، وأن حكمها وأسرارها إما مذكورة بالعبارة أو الإشـارة ، أو بالتنبيه على أمثالها ، أو مطوية ، إحالةً على اقتضاء العقل السليم ، أو الفطرة ، أو رعاية المصلحة . وأن عدم العلم ليس علماً بالعدم . »

ب — العقل والعلم :

« مما يزين العالم كبر عقله ، وشدة رزانته ، وحصافة لبه . ومما يشينه ويزري به طيشه وحمقـه ، وخفته وتسرعـه ، فتراه بذلك يهوي من حالق ، وإن ناطح الجوزاء بعرفانه بحق أو بغير حق[1] . »

ج — العقل والجهل :

« . . . . الذنب للعين العشواء ، في محبة الظلماء ، وكراهة الضياء . وفم المريض يستثقل وقع الغذاء ، ويستمرُّ طعم المـاء ، ومن طمس عين الشمس ، فقد كابر في الحس . ومن حارب جيش العقل ، وخلع ربقة العدل ، ورضي لنفسه بمجانسة الجهل ، فقد كـفى خصومه مؤنة عتابه وعقابه . . . . »

« ان من تولاهم الجهل بدينهم ، وأخذتهم البدع في جميع جوانبهم ، وانقطعت الصلة الحقيقية بينهم و بين سلفهم ، أولئك إن أنصفتهم لم تقبل طبيعتهم الإنصاف ، وإن طلبته منهم زجوا بك في لجج الاعتساف ، دأبهم تقديس العوائد ، وتدعيم قواعد البدع . . . .[2] » .

---

(١) الفتوى في الاسلام ص ٦٤

(٢) اقامة الحجة ص ٥٢

د — تأويل النقل بالعقل :

« اتفق العلماء على أنه إذا تعارض العقل والنقل ، أُوِّلَ النقل بالعقل . إذ لا يمكن حينئذ الحكم بثبوت مقتضى كل منهما ، لما يلزم عنه من اجتماع النقيضين ، ولا بانتفاء ذلك لاستلزامه ارتفاع النقيضين ، لكن بقي ان يقدم النقل على العقل ، أو العقل على النقـل . والأول باطل ، لأنه ابطال للأصل بالفرع . . .[1] »

ثالثاً — الحرية والاجتهاد

آ — الحرية الفكرية :

« . . . . ان باب التناظر والتحاور في المسائل مفتوح ، حتى في مثل أخبار الصحيحين ، وهي ما هي . وان غلّ الفكر عن النظر والتأمل هو أعظم هـادم لصرح التحقيق ، فان الحقيقة بنت البحث [2] » .

ب — الجهر بالحق :

« قضت حرية العلم والتأليف ، من عهد السلف ، أن لا يبخل بفكر ، ولا يضنّ برأي ، لا على أن يهمس به همساً ، أو يتناجى به تناجياً ، أو يدرس بين حيطان الخلوات ، أو يقرطم تخوفـاً من القالات ، بل على أن يبث وينشر ، ويشرح ويفسّر ، ويصدع به في المجامع والجوامع ، ويجهر به على المسامع . . .[3] » .

---

(١) دلائل التوحيد ص ٣١ طبعة دمشق .

(٢) الاجوبة المرضية ص ٦

(٢) نقد النصائح الكافية ص ٧

« الثبات على تحمل المشاق ، والصبر الجميل ، من الواجبات المحتمة على كل داع إلى حق . والصدمات التي يجدها البطل المقدام ، يجب أن تقابل بثبات الجأش ، وأن تكون كلما تجددت باعثة على تجدد القوى ، ومواصلة العمل والسير . ولذلك قرن تعالى في كتابه الحكيم التواصي بالحق بالتواصي بالصبر . وصدق الله العظيم [1] » .

ج – **الحوار والنقد :**

« ومن عقل المؤلف أن يفسح المجال للبحث ، ويشرح صدره للحوار والنقد . . . [2] » .

د – **الحق والهوى :**

« وجليّ أن تبيّن وجه الحق انما هو بالوقوف على تفصيل المتنازع فيه وتحليله ، وطرح كل ما سبق إلى القلب وغرس فيه ، من تقليد أو تحزب أو تقية أو حمية . . . [3] » .

هـ – **الحق والمذاهب :**

« إن الحق في المسائل ليس منحصراً في قول ولا مذهب ، بل لا يسوغ لأحد أن يجعل الحق عند فريق واحد في كل مطلب ، ما دامت المسائل اجتهادية ، لم يرد فيها نصوص قطعية ، وقد اختلفت فيها الأئمة قديماً وحديثاً ، وهذا يؤول

---

(١) الفتوى في الاسلام ص ٦٧

(٢) نقد النصائح الكافية ص ٨

(٣) المصدر السابق ص ٢٤

آية ، وذلك يؤول حديثاً ، وقد أنعم الله على الأمة بكثرة مجتهديها ، وبعدم انقطاع رجال الاجتهاد فيها ، كي لا تخلو الأرض (والعياذ بالله) من قائم لله بحجة ، وهادٍ إلى البرهان ومرشد إلى واضح المحجة . وجليّ أن عدة المجتهدين من السلف والخلف لا تحصى ، وأقوالهم وفتاويهم في نوازل الأقضية لا تستقصى ، وكلهم من رسول الله ملتمس ، ومن أنوار شرعه مقتبس[1]» .

و — الاجتهـــاد :

« قد يظن من لا خلاق له — وبعض الظن إثم — أن مراد دعاة الاصلاح العلمي الآن بالاجتهـاد ، هو القيـام بمذهب خاص ، والدعوى له على انفراده ، والشذوذ عن أقوال الأئمة ، والغض من كرامة من سلف (نعوذ بالله من الجهل ، وسوء الفهم) . . فان من يفهم هذا لأضَلّ من الأنعام . وأي عاقل يدعو لتكثير الشيع والفرق ، وزيادة الانقسام . وانما المراد انهاض همم رواد العلم ، لتعرف المسائل بأدلتها . والبحث عن مداركهـا ومآخذها ، والتنقيب عن كتب السلف والأئمة في الأصول والفروع ، وتعرّف طرق التخريج والاستنباط ، وحجج الموافق والمخالف ، ثم توخي الأقوى فالأقوى دليلاً ، وتحري الأقوم فالأقوم قيلا . كما كان علية السلف الصالح ، وثلة من الخلف الناجح . والمتأخرون عيال على المتقدمين في جل علومهم ، وما ذخروه من كنوزهم ، وانما التفاوت في إدراك القويّ سلطانه ، الأصح برهانه ، وفي الوقوف على مقاصد الشريعة ، وأسرار التشريع ، ودرك اللباب من الحشو ، وتمييز الأصيل من الدخيل . على أن التخالف في الأمور المجتهد فيها ،

---

(١) الاستئناس لتصحيح أنكحة الناس ص ٤٤ - ٤٥

غير المنصوص عليها ، سنة جرى عليهـــا السلف ومنهج سلـكه إلى هـذا العصر كبار الخلف [1] » .

ز — الاستقلال في الرأي :

« . . . إنا في الرأي مستقلون ، ولسنا بمقلدين ولا متحزبين ولـكن هو الحق والانصاف [2] . »

رابعاً — الدولة والوطن

آ — قوة الدولة :

مرّ بك في الصفحة (٧٧) نموذج من أسلوب القاسمي في الترسل ، بمعرض تفسير قوله تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » وهو بحث عن قوة الدولة ووجوب التسلح ، وانشاء معامل الأسلحة ، واعتبار ذلك كله فرضـاً من فروض الـكفاية ، وبيـان أخطار إهماله ، لأنه « يقضي — والعياذ بالله — على الاسلام ، وممالك المسلمين ، لاستعمار الأمصار ، واستعباد الأحرار ، ونزع الاستقلال المؤذن بالدمار » . فارجع إليه .

ب — حب الوطن :

عقد القاسمي في كتابـه « جوامع الآداب » [3] فصلاً عن (حب الوطن) .

---

(١) إرشاد الخلق ص ٤ — ٥

(٢) الجرح والتعديل ص ١٤

(٣) ص ١١

ونقتطف من هذا الفصل الرائع الذي كتبه قبل ستين سنة ، الفقرات التالية :

« عد الحكماء من أمهات الفضائل فضيلة حب الوطن ، والمراد بها أن يبذل المرء ما يقدر عليه مما أعطاه الله من العلم والمال والخبرة والنصح في عامة الأحوال والأزمان لمنفعة وطنه ومواطنيه » .

ج ــ الجهـــاد :

« وفيما يجب في حب الوطن أن يدافع العدوّ الذي يحاول اغتصابه واحتلاله ، وأن يجاهده بالأموال والأنفس ، احتفاظاً بما لأهله في وطنهم من إقامة شعائر دينهم ، وتقلبهم في أملاكهم ، وصون حريمهم .... والعـدو يحاول أن يحول بين هـذه الأمور وبين أربابهـا ، فيقضي على شـرف دينهم ، وينهب أموالهم ومقتنياتهم ، ويهتك حرمهم ، ويمحو تاريخ مجدهم ، ويفني لغتهم وعلومهم ، في رطانته وعوائده . كل هـذا مما ينويه العدو الغاصب للوطن ، تلقاء أهـله ، ولذا وجب الجهاد دونه لوجه الله وفي سبيله[1] . »

د ــ الدستور والشورى :

في الأسبوع الذي أتم فيه القـاسمي كتابه « دلائل التوحيـد » ، أعلن الدستور (١٣٢٦ ــ ١٩٠٨) . فكتب في خاتمة الكتاب الكلمة الرائعة التي تدل على مذهبه في تقديس الشورى ، والأخذ بالمبادىء الدستورية الحديثة[2] .

---

(١) المصدر السابق ص ١١١

(٢) ص ٢٠٥ وقد أثبتناها في ص ٢٢٨ - ٢٢٩ من هذا الكتاب .

هـ — أدب النائب :

« . . . النائب لا يطلبْ بين خزائن النقود حيث يكون محجوبا ، ولا من وراء سجوف النعمة ، ورغد العيش ، حيث يتوارى عن عينك ، فإن من ترفّع عنك ، لا يهبط إليك ، ومن ابتعد عنك لا يتبعك إذا مشيت إلى خير ، ولا يمتزج بين أفرادك في ضيقك ، ولا يقودك في حاجتك إلى الهداية ، فهذا ليس هو ! إنما نائب الوطن من كان له في سرائه وضرائه ، ومن يضحي نفعه لينفعه ، ومن يضع نفسه ليرفعه ، ومن يرصد معارفه وقوته وأوقاته له [(١)] . »

و — صفات النائب :

« النائب مشرّع للقوانين . أول ما تجب عليه معرفته أن يحسن علم الحقوق ، ويعرف حركة المجالس النيابية عند الأمم الراقية ، ويحسن تاريخ أمته واجتماعها ، ويعرف ما يدليها ويرفعها ، ويدرك علائق حكومتنا بحكومات أوربا ، وما تم بيننا وبينها من المعاهدات ، وما نالوه من الامتيازات ، ويكون قادراً على الاستخراج من كتب السياسة والإدارة والقضاء ، باحدى اللغات الأجنبية [(١)] . »

ز — تولية الأكفياء :

« وبالجملة فاعطاء كل ذي حقه ، ووضع الأشياء في مواضعها ، وتفويض الأعمال للقادرين عليها ، مما يوجب صيانة الحق ، ويشيد بناء العدل ، ويحفظ نظام الأمور من الخلل ، ويشفي نفوس الأمة من العلل . وهذا مما تحكم به بداهة

---

(١) جوامع الآداب ص ١١٣ ويلاحظ ان البحث كتب أيام الامتيازات الاجنبية .

العقل . وهو عنوان الحكمة التي قامت بها السموات والأرض ، وثبت بهـا نظام كل موجود . وكل من تتبع تواريخ الأمم وكان بصير القلب ، علم أنه ما انقلب عرش مجدها ، إلا لتفويض الأعمال لمن لا يحسن القيام عليها ، ويضع الأشياء في غير مواضعها[1] . »

خامساً ــ المذاهب والفرق

آ ــ احترام آراء الفرق :

« .... لو كانت الفرق التي رميت بالابتــداع تهجر لمذاهبهـا ، وتعادى لأجلها ، لمـا أخرج البخاري ومسلم وأمثالها لأمثالهم . نعم ! إن هؤلاء المبدّعين وأمثالهم لم يكونوا معصومين عن الخطأ ، حتى يَعْدُوَهم الانتقاد . ولكن لا يستطيع أحد أن يقول : إنهم تعمدوا الانحراف عن الحق ، ومكافحة الصواب عن سـوء نية ، وفساد طوية . وغاية ما يقـال في الانتقاد في بعض آرائهم : إنهم اجتهدوا فيه فأخطؤوا . وبهذا كان ينتقد على كثير من الأعلام سلفاً وخلفـاً ، لأن الخطأ من شأن غير المعصوم . وقد قالوا : المجتهد يخطيء ويصيب ، فلا غضاضة ولا عار على المجتهد إن أخطأ في قول أو رأي ، وإنما الملام على من ينحرف عن الجادة عامداً متعمداً . ولا يتصور ذلك في مجتهد ظهر فضله ، وزخر علمه[2] . »

ب ــ القدرية ـ او المعتزلة :

« ربما يظن قليل الاطلاع أن المعتزلة ، وإن شئت فقل القدرية ، فئة

---

(١) الفتوى في الاسلام ص ٥٤

(٢) الجرح والتعديل ص ٧ ــ ٨

لا يؤبه لهم ، ولا يقام لهم وزن ، لأنهم في نظر الأعشى كالمارقة ! ولكن ماذا يكون جوابه إذا تلونا عليه أسماء القدرية من السلف ، وقلنا له : هم[1] – على ما رواه الامام ابن قتيبة في المعارف – : معبد الجهني ، عطاء بن يسار ، عمرو ابن عبيد ، غيلان القبطي ، الفضل الرقاشي ، عمرو بن قائد ، وهب بن منبه ، قتادة ، هشام الدستوائي ، سعيد بن أبي عروبة ، عثمان الطويل ، عوف بن أبي جميلة ، اسماعيل بن مسلم المكي ، عثمان بن مقسم البري ، نصر بن عاصم بن أبي نجيح ، خالد العبد ، همام بن يحيى ، مكحول الشامي ، سعيد بن ابراهيم ، نوح بن قيس الطاحي ، غندر ، ثور بن زيد ، عباد بن منصور ، عبد الوارث التنوري ، صالح المري ، كهمس ، عباد بن صهيب ، خالد بن معدان ، محمد بن اسحاق . اهـ

وأما عدة من أخرج لهم الشيخان — البخاري ومسلم — أو أحدهما منهم ، فهي — كما في تدريب الراوي ، شرح تقريب النواوي للحافظ السيوطي — : ثور بن زيد المدني ، ثور بن يزيد الحمصي ، حسان بن عطية المحاربي ، الحسن بن ذكوان ، داود بن الحصين ، زكريا بن اسحاق ، سالم بن عجلان ، سلام بن عجلان ، سلام بن مسكين ، سيف بن سليمان المكي ، شبل بن عباد ، شريك ابن أبي نمر ، صالح بن كيسان ، عبد الله بن عمرو ، أبو معمر عبد الله بن أبي لبيد ، عبد الله بن أبي نجيح ، عبد الأعلى بن عبد الأعلى ، عبد الرحمن بن اسحاق المدني ، عبد الوارث بن سعيد الثوري ، عطاء بن أبي ميمونة ، العلاء ابن الحارث ، عمرو بن أبي زائدة ، عمران بن مسلم القصير ، عمير بن هانيء ،

---

(١) نقد النصائح ص ٦

عوف الأعرابي ، كهمس بن المنهال ، محمد بن سواء البصري ، هرون بن موسى الأعور النحوي ، هشام الدستوائي ، وهب بن منبه ، يحيي بن حمزة الحضرمي .

قال السيوطي : هؤلاء رموا بالقدر . اهـ » .

ج — **الفرق الغالية :**

« من المعروف في سنن الاجتماع أن كل طائفة قوي شأنها ، وكثر سوادها لا بد أن يوجد فيها الأصيل والدخيل ، والمعتدل والمتطرف ، والغالي والمتسامح . وقد وجد بالاستقراء أن صوت الغالي أقوى صدى ، وأعظم استجابة ، لأن التوسط منزلة الاعتدال ، ومن يحرص عليه قليل في كل عصر ومصر . وأما الغلو فمشرب الأكثر ، ورغيبة السواد الأعظم ، وعليه درجت طوائف الفرق والنحل ، فحاولت الاستئثار بالذكرى ، والتفرد بالدعوى ، ولم تجد سبيلاً لاستتباع الناس لها إلا الغلو بنفسها ، وذلك بالحط من غيرها ، والايقاع بسواها حسبما تسنح لها الفرص ، وتساعدها الأقدار ، ان كان بالسنان ، أو اللسان [1] » .

سادساً — التكفير

آ — **تاريخ التكفير :**

« . . . وأول من فتح هذا الباب — باب الغلو في اطالة اللسان بالمخالفين — الخوارج . فأتى قادتُهم عامتَهم من باب التكفير ، لتستحكم النفرة من غيرهم ، وتقوى

(١) الجرح والتعديل ص ٣

رابطة عامتهم بهم . ثم سرى هذا الداء إلى غيرهم، وأصبحت غلاة كل فرقة تكفر غيرها وتفسّقه ، أو تبدعه وتضلله لذاك المعنى نفسه ، حتى قيض الله تعالى من الأئمة من قام في وجه أولئك الغلاة ، وزيف رأيهم ، وعرف الخيار كل فرقة قدرهم ، وأقام لكل منهم ميزان أمثالهم [1] » .

ب – التكفير قطع للأخوة الايمانية :

« ... ان التنابز بالألقاب ، والتباغض لأجلها ، الذي أحدثه المتأخرون ، وفرقوا به بين الأمة ، عقوا به أئمتهم وسلفهم — أمثال البخاري ومسلم والامام أحمد بن حنبل ومن ماثلهم من الرواة الأبرار — وقطعوا به رحم الاخوة الإيمانية الذي عقده تعالى بينهم في كتابه العزيز ، وجمع تحت لوائه كل من آمن بالله ورسله ، ولم يفرّق بين أحد من رسله . فإذن كل من ذهب إلى رأي محتجاً عليه ، ومبرهناً بما غلب على ظنه ، وبعد بذل قصارى جهده ، وصلاح نيته ، في توخي الحق ، لا ملام عليه ولا تثريب ، لأنه مأجور على أي حال . ولمن قام عنده دليل على خلافه ، واتضحت له المحجة في غيره ، أن يجادله بالتي هي أحسن ، ويهديه إلى سبيل الرشاد ... [2] » .

ج – التكفير ليس بالأمر اليسير :

قال القاسمي في تفسيره قوله تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَادُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ...[3] »

---

(١) الجرح والتعديل ص ٧ – ٨

(٢) نقد النصائح ص ٦ – ٧

(٣) المجادلة : ٥

« وقد صنف العارف بالله تعالى الشيخ بهاء الدين قدس الله روحه رسالة في كفر من يقول : يعمل بالقانون والشرع ... » انتهى كلامه — أي كلام الشيخ بهاء الدين — ثم أضاف القاسمي :

« ولا يخفى أن اطلاق الكفر لمجرد ذلك من غير تفصيل ، فيه نظر ، لأنه من تنطع الغالين من الفقهاء الذين زيف أقوالهم في التكفير ، كثيرٌ من العلماء النحارير ، فالتكفير ليس بالأمر اليسير . والحق في ذلك أن القانون الذي يهدم نصوص الشرع التي لا تحتمل التأويل ، ويبطلها وينسخها ، فانه كفر وضلال ...

« وأما غير المنصوص عليه ، أعني ما لم يكن قائماً في بابه من آية محكمة ، أو خبر متواتر ، أو اجماع من الفروع النظرية ، أو المسائل الاجتهادية المدونة ، فمخالفتها إلى قانون عادل لا يعد ضلالاً ولا كفراً ... (١) » .

د ــ لا نكفر من استقبل قبلتنا :

« ... فأما مسألة التكفير ، فانا لا نكفر كل من استقبل قبلتنا ، وصلى صلاتنا ، واعتقد عقيدتنا ، ونلتمس لكلامه ما يدرأ عنه الكفر ، للأصل الأصيل في باب الحدود ، وهو حديث ادرؤوا الحدود بالشبهات .... (٢) » .

---

(١) محاسن التأويل ج : ١٥ ص ٥٧١١

(٢) السوانح (مخطوط) ص ٥٥

سابعاً — المرأة

آ — حقوق المرأة :

قال القاسمي [1] بمعرض قوله تعالى :

« عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ... [2] » :

« ذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد من « سائحات » صائمات أو مهاجرات . وقد قدمنا في سورة التوبة في تفسير « السائحون » أن الحق فيه هو المعنى الحقيقي ، لعدم ما يمنع منه ، ولا يصار إلى المجاز إلا لمانع . ولذا قال بعض المحققين [3] : إنه يستفاد من هذه الآية مشروعية السياحة للنساء كما هي كذلك للرجال .... » .

ثم قال « كان الذي دعا البعض لتفسير السائحات بالصائمات ، أو بخصوص المهاجرات ، تصوره أن السياحة في البلاد لا تناسب طبيعة النساء ، المأمورات بالحجاب وكأنه يفهم من الحجاب أنه الحبس المؤبد . أو كأن الهواء نعمة مخصوصة بغير النساء ، أو كأنهن لم يخلقن إلا لسجون البيوت التي ربما تكون انكى

---

(١) محاسن التأويل ص ٢٦٢٤

(٢) التحريم : ٦

(٣) أشرنا الى أن قوله « بعض المحققين » قد يعني نفسه ، وقد يعني غيره . وفي كل الاحوال فالرأي وإن كان لغيره فهو رأيه .

من أعمق سجون الجنـاة . أو كـأنهن لم يخلق لهن من هذه الدنيـا الرحيبة سوى بيت واحد . . . . » .

ثامناً ـــ من هو العربي

تعريف الاسلام للأمم الداخله فيه

قال القاسمي [1] بمعرض تفسير قوله تعالى :

« وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ . . . [2] » :

« قال بعض المحققين : في الآية معجزة من معجزات النبوة : وذلك في الإخبار عن غيب وقع ، والبشارة بدخول أمم غير العرب في الاسلام قد حصل . فقد صارت تلك الأمم التي أسلمت من العرب ، لأن بلادهم صارت بلاد العرب ، ولغتهم لغة العرب ، وكـذلك دينهم وعاداتهم ، حتى أصبحوا من العرب جنساً وديناً ولغة ، وحتى صار لفظ « العرب » يطلق على كل المسلمين من جميع الأجناس ، لأنهم أمة واحدة « وان هذه أمتكم أمة واحدة » ، فصدق الله العظيم » .

تاسعاً ـــ علي ومعاوية

« . . . وأقول لا حاجة إلى الإسهاب فيـه ـــ في بحث الخلاف بينهما ـــ لأن كون الحق مع الإمام علي عليه السلام ، ظاهر لذوي الألباب ، ظهور الشمس ليس دونها حجاب [3] . »

---

(١) محاسن التأويل : ج ١٦ ص ٥٧٩٩

(٢) سورة الجمعة : ٤

(٣) نقد النصائح الكافية ص ٢٣

« دعوى أن معاوية لم يبلغ رتبة الاجتهاد ، تفريط في الإنصاف ، وإفراط في البخس . . . فهل يتصور أن يولي عمر إقليماً كالشـام ، وهـو أعظم أقاليم الخلافة في عهده ، تلك المدة عاملاً ليس بأهل ولا كفء ، ولا بلغ رتبة من يجتهد في الدين ؟ ما أظن أن منصفاً يقبل ذلك[1] . »

* * *

(١) المصدر السابق ص ٢٧ - ٢٨

السوانح



السوانح

ومما هو داخل في باب آراء القاسمي وأفكاره ، مجموعة سماها (السوانح) ، جمع (سانحة) .

وقد حدثني الشيخ حامد التقي أن القاسمي كان يصطحب في جيب جبته أوراقاً بيضاء وقلماً من الرصاص . فاذا ما سنحت له سانحة عمد إلى تسجيلها فوراً . وقد تأتي السانحة وهو يؤم الناس ، أو في القطار ، أو في العربة ، أو وهو يمشي في الأسواق ، أو في غير ذلك من أوضاعه وأحواله ، فيمد يده إلى جيبه حالاً ؛ ويخرج منه الأوراق البيضاء ، والقلم الرصاص ، ويكتب ما سنح له .

وهذا سر ما سترى في هذه السوانح من بعد عن التأنق في الأسلوب . وكلها من الكلام المرسل الذي لم يلتزم فيه السجع .

وقد دون هذه السوانح بكثير من الحرية ، فلم يبال بأي اعتبار سياسي او بأي معارض . يدل على ذلك ان تاريخ السانحة الأولى كان عام ١٣٢٣ أي في ظل الإرهاب التركي ، وفي الفترة التي كانت الكلمة العليا فيها للحشوية والجامدين .

ولقد كانت هذه السوانح متنفساً للقاسمي على ما يظهر ، كتب فيها بعض آرائه التي لم يكن يجرؤ على نشرها في المؤلفات التي طبعت في حياته ، ولا سيما دعوته إلى إعمال الفكر وإلى الاجتهاد . ففي هذه السوانح ترى هذه الدعوة واضحة كل الوضوح .

والسوانح كما ستراها ، متنوعة المواضيع ، فالى جانب سانحة في تفسير آية ، ترى رأياً في لوم من كفر بعض الأئمة ، او رماهم بالإلحاد . وإلى جانب رأيه في التراجم والتاريخ والسير ، ترى رأياً في شعر الشعراء المعاصرين . . .

والذي يدعو إلى الأسف حقاً أن جزءاً من هذه السوانح قد فقد ، وقد اجتهدت في العثور عليه فلم أفلح ، وهو يبلغ ثلاث وعشرون صفحة .

* * *

السوانح

(١)

الصلاة الوسطى

سنح لي ، وقويَ بعد تمعن ، في أواخر رمضان سنة (١٣٢٣ هـ) احتمال قوله تعالى : (وَٱلصَّلَاةِ ٱلْوُسْطَىٰ) بعد قوله : (حَافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ) . لأن يكون إرشاداً وأمراً ، بالمحافظة على أداء الصلاة أداءً متوسطاً ، لا طويلاً مملاً ، ولا قصيراً مخلاً ، أي : والصلاة المتوسطة ، بين الطول والقصر . ويؤيده الأحاديث المروية عنه ﷺ في ذلك قولاً وفعلاً .

ثم مرّ بي في القاموس في ٢٣ ربيع الأول سنة (١٣٢٤) حكاية هذا قولاً ، حيث ساق في مادة (و س ط) الأقوال في الآية ، ومنها قوله : أو المتوسطة بين الطول والقصر . قال شارحه الزبيدي : وهذا القول رده أبو حيان في البحر .

ثم سنح لي احتمال وجه آخر وهو : أن يكون قوله (والصلاة الوسطى) أريد به توصيف الصلاة المأمور بالمحافظة عليها بأنها فضلى ، أي : ذات فضل عظيم

العناوين مقتبسة من الاصل .

عنـد الله . فالوسطى بمعنى الفضلى ، من قولهم للأفضل : الأوسط ، وتوسيـط الواو بين الصفة والموصوف ممـا حققه الزمخشري ، واستدل له بكثير من الآيات . وفي سوق الصفة بهذا الأسلوب من الاعتناء بالموصوف ما لا يخفى .

وأسلوب القرآن أسلوب خاص انفرد به في باب البلاغة ، لم ينفتح من أبواب عجائبه إلا قطرة من بحر .

ولعل هذا الوجه هو ملحظ من قال : هي الصلوات الخمس ، وهو معاذ بن جبل رضي الله عنه ، فـكأنه أشار إلى أن المعطوف عين المعطوف عليه ، إلا أنه أتى بجملة تفيد التوصيف .

(٢)

العقل والعبادة

ظهر لي أن قول بعض الفقهـاء في كثير من الأحكام : « هو تَعَبُّدِيٌّ لا يعقل معناه » وجزمهم بذلك في مواضع شتى ، أنه غير صواب ، لما فيه من الغفلة عن التمعن في سر التشريع ، وجهل أسـلوب التنزيل ، حيث أنه يُتْبِـع كلَّ حكم بسره وحكمته . وبعبـارة أوضح : بعلّته . وأقرب الحـكم هو تقواه تعـالى وذكراه . أي : فـكأنه نوع ولون من أنواع العبادة وألوانها . على أنّ قولهم ذلك ، وتقليدَ المتأخر فيه المتقدم ، فيه حَجْرٌ على العقول والأفهـام أن تنظر ، وتتأمل ، وتتفـكر ، وتتدبر . فهو مناف لقاعدة إعمال الفـكر ، لاستنباط المعاني المأمور به العلماء .

فحق كل من أُوتي ملكة ، وتنور لبه ، أن يستخدم فكره لفهم الأسرار جهده ، ويخلع رداء التقليد الأعمى ، فيحيط من هذا العلم بما يقوى معه إيمانه ، ويرسخ إيقانه . عَرَف ذلك مَنْ عرف !

ولو أن المتقدمين بذلوا عنايتهم بهذا العلم « علم الأسرار والحكم التشريعية » وألفوا فيه ، ولو ورقات تدرس وتلحق بالتعاليم المدونة ، والأصول المدرسية ، لكان سعياً في خدمة للدين مهمة . فعلى النبيه أن لا يكون أسير التقليد .

(٣)

السيد الحصور

وقع بقلبي وأنا في عصر الثلاثاء (٢١) ذي القعدة (١٣٢٣) ، في محراب جامع السنانية ، أن في قوله تعالى : (وَسَيِّداً وَحَصُوراً) مدحاً للسيد يحيى ، عليه السلام ، بالعفة الكاملة ، والنزاهة العظمى ، والعصمة التامة ، عن ملابسة الأميال الشهوانية . وإيثار صيغة المبالغة ، للدلالة على تناهي حصر نفسه ، أي : منعها وكفها عن الإلمام بما يؤثمها ، أو يباعدها عن تزكيتها وتطهيرها .

وبالجملة فهي مدح بالعفة الكاملة ، وضبط النفس ، وملكها بشدة حصرها . فليس فيها دليل على مدح العزوبة والتبتل ، ولا إشارة إليها ، ولا هي مما تومئ لها ، وإن كان إعراضه صلى الله عليه وسلم عن ذلك مما يرفع من مقامه ، ويدل على شدة تبتله وإنابته .

إلا أن الكلام في أن الآية لا تدل على مدحٍ ، ما يستدل الكثير به ،

وكذا ما حكي من أقوال إنه بمعنى الممنوع ، خطأ في معنى الصيغة ، لأنها مبالغة في الفاعل ، لا بمعنى المفعول ، إذ لو كانت بمعناه لم يكن فيها مدح مطلقاً ، لاحتمال أنه الممنوع من شهوة النساء ، بسبب آفة ، كَعُنَّةٍ ، أو مزاج ، ونحوهما . وليست الآية مما ترمي إلى ذلك .

ثم راجعت شرح القاموس ، فرأيته نقل عن البصائر ما يقرب مما وقع بقلبي وعبارته : « الحصور في الآية الذي لا يأتي النساء ، إما من العُنَّة ، وإما من العفة ، والاجتهاد في إزالة الشهوة ، والثاني أظهر في الآية ، لأن بذلك يستحق الرجل المحمدة ، والأول مما لا ينبغي ذكره ، ولا تدل عليه المادة إلا على توهم أن فعول ، يأتي بمعنى مفعول ، وهو كذلك ، لكن لا في كل مقام ، فإن لكل مقام مقالاً . »

(٤)

مشيئة الله

ورد عليَّ عصر الأربعاء (٢٢) في المحل المتقدم أن معنى قوله تعالى :

« وَلا تَقولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذٰلكَ غَداً إلاّ أَنْ يَشَاءَ اللّهُ » .

إثر قوله تعالى : « وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً » .

يعني : في أصحاب الكهف أحداً من أهل الكتاب ، أنَّ ما وقع منك من قولك : إني فاعل ذلك غداً ، والإشارة إلى أمر ما في نبأ أصحاب الكهف ، إما من مماراة فيهم ، أو من استفتاء عنهم ، أو من غير ذلك ، كان بمشيئة الله

وقــدره . فالآية بمثابة التسلية له صلوات الله عليه ، والعتب اللطيف ، ولذلك اعترضت بين سابق النهي ، ولاحق الأمر له بذكره تعــالى إذا نسي ، أي : نسي وصيته والله أعلم .

(٥)

(في ٦ ذي الحجة سنة ١٣٢٣)

سبب تطرف القائمين بالحق

كثيراً ما كان يجول بفكري من عــدة سنين ، أن سبب تطرف القائمين بالحق ، وغلوّهم في رد الناس عن البدع ، هو جذبهم الناس إلى الوسط من الأمر ، لأن الدعوة إلى التوسط بادىء بدء لا تنتج المطلوب ، إلا بعد أن يستعد المدعوون استعداداً يقتضيه الزمان أو المكان ، أو عموم التربية ، وشمول التهذيب ، واتساع تنور الفكر ، وهكذا .

فلهذا كنت أقوم في وجه كل من تناول من عرض إمام أو عالم من علمــاء المسلمين ، وقد عُلِم من سيرته دعوته إلى الدين ، وأجيب عن غلوه الذي نفس الداعي يسلمه ، ولا ينكره وجدانه بمــا ذكرته ، لا تحسيناً للظن فيه ، بل لأني لا أشك أنه هو المقصود منه .

وكثيراً ما كان ينقل لي عن بعض المدرسين أنه حرم الغناء واستماعه ، وهو من أهل الدين ، فأجيب الناقلين الناقمين عليه بأنه رجل واعــظ ، يحضر دروسه من العامة عدد وافر ، فمن أين يدركون التوسط في هــذه المسألة ؟ فقــد يكون

مقصود الواعظ أن الغناء المحرك للشهوة أو الذي فيه تشبيب بمن يفتن به ، وهو صبيح معروف ، أو امرأة جميلة كذلك ، أو ما كان على حالة يأباها كال الشريعة ، وأصول الشريعة المرعية الدينية وهكذا . فكل هذا محرم ، وما عداه مكروه ، أو مباح مثلاً . ولكن من أين يدرك العامة ذلك ؟ فسدّ الباب أولى ، لأنه لا أقل أن يتقربوا بأنفسهم من التوسط فيه ، إن لم يتركوه رأساً .

وهكذا الجواب عن الأحاديث الواردة في الإحياء ، وقوت القلوب ، وكتب الترغيب والترهيب ، وهكذا يقال في مثل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وغيرها . فكل هؤلاء من أهل الدين بلا ريب ، يعلمه من مُحي التعصب من صدره ، وانتصر للحق بالحق . فأحسن ما يفهم عنهم ، ويدافع به عنهم ، إنما هو الحق . وذلك ما كان يخطر لي .

ثم رأيت في التاريخ المذكور[1] عبارة لبعض الأفاضل ، تؤيد ما كان يسنح لي ، أحببت إيرادها ، فانها طابقت ما في نفسي ، أجاب بها كاتبها عن غلو كبير ، نُسِب لفاضل في تأليف له أقام وأقعد كثيرين ، وهاك العبارة : ربما تكون هذه المغالاة مقصودة للمؤلف ، لأن الداعي إلى شيء ينبغي له لأجل إرجاع من يدعوهم إلى الاعتدال ، الذي هو الحق ، أن يقف على الطرف المقابل لما هم فيه . فان كانوا في جانب التفريط ، يقف في جانب الافراط ، لينتهي التجاذب بينه وبينهم إلى الوسط . ولو وقف في الوسط ، وجذبهم وجذبوه ، يخرج كل منهما عنه ، أو يبقى في محله ، ولا فائدة في ذلك . ومن هنا يقول الناس : لا بد من شيء من الباطل ، لأجل الوصول إلى الحق .

---

(١) أي في اليوم الذي خطرت فيه السانحة ، وهو ٦ ذو الحجة ١٣٢٣

ثم إن من فوائد هذه المبالغة أن أثارت أفكار الناس للبحث . أي : وكل باحث بحق ، وطارح للعصبية ، يصل للقصد ، وهو الوسط العدل من كل شيء . والله أعلم .

(٦)

فدية الصيام

سنح لي صبيحة الجمعة في ٧ محرم سنة (١٣٢٤) أن معنى قوله تعالى :

« وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ »

أي : يطيقون صومه فأفطروا ، مخالفةً للأمر ، وعصياناً له . وبيان ذلك : أنه تعالى أخبر بأنه كُتب علينا الصيام ، فدل على أنه أمر مفترض لا ريب فيه . ثم رخص بحكمته للمريض والمسافر أن يفطرا ، ويقضيا ما فاتهما من أيام أُخَر ، رحمة بهما ، ورفعاً للحرج ، بقوله سبحانه :

« فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرٍ »

أي : لفقدان إطاقة الصيام غالباً . ثم بين حكم من يطيقه ، فأفطر بلا مرض ولا سفر ، ولكن تعمداً للإثم ، بقوله :

« وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ »

أي : وعلى الذين يطيقون صومه ، إذا افطروا بلا عذر مما ذكر ، من المرض والسفر ، كفارة . وقد ذهب بعض الأئمة إلى وجوب الكفارة على المفطر عمداً ، بلا عذر ، هو ظاهر الآية ، وبه أقول . إلا أن الآية ساكتة عن وجوب القضاء ، فيحتاج وجوبه مع الكفارة إلى نص آخر . ثم مفهوم الآية أن من لا يطيقه

مطلقاً ، كالهرم ، إذا أفطر أن لا فدية عليه ، وهو مذهب مالك ، كما في رحمة الأمة ، قال : لا قضاء ولا كفارة عليه ، وبه أقول . ومما يؤيده قوله تعالى بعدُ : « وَأَنْ تَصومُوا خَيْرٌ لَكُمْ » ، فان فيه تنبيه المطيقين ، المفطرين عمداً ، على خطئهم في نبذهم ما هو خير لهم ، وهو الصيام ، بدون حاجة إلى جعلها مستأنفة لبعده ، لأن سياقها يدل على ربطها بما قبلها ربط الإتمام والإكمال . وبالجملة فإني أرى هذا القول في الآيه متيناً جداً ، وبه تبقى الآية على إحكامها . وأظن أن من دقق فيه لا يؤْثِر عليه غيره .

وأرى أن من أخبر من الصحابة بأنها منسوخة بآية : « فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ » مقصوده : أن ما يتوهم من قوله تعالى : « وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ » من الترخيص هو منسوخ ، أي : مدفوع بالآية التي بعدها ، من تعيّن الصوم على كل من شهده .

هذا معنى ما روي عنهم ، كما يشهد له من دقق في سياق المرويّ . واصطلاح السلف في المنسوخ ، غيرُه في اصطلاح أهل الأصول ، كما أوضحه ابن القيم في الإعلام ، والسيوطي في الإتقان ، نقلاً عن المحققين . على أنه لو ثبت أنهم فهموا الترخيص في الافطار ، والفدية ، وأفطرو لكان ذلك بمثابة من اجتهد فاخطأ ، ثم رد إلى الصواب . فيكون معنى نسخ فعلهم تبيين أنه خطأ ، لا ينبغي التعويل عليه ، وأن الواجب هو الصوم فحسب . هذا معنى ما روي في هذا الباب ، وبه تتلاقى الأخبار ، فاحرص عليه ، فما أظنك تظفر بنظيره والحمد لله تعالى .

(٧)

رواية الحديث بالمعنى

تبين لي أن بعض الأحاديث التي يقال فيها : (قال رسول الله) قد يكون رواية بالمعنى . اي : بمعنى فهمه من هديه عليه السلام ، أو أمره بأشباهه ، أو دخوله تحت كلي من كليات شرعه ، أو ظنه أن مثل ذلك مما أرشد إلى الأمر به ، ونحو ذلك من الملاحظ . يدري ذلك من سبر كثيراً من الأحاديث ، ودقق النظر فيها . أو رأى إيراداً على حديث متجهاً ، أو شبهة فيه ، فيظن الواقف أن الحديث يشكل تطبيقه على أمور قطعية ، ويأخذ في التمحّل ، ولا ينزع من قلبه شك فيه .

وقد يكون إذا دقق فيه ما يزول شكه ، وذلك بأن يكون أصله من فهم صحابي لقاعدة شرعية ، مثل هذا الحديث يندرج فيها ، أو قول نبوي آخر محقق ، رأى أن ما قاله مثله فرفعه إلى النبي ﷺ ، على اعتقاد أنه مما يرضاه ، ودعا إلى شكله ، كما قلنا . وكنت ذكرت ذلك لبعض الأساتذة المدققين ، فأقره ، وقال لي : أذكر لك ما يؤيد ما فهمته ، بل ما هو أقوى منه في الباب ، وهو حديث ابن مسعود في النامصة ، والمتنمصة ، المروي في البخاري .

ثم راجعنا البخاري في التفسير ، في باب « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهوا » بسنده إلى عبد الله ، قال : لعن الله الواشمات ، والمؤتشمات ، والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن ، المغيرات خلق الله . فبلغ ذلك امرأة من بني أسد ، فجاءت فقالت : إنه بلغني أنك لعنت ، وكيت وكيت ،

فقال : وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ ، ومن هو في كتاب الله ، فقالت : لقد قرأت ما بين اللوحين ، فما وجدت فيه ما تقول ! قال : لئن كنتِ قرأتِه ، لقد وجدتِه ، أما قرأت : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) قالت : بلى . قال : فانه قد نهى .

فقد يتوهم الواقف عليه قبل تتمته أن قوله « ومن هو في كتاب الله » أن آية نزلت فيه ، ثم يذهب وهمه إلى أنها أين هي ، وفي أي سورة ، وهل موجودة أو منسوخة ؟ فإذا أتم الرواية ، علم أن إثباته في كتاب الله إنما هو من كونه بهذا الطريق الدقيق جداً ، وعلم أن مثله كان مما يجوّزه الصحابة ، أعني أن يقال إنه في كتاب الله ، أو قاله الله ، وهو أعظم مما بحثنا وأقوى ، في أن يقال : قال رسول الله لأمر استنبط بمثل هذا الطريق ، فتأمل ، فانه بحث لم أر من نبه عليه الآن ، وعسى أن نظفر بمن أشار إليه ، فنعزز به ما كتبنا ، فنقِّبْ عن كل مسألة ، ولا تطفىء ما أودع الله فيك من نور العقل ، فالعلم لا تنتهي دقائقه « وَمَا أُوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلاّ قَليلاً » .

(٨)

الآية العقلية والآية الحسية

ظهر لي في دمّر في (١٢) ربيع الأول سنة (١٣٢٤) أن ما يَستدِل به الكثير من الآيات لمطلب ما ، أن يدقق النظر فيه تدقيقاً زائداً ، فقد يكون سياق الآية لأمر لا يحتمل غيره ، ويظن ظانّ أنه يستدل بها في بحث آخر ، وقد

يؤكده ما يراه في إطباق كثير من أرباب التصنيف على ذلك . وإنما المدار على فهم الأسلوب ، والسياق ، والسباق . خذ لك مثلاً قوله تعالى :

« يَمْحُو اللهُ ما يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ »

فكم ترى من يستدل بها على العلم المعلق ، ومحو ما في اللوح الذي يسمونه لوح المحو والإثبات ، ويوردون من الإشكالات والأجوبة ما لا يجد الواقف عليه مقنعاً ، ولا مطمئناً ! مع أن هذه الآية ، لو تمعن فيها القارئ ، لعلم أنها في معنى غير ما يتوهمون ، وذلك أنهم كانوا يقترحون على رسول الله ﷺ في أوائل البعثة أن يأتي بآية كآية موسى وعيسى ، توهماً أن ذلك هو أقصى ما يدل على نبوة النبي ، في كل زمان ومكان ، فأعلمهم الله تعالى أن دور تلك الحسية انقضى دورها ، وذهب عصرها ، وقد استعد البشر للتنبه إلى الآية العقلية ، وهي آية الاعتبار والتبصر ، وأن تلك الآيات محيت ، كما محي عصرها .

وقد أثبت تعالى غيرها مما هو أجلى وأوضح ، وأدل على الدعوة ، وهو قوله تعالى قبلها :

« وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ . لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ يَمْحو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » .

(٩)

خطباء الجمعة

قول بعض الخطباء الحشوية في خطبهم « روي أن الله تعالى أوحى في بعض كتبه إلى داود ، أو إلى فلان كذا وكذا » من الجهل الكبير ، إذ هذه الرواية

لو كانت صحيحة لكان في القرآن الكريم ، وذكره الحكيم ، غنى عنها ، وعن أمثالها . ولكن ما نصنع ، وهؤلاء الحشوية فوق رؤوسنا كل أسبوع ، يسمعوننا من الخرافات والموضوعات ما يرثي كل عاقل له ؟ وقد جمعت خطب الإمام الغزالي ، فأرجو أن ييسر الله بفضله انتشارها ، ليعم النفع بها ، إنه قريب مجيب [(١)] .

(١٠)

المصلحة مقدمة على الدليل

في شرح الأربعين النووية للطوفي في شرح حديث : « لا ضَرَرَ ولا ضِرار » بحث في تقديم المصالح على سائر الأدلة ، بأدلة بديعة . ويؤخذ منها طريقة للاجتهاد ميسورة ، إذ من قرأ ما ذكره ودراه صار مجتهداً للحال ، أللهم مع ملكة قوية في الفقه والسنة ، فلتراجع عبارته بتمامها ولتكتب على حدة ، فانها من النوادر[(٢)] ، إن لم يتيسر له نسخ الشرح بتمامه . وهذا الطوفي له ترجمة في طبقات الحنابلة لابن رجب غريبة ، تدل على أنه كان أعجوبة ، جاء فيها أنه رحمه الله

---

(١) أجاب الله بفضله دعاءه ، فقد طبعت سنة ١٣٢٥ ، ثم خطب بها في كثير من الجوامع بدمشق ، وأوثرت على غيرها . وذلك من نعمه تعالى ومننه .

(هذه الحاشية للمؤلف رحمه الله . والظاهر أنه أراد منها كتابه الذي سماه : مجموعة خطب ، لا خطب الامام الغزالي) .

(٢) قد طبعها المؤلف بعدها على حدة في رسالة سماها المصالح المرسلة في مجموعة رسائل الأصول الأربع الأول . (هذه الحاشية للمؤلف رحمه الله) .

خلف مكتبة من تآليفه بقوص ، لما رحل منها ، وكانت وفاته بالخليل لما قدم لزيارة بيت المقدس سنة (٧١٤ هـ) .

(١١)

مذهب ينتخب من المذاهب الاربعة

سمعت أن المرحوم الشيخ محمد عبده مفتي مصر كان يقول : نحن في حاجة إلى مذهب ينتخب من المذاهب الأربعة . وهذا الكلام كان يدور معناه في خلدي من أزمان ، إذ جعل الأمة على مذهب ، أو بلد من البلاد ، أو قوم من الناس ، فيه من الحرج والعنت ما فيه ، ودين الله يسر ، ويوجد من مجموع فروع الأمة ما يعود على الأمة باليسر والتيسير ، مع المحافظة على أصول الدين ، ولي نية بجمع كتاب في الفروع في ذلك ، أعانني المولى عليه بمنه وكرمه .

(١٢)

الرمي بالالحاد

لا عبرة برمي شيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم ، وأمثالهما رحمهم الله تعالى بالالحاد ، مثل النصير الطوسي ، وابن عربي ، وبعض الأشاعرة ، أو المتأولين لآيات الصفات وآثارها ، فان ذلك منه ومن أمثاله حمية مذهبية ، وغيرة على نصرة ما قوي لديه .

وقد عهد في العالم الغيور الذي لا يتسع صدره لخلاف الخصم ، أن يحمل عليه

أمثال هذا وأعظم ، وإلا فالنصير قد علم أن له مؤلفات في فن الكلام ، خدمت وشرحت ، وكلها مما يبرئه عن الالحاد والزندقة ، ودعوى أنه كان محرضاً هولاكو على قتل العلماء ، دعوى من لم يعرف سنة الملوك المتغلبين ، المندفعين على البلاد ، للأسر والقتل . وأين نصير الدين من هولاكو ، حتى يكون مستشاره في القتل والسفك ، وعقيدته ، ومشربه ؟ وترجمته المحفوظة ، تبرئه من مثل ذلك !

وابن عربي ، حق الباحث معه ، المنكر عليه ، أن ينكر عليه موضعاً لا يحتمل التأويل ، ويقول : ظاهره الحاد . إلا أن الرجل له عقيدة نشرها أولاً ، ومذهب في الفقه حسن ، فمثله لا يسوغ رميه بالالحاد . وحينئذ فيقال : كلامه مشكل ، إلا أن عقيدته صحيحة . فالأولى الإعراض عن المشكلات من كلامه ، وعدم مطالعتها ، إذ لعل لها معاني عنده . وأمثال هذا مما يخفف من الرمي والإلحاد ، فافهم .

(١٣)

افتاء العامة

إذا استفتاك عامي عن حكم ، فان كان مجادلاً ، أو غنياً متعززاً ، أو يريد أن يجر فكرك إلى فكره ، فأحله على بيت المفتي الرسمي . وإلا بأن كان مسلِّماً ، أو راضياً ، فَأَفْتِهِ بالحق الذي تراه ، أصح ما يكون ، من أي مذهب كان . وكن حكيماً في سائر شؤونك ، لا متهوراً ، ولا غافلاً ، فتؤخذ على غرّة .

(١٤)

العبرة للمعنى

شدد بعض الفقهاء في أداء الشهادة من الشاهد ، ويحرّج عليه إلاّ أن يقول : « أشْهَد » بفتح الهمزة ، فلو قال الشاهد : نعم ، لا يكتفى . وهل نعم إلاّ جواب في اللغة العربية ؟ فما هذا الجهل ، وما هذا الاصطلاح البارد ؟

وكذلك تعنت بعض مشايخ العقود ، في أن يقول وكيل الزوج : قبلت نكاح فلانة — باسمها — لموكلي ، وعدم قبوله ، لأن يقول قبلت نكاح الزوجة المذكورة لموكلي ، مع أن المذكورة لا ينصرف لغير المعنية التي دعي للاحتفال بعقدها من دعي . تنطعٌ وتغالٍ في اشتراط ما لم يشترطه الله ولا رسوله . مع أنهم يثبتون الزيجة بقول الولي : زوجتك بنتي فلانة ، بلا تكرير ، ولا تراجع في الإيجاب والقبول .

(١٥)

سدّ الذرائع

مسئلة سماع الأوتار ، شهيرٌ الخلاف فيها . وإن أهل الظاهر على إباحتها ، ذهاباً إلى أن الأخبار المأثورة فيها ، ما بين صحيح غير صريح ، وصريح غير صحيح ، وأن الجمهور على تحريمها . إلا أن الذي يُقوّى منها ، هو ما ذهب إليه الجمهور ، مشياً مع قاعدة : سد الذرائع ، فان سماعها مفضٍ إلى مالا تحمد عقباه . وما رؤي كامل قط تولع بها ، وكانت طريقته مُثلى ، ولو وجد ، فالنادر لا حكم له .

والمدار على صلاح الأمة الذين هم السواد الأعظم ، فأثر الفساد من سماعها لهم أثر لا يرتاب فيه من له أدنى مسكة من عقل .

نعم ! قد يقال : إن الحكماء عدوا من الفنون الرياضية سماع الأوتار ، وقالوا : الإنسان موسيقي بالطبع . والأمر كذلك . ولكن أين سماع الحكماء ، الذي هو سماع التلذذ ، وإعطاء النفس جانباً مما ينشطها من أعمالها ، من سماع الرعاع ، الذي هو مدد لمواد ما يفسدهم ، ومثار لكوامن أميالهم الخبيثة . ولذا كان سماع الحكيم مما لا يدخل الخلاف ألبتة ، وإنما هو رياضة له ، وأما ما عداه ، فالحظر الحظر ! !

وباب سد الذرائع هو باب من أبواب الشريعة كبير ، ومقصد من مقاصدها العظيمة ، ومن غفل عنه ، وزعم الوقوف مع ما يصح من الآثار ، فقد جمد جموداً أضر بحكمة الشريعة ، إذ هي مبنية على جلب المصالح ، ودر المفاسد ، بلا ريب . وما من شريعة إلا وتكوينها لهذه الغاية .

ولذلك يلزم أن تتخذ هذه القاعدة دستوراً في كل جزئي ، حتى لو أن شعراً مجرداً من الوتر ، كان التلحين به والتطريب ، مما يبعث على الهيام والتشبيب ، للزم الحظر من إنشاده كذلك ، واستماعه ، والإقرار عليه . فلتفهم هذه القاعدة ، وليُبْنَ عليها ما لا يحصى . وهذه القاعدة من أقرب الطرق للحصول على الاجتهاد ، إذ بها ميزان الأحكام . والله سبحانه وتعالى العليم العلام .

(١٦)

اتباع أحسن القول

في بعلبك سنة (١٣٢٤) في ١١ شعبان

قوله تعالى :

« ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَاهُمُ ٱللَّهُ » .

هـذه آية عظيمة ، وصفة للمؤمنين فخيمة ، تدل على حالة لهم كريمة ، ألا وهي استماع المقال ، واتباع أحسنه من كل شيء ، ويدخل فيـه مسائل العلم دخولاً أولياً ، وحينئذ فلا يسوغ الجمود على أوضـاع محدودة في الفنون ، ورفض ما هو أحسن منها .

مثـلاً : ترى مفسري القرآن ، وشراح الأحاديث ، لم يزالوا يقررون آراء طبيعيي العرب في خلق الـكون والـكواكب والتشريح وغير ذلك ، مما جاء العلم العصري بأحسن منه وأصح .

أفيسوغ الوقوف والجمود في ذلك ، وعدم استماع علمائنـا القول ، حتى يتبعوا أحسنه ؟ وهل هذا الجمود من طبيعة الإسلام ، وكتابه ناطق بوجوب استماع القول واتباع أحسنه في كل زمان ومكان ؟

(١٧)

إعمال الفكر

في ٨ ذي القعدة بدمّر سنة (١٣٢٤)

من فظائع الحشوية في المؤلفات التي يتطفلون على جمعها ، أنهم يحيلون كثيراً من الأمور على أرباب الكشف ، وأنه لا يحل مُشكلةً إلا أهل الفتح ، أو أن ذلك تعبدي محض لا يعقل له معنى ، ولا يمكن أن يكشفه أحد ، إلى غير ذلك من الإحالات على المجهولات ، والإياس من النظر ، وإعمال الفكر ، والاقتناع بما كتب فيه ، أو حقق .

والحال أن كل مسألة مشكلة ، فمردّها الراسخون ، وهم أهل النظر الصحيح ، والفطنة الثاقبة ، والمطالعات الزائدة ، والبصيرة النيرة ، ولا يخلو منهم زمان ، فليُحْذَر من اعتماد ما يحيلون ، أو يتمخرقون !

(١٨)

وصية الله في الحقوق

في ٢٧ ذي القعدة الجمعة (١٣٢٤)

ظهر لي في آية : « كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ... الخ » ،

وكان درسنا صباحاً من البخاري في كتاب الوصايا :

إن هـذه الآية ليست منسوخة كما قيـل ، بل هي محكمة بطريقة لا أدري هل أحد سبقني بهـا أم لا ، فإني في تفسيري المسمى (محاسن التأويل) نقلت هناك مذاهب العلماء ، ولا يحضرني الآن أن ما أذكره مأثور أم لا ، وهو أن هذه الآية ، مع آية « يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ » ، متلاقيتان في المعنى ، من حيث أن المراد بالوصية وصية الله ، في إيتاء ذوي الحقوق حقوقهم ، وعدم الغض منها ، والحذر من تبديلها ، لما يلحق المبدل من الوعيد الشديد .

وخلاصـة المعنى على ما ظهر : « كُتِبَ عَلَيْكُمْ » ، أي : فرض عليكم فرضـاً مؤكداً ، بمثابة المكتوب الذي لا يمحى ، ولا يعتوره تغيير . « إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ » ، أي : قرب نزوله بـه ، بأن قربت مفارقته الحياة ، « إِنْ تَرَكَ خَيْراً » ، أي : مالاً يورث ، « ٱلْوَصِيَّةُ » أي : المعهودة ، وهي وصية الله سبحانه وتعـالى في إيتاء كل ذي حق حقه ، على ما بينته تلك الآية ، « لِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ » أي : في إبلاغهم فرضهم المبين في الآية « يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ » فإنه جمع آية « حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ » ، تأكيداً للكتابة بأنها أمر ثابت ، لا يسوغ التسامح فيه بوجه ما ، « فَمَنْ بَدَّلَهُ » أي : هـذا المكتوب الحق « بَعْدَ مَا سَمِعَهُ » أي : فعلم الحق المفروض فيـه « فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » أي : ولا يخفى عليه شيء من حال الممتثل والمبدل .

وقوله تعالى : « فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً » أي : ميلاً عما فرضه تعالى ، « أَوْ إِثْماً » أي : بقطع من يستحق عن حقه ، لما لا تخلو عنه كثير من الأنفس التي لم يدركها نورُ التهذيب ، « فَأَصْلِحْ بَيْنَهُمْ » أي : بأمر رضي به الكل ، « فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » أي : لأن الصلح جائز ، إلا صلحاً أحلَّ حراماً ، أو حرم حلالاً . والله أعلم .

(١٩)

فدية الصيام

خطر لي في (٢٠) رمضان سنة (١٣٢٥)

أن معنى قوله تعالى : « وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ » أي : عليهم إذا أفطروا فدية طعام مسكين . فيكون تشريعاً لحكم من أفطر ، وارتكب إثم تعدي حد ما كتبه الله عليه من الصيام ، وهو أن كفارته من هذا المأثم إطعام فقير ، ولا تدل الآية على التخيير والجواز ، كما زعم بعضهم ، مع أنها تفيد حينئذ تخيير المكلف بين الصوم والفطر مع الكفارة ، لأن عنوان قوله « كُتِبَ عَلَيْكُمْ » يدل على الوجوب الذي لا مندوحة عنه ، إلا باتباع الشيطان في مخالفته . وحينئذ فمن أغواه شيطانه ، ودلاه بغروره ، حتى أفطر ، فكفارته إطعام مسكين ، فالآية من قوله تعالى : كتب عليكم إلى آخرها ، تفيد أن الناس في الصيام على ثلاثة أقسام : مطيقين ، ومرضى ، ومسافرين . فالمطيقون : فرضهم

الصيام ، لكونه كتب عليهم كتابة ، لا رخصة لهم فيها . والمرضى والمسافرون : لرفع الحرج رُخِّص لهم أن يفطروا ، ثم يقضوا أياماً أخر .

وبقي أن يسأل سائل فيقال : ما حكم من تعمد الفطر ، وهو مطيق ، وما المخرج له من هذا المأثم ؟ فقيل : إنه تعالى شرع له كفارة لذلك وهو أن يطعم بدل كل يوم مسكيناً . وبه يُعلم أن ما روي من أنها نزلت في الحامل والمرضع ، فمعناه أن الآية مما يتناول عمومها تينك المرأتين ، لأنهما من أفرادها ، وذهاب الفقهاء قاطبة ، إلى الرخصة لهما في الفطر مع الكفارة ، دليل جليّ على أن الآية لها أفراد ، وهي غير منسوخة ، وأراها في غاية الوضوح والجلاء ، لولا ما كتب عليها من الأقوال والآراء التي حجبت الجل عن فهم المراد منها .

وقد جرت عادة التنزيل ان يذكر الفدية في مقابلة ارتكاب خلاف المأمور به ، كقوله تعالى :

« وَلا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ » أي : فحلق رأسه ، وخالف ما أُمر به ، ففديته وكفارته ما ذكر .

واصطلاح التنزيل الكريم التعبير عن المشروع في مقابلة احترامه ، وهو بدله ، تارة بالفدية ، وتارة بالكفارة ، كما تراه في قوله : « فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ » الآية . فكفارته عتق رقبة الخ . . .

قال لي قائل : لكن قوله تعالى « وَأَنْ تَصومُوا خَيْرٌ لَكُمْ » يدل

على التخيير ، حينئذ قلت : كلا ، وليس الخير على بابه في كثير من الآيات ، وانظر آية : « وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ » . وقوله : « تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ » .

ولا يذهب إلى أن مقابل ذلك فيه خير ما . فأسلوب التنزيل ليس على ما سبق للأفهام ، من الأوهام الوراثية .

قال لي قائل آخر : لكن لَمْ يذهب أحد إلى أن من تعمد الإفطار فأفطر ، أن كفارته إطعام مسكين ، بل فيهم من ذهب إلى وجوب القضاء ، ومنهم من ذهب إلى وجوب الكفارة العظمى عليه ، قلت : دعوى عدم ذهاب أحد ، دعوى عدم العلم ، وعدم العلم ليس علماً بالعدم ، فهل أحطت بمذاهب السلف قاطبة ، والأئمة المجتهدين ، في المشرقين والمغربين ؟

وثانياً : كفى أن قد ذهب إلى العمل بمضمونها في الحامل والمرضع ، الفقهاء قاطبة . على أنه لا يعترض بكلام الفقيه على النص ، وإنما يعترض بالنص عليه . فلو قيل عكساً : ما دليل من ذهب إلى أن فرض المطيق إذا أفطر القضاء وحده ولا نص من آية ولا حديث صحيح ، وإن روي في السنن شيء من ذلك ، فلا تقوم به الحجة ؟

وكذا يقال على من ذهب إلى كفارة الكفارة العظمى : ما دليل وجوبها على المطيق ؟ فلو قال : حديث المجامع ، يقال : إنه ورد فيه خاصة ، فمن أين لك تعميمه في غيره ؟ فلو قال : بجامع الإفطار ، نقول : هذا يقتضي تساوي

المفطرات في المـأثم بالرأي ، ولا قائل به ! على أن لقـائل أن يقول : إنه عليه السلام طلب منه في الكفارة ، الأعلى فالأعلى رغبة في الفـاضل عن الواجب الزائد عليه ، كالنافلة مع الفريضة ، ولذا ذهب مالك إلى وجوب الـكفارة العظمى على التخيير ، لا الترتيب ، وهو الحق .

(٢٠)

الخبر المتواتر - اسلام النجاشي

في أواخر ذي القعدة سنة (١٣٢٥)

لا خـلاف في إفادة الخبر المتواتر العلم ، أي : اليقين والقطع ، وهو ما رواه جمع عن جمع يؤمن تواطؤهم على الـكذب ، وذلك كعلمنا بالبلاد النـائية ، وملوك القرون الخالية ، وشهرة أنبائهم التي سارت في الخافقين ، كبلوغ الاسكندر الصين ، وتنصر قسطنطين ، وإسلام النجاشي ملك الحبشة في العهد النبوي .

فكل هـذا مسنده الشهرة البالغة ، والاستفاضة الزائدة ، وتواتر الخلف عن السلف بلا نكير ، ولذا كان التواتر أقوى طرق العـلم بعد الحس ، بل يؤول هو إليه لأن مرجع التواتر إلى الحس . وإنما أدرجت في المثل إسلام النجاشي ، لمـا نمي إليّ عن بعض كتبة الأوربيين من إنكاره ذلك ، وما كنت أظن من يكابر في المتواتر ، لأنه يدفع باللسان ، لمـا يقرُّبه الوجدان . وممـا تكسر به سورة المخالف ، إعترافه بكثير من القضايا والماجريات التي طبقت الأرض ، اعتماداً على الشهرة والنقل المتواتر .

ومن الغريب أن ذاك المنكر يعترف باكرام النجاشي لمن هاجر إلى دياره من المسلمين ، وينكر إسلامه ! فقلت : سبحان ربي ، بأي طريق يذعن باكرامه إياهم ؟ إن كان بالطرق التي سمعها في قصة الهجرة إليه ، ورويت في هذا الباب ، فهي — مع تعدد مخرجها ، وكثرة مخرجيها من الأئمة الأثبات الثقات — مروية بمعنى متحد ، وأسلوب مؤتلف ، لا تناقض فيه ، ولا اضطراب ، ولا اختلاف ، ولا اختلال ، وكلها مجمعة على إكرامه لهم ، واعترافه بحقية ما سمعه منهم ، من محاسن الاسلام أول الأمر ، إشارة وتلويحاً ثم مجاهرته بايمانه ، لفظاً وكتابة ، تصريحاً صريحاً . وإن كان إنكاره من طرق أخرى ، فلا يقدر أن يجد لنا حرفاً واحداً ينافي ما تواتر باجماع الأمم كافــة على اختلاف مللها ونحلها لأن حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق ، خلافاً للسوفسطائية . وإن كان من فلسفة تصورها ، فلا أثر للخيالاتِ ، أمام الحقائق التاريخية المنقولات .

نعم ! ساء ذاك الأوربي أن يؤمن بمحمد ﷺ امبراطور الحبشة (النجاشي) ، ويوفد البُرُد بكتابه الحامل إسلامه إليه ، لأن مثله يعد بالألوف الألوف ، لا سيما وقد نقل من مقاومة النجاشي لقومه ، وصدعه بالحق بينهم ، ما لم ينقل عن غيره ، مما يقيم الحجـة على المنكرين ، ويلبس الصَّغار للمخالفين . ولـكن ماذا على من تعرف الحق من القرآن ، وذاق من حجته حلاوة الايمان ؟

« يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ ٱللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللهُ إلاّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْـكَافِرُونَ » .

(٢١)

بلاغة التنزيل

في ١٠ ذي الحجة ضحوة عيد الأضحى سنة (١٣٢٥)

خطر لي أن ما يستعمله بعض الكتاب من قولهم : « بهمة حارة » أو « محبة حارة » أو « نشاط بحرارة » ، ونحو ذلك ، له نظير في اللغة العربية ، إذ مرد ما هو بمعنى ذلك ، وأرق منه وألطف ، وهو قوله تعالى : « ولا صديق حميم » . فالحميم إشارة إلى حرارة الحب ، والصداقة ، والمودة ، والعطف ، والنصرة ، والاهتمام بالشؤون . فما يزعمه بعضهم أن التعبير بالحرارة جديد ، هو قديم الاستعمال بألطف وأرق .

(٢٢)

الحفظ والاستنباط

(في ١٤ ذي الحجة سنة ٣٢٥)

كثيراً ما كان يخطر لي أن عدم سهولة الحفظ على الباحثين في الحقائق ، هو قيامهم على النظر والاستنباط ، حتى رأيت ذلك اتفاقاً في أحد فصول الجاحظ قال رحمه الله — : وقد أحسن من قال — : مذاكرة الرجال تلقيح لألبابها . وكرهت الحكماء الرؤساء وأصحابُ الاستنباط والتفكير جودةَ الحفظ ، لمكان الاتكال عليه ، وإغفال العقل من التمييز ، حتى قالوا : الحفظ عذق الذهن ، ولأن

مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلداً ، والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه إلى بدء اليقين وعز الثقة .

والقضيـة الصحيحة ، والحكم المحمود ، أنه متى أدام الحفـظ ، أضر ذلك بالاستنباط ، ومتى أدام الاستنباط ، أضر ذلك بالحفظ ، وإن كان الحفظ أشرف منزلة منه . ومتى أهمل النظر ، لم تسرع إليه المعاني ، ومتى أهمل الحفظ لم تعلق بقلبه ، وقلّ مكثها في صدره .

وطبيعة الحفظ غير طبيعة الاستنباط . واللذان يعالجان به ويستعينان متفق عليه ألا وهو فراغ القلب للشيء ، والشهوة له ، وبهما يكون التمام ، وتظهر الفضيلة اهـ . فالحمد لله على الموافقة .

(٢٣)

العمل بخبر البرق

(في ١٩ ذي الحجة ١٣٢٥)

كثيراً ما سئلت ، لا سيما إذا كنت في قضاء أو لواء عن حكم التلغراف المرسل ليلاً من دائرته في ولاية باثبات هلال رمضان ، هل يعمل به ؟ فكان جوابي : يعمل به بلا توقف ، لأن إطارة الخبر به من خَدَمة إدارته ، والموظفين على القيام بشؤونه ، لم يعهد منهم الكذب في مثله ، ولا الافتراء على القضاة المثبتين لدخوله ، وعلى الحكومة التي تأمر بضرب المدافع ليلتئذ . فهو وإن كان مثل الخبر الواحد ، ولكن يباينه في مخرجه لأن مخرجه من التواتر والشيوع ،

ومورده لا يمكن إلا بصفتة المعلومة ، وليس كالخبر الواحد من جميع شؤونه ، لأن خبر الواحد به الوحدة مخرجاً وموردا ً، والانفراد البحت ، فليفهم من يغالط في هذا الفرق . على أنه قد يرتفع عنه شبهة وحدته بتأكيده بتلغراف ثان ، فيه تهنئة وتبريك ، على ما جرت به عادة الأكابر في مثله .

وبالجملة فأمر التلغراف بعد أن أنعم الله على الناس به وبتسهيل الأمور به ، لا يتوقف فيه إلاّ كل من يريد معاندة سنة الله ، وتيسيره بالحرج الذي لا فائدة للتعصب فيه إلا إظهار الجمود أو إرجاع الناس القهقرى . أرأيت كيف اتخذته السلاطين عماداً لها في أهم شؤونها ومصالحها ، من الحرب والسلم ، والعزل والتولية . وإذا أراد الله نفاذ أمر فلا مرد له .

هذا ما أذهب إليه . وقد سبق لي من سنين ، الإفتاء بذلك ، ورأيت ممن توافقت معه في الفتوى بذلك الشيخ عليش مفتي المالكية بمصر ، والعباسي مفتي الحنفية بها ، والشيخ محمد الشطي مفتي الحنابلة بدمشق ، والشيخ عبد الباقي الأفغاني نزيل حمص المنفي . رأيت مقالاتهم في ذلك تؤول إلى العمل به في الجملة ، وإن كان لبعضهم تفصيل . والله أعلم .

(٢٤)

التراجم والتاريخ

(في ليلة ٢٣ ذي الحجة سنة ١٣٢٥)

حالة التراجم الموجودة في التواريخ المتأخرة حالة مؤلمة ، وطريقة منحطة جداً .

ذلك لأن مشرب السلف في التاريخ هو إيفاء المترجَم ما له وما عليه ، حتى تنجلي للواقف حياته ، معراة عن شوائب الكذب ، والتخليط ، والأوهام ، والشطط .

أما هؤلاء الذين ولجوا هذا الأمر على غير بصيرة ، وأتوه من غير بابه ، فقد خلطوا فيه ، وتطفلوا على موائد فلسفته وسره ، ومشوا مع أهوائهم ، فتحزبوا لأحبائهم ، وحملوا على أعدائهم ، وبخسوا معاصريهم ، ونالوا من مناوئيهم .
ولقد كنت كتبت في (تعطير المشام) تراجم المشاهير الدمشقيين ، والله يعلم أني الآن غير راض عن تلك الطريقة ، وأود لو سمحت الفرصة أن أعيد النظر ، وأستأنف كتابته ثانية على ما أحب الآن ! إلا أني لم آل جهداً وقتئذ بالتنقيح ، واختيار الصحيح ، على ما مضى لهـا من أعوام بالنسبة إلى هذا الوقت . ولذلك ترى التراجم الأخيرة القريبة العهد أرق من الأولى بكثير . وكنت رأيت أن لا أذكر من مساوىء المترجم شيئاً ، إقتصاراً على الخلة الحميدة التي وجدت فيه ، ليُتأسى فيها .

وقد ظهر لي أخيراً شيء آخر : وهو أن حق من يصنف في تراجم الرجال أن لا يترجم إلا ذوي الأثر أو التأثير . فالأول يدخل فيه من صنف وألف في أي فن كان ، بشرط الإجادة لما صنفه أو اخترعه ، ما لم يسبق فيه . ويدخل في الثاني كل عالم غير مؤلف ، ولكنه أنجب تلامذة ، أو وقف نفسه على التعليم في فن أو فنون ، وكان سالكاً سبيل السلف في النصح ، والصدق ، والإخلاص ، والأخلاق .

وما عــدا هذين الصنفين — أعني ذوي الأثر أو التأثير — من كل حشوي مقلد جامد ، أو متزي بزي العلماء ، وهو من المتعالمين ، أو ممن ارتقى منصب أهل الفضل ، وليس فيه فضيلة تؤثر ، ولا منقبة تذكر ، غير الغنى ، أو الجاه ، أو الإمارة مثلاً ، فما أجدر التواريخ أن تجرد من ذكرهم ، وتوفر الصحائف من تسويد وجهها بأمرهم . ومن لا فضل فيه ، ولا مزية تؤثر ، فما أحراه بأن يهجر ! وبالجملة فحق المؤرخ في التراجم أن يكون كالبخاري في الآثار ، والرجال ، والله أعلم .

(٢٥)

الشعر والعلم

في الليـلة المذكورة

ظهر لي في هؤلاء الذين نبغوا في الشعر في هذا العصر ورجعوا في نظمهم إلى قوة السبك ، وجودة المعنى ، وبلاغة التركيب ، أنهم فضحوا باجادتهم كل نظم متداول للشعراء المتأخرين ، فانه — والحق يقال — لا مناسبة بين شعر هؤلاء ، وشعر من أدركناه من الشعراء ، أو روينا من منظوماته في القرون المتأخرة . ولقد أعرت نظري مرة لديوان أحـد العراقيين ، فلم أر فيه ما يبهج ، أو يأخـذ بمجامع الألباب .

وهكذا قل عن بعض دواوين المصريين في القرن الماضي . والقصد أن تداول الشعر العالي ، والنظم الراقي ، يحث الأنفس على أن تنهج ذاك المنهج ، بل أسمى

منه ، أو تحجم عن هذا الباب ، لئلا يصيرهـا الزمان المستقبل هزؤاً ، ولا حول ولا ! ولكن ماذا نقول ، وهم عندي معذورون ؟ إذ الشاعر إنما يجود شعره بجودة محفوظـه ، ولم يكن لديهم من الدواوين الراقية ما يرقي شعرهم ، فلم يحفظوا من نشأتهم إلا ذاك النظم الركيك المتداول في عهدهم . ولو وفقوا لمن يرشدهم إلى حفظ دواوين الأقدمين ، ومطالعة رسائل المنشئين الأولين ، كبديع الزمان ، والخوارزمي وغيرهما ، لارتقى شعرهم وخيالهم .

كما أن حالة العلماء في العصور الأخيرة بهذه المثابة ، أعني أنهم فقـدوا الـكتب المرقية ، والأسفار العالية ، أو أعرضوا عنها تقليداً لمن يزهد فيها ، أو لمن لا يدري قيمتهـا ، ممن توسد مشيخة العلم ، وليس من أهلهـا ، فتسلسل التقليد والتأسي ، ولم يزل يتدلى حتى انتهى والحمد لله أجله في هذا العصر ، وأخـذت انفس الراسخين تدل الناس على العلم الصحيح ، وأسفاره النافعة ، وتأخذ بأيديهم إلى حالة العصور الأولى ، عصور العلم والتوسع في الاطلاع ، والتبحر في المدارك ، فاستفاق الـكثير من سباتهم ، واستيقظوا من رقدتهم ، زاد الله الأمة من انتشار العلم ، ووفقهم للعمل الصالح ، والدعوى إلى هدى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

(٢٦)

الاسلام دين الحق

(في ٢٥ ذي الحجة سنة ١٣٢٥)

قوله تعالى : « لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ » .

وعد الله تعالى رسوله إظهار دينه على الأديان ، وإعلاء كلمته على سائر الملل والنحل ، فوفى له وسيفي له ما هو أعظم وأكمل .

أما إيفاؤه له فقد أشرق نور الإسلام ، وحل سلطانه في عهد الخلفاء الراشدين في أعظم الممالك الموجودة وقتئذ في المعمور ، والمشار إليها بين الأمم الراقية المقصودة بالذات ، والقارة في مقر المدنية والحضارة والعمران الشهير .

ثم كانت سرعة انتشاره في أقل من قرن من ظهوره ، من أعظم خوارقه وأكبر آياته ، وأجل الغيوب التي ظهر مصداقها ، إذ لم يعهد مثلها في تاريخ الأديان قاطبة .

وسر ذلك أن هذا الدين دين حقيقي ، عماده الحق ودعواه إلى الحق ، ومحاكمته إلى الحق . والحقيقة متى وجدت طريقاً جرت فيها بقوة الصاعقة .

(٢٧)

القرآن والزبور - دين الله بين الجافي والغالي

(في ٢ محرم ١٣٢٦)

خطر لي من أيام مطالعة الزبور ، المنسوب لداوود عليه السلام ، لمراجعة ما أحيل إليه في القرآن الكريم ، من قوله تعالى :

« وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّالِحُونَ » .

فرأيت مصداقها في المزمور السادس والثلاثين ، ونصه : « إن الاشرار يستأصلون ، وأما الذين يرجون الرب فإنهم يرثون الأرض . عما قليل لا يكون المنـافق ، تتطلع إلى مكانه فلا يكون . أما الودعاء فيرثون الأرض ، ويتلذذون بكثرة السلام . جانبِ الشرَّ ، واصنع الخير ، تسكن إلى الأبد ، فان الرب يحب العدل ، ولا يخذل أصفيـاءه ، بل إلى الأبد يحفظون . أما الأَثَمَةُ فيعـاقبون ، وذرية المنافق تستأصل ، والصديقون يرثون الأرض ويسكنون بها إلى الأبد » . وهذا المزمور أكثره من هذا المعنى .

وبه يعلم أن كثيراً من كتب أهل الـكتاب ، على ما بها من التحريف ، وعدم الثقة البالغة ، يرى فيها ما يؤيد التنزيل الكريم ، ولذا يستشهد بالموجود بين أيديهم كثير من أفاضل علمائنا في بشارات نبينا محمد ﷺ ، وفي بعض الأنبياء ، كما فعل البقاعي المفسر في تفسيره ، وذلك لإقامة الحجة عليهم من كتبهم . وخير ما يحتج به الخصم مما يعتقده . على أن ابن تيمية يرى أن التحريف في كتبهم لم يستغرق أسفارها كلها ، وفصولها أجمع ، بل بقي ثمة ما لم تمس أيديهم تحريفه ، وهو ما كان من باب مكارم الأخلاق والآداب ، وبعض الأحكام ، إلا أن ذلك لا يعرفه إلا الراسخون ، ودقيق أن يضبط بضابط .

وقد بسط التفصيل في ذلك الحافظ ابن حجر في فتح البـاري ، في أواخر أبواب صحيح البخاري ، وأوسع النقل في بحث تحريفهم ، بما يجدر مراجعته .

وقد رأيت في أثنـاء مراجعتي لترانيم داوود عليه السلام المذكورة ، ما يدل على أنه كان يأتي بالاستغاثات ، والابتهالات ، والأدعية ، والتضرع ، بنغمات خاصة

عند العبرانيين معروفة ، وتارة على ذوات الأوتار ، مما أشعر أن هذا كان مرخصاً فيه ، بل كان من طقوس العبادة ، ولم يزل أثره في الكنائس الآن .

والظاهر أن ما وجد لدى المسلمين في المساجد ، وما اعتيد من التلحين في الأذكار والتطريب فيها ، أصله من تقليد أهل الكتاب .

وإن صح ما كتب عن داوود عليه السلام في زبوره من التلاحين والتطريب ، دل على جواز ذلك المرء إذا أراد أن يتضرع ، أو يدعو ، أو يقرأ ، وقد ورد تحسين الصوت في القرآن ، فأولى بغيره . وقد صح قوله عليه الصلاة والسلام لأبي موسى الأشعري « لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داوود » .

وبالجملة فهذه المسألة ينبغي أن يؤخذ فيها بالتوسط ، وينبذ فيها الغلو . ودين الله بين الجافي والغالي .

(٢٨)

التمسح بالآثار

(في ١٠ محرم سنة ١٣٢٦)

تذكرت أني حضرت في العام الماضي تشييع جنازة صديق ، فقيل لي : إنه أوصى بأن يكفن بعد تكفينه بالأكفان المعروفة بجبة أحد المشايخ الأقدمين ، كان خبأها ليتبرك بها ، وتضم إلى أكفانه . فسئلت : هل الأفضل تكفينه بها ، أو ما تراءى لأحد أقربائه من شرائها ، ودفع قيمتها لورثته الفقراء ؟ فأجبت :

بأن بيعها أفضل ، لنفع الحي بثمنها ، أو الاكتفاء عنها بالكفن المعروف ، وللحذر من إضاعة المال ، لأنها تذهب سدى ، مع أنها ذات قيمة .

هذا ما أفتيت به وقت الاحتفال بجهازه . ثم بعدُ ظهر لي أن لو أفتيت بتكفينه بها لكان أولى ، وذلك ما تبين أن مبتاع هذه الجبة أضحى يعتقد فيها البركة والنفع ، ويتمسح بها ، ويستشفي ، مما هو شبيه بما نهى عنه النبي ﷺ من مبادىء الشرك . ومعلوم قصة عمر في الشجرة التي بايع النبي ﷺ تحتها ، وذلك سداً لباب الافتتان ، والتشبث في الأمور بغيره تعالى ، على ما في ذلك من الاتكال على مثل هذه الأمور ، ورفض العمل الصالح الذي أمر الله تعالى به .

وقد ذكر الغزالي في الإحياء أن عادة التمسح بالآثار من النصارى ، وأن شريعة الإسلام قاضية بأن لا يتمسح بشيء إلا بالحجر الأسود ، لأنه من مناسك الحج ، فافهم .

(٢٩)

مدرسة الدين

(في ٢٣ محرم سنة ١٣٢٦)

سرُّ كون الدين ما جاء بالدعوة إلى حقائق الأمور الطبيعية ، ولا التنقيب عن شيء من علوم المظاهر الطبيعية ، هو أن ذلك مما يشوه وجه الدعوة إلى الإصلاح والصلاح ، والسعي فيما يدرك به من الدارين الفلاح والنجاح . ولو مزجت الدعوة بتلك العلوم ، لاضطربت الفهوم ، وطال على مرتاد الحق بلوغه ، لأن المدعو

يحتاج إلى أن يمضي سنين في مدرسة الدين ، حتى يقف على اليقين ، ويفقه من الكون حقائق التكوين ، فاقتضت حكمة الحكيم ، وهو الرؤوف بعباده الرحيم ، أن يدعونا بوحيه الحق ، على لسان رسول الصدق ، إلى ما لا يمكن لنا الوصول إليه إلا بواسطة الرسل الكرام ، عليهم الصلاة والسلام ، من صلاح عقائدنا ، وعباداتنا ومعاملاتنا ، وتحسين أخلاقنا ، وأن نجدّ في الصلاح ، ولا نبغي في الأرض الفساد ، وأن نقوم بالقسط في الأعمال ، وأن نعتبر بما سلف من الأجيال ، ونأخذ العظة من لسان الحال ، وأن يكون منا طائفة مجدة لتوفير العلوم ، واستنباط الفهوم ، يفيضون على من لم يبلغوا مقامهم ، ولم يرتقوا أعلامهم ، أخذ الله بأيدينا ، ووقانا الشر الذي يردينا .

(٣٠)

المعتزلة وخلق الأفعال

(في غرة صفر سنة ١٣٢٦)

مسألة خلق الأفعال ، يرى الواقف على أدلتها من المطولات الكلامية ظهور أدلة المعتزلة ظهوراً بيناً . فاذا قيل لهم : لم يعذب الله العصاة ؟ قالوا : لارتكابهم المعاصي . فاذا قيل لهم : لم ارتكبوها ؟ قالوا : لإرادتهم ذلك ، وإنهم مختارون . وإذا قيل لهم : أليس يجب صدور المعصية عنهم حتى يطابق علم الله تعالى ؟ أجابوا : بأن العلم تابع للمعلوم ، دون العكس . فليس العلم بالمعصية سبباً للمعصية ، حتى تجب المعصية بوجوبه ، فعلمه تعالى بمعصية زيد لأنه سيعصي ، لا إن زيداً

يعصي لأنه قد علم الله معصيته . ومن المعلوم أن وجوب الشيء المقارن اللازم لفعل لا يجعل ذلك اضطرارياً ، بحيث يقبح العقل التكليف .

وأما طريقة الحكماء فهي أن العقاب لازم من لوازم أفعالهم ، ففعلهم هو سبب له كالمرض ، فان حدوثه من لوازم فساد ما في الأخلاط ، وكذلك العقاب لازم للأفعال المذمومة ، وارد على النفس منها لفساد ملكتها .

(٣١)

العلم والحفظ

(في غرة جمادي الأولى في قرية مسرابا من قرى الغوطة سنة ١٣٢٦)

سبق لنا مراراً ما ناقشنا به من يذهب إلى أن من الأحكام تعبدياً ، أي أمر لا يعقل معناه . وأن ذلك من قائله قضاء على أمر لم يظهر له هو وجهه ، بأنه لا يفهم لأحد ، ولا يمكن الوصول إليه . وهذا من أعجب العجيب ، بل شهرة ذلك أعجب ، مع أن الذاهب إلى ذلك لو تفكر فيما يؤول إليه رأيه من هدم الحكم والمعاني ، وتكليف ما لا يعقل وجهه ، والإتيان بشبه العبث ، لأحجم عن ذلك ، اما مفوضاً ، أو محيلاً الأمر إلى أهله علماً بأن فوق كل ذي علم عليم .

ثم رأيت الإمام الغزالي شفى الغلة من ذلك ، وصرح بأن من لم يفقه الأسرار فليس بعالم ولعمر الحق إن ذلك كذلك ، وهاك ما قاله في الباب السادس من الجزء الأول في أسباب اليقين : ومنها أن يكون إعتماده في علومه على

بصيرته ، وإدراكه بصفاء قلبه ، لا على الصحف والكتب ، ولا على تقليد ما يسمعه من غيره ، وإنما المقلد صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه ، فيما أمر به وقاله . وإنما يقلد الصحابة رضي الله عنهم ، من حيث أن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله ﷺ .

ثم إذا قلد صاحب الشرع ﷺ في تلقي أقواله وأفعاله بالقبول ، فينبغي أن يكون حريصاً على فهم أسراره ، فان المقلد إنما يفعل الفعل لأن صاحب الشرع ﷺ فعله . وفعله لا بد وان يكون لسر فيه ، فينبغي أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال ، فانه إن اكتفى بحفظ ما يقال ، كان وعاء للعلم ، ولا يكون عالماً . لذلك كان يقال : فلان من أوعية العلم ، فلا يسمى عالماً إذا كان شأنه الحفظ من غير اطلاع على الحكم والأسرار .

(٣٢)

المرأة

(أواخر ليلة الثلاثاء في غرة جمادي الثانية سنة ١٣٢٦)

مسألة كون وجه المرأة ويديها عورة أو صوتها ، ألظاهر أن الذاهب إليه استند إلى قاعدة سد الذرائع ، أو أنه أراد حيث تنبعث الشهوة المحرمة (وإنما قلنا ذلك لأنا بعدُ لم نقف على نصّ الذاهب إليه من كلامه نفسه ، إذ ليس لدينا إلا كلام المتأخرين وذلك ما ذكر) .

وقاعدة سد الذرائع مهمة ، حيث تفضي الوسيلة إلى ما تفضي قطعاً . وكذا

حيث تنبعث داعية المحرم ، إذ ذلك معلوم من قواعـد الشرع ، وأصول الدين .
وأما لو لم تفض الذريعة ، أو لم توجـد الداعية فعـلاً ، فالاطلاق فيه إشكال قويّ ، لا منتدح عنه . بيانه : أن المردّ في كل شيء متنـازع فيه إلى الله ورسوله ، أي : كتابه تعالى ، وسنة نبيه ، ولم نجد في الـكتاب العزيز ذلك ، ولا في السنة ، فان كثيراً من نسـاء الصحب كن يأتين فيسألن النبي ﷺ في محضر من أصحابه ، وكان ﷺ يسير بمن معه إلى بعض بيوت أصحابه ، وتقوم المرأة عليهم . وكان كثير منهن يخدمن في الحرب الجرحى ، ويحملنهم إلى بيوتهم ، كما يمر ذلك بقارىء صحيح البخاري في كتاب الجهاد ، وغيره من أبوابه .

فليدقق الناظر في هذه المسألة ، وليحكّم السنة ، إن أراد الصواب ، ولينظر بعد . وفي نيتي إن يسر الله تعالى — وهو المدعو لتيسير كل عسير — أن أجمع مسنداً للنساء خاصة ، لا أذكر فيـه إلا ما خرّجه الشيخان ، وأصحاب السنن ، ولا أزيد عن مروياتهم الصحيحـة شيئاً ، فيكون كتاب حديث ، لا رأي . ولا ريب أن خير الهدى هدى النبي ﷺ .

(٣٣)

علم الله

(١٣ شعبان سنة ١٣٢٦)

تذكرت وأنا راكب في بيروت ، ذاهباً إلى المعلقة ، أنه من أيام وقع السؤال عن قوله تعالى « وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً » بأن عمومه يدخل فيه أنفاس

أهل الجنة ، مع أن خلودهم أبد الآبدين يحيل احصاءها ، لأن المحصى ، له أجل ونهاية ، فما الجواب ؟ فكتبت والوابور سائر : قال بعض الحاضرين : إنه تعالى يعلم المتناهي متناهياً ، وغير المتناهي يعلمه غير متناه . فقيل : هذا بحث آخر ، وهو مسلم ، لكن لا علاقة له بالجواب عن الآية . ثم قلت لهم : : معنى الآية ، والله أعلم ، وأحصى كل شيء أي « محصيّ » ، يعني : يمكن احصاؤه ، وإنما حذف الموصوف لإشعار السياق به ، إذ لفظ « أحصى » وكلمة « عدداً » تقتضي أن القضية في المحصيِّ على أن الخطاب إنما هو في الكوائن المتعينة — أي المتحيزة — إذ هي المعروفة للمخاطبين ، فلا يشمل اللفظ الكريم إلا ما يتبادر إليه الذهن ، لا ما غمض عنه .

ولا ريب أن الكوائن المذكورة محصية ، مهما بلغ بها العدد . على أن أنفاس أهل الجنة مما يورد ، ليس مما يقصد الإخبار عنه بالذات ، لأنه تابع لذواتها ، ولاحقٌ لها ، فهو كالأعراض التي لا تبقى زمانين ، والمواد التي تتحلل وتتبدل . وبالجملة فالخطاب دائماً إنما يرد على المألوف المعروف في كثير من الآيات الكريمة ، والآثار الصحيحة . والغاية : العظة ، والاعتبار ، والخشية ، والافتكار ، وسعة العلم الإلهي ، وأنه لا يغرب عنه شيء مما يشير إلى أن جزاء وأي جزاء ، يوم العرض واللقاء . فليحفظ هذا ، وليقس عليه ما يورد في مثل هذا الباب . هذا ما كتبته والوابور سائر ولما أراجع ما كتب في الآية فليراجع .

(٣٤)

حقيقة الروح

(في ١٥ شعبان سنة ١٣٢٦) في المعلقة

عجبت من الخلاف في حقيقة الروح . وقد يعد عجبي هذا مما يتعجب منه ، ولا عجب . فإن الأمر إذا توالت على العجب منه القرون ، وقلد فيه اللاحق السابق تقليداً ، ورثه الأبناء عن الآباء ، والتلامذة عن الأساتذة ، استحكم شأنه في النفوس ، ورسخ في أعماق القلوب ، كيفما كان حاله . ومنشأ ذلك التقليد البحت ، وقلة من يبحث باستقلال فكره . وهكذا فيما نبحث فيه ، وهو الروح ، فقد هوّل في شأنها من غَبَر ، تهويلاً شب عليه الصغير ، وشاب فيه الكبير .

الروح لفظة عربية . وعندي أن كل لفظ استغلق على سامعه ، واستعجم عليه موضوعه ، فما يجلوه إلا الرجوع الى اشتقاقه ومأخذه ، ثم لا يلبث الباحث أن ينجلي له معناه أشد الانجلاء[1] .

....

....

....

....

---

(١) المخطوط مخروم ، ففيه نقص قدره ثلاث وعشرون صفحة . وقد بحثت عن هذا النقص فلم أوفق . ولهذا وقف بحث الروح عند هذا الحد . كذلك يلاحظ أن البحث التالي ناقص ومن ترقيم السوانح يتضح أنه قد فاتتنا احدى وعشرين سانحة .

(٥٤)

شروط الاجتهاد

....

....

....

....

... وحكمته ما يؤهله لذلك بلا حد ولا تحديد فإن المحدد مشترط شروطاً ليست مشروعة ، ولا مأخوذاً عهدهـا في الدين . وقد قال النبي ﷺ ، فيما أخرجه الشيخان ، والجماعة ، في حديث بريرة المشهور : « كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل و وإن كان مائة شرط . »

وحينئذ فهذه الشروط للمجتهد ، إذا لم يشترطها الله في كتابه ، ولا رسوله في سنته ، فمن أين تكون حجة يلقم بهـا كل من يدعي الاجتهاد ؟ وأيضاً هـذه الشروط ، إما أن يشترطها مجتهد ، وليس قول مجتهد حجة على مجتهد غيره ، أو مقلد ، فأحرى أن لا يكون كلامه حجة ولا مقنعاً . على أن من نظر إلى هديه ﷺ في تفقيه أصحابه ، وتعليمه إياهم قواعد الدين وكلياته في أيام يسيرة ، لـكثير ممن يفد مؤمنـاً من قبيلة ، ويمكث أياماً في حضرته ﷺ ، ثم يرسله ﷺ داعيـاً وهادياً ومرشداً .

فعجباً لمن يصد عن أهلية الاجتهاد من أفنى عمره بالفقه والحديث والتفسير

والأصول ، ووسائل العلوم ، ويحرمه منها ، ويقيم عليه الطـامات ، ويسلم أن في العصر النبوي كان الأمر أيسر من ذلك . ما هو إلا جمود أو حسد ، أو نفاسة المعاصرة !

نعم ، لا ينكر أن كثيراً من تلك الشروط يتقاضاها العقل السليم ، والنظر القويم ، وإلاَّ لجاز لكل أحد دعوى ذلك ، ودسه نفسه في فرسان هذا الميدان ، ودونه خرط القتاد . إلا أن المهم هو معرفة أن هذه الشروط ليس على ما يفهمها المقـلدون والمتفقهة ، من أنهـا تنخلع لوجودهـا النفوس ، وتنقطع للحصول عليها الأنفاس .

كلا ، بل لو أراد المنصف أن يقول : إن الأمر مع هذه الشروط وأضعافها متيسر لكل عالم ، لما أبعد ، لأن مادة اللغة دونت بأجمعها ، بل ضم إلى كتبها الدخيل فيها ، والغريب ، والمولد ، والمعرب ، والعامي ، فـكيف يعسر على العالم فهم مادة منها بعد هذا ؟

وهكذا يقال عن كتب التفسير ، المخطوط منها والمطبوع ، التي لم تغادر قولاً ولا معنى إلا جمعته ، وهكذا عن كتب الأحاديث ، ولا سيما عن كتب أحاديث الأحكام ، وكتب أسماء الرجال ، وكتب الخـلاف والفروع . فهل يعسر بعـد تيسر هـذا كله عن العالم الذكي النبيه أن يتوقف في حكم ، أو يشكل عليه شيء من الأصول والفروع ؟ اللهم إلا ما لا نص فيه مما يوجبه دقة النظر ، وحينئذ فالأمر أيسر مما يهولون ، وباب الاجتهاد أوسع مما يضيقون ، وموارد العلم والفنون أعذب وأقرب مما يظنون ، ورحمة ربك خير مما يجمعون .

(٥٥)

الصوفية - الفلسفة الإسلامية

(في عيد الأضحى سنة ١٣٢٧ في صالحية دمشق)

سنح لي أن أقيد ما أراه في مسألة كتب الصوفية ، والمشهورين بالعارفين منهم ، من الاعتدال في ذلك ، والتوسط فيه ، حباً بالإنصاف . فإني رأيت من النـاس من يكفر أربابها ، ويحرّم النظر فيها ، ويحرقها إذا ظفر بها ، لاشتمالها على ما يعتقده حلولاً ، واتحاداً ، من ألفاظٍ ظاهرُها ذلك . كما أن من الناس من يجلها وأربابَها ، ويشغف بها ، ويدعو إليها ، ويراها لب الألباب ، وأنها الجديرة بأن ينفق في مطالعتها العمر ، وندر من يتوسط في ذلك أو في أصحابهـا ، بل الأمر في بعض مؤلفيهـا أن يصفه قوم بأنه صدّيق ، وآخرون بأنه زنديق . فما هـذا الحال ، وأين الاعتدال ؟

فأما مسألة التكفير ، فإنا لا نكفر كل من استقبل قبلتنا ، وصلى صلاتنا ، واعتقد عقيدتنا ، ونلتمس لكلامه ما يدرأ عنه الـكفر ، للأصل الأصيل في باب الحدود ، وهو حديث : « إدرأوا الحدود بالشبهات » . نقول هذا أولاً مع الحشوية الذين لا يفقهون لكلام أولئك من قاعـدة ، وإلا فإنهم في فهم على أُصول قرروها ، واصطلاحات حرروهـا ، من رجع إليها رأى أن كلامهم شعبة من فن الحكمة . إلا أن مؤلفيها لمـا كانوا من أرباب الرياضة ، والتجريد ، والتزهـد ، مع الانصباغ بصبغة الدين ، كان كلامهم أشبه بفلسفة إسلامية ، لا يونانية محضة ،

فأصبحت مزيجاً ، كما يعلمه الواقف على كلامهم في مطولات كتبهم ، كالفتوحات والأسفار الأربعة ، وغيرها .

نعم ، لا ينكر أنها اشتملت على ما هو مردود ، ومنظور فيه ، مما ظهرت الحكمة الجديدة ، والفلسفة الحقة الآن ، بخلافه ، إلا أنها في تلك العصور كانت هي المشهورة المتداولة . وأما اشتمالها على ما يشعر بالحلول ، أو الاتحاد ، فهو ما يفهم منها بحسب ظاهر اللفظ ، ولو رجع إلى مقاصد أربابها لوجدهم يبرؤون إلى الله من أن يفهم حلول أو اتحاد ، لأنه خلاف الفن ، وخلاف قواعده ، لأن الوجود الكلي لا يتعين ، فتعينه بذات ، ودعوى أنه هو هي ، خطأ في الفن ، فالعلم يتبرأ منه . فاذن من الفرية عليهم أنهم يقولون بالحلول والاتحاد ، ومن الجهل بقواعدهم ومشربهم واصطلاحاتهم .

(٥٦)

سبيل الله

(في ١٩ ذي الحجة سنة ١٣٢٧)

كتبت للسيد رشيد رضا صاحب المنار ضمن كتاب له :

قرأت لسيادتكم جواباً عن سؤال سائل في حكم إيتاء الزكاة إعانة لبعض المدارس ، ورأيت جواب حضرتكم بالمنع ، وهو ما يفهم من كلام الفقهاء في كلامهم على الأصناف الثمانية . إلا أن الفقير يرى جواز ذلك ، لدخوله في صنف « سبيل

الله » ، فإنه بالمعنى الأعم : هو كل طريق خير ، ومشرع بر ، فيدخل فيه المسؤول عنه وأمثاله .

وأما حصر الفقهاء « سبيل الله » بالمجاهد ، فإنه من باب تفسير العام بأهم أفراده وأشرفها ؛ للحاجة الماسة إليه وقتئذ ، لا أنه هو هو ، وهو ظاهر . وقد استفدت ذلك مما ذهب إليه الحنابلة ، وذكره في الإقناع ، أن الحج من « سبيل الله » وعبارته : « والحج من السبيل نصاً ، فيأخذ إن كان فقيراً من الزكاة ما يؤدي به فرض حجٍ ، أو عمرة ، أو يستعين به فيه . وذكر القاضي جوازه في النفل ، كالفرض في سبيل الله . اهـ

وأرى أن التوسع في تعميم « سبيل الله » يسهل على كثير من الأغنياء دفع أموالهم لكثير من المشروعات المهمة التي تنفع الأمة بل . أعتقد أن من رحمة الله بعباده تشريع هذا الصنف ، ومجيء العنوان عنه بسبيل الله ، لأنه لا أعم منه لمثل ما ذكر وغيره ، كشراء كتب لطلبة العلم ، وإصلاح طريق في محلة ، أو إجراء ماء ، أو ترميم حجر مدرسة وإصلاح سقوفها ، وأمثاله . فليتأمل مولانا ، فعسى أن يوافقني على ما رأيت .

ولا اعتبار بعدم وجود من سبقنا بالتصريح بذلك — فيما لدينا من الكتب — لأن النص العام يجب ابقاؤه على عمومه ، حتى يخصصه نص آخر . ولا يقدر أحد أن يأتينا بنص من كتاب أو سنة أن سبيل الله هو الإنفاق على المجاهدين دون غيرهم أبداً ، إلا من آثار موقوفة على الصحابة والتابعين ، مما ليس بحجة

ولا قاطع . وقد استدركت هذا على كثير ممن كتب ، وعلقته في مواضع من كتب الفقه .

ثم بعد كتابتي ما تقدم راجعت النهاية لابن الأثير فإذا به يقول في (سبل) : « سبيل الله عام يقع على كل عمل خالص سلك به طريق التقرب إلى الله تعالى ، بأداء الفرائض ، والنوافل ، وأنواع التطوعات . وإذا أطلق فهو في الغالب واقع على الجهاد ، حتى صار لكثرة الاستعمال كأنه مقصور عليه » اهـ . فهذه الغلبة من باب العرف الخالص — أعني عرف الفقهاء — لا العرف الشرعي الذي مرده إلى النص ، لأن سبيل الله ليس نصاً في الجهاد ، بل ولا ظاهراً فيه كما لا يخفى على من له إلمام بالأصول . اهـ

وقد أجابني السيد رشيد في كتاب له من الاستانة بتاريخ ٣ المحرم سنة (١٣٢٨ هـ) بأن ما ذكرته له من تفسير سبيل الله ، هو ما اختاره الأستاذ الامام رحمه الله تعالى من بضع سنين في التفسير (قال) : وهو ما كنا ذكرناه من قبل في تفسير سبيل الله . (قال) : وما أجبنا به في جزء المنار الحادي عشر لا ينافيه ، لأن السؤال عن صرف مال الزكاة لبعض الجمعيات ، المشترك نفعها بين جميع الملل والأمم ، من مسلمين ، وكتابيين ، ووثنيين ، وملحدين ، وسلميين ، وحربيين . ولا يقال إن جمعية كهذه تصرف لها زكاة المسلمين ، ويعد ذلك من الانفاق في سبيل الله . اهـ كلامه . وليس فيه مغمز . وهو متجه ، لأن « سبيل الله » ما تمحض لما فيه تقوية دينه القويم ، وتأييد شرعه الحكيم ، والله العليم .

(٥٧)

التصوير الشمسي

(في أواخر صفر سنة ١٣٢٨)

لا يزال يهجس في نفسي ما ابتليت به الأمم الآن من التصوير الشمسي وغيره ، في كل بلد ، حتى دخل كل دار ولو في أوعية الكبريت ونحوه ، فكنت أقول : هل من مخرج من الأمر الشرعي يرتفع به الحرج الوارد في كثير من الأحاديث ، من التنفير منها ، والوعيد عليها ؟ وهل في الأمر تفصيل ، بحيث أن المحرم منها ما كان قصد به عبادته وتعظيمه ، كما تعظم الأوثان ؟ أي : يرفع ليخضع له ويتوسل به ويتضرع إليه ، وهو ما يميل إليه قلبي ، حتى إذا فقد منها هذا القصد ، لم يتناولها النهي . وإن كان ما يتراءى باديء بدء أن العموم في هذا الباب يحتمل أن يكون سداً للذريعة ، وهي من المقاصد الدينية الجلية . إلا أن الخطب إذا تفاقم هان ، والأمر إذا ضاق اتسع . لا جرم أن البحث يحتاج إلى دقة وتدبر .

ثم خطر لي اليوم أنه كما اشتهر وتقرر ، أن كثيراً من الآيات يفسر بعضها بعضاً ، فكذلك يقال : كثير من الأحاديث يفسر بعضها بعضاً ، وحينئذ فلا يبعد أن تكون الأحاديث العامة في النهي عن التصوير ، ولعن فاعليها ، محمولة على مصوري أهل الكتاب ، فان ما عم في أثر قد يخص في غيره ، وما أُجمل في معنى قد يبين في آخر ، فكذلك ههنا .

والدليل عليه : نص حديث الصحيحين عن أم سلمة وأم حبيبة ، أنهما ذكرتا لرسول الله ﷺ كنيسة رأتاها بالحبشة ، فيها تصاوير ، فقال رسول الله ﷺ : إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات ، بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا تيك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله . فأبان أن المصورين هم أولئك الذين يصورون تلك الصور بقصد أن تعبد ، وهو ما عليه تلك الفئة من النصارى الذين أشار لهم الحديث ، المفتونة بالصور ، وإملاء الكنائس منها . وعليه فمن صور لا لهذا الغرض ألبته ، فهل يشمله الوعيد في الأخبار العامة ؟ فمن استدل بالعموم ، فلمنازعه أن يقول : إن الخاص يقضي على العام ، عند جمهور الأصوليين ، أو أن اللام فيها للعهد ، والمعهود هم الذين حكي عنهم في حديث أم سلمة وأم حبيبة . والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال ، سقط به الاستدلال . وكان بعض الحفاظ يقول : لو لم نكتب الحديث من عشرين وجهاً ما اتضح لنا معناه . والله أعلم . ونسأله الهداية للطريق الأقوم .

(٥٨)

المتعة

(في أوائل ربيع الأول سنة ١٣٢٨)

تحقيق مسألة المتعة

إذا نظرنا إلى مسألة المتعة ، والجدال الذي احتدم بين السنة والشيعة من جرائها ، أو بالأخص بين ابن عباس وعلماء آل البيت عليهم السلام ، وبين غيرهم من الفقهاء ، نجد أن المسألة جديرة بالعناية والتروي في شأنها ، وإعارتها الدقة في

البحث ، إذ ليس مثلها على كثرة ما قيل فيها وما استدل ونوقض ، بالسهل الذي يمكن أن يلوكه الحشوى في كلمة ، تقليلاً من شأنه ، وتنفيراً منه ، أو بالأحرى قصوراً عن خوض غماره ، وعجزاً عن اقتحام لجة بحاره .

المسألة عجيبة جداً ، والأعجب عدم المحاكمة إلى الاعتدال والنصفة فيها .

ضاع الحق والتوسط في هذه المسألة وأمثالها ، مما دخله الحشو ، وتسرب إليه التمذهب ، وباض وفرخ فيه التعصب ، إذ لا يجد المرء إلا انتصاراً للمذهب ، ومحاماة عن المشرب ، لا تحزباً للحق وتأييداً له بشأن المتمذهبين المقلدين في كل عصر ومصر ، ولذا لا يرجو المرء منهم فيصلاً للخلاف ، ولا رجوعاً عن الاعتساف .

يجب على المهتم بهذه المسألة وأمثالها أن يبحث عن مآخذها وأصلها ، ودليل كل فريق فيها ، ثم يحاكم كلاً إلى الأقوى والأقوم ، فلا يلبث أن تتجلى له الحقيقة معراة عن الشوائب ، لخلو نفسه عن الأغراض ، وسلامة قلبه من الأمراض ، وهكذا القاعدة في كل مسألة يجب أن يطرح لأجلها التعصب في التمذهب والتحزب لقوم دون آخرين ، فان الحق لا يعرف بالرجال ، وإنما الرجال تعرف بالحق .

المتعة عبارة عن أن يتعاقد رجل مع امرأة خلية ، على أن ينكحها إلى أجل كأسبوع أو يومين ، أو شهر ، أو أقل ، أو أكثر ، بأجرة معلومة . ولا يشترط فيها وليّ ، ولا شهود . فاذا مضى الأجل فسخ التمتع . ثم بعد ذلك له الخيار في تجديد عقد آخر معها ، أو الفسخ ، وانحلال العصمة . إذا نظرنا إلى هذا النكاح

نجده نكاحاً غريباً في بابه ، مخالفاً لسنة النكاح ، وما تتقاضاه من نظام الزيجة التي تدعو الفطرة إلى استدامته ، والمحافظة عليه ، ومن كونه على حال يحرس النظام العائلي ، والقانون المنزلي .

فههنا يتساءل : هل صح وقوع نكاح المتعة في العهد النبوي ، وهل ثبتت مشروعيته بترخيص النبي ﷺ فيه إقراراً له وفتوى به ، وهل كان وقوعه لضرورة لا منتدح عنها ، ومشقة لا يحتمل الصبر عنه لأجلها ، أو كان أمر هذا النكاح على الإباحة المطلقة ، والحالة العامة ؟ ثم ما أصل المرويّ فيه ، هل هو آية دل عليه نطقها أو فحواها ، أو هو حديث ، أو أثر ؟ ههنا يجب على الباحث في المتعة أن يتأمل فيما ذكر ، وينظر إلى الزمن الذي وقعت فيه ، والحال الذي دعا للترخيص فيها ، ومرتبة المرويِّ فيها ليزداد بصيرة في الأمر ، ويقيناً في الحكم .

إن كل مسألة مختلف بها ، ومجتهد فيها ، تنوعت بسببها الأقوال ، وتباينت لأجلها آراء الرجال ، يجب على كل من أراد طمأنينة القلب ، وثلج الصدر ، وقرة العين ، وهدوّ البال ، أن يبحث عن مأخذها ، ومدارك المختلفين فيها ، ويستفرغ جهده في التنقيب عن أصولها ومردِّها ، حتى إذا ورد على مشارعها ، وأترعت حياضه من مواردها ، أخذ بالأقوى والأقوم ، واحتاط للأوضح والأسلم . وأما دعوى التخيير ، بلا تنقير ، فإنما أتت من ذوي التقصير ، وهي مخالفة لما تقرر في الأصول ، ومدعيها مغرور أو ذو تغرير .

فمسألتنا هذه إذا بحث المنقب عن وقوعها في العهد النبوي ، فيجد أن الرواة اتفقت على حكايته ، وأجمعت على روايته ، في الصحاح والسنن والموطآت

والمسانيد . ويرى ثبوت الإذن بها من النبي ﷺ ، إقراراً منه ، وقولاً صريحاً . إلا أنه يجد أن هذه الفتوى والرخصة كانت لضرورة وأي ضرورة . ذلك أن الذين استأذنوه واستفتوه كانوا في سفر وغربة ، اشتدت عليهم فيه العزوبة ، وفرغ صبرهم عليها ، وحالت تقواهم لله ، وخشيتهم منه ، دون الإلمام بما لا يرضيه ، فطلبوا من هذا العسر يسراً ، ومن ذاك الضيق فرجاً .

« وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجاً »

وكان يتفق لهم نساء أيامى من البادية ، يجتزن بهم في مسيرهم ، أو رباطهم ، فوقع في أنفسهم ، عليهم رضوان الله ، أن يستفتوا النبي ﷺ في التحصن بهن إلى أجل ، وهو المدة التي ينقضي بها سفرهم أو رباطهم ، وذلك بأن ينكحوهن تلك المدة بأجر معلوم ، تعففاً عن الحرام ، وتحصناً من الإلمام بالآثام ، فرأى النبي ﷺ من الحكمة ، والتقوى ، والمصلحة ، أن يرخص لهم فيها ، فأذن لهم وأفتاهم . أذن لهم وأفتاهم ، ولكن في تلك الحالة ، التي من تبصر بها رأى من الضرورة ما يسوّغها . إذ الشرع أرحم من أن يجمع على التقيّ جهادين ، جهاد عدوه ، وجهاد ما تضطر إليه نفسه ، وتسلبه لأجلها راحته ، فجعل له من ذلك مخرجاً ، ومن عسره يسراً ، وفرج عنه بأن شرع له ذلك .

وهكذا كان الحال مع الصحابة الذين شرعت لهم المتعة المرويّ وقوعها مرات في عدة غزوات مع النبي ﷺ .

ثم إن أولئك الذين رووا مشروعيتها ، أخبروا بنسخها ، أعني ارتفاع مشروعيتها . فإنهم علموا أن الإذن بها كان لضرورة ملجئة ، وحالة قاسرة ، وأما بعد أن

ألقت الحرب أوزارها ، وأشرقت شمس الحق ، وأرسلت أنوارهـا ، وعادوا إلى سربهم ، وأمنوا شر عدوهم ، فلم يبق من داع لتطلب المتعة ، والترخص بها . هذا معنى قولهم : نسخت ، أو نهي عنها . إذ في الحضر والإقامة من تيسر الزواج لمرتاده من طرقه المشروعة ، كفاية عن المتعة وغنية عنها .

فعلم أن المتعة إنما وقعت اضطراراً إليها ، من تألم العزوبة ، وخوفاً من العنت ، وتصوناً للنفس من الإلمـام بالمحظور ، باتفاق الرواة لسببها ، وإجماعهم يدل على هذا : أنه لم يرو أن أحداً تمتع في الحضر على عهد النبي ﷺ ، مثل ما تمتع معـه في السفر ، ولا استأذنه احد ان يترخص بها في الإقامة كما استؤذن في السفر . فلا ريب ان وقوعها كان لحالة مخصوصة لم تتعدها ، وصفة لم تتجاوزها .

وأما الاستدلال على جوازها مطلقاً بقوله تعالى :

« فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ »

فيرده ان الآية في سياق أحكام الزيجة المعهودة ، وما شرع فيها ، كما يظهر بأدنى تأمل في سياقها وما تقدمها ، ولو كانت محكمة في ذلك لجرى عليه العمل ، ومضت به السنة ، وتسارع إليه الناس ، وفشا فشواً لا سترة فيه ، كما هو شأن المشروعات المحكمة ، لا سيما المرخص فيها ، لا بل كان لم يبق احد أيماً ، لسهولة الأمر حينئذ ، وتوق الأنفس إلى مثـله ، لأن الميل إلى ذلك في مقدمة ما زين للنـاس وحبب إليهم . إلا انا نجـد الأمر بخلاف ذلك ، لم يمض فيـه عمل في الحضر ، ولا خطر على بال أيم في إقامـة ، على عظم تشوف الأنفس لذاك الأمر .

والسبب — كما قلنا — هو ان الزيجة ليست بالأمر الذي يكون مناطاً للأخذ والرد ، والتلاعب في الإبضاع ، كيفما شاء الهوى ، وإنما هو عقد عظيم ، وميثاق جليل ، تراعى فيه واجبات وآداب ، تحمل على تكوين عائلة ، وحفظ نظام بيتي وإعفاف نفس وإحصانها ، على حالة لا تجر ويلاً ، ولا تستدعي شقاء .

أرأيت لو أبيح للمرء أن يتمتع كيفما شاء ، ماذا يكون وراءه من الويل والشقاء ، لو حملت كل متمتع بها منه ، وربما كنّ مئين ، وهو لا يقدر أن يمون ذات جنين ؟ شقاء عليه وعليها ، وضرر وإضرار إليه وإليها ، وفساد للأحوال ، واختلال وأي اختلال !

على أنا مع الشيعة إنما نتحاكم إلى التنزيل الكريم ، لأنهم لا يرون في آثارنا مقنعاً .

وقد قال تعالى : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ » ، والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه الحكيم .

ومن سَبَرَ آيات النكاح ، يجد فيها كثيراً يشير إلى حظر المتعة ، فمن ذلك قوله تعالى بعد تعداد المحرمات :

« وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ »

أي : محصنين أنفسكم عن الإلمام بالمحظور . والإحصان يشعر بالاختصاص الذي يمنع النفس أن تذهب كل مذهب ، فلا يتصل كل ذكر بأية أنثى ، ولا كل أنثى بأي رجل ، كيما يعيش الزوجان عيشة الاختصاص ، ليتعاونا بذلك على تربية النسل ، وحفظ كيانه من التفرق والتشتت .

وفي قوله تعالى : « غير مسافحين » إرشاد إلى ما ذكر ، بحصر الداعية إلى النكاح في تحصيل عائلة ، وتربية نسل ، لا في مجرد سفح الماء ، وقضاء الوطر فحسب ، فإن ذلك لو كان مقصوداً بذاته ، لأدى إلى فساد عام ، وجرّ ويلات لا تحصى .

والمنصف يجد في المتعه فقد الإحصان الذي هو الاختصاص العائلي ، ويجد السفح مقصوده الأعظم . ورب متمتع بامرأة لأجل لا يرضاها زوجة ، بل يخجل من ان يشير إليها . فأين الإحصان الذي نص عليه الكتاب ، ونوه به في عدة آيات لا سترة في معناها ولا حجاب ؟

ومن الآيات التي تشير إلى بطلان نكاح المتعة قوله تعالى :

« وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ » .

فتشريع العدول إلى نكاح الرقيقة عند فقد مهر الحرة ، وتحمل إرقاق الولد ، ما هو إلا لأن النكاح لم يقصد به إلا الاستدامة والاختصاص ، وهو معنى الإحصان ، كما تقدم . ولو كان نكاح المتعة مشروعاً لقيل بدل « فمما ملكت أيمانكم » : فمما تستمتعون به ، لأنه هو الذي يتيسر لمن يفقد طول الحرة ، ويكون خيراً له من استرقاق ولده . بل ولما عدل عنه إلى نكاح الأَمَة بوجه ما ، وهو جليّ .

ومن الآيات التي تدل على بطلان النكاح الموقت آية :

« وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ، إِلاّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ ، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ » والمرأة المتمتع بها لا تسمى زوجة عندهم ، إذ لا تعطى أحكامها .

قال عالم الشيعة الحلي ، في التبصرة ، في فصل المتعة : « ولا يقع بها طلاق ، ولا لعان ، ولا ظهار ، ولا ميراث لها وإن شُرط ، وتعتد بعد الأجل بحيضتين ، أو بخمسة وأربعين يوماً » .

فأنت ترى أن لها عندهم أحكاماً خاصة ، ما أنزل الله بها من سلطان . وإذا لم تكن زوجة ، ولم تعط أحكامها ، فنكاحها يدخل في قوله تعالى بعد تلك الآية : « فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ » . فيكون مبتغيه عادياً ، متجاوزاً ما أحل له إلى ما حظر عليه .

وأما الآية التي يستروحون إليها ، وهي قوله تعالى :

« فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ »

فليست من هذا الباب — باب المتعة — في شيء وإنما هي لبيان وجوب إيتاء المهور ، وسماها هنا أجراً ، لأنها في مقابلة الانتفاع بالابضاع . وقد أكد تعالى في غير ما آية على الرجال إيفاء المهور ، لما يوجد في كثير منهم المطل بها ، أو العزم على أكلها ، مع أنه حق واجب ، وأمر مفترض لازب . أفإن قيل : ما كان مستند الترخيص بها في العهد النبوي ، هل هو عموم هذه الآية ، او امر آخر ؟ قلت : لا يصح ان تكون الآية مستنداً لذلك ، وإلا لكانت محكمة فيه ، ولكان لم يذهب إلى غير ذاك المعنى أحد من السلف ، مع ان الأمر ليس كذلك ، إذ كل من فهم ذلك منها زيّف قوله ، وضعف فهمه ، لأنه فهم مخترع ، ومعنى مبتدع ، وتشريع محدث من نص لم يرد به ، ولم يقصد إليه . فما بقي إلا أنها محكمة في غير ما فهمه الشيعة منها ، وأنها ليست منها في شيء ، وهو كذلك ، فانها في

بيان وجوب إيتاء أجور ما استمتع به منهن في النكاح المعروف ، ولو كان المراد منها ما فهموه لما وردت على هـذا الأسلوب ، إذ تكون على أسلوب يقتضي مشروعية التمتع إلى أجل ، في بيان لا إغلاق فيه ، وإيضاح لا إجمال فيه ، على قاعدة المشروعات العامة ، في الأمور الهامة ، فانها بيانات قاطعة لا إجمال فيها ، ولا إبهام ، وليس كذلك ما يستروحون به . والمرويّ في هـذا الباب كله من الموقوف على الصحابة أو التابعين ، ممـا لا حجة فيه لو كان متفقاً عليه ، فكيف والنزاع فيـه شديد . فالآية في معزل عن فهم المتعة منهـا ، كما يدريه المنصف غير المتعصب .

إذا تقرر هذا ، فمستند إجازة النبي ﷺ للمتعة في تلك الغزوات هو المصلحة . **والمصلحة قد تقيد النص ، لأنها فوقه** ، وهذا ما يذكره الأصوليون ، ويسمونه مسألة التفويض ، ويقولون : هل يجوز أن يقال للنبي : أُحكم بما تراه ؟ وكانت المصلحة وقتئذ هي ضرورة من استفتاه في شأنها إليها ، والضرورات تبيح المحظورات . وقد صرح بذلك من أفتى بحلها كابن عباس . فقد أخرج الخطابي عن سعيد بن جبير عنه قال : « ألا إنما هي كالميتة ، لا تحل إلا للمضطر » . وأخرج البخاري عن أبي جمرة قال : « سمعت ابن عباس يسأل عن متعة النساء فرخص ، فقال له مولى له : إنما ذلك في الحال الشديد ، وفي النساء قلة ، أو نحوه . فقال ابن عباس : نعم » .

هـــذا هو الفيصل بالتحقيق ، فان من وقع في مثل تلك الحـال الشديدة ، ودفعته ضرورته إلى التشبث بذلك ، بحيث علم من نفسه وهو مسافر أنه لا مندوحة

له عن أحد أمرين : إما الزنا ، وإما التمتع المذكور ، فلا جرم أن ارتكاب أخف الضررين والمشي مع المصلحة ، مما يقضى به ، ويصار إليه . وذلك — كما قلنا — عند الضرورة الملجئة ، كالاضطرار إلى الغذاء ، ولا ثمة إلا ميتة . ولا ينكر أن يحصل هذا لكثير من الناس ، عامتهم وخاصتهم ، بل وخيارهم ، كما وقع لأولئك الصحابة رضوان الله عليهم . والتقي يطالبه الوازع الرباني بالالتجاء إلى طريق مشروع ، وبلوغه إلى هذه الدرجة من التوق والاغتلام ، يبيح له المبحوث فيه إباحة لا ريب فيها .

وبمثل ما ذكرناه يندفع الخلاف ، ويصير النزاع إلى الائتلاف ، إذ يحمل القول بنسخها على ما يكون هناك مندوحة عنها ، كمقيم متحصن حركته شهوته إلى التمتع ، ولا باعث له إلا الاستجابة لداعي الشهوة ، وثمة ما يغنيه من زوجة أو زوجات . فهذا مما يتناوله النهي ، لعدم الضرورة الملجئة إليه . ويحمل القول بجوازها ، والإذن في الترخص بها ، على ضرورة تلجىء إليها ، ولا يبقى متسع إلا إليها . وهذا ما يفيده آثار المجوزين لها كما نقلناه قبل . وقد عد ابن حزم من القائلين بها من الصحابة والثابتين على إباحتها بعد رسول الله ﷺ ابن مسعود ، ومعاوية ، وأبو سعيد ، وابن عباس ، وسلمة ومعبد ابنا أمية ابن خلف ، وجابر ، وعمرو ، وابن حريث ، ورواه جابر عن جميع الصحابة مدة رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر إلى قرب آخر خلافة عمر . ثم قال ابن حزم : ومن التابعين : طاووس ، وسعيد ابن جبير ، وعطاء ، وسائر فقهاء مكة . نقله عنه ابن حجر في فتح الباري .

وبالجملة فما قدمناه من التفصيل هو الفصيل في هذه المسألة . وأما المنع مطلقاً ،

أو الإباحة مطلقاً ، فيأباه مقتضى النصوص فيها . وعندي أن لا تحاكم فيهـا إلا إلى الآثار الصحيحة فيهـا ، أعني المروية من طريق رواة الصحيح ، لمن رغب إلى الترجيح في المرويات فيها ، إذ الترجيح إنما هو للصحيح ، والله العليم الحكيم .

(٥٩)

الاتفاق والاختلاف

(في ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٢٨)

سنح لي والقطار الحجازي الذى يحملنا إلى المدينة المنورة سائر بنـا في فيحاء « جباب » من قرى حوران ، أن الآية : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالونَ مُخْتَلِفِينَ إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ » .

لهذه الآية معنى أوضح مما ذكروه . بيانه : أن هذه الآية سيقت بعد بناء الأمم المكذبة لأنبيائها ، وما قاوموا به الحق ، وكادوا لأهله من الأنبياء وأتباعهم ، وبعد أمره عليه السلام بالاستقامة ، وبالصبر على أذى قومه ، وعلى الصدع بالحق بينهم ، تأسياً بما قصه عليه من أنباء اخوانه الأنبياء عليهم السلام .

ساق هذه الآية بعد كل ذلك ، ليروح عن قلب النبي ﷺ ، ويخفف من همه وحزنه ، لما كان له من الحرص الشديد على هداية قومه وانقيادهم لسعادتهم ، فكأنه يقول له — بعد أمره بالصبر على الدعوة — : لا يأخذ منك الحزن على حالهم ، والتأسف على عنادهم ، مأخذه البالغ ، فان ثمة سراً آخر مانعاً من استجابة جميع من تدعوه ، ألا وهو سبق القضاء الأزليّ ، بوجود من يأبى الحق ويعاند

فيه ، وليس ذلك لعجز في القدرة الإلهية ، فان الله سبحانه لو شاء لهدى الناس أجمعين وجعلهم أمة واحـدة ، لا اختلاف بينهم ، لأنه القـادر على كل شيء ، إلا أن سبق قضائه وعلمه ، بكون هذا الخلق تقتضي جبلته هذه الحالة — حالة الاختلاف — قضى بذلك لمـا له من الأسرار والحكم ، فقوله : « ولا يزالون مختلفين » يشير إلى هـذا ، لأن الاختلاف مما تتقاضاه جبلتهم ، وإلا لما كانوا أناسيَّ ، ولكانوا عالماً آخر ، ولكن هم الأناسيُّ ، واختلافهم يتبع خلقهم وفطرتهم ، فكأنه تعالى بهذه الحكمة التي تشير إلى سبق العلم الأزليِّ ينبهه إلى الرفق بنفسه ، والاشفاق عليها ، وإلى أن يكون ذا عين أخرى ، ينظر بها إلى مثل هذه الحقيقة . وللآية نظـائر كثيرة ، كقوله : « وَلَوْ شاءَ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُـدٰى » ، « وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا » .

فقوله تعـالى : « ولا يزالون مختلفين » ، كالتصريح بمـا يشير إليـه قوله : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحـدة » ، تأكيداً لهـذه الحقيقة ، وتعريفاً بموضعها . ومعمول قوله : « مختلفين » محذوف ، دلّ عليه التصريح به في آية أخرى ، كآية : « اختلفوا في الحق » . أي : ولا يزالون مختلفين في الحق ، بمعنى مخالفين فيه ، منقسمين فيه انقسام المتلوّن في اختلاق ما يرده ويصد عنه .

وصيغة « مختلفين » تدل على زيادة كيدهم للتفرقة فيه ، والتنفير عنه ، ولا تتناول الآية اختلاف المختلفين ، فيما ليـس من أصل الدين ، كاختلاف أهـل الفروع والمجتهدين ، لأن مثل ذلك لم يعن بالآية ، ولم تنزل في مثله . ولا يقـال : إن لفظها يعم ما ذكر ، لأنه يقال : لا عموم إلا فيما يراد من الآية ، ويفهم من

معناهـا ، لا في كل ما يتناوله اللفـظ ، ولو لم يكن من عرف التنزيل . يوضحه ان الآية إنما نزلت تنعى على الكافرين محادَّتهم للتنزيل ، وإعراضهم واختلافهم فيـه ، لا في اختلاف أهل الملة الواحـدة شيعاً في مسائل لا تضر جوهر الدين وأصله ، وإن أضرت بقوة رجاله ، لتقسم القوى وتفرقها .

نعم ! كثير من مسائل الفروع المختلف فيهـا ، لو أعيرت جانب الانصاف في إيثار الدليل الأقوى ، وأطراح ما عداه ، لما كان هناك خلاف أبداً ، فتتحد الكلمة في الفروع أيضاً كالأصول . وهذا ما يرجى أن تهتدي إليه الأمة ، كلمـا رق شعورها ، ولطف وجدانها ، ومحيت من نفوسها محبة التعصب والتمذهب .

إذا تقرر هذا فقوله تعالى : « إلا من رحم ربك » أي : ممن هـداه إلى الاتفاق على الحق ، وجمع الكلمة عليه ، وذلك بالايمان بما جاء ، والاذعان لمـا دعا إليه .

وأما قوله تعالى : « ولذلك خلقهم » فاللام لام العاقبة ، ولها نظائر كثيرة في التنزيل الكريم ، وفي شواهد كثيرة من كلام العرب ، كما قرر في موضعه . أي : فكأن عاقبة أمرهم ومآلهم هذا الاختلاف والانقسام ، الذي أصبح كالجبليِّ في ذواتهم ، وليست اللام لام العلة ، لبداهة بطلانه ، فان علة الخلق هو العبادة التي حقيقتها القيام بما أوجبه تعالى على عباده ، مما يقودهم إلى سعادة الدنيا والآخرة ، كما نطقت بذلك آيات عديدة . وما تكلفه بعضهم من ارجاع الضمير إلى الرحمة المفهومة من قوله : « إلا من رحم ربك » فلا يتلاقى مع سياق الآية ، ولا يأتلف بالمراد منها وما حمله على ذلك إلا جعل اللام للتعليل ، وهو لا يلتئم إلا بما ذكره ،

وقـد فاته أن التعليل أحد معاني اللام ، وليست له في سائر مواقعهـا . فتفهمه ولا تكن أسير التقليد .

(٦٠)

معنى : الزنى يورث الفقر والزواج يورث الغنى

(في أواخر ربيع الأول ١٣٢٨)

سنح لي في معنى القول المأثور : « إن الزنا يورث الفقر ، والزواج يورث الغنى » معنىً غير ما يفهمونه ، من أن ذلك بالخاصية ، لأن فيها إحالة على شيء غير معقول ، وإنما المعقول أن يكون المراد بإيراث الزنا للفقر إنما هو صرف المال ، وإضاعته في محرم لا غاية له ، فان ما ينفقه الفاجر على البغاء لا ينتهي أمده ، وكم من ذوي ثروة ضاعت في هوى العواهر ، فكيف بغيره ؟ ولا يغتر بالمتهتكين من أرباب اليسار ، فلو انكشفت للعاقل جلية حالهم ، ووقف على مخبرهم ، لرثى لهم من الديون والطلبات التي يئنون من أثقالها ، ويتنفسون الصعداء من جرائها ، وإن كان مظهرهم باديء بدء على ما يروق ، فليس الباطن كالظاهر . وهـذا يعرفه من سبر غور شؤونهم ، ولـكن هي المحنة تعشي البصائر ، وتمتلك السرائر .

وأما إيراث الزواج الغنى فجليّ . فان من أحصن نفسه بالزواج ، اضطر إلى أن يسعى على عياله وآله ، وبقدر همته واهتمامه ، يجـد ثمرة سعيه واكتسابه . وبالضرورة إن المتزوج يحس من نفسه داعية الاكتساب والكدح ، إذ يصبح قيم عائلة وراعياً ، فلا بدّ أن ينتج له سعيه بركة ما . وربما يكون قبل تزوجه كَلّاً على أبيه ،

أو ذا قناعة باليسير ، فيصبح بعده لايرضى بتلك الحالة ولا تكفيه ، فيسعى جهده وينال ما قدر له ، فاذا وازن بينه قبل الزواج وبينه بعده ، يجد أنه فتح باب الاستغناء بالسعي والكسب ، فلا يلبث أن يصير غنياً بذلك . والكلام كله مع ذوي الألباب ، فلا عبرة بغيرهم ممن رضي بالكسل والقلة ، أو أن يكون كَلاًّ على غيره ، ومصيبة على آله وبني نوعه ، فان أُولئك لا يقام لهم وزن ، ولا يؤبه لهم .

(٦١)

الفصل والوصل

(في ٢٦ شعبان سنة ١٣٢٨)

سألني الشيخ عبد القادر القصاب ، شيخ ديرعطية ، ونحن في قرية الحميراء ، عن سر الاتيان بالواو في جملتي الشهادتين في التشهد ، وعن حذفها في الأذان — وقال لي إنه رأى للشيخ عميرة في حاشية المحلى بحثاً في هذا ، ولكنه نسيه لبعد عهده به — فتأملت ملياً ، ثم خطر لي أن الجملتين اللتين بينهما نوع تناسب ، أو قدر منه ، يجوز فيهما الوصل والفصل — الوصل اعلاماً بما فيهما من هذا التناسب — والفصل رجوعاً إلى فقد حقيقة التناسب فيه .

فما نحن فيه ، أعني الشهادتين ، كأنه أشير بورودها على الوجهين إلى النظرين ، فان نظر إلى أن إطاعة الله إطاعة رسوله ، والايمان به هو الايمان بما جاء به ، ظهر التناسب ، فحسن الاتيان بالواو ، وإن لوحظ الفرق بين الخالق والمخلوق ،

وأن لا جامع بين القديم والحادث ، يظهر عدم التناسب ، فلا يؤتى بالعطف .
وهكذا كل مقام له وجهان ونظران — هكذا ظهر لي والله أعلم .

(٦٢)

الوصية للوالدين

سنح لي صباح الثلاثاء في ٤ ربيع الثاني سنه ١٣٢٩ وكنت أطالع من البخاري في الجامع قوله تعالى :

« يُوصِيكُمُ ٱللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنْثَيَيْنِ » .

أن بهذه الآية الكريمة يحل إشكال عظيم ، استعظمه غير واحد ، وذلك في آية :

« كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ » الآية . . . فإن كثيراً ذهبوا إلى أنها منسوخة . فمنهم من ذهب إلى أنها نسخت بآية المواريث ، ومنهم من ذهب إلى أنها نسخت بحديث : (لا وصيه لوارث) كأنهم فهموا أن الأمر بالوصية ينافي الميراث ، لأن من له سهم مقدر من مورثه لا يستحق أن يوصى له ، لأن الوصية تبرع لغير وارث ، فلذلك عولوا على نسخها .

إلا أن المتدبر يعجب للقول بنسخها ، لا سيما والنسخ مآله إلى رفع الحكم وإبطاله ، مع أن ألفاظ الآية لا أصرح منها في الإيجاب والافتراض ، لقوله : « كتب عليكم » والكتابة الايجاب والافتراض . ولقوله : « حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ » .

والحق جاء مؤكداً لما فهم من الايجاب والافتراض . ولقوله : « فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ » حيث توعد المبدّل بهـذا الحـكم ، والمغير له بالوعيد ، ولا يكون ذلك إلا على واجب . فـكيف ينسخ هـذا ، وقد حوى من مؤكدات الايجاب ، ما لم ينزل مثله إلا في أهم الفروض ؟

فإذن هي محكمة أشد الإحكام ، لا منسوخة ، وإذا كان كذلك فما معني وجوب الايصاء من الخير للوارث ، مع أن سهمه محدود ، ونصيبه معلوم ؟ فالجواب : أن معنى الايصـاء في الآية ليس هو التبرع والتصدق الذي تفهمه العـامة من كلمة الايصاء والوصية ، فإن هذا عرف خاص لهم ، ليس هو المراد من الإيصاء والوصية في القرآن الكريم ، فإن عرف القرآن لم يجر بذلك ، كما يدريه من تبصر مواد « وصى » في آياته كلها ، والرجوع إلى اصطلاح التنزيل هو الواجب على كل من أراد أن يفهم تفسيره ، وما نشأ الاشتباه إلا من خلط اصطلاح باصطلاح ، وعرف بعرف .

(٦٣)

الدعـاء خفية

ورد عليّ وأنا في نافلة المغرب ليلة ٢٠ رمضان سنة ١٣٣٠ أن في قوله تعالى : « أُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخِفْيَةً » إشارة إلى حكمة بليغه ، وفائدة عظيمة ، وهي سر الأمر بأن يكون الدعاء على الصفة المذكورة ، أعني : التضرع والاختفـاء . ذلك أن الخفية تشعر بلزوم اجتناب الجهر بالدعاء .

وسرّ ذلك ان الجهر مشوش للسامع ، مؤلم للجليس ، مفرق لهمته وهمـه ،

دالٌّ على جفاء وخشونة في فاعله ، فإرشاد القرآن الكريم إلى الخفية إرشاد إلى أدب كبير ، يجعل المتمسك به في عداد اللطفاء الكرماء ، ففي ذلك تعليم للطف النفس ، ورقة الحاشية ، حتى في العبادة . فانظر إلى هذه الفائدة ، واعتبر بها ، وتأمل فضل التنزيل الكريم ، وما يرشد إليه ، والله الهادي .

(٦٤)

الدعوة الى الله

في أواخر رمضان سنة ١٣٣٠

قرأ أمامي بعد الدروس قارئنا ، فوقف من آية : « أَدْعُو إِلَىٰ ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أنا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي » على لفظ الجـلالة ، وابتدأ من قوله تعـالى : « على بصيرة أنا ومن اتبعني » .

فذكرت له بعد الدرس ، ونحن وقوف مع طلبتنا ، ان الوقف على قوله تعالى : « ومن اتبعني » ، أولى من الوقف على لفظ الجلالة ، وإن كان وجهاً محتملاً .

ثم بينت له وجه الأولوية : وهو إفادة الآية مشاركة اتباعه ﷺ له في الدعوة إلى الله ، الذي هو الواجب في الورثة الكُمَّل . فإن من خصائص هـذا الدين أمره بالدعوة إلى الله ، والدعوة الى الخير ، في مواضع عديدة من كتابه الكريم ، أمراً عاماً وخاصاً كآية : « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَىٰ ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً » وآية : « وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَىٰ ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ » . وآية : « أُدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ

وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » . ومعلوم أن الأمر له ﷺ أمر لغيره ، فيما لم يكن من خصائصه .

وكذلك هذه الآية التي نبحث عنها ، فإنها تفيد حقيقة وصفة هو عليها ﷺ وأتباعه ، ألاَ وهو الدعوة على بصيرة ، أي : أمر مبصر واضح ، لا سترة فيه ، يقبله العقل ، ويؤازره ويصدقه ، وهو المعبر عنه بالصراط المستقيم ، وبالصراط السويّ ، وبالبينة ، وبالنور ، والرحمة ، والهدى ، والشفاء ، وغير ذلك . والله أعلم .

(٦٥)

حديث :

« شهرا عيد لا ينقصان : رمضان وذو الحجة »

(رواه البخاري وغيره)

أقول : يظهر لي في معنى هذا الحديث وجه لا أدري الآن أقاله أحد أم لا : وهو أنه ورد زجراً لمن يصف أحد الشهرين بالنقص ، الذي هو خلاف الكمال ، وفيه شين لموصوفه . وذلك لأنهما شهرا أداء ركنين من أركان الاسلام ، وهما الصوم ، والحج . فلا ينبغي أن يقال : هذا الشهر ناقص ، كما يتفوه به كثير من العامة . على أنهما لا ينقصان حقيقة إذ الشهر إما ثلاثون أو تسع وعشرون ، وكل منهما تمام له . فلا يتصور النقص إلا إذا كان الشهر دائماً ثلاثين ، وهو خلاف الواقع .

ولذلك صح عنه ﷺ : (الشهر هكذا وهكذا .) يعني : ثلاثين ، وتسعاً

وعشرين . ولا يقال : الحكم كذلك في بقية الشهور ، فلم خصا ؟ لأنا نقول : لهما من المزية والفضل ، بما يقع فيهما من هذين العملين العظيمين ما ليس لغيرهما ، ولم تجر العـادة بالتحدث بالنقص والتمام إلا فيهما ، لأنهما موسمان عظيمان . فجاء هذا الأدب النبوي لذلك .

والحاصل أن مرجع الإخبار في ذلك إلى أدب لفظي . ومثله كثير في السنة معهود منها في أبواب شتى ، كنهيه ﷺ عن تسمية العنب كرمـاً ، وأن يقول المرء : خبثت نفسي ، وأن يقول في القرآن : نسيته . وأظن أن ابن القيم عقـد لذلك باباً في زاد المعاد فانظره والله أعلم .

كتب في دمر في ١٧ جمادى الثانية سنة ١٣٢٢ .

قلت : ثم راجعت فهرست زاد المعاد ، فتحققت ذلك فيه في ترجمة : « فصل في هديه ﷺ في حفظ المنطق واختيار الألفاظ . »

* * *

مفكّراته

درج القاسمي على تدوين مذكراته اليومية في « المفكرات » المعروفة . وقد كان لأبيه مثل هذه العادة ، والظاهر أنه قد أخذها عنه . وأقدم مفكرة عثرت عليها ، يعود تاريخها إلى عام ١٣٢٤ ـ ١٩٠٦ . وثانية لعام ١٩٠٧ ، وثالثة لعام ١٩٠٨ ورابعة لعام ١٣٢٦ ـ ١٩٠٨ ، وجزء من مفكرة لعام ١٩١٠ ، وسادسة لعام ١٣٣٢ ـ ١٩١٤ ، وهي السنة التي توفي خلالها .

في هذه المفكرات حوادث خاصة أو عائلية ، لا تهم القاريء العادي في شيء . إلا أن في بعض الحوادث الخاصة ، ما يمكن أن يفيد تاريخ الحياة الاقتصادية أو الاجتماعية في ذلك العصر ، كتسجيله لبعض نفقاته ، الذي يدل على مستوى المعيشة ، وعلى القوة الشرائية للنقد ، وعلى أسعار بعض الحاجات . وما من شك في أن المهتمين بتاريخ البلاد الاقتصادي والمعاشي يعولون على مثل هذه المعلومات باعتبارها مصادر موثوقة لدراساتهم .

وفي هذه المفكرات تسجيل لبعض الحوادث التاريخية الكبرى التي مرت بالبلاد على النحو الذي شعر به القاسمي . وهو وإن لم يكن مؤرخاً ، كما ننظر اليوم إلى علم التاريخ ، وإلى المؤرخين في العصر الحديث ، إلا أن هذه الحوادث

قـد دونت على شكل صادق ، يمكن أن يفيد منه المهتمون بتاريخ العصر الذي عاش فيه القاسمي .

وفي هذه المفكرات نظرات إلى بعض المعاصرين والأقدمين ، تدل على رأي القاسمي في الرجال . وهي وإن كانت حيناً ذات طابع شخصي ، وأحياناً أخر ذات طابع موضوعي ، إلا أن فيها كثيراً من المعلومات التي يمكن أن تعد من الأصول التي يرجع إليها مؤرخو الرجال .

وفيهـا تسجيل لبعض الحوادث التي وقعت بين النابهين من رجال العصر ، رسميين ورجال دين ، وغيرهم . وقد رأيت الإشارة اليها ، دون الإفاضة في مضامينها لصلتها ببعض الأحياء أو بأبنائهم ، وذويهم وأصدقائهم .

وفيها نقول عن بعض الأئمة ، أو الصحف أو المجلات ، أو الكتب ، القديمة والحديثة في مواضيع شتى ، لا يكاد يحصرها الباحث ، لتنوعها وتعددها .

وفيها وصف لبعض نزهاته أو سياحاته أو رحلاته في ديار الشام ، ومقابلاته لكثير من علماء العصر ورجاله .

وأهم ما في هذه المفكرات ، هذه اللمع الفكرية التي أشعت من ذهن القاسمي ، بين الحين والحين ، فجرى بها قلمه على نحو يدعو إلى كثير من التأمل والتفكير ، إن لم نقل : الإعجاب والتقدير .

وسأنقل فيما يلي بعض هذه اللمع على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر :

١ ـ بركة الآباء على الأبناء :

« . . . . زرت في زحلة الشيخ عبد الله الحموي ، المقرىء الدمشقي ، وأخبرني بقرب نزوله الى الشام ، وحدثني أن جدي المرحوم كان يحبه ، ويصف حبه بالاخلاص ، وكان معظم حديثه معي في سيرة الشيوخ الذين أدركهم ، وهم شيوخ مشايخنا ، وتمثيل حالة القرن السالف ، والهمة في طلب العلم ، ورضاء الأولين بالطلب مع الفقر ، ثم ستر الله إياهم وإغناؤهم ، وجعل خاتمتهم حسنة . وأن أكثر بيوت العلم الآن ، أبناؤها عائشة ببركة صلاح آبائها ، وأنها إن لم تَرْعَ تلك النعمة بالشكر ، واتباع سلفها ، وإلا فيوشك أن تفر منها الخ[1] . . . »

٢ ـ دروس النحل :

« جاء في بعض المجلات العلمية أنه يستفاد من النحلة ثمانية دروس :

١ ـ تعلمنا النحلة المثابرة على العمل ، فلم ير أن نحلة تخلت عن عملها قط .

٢ ـ تعلمنا النحلة الاخلاص والطاعة ، لأن كل النحل يحب ملكته ويطيعها .

٣ ـ تعلمنا محبة الأوطان ، فلا تترك النحلة بيتها الا لوقت قصير ، وللضرورة .

٤ ـ تعلمنا النظافة ، فلا أنظف من بيت النحلة وخليتها .

٥ ـ تعلمنا الرفق والعطف على الآخرين ، لا سيا حين الحاجة ، فلا تترك رفيقة لها في ضيق ، ما لم تمد إليها يد المساعدة .

٦ ـ تعلمنا وجوب الاستيقاظ باكراً .

---

(١) السبت ٢٠ شعبان ١٣٢٥ - ٢٨ ايلول ١٩٠٧ .

٧ ـ تعلمنا وجوب التمتع بالهواء النقي .

٨ ـ تعلمنا المسالمة والمودة ، فانه قلما نظر النحل يتشاجر ، أو تختلف الواحدة مع الأخرى[١] . »

٣ ـ تعليم النساء :

« . . . وبعد العشاء حضر الشيخ طاهر افندي وكانت المذاكرة في حاجة النساء إلى التعليم ، وتأليف كتب لهن خاصة . . . »[٢]

٤ ـ خفة الظل في زيارة الأصدقاء :

« سرت بعد المغرب إلى وداع الشيخ عبد الرزاق افندي لنيته السفر إلى مرجعيون ، ومكثنا عنده حصة خففنا بها السمر ، رحمة بمن ينتظر وداعه من نساء أقربائه[٣] » .

٥ ـ صرامة العقوبة :

« صرامة العقوبة لا تستطيع أن تقاوم السنن الكونية ، ولا ان تعكس سير الاقبال البشرية ، بل بها يزيد الداء استعصاء ، والكَلْم إنكاءً واستشراءً ، والنفوس جماحاً وإباءً .

---

(١) الأربعاء ٧ محرم ١٣٢٥ ـ ٢٠ شباط ١٩٠٧ .

(٢) الخميس ١١ صفر ١٣٢٤ ـ ٥ نيسان ١٩٠٦

(٣) الجمعة ٦ ربيع الاول ١٣٢٥ ـ ١٩ نيسان ١٩٠١

« وفي الواقع المشاهد أنه كلما تشدد في التشفي والانتقام ، اشتد ساعد المنتَقَم منه واندفع لهبه بين الأنام[1] » .

٦ — الطبيعة والموسيقى :

« ... وبعد العصر سرت إلى بستان الحجاجية ومعي ... ، وحضر بعدُ الشيخ عبد الرحمن القصار ، المنشد المطرب ، والشاعر الأديب ، فجلسنا برهـة ، وتعشينا هناك ، وبعد العشاء ، أنشدنا القصار قول ابراهيم بن سهل :

أُقَلِّدُ وَجْدي فَلْيُبَرْهِنْ مُفَنِّدي   فَمَا أَضْيَعَ ٱلْبُرْهَانَ عِنْدَ ٱلْمُقَلِّدِ

إلى آخر الأبيات ، وقصد أن يؤنسنا بذلك ، ذوقاً منه وذكاء ، يشير إلى أنا لا نقول بالتقليد[2] » .

« بتنا في الجديدة ، وقصدنا بعد العصر متنزهاً جانب نهر صغير ، وظل جميل ، وأسمعنا صاحب الدار بعد العشاء صوت الناي ، على شرب الشاي[3] » .

« ... وبعد العشاء حضر أحد بني العظم لمنزلنا ، ثم استدعى عوده فأطربنا حصة ، وصاحب الدار له ولد يتقن الناي ، فأسمعنا منه ساعة[4] » .

---

(١) الخميس ٢٠ رجب ١٣٢٥ – ٢٩ آب ١٩٠٧

(٢) الاحد ٣ جمادي الاولى ١٣٢٤ – ٢٤ حزيران ١٩٠٦

(٣) الاربعاء ١٣ جمادى الاولى ١٣٢٤ – ٤ تموز ١٩٠٦

(٤) الخميس ١٤ جمادي الاولى ١٣٢٤ – ٥ تموز ١٩٠٦

٧ ــ الفن القديم والحديث :

« صليت الجمعة بجـامع الدقاق ، وسرت مع الشيخ عبد الرزاق افندي إلى جنينة قرب العسالي . . . وصادفنا اديب بك نظمي ومعه أهل نوبة الفن ، خاصة السيد محمد عبود المصري ورفقته ، وكان السماع مطرباً للحضور جداً .

« أما الفقير فإني لا أسر إلا بالإنشاد القديم المدون في مثل ديوان الجندي ، فإن تلك القدود والأدوار أطرب منها . وهذا الغناء المصري لا يحركني مطلقـاً ، وسببه امتزاج الفن السابق بنفسي ، وطربي من صغري به . وأما الناشئة الجديدة ، فلا علم لها به ، لذلك لا تطرب إلا بهذا الحديث .

« وأما الفن القديم فقـد ماتت أربابه ، وآخرهم أبو خليل القباني الأديب الموسيقي الـكبير ، رحمة الله عليه [(١)] » .

٨ ــ الاسلام واليابان :

« زرت في الضحوة الشيخ عبد الله الخاني . وكانت المذاكرة أهمها في إسلام اليابان وأن الأولى انتخاب رجال أكفاء حكماء من كل بلدة مهمة من بلاد الدولة ، يتعاضدون ويتذاكرون ، ويكتبون جداول في مزايا الاسلام ، ورفع الشبه الحديثة والقديمة التي يختلقها أعداؤه ، وأن يستفيدوا بمبادلة آرائهم ما يعود عليهم بالفائدة ، وإلا فوجود جماعة قليلين رسمياً قد لا يجدي . والله العليم [(٢)] » .

---

(١) الجمعة ٢٥ ربيع الاول ١٣٢٤ – ١٨ أيار ١٩٠٦

(٢) الخميس ٧ جمادى الاولى ١٣٢٤ – ٢٨ حزيران ١٩٠٦

« ... وبعد العشاء زارنا الشيخ طاهر ، وسمرنا معه حصة طويلة ، أهمها في إسلام اليابان ، واستظهر أنه إذا لم يوجد حكماء يدرؤون الشبه ، وإلا فالجماعة يأخذون من مجموع الأديان لأنفسهم . والله العليم [1] » .

٩ — ما يقرأ للعامة :

« وبعد العشاء أجبت دعوة بعض الأصحاب في محلة العمارة ، وكان في الدعوة جماعة من فقهاء الحنفية ، وجرّ البحث إلى أن قلت لهم من وصايا بعض أشياخي أن لا يقرأ للعامة إلا كتب الأخلاق والحديث ، وفقه السنة الخالي عن توليد الفروع ، وحكمة القارئ تغني عن أن يشرط عليه . وذكرت لهم أن العامي لا مذهب له ، وأن العبرة بأقوال الأئمة خاصة ، وأما من بعدهم فهم مقلدون ، والمقلد لا يقلد [2] » .

١٠ — ايناس الغريب :

« ودعت في الصباح في اللوكندة الشيخ الكتاني ، وجاء جماعة لوداعه أيضاً ، ولم أذهب لمحطة الوابور لأني أخبرت بمن ينتظرني في الدار ، وبلغني أنه تليت قصيدة لوداعه . وبالجملة فقد طاش بالرجل العوام وأخفّاء الطلبة ، وكل من يدهشه الغريب . والحمد لله على انصرافه مسروراً مجبوراً ، فان سرور الغريب

---

(١) الجمعة ٨ جمادى الاولى ١٣٢٤ - ٢٩ حزيران ١٩٠٦

(٢) الاحد ٢١ رجب ١٣٢٤ - ٩ ايلول ١٩٠٦

وإيناسه من المهمات والواجبات . وقـد اشتهرت الشام من القـديم بإقبالهـا على الغريب[1] . . »

١١ — الحرص على مخطوطات دمشق :

« . . وبعد العشاء زارنا الشيخ طاهر ، وحضر درس التفسير من الجلالين . وبعده مكث حصة طويلة ، وكانت المذاكرة في نبأ الـكتاني ، وغرائب درسه . ولمت معه من أهداه كتباً خطية ، كان يمكن استنساخها له وبقاؤها في الشام ، حتى قلت لمن أهداها : لا كرم في الـكتب ! فقال : الرجل عزيز ! فقلت : النفس أعز . ولـكن ليزداد الوطن فقراً من الـكتب ، فإنا لله . وقلت له : بعض البلاد يرون المنّة في إراءة الـكتاب فقط . انظر ما يفعله قُوّام المدرسة اليسوعية في بيروت لزائر كتبهم[2] . »

١٢ — الجامع الأموي :

« . . . . وأديت الجمعة في الأموي ، وقد مضى لي نحو عامين لم أصلّ فيه ، مع أني أسر بأداء الجمعة فيه سروراً قلبياً ، وأرى للدمشقي — ما أمكنه — أن يؤدي الجمعة فيه[3] . »

---

(١) السبت ٥ ربيع الأول ١٣٢٤ - ٢٨ نيسان ١٩٠٦ .

(٢) السبت ٥ ربيع الأول ١٣٢٤ - ٢٨ نيسان ١٩٠٦ .

(٣) الجمعة ٢٦ ذو القعدة ١٣٢٦ - ١١ كانون الثاني ١٩٠٧ .

« . . . وقد اهتمت شركة الكهرباء بتنوير الجامع الأموي هذه الليلة تجربة . فهرعت الناس على طبقاتها ، وازدحم الجامع بهم ، وجربوا إنارته[1] . . . »

١٣ — الموظفون والدين :

« أصبحت في المعلقة ، ولا جمعة ولا جماعة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . نعوذ بالله من هذا الحال . لا اهتمام لمأموري الحكومة بالدين أصلاً ، إلا أفراداً قليلين ليسوا من أهل الحل والعقد ، وماذا أقول فيهم ، وقد خبرت حالهم ؟ فوالله ليسوا على شيء من الدين أصلاً . . . لا يعلمون للحرام معنى ، ولا مسمى ، ولا يدرون للدين قدراً[2] . . . »

١٤ — كتاب سيبويه :

« . . . واستعرت من القاضي الجزء الأول من كتاب سيبويه ، وأسفت لأن ينسى هذا الكتاب بغيره ، ووددت لو خدم بشروح وحواشي وحده ، وبقي متسلسلاً يقرأ وحده ، فان ما فيه من صميم اللغة العربية يبهج ويدهش[3] . »

---

(١) الثلاثاء ١ ذو الحجة ١٣٢٤ — ١٥ كانون الثاني ١٩٠٦ .

(٢) الجمعة ١٩ شعبان ١٣٢٥ — ٢٧ ايلول ١٩٠٧ .

(٣) الثلاثاء ١٥ شعبان ١٣٢٧ — ٣١ آب ١٩٠٩

١٥ — الإسلام والنصارى :

« . . . دعيت في قارة على الغداء لدار يوسف افندي فرح ، من وجهاء النصارى ، فرأيت من حسن الترتيب في الدار ما يبهج ، ويشهد لتقدم النصارى وترتيبهم في هذه الشؤون ، وأسفت لتأخر قومنا [١] . . . »

« ومن غريب ما قرأته في جريدة الثمرات أن مسيحياً توفي ، وأوصى بنصف ماله البالغ نصف مليون فرنك للبابا ، وأنه اتفق منذ أسابيع أن توفي أسقف ، وترك للبابا نحو مليون فرنك . ففي أقل من شهر تسرّب إلى صندوق البابا مليون ونصف فرنك ، ما عدا بقية موارده . فتأمل وترحم على حالة علماء المسلمين . والمستعان بالله [٢] . »

١٦ — الهجاء :

« . . . وقد زارني قبل العصر محمد علي بك الميداني الشاعر ، وأطلعني على قصيدة من نظمه ، تقرب من ستين بيتاً ، في هجاء الشيخ . . . الحشوي الخرافي ، وتعداد مساوئه الذميمة . فقلت : نحن نسعى لهدم مشرب الهجاء ، وتخلية المسيء لسنة الله في خلقه . . . [٣] » .

---

(١) الاثنين ١٤ ذو الحجة ١٣٢٤ — ٢٨ كانون الثاني ١٩٠٧

(٢) الاثنين ٢١ شعبان ١٣٢٧ — ٥ ايلول ١٩٠٩

(٣) الثلاثاء ٧ شعبان ١٣٢٤ — ٢٥ ايلول ١٩٠٦

١٧ حكمة العامة : الإنسان والكتاب :

« سمعت عامياً أمياً ، وقد ذكر كتاب مخطوط من عدة قرون ، وقيل : ما بال ورقه وحبره وجلده ، لم تبله الأيام ، بل أنظرته تلك المدد ، وما يعلمه تعالى بعد من الآماد المتطاولة ، ولم يكن الإنسان كذلك ؟ فقال ذلك العامي الأمي بديهة : لأن الكتاب ليس بجبار ، وهو ثابت على حالة واحدة .

« فاستحسنت ذلك منه جداً ، وعددتها حكمة وإشارة إلى أن عتوّ ابن آدم ، وكبره وطغيانه الفطري ، مانع من تعميره ، لما ينشأ عنه من تخريبه الكون ، فلذا قهره تعالى بالموت . والله يؤتي الحكمة من يشاء [١] » .

١٨ — مدنية الريف السوري :

« ... وفي المساء دعينا في جسرين عند أحد الطلبة ، وكان الطعام في كل موضع على الأصول الطبية الحديثة : كل منا وأمامه صحنه ، فيغرف من الوعاء الكبير إلى صحنه ، ولا يخلط ملعقته بطعام غيره ، وفي المرقة كل أمامه زبدية لها . وما أحسن هذه العادة ، بل غيرها مضر ومشوش ، ومؤنف للنفس [٢] » .

١٩ — حياة العلماء والحكماء :

« إن للعلماء والحكماء في هذه الدنيا حياتين : حياة جسدية محدودة تبتدىء بيوم الولادة ، وتنتهي بيوم الوفاة ، وهي الحياة الحيوانية التي يشاركهم فيها سائر

---

(١) الخميس ٣ جمادى الثانية ١٣٢٦ — ٢ تموز ١٩٠٨

(٢) الاحد ٢٥ ربيع الثاني ١٣٢٤ — ١٧ حزيران ١٩٠٦

الناس ، بل سائر الحيوان . وحياة عقلية روحانية غير محدودة ، وهي تبتدئ بظهور ثمرات عقولهم النافعة لأمتهم ، أو لكل من يجنيها من النـاس ، وتدوم ما دام الزمان ، وبقي من المناظرين في آثارهم إنسان[1] » .

٢٠ ـ نصيحة لأخ :

« كتبت اليوم لأخ :

« احفظوا أوقاتكم جداً ، وادأبوا على المطـالعة ، وحفظ ما يهم من الأصول والمتون ، وعودوا أنفسكم على كتابة مقالات ، وإنشاء جمل في الموضوعات الهامات ، ولا تخملوا أنفسكم بالتقصير عن اللحـاق بالسباق . فالزمان ما ترى . والعـاقل من تبصّر وتصبّر وجارى ، وما الانسان إلا ابن جدّه ، وقد مضى زمن من كان يرتاش بأبيه وجده[2] » .

* * *

(١) الثلاثاء ٢٧ شوال ١٣٢٥ - ٣ كانون الاول ١٩٠٧

(٢) الخميس ١ ذو القعدة ١٣٢٨ - ٣ تشرين الثاني ١٩١٠

من مفكراته الخاصة

دفتر أواخر شوال ١٣٢١ — اشتري من مصر[1]

جاء في الورقة السابعة بخطه بالقلم الرصاص :

١ — الانتقاد :

« لا نسرّ بشيء مطلقاً كما نسر بالانتقاد ، لأنه إما أن يبين خطأ ارتكبناه نحن فنصلحه ، أو خطأ ارتكبه المنتقد في إدراك غرضنا فنصلحه له . »

وجاء في الورقة نفسها :

٢ — الانتحار :

قال تعالى : « وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ » . وقال : « وَلا تُلْقوا بِأَيْدِيكُمْ إِلىٰ ٱلتَّهْلُكَةِ » .

ليس للانسان حرية في التصرف في نفسه ، وليس له منها شيء ، وإنما هي لله وحده ، خلقها وسخرها لبقاء النوع الانساني ليعبده ، قال تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُون » .

---

(١) كذا كتب بقلمه . والملاحظة تدلك على ما تركت رحلته الى مصر في نفسه من أثر عميق .

« وبقاء النوع يتوقف على صيانة نفس المرء أولاً ، وكفالة بنيه ثانياً ، ثم أهله ثالثاً ، ثم أمته رابعاً ، ثم ملته خامساً ، والبعض للبعض من ذلك . الكل ضمين ونصير .

« وعليه فانتحار الإنسان هروب من القيام بهذه الفروض ، وفيه جنايات متعددة ، وخروج عن طاعة الله ، وعذابه الخلود في جهنم .

« قال رسول الله ﷺ : « من تردى من جبل فقتل نفسه ، فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً » . « ومن تحسّى سماً فقتل نفسه ، فسمّه في يده يتحساه في نار جهنم مخلداً فيها أبداً » . « ومن قتل نفسه بحديدة يتوجأ بها في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » .

« ومعلوم أنه ليس غرضه ﷺ من هذا التعداد تخصيص التحريم بقتل النفس بهذه الوسائل المعددة ، إذ كل ما شاكلها في إزهاق الروح هو في حكمها ، مثل من يقتل نفسه شنقاً أو حرقاً أو غرقاً أو خنقاً بكربون الفحم مثلاً » .

وجاء في الورقة / ١٥ /

٣ ــ بينة الزنا :

« الحكمة من جعل شهود الزنا أربعة هي : أن كلاً من الزاني والزانية مجرمان جرماً ، وإن اتحد بالنوع ، إلا أنه افترق بالمصدر . فكأن الشهود الأربعة ، كل شاهدين منهم يشهدان على جرم مخصوص بالفاعل على حدة ، والمفعول كذلك ، لكونه بالحقيقة فاعلاً أيضاً لجرم الزنا ، لهذا سميت الزانية زانية ، ولم تسم مزنياً بها . »

الورقة / ١٨ /

٤ - القدر :

« القدر الذي يجب الإيمان به لا ينطوي على شيء يميت العزم أو يخمده ، إذ هو ليس إلا مجرد الحكم العام الذي يحوم طائره على جميع النواحي » .

الورقة / ١٨ /

٥ - العرب :

« آية : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ » .

« يقول قائل : ألا تدل هذه الآية على أن بعثة النبي ﷺ كانت للعرب خاصة ؟

« نقول : لا ، لأنه جرت سنة الله أن يختار أمة واحدة ، ويُعِدَّها لتهذيب الأمم الأخرى ، كما يعد فرداً واحداً منها لتهذيب سائر أفرادها .

« ولما كانت الأمة العربية هي المختارة لتهذيب الأمم ، وتعديل عوجها ، وإقامة منار العدل في ذلك العالم المظلم ، فقد وجب أن التهذيب الإلهي ينزل بلغتها خاصة ، حتى تستعد وتتهيأ لأداء وظيفتها .

« وقد أتم الله نعمته عليها ، فقامت بما عهد إليها ، بما أدهش العالم أجمع . ولله في خلقه شؤون » .

الورقة / ٢٢ /

٦ - قصص القرآن :

« ليس في القرآن شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار ، وإنما

هي الآيات والعبر تجلت في سياق الوقائع . ولذلك لم تذكر قصة بترتيبها وتفاصيلها ، وإنما يذكر موضع العبرة فيها . « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ » ، « وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ » .

« وكل ما تراه في هذه التوراة التي عند القوم من القصص المسهبة ، والتاريخ المفصل ، من ذكر ولادة آدم وما بعدها ، فهي مما ألحق بالتوراة بعد موسى بقرون . بل كتب أكثر تواريخ العهد القديم بعد السبي ورجوع بني اسرائيل من بابل » .

الورقة / ٢٣ /

٧ - الترتيب :

« فضيلته تحمل صاحبها على العمل بما رتبه لنفسه ، والاهتمام ، وهي تنشط النفوس ، وتريح البال ، ويكون صاحبها مستجمعاً لفكرته ، محافظاً على وقته » .

الورقة / ٢٤ /

٨ - الأستاذ والرئيس :

« وظيفة الأستاذ والرئيس أن ينظر في أمور جماعته ، ويمهد لها سبيل المجد والارتقاء .

« كلما زاد جماعته في إكرامه ، زادوا في إكرام أنفسهم ، إذ لا تقوم ولا تحيي بغير إعطاء المنزلة العليا للرئيس ، وإعلاء شأنه ، لأنه روحها ، ومقدم

أعمالها ، وعليه يتوقف نموها ونجاحها ، وهو مثال النظام ، وعلامة الوقار ، وقدوة الاخوان » .

الورقة / ٢٥ /

٩ — المناظرة :

« المناظرة في الأمور المذهبية التي توجب الضغائن ، وتولد التعصب ، آفة العمران » .

١٠ — الكسل :

« الكسل من النقائص التي تولد الخسائس والشرور ، وتدل على ضعف في إدراك صاحبها ، وحطة في نفسه » .

١١ — التآخي :

« لا يقبل في التآخي من أصيب بخلل في عقله ، أو عوج ، أو شذوذ في أفكاره ، حتى لا تسقط درجة آداب الإخوان وعلومهم ، ولا يكون بين أفرادهم واحد لا خير للانسانية والعمران منه » .

١٢ — المرفوض من الناس :

« يرفض من الناس من اشتهر بالبخل وعدم التصدق على الفقراء ، ومن اشتهر بالنميمه والثلب ، والسفه ، ومن اشتهر بالكبرياء ، والخفة ، والطيش ،

وعــدم حفظ السر ، واشتهر بحب الهــذر والهــذيان ، ومن اشتهر بالتهتك والخلاعة والكسل » .

الورقة / ٢٦ /

١٣ — اللوح المحفوظ :

« اللوح المحفوظ الذي ذكروا أنه فوق السموات السبع ، وأن مساحته كذا ، وأنه كتب فيه كل ما علم الله تعالى ، فلا ذكر له في القرآن . على أن اللوح المحفوظ الذي يذكرونه ، من عالم الغيب ، فالإيمان به إيمان بالغيب ، يجب أن يوقف فيه عند النصوص الثابتة بلا زيادة ولا نقص ولا تفصيل ، وليس عندنا في هذا المقــام نص يجب الإيمان به . ومن خصه الله بشيء من عــلم الغيب التفصيلي ، فذلك فضل يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم » .

١٤ — أعمال المتقين :

« أعمال المتقين تفقأ حصرماً في أعين الحاسدين » .

١٥ — المتعصبون :

« المتعصبون يستعملون تعاليمهم الفاسدة التي ما أنزل الله بهــا من سلطان ، في تفريق الناس بعضهم عن بعض ، ويقيدون عقول البسطاء والسذج بحبــال التعصب ، ويعلمونهم أن من لا يتبعهم كان هالــكاً » .

الورقة / ٣٥ /

١٦ – الحق :

« الحق يُصرع إذا عُمِد إلى إظهاره بالسباب والشتائم » .

١٧ – الحقيقة :

« اشتهر عن الحكماء الأقدمين تعلّم الحقائق وكتمها في نفوسهم ، فلا يلقونها إلا للمستحق . وذلك خوفاً على الحقيقة من اضطهاد الجاهلين ، وصوناً لها من العبث إذا تناقلتها أفواه المتشدقين » .

الورقة / ٣٦ /

١٨ – الحياة :

« من علم أن أحداً من الناس لم يأخذ على الله عهداً بدوام النعم ، والسلامة من الآفات ، وأن ما في أيدينا من مال وولد وعز وجاه ، إنما هو عارية أعارنا الله إياها ، ولو شاء منعها ، فلم يعطها ، كان حرياً أن يتوقع استردادها في كل حين ، وزوالها في كل يوم ، فاذا زالت لا يرد على النفس ما يزعجها ، ولا يفاجئه ما لم يكن يترقبه » .

« ومن نظر في أمر هذه الحياة ، وخبر شؤونها وتصرفاتها ، وقتلها علماً وتجربة ، علم أنها معترك هائل يموج بالرزايا موجاً ، وأن الانسان فيها بمثابة المخاطر في معترك الحرب إن فاتته ضربة سيف ، لا تفوته طعنة رمح ، أو رمية سهم .

غير أن لكل طبقة من الناس بلايا خاصة ، ومصائب تغاير مصائب الطبقات الأخرى ، وإن كان أثرها في الكل واحداً .

« فمن أراد بعد هذا من حياته صفاءً لا يشوبه كدر ، وسعادة لا يخالطها شقاء ، فليعش في عالم غير هذا العالم ، وليطلب حياة غير هذه الحياة ، ذات نظام غير هذا النظام وسنة غير هذه السنن ، إن استطاع إليها سبيلا » .

الورقة / ٣٧ /

١٩ — الأسرار :

« الأسرار : هي ما بها يحفظ ويصان المُسَرّ فيه عن أن يبتذل ، فيكون مضغة في أفواه الغمارة ، وفي كتمانه ما هو أدعى إلى الهيبة والاجلال ، وأحفظ لعقد الاجتماع من أن يهدد بالانفراط ، فان ما نالته ألسن الغمارة ، ذهب منه رونقه بما أعدوه من سماجاتهم ، وغشيته من بخر أنفاسهم . »

الورقة / ٣٩ /

٢٠ — التمييز العنصري :

« ما من خرافة مضرة بالنوع الانساني تأصلت في قلوب الناس ، مثل الخرافة التي بموجبها يعتبر الرجل ساقطاً من النوع ، لتلون جلده بغير اللون الأبيض . وهذه الخرافة قد استحكمت في أفئدة البيض الذين استعمروا الأقطار الأميركية والأسترالية ، حتى لم يعد استئصالها بالأمر الهين ، رغماً عن كون المساواة

المدنية قد عمت تلك الأقطار ، وأصبح جميع من فيها متساوياً أمام القانون .

« ومنشأ هذه الخرافة استعباد الزنوج إلا أن رنة ذلك الفأس الذي قرع أسس التوحش لم يكد يقع على جدران قلعة الاستبداد والاستعباد ، إلا وانتصبت قامة كل من أحنى قامة الذل والهوان ، فنهض يطالب بحقوقه المهضومة ، ويناقش ظُلاّمه الحساب »

الورقة / ٤٠ /

٢١ ــ الاسلام والحرب :

« الإسلام لا يبيح الحرب لذاتها ، وقد حرم الاعتداء . وإنما يوجب تعميم الدعوة ، فمن عارضها وجب جهاده عند القدرة ، حتى يقبلها ، أو يكون لأهلها السلطان الذي يتمكنون به من نشرها بدون معارض . أي أنه يوجب الجهاد ما دام الناس يفتنون في الدين أي لا تكون لهم حرية فيه ، ولا في الدعوة إليه .

« وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَة » ، « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللهَ لا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِين » .

٢٢ ــ اللباس :

« جملة القول : إن اللباس من الأمور العادية . والدين لا يذم لباساً ، إلا إذا كان في لبسه ضرر في الأخلاق أو غيرها ، كالاسراف » .

الورقة / ٤١ /

٢٣ ـــ اليوم الآخر :

« الايمان باليوم الآخر يعلّم الإنسان أن له حياة في عالم غيبي أعلى من هذا العالم ، ولا يرضى لنفسه أن يكون سعيه وعمله لأجل خدمة هذا الجسد خاصة ، لأن ذلك يجعله لا يبالي إلا بالأمور البهيمية . ومن أنكر اليوم الآخر يكون أكبر همه لذات الدنيا وشهواتها وحظوظها ، وذلك أصلٌ لشقاء الدنيا قبل شقاء الآخرة . »

٢٤ ـــ الملائكة :

« الملائكة : خلق روحاني عاقل ، قائم بنفسه ، يفيض العلم بإذن الله على روح الأنبياء بما هو موضوع الدين . وهم من عالم الغيب ، فلا نبحث عن حقيقتهم » .

٢٥ ـــ الوعظ :

« قيل : إن من يقظه الفهم للواعظ ما يدعو النفس إلى الحذر من الخطأ ، والعقل إلى تصفيته من القذى . وكانت الملوك إذا أتت ما يجل عن المعاتبة عليه ، ضربت لها الأمثال ، وعُرّض لها بالحديث .

« كل وعظ لم يغير منك خلقاً سيئاً ، فذلك الوعظ زيادة حجة عليك . »

الورقة / ٤٢ /

٢٦ ــ السياسة :

« العاقل من إذا يئس من التغلب على عدوه ، سلك معه مسلك المحاسنة ، وعامله معاملة الصديق للصديق ، إبقاءً على حياته ، ودفعاً للشر والأذى اللذين يجلبهما على نفسه بالمخاشنة والمناوأة . هذا هو معنى السياسة .

« وإذا لم تكن السياسة سوى مصابرة المكاره ، ومسايرة الأهوال والمصاعب ، وركوب الأسنة في سبيل المداراة والمجاراة وتحيُّن الفرص والظروف ، فأَي شيء هي ، وماذا عساها أن تكون ؟

« ان السياسة أن أصارع القوي وأنا الضعيف ، وأكافح الكميّ وأنا الأعزل . أم من جودة الرأي ، وبعد النظر ، أن أمضي اليوم على ما سننته أمس ، وان خالفت طبيعة الحال ، وعاكست مجرى الظروف والحوادث ؟ إني إذن عازب الرأي والنظر ، بعيد عن حقيقة السياسة . »

الورقة / ٤٤ /

٢٧ ــ آفة الأخبار :

« إن جانباً صغيراً من معارف الإنسان مبني على مدركاته الذاتية ، والجانب الأكبر على ما قرأه أو سمعه . أي : على مدركات غيره . ولكن (ما آفة الأخبار إلا رواتها) ، فقد يتلاعب الرواة في الأخبار لغرض وإذا قصدوا الصدق في الرواية ،

فان الذاكرة تخونهم ـ كما تقدم ـ ولا تحفظ إلا ما تشاء ، وكما تشاء . ولذلك يقع التضارب في الأخبار ، إلى حد تضيع معه الحقائق ، حتى إذا بُعد السند ، وكثر التواتر ، كثر الاختلاف ، وانقلبت الأخبار عن صورتها الأصلية إلى صور أخرى مضادة لها . »

٢٨ ـ الانسان والنبات :

« لا ينبغي أن تكون وظيفة المرء في الحياة دون النبات : ذاك يتطاول ، وهم يتقاصرون . ذاك يطلب السماء ، وهم يطلبون الأرض ، كأنهم للموت مشتاقون » .

الورقة / ٤٥ /

٢٩ ـ الرأي الذاتي :

« العاقل لا ينتصر لرأيه الذاتي ، ولا يصر عليه ، بل يعتبره خاطراً سنح له ، فربما كان صواباً أو خطأ . »

٣٠ ـ الزهد في الاسلام : (أبو ذر الغفاري)

« قال بعض المدققين[1] : الحث على الزهد في الدنيا ، والقناعة باليسير ، والكفاف من الرزق ، وأمانة المطالب النفسية ، كحب المجد والرئاسة ، والتباعد عن

(١) مر معك أنه كثيراً ما نسب آراءه لغيره .

الزينة والمفاخرة ، والإقدام على عظائم الأمور ، وكالترغيب في أن يعيش المسلم كميت قبل أن يموت — كل هذه الأصول فقرات مخدرات مثبطات معطلات ، لا يرتضيها عقل ، ولم يأت بها شرع ، ولمثلها نفى عثمان بن عفان رضي الله عنه أبا ذر الغفاري إلى الربذة . »

الورقة / ٤٦ /

٣١ — الدهريون والطبيعيون :

« إن الدهريين والطبيعيين وأمثالهم ممن لا دين لهم ، لا بد أن يكونوا على غير نظام ولا ناموس في أخلاقهم ، معذبين منغّصين في حياتهم ، منحطين عن أهل الأديان ، كما يعترف بذلك الطبيعيون ، فيقولون عن أنفسهم إنهم أشقى الناس في الحياة الدنيا ، كما قال تعالى :

« وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي . . . » الآية .

٣٢ — الدين :

« الدين بمعناه العام ، هو إدراك النفس وجود قوة غالبة تتصرف في الكائنات ، والخضوع لهذه القوة على وجه يقوم في الفكر هو أمر فطري في البشر . وإن قولهم : فلان دهري أو طبيعي هو صفة لمن يتوهم أن تلك القوة هي الدهر أو الطبيعة ، فيدين لما يتوهم . وليست تلك القوة حقاً إلا قوة الإله الواحد الأحد ، لا إله إلا هو تعالى عما يشركون . »

٣٣ - المجاهدة :

« الفتور في المجاهدة يؤدي إلى تقوية القوى الحيوانية ، وتضعيف القوى الروحانية » .

الورقة / ٤٦ /

٣٤ - المجتمع :

« لا يستقيم حال الأمة ولا تثبت على أساس مكين ما لم يتفق الكبراء بعضهم مع بعض ويتصافوا مع الذين دونهم ، ويفصلوا كل خلاف وخصومة بالتحكيم . »

الورقة / ٤٧ /

٣٥ - السنة والبدعة :

« وكم من كلمة مبتدعة سقيمة ، دكت سنة قويمة » .

٣٦ - مشايخ الطرق :

« هم كالعمود الكهربائي ، يبث الجنون في رؤوس الناس ، ويلجئهم على الإتيان بمظاهر مرض الصرع العام ، والذهول العقلي ، وتكرار لفظ (الله) إلى ما لا نهاية ، ينقلب إلى الجنون الروحاني ، أو الماليخوليا » .

الورقة / ٤٨ /

٣٧ — الاقتصاد :

« الاقتصاد في المـال عبارة عن حفظه من الإسراف والتبذير ، بأن تدخر شيئاً من دخلك مهما كان قليلاً ، فان الدرهم إذا أضيف لمثله تضاعف ، وأن لا تنفق أكثر من دخلك ، مهما كان قليلاً ، وإلا صرت مجنوناً سفيهـاً قاصر العقل ، وأن تدفع ما عليك نقـداً متباعـداً عن الدَّيْن ، فانه داهية عظمى ، ومصيبة كبرى ، وأن لا تنفق اعتماداً على ربح سيصل إليك ، فان فعلت ذلك وقعت في الدَّيْن والفقر ، وأن تكتب دخلك وخرجك ، وتراجعه مرات عديدة ، لتصير على بينة من أمره . »

٣٨ — الحق والباطل :

« أحكام الباطل موقتة ، لا ثبـات لهـا في ذاتها ، وإنمـا بقاؤهـا في نوم الحق عنهـا . وحكم الحق هـو الثابت بذاته ، فلا يُغلب أنصـاره ، ما داموا معتصمين به . »

٣٩ — الحر والضيم :

« الإنسان الحر يأبى الضيم إلى درجة يصبح الصبر معها يعد في عرف الحكماء جهلاً مذموماً لا يألفه إلا كل ذي عواطف لا تشعر ، وإحساس لا يتأثر ، وآذان صماء ، وعيون عمياء ، وقلوب قاسية . »

٤٠ — الأستاذ :

« إن أستاذك هو الذي أنقذك من مصيبة الجهل ، وبث في فؤادك ما صيرك إنساناً كاملاً ، عارفاً ما لك وما عليك من الحقوق والواجبات ، نافعاً نفسك وغيرك ، منصرفاً عن الرذائل الى الفضائل ، فيلزمك أن تحترمه وتعظمه ، بأن تجلس بين يديه متأدباً منتبهاً مصغياً ، معتبراً بنصائحه ، عاملاً بكل ما يرشدك إليه ، متواضعاً له ، معتقداً فيه ، سامعاً لقوله ، مطيعاً لأمره ، مجداً في التعليم ، متأملاً قبل الكلام . »

٤١ — المخالطة :

« من هم أقل منك معرفة ، وأدنى درجة ، ينبغي أن لا تكثر معهم اللجاجة ، ولا تخالطهم إلا بقدر الحاجة . فان المخالطة تؤثر ، والطبع سرّاق ، والنظر إلى الصور يطبع في الناظر ما ينعكس عليه منها . فالناظر الى المحزون يحزن ، والى المسرور يسر ، وهكذا . »

الورقة / ٤٩ /

٤٢ — أبناء الموسرين :

« ليس من الشهامة في شيء أن يترك الموسر أبناءه يمرحون في غي الشهوات ، لاهية قلوبهم عن هول المفاسد المستنزفة لأموالهم ، الذاهبة بقواهم ، وبثروة مجتمعهم ، فلا يلبثون إلا قليلاً ، حتى تصبح ديارهم خاوية على عروشها .

« ليس من الشهامة في شيء أن يستمر بالآباء حنان الجهالة ، على ترك ذرياتهم عاكفين على السفاسف ، مجردة أذهانهم من كمال التربية ، ومن التهذيب العملي ، الذي يعد لمستقبلهم أنفع وأغلى من كنوز الأموال المتفاخرين هم بتبديدها في شنائع الموبقات » .

٤٣ — التبذير المشروع :

« التبذير في أشرف الأغراض قصد واعتدال » .

٤٤ — الرأي والغرض :

« الأغراض جاذبة ، والهوى صادّ . والرأي إذا عارضه الهوى ، وجاذبته الأغراض ، فسد » .

٤٥ — الوعظ والارشاد :

« ليس من الأساليب المفيدة التقييد في الوعظ والإرشاد بتلك التراكيب التي ألف جمهور الخطباء حفظها والترنم بمحض القائها حتى صارت تنسب عند العوام الى الأسابيع والشهور . بل يحسن بالجهابذة الأعلام أن لا يقتصروا في الوعظ على ما يلقى فوق المنابر ، ولا على تلك الخطب المكونة من التكلف في السجع ، ولو بتصيد الكلمات ، لتكميل الفقرات وفواصلها ، فان خير ما يُؤثر للعلماء أن تكون الخطب جامعة لملائمات الأحوال ، كالطبيب يرشد من يعودهم بما يحتاجون . »

٤٦ — الغادر :

« الإنسان الميال بغريزته الى نكث العهود ، وعـدم حفظ الوداد ، من المستحيل أن يكون أبيّ النفس ، ثابت الولاء ، سواء ارتقى الى معارج السعادة والرخاء ، أم لم يرتق . »

٤٧ — التقليد :

« التقليد جـذام فشا بين الناس ، وأخـذ يفتك فيهم فتكاً ذريعاً . بل هـو مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولي ، يوقع الإنسان في الخمول والكسل . »

الورقة / ٥٠ /

٤٨ — الشجاعة والجبن :

« يموت الجبان مراراً قبل وفاته ، والشجـاع لا يذوق مرارة الموت إلا مرة واحدة . »

٤٩ — الاستدلال ثم الاعتقاد :

« قلوب الأكثرين ملتاثة بمرض التأسي ، فهم يعتقدون الأمر ، ثم يطلبون الدليل عليه ، ولا يريدونه إلا موافقاً لمـا يعتقدون ، فان جاءهم بمـا يخـالف ما اعتقدوا ، نبذوه ، ولجُّوا في مقاومته وان أدى بذلك إلى جحد العقل برمته ،

فأكثرهم يعتقد فيستدل ، وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد . فان صاح بهم صائح من أعماق سرائرهم : ويل للخابط ، ذلك قلب لسنة الله في خلقه ، وتحريف لهديه في شرعه ! عرتهم هزة من الجزع ثم عادوا إلى السكون محتجين بأن هـذا هو المألوف ، وما أقمنا إلا على معروف ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . »

٥٠ — الحق ومعارضته :

« إن المعارضات والمحـاجّات تظهر ضعف الباطل وزهوته ، وتبين قوة الحق وثبوته . فالحجة تتبختر اتضاحـاً ، والشبهة تتضاءل افتضاحاً . وقـد خلت سنة الكون بأن الفتن تنير الطريق لأهل الحق ، وتُظلمه على أهل الباطل . كل انسان يرى نفسه على الحق في الجملة ، ولكن التمكن في المعرفة ، والثبات على الحق ، لا يعرف في الغالب إلا إذا وجد المحق خصم ينازعه ويعارضه في الحق . هنالك تتوجه قواه إلى تأييد حقه وتمكينه ، ويحس بحاجته إلى المناضلة دونه ، والثبات عليه ، وكثيراً ما يظهر الحقَّ الباطلُ .

« المعارضة في الحق تحمل صاحبه على تنقيحـه وتحريره ، وتنقيته ممـا عساه يلتصق به ، أو يجاوره من غواشي الباطل ، وتجعل علمه به مفصلاً ، بعد أن كان مجملاً ، ومبرهناً عليه ، بعد أن كان مسلماً ، فهي مدرجة الكمال لأهل اليقين ، ومزلة الريب المقلدين .

« قال بعض الصوفية : جزى الله عنا أعداءنا خيراً ، إذ لولاهم ما وصلنا إلى شيء من مقامات القرب .

« وقال الشاعر :

عـداتي لهم فضل عليّ ومنـة ... فلا أذهب الرحمن عني الأعاديا
همو بحثوا عن زلتي فاجتنبتها ... وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

« ذلك أن العدو ينقب عن الزلات ، ويبحث في الهفوات . وطالب الحق يتوجه دائماً الى الاستفادة من كل شيء ، والنظر من كل أمر إلى موضع العبرة ، وطريق الحقيقه ، فاذا وجد في كلام العدو مغمزاً صحيحاً توقاه ، أو عثاراً في طريقه نحاه . وان ظهر له أنه باطل ثبت على حقه ، وعرف منافذ الطعن فيه فسدّهـا فكان بذلك من الكملة الراسخين . »

الورقة / ٥٠ /

٥١ ـ الفقير والصدقة :

« ما أجـدر الفقير القوي على الكسب ، برفض قبول الصدقة ، لئلا يعتاد عدم الاشتغال ، ويموت قلبه عن الواجبات ، وتحول رغباته عن حب الاستقلال . وما أحرى ذا المروءة أن يهيء له سبباً للمعيشة . إذ العاقل لا يتكل على غير ساعده في قضاء حاجاته . »

٥٢ ـ الوقت :

« الوقت الذي تمضيه في أداء الواجبات الاجتماعية ليس بوقت ضائع ، لأن

حب الغير ومعاونته ، والعمل على نشر العلم ، وتقليل وطأة الفاقة ، كلها دلائل المدنية الحقة ، التي تزيد في السعادة .

« الوقت من أسمى مواهب الخالق التي لا يمكن استعادتها متى فاتت ، فلاتتصرف فيه بما يؤسفك على فواته ، أو يجعلك تندم على باطل استعماله ، إذ لا فكرة أشد ألماً من قول : (فات الوقت) أو : (كان هذا يمكن أن يكون) . والوقت أمانة عندك ، تسأل عن التصرف فيه ، فلا تضع منه كثيراً .

« وكان بعضهم يقول : يجب أن يقال للأطفال : إنما حياتكم منوطة بكم ، فبحسب ما تبذلون من الجهد والاجتهاد تنجحون في هذه الحياة وإلا فتموتون جوعاً . »

تابع ورقة / ٥٠ /

٥٣ – الصبر :

« الصبر ذكر في القرآن سبعين مرة ، ولم تذكر فضيلة أخرى فيه بهذا المقدار . وهذا يدل على عظم أمره . وقد جعل التواصي به في سورة العصر مقروناً بالتواصي بالحق إذ لا بد للداعي إلى الحق منه .

« والمراد بالصبر في هذه الآيات كلها ملكة الثبات والاحتمال التي تهوّن على صاحبها كل ما يلاقيه في سبيل تأييد الحق ، ونصر الفضيلة ، فضيلة هي أم الفضائل التي تربي ملكات الخير في النفس ، فما من فضيلة إلا وهي محتاجة اليها . وإنما يظهر الصبر في ثبات الانسان على عمل اختياري يقصد به إثبات حق ،

أو إزالة باطل ، أو الدعوة الى عقيدة ، أو تأييد فضيلة ، أو إيجاد وسيلة الى عمل عظيم ، لأن أمثال هذه الكليات التي تتعلق بالمصالح العامة هي التي تقابل من الناس بالمقاومة والمحادّة التي يعوز فيها الصبر ، ويعز معها الثبات على احتمال المكاره ، ومصارعة الشدائد .

« فالثابت على العمل في مثل هذه الحال هو الصابر والصبار ، وإن كان في أول الأمر متكلفاً . ومتى رسخت الملكة يسمى صاحبها صبوراً . »

الورقة / ٥١ /

« ساعات المطالعة أسعد أوقات الحياة ، وما يطلب من السرور في غيرها هو ظل ما يستخلص من لذيذ مسراتها .

« من يضع وقته إنما يفقد أكثر ممن يضيع دراهمه . »

ورقة / ٥١ /

٥٤ ـــ تمحيص الآراء ونقدها :

« من طرق تنوير الفكر ، وتهذيب النفس ، أن يعتني الإنسان بفحص كل الأمور ، صغيرها وكبيرها ، وأن لا تثني عزمه أية صعوبة ، وأن لا يقبل فكرة من أية سلطة كانت إلا بعد فحص دقيق وانتقاد إنكاري حق بحيث لا تفوت فكرة سفسطة ، أو عدم ارتباط ، أو خلط في الأفكار . »

٥٥ — ضيق العلم :

« من ضاق علمه أنكر مالا علم له به . وقد عاب الله تعالى هذا فقال : « بَلْ كَذَّبُوا مَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ » .

ورقة / ٥٢ /

٥٦ — الرشوة :

« كل من ارتشى بالذهب أو الفضة ذهبت منه الحمية ، وبرد دمه في عروقه ، فيبيت مولعاً بالمال ، ويحصل فيه الفتور فيما يتعلق بالمهام والأعمال ، فينتج الشقاء . »

٥٧ — النار :

« إقامة حاجز للنار — إذا لم يمكن إطفاؤها — خير من تركها تجاوز موضع اشتعالها . »

٥٨ — البرهان :

« كل ما أبطله برهان ضروري فليس بحق . »

٥٩ — الجود :

« لو رضيت الناس بالموجود ، ولم يتكلفوا للمفقود ، لما ذهب الجود . »

٦٠ ــ التحقيق :

« التحقيق قليل ، وطرق التنقيح في الغــالب كليل ، والتقايــد عريق في الآدميين وسليل ، والحق لا يقاوم سلطانه ، والباطل يُقذف بشهاب النظر شيطانه ، والناقل إنمــا هو يملي وينقل ، والبصيرة تنقد الصحيح إذا تَمْقَلُ والعلم يجلو لهــا صفحات الصواب ويصقل . »

٦١ ــ العرب :

« ما تحركت أمــة مؤمنة من غير العرب للنهوض لرقيهــا ، إلا لامتزاج دم العرب بدمها .

« قال مسلم هندي : الدم العربي لايزال يجري حاراً في عروقنــا وهو الذي يحركنا إلى الترقي الآن . »

٦٢ ــ الاسلام :

« الإسلام دين الفطرة والاستقلال والعلم ويمشي مع الترقي حيث مشى . »

٦٣ ــ اللغات الأجنبية :

« تعلم اللغــة الأجنبية يوصل الى معرفة ما هو جار من الأعمــال العظيمة في العالم ، ويساعد مجاوري ذويها على الحياة القومية . »

٦٤ – خير الوطن :

« لا يتمكن شعب من الشعوب من السعي في خير وطنه ، إلا بتكاتف أعضائه ، ونبذ التحاسد والتنابز . »

٦٥ – الجمود :

« ما أقبح جموداً ينتهي بصاحبه الى جهل يظنه علماً ، ويفرقه عن علم يخاله جهلاً . »

ورقة / ٥٣ /

٦٦ – العالم والعلم :

« العالم الذي يشار إليه بالبنان ، هو : الذرب اللسان ، الشديد المحاولة في كبح الخصوم . »

« والعلم كل العلم هو دقة التعبير ، وابتكار أدق الأساليب . »

٦٧ – الغضب :

« سلطان الغضب ساعةً تورث ندامة الأبد ، ويوماً يثمر حياء الغد ، إلا من أعين بالعصمة ، وأطاع راعي العقل والحكمة . »

٦٨ – عظة الاخوان :

« أحزم الحزَمَة لا يستغني عن عظة الاخوان ، كما أن أعتق الجياد لا يستغني عن ركض الفرسان . »

٦٩ – الاسلام والجنسيات :

« من محاسن الاسلام توسيعه دائرة الوفاق ، والتأليف بين معتنقيه على أجناسهم فألغى الجنسية النّسَبية والوطنية ، وجعل المؤمنين إخواناً ، حيث كانوا ، وأين حلوا . »

٧٠ – ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك :

« كان اختلاف الناس في المدارك ، وتباينهم في درجات التصور ، سبباً في انفراج مدى المذاهب بينهم ، فأخذ كل فريق يجهد عقله ، ويعمل فكره ، ويكلف نفسه الاتيان بمزاعم خصمه ، ويكرُّ عليه بالحجج الداحضة ، مما يدل الرائي على أنه لا سبيل إلى الوفاق ، ولا مساغ لطرد شيطان هذا الشقاق .

« وأنى يستتب الوفاق بين أحزاب جعلت العقل المجرد متكأ للحكم على أصل الأصول ، وحقيقة الحقائق . لا جرم أن الخلاف يكون بينهم مستحكماً ، والتفرق سائداً ، على نسبة اختلاف البشر في درجات العقول ، وتفاضلهم في مواهب الفكر . »

ورقة / ٥٦ /

٧١ - حكمة :

« من جالس صاحب صناعة حذقها ، ومن طال استماعه الحِكَم نطقها . ونعم المعلم الحوار ، ونعم الرسول الأسماع والأبصار . »

٧٢ - قاعدة :

« عدم البيان من الشارع في موضع البيان ، بيان العدم . »

٧٣ - التحامل :

« التحامل سلاح العاجز عن البرهان ، المقر على نفسه بالقصور عن مصادمة الحق بالحق . »

٧٤ - عيوب النفس :

« إن من الفضيلة أن يتعرف المرء عيوبه من إخوانه فيزيلها ، ويستبدل بها خيراً منها . والكمال غاية ليس من العار على من لم يبلغها أن يسترشد إليها ، وإنما العار على من لا يريدها ويرضى بالوقوف دون مرتبتها . »

٧٥ - الغرور القومي :

« العاقل يأبى أن يطري قومه ما داموا بحاجة إلى الكمال ، لئلا يؤدي بهم

الاطراء إلى الاغترار بالنفس ، والانحطاط عن مرتبة العلم بحاجة الحياة ، لا سيما في هذا العصر الذي قيل فيه : (نحن في عصر من نام فيه ساعة فقد مات) . فما بالك بمن يستغرق في سبات عميق ، ويهيم في واد من الاغترار بالنفس سحيق ؟ »

٧٦ – الذكاء :

« الذكاء كالشرارة الكامنة في الزناد ، لا تظهر إلا بالقدح . فإذا لم تحتك الأفكار بالعلوم ، مات ذلك النشاط والذكاء في مكامنه ، وانزوى في زوايا الصدور » .

٧٧ – النقد :

« لكلمةُ حق في الانتقاد على أخلاقنا خير عند العقلاء من ألف كلمة في إطرائنا ، إذ تلك تعرفنا عيوبنا فنتجنبها ، وهذه تنسيناها فندأب عليها . »

٧٨ – الشهرة :

« ليدع الأدباء التماس الشهرة عند العوام ، بالإطراء على ما ألفوه من الأوهام ، وليطلبوا مرتبة من العلم تتثلم دون مسهم فيها أسنة الأقلام . »

٧٩ – التقاعس :

« عدم تقدم الكثيرين هو من عدم محاولتهم التقدم » .

٨٠ - الكسل :

« الكسل والخمول وحشو الذهن بالخرافات هي طريق الشر . »

٨١ - المكسال :

« المكسال شيخ في شبابه ، لأن دقيقة البطالة أطول من ساعة العمل . »

٨٢ - العامة والصغير والجاهل :

« لا شيء أضر على الدين والدنيا من إشراك العامة فيما هو من شأن الخاصة ، ومن تصدر الصغير في مكان الكبير ، وإنزال الجاهل منزلة العالم . »

ورقة / ٥٧ /

٨٣ - البرهان :

« البرهان لا يعارضه برهان . فكل ما ثبت ببرهان فعورض بشيء فإنما هو شغب بلا شك . »

٨٤ - الحق :

« الحق ضالة العقل التي ينشدها ، ونجعته التي يرتادها . وانما تتفاوت العقول في معرفة الحق تفاوتها في مراتب الرقي ، وتتباين في تعيينه تباينها في العلم . لهذا لا تجد قائلاً قولاً ، أو منتحلاً نحلة ، أو مرتئياً رأياً ، إلا ويزعم أنه على حق .

ومن ثم كان من العدل أن لا يؤخذ على قائل ظن أنه على حق إلا إذا قامت الأدلة ، وتجلت البراهين على أنه غير الحق ، وأصر على ما قام في نفسه ، مع وضوح أنه على غير حق .

« لما كان الحق في بادئ الأمر يصادم الأسماع مصادمة ، ويقارع النفوس مقارعة ، فالصادع به ربما قدم رجلاً وأخر أخرى ، اتقاء المؤاخذة من عمرو ، والأنتقاد من بكر . عادة ألفها الناس في مقابلة كل قول جديد ، لم تألفه النفوس ، ولم تدمن عليه الأسماع . »

٨٥ - انصاف الخصم :

« العاقل لا بد أن يستهدف للملام ، ويحتاط لوقع السهام . لكن ينبغي له مع ذلك أن يكون في جانب اليقين في أن مؤاخذيه هم أيضاً طلاب حق ، ولن يستطيعوا مهما بلغوا منه أن يطفئوا نور الحق ، إذا اتضح لديهم أن صاحبه المحق . »

٨٦ - القاسمي انسان :

يلاحظ في آخر صفحة من هذا الدفتر أنه قد سجل بخطه الأبيات الآتية على ما بينها من بعد في الموضوع ، فسواء أكان الدافع لاختيار البيتين الأولين هو الأدب ، أو الحنين النفسي ، أو غيرهما ، فإن ذلك يدل على أنه إنسان لم يغلق قلبه :

للسيد أبو الحسين حيدر من قصيدة :

سارقتُها النظر المريب بمقلة   لم تقض من لحاتها آرابها
فرأيت في تلك الغلائل طفلة   لم تدر إلا عطرها وخضابها

ثم أعقبهما بهذين البيتين :

دين النبي وشرعه أخباره   وأجل علم يقتفى آثاره
من كان مشتغلاً بها وبنشرها   بين البرية لا عفت آثاره

* * *

القاسمي والمدنية الحديثة

لم يكتب للقاسمي أن يرحل الى بلاد الغرب ، ولم يعرف أحوال أهليها وشؤونهم ، وما هم عليه من الرقي والتقدم ، معرفة اختبار وعيان ، ولكنه عرف كثيراً من أوضاع الأوروبيين ، ومظاهر مدنيتهم ، والنهضة التي أصابوها ، من المطالعة والدراسة والأخبار . فترى في مكتبته مثلاً الكتاب الرائع الذي ألفه باقعة عصره أحمد فارس الشدياق ، وسماه (كشف المخبا ، عن فنون أوربا) وألحق به كتاباً آخر سماه (الواسطة ، في أحوال مالطة) ، وطبعهما للمرة الثانية في مطبعة الجوائب عام ١٢٩٩ هـ . وقد قرأهما القاسمي قراءة دراسة وإمعان ، وفهرسهما ، على طريقته فهرساً خاصاً على جلد الكتاب ، كما تجد بضعة كتب أخرى في الموضوع نفسه .

وإني على مثل اليقين أن القاسمي ، كان يقرأ ويسمع أخبار الحضارة الأوروبية ، ويقارن بينها وبين حال قومه من التأخر والانحطاط ، فكان يرثي لحالنا ، ويتمنى أن لو أخذنا بالنافع مما عند القوم ، الذي يرقى به مجتمعنا عن المستوى الذي هوى إليه . ولا أدل على ذلك من أنه أول من فكر في الانتفاع بالبرق (التلغراف) في شؤون المسلمين التعبدية ، فألف كتابه الشهير

(ارشاد الخلق الى العمل بخبر البرق) ، الذي أجاز فيه صيام المسلمين وإفطارهم بالإخبار البرقي في ثبوت حلول شهر الصوم والإفطار .

لم يقع بين يديّ بحث خاص حول المدنية الحديثة ، كتبه القاسمي بنفسه ، وما أرى ذلك ضرورياً لنعرف رأي الشيخ في هذا الشأن ، وإنما تكفينا منه اللمحة الخاطفة ، والإشارة العابرة ، فقد تكون أبلغ في دلالتها من البحث المستقل العميق المستفيض .

لقد عثر القاسمي خلال مطالعاته على بحث — لم يعزه إلى صاحبه — عن أسباب تقدم الأوربيين ، وقد راق له مضمونه ، فنقل فقرة منه في مذكراته[1] ، تدلك على مبلغ إعجابه بالمدنية الأوروبية ، وتقديره لها ، وعلى روح الإنصاف التي تحلى بها :

« بحث بعضهم عن تقدم أوربا فكتب بعد الفحص :

« أما ما أستحسنه من مدنية الغرب ، فهو سعيهم المتواصل في سبيل « الكسب ، بجد ونشاط ، ورغبتهم في طلب العلم رغبة عامة ، تتناول جميع « طبقات الشعب ، وتقديسهم الوطنية إلى حد أنهم يضحون على مذبحها أغراضهم « وأطماعهم ، وكل عزيز لديهم ، واتحادهم على العمل اتحاداً لا انفصام لعروته ، « واحترامهم لكل نابغ فيهم ، واجتهادهم في إسعافه ومساعدته ، ليبلغ الدرجة « التي تليق بفضله وأدبه واجتهاده . فقد شاهدت بنفسي وأخبرت أنهم ما سادوا « على الدنيا إلا بهذه المزايا الأساسية ، وأن كل ما خلاها محض عوائد ، قد

---

(١) الأحد ١٨ شوال ١٣٢٥ – ٢٤ تشرين الثاني ١٩٠٧

« ساروا عليها ، لحاجتهم اليها ، أو لانطباقها على أخلاقهم ، أو لأنهم تطبعوا عليها . »

إن المقارنة بين الأوضاع التي كانت تسود المجتمع الإسلامي عام ١٩٠٧ وبين ما كانت عليه أوربا ، توضح أن هذه المزايا التي تمتعت بها أوربا ، كان مجتمعنا يفتقدها ، ولهذا حرص القاسمي على تقييد هذه الفقرة في مذكراته ، لتكون هدى للعاملين والمصلحين .

كان هذا هو شعور القاسمي في السعي للنهوض بقومه ، والاقتباس عن الأوروبيين كل نافع من أسباب مدنيتهم ، وعوامل حضارتهم ، قبل أن يستفحل شر الاستعمار في الأقطار الإسلامية ، وقبل أن تبلغ ركائبه بلاد الشام خاصة . ولو أنه أدرك العهد الذي غزت فيه أوربا الأقطار التي انسلخت عن المملكة العثمانية ، واحتلتها من وراء ستار الشعارات المزيفة التي اخترعتها جمعية الأمم المنحلة ، لكانت حماسته لهذا الموضوع أكثر قوة ، ولكانت دعوته اليه أكثر حرارة . لقد كتب للقاسمي أن يرى آثار المدنية الأوروبية ، رأي العين في بلده ، ثلاث مرات :

فأما الأولى : ففي زيارته للجامعة الأميركية ، وقد كانت تسمى يومئذ « الكلية . »

وأما الثانية : ففي زيارته للجامعة اليسوعية ، وقد كانت تسمى يومئذ « المدرسة اليسوعية » .

وقد أشار الى هاتين الزيارتين إشارة موجزة في مذكراته [1] ، إذ كان الفقيد الدكتور عبد الرحمن الشهبندر أستاذاً في الجامعة الأميركية ، وكان القاسمي

---

(١) الخميس ٢٣ شعبان ١٣٢٦ – ٢٨ ايلول ١٩٠٦

في إحدى زياراته لبيروت ، فتلاقيا ، والظاهر أن الشهبندر اقترح على القاسمي زيارة الجامعة الأميركية ، وكان قد زارها في السنة الفائتة ، كما زار الجامعة اليسوعية ؛ فلم يتردد القاسمي في إعادة الزيارة ، وكتب في مذكراته يقول :

« وفي الساعة الثامنة سرنا إلى المدرسة الكلية صحبة أحد معلميها عبد الرحمن
« افندي شهبندر ؛ وشاهدنا منها دار الآثار والمكتبة ، ومحال أخرى . وكان
« سبق لي في العام الماضي في شوال رؤية هذه الكلية ، ورؤية المدرسة اليسوعية ،
« وكلتاهما فخيمتان » .

وأما الثالثة فقد اتفق له أن كان عام ١٩٠٧ في قرية المعلقة ؛ إحدى قرى البقاع ، فدعي الى زيارة بستان ديرها ؛ فأدهشه ما رأى ، فكتب يقول[1] :

« أحضرت لنا عربة في الضحوة ، وسرنا من المعلقة الى قرية المرج ،
« ومررنا في الطريق على قرية « بتعناية » ، ودعيت أن أنظر في بستان الدير
« هناك ، فسير بي اليه ، فاذا به بستان عجيب مدهش ، أخذ من القرية
« معظمها ، تأنقت فيه الشركة الفرنسويه التي جددته بالغ التأنق ؛ فترى ثماره
« غريبة ؛ وأزهاره عجيبة ، وأشجاره منوعة ، وهندسة ترتيبه مبهجة . قابلت
« بين اعتناء الجماعة الأجانب فيما يثمّر لهم أموالهم ، ويحسّن لهم دنياهم ، وبين
« ما عليه جماعتنا من التأخر ، فرأيت الفرق ما بين الثريا والثرى . أخبرت أن
« أرض هذا البستان تغل في الشهر ما لا تغله بقية قريته في جواره بسنة » .

إن الرغبة في الإصلاح ، وروح النهضة والتجديد ، والعمل على رقي المجتمع

---

(١) الاحد ١٤ شعبان ١٣٢٥ - ٢٢ ايلول ١٩٠٧

الاسلامي ، ما زايلت نفس القاسمي ، حتى في غدواته وروحاته ونزهاته . هـذا هو شغله الشاغل ، ليله ونهـاره . إن رثاءه لمن سماهم « جماعتنا » ، قبل قرابة ستين سنة ، ومقارنته بين أوضاعهم ، وأوضـاع من سـواهم من الاجانب ، في شؤون الدنيا ، ليست إلا أثراً ضئيلاً للحرقة التي تضطرم بهـا جوانبه لتأخر مجتمعنا وانحطاطه . هذا ولم ير من المدنية الأوربية إلا بعض آثارها الضئيلة ، التي انتقلت الى بلادنا قبل أكثر من نصف قرن ، فكيف لو أنه كتب له أن يراهـا في مواطنها ؟

إن زيارة الشيخ للجامعتين — الأميركية واليسوعية — في ذلك العصر ، الذي كان رجال الدين فيه ينهون عن كل ما له صلة بالأجانب ، دلالة واضحة على عقـله وإدراكه ، وحبه للاطلاع ، ورغبته في الانتفاع بما عند الناس جميعاً ، سواء منهم المسلم وغير المسلم ، العربي والأعجمي .

ولقد كان القطار حديث العهد في البلاد ، ولا سيما الخط الحديدي الحجازي ، الذي وصل دمشق بالمدينة المنورة ، ووقف عندها ، ويوم أقلّ أول قطـار حجاجَ بيت الله الحرام ، سجل القاسمي في مذكراته فرحته وفرحة المسلمين بهـذه النعمة التي أفاءها الله عليهم فكتب[1] :

« وبعد العصر ، قدم وابور الحجاج من المنورة إلى الشام ، وكان السرور « عاماً بقطعه هذه المسافة ، التي هي ثلاثة عشر يوماً بسير الإبل ، بمقدار أربع « وعشرين ساعة . فيالها من نعمة كبرى ! »

(١) الجمعة ٦ صفر ١٣٢٤ - ٣١ آذار ١٩٠٦

ويقع حدث جديد في مدينة دمشق ، هو مد خطوط حافلات الترام الكهربائية ، فيستقبل فريق من الناس هذا الحدث بكثير من الوجوم ، ويستقبله فريق آخر بالاستنكار لأنه من صنع الفرنجة ، وفريق ثالث بالإمساك عن الخوض في حديثه ، والقلة القليلة ترى فيه آثار المدنية الحديثة ، والتسهيل على الناس . ولعل القاسمي كان عنوان هذه الفئة الأخيرة ، قال في مذكراته [1] :

« ... وقد احتفل اليوم بتمشية الترامواي ، حضر الاحتفال الوجهاء من
« الأمراء — كما أخبرت — ثم ركب كثير منهم فيه من محطته الى منتهاه في
« الميدان ، وركبت معهم الموسيقى التي في مكتب الصنائع » .

ثم يضيف إلى هذا فقرة أخرى أكثر وضوحاً لفكرته فيقول [2] :

« مشى الترامواي رسمياً من أمام العدلية إلى الصالحية ، وبقي سيره إلى الميدان
« متأخراً ، ريثما تتم بعض الشؤون . وقد مُدَّ سلك لتنوير خط باب السريجة
« بالكهربائي . ولقد هجم التمدن إلى الشام دفعياً (كذا) ، ولا غرو فالعصر
« عصر الكهرباء والبخار ، أحسن المولى المآب » .

ويوم ركب الترامواي للمرة الأولى كتب يقول :

« ... صليت العصر في جامع الدقاق ، ثم ركبت الترامواي ومعي أخي
« قاسم إلى السويقة ، وهو أول ركوبي فيه ، كما أن مشيه في الميدان والشام
« كان منذ أيام . وهو أول ترامواي سار في دمشق . وقد هجم التمدن لدمشق

---

(١) الخميس ٢٤ ذي الحجة ١٣٢٤ — ٧ شباط ١٩٠٧

(٢) الثلاثاء ٢٩ ذي الحجة ١٣٢٤ — ١٢ شباط ١٩٠٧

« دفعياً ، فلا ترى إلا أصوات صفـير الوابورات صباحاً وظهراً وعشياً وليـلاً ،
« وحركات الترامواي والعربات والازدحام ، مما لم أعهده قبل . ولله الأمر » .

ألا ترى في أقواله هذه أموراً تسترعي انتباه المؤرخ الاجتماعي ؟

إن الاحتفال بسير الحافلات الكهربائية لم يقتصر على ركوب الوجهاء من الأمراء ، ليس غـير ، وإنما اصطحبوا معهم موسيقى مكتب الصنائع ، ليجمعوا الناس ، وليدللوا لهم على أن السرور والانتفاع من الحافلات يجتمعان معـاً ، وليشوقوهم إلى ركوبه .

وقد عبر القاسمي مرتين في مذكراته عن هذا الحدث بقوله : « هجم التمدن » . ثم لا يلبث أن يقول : ولا غرو فالعصر عصر الكهرباء والبخار . ولكنه لا يسعه مع هذا إلا أن يبدي شيئاً من التحفظ الرقيق ، لما يخالجه في باطنه من إمكان وجود عنصر من عناصر الشر في هذا الخير فيقول تارة : « أحسن المولى المآب » ويقول تارة أخرى : « ولله الأمر » !

* * *



القاسمي ومعاصروه



القاسمي ومعاصروه

عاصر القاسمي طائفة من علماء زمانه . وكان طبعياً أن تكون له معهم صلات وروابط مختلفة تأثره بها ، كما أثر فيهم . وكان هؤلاء المعاصرون أنفسهم فئات ، فمنهم الأصدقاء المحبون المتفقون في التفكير والاتجاه ، الذين يحرص على الاجتماع بهم ، ويرى المتعة والفائدة في التذاكر معهم ، ومبادلتهم الآراء ، ولعل حلقتهم كانت نواة النهضة الحديثة في القطر الشامي على الأقل ، لما حملت من بذور الحرية الفكرية والسياسية ، ولما دعت إليه من تخليص الدين من شوائب الخرافات والأوهام والأباطيل ، والسير على نهج السلف الصالح ، ولما دعت إليه من فوائد المدنية الغربية الحديثة ، وضرورة الأخذ بالنافع منها ، ولما عانت من آلام تخلف العالم العربي والاسلامي . . .

وكان من معاصريه أعداء وحاسدون بعضهم يعرف الحق ، ويتنكب طريقه ، و بعضهم أعماه التقليد وحجر عقله ، وأساء إلى نفسه وإلى المجتمع الاسلامي . ولم تكن هذه الفئة قليلة ولا هينة . فقد أكل قلبها الحسد من نباهة الشيخ الشاب ، وانتشار اسمه بين المؤلفين المنتجين ، الذين يدأبون على العمل في الليل والنهار . وقديماً قيل : « المعاصرة حرمان » .

وكان طبعياً أن يكون المعاصرون طبقات من حيث قربهم و بعدهم إلى قلب القاسمي وعاطفته . سنة الله في خلقه ، فمنهم الأثير الذي لا بد من لقائه في كل يوم . ومنهم الذي يحرص على الاجتماع به بين الحين والحين ، ومنهم الذي يلقاه فيأنس به ، ويغيب فلا يشعر بغيبته ، ومنهم ومنهم . . .

وسنحاول في هذا الفصل أن نوضح مدى هـــذه العلاقات العلمية ، ومدى أثرهـا في القاسمي ، وفي عصره ، مقتصرين في تأريخهـا على ما يمس موضوعنا . ونحن لا نبغي ترجمة كاملة لهؤلاء المعاصرين ، لأن ذلك يخرج عن موضوعنا ، فما إلى ذلك قصدنا .

كما أنه ليس في وسعنا أن نحصي المعـاصرين الذين تأثر بهم وأثر فيهم ، ولكننا سنقتصر منهم على أفراد ، دوّن القاسمي في مذكراته ، وفي بعض كتبه لمحاً عن علاقته بهم ، معتمدين عليها في الدرجة الأولى ، وعلى ما وعت ذاكرة بعض تلاميذ الشيخ الأحياء .

★ ★ ★

١ ـ الشيخ عبد الرزاق البيطار

١٢٥٢ ــ ١٣٣٥

كان العلامة البيطار أسنّ[١] من القاسمي . وقد ألف بينهما المشرب[٢] الواحد . ولعله كان أحب أصدقائه إليه ، وأقربهم إلى قلبه ، وأعزهم عليه . وكان البيطار خفيف الظل ، كثير المرح ، حلو الصوت ، له إلمـام بالموسيقى ، محباً للدعابة ، مهيب الطلعة ، موفور الكرامة ، ورعاً يخشى الله في السر وفي العلن ، تحلى بمكارم الأخلاق ، وهــذه صفات تحبب القريب ، وتقرب البعيد . وقد قامت صداقتهما على الخير والحق والجمال ، فدعوتهما مشتركة ، وهدفهما موحد ، وعقلاهما متفقان . كانت مجالسهما مستمرة ، وبحوثهما ومذاكراتهما تدور حول المواضيع

(١) ولد الشيخ عبد الرزاق البيطار عام ١٢٥٢ وتوفي بعد القاسمي بثلاث سنوات عام ١٣٣٥ فهو أسن منه بواحد وثلاثين عاماً .

(٢) من اصطلاحات العصر أن يقال : فلان على المشرب . أي أنه متفق في التفكير والعقيدة . ولعله يقابل ما يسميه الناس في هذا الزمان « من مدرسة واحــدة » وهي ترجمة حرفية لاصطلاح فرنسي (Ecole) .

المختلفة التي اعتلج بها مجتمع ذلك الزمان . والذين أدركوها ما زالوا يحنون إليها ، ويذكرونها بكثير من التقدير .

عثرت في مذاكرات القاسمي اليومية على تسجيل لحادثتين هامتين امتُحن بهما العلامة البيطار . والذي استرعى انتباهي ، ووجـه نظري ، الطريقة التي دونت بهما هاتان الحادثتان . فما عرفت في أسلوب القاسمي ، في جميع كتبه ومناظراته ، حتى مع أشد أعدائه وخصومه ، لفظاً نابياً ، أو كلمة جارحة . الا أنه يوم سجل هاتين الحادثتين ، نبا به القلم ، وخرج عن مألوف عادته واستعمل من الألفاظ ما لا عهد له به . وإذا كان هذا يدل على شيء ، فانما يدل على مبلغ حب القاسمي لصفيِّه البيطار ، وعلى الحرقة لما أصاب أعز أصدقائه عليه . ولقد أصاب القاسمي أكثر ما أصاب البيطار ، من زور المغرضين ، واتهام المزورين ، وإفك الخراصين ، فرأيناه ثابتاً ، يدفع بالتي هي أحسن . أما أن يجرؤ هؤلاء المفترون على الصديق الصفيّ ، والخل الوفي ، فهذا ما لا يمكن احتماله ، ولا يطاق الصبر عليه ، ويخرج القاسمي عن هدوئه ومزاجه .

فأما الحادثة الأولى : فحادثة سياسية ، كان يمكن أن تطيح بالشيخ وحياته ، أو أن تفسح المجال أمام حكام ذلك الزمان للتنكيل به على الأقل . فقد كانت التهم السياسية خلال الحكم الحميدي وسيلة للتشفي من الخصوم ، وطريقاً سهلاً للخلاص منهم . وكانت عقول الحكام تقبل أي نوع من الاتهام ، ولو كان مستحيل الوقوع . وقد أطاح نظام الحكم بكثير من الأبرياء نتيجة لسعاية مفسد ، أو نميمة

حاسد . وتحاسد علماء الدين معروف ، ولا سيما من تزيا منهم بالعمامة والجبة ، وخلا وفاضه من العلم والفضيلة .

قال القاسمي[1] :

« . . . وبعد الغروب ، مرَّ علي أحمد بك القضماني[2] ، بينباشي الجندرمة في معية الوالي ، وجارنا ، وأخبرني خبراً سرياً : وهو أنه ورد تلغراف للوالي يستعلم منه عن الشيخ عبد الرزاق البيطار ، وأن له قريباً يسمى « طيار » يتوسطه الشيخ إلى مصر[3] في نقل الأخبار والأسرار . وشاية قدمت « للمابين » من دمشق من أشقى البلدة « أسعد الصاحب » . يقول لي أحمد بك : فقرأ الوالي التلغراف على عبد الرحمن باشا ومحمد باشا العظم ، فبرآ الشيخ من ذلك أشد التبرئة ، وأحب الوالي أن يستخبر عن ذلك ، فتكفل أحمد بالسؤال . فقلت له : لا أعلم للشيخ قريباً يسمى طياراً أبداً . قال : وسوف يخزي الله أسعد ، قاتله الله ! »

ويتابع القاسمي اهتمامه بالحادث فيدون في مفكراته اليومية[4] :

« طمأننا البارحة أحمد افندي القضماني ـ بواسطة مواجهة لأخي محمد عيد ـ بأن لا تكون للشيخ عبد الرزاق فكرة ولا للأخ فقد كتب الوالي جواباً مسدداً للمابين ، تكذيباً لوشاية المفتري ، عامله الله بما يستحق . »

---

(١) المفكرة اليومية ـ ٢٩ شوال ١٣٢٤

(٢) وطني دمشقي مخلص معروف ، شارك وعائلته في جميع الحركات الوطنية التي قامت في وجه المستعمرين . وهذا دليل جديد على رسوخ قدمه رحمه الله ، في نزعته التحررية وحبه للاحرار .

(٣) كانت مصر يومئذ تحت الاحتلال البريطاني .

(٤) ٣٠ شوال ١٣٢٤

ويبدو أن العلامة البيطار قد قلق لهذا الافتراء ، وخشي مغابه ، على الرغم من طمأنة القضماني ، فسعى إلى عبد الرحمن باشا اليوسف ، وكان يومئذ أميراً للحج ، واستوسطه في مقابلة الوالي ، وقد فعل .

قال القاسمي[1] :

« ... وبعد العصر حضر الشيخ طاهر إلى الجامع وسرت معه إلى الشيخ عبد الرزاق البيطار فتعشينا عنده ، وبقينا للساعة الواحدة . وحكى لنا أن عبد الرحمن باشا ، لما نزل الشيخ لوداعه[2] في داره غدّاه عنده . ثم سار به للوالي ، وذكر للوالي أن الشيخ بلغه مجيء أمر في السؤال عنه لدولتكم ، فتكدر وأحب أن يعلمكم مشافهة مقاصد الحسدة والأعداء ، فتكلم الوالي معه وسأله عن علاقته بمصر بواسطة ابنه وصهره ، فقال : ابني لم يتجاوز البحر ، وصهري لم يبارح الشام ! ثم قال للوالي : هؤلاء الأعداء يستخفّون باطناً بالدولة ، فيقتضي تأديبهم ! فهل أنا صدر ، أو سر عسكر ، أو نحوهما ، حتى أسلم الشام إلى مصر ، وهل هي بيضة فأعطيها ؟ فما هذا إلا سخافة . ومع ذلك فأرجو أن تحقق عليّ . فطمنه الوالي وقال : أجبنا عنك جواباً مسدداً . والورقة لا تحتمل التفصيل وسأكتبه على حدة » .

إنها غضبة الصديق للصديق ، وأكرم بها من غضبة ! لأن القاسمي من الذين لا يسألون أخاهم في النائبات على ما قال برهاناً . ثم إنها غضبة للحق ، فما كان

---

(١) ٤ ذو القعدة ١٣٢٤

(٢) يلاحظ أن عبد الرحمن باشا كان يتهيأ للحج ، والوداع لهذا الغرض . ونزل هنا بمعنى ذهب . هذا هو اصطلاح أهل حي الميدان في تنقلهم من حيهم الى أحياء دمشق الأخرى .

الإفك إلا دليل العاجزين ، ووسيلة المتخلفين . والإفك سلاح قد اكتوى القاسمي بنـاره ، وعرف شروره وآثامه ، وبسببه لقي الحبس وهـو في شرخ الشباب ، والبيطار قد اكتهل ، وما زالت آذان الشر مفتحة للسماع ، وما زال لدى المسؤولين استعداد للأذى والإيقاع ، لأن الحادث وقع قبل اعلان الدستور بسنتين . وقـد خشي القـاسمي على صفيه أذى الوقيعة ، فلم يسع صدره الصبر ، فانثال على قلمه هجاء كلظى الجمر ، وسلق المفترين بألسنة حداد ، لا هوادة فيها ولا اتئاد .

وأما الحادثة الثانية : فقد أمسكنا عن ذكرها ونشرها لأنها ما زالت تسيء إلى فريق من علمـاء الدين ، ونحن أحوج في هـذا الزمان إلى المحبة والوئام . ونعتقد أننا قد اقتفينا أثر القاسمي في عدم توسيع شقة الخلاف بين طائفـة تدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

وقد يكون من المفيد لتاريخ الرجلين أن أشير إلى أنني لم أعثر في مذكرات القاسمي على أنه قرأ شيئاً من مؤلفاته على البيطار قبل طبعها ونشرها ، أو خلال إعدادها . وإن كان القاسمي قد أشار في مذكراته إلى كثير من المذاكرات جرت بين الشيخين . وقد يكون القاسمي قد اكتفى بالتلميح دون التصريح ، وقد تكون ملاحظتي قد أصابت الصواب . وإنمـا دعاني إليها أنني رأيته يشير في مذاكراته مع الشيخ طاهر الجزائري إلى أنه قد شاركه في تنقيح كتابه قواعد التحديث .

وكيفما كان الأمر ، فمذاكرات الرجلين لا بد وأن تكون ، في أكثر الأحوال ، حول المواضيع التي يعالجانها صباح مساء ، في دروسهما العامة والخاصـة ، وحول المجتمع الذي يعيشان فيه . والقاسمي قد هدف في أكثر مؤلفـاته إلى الإصلاح ،

وإلى رقي المجتمع ، وإلى نشر هدى الدين القويم . ولا بد من أن يكون للتفاعل بين عقلي الرجلين أثر لكل منهما في الآخر ، وما تراه في كتب القاسمي ، كانت للبيطار مشاركة فيه ظاهرة أو مستترة .

كانت مجالس الشيخين أرق ندوة من ندوات العلم والأدب وخفـة الظل في عصرها . حدثني بهـذا تلاميذ الشيخ جميعاً . ولعل أبلغ ما وصفت بـه هـذه المجالس ، مقالة الأمير شكيب ارسلان في المقدمة التي كتبها ، وهو في جنيف ، عام ١٣٥٣ هـ ، لـكتاب « قواعد التحديث » والذي يسترعي الانتباه والنظر أن المقدمة كانت للتعريف بالقاسمي ، فلم يستطع الأمير شكيب ـ طيب الله ثراه ـ أن يفصل بين القاسمي والبيطار ، حتى في هذا التعريف ، فقال[٢] :

« لقد تعرفت إلى العلامة المشار إليه رحمه الله ، منذ ثلاث وعشرين سنة[١] أو أكثر ، وذلك بواسطـة صديقـه الأستاذ العلامة نادرة عصره ، الشيخ عبد الرزاق البيطار ، قدس الله روحه اللطيفة . فقـد كان هذان الجهبذان فرقدين في سماء الشام ، يتشابهان كثيراً في سجاحـة الخلق ، ورجاحة العقل ، ونبالة القصد وغزارة العلم ، والجمع بين العقل والنقل ، والروايه والفهم . ولم يكن في وقتهما أعلى منهما فكراً ، وأبعـد نظراً ، وأثقب ذهناً ، في فهم المتون والنصوص ، والتمييـز بين العموم والخصوص ، وكان وجودهما ضربة شديدة على الحشوية ،

---

(١) قواعد التحديث – المقدمة – ص ٦ – ٧

(٢) لقـد تعرف الأمير بالقاسمي عام ١٣٢٤ أي قبل تسع وعشرين سنة . والأمير معـذور ، لأنه كتب ما كتب ، وهو في جنيف ، من وعي الذاكرة ، دون الرجوع الى أوراقه .

وتلك الطبقـة الجامدة ، التي هي وأمثالها صارت حجـة على الإسلام في تدهوره وانحطاطه ، وفقده معاليه السالفة .

« وقد كنت لا أغشى دمشق مرة من المرار — والله يعلم كم كنت أزورها كل سنة — إلا كان أول ما أبادر إليه زيارة الأستاذين : الشيخ عبد الرزاق البيطار ، والشيخ جمال الدين القاسمي رحمهما الله ، وجزاهمـا عن الاسلام خيراً . وكانت تستمر مجالسي مع كل منهما أو معهما مجتمعين الساعات الطوال ، في الأيام والليال ، ولا نشعر بمرورها ، بسبب طرافة الحديث ، ولطافة النكات ، وجلالة المواضيع ، ونصاعة البراهين ، وغزارة الشواهـد ، والنظم بين المعقول والمنقول ، والجمع بين الفروع والأصول . فكنت إذا سمعت محاضراتهما نسيت نفسي ، ورأيتني في حياة غير الحياة التي أعهدها . وكم حفظت ممـا سمعت منهما من شوارد ، وعلقت من نوادر ، وفهمت من حقائق ، وتذوقت من رقائق ، أنا فيها عيال عليهما — وإني لأجر ذيل التيه بهذا السند .

« وقـد كنت إذا فارقت ذينك الأستاذين ، لا أفتـأ أعشو إلى منارهما ، وأجاذبهما حبال المراسلة ، استفادة منهما على البعد ، واستحضاراً في الخيال لروحيهما اللتين هما معدن الأنس . وعندي منهما كتب أعدها من أنفس الذخائر ، وأثمن ما يورثه الأول للآخر . وربمـا أنشر بعض كتـابات الشيخ جمال في أول فرصة تتسنى لي . »

أما رأي القاسمي في البيطار فإني أنقله بحروفه ، كما وجدته في مذكراته [1] :

(١) المذكرات اليومية : ٩ محرم ١٣٢٥ - ٢٢ شباط ١٩٠٧

« . . . وسرت بالأستاذ إلى الدار ، وتعشى عندنا ، وعزمنا عليه بالمنام أيضاً ، وسمرنا معه . وكانت ليلة لطيفة جداً . ولا غرو فالشيخ الأستاذ حفظه الله ، نزهة المجالس ، وفريد عصره لطفاً ، ورقة حاشية ، وحسن محاضرة ، وتبحراً في كل موضوع . . . »

ورأيتة يلقبه (الرئيس الأستاذ الأكبر[1]) :

« سرنا إلى بستان دف الشوك أجابة لدعوة سعيد آغا المهايني ، وكان الرئيس الأستاذ الأكبر الشيخ عبد الرزاق افندي وأعضاء اللجنة الأديب محمد افندي كرد علي ويحيى افندي تللو وشقيقاي . »

ويوم وقعت حادثة المرحوم الأستاذ السيد رشيد رضا التي تراها في غير هذا الموضع من الكتاب ، اعتكف العلامة البيطار في داره . ولما خرج منها زار صفيه القاسمي ، فكتب عن هذه الزيارة[2] :

« البارحة شرف الشيخ عبد الرزاق افندي لزيارتي ، وكان مضى له العكوف في بيته من آخر رمضان إلى هذا التاريخ . وقد مرض في أثنائها ، وناله من القالة ما نالنا ، واضطرنا جميعاً ، إلى أن فرج الله ، وسكنت الضوضاء ، وظهر الحق ، وأخزى المرجفين ، وحملت عليهم الجرائد وشهرتهم وفضحتهم في مشارق الأرض ومغاربها .

« ومن لطائف الشيخ قوله لبعض أصحابه : اليوم انتهت العدة ، أربعة أشهر

---

(١) المذاكرات اليوميه : ٦ ربيع الثاني ١٣٢٧ – ٢٦ نيسان ١٩٠٩

(٢) المذاكرات اليومية : ١٩ جادي الأولى ١٣٢٥ – ٣٠ حزيران ١٩٠٧

وعشر ، بدون حمل . يعني : بلا حقد على أحد . وقانا الله شر الأعداء والأسواء بمنه وكرمه . »

وترى اغتباط القاسمي بالغاً منتهاه يوم أعلمه صفيه البيطار أنه نوى أن يقرأ رسائل الأصول التي جمعها لأخيه[1] وغيره :

« زارني اليوم الأستاذ الشيخ عبد الرزاق أفندي البيطار ، وكان استعار مني مسودة مجموعة المتون الأصولية على المذاهب الأربعة ، ليقابلها بالمطبوعة ، ويصحح تحريفها ، وقد قابلها وأحضرها لي ، وفي نيته إقراؤها لأخيه وغيره . فحمدت الله على ذلك ، وأن أقرّ عيني بقراءة ما منّ عليّ بجمعه في حياتي ، لا سيما من مثل هذا الأستاذ . »



(١) المفكرات اليومية : ١٩ جادى الأولى ١٣٢٥ - ٣٠ حزيران ١٩٠٧

٢ ـ شكيب أرسلان

الأمير شكيب أرسلان ، أولع بالأستاذ الإمام محمد عبده ، وفتن فيه ، وتتلمذ عليه ، وكانت « الباكورة » في معظمها مدحاً للأستاذ الإمام . وقد تفتح عقله وقلبه منذ طفولته على نوع من الرجال ، هم الذين ورد بشأنهم الحديث الصحيح[1] : « إن الله يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها » وفي طليعتهم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده .

وكان طبعياً أن يمتد إعجاب الأمير إلى بقية العلماء الذين كانوا على « المشرب » ، أو كما نقول اليوم : « إلى بقية رجال المدرسة » . وقد مر معك في بحث رحلات القاسمي ، ما كان بين الأستاذ الإمام والقاسمي من إعجاب وود ، وما كان من إيثار محمد عبده للقاسمي ، وما كان للقاسمي من احترام لمحمد عبده ، حتى أنه قد همَّ بتقبيل يده .

فليس عجيباً إذن أن يلتقي أرسلان والقاسمي في دمشق ، وفي غير دمشق ، لأن عقليهما قد التقيا من قبل ، وعرفا طريق الهدى والنور .

والذي يبدو أن القاسمي وأرسلان قد عرفا شخصي بعضهما للمرة الأولى في

---

(١) رواه الحاكم والطبراني وأبو داود .

١٣ جمادى الثانية ١٣٢٤ — ٣ آب ١٩٠٦ ، ولم يلتقيا قبل هذا التاريخ .

قال القاسمي [١] :

« ... وبعدها زارني الشيخ طاهر افندي ... ثم بعد أن شربنا الشاي سرنا إلى دار رفيق بك العظم ، فزرناه وأخاه . وبالأثناء قدم الأمير شكيب أرسلان الكاتب الشهير ، فأشار عليّ الشيخ طاهر بأن أطلعهم على كتاب الشيخ عبد العزيز من بغداد الذي أرسله إليّ يشكر جوابي له عن سؤاله [٢] ، فقرأه الأمير شكيب ورفيق بك ...

« وبعد أدائنا العصر سرنا إلى اللوكندة عند السنجقدار حيث كان ينتظرنا الأمير شكيب ورفيق بك ، فركبنا العربات ، وسرنا إلى دمر ، وكان الشيخ عبد الرزاق البيطار سبقنا إلى دمر من الصباح ، فاستقبلنا الأمير عمر ، ثم أخذنا إلى داره الجوانية ، وتعشينا بها كلنا ، وسمرنا بعد العشاء حصة ، ثم استأذن الأمير شكيب ورفيق بك ، ونزلا إلى البلدة ، وبقينا ثمة . ولقد رأيت الأمير شكيب يصغي بتروّ زائد إلى مباحثتي حينما أناقش الشيخ طاهر ويستحسنها . »

لا جناح على القاسمي – فيما نرى – ولا على غيره من أهل الفكر والعلم ، أن يسجل إعجاب الناس فيه ، ما لم ينم ذلك على الغرور ، أو يدفع بصاحبه إلى تجاهل أقدار الآخرين ، أو الغض منهم . لا سيما إذا كانت العبارة قد صيغت بكثير

---

(١) المذكرات اليومية ١٣ جمادى الثانية ١٣٢٤

(٢) كان بريد القاسمي متصلاً مع العالم الاسلامي ، يسأل فيجيب ، وقلما احتفظ بأصول اجوبته إلى السائلين .

من التواضع ، على النحو الذي تراه في هذا النص . والشاعر العربي يقول :

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

على أن هذا النص يدل فيما يدل على أن الجزائري والقاسمي كانا قطبي الرحى في المناقشة الدائرة ، وأن أهل المجلس الآخرين من المستمعين .

وما أظن أن القاسمي قد كتب هذه المذكرات اليومية لتنشر ، أو لتكون مرجعاً للباحثين وإنما كتبها تذكرة لنفسه ، إذا شاء الرجوع إلى أيامه الخوالي .

بقي القاسمي في دمر إلى اليوم الثاني وترى في مذكراته [1] :

« وفي المساء زارنا الأمير شكيب وتعشى معنا ، ونزل معه الشيخ طاهر . »

وفي اليوم الثالث ، لم ينقطع الأمير شكيب عن هذه الجلسة أيضاً ، وقد ترك في نفس القاسمي أثراً جميلاً :

« وبعد العشاء زارنا الأمير شكيب ، وكان مدعواً عند أحد المياسير في دمر ، فسمرنا معه إلى نحو الساعة الخامسة . وما ألطف هذا الإنسان ، وأرق حاشيته وألطف محاضرته ونكته . »

والظاهر أن الأمير لم يترك دمشق إلا بعد أن وعده القاسمي بزيارته في صوفر ، فقد ازداد تعلقه به ، وحرصه على مجالسه ، وكان الجزائري رفيقه في هذه الرحلة .

---

(١) ١٤ جمادى الثانية ١٣٢٤ - ٤ آب ١٩٠٦

قال عنها[1] :

« . . . ثم استأجرنا من المعلقة عربة إلى صوفر ، فوصلناها قرب الساعة العاشرة والنصف ووفينا الوعد لحضرة الأمير شكيب بها ، حيث قابلنا باللطف ، وأنزلنا في لوكندته ، ثم سار بنا إلى كرم له في رأس جبل ، وقطف لنا منه أنواع العنب الجبلي اللذيذ ، وصلينا المغرب عند الكرم ، إلا أن الهواء كان عاصفاً جداً طول النهار وبارداً . ولكن تلك الجبال صيفهن شتاء .

« ثم سار بنا إلى اللوكندة الكبرى ، المنارة بالكهربائية ، وفيها أنواع المصطافين رجالاً ونساء وشباناً وولداناً ، وهي بديعة جداً ، لولا ما فيها من المقامرة الملعونة ، ثم عدنا إلى نزلنا ، وتناولنا العَشاء بعد العِشاء ، وكان أخذني شيء من البرد ، فاقتصرت من السهر ، ونمنا بعافية بحمده تعالى . »

ويسجل القاسمي في اليوم التالي ١٣ شعبان ١٣٢٤ ـ ١ تشرين الأول ١٩٠٦ بعض الملاحظات فيقول :

« أصبحنا في صوفر ، وتناولنا طعام البكور في اللكندة على قاعدة الأوربيين . ثم تجولنا في أنحائها . وكان الهواء بارداً . ثم عدنا ، وكنت أشتغل في « الاقناع » ونقل جمل منه قصد اختصاره ، وحانت مني التفاتة إلى ورقة معلقة على باب غرفة في اللوكندة فيها تعليماتها ، ومنها أن الاغتسال في الماء البارد بفرنك ، وبالحار بفرنك ونصف . فعجبنا لهذا الاجحاف والخروج عن التوسط ؛ مما أخر مثله البلاد ، وجعلها غير منتظمة ، وقلما أن ترى بلداً منتظماً في تلك الأنحاء وفي غيرها .

(١) ١٢ شعبان ١٣٢٤ - ٢٠ ايلول ١٩٠٦

« ثم خطر لنا أن نسير من صوفر إلى بعبدا في الوابور ، فلما وصل ركبنا فيه إلى بعبدا ، وودعنا الأمير شكيب ، وأكد علينا في الرجوع أن ننزل عنده ... »

والظاهر أن الأمير ، أعلى الله غرفته في الجنة ، ما زال يحنّ إلى هذه المجالس ويمني نفسه بالاستمتاع بما يدور فيها ، فتمنعه ظروفه عن بلوغ الأمنية ، ويحضر الشيخ طاهر الجزائري بعد أقل من ثلاثة أشهر إلى بيروت ، فيلاقي الأمير ، فيهيج من عاطفة الأمير السواكن ، فيجري قلمه بهذا الكتاب الفاتن ، الذي يعبر عن أبلغ حب ، وأعمق احترام ويوجهه إلى القاسمي :

مولاي الأستاذ العلامة أيده الله

« لم أقصر إلى اليوم عن تقديم الجواب إلا بناء على ما كان في النية من التشرف بالنفس إلى الشام ، فكنت كل يوم معداً القدم ، محل القلم ، ومقدماً النفس ، مقام النِّقْس . وما زلت كذلك والشواغل تدهشني ، والمسائل تحيط بي ، حتى أيقنت الآن أن أمر هذه الزيارة مؤجل . فجئت أستميح منكم العفو عن تأخر جوابي ، والاعتقاد أنه ليس من قلة جوى بي ، بل والله يشهد أن خيالكم دائماً أمام الناظر ، وذكراكم مسرة للقلب والخاطر ، وقد شرف الأستاذ الطاهر [1] ، فجاء لُقيانه عندنا كما يجيء بعد العطش السحاب الماطر . وأكثر الليالي نجتمع . فيا حبذا لو انتظم العقد بوجودكم ، وشتاؤنا ربيع ، ومحلنا الآن بديع . فلو صرفتم

(١) هو الشيخ طاهر الجزائري .

فرصة العيد ، أعاده الله عليكم مائة مرة بالاقبـال ، في بيروت ، لكان الأنس بك عظيماً ، والعقد نظيماً .

وسلامي إلى حضرة الشقيق الأديب . وأطال الله بقاكم مولاي .

بيروت في ٤ ذي الحجة ١٣٢٤

الداعي

شكيب أرسلان

ثم يستدرك الأمير في هامش الرسالة الأعلى أن القاسمي قـد أهـداه مجموع رسائل الأصول فيوجه إليه هذه الجملة الرقيقة :

« اطلعنا على رسائل الأصول[1] ، فلا تبّت يد أحيت مآثر السلف ، وكشفت البراقع الغاشية أبصار الخلف ، وفضيلتكم لا برحت مصدر الألطاف والتحف . »

ولا شك في أن الصلة استمرت بين الرجلين ، فما قصد الأمير دمشق مرة إلا والتقى القاسمي ، كما أشار إلى ذلك في مقدمة قواعد التحديث . وقد عثرت بين أوراق القاسمي التي جمع فيها بنفسه رسائل أصدقائه إليه ، بعد هذا التاريخ على أكثر من رسالة إحداها مؤرخة في ٢٧ ذي الحجة ١٣٢٥ صادرة عن (الصلت) ، أي بعد أكثر من سنة من الرسالة السابقة .

ويبدو من هذه الرسالة أنه مر بدمشق ، ولقي فيها القاسمي ، ثم غادرها ، حيث

---

(١) هي رسائل في الاصول جمعها القاسمي ونشرها .

جاء في الرسالة : « وتأخرنا عن إعلام سيادتكم وصولنا ، إذ لم تسمح لنا هـذه الحالة ـ شدة العواصف والمطر ـ بكتابة سطر . . . »

ثم قال في ختامها :

« نسأل الله تعالى أن يرينا وجهكم على خير الأحوال ، ويسمعنا قريباً أحاديثكم المسلسلة كالزلال ، وآراءكم المسندة إلى أصح الأقوال . . . »

وقد استمرت الصلة بين الرجلين كأحلى ما تكون بين رجال الفكر والعلم . يدل على ذلك ما جاء في مذكراته اليومية [1] وما وقع لي يوم طبع قواعد التحديث .

بعد واحد وعشرين عاماً على وفاة القاسمي ، طبع كتابه قواعد التحديث في دمشق ، ولست أدري لماذا ظهر لي أن يكتب مقدمته الأمير شكيب ، وقد كان يومئذ في جنيف . وقد أخذت أسأل عن عنوانه فيها ، حتى عثرت عليه . ولم تكن بيني وبينه معرفة ولا صلة إلا ما وصل إلى سمعي عن طريق الرواية في البيت ، فملأ عقلي وقلبي . فأرسلت إلى الأمير أكثر ملازم الكتاب ، وهو تحت الطبع ، ورجوته أن يكتب كلمة يقدم فيها القاسمي إلى القراء .

---

(١) « شوال ١٣٢٦ : من غرائب الاتفاق أن البارحة جاءتني مكاتيب من أقطار متباينة ، فمكتوب من السودان من السيد أحمد حمدي النجار ، تهنئة بالعيد ، وآخر من مصر من الشيخ فرج الكردي ، وآخر من فاس ضمنه صرة كتب هدية من السيد عبد الرحمن الكتاني الفاسي ، وآخر من لبنان من الامير شكيب ارسلان قائم مقام قضاء الشوف ، فلله ما فعل تسيير البخار ، وما قرب الأقطار . وسبحان الملهم المسير في البراري والبحار » .

راجع في بحث مراسلاته ، مجموعة رسائل الامير شكيب للقاسمي .

ولم تكد تمضي أيام معدودات ، حتى جاءتني المقدمة ، مع كتاب بالدعاء لي ، وزينت بها صدر الكتاب . وأنا أعلم أن الأمير رحمه الله لم يكن من رجال هذا العلم الاصطلاحي المحض ، وإن كانت له صلة متينة بجميع علوم الشريعة . فضلاً عن أنه قد قضى في أوربا حتى يوم كتابة المقدمة ، قرابة عشرين سنة ، وهو دائب الاهتمام بسياسة البلاد العربية الاسلامية . ولكن الأقدار شاءت أن أتوجه إليه على البعد ، وأن أستكتبه فيكتب وأن يقول فيما يقول[1] :

« . . . رأيت من هذا الكتاب في حسن ترتيبه وتبويبه ، وتقريب الطرق على مريد الحديث ، والإحاطة بكل ما يلزم المسلم معرفته من قواعد هذا العلم الشريف ، ما يقضي بالعجب لمن لم يكن يعرف علو درجة المؤلف ، ولكنه مما لا يعجب منه مثلي ممن حضروا مجالسه الزاهرة ، وسمعوا تقريراته الساحرة .

« وإني لأوصي جميع الناشئة الإسلامية ، التي تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها ، وتنعقد عليه خناصرها ، أن لا تقدم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمي ، الذي قسم الله له من اكتناه أسرار الشرع ، ما لم يقسمه لكبار الأئمة ، وأحبار الأمة . والله تعالى ينفع المسلمين بآثاره ، ويهديهم في ظلمات هذه الحياة بزاهر أنواره . آمين » .

القاسمي وأرسلان وكردعلي :

وما أن صدر الكتاب ، حتى حملت بنفسي نسخة منه هدية إلى الأستاذ الرئيس المرحوم محمد كرد علي في داره ، وجلست إليه أكثر من ساعة ، قرأ علي خلالها

---

(١) قواعد التحديث - المقدمة ، ص ٨

فصلاً من كتابه (الإسلام والحضارة العربية) — وكان يومئذ قيد الطبع — وترحم على القاسمي ، وذكر مجالسه معه ، وانصرفت وأنا أعتقد أنني قمت بواجب عليّ نحو رجل كان يقدس أبي ، وكانت له معه صحبة أقرب إلى التلمذة منها إلى المعاصرة [1] لا سيما وأني كنت حديث عهد بما كتب كرد علي عن القاسمي في جريدة الاصلاح ، غداة وفاته ، وما كتب في المقتبس خلال الشهر الذي أعقب وفاته . ورأيت هذا الافتنان النادر لا بشخص القاسمي فحسب ، ولا بدروسه ومجالسه وطريقة دعوته فحسب ، بل بآثاره وكتبه أيضاً .

ولم تكد تمضي أيام حتى جاءتنا مجلة الرسالة [2] ، وفيها نقد مر للكتاب ، وللذين قدموا له ، وفيه غض مستتر من مؤلفه ، بقلم الكرد علي .

وقد عجبت لهذا المقال كل العجب ، ورأيت فيه هوى ظاهراً ، وعدولاً عن الحق ، وتناقضاً مع ما سبق أن كتب كرد علي نفسه عن المؤلف ، ومع ما كتب عن مؤلفاته واحداً واحداً في مجلة المقتبس من الثناء والتقريظ ، ومع ما صنع كرد علي نفسه في مجلته — المقتبس — إذ أفسح صدرها لكثير من كتب القاسمي ، فنشرها برمتها فيها [3] .

فلما رأيت كرد علي يقول في الرسالة : « إن الناشر قدم للكتاب أربع

(١) حدثتني والدتي وعمي قاسم رحمهما الله أن مجلة المقتبس ، يوم كانت تطبع في دمشق ، كانت ترسل ملازمها لعرضها على القاسمي ، لينظر في أخطائها النحوية والصرفية وغير ذلك ؛ وعدم تمكن المرحوم كرد علي من النحو والصرف معروف .

(٢) العدد ١٠٤ – ٣٠ ربيع الأول ١٣٥٤ – ١ تموز ١٩٣٤ ص ١٠٨٠

(٣) منها الفتوى في الاسلام ، ومذاهب الأعراب وفلاسفة الاسلام في الجن .

مقدمات ، ما خرج الكلام في بعضها عن الدعاية والتمجيد » ، « وأن المؤلف ربما استشهد ببعض أقوال المعاصرين ونقل عن مجلات غاضاً عن ذكر أسمائها ترفعاً على ما يظهر » وأنه « اقتصر على نقل كلام غيره من أول الكتاب إلى آخره » ، « وأن الشيخ القاسمي رحمه الله ، وهو من العلماء المنورين المكثرين من التأليف على هذه الطريقة في الجمع والنقل آخر من جرى على تلك الطريقة — التي ضعفت فيها ملكة التأليف — فاكتفى في أكثر تآليفه ببسط آراء غيره[1] » و « أن الكتاب ليس بكثرة أوراقه بل بما حوى بين دفتيه » .

---

(١) لقد نسي المرحوم كرد علي هذا الرأي ، يوم ترجم لابن قتيبة في كتابه « كنوز الأجداد » الذي نشره المجمع العلمي العربي عام ١٩٥٠ ، فقال الصفحة ٨٨ : « يذكر ابن قتيبة مع المكثرين من التأليف والمجودين فيه . وقد أقرأ تآليفه في بغداد طوال حياته فألقاها محاضرات ودروساً على المستفيدين ، فزادها التكرار تحقيقاً ونظراً . » ثم قال في الصفحة ٨٩ : « وكتابه هذا - فضل العرب - كأكثر كتبه ، منقول عن غيره ، ليس له فيه غير سطور معدودة . » !

وقال في الكتاب نفسه في ترجمته لابن عبد ربه ، ص ١١٠ :

« واختيار الكلام - كما قال ابن عبد ربه - أصعب من تأليفه ، واختيار الرجل وافد عقله . »

وقال في الكتاب نفسه في ترجمة الشيخ طاهر الجزائري ، ص ٢٩ :

« وهذه الكتب هي التي ظهرت فيها شخصية الشيخ ، وثقوب ذهنه ، وسعة مداركه ، وتلطفه في ابلاغ المعاني الى العقول ، وحرصه على أن يحيل في الأكثر على عالم تقدمه ، لأن الناس في العادة يقدسون الأموات أكثر من الاحياء » .

أليس غريباً أن يلتمس كرد علي رحمه الله العذر لابن قتيبة ولابن عبد ربه وللجزائري ، وهو معاصر للقاسمي ، وأن يرى هذه الطريقة في التأليف أصعب من الوضع ، ثم أن يراها بعد عشرين سنة من وفاة القاسمي طريقة ضعفت فيها ملكة التأليف ؟ !

ولما رأيت أن كردعلي لم يزد في وصف القاسمي على أكثر من قوله إنه « من العلماء المنورين » ، عدت إلى ما كتب عام ١٩١٤ وبينهما واحد وعشرون عاماً ، فخيل إليّ أن كاتب المقالين ليس رجلاً واحداً ، وإنما هما شخصان مختلفان .

وقد خطر لي أن أبعث إلى الرسالة بما كتب كردعلي في مجلته — المقتبس — لتعيد نشره ، ليرد كردعلي على نفسه أو أن أقتبس منها قوله في وصف تآليفه مثلاً ، بعد أن أثنى عليه أروع ثناء ، ورفعه إلى الذروة العليا من المصلحين والمؤلفين وفلاسفة الإسلام ، كقوله :

« ربما قال من لم يعرف : إن هذا كلام صديق فجع بصديق ، تسلسلت الصداقة بين بيتيهما منذ نحو ثمانين عاما ، وعين المحب رمداء . أما أنا فلا أحيل المعترض إلا إلى كتب الشيخ ، وقراءة بعض ما طبع منها ، وتحكيم العقل والانصاف ، وأنا الضامن بأنه لا يلبث أن يساهمني قولي ، ويوقن بأن المرحوم جود تآليفه التي تنم عن عقله وعلمه ، أكثر مما جوّدها كثير من متأخري المؤلفين ، من بعد عصر السيوطي ، ممن شهد لهم بالاجادة .

« ولو سمحت الحال أكثر مما سمحت ، ومتع بحرية القول والعمل أكثر مما متع لجاء منه أضعاف ما جاء . ولكن ضيق العيش ، وضيق المضطرب ، لا يرجى منهما أكثر مما تم على يد فقيدنا العظيم من الأعمال والآثار ، وقد أغلقت دونه أبواب الدواعي والبواعث رحمه الله . . .

« رأيت رجالاً كثيرين من أهل الإسلام وغيرهم ، وفي مصر والشام خاصة ،

فلم أرَ همـة تفوق همـة صديقي الراحل ، ولا نفساً طويلاً على العمل ، ودؤوباً عليـه ، أكثر منه ، ولا غراماً بالإفادة والاستفادة ، ولا حُباً للعلم . فقـد قضى عن ٤٩ عاماً ، وخلف ما خلف من عشرات من مصنفاته الدينية العصرية النافعة ، منها تفسيره الذي لم يطبع ، ومنها مقالاته الممتعة ، وأبحاثه المستوفاة ، وأثر في عقول كثير من الطلبة ، تخرجوا به ، وأخـذوا أحكام الحلال والحرام عنه . دع دروس وعظه للعامة ، وحلقات خاصته ، ومع كل هـذا كان حتى الرمق الأخير أشبه بطالب يريد أن يجوز الامتحان لنيل شهادة العالمية . وكلما كان يوغل في طلب المزيد من العلم والتحقيق ، تراه آسفاً على عدم اشباع أبحاثها حقها أحياناً من النظر البليغ . . .

« . . . وما فقده جلل على دمشق ، بل على الشام ، بل على أهل الاسلام . وشهرته التي نالها في العالم الاسلامي في هذه السن من الكهولة ، هي مما استحقه ، أو أقل مما يستحقه ، لأنه حقيقة العـالم العامل الذي يحبب الدين ، حتى لمن لم يتدين حياته . فاللهم عوض عن هذه الدرة اليتيمة . . . »

ولو سقت المقالة بكاملها لكانت الدهشة أبلغ ، وإنما اكتفيت بذكر هـذه الفقرات لأَدُلّ القارىء على بعد ما بين القولين .

خطر لي أن أبعث بالمقال الأول . ثم بدا لي أن هـذه الطريقة لا تنفع في معالجة الموضوع ، فرحت أولاً أبحث عن سر هذا الانقلاب الكلي ، وعن أسبابه القريبة والبعيده ، وكرهت أن أجتمع بكرد علي ، فقد كنت في شرخ الشباب .

وظهرت لي بعض الحقائق ممـا سأعرض له بعد حين ، وفاء لتاريخ العلم والعلماء ، وحرصاً على الحقائق التاريخية في علاقات رجال الفكر بعد الموت .

وقد رأيت أن خير ما يمكن أن أصنع ، هو أن أبعث بعدد من الرسالة إلى المرحوم الأمير شكيب ، ليطلع على ما كتب صديقه كرد علي ، وأن يرد عليه إذا وجد من وقته فسحة للكتابة . فلا والله ما خيب الأمير ظني ، وأرسل إلي برجوع البريد رسالة خاصة ما أسفت على شيء في حياتي أسفي على فقدها ، مرفقة بالرد ، فسارعت إلى إرساله إلى مجلة الرسالة ، فنشرته بكامله [1] .

ولست أرى فائدة من تلخيص هذا الرد . وأرى أن الفائدة في نشره برمته . قال الأمير طيب الله ثراه :

---

(١) العدد ١٠٩ - ٦ جمادى الاولى ١٣٥٤ - ٥ آب ١٩٣٥ ص ١٢٧٩

قواعد التحديث

من فنون مصطلح الحديث

نشره (مكتب النشر العربي بدمشق)

للأستاذ الأمير شكيب أرسلان

اطلعت في مجلة (الرسالة) المصرية على كلام للأخ الأستاذ العلامة محمد بك كردعلي ينتقد فيـه (كتاب قواعـد التحديث من فنون مصطلح الحديث) للمرحوم العلامة الأستاذ الشيخ جمال القاسمي بأنه كتاب قد جمع جمعاً ، ولم يأت صاحبه فيه إلا برأي واحد ، وهو ترجيح قول الجلال الدَّواني على قول الشهاب الخفاجي ، في عدم التسامح بالأحاديث الضعيفة ، ولو كانت في مقام الترغيب في الفضائل . وقال إن طريقة : التأليف في عهد الارتقـاء العلمي هي أن يأتي كلام المؤلف أكثر من شواهده ، وأنه لما ضعفت ملكة التأليف أصبحت الكتب عبارة عن نسخ أقوال من سلف ، وربما كان الشيخ جمال القاسمي آخر من جرى على هـذه الطريقة ، وهي بسط آراء غيره ؟ وأنه قد حدثت في التأليف طريقة جديدة اليوم ، وهي أن المؤلف في فن يقتصر على لباب ما قرأ فيه ، ويدعم أقواله بشواهد من كتب القدماء أو المحدثين ، بأسلوب سهل سائغ من الخطابيات والسجع ؟

فالأستاذ كرد علي ينتقد هذا التأليف رأساً من جهة أنه ليس على طريقة

التأليف العصرية ، التي هي بزعمه الاكتفاء بالاشارة إلى ما كتبه القدماء أو التلخيص لأقوالهم ، بدون التزام النقل ، إلا ما جاء في سبيل التأييد والدعم . ثم إنه لم يكتف بنقد الكتاب نفسه ، بل انتقد ناشره بأنه قدم له أربع مقدمات ، ثلاث لبعض المعاصرين ، ورابعة للمؤلف ، وأن هذه المقدمات استغرقت أكثر من عشرين صفحة ، وما خرج الكلام في بعضها عن الدعاية والتمجيد ؟ وكأن الأستاذ كردعلي يريد انتقاد أخيه هذا في المقدمة التي من قلمي ، والتي أذكر فيها ما أعرفه عن الشيخ جمال القاسمي رحمه الله .

وبعبارة أخرى قد ثقل على أخينا الأستاذ ما صدرنا به كتاب (قواعد التحديث) من مناقب مؤلفه . ولقد كنت أتمنى الآن أن أكون أسأت فهم كلامه .

فأما من جهة مؤلف هذا الكتاب الشيخ جمال القاسمي فانه من مفاخر الشام بالاتفاق ، وممن سار ذكر فضائلهم في الآفاق ، وليس محمد بك كرد علي بالذي يجهل ذلك ، أو يقدر أن يماري فيه ، وإني لجد مستغرب منه ضيق صدره بثنائي على رجل لا يتمارى اثنان في دمشق الشام في كونه من أفذاذ هذا العصر ، ومن العلماء الذين تحتج بمثلهم دمشق في كل مقام مباهاة .

فأنا لم أكتب عن الشيخ جمال القاسمي إلا ما أعلمه وأعتقده ، وإذا كان أخونا كردعلي يسمي ذلك (تمجيداً) فإن التمجيد في محله لا يكون موضع نقد ، فإن لم يمجد الانسان مثل الشيخ جمال القاسمي في علمه وإحاطته ، وقوة حجته ، ودماثة خلقه ، ورقة طبعه ، وسائر ما امتاز به من خلال الخير الكثيرة ، فيكون هو المقصر ، وهو الذي يستحق النقد . ما كنت أحب أن يغمز الأخ كردعلي بي في

مسألة كهذه ، ولا أعلم لماذا فعل ذلك ؟ وأما من جهة التأليف نفسه فإن الأستاذ الأكبر السيد رشيد رضا قد أعطاه حقه في إحدى المقدمات الأربع التي أشار إليها حضرة الأخ ، وقد ذكر كل ما يلزم من بيان مزايا الكتاب ، وقال : إنه لا يعرف كتاباً مثله في موضوعه وسيلة ومقصداً ومبدأ وغاية ، ونظن أن السيد رشيد رضا هو من يضع الهناء موضع النقب ، ولا يكون مخالفاً للواقع إذا قلت : إنني أنا والأخ كردعلي لانقدر أن نتكلم في علم الحديث إذا كان السيد رشيد رضا قد تلقف فيه كرة البحث .

وبعد هذا فلست أرى ما يراه الأخ من أن القاسمي جمع جمعاً ، وأن الجمع في التأليف هو خطة عهد التأخر ، بل قد وجد الجمع في كل من عهدي التقدم والتأخر . وفي أوربا اليوم كتب كثيرة لا يزيد فيها أصحابها على الجمع ، وهم يتركون فيها الحكم لأرباب النظر ، وقد يوجد الانسان في ظروف زمانية أو مكانية تمنعه من التصريح برأيه ، ومن الترجيح والتجريح ، لاختلاف أذواق من يخاطبهم ، فيكون الجمع حينئذ هو أمثل الطرق ، ويكون كل قارىء قادراً أن يستقي من هذا الجمع ما يستعذبه .

فالشيخ جمال القاسمي كان يعلم ما في عصره ومصره من طبقات مختلفة ، ومنازع متباينة ، وكان هدفه الا يصادم مشرباً خاصاً ، ولا يحكم لمذهب على مذهب ، بل يجمعها كلها تحت راية الهدي النبوي ، وينظم كلام ابن تيمية مثلاً إلى كلام الشعراني والشيخ الأكبر ، بحيث يكون كل من الطبقتين السلفية والصوفية واجدين في هذا الكتاب طلبتهم .

وقد نسي أخونا الأستاذ كردعلي محنة الشيخ جمال القاسمي عام ١٣١٣ هـ . عندما اتهم بالاجتهاد ، هو والمرحوم الشيخ عبد الرزاق البيطار ، وآخرين من رفاقهما واعتقلوا من أجل ذلك وأهينوا ، فأصبح مثل الشيخ جمال ، وقد عضته الصراحة بأنيابها ، يتجنب الخوض فيما يؤدي به إلى نكبة ، ويجد الاكتفاء بعرض الآراء أسلم ، وربما أعلم أيضاً ، لأن مثل هذه الآراء لا ينتهي الخلاف فيها ، ولا تزال كل طائفة تجادل في كونها على حق إلى يوم القيامة . ففي بعض المواقف يكون السكوت أفصح من البيان ، وأبعد من مثار الشبهات ، لا سيما عندما يكون العالم الخبير بأمور عصره ، وشؤون قطره ، واثقاً بأن المصلحة هي في جمع الكلمة ، وأن جمع الكلمة تحت راية الهدى النبوي لا يتأتى بالترجيح والتجريح والقول بأن هذا فاسد ، وهذا صحيح ، إلا في المسائل التي لا خلاف فيها بين العلماء والتي إنما يختلف فيها العوام . . .

فكتاب (قواعد التحديث) لو كان يؤتى من هذه الجهة لما أطراه مثل صاحب المنار هذا الإطراء كله ، وهو في علم الحديث الجبل الذى لا يطاول ، والبحر الذي لا يساجل ، كما أنه يعلم من طرق التأليف القديمة والمتوسطة والعصرية ما لا يقدر أن ينكره العلامة الكردعلي .

ثم هناك غمزاً بالسجع ، وليس الأخ كرد علي وحده الذي بدأ بهذا الغمز ، بل كان أحد الأصحاب أطلعني على كتاب للدكتور زكي مبارك لمحت فيه كلاماً يشبه أن يكون استصغاراً للسجع ، أو استكباراً لإتيانه ، وهذا باب جديد عجيب ، إذا أردنا الآن أن ندخل فيه يطول بنا الأمر .

فنكتفي بالقول إن السجع وجد في الجاهلية ، وجاءت منه أمثلة لأفصح فصحائها ، ثم جاء في القرآن الكريم ، بل القرآن الكريم كله سجع ، وهو أبلغ الكلام العربي ، وغير العربي ، وجاء في كلام الصحابة والمخضرمين ، ثم في الطبقة التي تليهم ، ثم في التي تليهم ، ثم بالتي تليهم إلى يومنا هذا . ولم نعلم أحداً عاب السجع من حيث هو ، وإنما يعاب السجع بالنسبة إلى المقام الذي يستعمله فيه الكاتب ، أي إنه لما كان السجع تقييـداً بفواصل ، كما هو الشعر تقييد بقواف ، فلم يكن السجع مستحسناً في المواطن التي يجب أن ينطلق فيها عقـال القلم ، لكمال تأدية المعـاني على وجههـا .

وأما في المواطن التي هي أقرب إلى الشعر ، منها إلى المباحث العلمية الصرفة ، فليس السجع بالذي يعد سبة على العربية ، بل هو من محاسن هذه اللغة . وإن كان يجب حذفه من هذه اللغة من أجل كونه طريقة قديمة ، ومن أجل أنه عبارة عن زينة كلامية ، فإن هذا يؤدي بنا إلى اقتراح حذف الشعر أيضاً ، فإن الشعر هو من قبيل السجع طريقة قديمة ، وزينة كلام ، تتوخى فيها المحاسن اللفظية ، كما تتوخى المحاسن المعنوية ، ويراعى فيه الوزن والقافية وهو من قبيل الموسيقى .

والموسيقى هي أيضاً قديمـة ، والطبيعة البشرية تألفها ، بل تحتاج إليهـا ، بل تهتف بهـا . والشعر ضرب من الموسيقى ، فهو إذن من مقتضيـات الطبيعة البشرية .

والسجع وإن لم يكن مقيداً بكل تقييد الشعر ، فهو مقيد أيضاً بقيود لها مواقع في

النفوس ، وهي في محلها مطربة مستعذبة ، ولا غبار عليها ، ولا يقدر أحد أن يقول إنني أنا مفرط في هذا المذهب ، لأنه ليس لأحد من الكلام المرسل أكثر مما لي ، ولكني لا أزال أرى السجع حلية الكلام العربي عندما يكون في محله ، وذلك مثل مقدمات الكتب ، ومثل الخطب التي تلقى على الجماهير . وأن العرب قد اصطلحوا على السجع في أسماء الكتب ، ولم يخطئوا في ذلك ، لأن الكلام المسجع أعلق في الذهن من غيره .

وعسى كلامي هذا يكون مقبولاً عند أخي الأستاذ الكردعلي ، ولا تتأثر به آصرة الإخاء القديم الذي بيننا ، والذي لا يمكن أن يطرأ عليه ما يوهنه مهما كان السبب ثقيلاً . فكيف إذا كان خفيفاً . وإن أدر فقد يكون أراد أن يداعبني ، ولا تكون هذه أول مداعبة بيننا .

جنيف　　　　　　　　　　　　　　　　شكيب أرسلان

وكان طبعياً أن لا يسر المرحوم كرد علي بهذا الرد المفحم ، وشاء أن ينقل الموضوع من الكتاب ومؤلفه ، إلى أمور أخرى ، حتى في عنوان الرد على الرد ، فقال [1] :

الى صديقي العلامة الأمير شكيب أرسلان

نعم شقّ عليّ يا أخي أن تلقي دلوك في الدلاء ، وأن تكتب مقدمة كتاب

(١) الرسالة العدد ١١١ - ٢٠ جمادى الأولى ١٣٥٤ - ١٩ آب ١٩٣٥

« قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث » بهذا اللسان الذي ما عهده فيك من تأدبوا بأدبك ، وأكبروا عظمة بيانك .

بالأمس كتبت مقدمة « النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي » للأستاذ محمد أحمد الغمراوي ، فمن منا لم يعجب بما كتبت وحبرت ، وإن كنت أطلت وتوسعت ؟

واليوم تكتب ما تكتب لقواعد التحديث ، في فن لست منه ولا أنا في العير ولا في النفير ، وجئت تغالي بكتاب ليس فيه من حديثه ولا أسلوبه المؤلفين ، ولا يستحق هذه العناية والدعاية وهذه الضجة ، ولكل رأيه واجتهاده .

أنا أجلك عن الدخول في هذه المآزق ، لأنك في غنية عنها ، ولست بحمد الله محتاجاً إلى مصانعة الناس ، ولا نضبت أمامك الموضوعات ، تحتاج لمعالجتها ، لتورثك شهرة وحسن ذكر ، وما إخالك إلا كتبت ما طلب منك في غير وقت نشاطك ، وليس لك من القول ما تقول فتبدع على عادتك .

ومهما كانت منزلة الكتاب وكاتبه من نفسك ، ما أرى اقلمك أن يجري إلا فيما يصلح أن ينسب إلى إحسانه ، وحملة الأقلام مسؤولون إذا اقتصروا مع المؤلفين والطابعين على مقارضة الثناء ، ولم يتعاودوهم بالنقد الصحيح ، والافراط في التقريظ شيمة المتأخرين من أهل عصور الانحطاط الأدبي في العرب ، والنقد المفيد عادة نقاد الأفرنج في زماننا .

ومن الأمانة للعلم والأدب أن يدل كل كاتب على مواضع الخطل من كلامه ، إلا أن نغشه ونغش قراءه ، فنجسم ما صغر حجمه في العيان ، ولا يشول مهما نفخناه في الميزان ، وأكتفي الآن بجملة من مقدمتك ، وقد بدأتها بقولك :

« لا يخفى على أهل الأدب ، أن الجمال والقسام في العربي (؟) واحد ، وأن معنى القاسم هو الجميل ، فلا يوجد إذن لتأدية هذا المعنى أحسن من قولنا « الجمال القاسمي » الذي جاء اسماً على مسمى ، مع العلم بأن الجمال الحقيقي هو الجمال المعنوي ، لا الجمال الصوري ، الذي هو جمال زائل ، فالجمال المعنوي هو الذي ورد به الحديث الشريف : (إن الله جميل ويحب الجمال .)

« وعلى هذا يمكنني أن أقول انه لم يعط أحد شطر الجمال المعنوي الذي يحبه الله تعالى ، ويشغف به عباد الله تعالى ، بدرجة المرحوم الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي ، الذي كان في هذه الحقبة الأخيرة جمال دمشق ، وجمال القطر الشامي بأسره ، في غزارة فضله ، وسعة علمه ، وشفوف حسه ، وزكاء نفسه ، وكرم أخلاقه ، وشرف منازعه ، وجمعه بين الشمائل الباهية ، والمعارف المتناهية ، بحيث أن كل من كان يدخل دمشق ، ويتعرف إلى ذاك الحبر الفاضل ، والجهبذ الكامل ، كان يرى أنه لم يكن فيها إلا تلك الذات البهية ، المتحلية بتلك الشمائل السرية ، والعلوم العبقرية ، لكان ذاك كافياً في إظهار مزيتها على سائر البلاد ، وإثبات أن أحاديث مجدها موصولة الاسناد . . . »

بأبي أنت وأمي يا شكيب ، هل هذا بيانك الذي عرفته وعرفه فيك قومك ؟ أنا لا أطلب غير حكمك ، فلا أحتكم إلا إليك . أهذا كلام ترضاه لنفسك في كتاب يبقى ؟ وما هذا القلق في المعاني والمباني ؟ ربما اغتفر صدور مثل هذا الصدر من فتى يشدو في الأدب ، ولكن من شيخ كتاب العرب ، لا ثم لا ! وحديث

السجع أنت عرفت رأيي فيـه ، لعلك تذكر أني كنت لفت نظرك إلى ما أسميت به كتاب رحلتك إلى الحجاز : « الارتسامات اللطاف ، في خاطر الحاج إلى أسمى مطاف » ، وقلت لك يومئذ : إن القارىء مهما بلغ من ثقوب ذهنه ، لا يدرك لأول وهلة معنى هذا العنوان المسجوع إلا بكثير من إجهاد الفكر ، وهكذا كدت باستحسانك السجع في بعض المقامات ، والغلو في تقريظ من ترى تقريظه ، أن تنسينا حسناتك علينا في كلامك المرسل الكثير ، وأنا على ما تعلم من أحرص الناس على تخليده وتأييده .

بحقك ، هل رأيت لأحد من بلغاء القرون الأولى سجعاً في شيء من أسمـاء كتبهم ؟ وهذا الجاحظ وابن المقفع ، وهـذه أسماء كتبهما ورسائلهما ، هل وجدت لهما سجعاً تتقزز منـه كصاحبك أبي اسحاق الصابي ، الذي أفسد اللغة ، على علو مكانته في الأدب بما سجع ورصع ؟

وأظنك موافقي على رأيي في أن التسجيع أضعف ملكات المؤلفين ، من عهد ابن العميد إلى زمن أستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده ، الذي قضى بقوة حكومته على استعمال السجع في الصحف والرسـائل الرسمية ، فعد عمله هـذا أكبر حسنة من حسناته ، ولولا عمله ما دخلت اللغـة في هذا الأسلوب الممتـع الذي نقرؤه اليوم للمنشئين والمؤلفين ، ونرجو أن تعود به اللغة إلى رونقها السالف ، من الرشاقة والجزالة ، على نحو ما كانت على عهد سهل بن هرون والجاحظ وعمرو بن مسعدة واحمد بن يوسف الكاتب وابن المقفع وأضرابهم .

وما أظنك تنكر عليّ أن رصف أبي حيان التوحيدي في القرن الرابع ، وابن خلدون في القرن التاسع ، أرفع وأمتع من تعسف الصابي والصاحب بن عباد وأبي بكر الخوارزمي والقاضي الفاضل والعماد الكاتب وابن الأثير إلى آخر أعيان ذاك المذهب المتكلف .

وأظنك موافقي أن في قولك : « وإن كان يجب حذفه (السجع) من هذه اللغة من أجل كونه في طريقه قديمة ، ومن أجل أنه عبارة عن زينة كلامية ، فان هذا يؤدي بنا إلى اقتراح حذف الشعر أيضاً » ، إن في قولك هذا مغالطة لطيفة ، وفي علمك أ كرمك الله أن النثر غير الشعر ، والكراهة آتية من التزيد والتكلف .

لو كنت على مقربة منك ما تركتك تقول في مقدمة الديوان الذي نشرته بأخرة ودعوته : « روض الشقيق ، في الجزل الرقيق » ما قلته في فاتحة :

« . . . الذي لا أجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار ، ولا لديوانه حلية أجمل من نشره في الأقطار ، وخير وصف الحسناء جلاؤها ، والجواد عينه تغني عن الفُرار .

« ولعمري لو وصفته بأزهار الربيع ، وأنواع البديع ، وشققت في تحليته أصناف الأساجيع ، وكان هو في الواقع دون ما أصف ، لما أغنيته فتيلا ، ولا رفعته عن درجته كثيراً ولا قليلاً ، كما أني لو قدمته للقراء فريدة معطالاً ، لا يزنّ له حجل ولا سوار ، ولا يتلألأ عليه ياقوت ولا نضار ، وكان هو في نفسه دُرّاً نظيماً ، وأمراً عظيماً ، وديواناً تتأرج أرجاؤه نداً ولطيماً ، لما خفي أمره على ذوي الوجدان ،

ولا تعامى عن سبقه أحد ممن له عينان . . . » ولو كنت مكانك لقلت وما باليت .

« . . . الذي لا أجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار ، ولو وصفته بأزهار الربيع وكان هو في الواقع دون ما أصف لما أغنيته فتيلاً ، ولو قدمته للقراء فريدة معطالاً ، وكان هو في نفسه داراً نظيماً ، لما خفي أمره . . . » أليس هذا الإيجاز أوقع في النفس ، وأجمل في أداء المعنى ، وأدعى إلى الافهام من أسجاع تثقل على الطباع ؟ ونحن إنما نكتب لنفهم لا لنعجم ونبهم . وبعد فما لنا وللتقيد بما قاله بعض المتأخرين في معنى التعلق بأهداب السجع ، ولدينا في أقوال المتقدمين والمأثور من كتاباتهم ما يحملنا على تقليدهم في أساليبهم ، يوم لا هذا الترصيع والتسجيع ولا ذاك الضرب المستكره من أنواع البديع .

محمد كرد علي

ولعل الذين عرفوا طباع المرحوم كرد علي ومزاجه لا يستغربون قوله : « واليوم تكتب ما تكتب لقواعد التحديث ، في فن لست منه ولا أنا في العير ولا في النفير . . . » ولا قوله بعد ذلك :

« أنا أجلك عن الدخول في هذه المآزق ، لأنك في غنية عنها » . وكأن الذي كتب لقواعد التحديث وكأن الذي دخل في هذه المآزق ، هو شكيب وحده ، وقد غفل كردعلي رحمه الله ولم يغفل في آن معاً عن أن قلمه قد خاض في غير اختصاصه وأنه لم يجل نفسه عما أجل عنه الأمير !

وقد أرسلت هذا الرد على الرد للأمير ، فكتب كلمة وضع عنوانها بنفسه قال[1] :

جوابي لأخي محمد سبكون قصيراً كما تراه

إنني في كتابتي عن الشيخ جمال القاسمي رحمه الله لم أدخل في علم الحديث دخول من تصدّى لترجيح أو تجريح وخاض في الحديث خوض من يعلمه ، بل بقيت واقفاً على الشاطىء ، على حين أن أخي محمداً الكرد علي دخل في الموضوع وحكم فيه حكمه ، وهو مع ذلك يقول إنني أنا وإياه لسنا من هذا العلم في ورد ولا صدر . فاذا كان الأمر كذلك فما كان أحراه بأن يترك انتقاد كتاب مؤلف في الحديث الشريف ، وقد أطنب في وصفه مثل الأستاذ الأكبر السيد رشيد رضا رحمه الله الذي إذا تكلم في هذا الفن يقال : القول ما قالت حزام .

أنا كان أكثر كلامي في محاسن الأستاذ الكبير الشيخ جمال القاسمي تغمده الله برحمته ، فان كنت لست من علماء الحديث فاني لست جاهلاً معرفة الرجال ، ولا مسلوباً مزية التميز بينهم ، ولولا حسن فراستي ما كان الأستاذ كرد علي عظيماً في عيني ، وقد اخترته لإخائي منذ اثنتين وأربعين سنة .

أما السجع وما أدراك ما السجع ، فالكلام العربي ينقسم إلى مرسل ومسجع ، وموزون مقفّى . ولكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة مقام يحسن فيه أكثر من غيره .

---

(١) الرسالة العدد ١١٦ - ٢٥ جمادي الثانية ١٣٥٤ - ٢٣ ايلول ١٩٣٥

والمرسل هو : الكلام المعتاد الطبيعي الذي به أكثر تفاهم الناطقين بالضاد .

والموزون المقفى : هو الشعر الذي لا رونق للغات بدونه .

والسجع : وسط بين المرسل والموزون ، وله وقع في النفوس لا جدال فيه ، ويكفيه من الشرف أن كتاب الله تعالى قد نزل بهذه الطريقة ، وأن نهج البلاغة ، وكثيراً من كلام أفصح العرب ، هو من النوع المسجع . ولا يقال في بديع الزمان والخوارزمي والصاحب والصابي والقاضي الفاضل وأمثالهم إنهم لم يحسنوا القول .

فان كانت اللغات الأوربية ليس فيها سجع إلا ما ندر ، فليس هذا بحجة على اللغه العربية . فلكل لغة خواص تمتاز هي بها ، وقد خلق الله الناس أذواقاً مختلفة ، وجعل لكل أناس مشربهم ، والعرب غير العجم ، والشرق غير الغرب .

جنيف ١٠ جمادى الآخرة　　　　شكيب أرسلان

* * *

وبهذه الكلمة الأخيرة أغلق البحث .

أما سر هذا التحول ، وأسبابه الحقيقية ، فليس للقاسمي علاقة بها ، وإنما هي في خلق المرحوم كرد علي وطباعه ، وشدة انفعالاته وأهوائه ، وسلوكه السياسي ، وصلته بالمجتمع الذي عاش فيه .

فلقد كان المرحوم كرد علي عضواً في جمعية النهضة العربية التي أُسست في

دمشق عام ١٣٢٤ — ١٩٠٦ ، وكان الأستاذ محب الدين الخطيب أول رئيس لها ، والمرحوم الدكتور صلاح الدين القاسمي أول أمين لها .

والمطلعون على تاريخ هذه الجمعية ، يعرفون أنها النواة الأولى للنهضة العربية الحقيقية في الشرق .

وأن دعوة القومية العربية الصحيحة ، نشأت أول ما نشأت في حلقات هذه الجمعية .

ولقد مر بك أن الحكومة العثمانية ، حتى بعد الدستور لم تخف عنها أهداف جمعية النهضة العربية ، فكان التشويق لتأسيسها ، والعمل في نطاقها ، تهمة سياسية ، استلزمت إقامة الدعوى والتحقيق مع كثيرين ، منهم جمال الدين القاسمي .

فلما وقعت الحرب العامة الأولى ، وانتُدب جمال السفاح للتنكيل بأحرار العرب ، وجلهم من رجال الجمعية ، أو من المؤيدين لها ، كان المرحوم كرد علي بين من جند نفسه لخدمة السفاح ، واستوظف هو والشيخ تاج الدين الحسني في الجريدة التي أنشأها السفاح وسماها (الشرق) .

ثم رحل معه إلى المدينة المنورة ، وأرخ هذه الرحلة في كتاب مطبوع معروف في وقت كان رفاقه من أعضاء الجمعية بين مشرد عن وطنه أو راسف في السجن أو معلق على أعواد المشانق .

ولما انتهت الحرب العامة ، كرمت الحكومه العربية الأولى الأستاذ كرد علي ، واستجابت إلى طلبه في إنشاء المجمع العلمي العربي ، وعينته أول رئيس له .

وعلى الرغم من ذلك كان أول من مدّ يده إلى الدولة الفرنسية المستعمرة ، وعمل في ظلها أول مدير لمعارف سورية .

أثار هذا الانحراف السياسي في المرحوم كرد علي نقمة جميع اخوانه وأصدقائه. وإذا كانت ظروف الحرب العامة لم تسمح بنقده إلا همساً فان اقدامه على قبول الخدمة في ظل فرنسا قد جرأ الناس على الكلام ، لا سيما وأن الحكومة التي اشترك فيها قد أقيمت على أنقاض حرية الأمة واستقلالها وسيادتها . وكان آل القاسمي جميعاً من الغاضبين ولا سيما عمي قاسم خير الدين ، فقد كان رحمه الله حادَّ اللسان ، عصبي المزاج .

أضف إلى هذا أن معظم الوزراء الذين استوظفوا في عهود الاستعمار ، الذي طلوه ببهرج الانتداب كانوا يعلمون في سرائرهم أنهم فرضوا على الأمة فرضاً ، وأن الناس ينظرون إليهم شزراً ، وأن الألقاب التي منحت إليهم لم يكن لها ظل من الحقيقة والواقع ، لأن السلطات جميعاً كانت في يد المستشار . ولهذا كانوا يطربون للصفات التي تلاصق أسماءهم ويحرصون عليها ، كصاحب المعالي ، وصاحب الدولة وما ماثلها ، تغطية للنقص الذي يعانونه في واقع حياتهم كل يوم ، لا بل كل لحظة . وكان الناس لا يرون فيهم إلا أُجراء لاحول لهم ولا طول[1] . واتفق أن

(١) جاء في كتاب « سورية من الاحتلال حتى الجلاء » لمؤلفه السياسي المؤرخ الأستاذ الدكتور نجيب الأرمنازي ص ٢٦ ما نصه :

« وكان السوريون ينظرون بازدراء الى التعاون مع فرنسا ، ويعدون الذين يقدمون على هذا العمل محرومين من مزايا التكريم والثقة التي يتمتع بها الوطنيون . فأحدثت هذه الناحية الأدبية تأثيراً كبيراً في الأزمات والتطورات ، حتى ان بعض الاشخاص الذين يظفرون ـــ

أستاذنتنا إدارة الأزهر في إعادة طبع كتاب « دلائل التوحيد » لأنه من الكتب المقررة في التدريس . وقد أذنا لهـا بذلك . فأعيد طبع الكتاب مصدراً بمقال المرحوم كرد علي عن القاسمي ، وفيه أنه بقلم الأديب الكبير الأستاذ محمد كردعلي . فلقيته مصـادفة ، وإذا هو غاضب وعاتب ، وكان يومئذ وزيراً للمعـارف (عام١٩٣٠) ، وقال لي :

ألا يعرف الشيخ قاسم اسمي ؟ قلت :

كيف ؟ بلى ! لقد ذكر اسمك وأضيف إليه أنك الأستاذ الأديب الكبير ! فقال رحمه الله :

شيء عجيب ! ألا يعرف صفتي ، وما هي صفتي ؟ ألا يعلم أني وزير للمعارف وأنا وزيره ؟ ! وكان عمي رحمه الله مدرساً ؟ !

ـ بتأييد وطني يحرمون منه متى قاموا بعمل يعارضه ، كما جرى للسيد صبحي بركات الذي عد انتخابه لرئاسة الدولة في حين من الزمن فوزاً وطنياً ، فما عتم أن أصبح غرضاً للطاعنين واللائمين عندما أخذ يساير الفرنسيين ويمالئهم .

« وقد تساءل المسيو راباز السويسري أحد أعضاء لجنة الانتدابات في الاجتماع الذي عقدته في حزيران ١٩٢٦ عن التناقض الذي يظهر بـــه ممثلو فرنسا من ادعائهم ارتياح الأهلين لحكمهم ، وما يذكرون في الوقت نفسه من أنه يكفي أن تظهر الدولة المنتدبة ارتياحها إلى أحد السوريين حتى يكون ذلك هادماً لسمعته » .

وجاء في الصفحة ٢٧ من الكتاب نفسه :

« وفي نيسان ١٩٢٢ جرت حادثة في دمشق كانت بعيـــدة الأثر ، فهزت سورية هزاً عنيفاً ، إذ قدم المستر كراين رئيس لجنة الاستفتاء الامريكية ، فقضى بضعة أيام في دمشق ، وكانت وسيلة لاظهار الشعور الكامن الذي تضطرب به القلوب ، فتجمهر الناس وأعلنوا ما تكنه صدورهم من حب الاستقلال والحرية وبغض الانتداب وأنصاره ، ونعتوهم بالخونة . »

أعتقد أن هـذه الأسباب هي التي دعت لأن يتجاهل المرحوم كرد علي ما كتب عن القاسمي ، وأن يمحو ما أثبت ، وأن يميل مع هواه !

على أن هذا المدح والذم لم يجريا على قلم المرحوم كرد علي في هـذه الحادثة وحدها ، وإنما تكررا في مناسبات عدة : منهـا تمجيده لشكري القوتلي في الجزء الأول من مذكراته ، ثم شماتته فيه يوم وقع انقلاب حسني الزعيم في الجزء الثاني ، وإحصاؤه لمساوئه . ومنهـا غضبه على كثير من أصدقائه المصريين الذين أحسنوا إليه ، بعد أن كان يثني عليهم في كثير من كتبه ومقالاته .

* * *

ونعود إلى الأمير شكيب . فقد عاد بعد سنتين من المراسلة بيني وبينـه إلى وطنه (عام ١٩٣٧) بعد اغتراب دام أكثر من عشرين عاماً ألجأه إليه الاستعمار .

وعلمت بموعد قدومه ، وخففت إلى بيروت لأستقبله من الباخرة ، وكنت برفقة أخي وصديقي الأستاذ صبري العسلي ، فرأينا بيروت كأنها في يوم الحشر ، لم يبق أحد من خاصتها وعامتها إلا وزحف إلى المرفأ ، فضلاً عمن هبط إليهـا من جبل لبنان ومن المدن السورية واللبنانية الأخرى ، فلم نستطع لقاء الأمير في المرفأ ولا الوصول إليه . فأرجأنا زيارتنـا إلى ما بعد الظهر . وقد قصدناه في دار آل بيهم ، حيث نزل ضيفاً عليهم ، يستقبل مهنئيه بالعودة وسلامة الوصول . وكان الناس سيلاً لا ينقطع ، والأمير واقف يصافحهم ويحييهم . فلما وقفت أمامه وعرفته بنفسي ، تسرب الدمع من مآقيه ، وضمني إلى صدره ضماً فيه كل معاني الحنان

وفيه كل معاني الوفاء ، ودهش الواقفون الذين ينتظرون دورهم في مصافحة الأمير . وقال لي :

— أنت الشيخ ظافر (كذا كان يلقبني بالمراسلة) . قلت :

— نعم يا سيدي ! قال :

— تعال فاجلس إلى جانبي .

وأخذ يستعيد رحمه الله مجالس الشيخ وعلمه وفضله .

لقد أشار الأمير إلى رسائل والدي إليه ، وأنه ربما نشرها أو نشر بعضها . وقد بحثت عن أصولها فلم أجدها فقلما احتفظ بأصول ما يكتب لضيق وقته . ولست أدري أين بقيت تركة الأمير ، وماذا فعل الله بها . ولعل الله يقيض لها رجلاً أو جماعة يخدمون ما فيها من كنوز تنفع العرب والمسلمين في حاضرهم ومستقبلهم .

رحم الله الأمير ، لقد كان مثلاً شروداً في الوفاء لأصدقائه . وما صداقته لشوقي ، واخاؤه لرشيد رضا ، وكتاباه عنهما إلا بعض ما خلّد من معاني الأخلاق .

★ ★ ★

ويكتب القاسمي مقالة في المقتبس موضوعها « الكنى والألقاب » ، فيعزّز الأمير مقالة القاسمي . ويغتبط القاسمي لهذا التعزيز فيشير إليه في مذكراته اليومية بقوله [1] :

---

(١) المذكرات اليومية : ١٣ رجب ١٣٢٥ - ٢٢ آب ١٩٠٧

« قال الأمير شكيب يعزز مقالتي في الكنى والألقاب التي أدرجت في المقتبس . . . »

ويعثر القاسمي على مقال للأمير فيه بعض جوامع الكلم ، فينقل منه في مذكراته اليومية ما استجاده ، كقوله[1] :

« التقبيل ضريبة الحسن ، والمشورة ضريبة الذكاء ، والجود ضريبة اليسار ، والنجدة ضريبة البأس . ولا يمنع الضرائب إلا العاصي على الله والناس . »

« خير للمرء أن يكون خصياً ، من أن يلد عاقاً عصياً . » الخ . . .

وبعد فلا شك في أن الرجلين قد تأثرا ببعضهما ، وأثرا في عصرهما .

أما القاسمي فقد أثر في شكيب تأثيراً واضحاً ، كما مر بك من المراسلات الدائرة بينهما ، ومن نصرته له وللحق بعد وفاته بواحد وعشرين عاماً ، على نحو ندر أن عرف في مساجلات العلماء والأدباء ، استقصاء للبحث ، ومتابعة للموضوع ، واسترسالاً في الرد .

ولولا أنّ أثر القاسمي في نفس الأمير وعقله وتفكيره أثر عميق لما دخل في هذا الجدل الطويل مع الأستاذ كرد علي ، في وقت كان فيه الأمير أكثر الناس انشغالاً في سياسة العالمين العربي والإسلامي وهو مقيم في أوربا ، وقد بعد العهد بينه وبين مثل هذه الأبحاث .

ويبدو لي أن الأمير قد رأى في القاسمي صورة لأستاذه الإمام محمد عبده ،

(١) المذكرات اليومية : ١٩ ذي الحجة ١٣٢٤ - ٢ شباط ١٩٠٧

فانتقل تعلقه القويّ بأستاذه ، إلى هـذا الود العميق مع القاسمي ، مع ما للقاسمي من ميزات فردية خاصة .

حدثني عمي أن الأمير حضر مرة إلى دمشق ، وزار القاسمي في بيته بعـد العشاء ، فوجد حلقة الدرس الخاصه منعقدة ، والامام يقرر فلسفه ابن رشدو ورد الغزالي وغيره من الأئمة عليها ، فسلّم وجلس يستمع .

ثم انقضت شهور ما أظن أنها أقل من أربعة ، عاد بعدها الأمير إلى دمشق ، وزار القاسمي ، وطلب إليه أن يقوما معاً بزيارة العلامة البيطار ، وبعد أن سمرا عنده عادا من الميدان — أقصى البلدة — ، مشياً على الأقدام ، فأخـذ الأمير يستعيد طول الطريق ما سمع قبل شهور في موضوع فلسفة ابن رشدو والردود عليها .

قال عمي : فوالله ما كاد يخرم من محاضرة أبيك حرفاً ، وكأنه قـد دونها وحفظها عن ظهر قلب .

أفلا تدل هذه القصة على عمق تأثير القاسمي على الأمير ؟

وأما الامير فقد أثر في القاسمي ، ولا أدل على ذلك من غبطته بتأييد بحث له ، ومن نقل أقوال للأمير في مذكراته اليومية ولقـد كان الأمير مطلعاً على اللغـات الأجنبية ، وأكـثر اتصـالاً بالحياة الاجتماعية الحديثة ، ووسائل المدنية العصرية وأسبابها . فأتيح للقاسمي عن طريق الأمير النفاذ إلى كثير من المجهولات لديه ، والانتفاع من خبرة الأمير ومعارفه .

وأما أنهما قد أثرا في عصرهما فأمر لا يكاد يحتاج إلى بيان . ويكفي أن كلاً منهما قد ملأ المكتبة العربية بما يشغل قراءها أعماراً وأدهاراً .

٣ـ الشيخ طاهر الجزائري

١٢٦٨ – ١٣٣٨

كان العلامة الشيخ طاهر الجزائري عبقري زمانه ، ونابغة عصره . أجمع على هذا مؤرخوه وتلاميذه ، والذين انتفعوا بصحبته ، او زاملوه . فلقد عرف عنه العلم الغزير الواسع ، والإحاطة بالكتب المطبوعة والمخطوطة ، وتمسكه بأهداب الدين الصحيح ، وسعيه للانتفاع بكل جديد ، وطرح التقليد ، والأخذ بمبادىء المدنية الحديثة ، وحبه للباحثين والمنقّبين ، وتنشيطه لهم . كما وصفه عارفوه ببعد النظر ، وسلامة التفكير ، وقوة المحاكمة .

وذكروا في مناقبه أنه استطاع أن يتغلب أيام العهد الحميدي على جميع المصاعب السياسية ، وأن يقنع بدهائه والي سورية (حمدي باشا) بأن تكون العربية لغة التعليم في المدارس الرسمية[١] .

وهو لعمري عمل عظيم لا يقدره إلا من تلقى تعليم قواعد اللغة العربية وصرفها ونحوها باللغة التركية ، وعلى أساتذة أتراك .

---

(١) محب الدين الخطيب : الفتح – جمادى الآخرة ١٣٦٤

وهو الذي جمع الـكتب الخطية التي تفخر بها اليوم دار الـكتب الظاهرية من مدارس دمشق وجوامعها ، بعد ان رأى أيدي سماسرة قناصل الدول الأجنبيه تمتد إليها [1] .

وكان ملماً ببعض اللغات الأجنبية ، كالفارسية والتركية والسريانية والفرنسية [1] .
إلى مزايا أخرى عددها مترجموه ، ومؤرخو سيرته [2] .

والذي يهمنا في هذا البحث هو علاقة الشيخين ، وما أسبغت هـذه العلاقة على المجتمع الإسلامي من الخير والفوائد .

بين يدي مفكرة القاسمي اليومية لعام ١٣٢٤ . وهو يذكر في اليوم الأول من السنة ١ محرم ١٣٢٤ — ٢٤ شباط ١٩٠٦ أنه في : « ليلته سهر عندنا للساعة الخامسة الأستاذ الشيخ طاهر افندي المغربي ، واستعار مني كتاب مختلف الحديث لابن قتيبة بخطي ، وكتاب مشتبه الحديث للأصفهاني عارية . »

ثم يتابع القاسمي تسجيل الحوادث يوماً فيوماً ، وقد عددت الأيام الـتي لم يرد فيها ذكر لزيارة الشيخ طاهر للقاسمي ، او للاجتماع به بأشكال مختلفة ، فلم تبلغ عشرة أيام .

وليس بين يدي أثر لعلاقة الشيخين سابقة على هذا التاريخ ، وإن كان مجرى الحوادث وطريقة تسجيلها يدلان على ان العلاقة بينهما ترجع إلى أبعد من

---

(١) المصدر السابق - والمجلد الأول من مجلة المجمع العلمي العربي ص ١٧

(٢) المصـــدران السابقان — وتنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر لمحمد سعيد البــاني ، طبع في دمشق ١٣٣٩ — ١٩٢٠

هذا التاريخ هذا فضلاً عن ان القاسمي لم يشر في ترجمته لنفسه إلى الجزائري من قريب او من بعيد ، ومرد ذلك في نظري إلى أن القاسمي قد دون الفصل المتعلق بمشايخه وأصحابه عام ١٣١٣ على الراجح ، ولم يعد النظر فيه ، والظاهر أن العلاقة بينهما لم تكن يومئذ متوثقة .

في مذكرات عام ١٣٢٤ آراء متفرقه عن الجزائري ، خلال الإشارة إلى زياراته اليومية المتكررة . فالقاسمي يثني على هذه الزيارات ويغتبط بها ويقول [١] :

« وبعد العشاء شرف الشيخ طاهر وحضر درس المصطلح ، واستفدنا من مباحثه . »

« وبعد العشاء زارنا الشيخ طاهر افندي ، وجزاه الله خيراً على زيارته ، وكثرة مواصلته لأنا لا نعدم منه فائدة بل فوائد [٢] . . . »

وهذه هي المرة الأولى التي يقرر فيها القاسمي فوائد مجالس الجزائري ، بهذا الشكل الوجيز المقتضب .

ويزداد إعجاب القاسمي بالجزائري بعد أيام قلائل فيكتب في مذكراته هذه الجملة المختصرة التي تدل على أبلغ التقدير ، وأعمق الاحترام [٣] :

« وبعد العشاء زارنا الشيخ طاهر واستمع لدرس مصطلح الحديث . ولم نزل نستفيد من حضوره ، فهو الشيخ المفيد ، والمرقّي الوحيد . »

---

(١) ١ جمادي الاولى ١٣٢٤ - ٢٢ حزيران ١٩٠٦

(٢) ١٧ جمادى الاولى ١٣٧٤ - ٨ تموز ١٩٠٦

(٣) ٦ جمادى الثانية ١٣٢٤ - ٢٧ تموز ١٩٠٦

وإني لأعتقد أن القاسمي كان يعني ما يقول حين سجل في مذكراته ان الجزائري هو « المرقي الوحيد » ، فما كان القاسمي يكتب ترجمة للجزائري ، ولا كان يجامل صديقاً له ، وإنما يكتب انطباعاته الصادقة حول مجالس الجزائري .

واقد التقى القاسمي والجزائري في حريه الفكر ، في زمن كانت فيه الحرية بجميع أشكالها جريمة يضطهد صاحبها بسببها ولهذا نرى القاسمى يشير في مذكراته إلى أنه [1] :

« صادف الشيخ طاهر في سوق المدينة ، فسار معي . . . وبعد العشاء حضر للدار في أثناء درس التفسير ، وسمرنا معه بعده ، وأعارني حاشية المرجاني على الدواني . وقد أطلعني على مواضع منها ، مدهوشاً من حرية فكره في مناقشة الرازي وغيره ، لا سيما ما نقله في مسألة أفضلية الصحب . . . »

وينصرف القاسمي إلى تأليف كتابه « قواعد التحديث » ويمر الجزائري كعادته ، والقاسمي منصرف إلى تنقيح كتابه ؛ بحضور الجزائري ، فلا تفوت القاسمي تدوين الملاحظة الآتية التي تدل على كثير من الأمانة العلمية [2] :

« وبعد العشاء زارنا الشيخ طاهر ، ونقحنا بحضرته بعض مباحث من كتابي في المصطلح . »

ويعتزم القاسمي زيارة بعلبك وبيروت وصيدا ، فيرافقه الشيخ طاهر إليها ستة عشر يوماً [3] .

---

(١) ٢٠ جمادى الثانية ١٣٢٤ - ١٥ آب ١٩٠٦

(٢) ٢ رجب ١٣٢٤ - ٢١ آب ١٩٠٦

(٣) ٩ - ٢٥ شعبان ١٣٢٤ - ٢٧ ايلول - ١٣ تشرين الاول ١٩٠٦

ويعود الشيخان من الرحلة ، ويستأنفان مجالسهما ، وتبدو للجزائري آراء تستحق التقييد ، فلا يفوت القاسمي الإشارة إليها في مذكراته[1] :

« وبعد العشاء زارني الشيخ طاهر افندي . . . وجرَّ البحث معه إلى بحث الشيخ محيي الدين في رسالته من الزام العامة بالسؤال عن الدليل ، قال : القصد تبصرهم بالشرع تبصراً ينقذهم من الجهالات المضلّة .

« وأما التفرقة والتباين بين الناس : عامة محضة ، وعلماء صرف ، فلم يعهد ، ولا الدين يأمر به . »

ويجري القاسمي على طريقته في إحياء آثار السلف النافعة ، فيجمع أربع رسائل في الأصول ، وينسخها من أصولها المخطوطة ، ويطبعها وينشرها في الناس ، ومن بينها رسالة في أصول الظاهرية . فتقوم قيامة الجامدين ، وينشرون حول هذا المجموع الأراجيف ، لما تضمن من تحرير للعقول والأفهام ، على الرغم من أن مؤلفيه من الأئمة الأقدمين . ويطرب الجزائري لهذا المجموع ، وينشره بين الناس ، ويدافع عنه .

ويرى الحشويون الفرصة قد لاحت من جديد للنيل من القاسمي ، فيبثون بذور الشر أمام المسؤولين ، وبحضور الجزائري ، فيندفع للرد عليهم . حدث ذلك في مجلس كان فيه أسعد الصاحب ، في بيت محافظ الحج عبد الرحمن اليوسف ، فحاول الغضَّ أولاً من كتاب علامة العراق الألوسي ، ثم أخذ في النيل من مجموع رسائل الأصول وجامعها ، فينبري الجزائري لتفنيد باطله .

---

(١) ١٧ رمضان ١٣٢٤ - ٢ تشرين الثاني ١٩٠٦

قال القاسمي [1] :

« وقد حدثني الشيخ طاهر بعد العشاء أنه أفطر اليوم عند محافظ الحج ، وكان المفسد أسعد الصاحب النقشبندي هناك ، فتحرش للرسائل الأصولية بقوله مبتدئاً : إن الألوسي شكري افندي ، كل كتابه في العرب سرقة ، فقال له الشيخ طاهر : قد قبل كتابه في أوربا ، والأمور الآن توضع في المحكّات ، والعصر عصر انتباه وتحقيق ، فلا تفيد التقاريظ ولا الخزعبلات .

« ثم تحرش للرسائل صريحاً وقال : نحن لا نعلم إلا كتب الأربعة وأصولها ، فَلِمَ ضمَّ إليها أصول الظاهرية ؟ فقال له الشيخ : كتب الظاهرية وعلمهم معروف ومقروء ومنقول في الكتب ، وما دُرِس شيء ، وإنما الجهل هو الذي أقعد من أقعد . وهذه الرسالة قد قوبلت على خط قوبل على نسخة المؤلف ، فالنزاع بين الشيخ محيي الدين ومن يريد . . . في جمل أخرى طويلة . والنتيجة أن المفسدين خذلوا والحمد لله . »

ولم تقف السعاية بالرسائل وجامعها وشارحها عند هذا الحد ، وإنما وصلت إلى الوالي ، وكان محافظ الحج نفسه حاضراً ، وعلى الرغم من جهله بهذه المواضيع ، دافع عنها ، لحبه للقاسمي وجماعته .

قال القاسمي [2] :

« . . . أخبرني أخي عيد أن الشيخ أسعد الصاحب نمّ للوالي عن رسائل

---

(١) ٢٤ رمضان ١٣٢٤ - ١١ تشرين الثاني ١٩٠٦

(٢) ٢٣ رمضان ١٣٢٤ - ١٠ تشرين الثاني ١٩٠٦

الأصول ، وأنها مضرة ، وأن طابعها وجامعها تآليفه مضرة ، وكان هدده الوالي ناظم باشا بالرجوع عن الاجتهاد ، وأنه اتفق أن حضر عبد الرحمن باشا محافظ الحج ، فأخذ يرد على الصاحب ، ويجهّله ' ويقول له : هـذه الرسائل عندي ، وقد طالعتها فلم أفهمها ، وأنه لا يفهمها إلا الفحول ، فارجع عن إفسادك .

« ثم خلا بالوالي ، وأخبره عن جهل الصاحب وفساده وسعـايته بالعلماء ، والله المستعان . »

ولعل الجزائري كان فيمن أوصى القاسمي بتأليف كتابه « إرشاد الخلق إلى العمل بخبر البرق » .

وإذا كان القاسمي لم يشر إلى ذلك في كتابه ، فانه قد أشار إليـــه في مذكراته اليومية ، قال [1] :

« . . . ثم حضر الشيخ طاهر ، وكان البحث أولاً في مسألة مسايرة الحاكم في إفطاره اليوم من آخر رمضان ، الذي اقتضى إفطاره ، موافقة لإثبات بعض البلاد سبق رمضان علينا بيوم ، مع أن اختلاف المطالع عند الشافعي محقق ، وهو الذي يساعده الفن ـ فن الهيأة ـ بلا ريب .

« نعم ! الشافعية قالوا : إذا أثبت مخالف مذهبه لمذهب من تحت ولايته الهلال ، لزم العمل بمقتضى إثباته . والمسألة مشكلة .

« وقلت لهم : إن الجـدّ كان بحث معه في قول ابن حجر : « أثبت مخالف الهلال » فقال : المراد أن يشهد عنده من شهد برؤية الهـلال في المكان البعيد .

(١) ٢٧ رمضان ١٣٢٤ — ١٤ تشرين الثاني ١٩٠٦

أما لو أثبت حكم ذلك الحاكم ، فلا يلزمنا قضاؤه ، وألف في ذلك رسالة . فقال الشيخ طاهر : يلزم أن تجمع الرسائل في الهلال لكل مؤلف فيه ، حتى ينظر الأقوى والأدق ، فانها مسألة مهمة يكثر البحث عنها دائماً » .

ولقد اعتاد القاسمي أن يشتري بعض نوادر المخطوطات من الجزائري أو يستعيرها . أشار إلى ذلك مرات في مذكراته اليومية[1] . واعتاد الجزائري أن يهدي إليه بين الحين والحين كتباً مخطوطة ، كاملة أو مخرومة .

ويبلغ إعجاب القاسمي بالجزائري أقصاه ، وتقديره له منتهاه ، يوم أهداه منثورات كتب خطية منوعة وكراريس ، ويرى من ذكاء الجزائري واطلاعه على الكتب ما يدهش مثل القاسمي ، فيسجل له هذه الشهادة الفريدة[2] :

« . . . وكان أرسل الشيخ طاهر لي مع أخي قاسم والشيخ حامد مرتين ، من منثورات كتب خطية منوعة ، وكراريس ، فتفرغت طول النهار لمطالعة جانب منها ، فوجدت من الغرائب والأساليب المنوعة في التصنيف للمتقدمين ما يدهش . ولما سهر عندي الشيخ شكرته على ذلك . ورأيته يأتي لكل ورقة بترجمة ، ويبين غرائب موضوعها ، وأهمية فائدتها ، ويستنبط لقوة ذكائه وفطنته مؤلفها ، وإن كانت مخرومة . وبالجملة فالشيخ طاهر أعجوبة في عصره في الذكاء ، وفي التنقيب على الآثار العلمية ، فهو شيخها في عصره بلا ريب ، بل وفيما قبل عصره ! . »

---

(١) المذكرات اليومية : ٢٢ جمادى الاولى ١٣٢٤ - ١٣ تموز ١٩٠٦ : وبعد العشاء زارنا الشيخ طاهر واشتريت منه تراجم الشيعة والتبصرة بمجيدي » .

(٢) المذكرات اليومية : ٥ ذو القعدة ١٣٢٤ - ٢١ كانون الأول ١٩٠٦

إنهـا شهادة العالم للعـالم . والعلم الصحيح يجرد النفس عن شوائب المنافسة والحسد ، ويدعو صاحبه إلى الاقرار بالفضل لأهله . وهذا القول الحق يدلك على أن روح القاسمي قد تطهر من قاعدة « المعاصرة حرمان » ، بل جرى على عكسها وأخذ بمبدأ « المعاصرة انتفاع وعرفان » . وهذا لعمري نادر بين العلماء في مختلف العصور والدهور .

بقيت العلاقـة بين الشيخين متصلة مستمرة ، رائعة في صفائهـا ، حلوة في انسجامهـا ، عظيمة في نفعهـا ، عميقة في آثارها ، إلى أن ضاق الجزائري بدمشق وجوها ، وما فيهـا ، فسافر إلى مصر . وكان قبل سفره يحضر إلى بيت القاسمي فلا يجده ، فيبقى ساعات في انتظاره ، ويلقاه في الطريق ، فيصحبه حيث يريد ، ويغير ترتيبه الذي انتواه .

وبلغ من غرام الجزائري بالقاسمي أنه لازمه ورافقه إلى حيث كان ينبغي أن ينفرد القاسمي بزياراته . كان القاسمي يرى واجباً عليه زيارة أهل زوجته ، ولـكن الجزائري لا يتركه ، ويلازمه حتى في هذه الزيارة ، على ما فيها من شؤون خاصة أهلية ، وعلى الرغم من أنه كان قد قضى النهار معه في متنزه المزة .

قال القاسمي [1] :

« ... تحركت من الدار لموعد بيني وبين الشيخ طاهر في سوق علي باشا ، ومنـه سرنا بالعربة إلى المزة لدار علي بك العظم في بستانه بهـا ، والدعوة بهمة

(١) المذكرات اليومية : ٢٦ جمادى الثانية ١٣٢٤ – ١٧ آب ١٩٠٦

عثمان بك العظم ، ابن عمـه وجماعته ، دعوة حبية . وكان الجمع وافراً ، وكلهم أصدقاء بعضهم . وصححت جانبـاً من شرح الطوفي للأربعين ثمـة ، ومعي أخي قاسم ، أشرت عليه بأن يكتب لي ترجمـة الغزالي من كتاب تكذيب المفتري لابن عساكر . وبعـد العشاء سهرت مـع الشيخ طـاهر في دار أخوال ضياء الدين بالدرويشية » .

وقد كان معروفاً عن الجزائري أن له أطواراً خاصة تفرد بها ، أشار إلى ذلك مؤرخوه جميعاً . أما القاسمي فلم يتعرض لها بقليل ولا بكثير في مذكراته اليومية ، ولا في غيرهـا ، على الرغم من اشتهارها . ولا شك أنه قـد اتفق له شيء منها ، ولـكنه آثر — على ما يظهر — السكوت عنها .

ولم أر في مذكرات القاسمي إلا نقداً واحداً للجزائري في تصرفاته . فالظـاهر أن الجزائري ، رحمـه الله ، كان أحياناً كثير الكلام مطوالاً ، وقـد زار القاسمي ذات يوم ، ثم قدم أنبه شباب العصر ، الشهبندر والعسلي والانكليزي . ولا شـك أن القاسمي قد فرح بهم ، وأراد إيناسهم والتحـدث إليهم ، كما أراد الاستماع إليهم ، فقد يكون ما عندهم من فنون المعرفة ما ليس عند الشيخين ، ولـكن الجزائري قـد استأثر بالجلسة بكاملها ، فلم يدع مجالاً لأحـد ، وتحدث فيها وحده من بدايتها لنهايتها ، فضاق صدر القاسمي ، وكتب هذه الكلمة منفساً عن كربه ، بعد انفضاض الجلسة [1] :

---

(١) المذكرات اليومية : ١ شعبان ١٣٢٤ - ١٩ ايلول ١٩٠٦

« زارني بعد العشاء الشيخ طاهر ، والشيخ عبد القادر الدوماني صاحبنا ، ثم الرفقة الثلاثة : عبد الرحمن افندي الشهبندر ، وشكري افندي العسلي ، وعبد الوهاب افندي الانكليزي ، وطال المجلس ، وطاب لهم ، إلا أن الشيخ طاهر لا يدع مقالاً لقائل ، بموالاته الجمل ، ومحبته لأن يكون هو المتكلم ، ولا يدع لجليسه متنفساً بكلام ، كما لا يتنفس باستراحة منه ! » .

ألا ترى أنه لم يغضّ من قدر الشيخ ، فلم يكن حديثه مملاً ، ولا خالياً من الفوائد ، ولا كريهاً ، فعلى الرغم من أن « المجلس طال » ، ولكنه « طاب » لأثقف شباب العصر وأرقاهم ، ولكن هذا لم يمنع من النقد الحرّ الجريء ، لاستئثار الجزائري بالحديث وانفراده به .

هذه هي الناحية الوحيدة التي نقد فيها القاسمي صفيه الجزائري ومدحه ، وما أهونها !

ضاق الشيخ طاهر بالحكم الحميدي ، ولم يطق الصبر على العيش في جو الاضطهاد والظلم فآثر الهجرة إلى مصر ، وكانت يومئذ ملجأ الأحرار من جميع أقطار العرب[1] . وقد كان هذا آخر العهد بين الشيخين ، لأن الجزائري قد عاد إلى

---

(١) في تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر للباني ص ١١٨ :

« وكان في مقدمة الذين كبست دورهم الاستاذ الفقيد – الجزائري – ، إذ حامت حوله الظنون ، وكثرت عليه العيون ، فبوغتت داره وغرفته في المدرسة غير مرة ، ونبشوا كتبه وأوراقه ونحروها وهو غائب يتجول في أنحاء القطر السوري .

« ولا بدع فحرمة صيانة المنازل لا نقش لها في قواميسهم ، والغاية تبرر الواسطة . –

وطنه قبيل الحرب العامة بشهرين [1] ، وكان القاسمي قد انتقل إلى الرفيق الأعلى قبل أيام .

إلا أنني أعتقد أن المراسلة بين الشيخين كانت مستمرة ، فما كان طبعياً أن تنقطع العلاقة بينهما ، بعد أن توثقت أواصرها إلى الحد الذي رأيت ، وإن كان القاسمي لم يشر إلى رسائل الجزائري إلا مرة واحدة ، وإن كنت قد وجدت بين أوراقي شيئاً من هذه الرسائل ، وقد لخص إحداها فقال [2] :

« ... وقد كتب إليّ الأستاذ الشيخ طاهر افندي من مصر ، يخبرني بوصول الرسائل في الأصول إلى من أهديتها إليه ، وأنه أُعجب بها كل من رآها ، لا سيما الحواشي ، التي أزالت تلك الغواشي .

« وأخبرني أنه قرئ على العلامة الشيخ بخيت الحنفي الأزهري بحث ترقية العامي ـ الذي ذكرته في آخر التعليقات ـ فدهش لذلك ، وأنه قيل له : قد ألفتَ رسالة تطرقت فيها لبقاء الاجتهاد واستمراره ، فقال : معاذ الله أن أقول بخلو

— « فأدرك أن اكتظاظ الكبس والتحري من حين لآخر ، ليس إلا من قبيل الانذار بالخطر ، وان أول الشر شرارة ، وان كل مرة لا تسلم الظباء من جرة .

« نضاقت عليه الارض بما رحبت ، واسود في عينيه الافق المتاني ، واقتعد مطي الحذر ، ورأى أن لا ملجأ له من هذا الشرك إلا بالفرار إلى دار الاحرار . »

(١) المصدر نفسه ص ١٢٠

(٢) ١٩ جمادى الاولى ١٣٢٥ - ٣٠ حزيران ١٩٠٧

الأرض من قائم لله بحجة ! فالحمد لله على ما منّ وتفضل وسترنا ، لا سيما عند مشايخ الأزهر .

« ولقد كتب لي الشيخ طاهر افندي أن الشيخ بخيت المذكور قال له : إن آثار ترقينا العلمي مما انعكس علينا من بلادكم ، فإنها منشأ الفطنة وصحفها [1] . »

أما هجرة الجزائري إلى مصر ، فقد أشار إليها القاسمي في مذكراته ، ولم يشأ أن يوضح أسبابها الحقيقية إلا من خلال السطور قال[2] :

« وصل الخبر إلى الشام بوصول الشيخ طاهر افندي الجزائري صديقنا إلى مصر من أيام ، والظاهر أراد سكناها لما جذبه (العام) [3] من الشوق الشديد إليها ، فباع في الصيف كثيراً من كتبه في داره ، في مدة أربعة أشهر تدريجاً ، واستبقى لنفسه ثلاثة صناديق ، وأودعها أمانة عند عثمان بك العظم . ثم باع سائر أمتعة بيته ، وكلها أمتعة رثة !

« وودع جميع أصحابه قبل السفر ، وداع التكتم ، بحيث لا يشعر به . وكلما سئل عن سفره يشير إلى السواحل . فودعنا مراراً ، بل كان كل ليلة عندي في السنة الماضية كلها . ثم ودع الأمير عمر في دمر ، ونام عنده ليلتين ، وكنا معه ،

---

(١) كذا في الاصل .

(٢) ١٤ ربيع الأول ١٣٢٥ - ٢٧ نيسان ١٩٠٧

(٣) وردت هذه الكلمة في الاصل ولعلها زلة قلم .

ثم ودع الشيخ أبو الخير افندي عابدين في بعلبك ، وكان قاضياً فيها ، ثم عرج إلى بيروت ، ثم صيدا ، ثم يافا ، ثم القدس . فأقام في كل هذه البلاد أسابيع يودع الجميع . ثم عاد إلى يافا ، ومنها إلى مصر .

« ومما حبب إليـه سكنى مصر ، وجود عـدة من أصحابه بها ، مثل محمد افندي كرد علي ، ومحمود باشـا الجزائري ، ورفيق بك العظم ، والشيخ مصطفى القباني ، وعبد الحميد افندي الزهراوي وغيرهم . وقد استغنى عن معاشه ، وهو ثمانمئة قرش ، وظيفة مفتش كتبخانات سورية . »

لقد كان القاسمي يعرف الأسباب الحقيقية لهجرة الجزائري ، فما كانت لتغيب عن مثله . فهو يعلم أن الظرف السياسي القاسي هو الذي ألجأه إلى الهجرة ، مضطراً غير مختار . ولكنه شاء أن يتغافل عن ذكر الحقيقة ، لما ناله من الأذى والاضطهاد ، ولما يتوقع في كل يوم .

ولكن الفطن لا يمكن أن تخفى عليه هذه الإشارات الصغيرة ، التي يقرؤها بين السطور ، فيرى فيها الحقيقه كاملة ، فوداع الجزائري « وداع تـكتم » ، « وكلما سئل عن سفره يشير إلى السواحل » ، « أقام أسابيع يودع الجميع » ، « وقد استغنى عن معاشه ثمانمئة قرش . . . » إن هـذه العبارات واضحة الدلالة على أن القاسمي قـد عرف الأسباب الحقيقية لهجرة صفيه الجزائري ، وآثر التلميح على التصريح .

* * *

ويخيّل إليّ أنه لا يحق لرجل مثلي أن يفاضل بين الرجلين ، أو أن يوازن بينهما ، أو أن يحكم لأحدهما على الآخر في أي مجـال من مجـالات الرجحان أو التمييز .

وإذا كان القاسمي قد شهد للجزائري بأنه « الشيخ المفيد ، والمرقي الوحيد » ففي هذه الشهادة دلالة على ما بعدهـا ، دلالة على علو كعب الجزائري في تلقين أبناء جيله ما جهلوا من طرق التقدم والارتقاء ، وفي كشف الحجب التي أسدلهـا الجهل والظلم .

وأميل إلى الاعتقاد إلى ان القاسمي قد عنى نفسه أيضاً في الانتفاع من ترقية الجزائري للناس . لا سيما وان الاجماع قد انعقد على أن الجزائري ، قد حباه الله فكراً نادراً وقاداً حراً ، إن لم تظهر آثاره في كتبه ومؤلفاته ظهوراً كافياً ، فقد كانت آثاره ظاهرة كل الظهور لدى أبناء عصره .

ومن المعروف ان الجزائري عاش سبعين سنة ، أما القاسمي فلم تتجاوز سنه تسعة وأربعين عاماً ، ولو أن القدر مكّن للثاني من فسحة العمر ، وقلة المسؤوليات ، ما مكن للأول ، لاختلف وجه الموازنة بينهما .

* * *

لقد وقعت بين يدي أقوال لبعض الـكتاب والمفكرين والباحثين ، في الموازنة بين الرجلين رأيت ان أنقلها بحروفها ، حرصاً على الأمانة العلمية .

لقد أدرك الأستاذ محب الدين الخطيب الرجلين ، وتتلمذ عليهما . وقد أنشأ

مقالاً ممتعاً في مجلته — الفتح — الصادرة في جمادى الآخرة ١٣٦٤ بحث فيه عن « نهضة العرب للاضطلاع برسالتهم ـ لمناسبة حوادث الشام الأخيرة ـ » قال فيه :

« كان للشيخ طاهر الجزائري طبقة من أقرانه يرونه أعلمهم ، وأحكمهم ، وأبعدهم نظراً ، وأعمقهم غوراً ، ومنهم الشيخ جمال الدين القاسمي ، والشيخ عبد الرزاق البيطار ، والشيخ سليم البخاري . »

* * *

وللأستاذ الأمير مصطفى الشهابي بحث سماه : « من ذكريات الحركة القوميه العربية » نشره عام ١٩٥٧ في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، قال فيه :

« وفي تلك المدة التي قضاها الشيخ طاهر الجزائري بالشام ، في السنوات العشرين الأخيرة من القرن التاسع عشر ، والسنوات الخمس الأولى من القرن العشرين ، كان يتحلّق حوله في دمشق صفوة المتعلمين والنبهاء والمفكرين العرب ، فتألفت من جماعهم أكبر حلقة أدبيه وثقافية كانت تدعو إلى تعلم العلوم العصرية ، ومدارسة تاريخ العرب ، وتراثهم العلمي ، وآداب اللغة العربية ، والتمسك بمحاسن الأخلاق الدينية ، والأخذ بالصالح من المدنية الغربية . »

ثم أشار هنا في الهامش بقوله :

« كان من الرجال الأول في هذه الحلقة علماء مصلحون ، ومؤلفون معروفون ،

كالشيخ جمال الدين القاسمي ، والشيخ عبد الرزاق البيطار ، والشيخ سليم البخاري وغيرهم .

« ثم التحق بها عدد كبير ممن كانوا دونهم في السن ، منهم : رفيق العظم ، ومحمد كرد علي ، وفارس الخوري ، وعبد الحميد الزهراوي ، وشكري العسلي ، وعبد الوهاب المليحي ، وعبد الرحمن الشهبندر ، وسليم الجزائري ، اشتهروا جميعاً فيما بعد بأعمالهم العلمية والسياسية . »

* * *

أما الإمام السيد محمد رشيد رضا ، طيب الله ثراه ، فقد وازن بين الرجلين في المقدمة الرائعة التي كتبها لكتاب القاسمي « قواعد التحديث » فقال[1] :

« والعلامتان الجزائري والقاسمي كانا سيين في سعة الاطلاع ، وحسن الاختيار . إلا أن الجزائري أكثر اطلاعاً على الكتب ، وولوعاً بالاستقصاء والبحث ، والقاسمي أشد تحرياً للاصلاح ، وعناية بما ينفع جماهير الناس . »

وقد حدثني الأستاذ لطفي الحفار أن الشيخ طاهراً كان يقول عن القاسمي : « إنه وليد القرون ، وقد فهم الشريعة كما فهمها الصحابة والتابعون » .

هذا ما هداني إليه البحث ، سردته مستعيناً بالنصوص ، كما كتبها أصحابها . ورحم الله الشيخين ، فقد كانا من آيات الله على خلقه ، وعاملاً كبيراً في اليقظة الفكرية ، والاصلاح الديني والاجتماعي والسياسي .

---

(١) ص ١٧ من المقدمة .

٤ ـ السيد محمد رشيد رضا

نبغ الإمام السيد محمد رشيد رضا رحمه الله نبوغاً مبكراً ، أحله مرتبة الاجتهاد ، والاستقلال في الرأي منذ شبابه . وكان « مناره » طوال خمس وثلاثين سنة محط أنظار المنورين من رجال الدين وغيرهم من المثقفين في العالم الإسلامي ، يتلقفونه بلهفة ، وينتظرون موعد صدوره ليعبّوا من معينه حقائق الشريعة الصافية .

وقامت بينه وبين أعلام عصره علاقات من الود والإخاء والتقدير المتبادل ، ابتدأت بالأستاذ الإمام محمد عبده ، حيث أخذ عنه ، وتتلمذ عليه ، واستأثر مناره بدروس الأستاذ الإمام في التفسير ، يدونها ، وينشرها فيه ، ثم يجمعها مستقلة .

والذين تتبعوا تاريخ الحياة الفكرية الإسلامية في الثلث الأول من القرن العشرين ، وأواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، يعرفون أن محمد رشيد رضا كان بحق الإمام الأول الذي خلّف أكبر دائرة معارف اسلامية ، لم يترك فيها بحثاً من بحوث العقل والنقل والدين إلا وساقه بكثير من التجرد والانصاف والعمق والفهم .

وإذا كان محمد رشيد رضا لم يدرس حتى الآن الدراسة الكافية ، بما ترك من آثار ، وبما خلف من تحول خطير في فهم الشريعة الإسلامية ، فما ذلك إلا لأننا لم نعتد حتى الآن على محاولة الإفادة من المصلحين المعاصرين ، وعلى

الاهتمام بهم اهتماماً يعيد الحياة إليهم ، على النحو الذي يفعله الأوربيون مع عظمائهم .

ولعل كتاب المرحوم الأمير شكيب أرسلان « السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة » ، الذي طبع في دمشق ، هو الكتاب الوحيد الذي هدف صاحبه إلى تخليد هذا الرجل الفذ ، الذي وهب حياته وعقله وماله ، لخدمة العرب والمسلمين ، ومات مديناً .

ولقد كانت دهشتي بالغة ، يوم دخلت باحة جامعة (الكوليج دوفرانس) في باريس ، صيف عام ١٩٥٨ ، وكنت على موعد مع الأستاذ المستشرق (جاك برك) ، أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في هذه الجامعة ، فألقيت نظرة على جدران باحتها ، فوجدت عليها برنامج العام الدراسي ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨ ، وفيه محاضرات استغرقت أربعة أشهر للأستاذ المستشرق الفرنسي (هنري لاووست) موضوعها « تفسير المنار » .

ولقد وقفت كالمشدوه ، لا أُصدق نفسي ، هل أنا في باريس ، في الكوليج دوفرانس ، أم أنا في الأزهر ، أو في جامع الزيتونة ، أو في جامع القرويين ، أو في إحدى كليات الشريعة المنتشرة في العالم الإسلامي ! إن كلياتنا وجامعاتنا قد أغفلت دراسة هذا المفرد العلم ، وانفردت باريس وحدها بنشر معارفه في تفسيره ليس غير .

ومن يدري ؟ فلعل جامعات أخرى في لندن وروما وبرلين وموسكو وغيرها قد اهتمت أيضاً بتفسير المنار ، وبرشيد رضا ، كما اهتمت أرقى جامعة في فرنسا

بمحاضرة صفوة الطلاب عن تفسيره خلال أربعة أشهر ! ونحن غارقون في النوم ، لا نرى المعاصر شيئاً ، ونرى للأوائل التقديما !

وليقل الناس ، ولأقل أنا معهم ، ما أرادوا وما أُريد ، عن علاقة الاستشراق والمستشرقين بالاستعمار ، وعن الخدمات التي أداها الاستشراق والمستشرقون للدول المستعمرة ، ولـكني لا أستطيع أن أمرَّ بهذا الحـادث الخطير ، من غير أن أُلقي كثيراً من اللوم على واضعي مناهج التعليم في الكليـات ، ومن غير أن أسجل بكثير من الحمد والإعجاب ، هـــذا الجهد المبارك ، الذي يبذله بعض المستشرقين وبعض الجامعات الغربية في خدمة الدراسات الإسلامية ، من غير غرض او هوى ، او مع الغرض والهوى ، فلا علينا ان نأخذ النافع ، وأن نطرح الضار ، وأن نكون منهم ومن دراساتهم بالحيطة والحذر ، وأن ننخل من آرائهم ما وافق الحق ، وسار في طريق الصدق .

ولنعد إلى علاقة الرجلين ، فما عرفت لها ابتداء مكتوباً ، في الأوراق التي بين يدي قبل عام ١٣٢١ ـ ١٩٠٤ ، في السنة التي قام فيها القاسمي مع صفيه البيطار بالرحلة الأولى إلى الأقطار المصرية . ولقد مرت معك الإشارة إلى ذلك في بحث « رحلات القاسمي » ، فارجع إليها إن شئت[(١)] .

ولـكنني أعتقد أن العلاقة بين الرجلين كانت أقدم من هذا التاريخ ، لأنه أشار في تاريخ رحلته الأولى إلى مصر ، إلى صداقة قائمـة بينه وبين السيد محمد رشيد ، وإذا كانت هذه الإشارة قد جاءت موجزة ، فلأن السيد محمد رشيد كان

---

(١) ص ١٢٥ وما بعدها من هذا الكتاب .

محجوباً بالأستاذ الإمام ، الذي استأثر باهتمام القاسمي ، بعلمه ، وقوة شخصيته ، وبلاغة أدائه ، وعلو نفسه ، وجميع صفاته .

ولا شك في أن هذه الصلة بقيت قائمة بين محمد رشيد والقاسمي ، فما ألف القاسمي كتاباً او جمعه ونشره ، إلا وكان له الحظ الأوفى من التقريظ في مجلة المنار .

وفي عام ١٣٢٦ ـ ١٩٠٨ تستأنف الحياة الدستورية في الامبراطورية العثمانية ، ويشعر الناس بحرية نسبية ، تفتح لهم بعض الأبواب المغلقة ، ويهيأ لبعض النازحين ، الذين أبعدوا او اختاروا البعد ، العودة إلى أوطانهم .

ويرى الإمام محمد رشيد رضا ان الواجب يدعوه لزيارة البلاد الشامية ـ وطنه الأول ـ فشد الرحال ، ووصل إلى دمشق في ٢٧ رمضان ١٣٢٦ ـ ٢٣ تشرين الأول ١٩٠٨ ، ويروي القاسمي في نفس اليوم في مذكراته اليومية نبأ قدومه فيقول :

« استقبلنا اليوم مساء على محطة البرامكة الأستاذ الشيخ محمد رشيد رضا منشىء مجلة المنار ، وصديقنا من مصر . وقد خف لاستقباله ثلة من الأكابر ، منهم الشيخ عبد الرزاق افندي البيطار ، وعبد الرحمن بك اليوسف محافظ الحج ، ويحيي باشا أغري بوز ، وعطا افندي الكيلاني ، وجماعة أخر .

« ثم ركبنا وإياه العربة ، وسرنا إلى دار مضيفه عثمان بك العظم ، وسهرنا معه إلى ثلث الليل الأول ، وكان أشقائي معي وغيرهم .

« وحدثنا ونحن في العربة ان الشيخ محمداً عبده رحمه الله ، لما استأجر له داراً للفتوى بمصر ، وانتقل إليها ، سرّ بها وبترتيب أمكنتها ، وأنه قال للشيخ رشيد لما دار معه في أطرافها : الآن إذا جاء الشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ جمال إلى مصر ، فإنهما يسران بها ، لكونها في البلد ، ولاشتمالها على ما يرغبان ، أو كلاماً نحو هذا . فرحمه الله . »

ولقد كان معقولاً أن يتصدى السيد الإمام رشيد رضا في زيارته الأولى إلى دمشق بعد الحرية ، لقراءة درس عام في جامع بني أُمية . وقد تمت قراءة الدرس .

قال القاسمي[1] :

« قرأ اليوم السيد رشيد رضا درساً في الجامع الأموي تحت القبة ، وكان الجمع وافراً ووعدهم بقراءة درس في اليوم الآتي بعد العصر أيضاً .

« وسهرنا عنده نحن والشيخ عبد الرزاق افندي البيطار ، وحضر للسلام عليه عبد الرحمن بك اليوسف ، وعلي باشا الأمير ، وزمر من أهل العلم والأدب ، وغيرهم . »

لم يبطىء رشيد رضا في قراءة الدرس العام ، فقد قام بهذا الواجب غداة اليوم الذي وصل فيه إلى دمشق . ولست أدري كيف وقع الوعد بقراءة درس في اليوم الثاني ، هل كان من الذين أُعجبوا بالسيد الإمام ، أم من الذين رتبوا فتنة عمياء وهيؤوها ، أم من هاتين الفئتين .

---

(١) المذكرات اليومية : ٢٨ رمضان ١٣٢٦ - ٢٤ تشرين الاول ١٩٠٨

فلقد كان رشيد رضا رحمه الله يمثل في أنظار الحشوية والجامدين غازياً يفضح عيوبهم ، ويهدم باطلهم ، ويضعهم حيث يستحقون . ولهذا لم يطربوا لقدومه إلى دمشق ، ولم تفرحهم دروسه العامة ، ولم يأنسوا بإقبال الناس عليها .

وإذا كانت الحرية قد فتحت أبوابها بعد استئناف الحياة الدستورية ، فإن هذه الحرية سلاح ذو حدين ، يستعمله الأتقياء ، كما يستعمله الأشقياء ، وإذا كانت الألسن المصلحة قد انطلقت من عقالها ، فإن المجال فسيح أمام الألسن الهدامة ، ولا سيما إذا كانت دعوتها باسم الدين .

ولهذا ، فإن رجلاً كالسيد الإمام ، لا يمكن أن يتلقى بالترحيب والبشر والسرور ، إلا من قبل الفئة الواعية المدركة . أما أولئك الذين حاربوا كل مفكر ، وقاوموا كل مجدد ، ووقفوا في وجه كل مصلح ، فليس في مصلحتهم أن يكون لهذا الفاتح الجديد قدم . فأجمعوا أمرهم ، وأحكموا خطتهم ، وفاجؤوا السيد الإمام في اليوم التالي بالفتنة التي أعدوها ، وإليك ما قال القاسمي : أولاً عن زيارته له في الدار ، ثم ما دون بصدد هذه الحادثة الكبرى(١) :

« زارني بعد الظهر في الدار السيد رشيد رضا . ثم حضر على أثره الشيخ عبد الرزاق البيطار . وطلب مني السيد ان أطلعه على ما لديّ من التفاسير الخطية ، فأطلعته على قطعة مخطوطة من تفسير ابن عطية فأعجبه ، وقال : لسانه من صميم العرب ، وأسلوبه بديع . وأريته تفسير السمرقندي ، واطلع على الجزء الأول من تفسير الراغب الأصفهاني ، ومر على فصول مقدمته ، وأريته مكتوبين للأستاذ

(١) المذكرات اليومية : ٢٨ رمضان ١٣٢٦ - ٢٤ تشرين الاول ١٩٠٨

الإمام الشيخ محمد عبده ، كان راسلني بهما ، والأول أثبته السيد رشيد في تاريخ الأستاذ ، والثاني لم يطلع عليه .

ثم قال[1] :

« وقبل العصر ، سار هو وأخي إلى الجامع الأموي . وبعد العصر جيء له بكرسي ، فصعد عليـه ، وبعد قراءة العشر أخذ يقرأ نحواً من ثلث ساعة . فقام يسأله سائل عن كتب الفقه .

« ثم قام[2] مثير الفتنة (. . .)[2] فقال له : نحن أتباع الأئمة الأربعة ، وأخذ يستجوب العامة .

« ثم قام متولي كبر الفتنة (. . .)[2] وأخذ يذكر اتباع الأئمة وأصول الوهابية تعريضاً بالسيد وجملاً من هذا المعنى .

« فقام السيد رشيد وقال : الفتنة نائمة ، لعن الله من أيقظهـا ، وبين لهم عقيدته الصحيحة المعروفة ، ولـكن (. . .) أفاض فيما أثار العامة ، فنهض عثمان بك العظم وقال لهم : من كان يريد أن يباحث الأستاذ السيد ، فليأت إلى داري بعد العشاء وكثرت الضوضاء ، وقامت الناس ، ونزل الأستاذ من كرسيه ، واحتاطت به الناس ، وصارت الحشوية تقذفه ، وتتكلم عليه بما هو منه بريء ، إلى ان أبلغت الحكومة ، فأحضرت قبل الغروب الشيخ (. . .) وحبسته في دائرة البوليس ،

---

(١) ٢٩ رمضان ١٣٢٦ - ٢٥ تشرين الاول ١٩٠٨

(٢) آثرنا إغفال الاسماء ، فليس في نشرها فائدة .

وأخذت تستنطقه عن تهييج الفتنة . ولم يزل محبوساً ، حتى جاء الأمير علي باشا وأخرجه بكفالته .

« ثم بعد التراويح ، نادى في الجامع الأموي الحشوية من المتعممين ، ونادوا بالمصلين بذهاب الدين ، وصاروا يندبون ويبكون ويصرخون ، ويحرضونهم على ان يتجمعوا للذهاب إلى دار الحكومة ، فذهبوا بهم ، وتبعهم من لا يحصى — والليلة ليلة الوقفة ، وناهيك بالأسواق وازدحامها — فذهب الفوج إلى سراي الحكومة ، وطلبوا الإفراج عن (. . .) ، فقيل لهم : إنه أفرج عنه ، فلم يصدقوا ، وهم يصطرخون ويصفقون ، إلى ان استحضر لهم من دار الأمير علي باشا ، فلما رأوه صفقوا ، وأركبوه العربة ، وكانوا يصرخون بشتم السيد رشيد ، وبلزوم قتله .

« ثم زار السيد رشيد عبد الله بك المؤيد ، وأشار عليه بالسفر حالاً طفئاً للفتنة ، فبلغني أنه سافر صباحاً ، بكتاب أرسله إليّ عثمان بك . فلا حول ولا قوة إلا بالله . نسأله تعالى أن يكشف عن المحقين ما أهمهم ، ويمحق المبطلين ، وينصر حزبه الداعين إلى سبيله آمين . »

كانت هذه الحادثة أُم الحوادث في دمشق ، بعد إعلان الدستور . استغل فيها الحشوية والجامدون شعور العامة السذج ، وهيجوا فيهم بريء العاطفة الدينية ، ووجدوا أنصاراً من الموتورين ، وآخرين من الذين فقدوا مركزهم بعد استئناف الحياة الدستورية ، والتقوا مع أعداء الحرية ، وألفوا جبهة لمحاربة هذا القادم الذي عمل للحرية طول حياته ، كما هدم بمعاول الشرع الصحيح أباطيل الجامدين ،

ووجدوا في جو الحرية الجديد معواناً لهم على التظاهر بالباطل .

وكانت الحركة في الحقيقة تحمل في مطاويها كثيراً من المعاني ، لا تقف عند خلاف بين علماء الدين فحسب ، وإنما كانت أغوارها أبعد من هـذا وأعمق ، وكانت حركة من الحركات الهدامة التي أُحكم نسيجها ، وأتقن تمثيلها وإخراجها . نقمتُها على العهـد الجديد وأصحابه ، وعلى الداعـين له وأربابه ، من بابـه إلى محرابه .

ولقد كان سلاح منظمي الحركة مخيفاً ، لأنه يستند إلى العامة ، والعامة مساكين ، يساقون بالألفاظ الفارغة ، ويكفي أن يذكر الأسف على الدين ، وأن يندب على ضياعه ، حتى ترى المـآقي قد اخضلت بالدموع ، وحتى ترى الهيـاج قد اعترى النفوس والرؤوس ، من غـير فهم للحقائق ، او تدبر لهـا ، أو تمييز بـين صحيح الأمور وباطلها .

وهكذا كان ، في حادثة الرجعة مع السيد محمد رشيد . لم يريدوا خلافاً على مسائل في الدين ، وإنما أرادوا تشويهاً للرجال الأحرار جميعاً في هذه البلاد . وقد تم لهم جزء مما أرادوا :

ذلك بأن أثر الحادثة لم يقف عند هـذا الحد ، وإنما تعداه إلى ما هو أبعد منه ، فقد اعتزل القاسمي المسجد الجامع غداة الحـادثة ، فلم يؤم الناس ، ولم يقرأ الدرس العـام . ويمر معك في مذكراته اليومية رؤيا يراها القاسمي ، ثم يتأولهـا فيقول في تأويلها [١] :

(١) ١٠ شوال ١٣٢٦ - ٤ تشرين الثاني ١٩٠٨

« تأولت هذه الرؤيا بأن الفرج بنا قريب ، وأنه تعالى سيجعل بعد عسر يسراً ، لأني وإخوتي من يوم قصة الشيخ رشيد رضا في ٢٩ شعبان [1] إلى هذا اليوم ، في ضيق صدر وغم وملازمة البيت ، لتألب أهل البلد علينا ، ورمينا بأن أخي عيداً كان سبب الهياج ، كما تقدم ، والأمر لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . »

وترى زوجُه - رحمها الله - رؤيا جميلة فترويها لزوجها ، فيسجلها ويتأولها ويستبشر بها ، ويقول [2] :

« رأت أم الأولاد الليلة كأن محمل الحاج وموكبه ، ورجاله الأكابر ، يقصدون دارنا ، وكأن المحمل منزله عندنا ، وبيتنا مملوء بالناس . فقلت : تبشر إن شاء الله تعالى برفعة قدرنا ، وزيادة التنويه بنا ، وان يكون بيتنا محطاً للخير ، ومظهراً للفضائل والعز ، ورفعة القدر . وأنه سيفرج الله عنا ، وينقلنا من هذا الحصر الذي نحن فيه ، منذ حادثة السيد محمد رشيد رضا عندنا في الشام في ٢٩ رمضان إلى هذا اليوم . »

انظر إلى هذه الألفاظ التي استعملها القاسمي في وصف حالته النفسية ، وهو حبيس البيت ، خيفة العامة ، وتجنباً للمخاطر ، لأن الفتنة لم تنطفىء ، ولأن خصومه أذاعوا بأنه مسؤول عنها . إنه يعبر عن هذا بأصرح الألفاظ وأكثرها

---

(١) كذا في الأصل ، وصوابه رمضان . وهذا الخطأ القلمي دليل على اضطراب القاسمي في ذلك الظرف ، كما هو واضح من عبارته أيضاً .

(٢) ١٨ شوال ١٣٢٦ - ٣٠ تشرين الاول ١٩٠٨

انطلاقاً على ألسنة الخاصة والعامة : « ضيق صدر » و « غم » و « حصر » .

ثم انظر إلى هذه الضراعة المتكررة ، الصادرة من أعماق النفس ، إن تكرارها دليل على شدة الكرب الذي يعـانيه صاحبها : « الأمر لله ، ولا قوة إلا بالله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . »

ولا يكاد يسجل بعد هذا التاريخ حرفاً عدة أيام حتى يمضي اثنا عشر يوماً فيكتب هـذه الكلمات التي تنسجم مع حالته النفسية ، ومع ما يعـاني من أزمـة روحية :

« سمعت امرأة مسنة تستشهد بمثل عامي ، وهو محكي عن لسان الربوبية : يا عبدي ! لا تكن جبار . الرب واحد والفلك دوار . »

« وسمعت عامياً يقول مثلاً بدوياً وهو : جمل الباغي عثور » .

والظاهر ان السيد الإمام رشيد رضا قد كتب في جريدة « الاتحاد » [1] — وأظنها كانت تصدر في بيروت — مقـالاً كشف فيه عن حقيقة الحـادثة التي وقعت له في الشام ، فيشير القاسمي إلى ذلك في مذكراته اليومية ، وينقل رأي السيـد الإمام في موضوع النهي عن التقليد ، والإصـلاح الديني ، مما مر معك شبيهه .

ويرى تلميذه الشيخ حامد التقي رؤيا فيتأولهـا بما لا يخرج عن تأويل الرؤيين السابقتين .

---

(١) العدد ٥٣

وفي اليوم الرابع عشر من ذي القعدة ١٣٢٦ يسجل قصيدة للمرحوم عادل ارسلان في هذه الحادثة ، وهي من شعر الصبا ، ملئت تهكماً بالجامدين ، وتعريضاً بشهوات بطونهم .

والعجيب أن لا أرى لأحد من أدباء العصر كلاماً في هـذا المعنى شعراً او نثراً ، إلا ما جادت به قريحة الأمير عادل ـ رحمـه الله ـ وما أدري إذا كان في أدب العصر غيرهـا ، فمن عثر على شيء من ذلك وأرشدني إليه كان من المحسنين .

ولعل تصدّي الأمير إلى هذه الحادثة يدل بشكل واضح على بعد مراميها ، وعلى أنها ليست صراعاً بين رجال الدين ، وإنما هي صراع ضد الحرية والأحرار ، فما كان عادل أرسلان من رجال الدين حتى ينتصر لفئة على فئة ، وإنما كان من شباب العصر الأحرار ، الذين نهلوا من معين الثقافتين العربية والأوربية ، فضلاً عما عرف عنه من الأناقة الفائقة ، والشجاعة النادرة ، وقوة العارضة ، والاهتمام بالسياسة العـامة .

وما أظن إلا ان عادلاً رحمه الله قد هزه أخوه شكيب ، وكان يومئذ قائم مقام قضاء الشوف ، ولا بد ان الحادث قد بلغه ، وقد مر معك أنه كتب إلى القاسمي كتاباً وصله في ١١ شوال ١٣٢٦ أي بعد الحادث باثني عشر يوماً . ولا شك في انه قد تضمن الإشارة إلى حادثة الإمام محمد رشيد رضا ، والأسف على ما وقع ، وإن كنت لم أعثر على أصل هذا الكتاب . وإليك ما جاء في المذكرات[1] :

---

(١) ١٤ ذو القعدة ١٣٢٦ – ٧ كانون الاول ١٩٠٨

« للأمير عادل ارسلان اللبناني في حادثة الحشوية مع السيد رشيد رضـا في الشام ، وعجبه من رميهم أمثاله وكل نبيه بالوهبنة :

حزب التقهقر ما لعينك دامية ... تبكي أسى وعن الهدى متعامية
حزب التقهقر ما لقلبك خافقاً ... تسقي الثرى بمدامعٍ لك هامية
يا أهل ذاك الحزب حزتم عندنا ... شرف التقهقر رتبـة متسامية
ما بالـكم والأمر فوضى بينكم ... غضباً على الدستور ناراً حامية

* * *

يا أيها الفقهاء أول من درى ... ان البطاطا شرح متن البامية
إني رأيت الشورباء حزينـة ... أضحت على أذيالـكم مترامية
فكلوا المحاشي والمواشي جمـلة ... تهتز من فوق بقول ناميـة
أظننتم الدستـور حرم أكلهـا ... لا والذي خلق العقول السامية
فابنوا من القرع الطويل دوارعاً ... فالدهن عندكمُ بحور طـامية
وتحصنوا في قلعـة النيفا ولا ... تنسوا المقادم أن تـكون الحامية
وحموا حمى ستي ازبقي وتسلقوا ... سور الـكرنب مع القسيّ الرامية
مـا دخل وهابيتي في أمركم ... ماذا اخترمت لتنكروا إسلاميه
هي شيعة لا تشتم الـكوسا فما الداعـــي ... لتـكفيري ودق عظـاميه
آخذتم الدين الحنيـف بأنـكم ... تستوجبون عليّ كأس حماميه
ما خنتـكم في صحبة المحشي ولا ... أفسدت بالتقليل منـه صياميه

طباخ روحو شافع ليَ عندكم   مني عليه تحيتي وسلاميه

أشهى لديّ لو أنه يودي بكم   من أكله وبذاك نيل مراميه

كذّبت « دروينا » فحين بلوتكم   صدقته وكففت عنه ملاميه

سبحان من سمك السماك ومن برى   هذي الخلائق لا أطيل كلاميه

* * *

ويمضي القاسمي رحمه الله ، متألماً ، معذباً ، قعيد البيت ، لا يستطيع القيام بالواجب فلا يكتب في هذا الموضوع من جديد ، ولكنه يسجل في مذكراته اليومية [1] بيتاً يصف حاله ، وكأنه قيل لمثله ولم ينسبه إلى قائله ، ولا أدري من هو أبو عذرته :

وجُرْمٍ جَرّه سفهاء قومٍ   وحلَّ بغير جارمه العذابُ

ويعقبه ببيت آخر لم نعرف صاحبه أيضاً :

أقول للقلب والأشواق ملتهبة   هذا الحساب الذي قد كنت أحسبه

ثم يعثر خلال دراساته على قول لابن القيم في إغاثة اللهفان ص ١٧٧ ، في الثناء على محاجة اللخمي صاحب الوثائق ، فينقلها [2] بحروفها لانطباقها على مثيري الفتنة وهي :

---

(١) ١٦ ذو القعدة ١٣٢٦ - ٩ كانون الاول ١٩٠٨

(٢) ١٩ ذو القعدة ١٣٢٦ - ١٢ كانون الاول ١٩٠٨

« ... ثم ذكر حجج الآخرين ، والجواب عن حجج هؤلاء على عادة أهل العلم والدين في انصاف مخالفيهم والبحث معهم ، ولم يسلك طريق جاهل ظالم مبعد ، يبرك على ركبتيه ، ويفجر عينيه ، ويصول بمنصبه لا بعلمه ، وبسوء قصده ، لا بحسن فهمه ، ويقول : القول بهذه المسألة كفر يوجب ضرب العنق ، ليبهت خصمه ، ويمنعه عن بسط لسانه ، والجري معه في ميدانه . والله تعالى عند لسان كل قائل ، وهو له يوم الوقوف بين يديه عما قاله سائل . »

ثم عقب على هذه العبارة البليغة للامام ابن القيم بقوله :

« ففيه تمثيل لحالة كل فقيه وقح ، وان في المتقدمين من هذا المعنى كثرة . »

* * *

وبعد ثلاثة أيام يسجل في مذكراته اليومية هذه الجملة المقتضبة (١) :

« الاعتراض على حقائق ثابتة باسم الدين ، مما يورث الشبه في الدين . »

* * *

وبعد أربعة أيام ، ينقل أبياتاً للامام ابن القيم من الكافية الشافية ، وهي أكثر ما تكون انطباقاً على الوضع الذي يتألم منه (٢) :

قال ابن القيم في الكافية الشافية :

لا توحشنك غربة بين الورى   فالناس كالأموات في الحيّان

---

(١) ٢٢ ذو القعدة ١٣٢٦ – ١٥ كانون الاول ١٩٠٨

(٢) ٢٦ ذو القعدة ١٣٢٦ – ١٩ كانون الاول ١٩٠٨

أو ما علمت بأن أهل السنة الـــغرباء حقاً عنـد كل زمان

قل لي متى سلم الرسول وصحبه والتـابعون لهم على الإحسان

من جاهل ومعـاند ومنـافق ومحـارب بالبغي والطغيان

وتظن أنك وارث لهمُ ومـا ذقت الأسى في نصرة الرحمن ؟

كلا ولا جاهدت حق جهاده في الله لا بيد ولا بلسان

منتك والله المحـالَ النفسُ فاستحدثْ سوى ذا الرأي والحسبان

لو كنت وارثه لآذاك الأولى ورثوا عـداه بسـائر الألوان

قال القاسمي بعد أن دون هـذه القصيدة : « ا . ه . والأصل في هذا قوله تعالى :

« أَلَمْ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُون . »

وترى بعد ثلاثة أيام هذه الجملة المقتضبة [1] :

« لا يعدم الصبور الظفر ، وإن طال به الزمان . »

ثم يجف قلمه أياماً ويضيق صدره . فترى بعد خمسة عشر يوماً في مذكراته اليومية هذا البيت ، من غير ان ينسب إلى قائله [2] :

« فقلت : إلى ان يرجع الماء سائلاً ويعشب جنباه تموت الضفادع »

---

(١) ٢٩ ذو القعدة ١٣٢٦ – ٢٢ كانون الاول ١٩٠٨

(٢) ٩ ذو الحجة ١٣٢٦ – ١ كانون الثاني ١٩٠٩

وقبل ذلك بيوم ، ينقل هذه الأسطر وينسبها إلى بعض الحكماء :

« المناظر العاقل هو الذي يدحض البرهان بالبرهان ، ولا يخرج عن الموضوع ، ولا يتخذ السفسطة والمهاترة ، بل السباب والشتيمة سلاحاً ، إذ لا يتسلح بمثل ذلك إلا من لزمته الحجة ، فراغ عن الحق ، وأبى إلا المكابرة والعناد . » اهـ لبعض الحكماء .

وخلال اثني عشر يوماً تجد في مذكراته اليومية ، أشياء لا علاقة لها بالحادث ، مما دل على انه قد بدأ ينساه ، او ان إرادته قد تغلبت عليه . وترى بالقلم الرصاص بيتاً يتيماً يدل على تردده فيما هو صانع[1] :

ولو قلت الصحيح سكنت رمسي ... ولو قلت القبيح رفعت رأسي

ولا يكاد يمضي يومان حتى يجمع القاسمي شجاعته ، فيقرر أمراً في نفسه ، ويبيّت ما حزم عليه ، ويسجل هذا البيت الوحيد ، وكأنه يخاطب نفسه[2] :

وأقول : « بعض الناس » عنك كناية ... خوف الوشاة وأنت « كل الناس » !

إنه قد عزم على ان يستأنف إمامته للناس بعد يومين اثنين ، في المسجد الجامع ، وليكن ما يكون . فما ينبغي لرجل مثله ان يعتكف إلى ماشاء الله ، وأن ينقطع عن القيام بهذا الواجب الديني مخافة الخوف .

(١) ٢٠ ذي الحجة ١٣٢٦ - ١٣ كانون الثاني ١٩٠٩

(٢) ٢٢ ذى الحجة ١٣٢٦ - ١٥ كانون الثاني ١٩٠٩

والإمام لا يعدم أنصاراً من جيران الجـامع ، الذين اعتادوا الصـلاة خلفه ، فما ان يبلغهم قراره ، حتى يخفوا إلى داره فرحين مـتبشرين ليرافقوه إليـه ، في شبه مظاهرة ، هي أقرب إلى حمايته ، منهـا إلى عداء خصومه . ثم إلى أين هم ذاهبون ؟ إلى الجامع ، لعبادة الله ، لا لخصام أحد ، ولا لقتال عدوّ .

قال القـاسمي[1] :

« اليوم عزمت ، بعد استخارة الله تعالى والاستعانة به ، على الخروج إلى الجامع للصلوات . وبلغ بعض جيران الجامع ، فحضروا إليَّ وقت الظهر ، وسرنا وأدينا الظهر جماعة . وقد مضى لي منذ حادثة السيد رشيد رضا بدمشق من ٢٩ رمضان إلى اليوم وانا لم أَخرج إليه ، اتقاء القال والقيل الذي حدث ، حتى هدأت الغوغاء بحمد الله تعالى . »

فانظر إلى هذا الرجل المؤمن ، كيف قابل الفتنة العمياء التي قامت في وجهه ، ولم يكن من جناتها ، ولـكنه اصطلى بنارها . إنه يعتكف في بيته ، متذرعـاً بالصبر الجميل وإن توالى . ينفّس عن كربه بآيات من كتاب الله ، وغرر من أقوال المتقدمين شعراً أو نثراً ، لا يحمل إصراً على أحد ، ولا يلجأ إلا إلى الله في بث شكواه .

وتضطرب نفسه خلال النهار بهذا المهم من الأمر الذي أصابه ، فتتجلى له

---

(١) ٢٤ ذي الحجة ١٣٢٦ - ١٧ كانون الثاني ١٩٠٩

همومه رؤى وأحلاماً في الليل . ولا تقتصر الأحلام عليه ، بل تراها زوجه ، ولا تقتصر عليها بل يراها تلميذه .

ثم يأذن الله بالفرج ، ويقتحم الصعـاب ، ويركـب الأسنة ، ويخرج إلى إمامة الناس .

لقد بدا لي وأنا أكتب هذا الفصل أن القاسمي رحمه الله لم يكن قليل النفر ، ولا عديم الأنصار ، ولا محروماً من المجير . فأهل زوجته من آل أبي قورة عشيرة كانت قادرة على أن تذلل له ما أراد ـ لو شاء ـ بالقوة . وحمو شقيقته من آل العظم ، كانوا يومئذ في أوج مجدهم من القوة والسلطان . ولو أن جمال الدين أراد ان يستنصر بهاتين العشيرتين لما خذلتاه ، إحداهما في الشارع ، وثانيتهما في الدولة . هذا ، فضلاً عن أن مريديه من العامة ليسوا قوماً قليل العدد او الشأن . زد على ذلك أسرته نفسها .

فما الذي دعاه إذن إلى ان يعتزل إمامة الناس قرابة ثلاثة أشهر ؟ إنه قد آثر انطفاء الفتنة من نفسها ، ورجوع النفوس عن غيها . ولو أنه قابل الشر بالشر ، والفتنة بفتنة مثلها ، لما كان المصلح الذي يهتدى بهداه الجيل ، والذي سارت آثاره من شواطئ دجلة إلى شواطئ النيل !

يدلك على هذا الروح أنه لم يستأنف عمله الرتيب مرة واحدة . فهو قد عاد إلى الإمامة دون التدريس . واكتفى في هذه المرحلة الأولى بالصلاة في الناس ، واستأنى في استئناف دروسه العامة ، إلى ان رأى أن وقتها قد حان ، فكتب في مذكراته اليومية [1] :

(١) ١١ محرم ١٣٢٧ - ٢ شباط ١٩٠٩

« بدأت اليوم بقراءة الدرس الذي كنا رتبناه للبخاري ، وذلك صبيحة الثلاثاء والجمعة في جامع السنانية ، ومن نحو سبع سنين . وكان عاق من القراءة بعد عيد الفطر ، ما كان من أثر حادثة السيد رشيد رضا ، وانعكاسها علينا .

« وقد انتظرت وتريثت حتى يهدأ الحال ، فهدأ والحمد لله ، وعاد على المثيرين الوبال ، ورمتهم الجرائد من كل صوب بجرائمهم السالفة ، وشهرتهم بها تشهيراً سار في المشرق والمغرب ، مما خزيت به نفوسهم ، واحترقت به أفئدتهم .

« واستحسنت من قارئ العشر قبل الدرس تلاوة الآيات من سورة الإسراء ، تذكيراً لحكاية حال الأنبياء مع المفسدين ، وذلك قوله تعالى[1] :

« وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ . . . » الآيات .

« وقرأ الشيخ محمد المجذوب ، المقرئ الشهير ، في آخر الدرس من قصة يوسف الآيات من قوله تعالى[2] : « وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ . . . » الآيات .

« وفقنا الله لما يحبه ويرضاه ، وغفر لنا ذنوبنا ، وأعزنا ، وتولانا ، وهدانا برحمته وفضله . »

لم يكن انعكاس هذه الحادثة مقتصراً على القاسمي وحده ، وإنما شملت آثارها ونتائجها العلامة البيطار أيضاً . فقد اعتكف في داره مدة أطول ، لم يخرج منها

---

(١) الآية « ٧٣ » .

(٢) الآيتان ٢١ و ٥٦

إلا بعد أربعة أشهر وعشرة أيام . وقد غادر داره بعد هـذا الاعتكاف إلى زيارة صفيه القاسمي ، فتجد في مذكراته اليومية [1] :

« البـارحة شرف الشيخ عبد الرزاق افندي لزيارتي ، وكان مضى له العكوف في بيته من آخر رمضان إلى هذا التاريخ .

« وقد مرض في أثنائها ، وناله من القلة ما نالنا ، واضطرنا جميعاً ، إلى ان فرج الله ، وسكنت الضوضـاء ، وظهر الحق ، وأخزى المرجفين ، وحملت عليهم الجرائد وشهرتهم وفضحتهم في مشارق الأرض ومغاربها .

« ومن لطـائف الشيخ قوله لبعض أصحابه : اليوم انتهت العدة ، أربعـة أشهر وعشر ، بدون حمل ! يعني : حقد على أحد . وقانا الله شر الأعـداء والأسواء ، بمنه وكرمه . »

وهكذا انتهت هذه الأزمة التي دبرها الرجعيون والجامدون والحشويون والمفسدون ، وأعداء الحرية .

ولعلك تلاحظ معي من خلال هذه السطور ، أنها لم تكن أزمـة هينة ولا يسيرة ، وأن احتمالات تفاقمها ، وتطاير شررها ، كانت كبيرة ، وأن الذي حال دون استفحال أمرها الشيخان العظيمان ، البيطار والقاسمي ، بما رزقهما الله من طيب السريرة وحسن السيرة ، والحرص على مصالح البلد ، ومعالجتها بمكارم الأخلاق .

كان هذا في سرهما وعلنهما ، فهما لم يبتعدا عن النـار فحسب ، وإنما لم يحملا

---

(١) ١٥ صفر ١٣٢٧ - ٧ آذار ١٩٠٩

حقداً على أحد ، لأن غرضهما الإصلاح والهدى ، وتجنب الأذى ، والوئام بين الناس ، وعدم مقابلة الشر بالشر .

أنظر إلى فرحة البيطار رحمه الله بأن « العدة انتهت بدون حمل » أي : بلا حقد على أحد !

إنه خلق كبار المصلحين الذين يحاولون أن يجدوا في الشر خيراً ، وأن يقابلوا السيئة بالحسنة ، وأن يدفعوا بالتي هي أحسن .

لم أجد بين أوراقي أي أثر للعلاقة بين القاسمي والسيد رشيد بعد هذا الحادث ، وإن كانت « المنار » مفتوحة الصدر لبحوثه ومقالاته ، كما أنها تخصص أعز صفحاتها لتقريظ كتب القاسمي التي تطبع في الشام وغيرها . وما أشك في أن المراسلة كانت بينهما قائمة إلى ان انتقل القاسمي إلى الرفيق الأعلى ، ويقيني ان هذه الرسائل قد فقدت .

ويوم نعي القاسمي إلى العالم الإسلامي ، كتب السيد رشيد فصلاً طويلاً عنه في « المنار » وفّى فيه الرجل حقه ، وقام بواجب العلم والأخوة .

وزاد في إحسانه ووفائه ، فلم يقطع مجلته عن أسرة القاسمي ، وثابر على إرسالها من غير انقطاع ، إلى ان انتقل السيد رشيد إلى الرفيق الأعلى ، إنها « مناره » الذي أضاء على العالم الإسلامي طوال خمس وثلاثين سنة .

ويطبع كتاب القاسمي « قواعد التحديث » عام ١٩٣٥ ، فيقدمه رشيد رضا إلى القراء بمقدمة مطولة . ولعلها من آخر ما كتب رحمه الله .

وبعد فهذه طبقة من الرجال ، خاضت معارك الجهاد بكل معـانيه ، ولقيت من صروف الأذى والتنكيل والتثبيط ما لقيت ، والتقت متحابة متصافية حول مثلها العليا : إعلاء لكلمة الله ولدينه ، وسعي متواصل لإصلاح المجتمع الإسلامي العربي ، وجهاد جبار في سبيل رقي المسلمين ومجدهم ، وفناء في الواجب ، وطرح للأنانية ، وغيرية نادرة المثال .

إنها طبقة نفتقدهـا اليوم ، فلا نجد من خلفهـا ، ولعلها من آيات الله على خلقه !

* * *

القاسمي والدولة العربيّة (١)

كانت الفكرة العربية في العصر الذي عاش فيه القاسمي ضعيفة أو مفقودة . وكان الناس ينظرون إلى الخلافة الإسلامية نظرة تقديس وإجلال ، سواء من الناحية الدينية ، او الناحية السياسية . وما نظر المهتمون في الشؤون العامة إلى نظام الحكم إلا على أنه نظام إسلامي ، يجمع شمل أكبر عدد ممكن من المسلمين القائمين في أنحاء الدنيا .

ومن المعروف أن الحركات السلمية التي قامت قبل عام ١٩١٦ ما كانت تهدف ، من حيث الظاهر على الأقل ، إلا إلى الإصلاح الداخلي ، في الولايات العثمانية ، التي كانت أكثريتها من المسلمين . حتى أن المؤتمر العربي الأول الذي انعقد في باريس عام ١٩١٣ لم تكن فكرة (الدولة العربية) في أبحاثه ومقرراته فكرة واضحة المعالم ، ولا ظاهرة الآثار .

وكانت غاية الدعاة والمصلحين ، في الولايات العثمانية ، هي العمل على

(١) موضع هـذا البحث عقب فصل (اضطهاده) ، وقد وقع ما أدى إلى حدوث خلل في الترتيب .

(اللامركزية) ، التي يستطاع معها تمكين المقومات القومية المنتشرة في الأنحاء المتباينة من المملكة العثمانية .

ويمكن أن يقال إن المفكرين المشتغلين في المسائل العامة في ذلك العصر ، كانوا فرقاً ثلاثة :

فأما الفرقة الأولى : فكانت تقول بوجوب استمرار وجود الدولة على أساس الدين ، او بمعنى آخر ، يجب تدعيم الخلافة العثمانية ، تدعيماً تستطيع ان تقف معه في وجه الأطماع الأوربية ، في الأقطار الإسلامية . وترى أثر هذا واضحاً في شعر شوقي وحافظ ، حتى إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى .

ولم يكن هذا شعور شاعر ، وإنما كان في الحقيقة تعبيراً عن شعور كثير من المسلمين في أنحاء الأرض .

وأما الفرقة الثانية : فكانت ترى وجوب استمرار الخلافة ، وتدعيم الرابطة الإسلامية ، على ان يكون للعنصر العربي فيها الشأن الأول ، لأن الدين ، وإن كان عاماً ، إلا أنه نزل بلغة العرب ، ودعا إليه العرب ، ولم ينشره في جميع أقطار الأرض إلا العرب ، في الصدر الأول .

ونعتقد ان من دعاة هذه الفرقة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، ومن نشأ في مدرستهما . لا بل ذهب أنصار هذه المدرسة إلى أن إضعاف العرب إضعاف للخلافة والدين ، وأن بقاء العرب في حال من الذل والاضطهاد ، بغيٌ على الدين وأهله ، كما هو ملحوظ من وراء الألفاظ ، ومن تضاعيف السطور في مجموعة

(العروة الوثقى) ، وكما هو واضح في كتاب (الإمامة أو الخلافة العظمى) لرشيد رضـا .

وأما الفرقـة الثالثة : وهي القلة القليلة ، فتلك التي نظرت إلى وجوب قيام الدولة على أساس قومي ، لا على أساس الدين .

ولا يمكن ان نتهم هذه الفرقة بإهمالها لقيمة الدين وأثره ، سواء أ كان رابطة بين الناس ، من أقوى روابط جمع الشمل ، وتوحيد القـلوب ، أم سواء أ كان مجداً سياسياً متصلاً ، نشرت أعلامه في أقطـار الأرض طوال أربعة عشر قرناً .

إلا أن هذه الفرقة نظرت إلى فـكرة الدولة نظرة قومية ، لأنها اطلعت على تاريخ الأمم الحديثة ، وعلى ما جرّ عليها مبدأ القوميات من الفوائد العميمة ، وعلى ما كان له من أثر قوي فعـال ، في دعم كيانها ، والنهوض بهـا ، وتقدمها في معارج المدنية والحضارة .

اضف إلى ذلك أن مطلع هذا القرن العشرين ، كان مسرحاً لـكثير من التيـارات الفـكرية التي نشأت وعاشت في تركية نفسها ، وكان تيار القوميـة (الطورانية) ، من أقواها وأفعلها ، لا سيا وأن كثيراً من الرجال الذين قبضوا على ناصية الحكم في تركية كانوا من الذين يدينون بمبدأ القومية الطورانية علناً ، ويصرفون شؤون الدولة على أسـاسه ، لا في الأراضي التركية ليس غير ، بل في أراضي الأقوام غير التركية أيضاً ، حيث أرادوا ، دون هوادة ولا رفق ، تتريكها ، باللين حيناً ، وبالوسائل السلمية حيناً ، كتغليب اللغة التركية ، وإبعاد العرب عن

الوظائف العامة ، ووضع اللغة العربية في موضع ثانوي ، وغير ذلك من الوسائل. وبالوسائل العنيفة تارة أخرى ، كما فعل جمال السفاح في شهداء ١٩١٥ و ١٩١٦ .

لقد شجع هذا الموقف الجديد الذي وقفه الرسميون ، وغير الرسميين ، من رجال الأتراك البارزين ، من حيث الدعوة إلى القومية الطورانية ، وترك التمسك بالرابطة الإسلامية ، شجع المفكرين والمصلحين من الرجال العرب إلى الدعوة للقومية العربية ، وإلى الأخذ بيد العرب ، ليقفوا أمام الأطماع السياسية التركية من جهة ، وأمام أطماع الاستعمار الأوربي الذي ذرّ قرنه باحتلال مصر وافريقية العربية من جهة أخرى ، وليجعلوا من العرب أمة لها كيان مستقل ، تستطيع معه ان ترعى شؤونها ، وأن تثبت وجودها .

ولقد ظهر هذا الاتجاه واضحاً في تأليف جمعية النهضة العربية (١٣٢٤ ـ ١٩٠٦) ، وكتب أمينها العام الدكتور صلاح الدين القاسمي مقالاً عنوانه (القومية في الأمم) ، كان كثير الوضوح في الدعوة إلى القومية العربية[١] .

وإذا كنت ترى اليوم هذه الفكرة على كل شفة ولسان ، من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي ، فما من شك في أن بذورها الأولى قد وضعت قبل نصف قرن على الأقل ، وإنها على الرغم مما وضع في سبيلها من عقبات وصعاب ، في الداخل والخارج ، إلا أنها ، أضحت ولله الحمد ، حقيقة واقعة ، تسر الصديق ،

---

(١) راجع كتاب : صلاح الدين القاسمي – آثاره – ص ٤١ وما بعدها – المطبعة السلفية بالقاهرة – ١٩٥٩

وترهب العدو ، وينتظر لها أهلوها وأبناؤها في المستقبل القريب إيتاء أكلها في كثير من النجاح والتوفيق .

كان طبعياً أن يكون جمال الدين القاسمي من الفرقة الثـانية ، وإن لم يتنكر للفرقة الثالثة ، ولهذا في نظري أدلة كثيرة :

١ — فلقد أشاد القاسمي في كثير من كتبه بالعرب[1] ، وفي تمجيد مزاياهم ، ووصف خصالهم وسجاياهم ، وما حباهم الله من الفضائل . كما وفاهم حقهم في قيامهم بنشر الدعوة إلى الإسلام ونشره في أقطار الأرض .

٢ — ولقد كان القاسمي معجباً أشد الإعجاب وأعمقه بالأفغاني ومحمد عبده ، وحريصاً على كل حرف يصدر عنهما ، سواء أكان في العروة الوثقى ، أم في غيرها من آثارها ، فلا يمكن أن يكون إلا من مدرستهما .

٣ — ولقد كان القاسمي رجلاً من رجال الدين ، قبل أن يكون رجلاً من رجال السياسة ، ومن مقتضى تعاليم الدين ان لا يكون لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ، « وأن أكرمكم عند الله أتقاكم » . فالقومية ، على ما لها من منزلة في تكوين الدولة وتدعيمها ، لا يمكن ان تكون عند القاسمي قبل الدين .

أما أنه لم يتنكر للفرقة الثالثة ، فالدليل عليه ان شقيقه ، الذي قام هو نفسه على تربيته وتأديبه ، الدكتور صلاح الدين القاسمي ، كان لسان دعوتها الناطق ،

---

(١) راجع كتابه محاسن التأويل ، ج ٢ – ص ٧٥ ، و ج ١٦ – ص ٥٧٩٩ ، و ص ٢٠٥ من هذا الكتاب .

وقلمها الدافق ، وأميناً عامــاً لجمعية النهضة العربية ، وما أعتقد ان صلاح الدين يمكن ان يصدر في رأي من آرائه عما يخالف جمال الدين ، لا سيما فيما ينشر على الناس ، ويقيني ان مقاله (القومية في الأمم) ، قد اطلع عليه جمــال الدين قبل نشره ، وهو من الخطورة ، في العصر الذى نشر فيــه ، بحيث لا يمكن ان ينظر إليــه على أنه رأي من الآراء ، بل على انه مذهب له معتقــدوه ودعاته وأنصاره .

أضف إلى ذلك ان رجال جمعية النهضة العربية ، ومن كان على رأيهم ومعتقدهم ، كانوا على صلة وثقى بالقاسمي في الليل والنهــار ، فلا يمكن ان ينتظم عقد مجالسهم على هذا الشكل الرتيب ، لو أنهم كانوا يرون في القاسمي خصماً لهم في الفكرة السياسية الـكبرى .

والظاهر أنه على أعقاب استئناف الحياة الدستورية عام ١٩٠٨ ، اجتمعت لدى رجال الدولة من الأتراك عناصر متعددة ، أوحت إليهم اليقين بأن القاسمي كان ممن يعمل للخلافة العربية ، او للقومية العربية كما نسميها اليوم .

فلم يقف خوف الترك من هذا الموضوع في حدود الشبهة والمراقبة ، بل تعدى ذلك إلى إقامة الدعوى الجزائية عليــه ، أمام قاضي التحقيق بدمشق ، على نحو ما مرّ بك في بحث (اضطهاده [1]) ، بتهمة (طلب حكومة عربية) على حــد تعبيره في مذكراته .

---

(١) ص ٢٠٢ وما بعدها من هذا الكتاب .

لقد أشار القـاسمي إلى ان الذين دعوا إلى التحقيق هم : الشيخ عبد الرزاق البيطار ، وعبد الرحمن اليوسف ، وجمال الدين القاسمي ، وأفراد جمعية النهضة .

وحققت في هذا الموضوع الخطير بمختلف الوسائل والسبل ، فلم أصل إلى ما ينير الطريق : سألت سبط العلامة الشيخ عبد الرزاق البيطار ، الشيخ محمد بهجة البيطار ، عما يعرف عن هذا الموضوع ، وعما إذا كان جده قد ترك اي أثر له ، فأجابني بالسلب .

وسألت أولاد عبد الرحمن اليوسف ، فلم أستطع ان أظفر بطائل .

وطفت على الأحياء من رجال جمعية النهضة العربية ، المرحوم جميل مردم ، لطفي الحفار ، رضا مردم ، فما أغناني البحث شيئاً .

وسبق أن أطلعني الأستاذ محب الدين الخطيب شتاء عام ١٩٥٨ في القاهرة على اضبارة لديه عن (جمعية النهضة العربية) ، وقد كان اول رئيس لهـا . فـكتبت إليه أسأله عن هذا الموضوع ، وعما إذا كان يدري عنه شيئاً ، فأخبرني اول الأمر أنه كان غائباً عن دمشق في ذلك الظرف ، ثم كتب لي في ١٦ جمادى الاولى ١٣٧٩ ـ ١٩٥٩/١١/١٧ يقول :

كنتم سألتموني عن حادثة استجواب المرحوم الوالد في ايلول سنة ١٩٠٩ بشأن جمعية النهضة . وقد عثرت في أوراقي ، التي لم تنظم بعد ، على رسائل قد تفيد في تنوير هذه الحادثة .

من ذلك رسالة من رشدي الحكيم غير مؤرخة ، ولـكن فيها عبارة تشعر بأنها

كتبت في رمضان (أي رمضان سنة ١٣٢٧ الموافق النصف الأخير من ايلول والنصف الأول من تشرين الأول سنة ١٩٠٩) يقول فيها :

« أظن أنه بلغك الدعوى المقامة على الجمعية بأنها تسعى لخلافة عربية ، فلا تُرَعْ يا أخي لهـذا النبأ فإنه لا أهميـة له ، والجمعية لا تزال تواصل أعمالهـا ، وتجتمع في جلساتها ، وتتذاكر بشؤونها ، وهي لم تحفل قط بهذه العقاب التي يضعها أعداؤها أمامها لتعثر في طريقها . »

وقال :

« مسألة محمد افندي كردعلي لم تحل بعد ، لأن الأعضـاء الأتراك الذين في جمعية الاتحاد والترقي يسيئون الظن كثيراً ، ويودون محونا من الوجود ، لأننا نسعى في إنعاش لغتنا ، وإحياء بني قومنا . »

وقال :

« استنطق الشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ جمال الدين القاسمي وعبد الرحمن بك اليوسف منذ بضعة أيام . وأول أمس استنطق مسلم افندي عابدين . وأما الجمعية فلم يدع أحد من أعضائها إلى الآن . »

* * *

ومنه رسالة أخرى تاريخها ١٧ شوال ١٣٢٧ قال فيها :

« إن الهيئة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي رغبت إلينا بالواسطة أن ننضم إليها ، ونندرج في لف أعضائها .

« وقد أكبرنا هذا الأمر بادئ بدء ، وعزمنا على رفض هذه الدعوة ، لو لم يتغلب أخيراً عقلنا على عواطفنا ، وينصح لنا رجال كثيرون من أصدقاء الجمعية على الإسراع بإجابة الطلب .

« ربما تلومنا أيها الأخ على هذا التسرع ، وترمينا بالضعف والجبن . ولكنك متى وقفت على مركز الجمعية اليوم الحرج ، بين أعدائها الكثيرين ، يسهل عليك الأمر ، وترى أن لا مندوحة لنا عن ذلك . خصوصاً وأن مسألة محمد افندي كرد علي ، ومسألة الدعوى على الجمعية ، متوقف حلهما على ذلك .

« وأقرب شاهد على ما أقول الأمير عارف الشهابي ، فإنه هو أول من رضي بالانتظام في سلك الجمعية ، وقال لنا : إنني لو بقيت في فَرُوق ، وبلغني دخولكم في الجمعية ، لسجلت عليكم اللعنة الغموس . أما وقد عرفت مركزكم اليوم بنفسي ، فلا أرى لنا مندوحة دون ذلك .

« لا تظن يا أخي أن المدعي علينا عطار حسن وحده ، بل إن هناك أيدي كثيرة ، وعصابة مؤلفة من بعض كبراء الحاضرة وتجارها تعمل عملها من وراء حجاب ، وهم مستعدون ، على ما تحققنا ، على تقديم شهود زور ، إذا تم الاستنطاق ، ولم يروا منا ما يريب .

« وقد أوفدنا وفداً من قبلنا إلى الجمعية : الأمير عارف وصلاح الدين القاسمي ، فقابلا محرم بك ، وتذاكرا معه طويلاً في هذا الأمر ، فأبدى نحونا كل انعطاف .

« ومما قاله : إن جمعيتكم ما دامت غايتها السلم المحض ، فلا أرى ما يمنعكم من الدخول ، وأنكم تقدرون ان تعملوا وأنتم من الجمعية أكثر ممـا لو كنتم وحدكم . وإنها تمد إليكم يد المساعدة متى أمكنها ذلك .

« وإن الجمعية في دمشق لم يتسرّب إليها شك مطلقاً بأنكم من الأحرار الحقيقيين . وأن الوطن إنما يعقد آماله على أمثالكم . ولكن ما العمل وأن الأعداء الكثيرين ، الذين يوالون الرسائل البرقية بشأنكم إلى المراجع العليا ، قائلين : إن هذه الجمعية ، هي الجمعية التي أسسها عزت العابد ، وهي التي نشر رشيد مطران باسمها جريدته نهضة العرب في باريس ، حتى أقاموا العاصمة وسلانيك وأقعدوها ، وحتى ان الجمعية في سلانيك داخلها الريب من التي هنا ، وإننا لم نجد حلاً لهذه المسـألة إلا دخولكم في الجمعية ، وإعلان ذلك في الجرائد ، فيسر الصديق ويكبت العدو .

« فذكرا له ان مبادئنا لا تمنعنا من الدخول في جمعيتكم ، بل هي موافقة لها كل الموافقة . ولكن الجمعية (أي الاتحاد والترقي) تتساهل كثيراً في إدخال الأعضاء ، حتى ان كثيراً من أعضائها كانوا ولم يزالوا من الذين دخلوا في الجمعية ليتخذوها ستاراً يعملون وراءه ما أرادوا .

« فأجاب محرم بك بأن الجمعية انتبهت لذلك ، وفي نيتهـا تصفية أعضائها وغربلتهم ، وهـا قد بدأت بمدير المعارف حسين عوني فطردته من سلكها مذموماً مدحوراً .

« ثم أشار من طرف خفي بأن مسألة محمد افندي ، ومسألة الجمعية ، ستحل قريباً ، متى دخلتم وتيسر إقناع رجال الأمر في العاصمة بأن لا شيء في دمشق مما يرجف به المرجفون .

« وبعد ان تذاكرنا طويلاً ، قر رأينا ، وكتبنا إلى الجمعية بإجابة طلبها ، ونحن ننتظر منها تعيين اليوم الذي تحلف به اليمين . »

★ ★ ★

ورسالة من الأمير عارف الشهابي تاريخها ١ ذي القعدة ١٣٢٧ :

« قرأت كتابك للأخ رشدي . أراك أيها الاخ المتين قد أدركت ان العمل في بلاد لم تتفتح بعد أزاهير الحرية في رياضها ، ولم تجر المشروطية في عروق أفرادها ، يذهب سدى . . .

« أقول لك كلمة ناشئة عن تيقن واختبار : إن روح المشروطية الحقة بدأت تنبت في نفوس السوريين كما تحب وأحب ، وازداد عدد العارفين حقوقهم وواجباتهم . وهذه سنة طبيعية لا بد لها من إظهار أثرها ، إن لم يكن اليوم فغداً .

« أما دمشق فلا تزال مستسلمة لعاملَيْ الجمود والخمول ، على أنها كما قيل فيها : وأهلها كنجوم بينها درر . ولا تزال تلكم الدرر تزداد ، ولكن ببطء ، إذ لا بد من التفتيش عليها بالسراج والفتيلة .

« إخال ان الأخ رشدي أنبأك بما حدث ، فلا تيأس أيها الأخ من هـذا الأمر . واعلم ان لكل شيء سبباً . فلو أدركنا ان المنشأ الأصلي نفوسنا الضعيفة ، لحمدنا مغبة هذا الطارئ ، الذي ربما حرك خاملنا ، وبعث ميتنا ، وأفهمنا كيف نعمل ، وعلى اية خطة من الخطط يجب ان نسير في المستقبل . على ان المسألة لم تتم بعد والحالة على ما كانت عليه في ذي قبل .

« والظاهر ان القوم أدركوا خطر عملهم فأخلدوا إلى السكون . ولو كان فينا نحن عرق ينبض ، لرضينـا بالموت على الانخراط بأولئك ، والانحـلال والتفرق . . .

« ليكن ما يكون فأنا الآن أكرر عليك كلمة طالما رددتها في كتبي السابقة : يجب ان نبني أعمالنا على أسس متينة ، وإلا فحسبنا البناء ، وحسب الطبيعة التخريب . »

انتهت رسالة الشهيد عارف الشهابي .

أخي ! لعل في هـــذه الفقرات ما يفسر الجملة التي دونهـا المرحوم الوالد في مذكراته .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محب الدين الخطيب

هذا كل ما استطعت العثور عليه في صدد التحقيق عن هذه الحادثة الهامة . وهي إن دلت على شيء ، فإنما تدل على ان فكرة الدولة العربية ، إن لم يكن السعي لها ، قد قامت في أذهان شهداء القافلة الأولى ورفاقهم . أجزل الله ثوابهم ، وكافأهم عداد حسناتهم .



مراسلات



مراسلاته

المراسلة نصف المشاهدة . هكذا قال الأقدمون عن النوع الذي عرف في أدبنا العربي باسم « الإخوانيات » . والعالم إنسان ، له أصدقاء وإخوان ، فإذا ما غاب عنهم ، او غابوا عنه ، قام « القلم ، مقام القدم ، وناب النِّقس ، مناب النفس » ، كما قال شكيب أرسلان في إحدى رسائله للقاسمي .

وقد عني مؤرخو الآداب لدى جميع الأمم بهـذا النوع من الآثار الأدبية ، فحرصوا على جمع رسائل الأدباء ، وتصحيحها ، ونشرها ، ودراسة ما فيها ، والتعليق على مضامينها ، واستنباط ما فيها من صور مختلفة عن الأفراد ، وعن العلاقات فيما بينهم ، وعن شؤون السياسة والثقافة والاجتماع وغير ذلك .

أما المراسلة بين العلماء ، فقد تكون من باب « الاخوانيات » ، وقـد تضم إلى ذلك بعض الدراسات ، وتبادل الآراء والأفكار ، ومناقشة مواضيع يشارك فيها المتكاتبون . فهي بهذا المعنى شطر هام من آثار الحياة العقلية ، يحرص عليه العلماء ، كما يهتم به المؤرخون . فإذا ما أضيف إلى ذلك ان المراسلة قد تحلت بالأسلوب الأدبي ، كانت موضع اهتمام العلماء والأدباء على السواء .

ولقد كان للقاسمي إخوان وأصدقاء ومعارف في جميع العالم الإسلامي ، وفي قسم من العالم الأوروبي ، كتب لهم ، وكتبوا له . ويوم طار صيته بين العلماء ، أخذ الناس يكتبون إليه على غير معرفة شخصية ، يستفتونه في بعض المسائل ، ويسألونه حلولاً لبعض المشاكل ، فيجيب السائل ، ويحاول حل المشكل .

عني القاسمي بجمع الرسـائل الواردة إليه في دفتر خاص ، صنعه خصيصاً لهذا الغرض . هذا الدفتر قد ضم أوراقاً سمراء ، أُعدت لتلصق عليها هـذه الرسائل ، خشية ضياعها ، أو تمزُّقها .

وهذا الأسلوب الذي ابتكره القاسمي ، على غير معرفة سابقة بالأسلوب الذي تعمد فيه المؤسسات المختصة في هذه الأيام إلى حفظ الرسائل والوثائق (الأرشيف) ، يدلك على مبلغ ما رزق القاسمي من مواهب عجيبة ، سبق فيها زمانه ، فما كان هذا الأمر في ذلك العصر ـ على بداهته في هذه الأيام ـ إلا أمراً يدعو إلى كثير من العجب ، إن لم أقل إنه يدعو إلى كثير من الإعجاب .

وإذا كان القاسمي قد حفظ الرسائل الواردة إليه ، أو جلها ، فإنه لم يحفظ إلا القلة القليلة من صور الرسائل الصادرة عنه ، فلم يكن وقتـه يتسع لنسخ ما يكتب ثانية ، وإنما كان يكتب على المبيضة مباشرة ، ويبعث بالرسالة إلى صاحبهـا ، ولم يكن يدري أنه قد أضاع بذلك علينا فوائد كثيرة ، لعله لم يسجلها في أي أثر آخر من آثاره .

ومن عجائب الاتفاق أنني لقيت منذ أعوام ، الرجل النبيل ، والسلفي الجليل ،

السيد محمد نصيف ، في مدينة دمشق ، ولم أكن أتصور أنه قد حفظ رسائل القاسمي إليه كلها ، فإذا هو يخبرني بأنها موجودة لديه ، فرجوته أن يبعث بها إليّ لأطلع عليها ، ولأصورها وأُعيدها إليه ، فتفضل وأنجز وعده ، ووجدت في هذه المجموعة التي بلغت ثلاثاً وعشرين رسالة فوائد كثيرة ، سنعرض لدراستها وتحليلها ونشرها في موضعها .

كانت للقاسمي مراسلات مع أُسرته ، ولا سيما مع أبيه وإخوته ، وقد اخترنا منها بعض النماذج التي قدرنا أن فيها فائدة من الفوائد العامة .

* * *

والمراسلات التي سنقدمها في الصفحات التالية ، تصور :

أولاً — الأسلوب الذي كان شائعاً في ذلك العصر ، وهو كما سترى أسلوب محافظ ، غلب عليه السجع ، والتزم فيه أصحابه المحسنات البديعية .

ولا عجب ، فلقد كان هذا الأسلوب المثل الأعلى الذي يصبو إليه الكتاب ، ولا يجدون خيراً منه في أساليب الخطاب .

ومن البديهي أن يكون السجع في بعض الرسائل ، وعلى بعض الأقلام مطبوعاً ، وأن يكون في بعضها الآخر ، متكلفاً .

ثانياً — وتصور هذه الرسائل ما بين الاخوان ، من صفاء في الود ، وتقارب في المزاج ، واتحاد في الآراء والأفكار .

ثالثاً — وترى في هذه الرسائل بعض المداعبات التي ألف الأصدقاء تبادلها في رسائلهم ، ولـكنها تميزت بالسمو ، وترفعت عن الإسفاف ، وجاءت بالـكثير من الحلو المستساغ .

رابعاً — ومن أخطر ما في هذه المراسلات وصف الحالة السياسية التي كانت سائدة في تلك الحقبة ، بأسلوب لا ترى له شبيهاً إلا على أقلام الأذكياء النوابغ من الـكتاب .

فإذا ما أراد الشنقيطي أن يخبر القاسمي بأن كردعلي قد هبط مصر ، فاراً من وجه الأتراك ، قال : « أما صاحب اسم مفعول اقتبس فقد قدم إلى مصر سالماً » ، فلم يذكر اسمه ، ولم يذكر اسم مجلته « المقتبس » ، وإنما عمد إلى الإشـارة ، خوف رقابة البريد ، بهذا الأسلوب الرائع .

خامساً — ومن أهم ما في هذه المراسلات معالجة كثير من القضايا التي كان العالم الإسلامي يتخبط فيها ، خلال ذلك العصر ، كما تلاحظ ذلك بشكل واضح في رسائل محمد عبده ، والشيخ طاهر الجزائري ، ورشيد رضا ، وغيرهم .

ولعل أوضح مثل على ذلك قول الأستاذ الإمام : « كأني أُحاول فتح قلعة ، او محو بدعة . . . »

وفي الرسائل فوائد أخرى عديدة ، تراها في مواضعها ، فلم تخل رسالة من رأي او فـكرة ، او دعوة إلى خير عام ، او غير ذلك .

أما الرســائل الصادرة عنه ، فإني وإن كنت أرى أن تلخيصها لا يغني عن

دراسة كل ما جاء فيها ، إلا أنني اجتزىء بالإشارة الموجزة لبعض ما ورد فيها :

فلقد صورت هذه الرسائل أروع تصوير غيرة القاسمي على نشر آثار السلف ، ولا سيما ما ترك شيخ الإسلام ابن تيمية ، وكان أكثره في ذلك الزمان مخطوطاً ، دفيناً في دار الكتب الظاهرية .

وترى حماسة القاسمي في هذه الرسائل على شكل منقطع النظير لشيخ الإسلام وكتبه ، فيراها « بيت القصيد ، ونهاية الأمل » .

وقد حفلت هذه المجموعة الفريدة كلها بتمجيد آثار شيخ الإسلام ، وبيان بعض خصائصها ومضامينها ، وما أسدت من خدمة جلى للشريعة الإسلامية ، وللعقيدة الصحيحة ، حتى ليرى ان « كل من لم يطالعها لم يشم رائحة العلم الصحيح . »

وتجد في هذه الرسائل حضاً على التزود بجميع العلوم ، ولا يجد خيراً من شيخ الإسلام للتدليل على رأيه فيقول : « لولا تضلع ابن تيمية في المنطق والفلسفة لما كان له ان يناقش فيها ، ولما تمكن من التنبيه على ما ناقش . . . »

وإذا كان القاسمي قد اندفع لإحياء ما أُهمل من كتب ابن تيمة ، فذلك لأنه كان يرى « أن كتاباً يطبع خير من ألف داعية وخطيب ، لأن الكتاب يقرؤه الموافق والمخالف . . . »

ويطلع القاسمي على فتوى نشرت في المنار عن مصارف الزكاة ، وأن الإنفاق على إنشاء المدارس لا يعدُّ منها ، فيخالف صديقه رشيد رضا ، ويكتب إليه رداً ، ولا يكتفي بذلك ، بل يكتب في هذا الموضوع الخطير إلى صديقه محمد نصيف ، داعماً رأيه بالبراهين والأدلة المقنعة .

وتراه في هـذه الرسائل يحترم « إبداء المرء فكره ، ما دامت النية سليمة ، والقصد توخي الحق . . . »

ومن الأمور الهامة التي وردت في هذه الرسائل إشارته إلى أنه ألف كتاباً في « المسح على الجوربين » ، وكان مخطوطاً ، فذاع أمره ، وطلبت منه نسخة لأحد علماء الحجاز ، فأرسلها إليه . ثم بدا له ان يعدّل الكتاب ، فعدله ، وإذا هو يكتب إلى محمد نصنيف طالباً استلام النسخة وإحراقها ، ويقول : « لا أجوّز نسبته إليّ ألبتة . . . »

وفي الرسائل فوائد أُخرى عديدة ، ليس في المقدور تعدادها ، وإنما يراها القارىء في مواضعها .

وسنبدأ هذه الرسائل ، بما ورد إليه من صفيه « الأستاذ الأكبر » الشيخ عبد الرزاق البيطار :

الرسائل الواردة



الرسائل الواردة

من الشيخ عبد الرزاق البيطار

كان البيطار يرى في القاسمي ولداً له ، لأن الفارق في السن بينهما كان واحداً وثلاثين عاماً ، فقد ولد البيطار عام ١٢٥٢ ﻫ وولد القاسمي عام ١٢٨٣ ﻫ . ولهذا كان يخاطبه بقوله « ولدي » . وتقديراً لما كان يتمتع به القاسمي من مزايا ، ولأن هذه البنوة روحية ، فقد أضاف البيطار إلى هـذا النداء « ولدي » قوله رحمه الله : « المعظم » .

وقد اخترت من رسائل البيطـار اثنتين ، ستري فيهما نزعة هي أقرب إلى الصوفية منها إلى المراسلة بين الإخوان . وأرجو أن لا تعجب من هـذا السجع الذي التزمه البيطار من بداية الرسالتين إلى نهايتيهما ، فإنه أسلوب ذلك الزمان ، ولو قارنته بما كان من آثار أقرانه ومعاصريه ، لرأيته في أعلى طبقات البلاغة .

على أن البيطار قد تعمد ، فيما أرى ، قوله في الرسالة الثانية ، خطابه للقاسمي بقوله : « لسان ترجمة اعتقادي » . فما أشك في أن هذا القول قد أرسله البيطار وهو يريد منه جميع معانيه .

ذلك بأن الحلقة التي كان القاسمي أحد أفرادها ، والبيطار « أستاذها الأكبر » ، والجزائري « مرقيها الوحيد » ، كانت ترى أن القاسمي قد فهم الشريعة فهماً كاملاً صحيحاً .

ولقد تحدث المعاصرون بأن الجزائري كان يقول : « لقد فهم الشيخ جمال الشريعة كما فهمها الصحابة والتابعون » .

فنداء البيطار للقاسمي بقوله : « لسان ترجمة اعتقادي » ، إنما كان يعبر فيه عن رأيٍ قال به كل من عرف القاسمي من علماء ذلك الزمان .

(١)

لولدي المعظم ، وعزيزي المكرم ، السيد محمد جمال الدين افندي أدام الله سروره آمين .

أيها الحب الجمالي ، والحب المستوي على عرش المعالي ، والملحوظ بعين خيالي ، والمحفوظ من طوارق الأيام والليالي : إن هذا المشتاق ، منذ يوم الفراق ، يشكو الضنى ، ولا يشكر العناق ، الذي يدل على الافتراق ، الموجب للعنا ، وينادي كلما غدا او راح ، أو لاح صباح او راح ، ودمعه مسفوح مسكوب ، ولبه مفقود مسلوب :

أخلّاي ! من لمشوق قد شق الدمع في خديه أُخدوداً ، وشفوق قد منع النوى عينيه رقوداً ، ومعنّى لم يرد على مسمعه ذكركم إلا وعنّ ، ولم يَفِدْ عليه وافد

بخبركم إلا وحنّ وأنّ ، يستنجد الصبر وهل ينجد الصبر صبّا ، ويسترفد الدمع فلا يزيده إلا صبا ، فتباً لفراق حال بين الرفاق ، وحرٍ بالعناق قد اعتنقه بعاد وافتراق ، فأقسم لو علم الأحبة ما لدى هذا الملهوف من النحيب ، او دروا ما عند هذا المشغوف من الوله والوجيب ، ابكوا عليه رحمته وحنانه ، وشكوا أشجانه وغربته وأحزانه .

بيد أنه الآن ليس له ما يجبر فؤاده ، ويخبر عنه من يحفظ وداده ، سوى تحيات لائقة بجناب المحيا ، تفعل بالألباب لدى تلاوتها فعل الحميّا .

هذا وإني أسأل الله ، وهو المسؤول وحده لا سواه ، أن يتحف كلاً منا بمناه ، وأن يسعفه بما يحبه ويهواه ، وأن يجعل لنا جداً واجتهاداً في السير إليه ، واعتماداً في السرّ والجهر عليه ، وان يجمعنا على بساط التقوى ، في رياض إخلاص السر والنجوى ، وأن يسهل لنا سلوك مناهج التداني ، لنفوز بنشر أعلام مواكب التهاني .

ومني السلام الأوفى الأوفر ، وبث الشوق الأزهى الأزهر ، لحضرة الوالد المحفوظ ، لا زال مكسواً جلباب الحظوظ ، وعلى حضرة مصطفى افندي[1] ، وخدنه المحترم ياسين افندي[2] . وإن مولاي غرة جبهة الدهر ، وطلعة كوكب المعارف واللطائف والبشر ، الأمير محيي الدين باشا[3] يهديكم السلام ، وشقيقكم

---

(١) الحلاق .

(٢) لم نعرف من هو .

(٣) الجزائري .

محمد عيد افندي الأديب الهمام ، وولدي محمد سعدي ودمتم .

٢٦ ذي الحجة سنة ١٣١٤

الفقير : عبد الرزاق

ومني السلام على الشيخ علي حنينه وعلى أحبابنا أهل الجامع عندكم .

(٢)

يا مقيماً مدى الزمان بقلبي وبعيداً بشخصه عن عياني
أنت روحي إن كنت لست أراها فهي أدنى إليّ من كل داني

مطلع بدور سعودي ، ومجمع ينابيع حبوري وعهودي ، ومحيّا محاسن مطالبي وآمالي ، وحُميّا كؤوس رغائبي وجمالي ، من قُصرت عين بصيرتي على النظر إليه ، وأبصرت أن فؤادي نزيلٌ عنده ولديه ، فلا ريب أني أعددته لنفسي أنيساً ، ولهامة سروري دراً نفيساً ، وفوضت إليه كنز أسراري ، واعتمدته محط رحال أوطاري ، ومحاسن أوقاتي وأيامي ، ومشهد أنسي وكعبة مرامي ، وكيف لا وهو إنسان اعتمادي ، ولسان ترجمة اعتقادي ، وولدي ومرادي ، وثمرة فؤادي : محمد جمال افندي السعيد ، لا زال بعون الله من الفضائل بمزيد ، ولا برح يصعد درج الكمال ، ويظهر لذوي النفائس بكل جمال . آمين .

أما بعد ، أيها الخليل الذي لا يعتري وداده خلل ، والحبيب الذي لا يشوب

حبه ملل ، إن شوقي الشديد قد هدم أركاني ، وتوقي المديد قد هدّ عامر جناني ، وجذبتني عن المنى ، سواعد العنا ، وجبذتني جواذب الضنى ، حتى أبقتني بلا أما ، وإن التسويف يعللني بالأماني ، ويمدني كلما يجدني بالقرب والتداني ، إلى ان ملني صبري وملته ، وجفاني قراري وجفوته ، وصيرت الوجد مَعْنيً بلا ذات ، ورسماً لا ذِكر له إلا في عالم الصفات ، ولم ينفعه حينئذ لدفع هذا المرض ، سوى حصوله على أهم الغرض ، وهو شهـود العين بالعين ، وشرود البين من البين ، وإماتة الحسود باجتماع الشمل ، ونسخ آية الفصل بآية الوصل ، فحينئذ يطيب لنا الوقت لحصول المنى ، ويدير عليها زمان الأنس كؤوس الهنا ، ونجتمع على موائد التهاني ، ولدينا من المسرات ما يغني عن سماع المثالث والمثاني ، ونحن من الأحباب عِدّة ، وبيننا شمس سمائنا من انتهت إليه رئاسة المودة ، الهمام الأكرم السيد أحمد بن السيد محيي الدين ، حفظه الله تعالى من كل مايكدر أو يشين ، وحضرة الشهم الأجل الوالد ، حفظه الله باللطف الزائد .

ثم أبدي بأنه قد وصلني مع أخي كتابكم المشتمل على ما أحب ، الواصل إليّ ممن أهوى وأُحب ، الذي اشتمل على خطابكم وخطاب الوالد ، وخطـاب حضرة السيد الشهم ذي المقام الزائد ، ففرحت به غاية الفرح ، وأزلت به كل هم وترح ، وتحليت منه بأنواع السرور ، ولبست له ثوب البشر والحبور ، حيث أخبرني بما أهوى ، وتلا عليّ حديث سروركم فكان مصحف تلاوتي في السر والنجوى ، فأرجو القيام عني لهما بواجب السلام ، مع الإخبار بما لديّ من الأشواق ، وتكون عبارتكم لهما بما فاق ولاق .

وأرجو إهداء سلامي لحضرة مصطفى افندي وأهل الجامع والمحبين ، والأصحاب والأقارب والسائلين ، وعلى علي افندي حنينه ، ومن لدينا معرفة .

وإن دولة الباشا حفظه الله تعالى يهديكم ، وحضرة السيد الوالد أزكى تحية . كذلك أخي سليم افندي ، ولم يزل يشكر جميل ودادكم . وكذلك الأخ محمد عيد افندي . وإننا لا نفارقه ولا يفارقنا ، نسأله تعالى أن يمن بالمنى والمرام ، وأن يختم جميع أعمالنا بحسن الختام .

٣ جماد أول ١٣١٥

عبد الرزاق

حاشية : انني أبدي اعتذاري عن هذا الورق الذي ليس بزين ، وهو انني قصدت به دفع العين ، فحينئذ لا لوم ولا اعتراض ، وكل منا بحمد الله بصاحبه فرح وراض .

* * *

من الأستاذ الإمام محمد عبده

لم أعثر بين أوراق القاسمي إلا على رسالة فريدة من الأستـاذ الإمام . ولقد دلت هذه الجوهرة على ما بين الرجلين من إخاء ، وعلى ما شدّ بينهما من أهداف .

ولعل أحلى ما في هذه الرسالة تشبيه الأستاذ الإمام لمحو البدعة بفتح القلعة .

أما افتتاح الرسالة بهذا الاعتذار البليغ عن التأخر في الجواب ، بقوله : « كأن القدر يريد أن يكون ما بيني وبينك سراً مكتومـاً ، ومضمراً يأبى أن يكون مرقوماً » ، فإنه من أروع ما عرفت فكرة وأسلوباً . وهل أروع من السر عند من يدرك سحر السر[1] ؟

(١) نشرت هذه الرسالة في المجلد الثاني ص ٥٤٩ من كتـاب : تاريخ الاستـاذ الامام السيد محمد رشيد رضا المطبوع علم ١٣٢٤

(٣)

حضرة الأستاذ الفاضل :

كأن القدر يريد أن يكون ما بيني وبينك سراً مكتوماً ، ومضمراً يأبى أن يكون مرقوماً . فقد حاولت مئين من المرات أن أكتب إليك ، وكانت تأتي العوائق تحول دون ذلك ، كأنني كنت أحاول فتح قلعة ، أو محو بدعة .

وها أنا اليوم (الجمعة) عقدت العزم على أن لا أقوم من مجلسي هـذا حتى أكتب إليك ، أشكر لك صنيعك على ما تدخله عليّ من السرور بإيفاد كتبك عليّ ، بما تكتب إليّ من وقت إلى آخر .

وأعتذر إليك في الابطاء عن الجواب ، بما تعلم من كثرة الشواغل .

وأرجوك أن لا تحرمني من ذلك الفضل الذي بدأت به ، وأن لا تجعل لفضلك في ذلك نهاية . والسلام .

٢٧ صفر ١٣٢٢

محمد عبده

من شكيب أرسلان

رسائل الأمير شكيب أرسلان آية من آيات البلاغة ، ونمط رفيع من الأدب الذي ندر في هذا الزمان . وهي على تنوع مواضيعها ترى فيها أسلوب الأمير وروحه . وسواء أكانت الرسالة للجد الخالص ، أم كانت مزيجاً من الجد والدعابة ، فإنك واجد فيها متعة وفائدة .

وسترى في الرسائل التي ظفرت بها لوناً من ألوان الأدب ، لم يعرف إلا عن أمثال الصابي والخوارزمي . ولقد كان الأمير مولعاً بالصابي ، وهو الذي أحيي رسائله ونشرها .

وما أشك في أن السجع الذي التزمه الأمير في هذه الرسائل إلا أنه أثر من آثار الصابىء عليه .

كتب شكيب في « الإخوانيات » ، وكتب جواباً على تعزية ، وكتب يحمد الله على أن تحلل من قيود الوظائف الحكومية ، وكتب يداعب الصديق العزيز ، فإذا هو في هذه الميادين كلها مجلٍّ أسلوباً ، ومجلٍّ فكرةً ، قد تحلى بالروح السامي ، وزُين بالأدب الرفيع ، وتواضع من حيث رفعه الله .

وقد أثبتنا في الصفحة ٣٩٦ من هذا الكتاب أولى رسائل الأمير للقاسمي .

(٤)

مولاي الأستاذ ، أيده الله

إنه بحول الله ولطفه ، ويمن توجهـات فضيلتكم ، قد تيسَّر وصولنـا إلى (الصلت) منذ ثمانية أيام ، ونحن على أتم ما نشتهي من السلامة ، ونستطيب من الإقامة . ولم نشكُ من شيء على طول الطريق إلا شدة البرد ، خصوصاً في المسافة الواقعة بين الشام والزرقاء ، فقد وجدنا بردها أقرس من برد البلقاء ، على ما لهذه من الشهرة في البرد مما يدل على كون برد الصحارى أشد في الشتاء من برد الجبال ، وإن كان حرها في الصيف يفوق الاحتمال ، وأن الجبـال هي في الفصلين أقرب إلى الاعتدال .

وعند وصولنا إلى الصلت علمنا أن الأمطـار لم تزل تهطل من قبل العيد ، ولم ينقطع لها حبلٌ ولا كحبل الوريد ، وما برحت في تهتـان وتسكاب ، حتى انقطعت الطرق وانحبست الركاب .

ومنذ يومين تعاظم النوء ونزل الثلج ، وكان نزوله ركاماً ، حتى حسبتَه آكاماً ، فسدَّ الطرق وملأ الفجاج ، وعقبه ثاني يوم مطر ثجَّاج ، فأخذ بإذابة الثلج ، وانكسرت عصاه فأصبح عبارة عن الثَّج ، وقرَّت الناس في زوايا البيوت ساكنين إلى النار ، وأحبوا في هذه الدنيا تلك التي هي في الآخرة بئس القرار .

وعاق المطر بروز الناس وتزاورهم أو حال ، لكثرة ما في الشوارع من زاعب السيل ومتراكم الأوحال ، إلا من اقتعد الصهوات واستوى على الرحال .

وأصبح نهار الأربعاء ـ اليوم ـ وقد تحقق سقوط بعض المنازل ، وحصول بعض نوازل ، أشبه بآثار الزلازل ، وتلف بعض النفوس من العاملين في المزارع ، وذلك من شدة البرد الواقع ، ووطأة النوء الصاعق الصاقع ، وأن سيولاً جرت بها الأقدار فأجرت المدامع ، بما جرّت ، وأن سقوفاً كانت تسبّح بمزامير قَصَبها فأدركتها في الآخر رقَّة قلب فخرَّت .

والحمد لله على كل حال ، والثناء لمالك الملك المتصرف كيف يشاء بالأموال والآجال ، وما أرسل هذه الأمطار إلا رحمة ولا بعث إلا لِطاف الألطاف ضمن هاتيك السحاب الثِّقال ، فنسأله تعالى أن يتمّم بالخير إنه تعالى ولي الآلاء ورب الإنعام والإفضال .

أما نحن ، ففي هـذه النوءِ بين نار تُصلى ، وشاي يُغلى ، وقهوةٍ تُطْبَخ ، وشِواءٍ يُنْفَخ ، وحساءٍ يُعمل ، وأرز يفلفل ، وكشكٍ يُجاد ، وخِوانٍ يُماد . والخِراف هنا الآن في إبّانها قد هشَّ عليها رعاة القِطَع لا القِطعان ، بعصيٍّ القلع والبلع لا عصيّ الرحمة والحنان ، وتداعت إليها ذُؤبان الرجال تداعيَ الذئاب إلى القطيع ، واستقصتهـا بالقضم والخضم خضمةَ الإبل نَبْتَةَ الربيع ، فنحن في شغل عن صحف الآداب بصحاف المآدب ، قد ركبنـا من هذا السرج ما أنسانا ابن قتيبةَ في أدب الكاتب .

وتأخرنا عن إعلام سيادتكم وصولنا ، إذ لم تسمح لنا هذه الحالة بكتابة سطر ، ولا بصياغة شطر ، بل كان شغلنا قراءة حواشي ذلك الشيخ ...... [1] على القَطْر ... القَطْر نفعنا الله بعلومه لا ببلعومه ، وأفادنا بمعارفه لا بمغارفه .

هذا وفي النية البقاء هنا إلى أن تنقطع الأمطار وتجفّ المسالك فنتوجه جهة الغرب ونهبط الغور ، ونمعن في هاتيك الأماكن والدور ، ونجدّ بمطايانا السريعة ، ونجتهد بتبطُّن أودية الشريعة ، اجتهاداً نأمن معه إن شاء الله اعتراض الجاهل ، ودلالة الجاهل ، ونعبر من هناك الأردن إلى أرض الميعاد ، ونجيز إلى بلاد نابلس مجازاً هو عين الحقيقة في طيّ المساوف وقطع الأبعاد . ولا بد أن نلمّ بيافا في هـذه الجولة ، ونتشرف بزيارة المسجـد الأقصى الذي بارك الله ما حوله . وربمـا نزور بيت لحم وخليل الرحمن ، ونعود من هناك إلى جهات الصلت وعمَّان . وإن سمح لنا الوقت فزيارة « حسبان » في الحسبان .

ووالله ما زلنا إلى وادي الوالِهِ والهين ، وما زالت أقصى مرامينا وادي موسى التي كانوا ينحتون فيها من الجبال بيوتاً فارهين . وأن نطَّلع على الشوبك والطَّفيلة ، ونتفرج على قلعة الكرك العريضة الطويـلة ، ونحسو من ماء الحسى ونَرِدُ مَعين معان ، ونركب من القطراني قُطُر نجائب لا تُهنأ بالقطران ، حتى نعود إلى الفيحاء من طريق أذرعات ، ونسرّح طِرف الطرف في سهول حوران الواسعـات ، ومروجها الممرعات .

(١) بياض في الأصل بمقدار كلمتين .

نسأل الله تعالى أن يُرينا وجهكم على خير حال ، ويُسمعنا قريباً أحاديثكم المسلسلة كالزلال ، وآراءكم المسندة إلى أصح الأقوال .

وسلامي إلى حضرة الاخوان الكرام ، وإلى فضيلة الشيخ محمد افندي المجتهد الإمام ، وإلى جناب أحمد افندي القضماني جار المروءة والذمام ، ولا تنسونا من الدعوات ، ولا تخرجونا من دائرة الالتفات . مولاي !

الصلت في ٢٧ ذي الحجة ١٣٢٥

الداعي

شكيب أرسلان

(٥)

حضرة الأستاذ العلامة الفاضل نفعنا الله به :

تناولت الكتاب العزيز المتضمن التعزية بالمصاب الأليم ، واستشهاد ابن عمنا الكريم[١] ، في أداء الخدمة الوطنية ، والمناضلة عن حوض الحرية ، فلولا غياب وجهه عنا ، وفراق لا تلاقي بعده في هذه الدنيا ، لكانت ميتة كهذه يُحسد عليها ، وشهادة أشبه بالحياة منها بالممات « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » . أجرٌ زائد ، وذكر خالد ، وشرفٌ عَمَّ الولد والوالد ، وفاق الطارف والتالد .

---

(١) هو الأمير محمد أرسلان الذي قتل في القسطنطينية عام ١٩٠٩

والموت أمر لا بد منه ، ولا منجاة عنه ، فليكن في أشرف المواقف وأنبل الغايات ، ولتذهب هذه الروح بدل ذهابها في بلهنية العيش ورخاء النفس على حد الحسام الباتر ، مَبْكيَّةً بدماء المحاجر :

وطعم الموت في أمر جليل كطعم الموت في أمر حقير

وإنما كان التفاوت في منازع الهمم ومطالع العزائم . ولقد عاش المرء على اختبارنا به ونشأتنا معه منذ الطفولة حياةً عصمه الله بها فلم يدع فيه محلاً لنقد ناقد ، وحلّاه بأكثر المحامد ، وكان يعد كاملاً لو لم يكن الكمال للإله الواحد ، حتى جمع عليه محابّ القلوب وكان ملء الأعين والخواطر ، وبهجة للنفوس وقرة للنواظر ، وانعقدت به آمال العائلة بل آمال البلاد ، ونهض بهذه المدة نهوضاً سريعاً حوّل إليه الأبصار من كل ناد . فكأن الله تعالى أراد أن يزيد القلوب به ولهاً ، والعواطف عليه حنواً ، فرزقه تلك الشهادة الشريفة ، وسمح بذهاب تلك الروح اللطيفة ، ضحية ذلك المبدإ العظيم الذي به حياة الأمة فجاء مصرعه هذا إكليلاً ، وذهب في سبيل الشورى التي هي من أركان الشرع وحَسُن ذلك سبيلا ، والتحق بالرفيق الأعلى بشهادته هذه وشرُف ذلك رفيقا ، وأصاب المملكة من الحزن بفاجعته ما لم يختص الله به إلا ولياً أو صِدّيقاً ، وحاز شرف الحياة الدنيا وشرف الآخرة وجعل من ذكره لنفسه نشورا . وإنما نبكي غياب أُنسه ، وكسوف شمسه ، مع ما كان من دماثة أخلاقه ، ووضاءة آرائه ، وعلو همته ، وكمال مروءته .

والله نسأل أن يهبنا الصبر الجميل ، ويجعل العوض بسلامة الباقين ، ولا سيما

صديقكم الأخ الأمين[1] ، الذي أطلعته على كتابكم وكلفني بتقديم الشكر ، ودعا لـكم بطول العمر .

وسلامي إلى الاخوان جميعاً . وأطال الله بقا كم .

١٠ ربيع الثاني ١٣٢٧

الداعي

شكيب أرسلان

(٦)

مولاي الأستاذ العلّامة أيده الله ، وأيَّد به .

بينما أنا من التطلع إلى الأخبـار الشريفة على ما يعهده الضمير ، ومن الظمإ إلى ورود المنـاهل القاسمية بما فوق ظمإ المسافر إلى النمير ، إذ طلع عليّ كتاب الأستاذ فأراني كيف تطلع البدور من آفاق المطامير ، ونقل إليّ من بشرى عودته من جبل سنير[2] ، ما هو كتلك الأسمار إذ هو السمير .

وقد صادف ورود كتابه ما أنا فيه من الهم المقيم المقعد ، والغمّ الذي يغوّر معي ويُنْجِد ، والأمر الذي لا يلذ معه من الشراب سائغُه ، والشأن الذي ابتلاني الله به مع كراهيتي له ولله أمرٌ هو بالغُه ، فعاقني ذلك عن الجواب في وقته ،

---

(١) هو الأمير أمين أرسلان .

(٢) لم نفهم الغرض من هذه الاشارة ، ولعل القاسمي كان في تلك السنة في رحلة إلى الجبال .

وشغلني عن هـذا الجلل مع حبه ذلك الخلل مع مقته ، إذ لا تزال بين الجنبين نفس — ولو نزعت إلى التصوف — فلا تترك الهوى القديم ، ولا بد للمرء من إطاعة دواعي العصبية حيث هو متمكن مقيم ، فما زلنا حتى ركزت القضية على وجه كان فيه الفوز العظيم ، وتحول هـذا المنصب إلى من نحن وإياه اليومَ يدٌ واحدة على كل خصم ولسانٌ واحد على كل خصيم ، وأصبحتُ خالصاً من ذلك الرسم الذي كان عليّ ثقيلاً ، ومفلتاً من ذاك القيد الذي كنت عليـه محمولا ، وأنا لا أُحبه كثيراً ولا قليلاً ، وصرت حراً أن أُدلج ، وأن أُؤوّب ، وأن أُصعّد وأن أُغوّر وأن أُشرّق وأن أُغرّب ، وأن أُلاقي العلمـاء الذين كالأستـاذ لقاؤهم نعم المعلم والمهذب .

وقريباً إن شاء الله أَرِدُ الشام ، وأجتمع بالاخوان الكرام ، وإن شئتم ذهبنا إلى قَلَمون وأعملنا بإقليمها الأقلام ، وكتبنا عنها رحلة سميناها « سير المطية » إلى دير العطية » تكون من الرحلات العظام . وإن أردتم ذهبنا هذه المرة إلى البلقاء ، أو إلى محل نختاره عند اللقاء .

وعسى أن نستوثق هذه الخطرة في الانتعال ونحتاط في الاحتقاب ، فلا نضيع ما أضعناه في ثنية العقاب ، مما نشير إليه ولا نسميه[1] ، ونتسلّى على فقده ببقاء أخيه ، وإن قيل إن الواحد هنا لا يغني ، ولابد للانسان إذا ابتدأ هنا بأن يثني ، فمن له عين فليس بأعمى ، وما من فاجعة إلا وقد خلق الله ما هو أشد منها وأحمى .

---

(١) إشارة إلى أن القاسمي أضاع أحد خفيه كما ستری في الصفحة التالية .

هذا ، ومن هـذه المداعبة يعلم الأستاذ أنني راضٍ مما آلت إليه الحـال ، وأنني صرت والحمد لله عاطلاً من الحـكومة والعاطل منها بالحقيقة حالٍ .

ومني الآن السلام على الأستاذ الـكبير الذي فضائله بعدد حصى الميدان[1] ، وعلى صاحب المقتبس[2] ، والشهبندر[3] ، وسائر الأحباب والإخوان .

وأشواقي إلى إخوتكم الألبـاء الأدباء ، التالين لـكم بالفضل كما تتلو الألف الباء . والسلام .

عن بيروت في ٢٧ رجب ١٣٢٩

الداعي

شكيب أرسلان

في هذه الرسالة التي سلفت قول الأمير رحمه الله : « وعسى أن نستوثق في الانتعال ونحتاط في الاحتقاب ، فلا نضيع ما أضعناه في ثنية العقاب ، مما نشير إليه ولا نسميه ، ونتسلى على فقده ببقاء أخيه . . . »

وتفسير هذه الإشارة سمعته من عمي قاسم ، قال : ذهب الشيخ عبد الرزاق البيطار ، والقاسمي ، والأمير شكيب برحلة إلى القلمون ، ولما بلغت العربة « ثنية العقاب » — وهو موضع معروف بين دمشق والنبك — تبين أن أحد خفي

---

(١) الشيخ عبد الرزاق البيطار ، وكان يسكن في حي الميدان .

(٢) محمد كرد علي .

(٣) الدكتور عبد الرحمن الشهبندر .

القاسمي قد فقد ، وكان فقده وسيلة مداعبة وتسلية بين الرفاق المسافرين ، قضوا في ذلك وقتاً ممتعاً .

وقد وجدت بخط القاسمي ورقة كتب عليها :

« قال حضرة أديب سورية الأمير شكيب حفظه الله ، لما تبين ضياع الخف من العجلة ارتجالاً ، ونحن في العجلة ، وكنا قصدنا جيرود فيبرود فالنبك في جمادى الأولى ١٣٢٩ :

قفا بين الثنية والعقاب ... على تلك المطالع والروابي
وسائل عن فقيد في ثراها ... فقدناه بأثناء الركاب
وغادرَ إلفَه يبكي وحيداً ... عليه بأدمع ذات انسكاب
فقدناه لدى عَوَز إليه ... وولى وهو في شرخ الشباب
ولكن كان أمر الله حقاً ... فآجال الخلائق في كتاب
فعوِّضْنا بجيرودٍ إلهي ... وأجزِلْ في المصيبة بالثواب
أيمشي المرء في خف وحيد ... ورجلاه اثنتان لدى الحساب ؟
وكيف يقال في الأستاذ فينا : ... أضاع الخف في طرق صعاب ؟

* * *

وقال أيضاً مرتجلاً :

أضاع له الأستاذ خفاً ولم يكن ... ضياعٌ لدى الأسفار يوماً بنادر
وما فقده إلا سهولة خلعه ... لذا فَضَل (البيتون) كلّ الكنادر
فيا راكباً متن الثنية قف بها ... فما وارد بالخف يوماً كصادر

لعل بجيرود خفـافاً كثيرة فباكر إلى الخفّاف فيها وبادر
لذا فقـده يا صاح عـاد بحيطة فلستُ دمَ المفقود خفي بهـادر

* * *

وقال (وهذه الأبيات بخط الأمير نفسه) :

لا تعجبنْ لضَياع جدَّ في سفر إلى الضِّياع فذا حلٌّ وترحال
واقنع إذا كنتَ في عرض الفلاة بما يأتي فدون ركوب البرّ أوحالُ
فمن يُضِعْ خُفَّه عند الثنية فلـــــــيقنعْ بمشَّاءة يمشي بهـا الحـالُ

* * *

وقال أيضاً لما أشرفنا على جيرود :

لعمرك جيرودٌ مقـام مقدس وذلك سرٌّ أمرُهُ ليس خافيا
لقد جاءها الأستاذ من دون خفه وقد دخل الوادي المقدس حافيا

* * *

وقال أيضاً لما أطار الهواء « قالب الجبن » ارتجالاً ، وأرسلها كسابقتها عجالاً :

وقالب جبن طـار للخف لاحقاً فقلنـا له مهـلاً ولا تتعجَّل
فقال : مراعاة النظير أردتهـا لكي تحرموا من ملبس ثم مأكل

* * *

وقال الأمير شكيب في إيثار الأماكن التي يسار إليها بالبخار بالرحلة :

أحاديثَ السِّفار بها تمسك إذا جاءت على شرط البخار
وليّنها أو ارفضهـا بتـاتاً على شرط الكديش أو الحمار

(٧)

وهبط الأمير مصر عام ١٣٣١ هـ ، وكان القاسمي قد رحل إليها ، فكتب إليه يسأله موعداً للاجتماع ، فبعث إليه بهذه الرسالة بواسطة صديقهما المشترك الإمام رشيد رضا ، كما يدل على ذلك ظرف الرسالة :

مصر يوم الخميس ٢٦ ربيع الثاني ١٣٣١

مولاي الأستاذ العلامة

حضرت مساء أمس من الاسكندرية ، ووجدت كتابكم الكريم ، والله يعلم ما أدخله على قلبي من السرور العظيم ، والحمد لله على السلامة ، وأهلاً وسهلاً ومرحباً بالأستاذ العلامة ، وخير من وضع العمامة ، ولاقت به الإمامة .

وأما الاجتماع بي قرّب الله أمده ، فيكون صباح كل يوم أردت في منزل حنفي بك ناجي في العباسية أمام (القرغول) الذي بجانب قبة الفداوية . وإذا شرفتم مساء نسهر ويطول الاجتماع ، ويمتد بفوائدكم الاستمتاع ، ونعيدكم في عربة إلى حيث تشاؤون ، أو إن أردتم البقاء هنا تنامون ، والمرجو سرعة التشريف ، لأنني قريب السفر إلى سورية ، وأنا مشتاق إليكم . مولاي

الداعي

شكيب أرسلان

من الشيخ طاهر الجزائري

رسائل الجزائري غلبت فيها الفكرة على الأسلوب ، وإذا كان الأسلوب جزلاً رائعاً ، لم يرد فيه السجع إلا في النادر . وإذا كان قد عرف عن الجزائري أنه أستـاذ جيل كامل ، وإذا كان القاسمي قد وصفه بأنه « المرقي الوحيد » ، فهذه رسائله أبلغ دليل على عقله الجبار ، الذي يولد الأفكار في كل حرف من حروفه .

اقرأ هذه الرسائل فسترى فيها الشيخ طاهراً بلحمه ودمه : أهدافه في الإصلاح ، سعيه لنشر النـافع من آثار السلف ، حرصه على محو البدع ، حرقته على نشر النور ، فوضاه !

نعم ، ليس في رسالة من رسائله انتظام كامل ، فكثيراً ما كانت الحواشي أهم من الأصل . ولعل أصدق مثال على ذلك ما جاء في رسالته الأولى .

ولن تدرك كيف كان يكتب الشيخ طاهر إلا إذا نظرت إلى الصورة الشمسية لهذه الرسالة . هذه الفوضى « المنظمة » هي سر عبقرية الجزائري رحمه الله .

ظفرت بعدد من رسائل الجزائري ، ضممته إلى هذا الـكتاب . ويقيني أن الجزائري لو لم يترك غيرها لـكان ذلك كافياً للدلالة على عقله وروحه . إن كل ما في هذه الرسائل ينبض بالحياة ، هذا والجزائري قد كتبها في سن الشيخوخه :

(٨)

أيها الفاضل الهمام أسعد الله أيامه

سلام عليكم . وبعد فقد حظيت بكتابك الكريم في هذا الأسبوع ، فأقر العين ، وخفف من برحاء البين . وقد فهمت حقيقة المسألة التي لفقها الحشويون عليكم . وأما ما ذكرتم من لحوق شرر أناس يدعون أنهم خلصوا من الرق ، مع أنهم لا يعرفونكم إلا في وقت الرخاء ، فهو مما لا مرية فيه . وقد وقع لنا مثل ذلك قديماً وحديثاً فينبغي الصبر لذلك ، والعاقبة للمتقين .

هذا ، وقد سررت من مجموعة المتون التي رتبتموها ، كما سر بذلك صاحبنا الأمين[1] . والمأمول تيسير نشرها في أقرب مدة ، وإتحافه في كل مدة بمثل ذلك من الرسائل التي يعظم نفعها .

ودمتم بخير وعافية .

في ١٥ ذي القعدة ١٣٢٧

المحب

طاهر الجزائري

(١) هو السيد أمين الخانجي .

وجاء في الصفحة الثانية من الورقة الحواشي التالية مفرقة من غير نظام :

— أرجو أن تذكروا لمحمد افندي هاشم المبادرة إلى إرسال الرسائل التي نسخها لصديقنا الفاضل أحمد بك تيمور ، فقد مضى نحو سنة على الوعد ، وبلغوه سلامنا .

— أرجو إبلاغ تحياتي لمن ينتمي إليكم ، وإذا اجتمعتم بالأستاذ الأجل[1] ، فبلغوه أزكى التحيات ، مع بيان الشوق إليه ، والأمل قوي في كف الحساد عنكم ، فقد يئسوا منكم .

— وإني لأعجب من الحشوية في قوة أملهم ، وقلة مللهم ، وأعدّ ذلك من مناقبهم ، وإن عده كثير من إخواننا من مثالبهم .

— ولقد تعلمت ذلك منهم ، ونحن أحق به ، فإننا نسعى فيما ينفع الناس ، وهم يسعون فيما يضرهم .

— حرر في الليل ، في وقت ضيق ، أثناء التذاكر بما ينبغي أن ينسخ من البلاد النائية ليطبع .

(٩)

حضرة الصديق الأجل الفاضل المحقق لا زال ذا جِد وجَد .

سلام عليكم . وبعد فقد وصلني كتابكم الكريم ، فسررت به سروراً جماً ،

---

(١) الأستاذ الأجل : هو الشيخ عبد الرزاق البيطار .

وكنت عجبت لانقطاع رسائلكم عني منذ مدة ، فأخبرت أن سفر الحجاز هو العائق .
وأما من جهتي فإنه يسرني تواتر رسائلكم عليّ ، وليس عليّ كلفة في الجواب عن كل ما يرد عليّ منها ، بل أجد نشاطاً حين الكتابه ، لما أن القلم يجري كما شاء .

نعم ! أجد كلفة شديدة في مكاتبة من لا يعلم صفاؤه ، خشية أن يجد مدخلاً إلى شيء من مقاصده بطريق التمويه الذي صار أقصى ما ينحون نحوه .

وأما مكاتبة إخوان الصفاء ، فلا ألذ منها عند من يعرف قدرهم ، وأنا ولله الحمد كما قال أبو الطيب :

خُلقت ألوفاً لو رجعتُ إلى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

وأما من خصوص صاحبنا أمين افندي الخانجي ، فإنه قد عرضت له مسألة من نحو سنة ، جعلته لا ينام إلا غراراً ، وكنا متجاورين : وذلك أنه أسس شركة مهمة ، تروق بحسب ظاهرها ، واحتالوا حتى أدخلوه بها ، ثم أوقفوها ، فتأخرت أكثر أشغاله ، وبقي نحو ستة أشهر ، ثم دخل في المسألة بعض المصلحين فحلوها ، فخرج من هذا الشرك سالماً ، وأقبل على حاله الأولى ، غير أنه خشي أن لا تطبع له المطابع ، فاشترى في هذا الشهر مطبعة ، وشرعت في الطبع ، وقد أخبرته حين وصول كتابكم بما ظهر لي أن أقول له ، فأمر بعض من في المطبعة بأن يحضروا الرسائل من موضعها ، ويشرعوا فيها بعد نحو اسبوعين ، وسيرسل ما وعدكم به ، ولو في البريد ، ويطلب أن ترسلوا له كتاب تخريج أحاديث المنهاج والمختصر ليلحقه بمنتهى ابن الحاجب .

بلغوا تحياتنا لحضرة الأستاذ الأجل ، أدام الله نفعه ، وإني لفي شوق إليه . ونسأل الله سبحانه أن يجمعنا على أحسن حال . وبلغوا تحياتنا وأشواقنا لحضرة خطيب القطرين رفيق[1] بك وأخيه الهمام الأمجد عثمان بك . وأرجو أن يرى الرفيق في هذه الرحلة ما يجعل له نشاطاً لتكميل ما كان يكتب .

ودمتم بخير وعافية .

١٠ ج ٢ سنة ١٣٢٨ المحب

طاهر الجزائري

حاشية — خطر في بالي وأنا أحرر لكم الجواب أن ترسلوا رسائل الأصول ورسالة التوحيد وغيرها من مؤلفاتكم إلى ملك المغرب الأقصى مولاي عبد الحفيظ ، وترسلوا له رسالة ليس فيها إفراط ولا تفريط ، تذكرون فيها إقباله على العلم والتأليف . وهذا شأن الملوك قديماً ، الذين كانت لهم همم علياء ، أن يجعلوا وقت راحتهم مصروف[2] إلى ذلك .

ومن غريب ما أخبرني بعض الفاسيين ممن يعرفه أنه طبع رسالة في الرد على البدع التي في المغرب ، لكن قيل لي إنه لم ينشر منها غير نحو ثلاثين نسخة فرقها بين العلماء ، وما كان ينبغي له ذلك ، لأن أرباب البدع لهم همم لا نظير

---

(١) هو رفيق العظم .

(٢) كذا في الاصل .

لها في مصادمة من يريد هدم ما أسسوا . ويقال إنه ممن لا يرى جواز التقليد[1] ، لا سيما لوليّ الأمر .

والسلام عليكم وعلى سائر الإخوان عوداً .

* * *

وفي الرسالة الآتية إشارات هامة ليست واضحة كل الوضوح ، وقد عرضناها على أفاضل المعاصرين ، لعلهم يحلون بعض غوامضها ، فلم يستطيعوا أن يفهموا من رموزها إلا فهماً عاماً :

(١٠)

حضرة الفاضل المحقق الهمام أدام الله جماله وإجماله

سلام عليكم . وبعد فقد وصلني في هذه الليلة المباركة كتابكم الكريم ، فأقبلت عليه ، وطالعته مطالعة متشوف إليه ، وتأملت فيه ملياً ، فلاح لي منه أن الأحداث ، التي كان قام بها عُبّاد الأجداث ، لا تزال تتجدد ، وكنت أظن أنهم إن عدموا البصيرة في الدين ، لم يعدموها في الدنيا ، فإذا هم عميٌ في الأمرين ، ولو كان عندهم شيء من السياسة أو الكياسة ، لاتخذوا الفرصة في الانحياز إليكم ، واتخذوا حزباً وسطاً ، وجعلوكم قادته .

---

(١) في الأصل : التقيد ، وهو خطأ فلمي واضح .

وقد كان أُناس من إخواننا الخالين عن الغرض ينتصر لهم ، ويعذرهم ويقول : إن المتطرفين من الأحرار المحدثين ، الذين لم تخالط بشاشة الحرية المشروعة قلوبهم ، أحرجوهم فأخرجوهم عن الاعتـدال ، فلما بلغهم قيامهم عليـكم عرفوا أن هؤلاء قوم لا يعقلون .

وقد كتب في حقهم كتابات إلى مواضع شتى تبين أنهم اتخذوا الدين حيلة ، وأن لا قصد لهم إلا هدم مباني الإصلاح ، فحقد عليهم الناس في مشارق الأرض ومغاربها ، وقد شعروا بهذا الأمر ، فإن قلوبهم الآن تخفق من الرعب ، ونحن على البعد نعرف أحوالهم أكثر مما يعرفهـا كثير ممن قرب منهم ، لأنهم التزموا التجلد ، وأوصوا من يأتي إلى مصر ، من كبير أو صغير ، أن ينكروا شيئاً مما تقولون ، ويقولون : تصافى الفريقان ، وزالت الأضغان ، ولم يقع شيء مما يذكر ، مع أن أصولهم تقتضي أن يفتخروا بما فعلوا .

وقد اجتمع بنا كثير من أعضاء الجمعية الـكبرى ، ويطول أن نشرح لـكم ما وقع بيننا وبينهم من المذاكرات . وقد اجتمعنا منذ ليلتين بالمفتشين الذين كانوا عنـدكم ، فإن أحدهم احتفى بالسؤال عني في مصر لمعرفته بي من قديم ، فرأيت معهم من الصفاء ما غبطتهم عليه ، فإن تمام صحتي تقتضي شيئاً من ذلك .

وقد توهموا أني ناقم عليهم ، وطلبوا مني الإيضاح عما قلت لهم من العبارات المجملة ، فإنهم فهموا مني أن كثيراً من الولايات في اضطراب ، فطلبوا تعيين أسماء الولايات ، ومن أي جهة كُتِب لي ؟ فقلت لهم : هذا نوع من التجسس ،

فغضبوا ، فقالوا : أيعد متجسساً من يطلب الإصلاح ؟ فقلت : التجسس أنواع ، والمكاتبون لي من الحزب المعتدل ، الذين لا يقولون بهؤلاء ولا بهؤلاء ، والآن الأمر ليس بيد حزبكم ، فإنهم أذل الناس !

وقد تبين لي أنهم لم يشعروا بشيء من الأحوال ، فأحببت أن أقوم ، لأن الاجتماع كان بطريق العرض ، وقد تجاوزتُ الحد ، غير أنهم ألحوا عليّ في البقاء ، فأتممت شيئاً من المذاكرة ، وقمت مصافحاً لهم ، وإن لم أكن صافحاً عنهم :

فهم أيقظوا رُقْطَ الأفاعي وحركوا   أراقم سوء نام عنها حُواتُها

وهم نقلوا عنا الذي لم نقل به   وما آفة الأخبار إلا رواتها

بلغوا سلامنا وأشواقنا إلى حضرة الأستاذ الأكبر ، وإنا نعلم أن الحسد بلغ بمنابذيه مبلغاً يُشْفَق عليهم بسببه ، ونرجو من الله أن يكون الفرج قريباً ، وأن يرى بهم ما يستحقون ، فتباً لهم تباً .

وبلغوا سلامي وشوقي إلى الإخوان الكرام ، والإخوة الأعزة ، وقل لهم قوله تعالى :

« إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون » .

كتابكم في التوحيد من أهم الكتب ، وسيكون له شأن عظيم يعذر به الحساد على ما يصدر عنهم ، فإن أنصارهم يعرفون أنهم لا شيء ، ولا تفتروا عما كنتم عليه .

أرسلت لكم نسختين من شرح خطبة الكافي ، نسخة لكم ونسخة للأستاذ الأكبر ، وإنما لم أرسله من قبل لأن المقصود طبع نفس الكتاب ، وهو في مجلدين ، وطبع مقدمته ، وهي في مجلد .

وأما هذه فإنها شرح للخطبة ، يجري مجرى شرح خطبة القاموس ، وقد طلب أُناس بيعها وحدها ، فأبى الطابع . وقد شغلنا عن إتمام الطبع أمور كثيرة هي أهم من ذلك . وقد دخلت مصر في دور السير ، وهي نعمة كبرى .

أرسلنا لكم من شرح خطبة الكافي أربع نسخ ، نسختان لحضرتكم ، ونسخة للأستاذ الأكبر الشيخ عبد الرزاق ، ونسخة للمحب المخلص الأديب يحيي افندي تللو ، وأرجو إبلاغه التحية الوافرة ، اللائقة بأمثاله ممن قام عليه أعداء الإصلاح !

* * *

أيها الجمال ! لا تضق صدراً ، فلك أسوة بالإمام جمال الدين شيخ الإسلام ، ونأمل أن يحل بمناوئيكم من النكال ما حلّ بمناوئيه ، وهم كور علي[1] وأتباعه حتى إنهم لم ينجهم إلا دعواهم أنهم كانوا لا يعقلون .

(يلاحظ أن هذه الرسالة غير موقعة ولا مؤرخة ولا معروفة المصدر)

---

(١) كذا في الأصل ولم نهتد إلى صوابه .

(١١)

حضرة الصديق الأجل الفاضل المحقق أدام الله جماله وإجماله

سلام عليكم . وصلني كتابكم الكريم مع الكتب المهداة . أما الكتاب الكريم فتلوناه مبتهجين بما حواه ، مؤملين أن تنجلي غمامة ذلك الغم ، ويسلّم أولئك الجاحدون ، ملقين بأيديهم إلى السلم .

وأما الكتب فسلمت لمن أهديت إليه ، وقد أظهروا من الشكر ما يجدر بمثلها .

وأرجو إبلاغ تحياتي لحضرة الأستاذ الحائز قصبات السبق في ميدان الفضل ، ولمن تلاه من الإخوان الكرام الثابتين على النهج السوي مع تقلب الأيام .

ودمتم بخير وعافية .

في ٥ محرم ١٣٢٧ — المحب الطاهر

حاشية — وقد وصلني منذ يومين كتاب لكم قديم التاريخ ، فرأيت فيه أن إخوتكم الكرام تشوفوا لمطالعة شرح خطبة الكافي ، فأرسلت خمس نسخ إسعافاً لمأمولهم ، وسلموا لي عليهم .

وقد كتب بعض محبيكم الأفاضل في هذا الأسبوع بأنكم ظهرتم للناس ، فسروا بذلك سروراً جماً ، لا زلتم ظاهرين[1] .

---

(١) راجع بحث « اضطهاده » وبحث « محمد رشيد رضا » ففيهما إيضاح لهذه الاشارة التي تعني احتجاب القاسمي في بيته .

(١٢)

حضرة الفاضل المحقق أدام الله جماله

سلام عليكم . وصلني كتابكم الكريم ، المتضمن للنصر المبين على الذين كانوا من دعاة الفتنة والفرقة ، فحمدت الله على ذلك ، ونسأله أن يديم ذلك أبد الدهر ، لترجع الأمة إلى الحالة التي سلفت لها ، وما ذلك على الله بعزيز .

وقد وقفت على الكتاب المؤلف في حق من أوذي بالدستور ، فلم يساعد الوقت على مطالعته ، لأنه وصلني في هذا النهار . وحال وصوله كان عندي أحد الشيعة ، فأريته إياه ، فقرأ لي منه بعض عبارات ، وقال : نحن الآن إلى غير هذا النوع أحوج !

وأرى أن الاعتدال في المسألة أولى ، وقد استعجل الفريقان ، الإفراط والتفريط ، وهو خطأ يدل على قلة السياسة في المسألة .

وقد حرر في وقت استعجال فاعذرونا

المحب

طاهر الجزائري

(١٣)

حضرة الفاضل الهمام لا زال جمال العلماء الأعلام

وصلني كتابكم الكريم المنبئ بفرط عنايتكم بالإخوان ، فأكد لي ما كنت أعلمه من قبل ، فحياكم الله وبياكم .

هذا والذي يترجح لي هو الرجوع إلى رأيكم [1] .

وأرجو إبلاغ تحياتي وأشواقي للاخوان .

ودمتم بخير وعافية .

في ٢٤ ربيع الأول ١٣٣٢

المحب

طاهر الجزائري

(١) لم نفهم معنى هذه الاشارة . والكتاب مؤرخ قبل وفاة القاسمي ببرهة وجيزة .

(١٤)

حضرة الفاضل المحقق الشيخ جمال الدين أنجح الله أعماله

سلام عليكم . وبعد فإن الشوق إليكم وافر ، ونحن لا نزال نسأل عن أخباركم .

لا تحسبوا أن بعد الدار غيرنا عنكم ، ولا أن طول النأي يسلينا . وقد بلغنا ما وقع لكم ، فاشتد علينا ذلك جداً .

ونرجو من الله سبحانه قرب الفرج . فاصبروا ريثما تنجلي هذه الغمرة ، والله مع الصابرين .

وأرجو إبلاغ تحياتي للمخلصين في الوداد ، ودمتم بخير وعافية .

حاشية — أيها المحب المخلص ! إن كثيراً من الإخوان هنا ألحوا علينا في إمضاء مدة من الشتاء في هذه المدينة ، فإن شتاءها ربيع ، وعسى الليالي أن تمنّ بجمعنا على أحسن حال ، وحالتي في مصر حالة تسر كل محب .

(يلاحظ أن هذه الرسالة غير مؤرخة ولا موقعة)

من محمد رشيد رضا

(١٥)

مصر في ١٢ ربيع الآخر ١٣٢٧ هـ ـ ٢ مايو ١٩٠٩ م

من محمد رشيد رضا إلى أخيه في الله عز وجل جمال الدنيا والدين ، وبقية السلف الصالحين ، حياه الله تعالى ، وزاده جلالاً وكمالاً .

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

وبعد فإنني لا أدري كيف استطعت أن أقيم في بيروت خمسة أسابيع ، وأنا بالقرب منكم ، ولا أمتع نفسي بمكاتبتكم ، كما كنت أمتعها بطيب ذكركم مع من يعرفكم ، كالأمير شكيب ، ومع من أُعرفه بفضلكم من الفضلاء .

ولا أعدّ من العذر ما بلغني من لياذكم بالعزلة ، واعتصامكم بحبوة الوحدة ، بعد ما كان من الفتنة ، ولا ما كنت عليه في بيروت من اضطراب البال ، وكثرة الأعمال ، مع التكاسل والإهمال .

وإنما أقول : إنني لم أكن موفقاً للتمتع بهذه النعمة . وربما كان العزم في

كل أسبوع على السفر هو السبب الذي كان يريني الوقت قصيراً ، وإن جعله القدر — كما تبين بعد ذلك — طويلاً .

* * *

قرأت في الأهرام رسالة من دمشق ، ذكر فيها كاتبها أن خطيبي فتنة رمضان حاولا إضرام فتنة أُخرى عندما علما بثورة الآستانة ، وصاحا بالعامة أن اقتلوا الوهابية في هذه الفرصة فما هم بكثير . . . ولكن الله أطفأ ما أوقدا ، فهل كان هذا النبأ صحيحاً ؟

كيف حال الأستاذ الأكبر[1] الشيخ عبد الرزاق افندي ؟ كنت عازماً على الكتابة إليه اليوم ، ولكن ضاق الوقت ، وقرب موعد سفر البريد ، فإياك أطالب ، ومنك ألتمس ، إبلاغه تحيتي المباركة الطيبة . . .

محمد رشيد رضا

---

(١) الشيخ عبد الرزاق البيطار .

(١٦)

القاهرة في ١٥ شعبان ١٣٣١

صديقي الأستاذ الفاضل حياه الله وأدام النفع به

قد كنت معداً للأستاذ حفظه الله عتباً تشبّ حروبه ، وشكوى للأستاذ الأكبر[١] ، وهو الذي يُقبل فينا حكمه وتأديبه . ولكن أبى الله تعالى أن يجري قلمي بذلك ، إذ حملني من حقك عليّ ، فوق ما كنت أراه من الحق لي .

أما حقي المهضوم ، فهو أنك شرفت مصر بعد طول الشوق ، والتمني أن أراك فيها ، وأخلو بك في خلس الفراغ ، للأنس بقربك ، ومذاكرتك فيما لا أذاكر فيه إلا مثلك « ومثل كثير في الأنام قليل » . فهجرتني هجراً جميلاً ، وما أرويت لي غليلاً .

ألحقّ أقول ، لا مازحاً ولا مجاملاً ، إنني لم أكن راضياً ، وما كان ليرضيني إلا أن تعد نفسك كنفسي ، ودارك داري ، وأن لا تبيت عند أحد إلا لضرورة ، ولا تجيب دعوة أحد إلا بعد مشاورة ، وأن يكون جل وقتك هنا لي ، وأقله لسائر الناس[٢] .

---

(١) الأستاذ الاكبر : هو لقب الشيخ عبد الرزاق البيطار بين معاصريه .

(٢) رحل القاسمي رحلته الثانية إلى مصر عام ١٣٣١ ، وهذا العتب الذي تراه ناشيء عن أن القاسمي لم يكن ضيفاً على رشيد رضا ، وأنه لم يعطه من وقته ما كان يشتهي .

وأما حقك الذي علا وبذّ ، وربا واهتز ، وعزّ وبزّ ، فهو أنك كتبت لي بعد العودة إلى الوطن ، مرة بعد مرة ، وتفضلت برسالة « تاريخ الجهمية » ، ولم أكتب إليك إلا في هذه الليلة ، وقد بعد العهد ، وكرت الأيام والأسابيع ، بل الشهور ، على الكتاب الأول ، حتى صرت أستحي من العتب والشكوي إلى الأستاذ الأكبر ، من تلك المعاملة التي يجوز له — أطال الله حياته — أن يسميها « وَلْدَنَة » أو « تَوَلْدُنًا » ، أو ما شاء ، وأن يرتب عليها من الجزاء ما شاء .

قد اعترفت لك برجحان حقك ، مع اعتقادي بأن عذري أقوى من عذرك . أنت تعلم شيئاً ما من الاشتغال بفرش الدار ، وتأثيثها ، وقد استغرق ذلك زمناً طويلاً ، فلم يتم إلا بعد مجيء الأهل والأقربين بعدة أيام ، وكان من لوازمه قلب نظام المكتب ، حتى بقيت مدة من الزمن لا تتيسر لي كتابة شيء فيه .

واتفق أن من جاؤوا من ذوي النسب والصهر ، ذكور وإناث ، يحتجب بعضهم من بعض . ثم لم يكد يسافر جماعة الصهر حتى اضطر أخي السيد صالح إلى عملية جراحية في المستشفى (عملية فتق مختنق) كاد لولاها يقع في خطر لا منجاة منه .

وقد لطف الله تعالى ، ونجحت العملية ، ولكن طال العهد على الجرح ، وعملت فيه عملية ثانية ، وبقي في المستشفى زهاء شهرين ، وخرج منه أمس ، فكنت مضطراً في هذه المدة أن أحمل كل ما كان يحمله من أمر الدار والإدارة والمطبعة علاوة على حملي الثقيل ، أو أحمالي الكثيرة .

وناهيك بأمر المدرسة في آخر سنتها ، وأمر امتحاناتها ، التي يجب أن أتولى بعضها ، وأراقب البعض الآخر . ولا تنس الحزب السياسي ، وأعماله ، ولا يحتاج مثلك للتذكير بأمر التحرير والتصحيح والتدريس ، وما يتعلق بذلك .

كانت ترد عليّ الكتب والرسائل من الأقطار المختلفة ، فلا أستطيع قراءتها كلها في أيام وصولها ، بل أُرجىء بعضها أياماً ، وما كنت من المرجئين . وقد رأى أخونا السيد الزهراوي عملي ، وأخي بجانبي يساعدني ، ومع ذلك كتب إليّ من باريس : إن أعمالك تحتاج إلى خمسة رجال معك ، تقرب همتهم من همتك .

وإنني وحقك قد حرصت على مجاوبتك حرصاً حملني على وضع كتابك مع ورقة بيضاء وظرف في جيب جبتي ، عسى أن أجد فرصة عند النزول إلى جلسة حزب اللامركزية ، ولو حيث يكون الاجتماع ، أو في المكتبة ، ولم يتيسر ذلك . على أنه اتفق لي كتابة بعض الكتب في الترام نفسه .

* * *

نبهتموني إلى ما كتب على لفافة الكتاب ورُمّج ، ولكن بعد أن ألقيت اللفافة ، وذهبت مع أمثالها من الشيء اللقا(١) ، ولم تذكروا الفائدة التي كانت عليها .

وصلت نسخ الرسالة التي أرسلتموها ، ولا حاجة إلى إرسال نسخ كثيرة بعد الآن إلى الإدارة من شيء من المطبوعات ، بل يرسل ذلك إلى المكتبة ، إذا كان

---

(١) هكذا وردت العبارة في الاصل ، وفيها خطأ واضح ، ولكن معناها ظاهر .

يراد بيعه . وأما إذا أُريد توزيع شيء على بعض أهل العلم والأدب بغير ثمن فلا بأس بإرساله إلى الإدارة .

هذا ما تيسر لي أن أكتبه الآن . وأرجو إهداء السلام ، مع أسمى الاحترام ، لمولانا الأستاذ الأكبر ، وطلب الدعاء منه ومنكم . ثم السلام على إخوتكم ، وعلى سائر الأصدقاء ، وفي مقدمتهم سليم افندي البخاري ، وعثمان بك [1] ، ومحمد افندي وأحمد افندي كردعلي . ولا زلتم سالمين موفقين في خدمة العلم والعمل الصالح .

محمد رشيد رضا

* * *

(١) العظم .

من أحمد تيمور

(١٧)

سيدي وأستاذي وملاذي

السلام عليكم ورحمة الله ، وإن كان المقام يقتضي « وعليكم السلام » .

وبعد فقد وصل الكتاب المنبىء بسلامة الإياب ، وأنا أشوق ما يكون لتنسم أخبار الجناب ، فما أجلت نظري في سطوره ، حتى تمثلت لي هاتيك الشمائل ، وذكرت تلك الضحى والأصائل ، وما مرّ من أيامها القلائل ، وما كان من سجايا كريمة لا تحصى ، ولطائف لا تستقصى ، طوّقت عنقي ، وملكت رقي ، فحسب مولاي حسبه من رفع قدري ، والتنويه بذكري ، حتى أقوم بشكر السالف ، من تلك العوارف ، والله سبحانه يحفظه لإخوانه المحبين ، ويديمه كاسمه جمالاً للدين .

أما السيدان الجليلان عبد الرزاق افندي[١] وسليم افندي[٢] ، فأرجو من

---

(١) البيطار .

(٢) البخاري .

سيدي أن يهديهما السلام ، مشفوعاً بما عرفه لهما في قلبي من المحبة والاحترام ، كما أرجوه أن يخص بالسلام الأشقاء الكرام ، والصديق الحبيب كردعلي افندي .

وإني سوف أبلغ السيد البكري ما أمر به سيدي ، وأهدي سلامه للأستاذ الطاهر متى عدت للقاهرة ، وها أنا في انتظار ما سيتكرم به السيد حفظه الله ورعاه من المؤلفات الجليلة ، لأزين بها الخزانة ، وأجعل مطالعتها وردي وهِجِّيراي ، في مُصبحي وممساي .

وأسأله تعالى أن يديم لي ودّ سيدي على اتصاله ، ولا يخليني من فضله وأفضاله .

٢٥ جمادى الأولى ١٣٣١

أحمد تيمور

* * *

من الشيخ أحمد الشنقيطي

(١٨)

الحمد لله وحده

إنه السلام الأسنى ، والتحيـة الحسنى ، إلى أوحد دهره ، وغرة مصره ، ذي القلب السليم ، والخلق الوسيم ، محيي السنة بعد اندثارها ، فضيـلة الشيخ جمال افندي القاسمي ، حفظه الله .

من موجبه إعلامكم بأنني بخير ، وعسى أن تكونوا كذلك . وإني مقيم بمصر . وقد كتبت إليكم بتوجهي من الروس ، ولما وصلت دار السعادة أخبرتكم أيضاً وطلبت منكم الجواب على يد « الحلبي » ، ثم إني لمـا قدمت مصر بقيت منتظراً لما يرد منكم ، حتى وقعت الضوضاء عندكم ، واشتغلت الجرائد بما جرى ، فصرت كما قال المتنبي :

وكنت قبيل الموت أستعظم النوى ‏ ‏ ‏ ‏ فقد صارت الصغرى التي كانت العظمى

فلما رأيت الجرائد أفصحت ببراءتكم ، اطمأننت ولله الحمـد . ثم أخبرني « فرج الكردي » عن مكتوب ورد منكم ، و « أمين الخانجي » كذلك ، فأحببت تجديد العهد . وسلموا لي على أخويكم وجميع الأحباب .

أما صاحب اسم مفعول اقتبس[1] فقد قدم إلى مصر سالماً وهو يماشي أستاذه بمصر .

وقد بعثت إليكم من الآستانة بخمسين نسخة من شرح ديوان طرفة ، فأخبروني عما جرى فيها . والسلام .

٢٦ شوال سنة ١٣٢٧

أحمد بن الأمين الشنقيطي

(١) هو صاحب « المقتبس » محمد كردعلي . وقد استعمل الشنقيطي هذا التعبير ، ولم يشأ أن يسميه لأنه كان في تلك الحقبة فاراً من وجه الأتراك ، فآثر الإشارة على التصريح خوف الرقابة .

من رفيق العظم

(١٩)

سيدي الأستاذ الكريم

وصلني كتابكم الكريم ، وما أظهرتموه فيه من حسن القبول لخطبتي « قضاء الفرد وقضاء الجماعة في الإسلام » جعلني شاكراً لكم .

وقد اقترحتم عليّ طبعها على حدة ، وأن أكتب على حواشيها مآخذ الأخبار والآثار ، فرأيكم مصيب . إلا أن الخطبة نشرت في مجلة « النادي » وفي مجلة « المنار » أيضاً . فاكتفاءً بهذا النشر صرفت النظر عن طبعها على حدة ، ولولا أن ملزمتها في المنار ُجمعت وطبعت ، لتداركتُ أمر التحشية ، ولكن اقتراحكم وصل بعد طبعها ، وستصدر عما قريب في مجلة المنار ، وانتشار هذه المجلة يفيد في نشر الخطبة كما لو كانت مطبوعة على حدة .

أما قصوري في عدم أخذ شيء عن الرسالة التي ذكرتوها[1] لي في المصلحة المرسلة ، فسببه السهو عن وجودها عندي ، لا سيما وأن الرسائل الصغيرة أمثالها موجودة عندي بكثرة ، وأنا مصاب بداء النسيان ، فقلما تمر على ذهني أسماؤها بمفرداتها . وإني لآسف جداً على أن فاتني الاطلاع عليها قبل الخطبة .

---

(١) كذا في الأصل وهو سهو قلمي واضح .

آلمني جداً ما أخبرتوني (كذا) به من تنسيق ماهية كريماتكم بفعل أعداء المصلحين والإصلاح . ولقد والله يحار الإنسان في تعليل هذه الأعمال التي يعملها فريق من الأمة ، مع منافاتها للانسانية والحرية والحق ، وهم يرون بأعينهم نتائج أعمالهم في الهيئة الاجتماعية الإسلامية التي أكلها الجهل ، وأفنى قواها الجاهلون بالحيلولة بينها وبين كل خير ومصلحة ، فصبر جميل .

الأستاذ الطاهر بخير ، إلا أني لم أره هذا الاسبوع لأطلعه على كتابكم . وشقيقي يسلم عليكم .

وسلامي واحترامي على الأستاذ الكبير[1] ، والأشقاء الكرام ، وكل من يسأل عني ، ودمتم بخير سيدي .

٦ صفر ١٣٢٨

رفيق

(١) الشيخ عبد الرزاق البيطار .

من مصطفى الغلاييني

(٢٠)

سيدي الأستاذ العلامة الشيخ جمال الدين افندي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد فقد أخذت هديتكم النفيسة ، وهي ما سعيتم بنشره من الآثار الأصولية[١] ، في هـذه الأثناء ، فشكرت همتكم القعساء ، وعزيمتكم الشماء ، لصرفكم نفيس الأوقات دون نشر العلم والفضل بين الناس ، فجزاكم الله خيراً .

وكان حضرة العم الأديب الفاضل عزتلو يحيي افندي تللو قد أهداني بالنيابة عنكم نسخة منهـا أيضاً ، فكان لي الشرف أن أحظى بها مرة ثانية ، متوجة بخطكم الـكريم ، أدامكم الله ركناً للعلم ، وحصناً للفضيلة .

علم الأصول من العلوم النفيسة ، ونرى المشتغلين به أقل من أن يعدوا ، مع ان هذا من الخطأ الفاضح على ما أظن ، لأنه — فضلاً عن كونه من العـلوم الشرعية التي يعرف بواسطتها كثير من المشكلات الدينية — علم يوسع العقل ،

(١) هي مجموعة رسائل في أصول الفقه نشرها القاسمي .

وينير الذهن ، ويربأ بالإنسان عن التقليد الصرف ، إلى درجة معرفة مآخذ أدلة الأحكام ، ومفاهيم الكلام العربي من حيث هو ، لا يختص بكتاب وسنة ، فتركه ضربة قاضية على العلم الديني .

وأظن أنه لم يحكم بوجوب التقليد البحت إلا نفر بعدوا عن درك هذا العلم على حقيقته ، فلم يقفوا منه على غاية ، ولم يعرفوا له فائدة .

ومن العجيب أن رجلاً كصاحب كتاب « الإرشاد والتعليم » يتصدى لحث النـاس على تحصيل العلوم الشرعية ، وتبيين العلوم ، غثها وجيدها ، يحكم بأن لا فائدة من تعلم الأصول في هـذه الأيام ، وتمسك بعلل باطلة لا تسمن ولا تغني من جوع .

غير ان الـكتب المؤلفة في هذا الفن ، المنتشرة بيننا ، خرج فيها مؤلفوها عن الأصول وحقيقته ، وجعلوها كتب جدل ومناظرة ، فمن قرأها يُخيَّل له ان حروباً شُبَّت نارها ، وسُعِّرت لظاها ، كلٌّ يوجه رصاص الانتقاد على الآخر ، ويسدد عليه مدافع التبكيت ، حتى خرجوا في مناظراتهم عن جادة المنـاظرة والآداب ، إلى بيداء البذاء والشتائم ، فأضاعوا العلم وحرموا المتعلمين من فوائده الصحيحة . وأظن أن هذا العمل هو ما عدل بكثير من المتعلمين عن تلقي هذا العلم النفيس . أضف إلى ذلك ركاكة عبـاراتهم ، وتشويش جملهم وتعقيدهـا ، حتى أُلحقت بالمعمَّيات والألغاز . هدانا الله إلى سواء السبيل بمنه وكرمه .

لهذا نرجو من فضيلة الأستاذ حفظه الله أن يُعني لنا بالبحث عن كتاب في

هذا الفن الجليل ، إما من آثار العلماء الحقيقيين ، أو من تأليفه ، يكون موافقاً لروح العصر ، خالياً من التشويش والتعقيد ، مُعَزَّزاً بالشواهد على القواعد ، لأن المثال مما يزيد القاعدة إيضاحاً ، بسيطاً غير موجز ، لأني أعتقد أن مختصرات العلوم لا تفيد غير المحصلين للعلم ، فيأخذونها بمنزلة تذكرة مجملة لما درسوه مطولاً . وأُريد بالبسط : أن تكون القاعدة التي تؤدَّى بالسطرين اختصاراً ، تؤدَّى بأربعة أسطر أو خمسة مع التوضيح والبيان .

ولست أقصد بذلك أن يقرأ المبتدىء او المتوسط كتباً تحيط بجميع قواعد الفن ، لأن هذا أيضاً من خطأ التعليم ، فالتدرج في العلم من أعظم وسائل تحصيله ، والأستاذ رعاه الله أدرى بما يحتاجه العصر ، من تسهيل كتب العلم ، وتقريب منالها على المتعلمين ، وترتيبها ترتيباً حسناً ، وطبعها طبعاً متقناً ، لأن ذلك مما يحمل الناس على الإقبال على درسها وتدريسها .

وإني أُفضّل أن يكون الكتاب من تأليف الأستاذ حفظه الله لما قدمتُ من معرفته بما يُحتاج إليه من التسهيل وغيره ، لأن الوقت أنفس من أن يضيع في حل المعميات ، وتوضيح الآراء .

سُررت جداً من تلك الحواشي والشروح التي علقتموها بأسفل صفحات الرسائل ، غير أني رأيتكم في بعض المحال تتكلمون في بعض المطالب . ومَثَلكم مَثَل من يقدم رجلاً ويؤخر أُخرى . وقد علمت سرَّ ذلك ، وعذرتكم عليه ، لمراعاتكم الزمان والمكان .

وفي بعض المواضع توطئون لما ترتأون مقدمات تغفر لكم عند أصحاب الجمود ما تضادّونهم فيه من الآراء ، وهي طريقة حسنة ، ونعمت الطريقة ، لأن مفاجأة الناس بما لم يعهدوه مما يزيدهم جموداً على ما ألفوه ، وتمسّكاً به ، فضلاً عن كونها تنفرهم ممن فاجأهم بذلك .

و « من طلب أمراً لا بد له من الوصول إليه ، صبر على الطريق وما فيها من وعورة ومشقة » . فصبراً صبراً .

« إن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً » .

فلا بد ان ينكشف دجى هـذا الجمود ، ويزول الرين عن تلك العقول ، « بل نقذف بالحق على الباطل فندمغه فإذا هو زاهق ، إن الباطل كان زهوقاً » ، و « إنما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه » كما قال الأستاذ الإمام .

وفي الختام ، زودوني بالأدعية الصالحة ، ولا تحرموني من آثار نصحكم وفضلكم .

بيروت في ١٦ جمادى الأولى ١٣٢٥

مصطفى سليم الغلاييني

(٢١)

مولاي الأستاذ العلامة صاحب الفضيلة الشيخ جمال الدين افندي

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته

وبعد فقد بارحت دمشق والقلب موله بالعود إليها ، مغرم بما رآه من كرم الأخلاق ، وطيب الأعراق ، واللسان تالٍ آيات الشكر والثناء ، ناشر أعلام المدح فوق الأعلام ، وما ذلك إلا لما جبلت عليه أهل دمشق من الرقة واللطف والإيناس والفضل :

وما حب الديار شغفن قلبي ولكنْ حب من سكن الديارا

أقدرني الله على بعض فضل الأستاذ رعاه الله ، وأعانني على القيام ببعض ما يليق بفضله الزاهر من آي الشكر والتقريظ ، راجياً من الله سبحانه ان يكثر من أمثاله في الأمة ، إنه سميع قريب مجيب .

بعلبك في ٨ شعبان ١٣٢٥

الداعي

مصطفى سليم الغلاييني

من الشيخ مصطفى نجا

(٢٢)

سلام الله تعالى وتحياته ، ورحمته وبركاته ، على الهمام الذي جمع المحاسن وأوعاها ، ونشرها وأبداها ، وأظهر فخرها وتجمّل بحلاها ، الأستاذ الأجل الكامل ، والعالم العلامة العامل ، صاحب الفضيلة والمجد ، والمناقب المستحقة للشكر والحمد ، حضرة الشيخ جمال الدين افندي القاسمي ، مد الله في حياته ، وأمده بجنود توفيقاته آمين .

وبعد ، فإن كتابكم الكريم وصل إليّ ، والأشغال كثيرة لديّ ، ولهذا تأخر الجواب عن غير قصد مني . على أني قابلته بالشكر والممنونية ، وتيمنت بما تضمنه من العواطف السنية ، والتهنئة بالعيد السعيد ، أعاده الله تعالى على سيادتكم وعلى جميع الأمة بالعز المديد ، والعيش الرغيد ، أعواماً كثيرة بمنه وكرمه .

وقد استلمت ما تفضلتم به من نسخ كتاب « مجموع الرسائل » ، وتشرفت بالاطلاع عليه ، فوجدته حوى أهم المسائل ، وجمع من أصول الفقه فوائد يعجز عن وصفها اللسان والقلم ، وفرائد مشرقة بجوامع الكلم ، وبدائع الحكم . فالله

تعالى يجزيكم عنا خير الجزاء ، بإظهار هذا الأثر الشريف ، من عالم الخفاء .

وبالجملة فهو كتاب جمع كتباً بديعة المعاني ، رقيقة المباني ، مفيدة لمن طلب الوصول إلى علم الأصول ، ومؤلفوها رضي الله تعالى عنهم من أكابر علماء المنقول والمعقول ، وفيه أقول :

عليك بمجموع الرسائل إنه   كتاب به تلقى أجلّ المسائل
وما هو إلا كنز علم وحكمة   ومورد فضل سائغ للأفاضل

وأما تعليقاتها فهي صادرة عن قلم حبر حدوده كالبحر ، فلا عجب إذا لفظ الدر ، وأتى بما يسرُّ القلب ، ويشرح الصدر .

* * *

وخلاصة القول : إن هذا الداعي يشكر فضلكم من صميم الفؤاد ، ويدعو الله أن ينفع بعلمكم العباد ، ويرجوكم أن تمدوه بخير الدعوات ، وحسن التوجهات ، وتشرفوه بما يلزم من الخدم ، ودمتم فائزين بأكمل النعم .

عن بيروت في ١١ شوال ١٣٢٤

الداعي

مصطفى نجا

ومني جزيل السلام ، على حضرات الأفاضل إخوتكم الكرام

من الشهيد عبد الحميد الزهراوي

(٢٣)

بيروت في ١٤ شوال ١٣٢٩

سيدي الأخ الساطع الفضل العظيم الإخلاص الشيخ جمال الدين افندي القاسمي

أسعد الله وقتكم

وصلت بيروت ليلة السبت بعد نصف الليل ، ولم أتمكن اليوم من كتابة هذا إلا بعد الظهر ، فلذلك تراني في خجل وأسف من عدم تمكني من كتابة الموضوع كما كنت شرعت فيه ، وإنما حرصت على تقديم شيء في الجملة لتنفيذ أمركم ، فيمكنكم أن تأثروا عني في رسالتكم النفسية هذه الجملة فقط :

« هذه المسألة ليس فيها نص عن المعصوم ، ولا عن الأئمة رضوان الله تعالى
« عليهم . وأنا لم يظهر لي أن الناس يأثمون بصيامهم إذا أنبأ القاضي قاضياً آخر
« بالتلغراف ، عن ثبوت هلال الصوم عنده ثبوتاً شرعياً ، ولا يأثمون بفطرهم
« أيضاً إذا كان النبأ عن هلال الفطر . بيد أن قبول الإنباء عن هلال الصوم ،
« دون الإنباء عن هلال الفطر ، يكون ترجيحاً بدون مرجح . فإذا قبل الناس

« هذا الترجيح لأجل الاحتياط فقط ، فلا أراهم مرتكبين خطأ كبيراً . هذا فيما
« يتعلق بالصوم والفطر . وأما سائر ما يتعلق بإثبات الأهـلّة من قضايا الناس ،
« كآجال الديون ، والعِدَد ، ومدة الحضانة ، وما أشبه ذلك ، ممـا قد تجتمع
« فيه الحقوق الدنيوية مع الدينية ، فلا أرى فيها الإثبات بالتلغراف كافياً ؛ لأن
« حقوق العبـاد مبنيّة على المشاحَّة ؛ والإنبـاء بالتلغراف لا يكفي حجةً في نظر
« المتقاضين والمتخاصمين ؛ والله سبحانه أعلم . »

★ ★ ★

كتبت على عجلة زائدة ، فلا مؤاخذة . والسلام عليكم ورضوان الله تعـالى
وبركاته ، وعلى مولانا الأستاذ الكبير ، وعلى إخوتكم المحترمين وسائر الإخوان .

عبد الحميد الزهراوي

من محمد كرد علي

(٢٤)

دمشق الشام في ١٤ ذي القعدة ١٣٣٠

سيدي الأستاذ الجليل

كتابي عن الفيحاء ، وأنا في صحة وشغل شاغل ، بعد تلك المسائل ، فعسى أن يكون سيدي قرير العين بأعماله العلمية ، ينفع قومه بحديثه وقلمه وبحثه .

وإني مهما شطَّ المزار ، لا أزال أذكر أياديه عليّ وعلى الآداب .

وها إني أُقدم لك شاباً من خيرة شبان بيروت الفضلاء أحمد افندي صلاح الدين ، هبط مصر هذه المرة ، فأحببت أن يعد في سجل أخصاّء المولى والملتفين حوله ، المعدودين في جملته . فعساه يلقى من السيد السند ما يلقاه أمثاله من المظاهرة أيده الله . وأرجو تشريفي بما يلزم ، ودمت

للداعي

محمد كرد علي

من الشهيد الدكتور صالح قنباز

(٢٥)

حماه : الأحد ٩ رجب سنة ١٣٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على محمد وآله أجمعين .

سيدي ومولاي العلامة جمال الدين ، وينبوع الحق واليقين ، أدامه الله ركناً للاسلام والمسلمين .

أقبل يديكم الطاهرتين ، راجياً نظركم إليّ بعين الرضا ، آملاً عفوكم عما مضى . لا أقدر أن أبدي عذراً مقبولاً ، ولا أستطيع أن أرتب سبباً معقولاً .

فإنني بعد وصولي حماه ، بقيت مدة أسبوع بها بين إخوة وإخوان ، تارة تقلّنا الزورق وأخرى تظلّنا أشجار البستان ، والسرور كان يطوف علينا بأكوابه ، ويسقينا الهناء لذيذ شرابه ، إذ كان مجلسنا عامراً بذكركم ، حافلاً بالناس ألسنتها تنطق بشكركم ، فلا هم أنسوني فضلكم ، ولا تناسيت ، بل ذكّروني وذكّرتهم ، وحدثوني وحدثتهم . فكيف يكون القلم متعاصياً واليد متحركة ، والفكر خالياً والألسن ناطقة ؟

وبعد هـذا الأسبوع ، جلت متنزهاً في القرى نحواً من خمسة عشر يوماً ثم عدت ، ولدى اجتماعي بالشيخ سعيد افندي النعسان المرة الثانية بعد الأولى ، التي بلغته فيها ما أمرتموني به ، أراني ما كان محرراً في مكتوبه ، فألفيته أحلى مما قضيت من اللذات ، وأكبر ما فعلت من السيئـات ، فتمثلت طمعـاً بعفوكم بمـا قيل :

تجـاسرنا على اللذات لما رأينا العفو من ثمر الذنوب

فإن تعفو فذلك ما أتمناه ، وإلا فقصاصي يكون إن شاء الله بحماه ، فإني ظمآن لخدمة أتشرف بعملها ، أو أمر أقوم بأدائه .

والسـلام على الشيخ قاسم افندي[1] والشيخ حامد افندي[2] وصـلاح الدين افندي[1] . كما أن سعادة محمد بك[3] وفائز بك[3] والشيخ سعيد افندي[4] ووالده وأحمد افندي والشيخ حسن افندي الرزق يهدونكم أحسن التحيات مولاي .

محمد صالح[5]

---

(١) القاسمي (٢) التقي (٣) العظم (٤) النعسان

(٥) هو الطبيب الاديب صالح قنباز ، استشهد في ٥ ايلول ١٩٢٥ يوم ثورة حماه ضد الاستعمار الفرنسي ، صرعه رصـاص الفرنسيين وهو في طريقه إلى القيـام بواجبه الانساني . كان أحد قادة الفكر ، وأعلام السياسة ، ومن الرواد الاوائل للنهضة العربية .

(٢٦)

من عباس البهائي

هو الله

أيها الفاضل الجليل النحرير النبيل المحترم

قد وردتني نميقتك الغراء ، بل الخريدة النوراء ، تتلألأ منها أنوار الوفاء ، لكل ممعن النظر في معانيها ، فطابت نفسي ، وانشرح فؤادي ، من تلك العبارات الرائعة اللفظ ، البديعة المعاني ، تدل على عاطف رحمانيّ ، وإحساس وجداني .

شكرتُ الله على وصولكم إلى ربوة ذات قرار ومعين ، في صون حماية ربكم الرحمن الرحيم . وعليك التحية والثناء .

سلخ جمادى الأولى سنة ١٣٣٢ الداعي

عباس

ملاحظة : عرضت أصل هذا الكتاب على الأستاذ خير الدين الزركلي ، فرجح أن صاحبه عباس افندي البهائي الشهير ، رئيس الفرقة البهائية المعروفة . (المؤلف)

من الجمعية الخلدونية بتونس

وفي الكتاب الآتي دليل تاريخي على قيام نهضة علمية في تونس ، أواخر القرن الماضي ، على الرغم من ضغط الاستعمار الفرنسي ، ومحاولته طمس معالم الإسلام والعروبة في هذا القطر العربي الشقيق .

فلقد أُسست في تونس جمعية سميت « الجمعية الخلدونية بتونس » ، عام ١٣١٤ هـ كما هو واضح من خاتمها الذي على الكتاب .

واسمها يدل على المسمى ، فقد شاء مؤسسوها أن يحيوا ذكر الفيلسوف المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون .

ودلالة الكتاب الظاهرة أن القاسمي كان يتتبع الحركات العلمية في العالم الإسلامي ، على تباعد أقطاره وتنائيها ، وتمزيق الاستعمار لها .

ففي الكتاب أن القاسمي علم بهذه الجمعية فأهدى إليها كتبه المطبوعة ، من غير طلب منها ، فأرسلت إليه تشكره على هديته :

(٢٧)

الجمعية الخلدونية

بتونس

الحمد لله وحده

٢٣ ربيع الأنور سنة ١٣٣٠

العالم الجليل الأكتب الشيخ سيدي جمال الدين القاسمي الدمشقي دام حفظه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد فقد بلغ الجمعية « الخلدونية » هدية جنابكم من التآليف النافعة الذي (كذا) أتحفتم بها مكتبتنا .

وبمناسبة ذلك قرر مجلس جمعيتنا في جلسته الأخيرة تقديم وافر الشكر ، وجزيل الامتنان ، إلى جنابكم ، على إحساساتكم الشريفة ، وهمتكم العالية ، ومعاضدتكم لمشروع مكتبة الجمعية الخلدونيـة ، الذي هو من أهم المشروعات الوطنية ، التي منّ الله بها على القطر التونسي .

ولقد تشرفت جمعيتنا برسم اسمكم الكريم بدفتر المتبرعين عليها (كذا) ، شاكرة فضلكم على إحساسكم الإسلامي ، والله لا يضيع أجر المحسنين عملاً وهو خير المحسنين .

وفي الختام تقبلو سيدي الفاضل عبارات الشكر مع مراسم احترامي الفايق .

الهادي بن عمار

حافظ مكتبة « الخلدونية »

من عالم روسي

يظهر من هذه الرسالة أن رجلاً روسياً مسلماً اسمه حسن بن ملا أحمد القزبحاري زار دمشق ، وتعرف فيها إلى القاسمي ، فلما وصل إلى وطنه كتب إليه .

وقد أثبتنا هذه الرسالة لأن فيها دلالة على ناحيتين هامتين :

الأولى — أن الرقابة على المطبوعات كانت قائمة في ظل الروسيا القيصرية . وما ندري هل كانت مقتصرة على الكتب العربية ، أو على المطبوعات كافة .

الثانية — أن في الرسالة إشارة إلى اشتغال كاتبها بالتدريس والإفادة والاستفادة . وروح العبارة يسمح باستنتاج أمر هام ، أظنه قد انقرض في هذه الأيام ، وهو أنه كان في الروسيا القيصرية من يهتم بالثقافة الإسلامية ، ومن يحرص على تدريسها ، ومن يرغب في تعلمها .

وقد أثبتنا الرسالة كما جاءت ، من غير تصحيح لأخطائها ، بغية التعرف على أسلوب الأعاجم حين يتصدون لكتابة العربية ، في أوائل القرن العشرين .

(٢٨)

١٦ ربيع ثاني ١٣٣١ هـ — ١١ مارت ١٩١٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

من الفقير إلى الله تعالى العاجز لديه حسن بن ملا القزبخاري

إلى حضرة سيدي ومولاي ، العالم العلامة ، السيد شيخ الشيوخ ، وأستاذ الأساتذة ، حضرة جمال الملة والدين افندي ، جمّل الله به وجه الملة وأنارها ، وحفظه نافعاً للأمة وبه أقامها . آمين

أما بعد ، إنني يا سيدي بحمد الله سبحانه وتعالى قد رجعت إلى وطني سالماً ، وبدعائكم الخيرَ غانماً . ولم يلحقني أدنى ضرر ولا مشقة في الطريق .

وعند خروجي إلى أرض الروس ، قد أُخذ (كذا) مني الكتب التي عندي لتفتيش النظارة ، ولكن لله سبحانه وتعالى الحمد والمجد ، كلها خلصت من النظارة ، ووصلت إليّ بعد ما رجعت إلى وطني . . .

و إني الآن بحمد الله تعالى في صحة وعافية مع أهلي وأولادي ، وفي اشتغال بالتدريس والاستفادة ، وبمطالعة الكتب المهدية (كذا) من جنابكم حفظكم الله ، وأكتب إن شاء الله مكتوباً مفصلاً في وقت آخر .

وأرجو من حضرتكم دوام المواصلة والألفة ، رزقكم الخير .

ويعذرني مولاي إذ لم أكتب مكتوباً إلى هذا الحين .

الحسن القزبخاري

ثم أعقب ذلك عنوانه بالروسية .

من عالم كويتي

وهذه رسالة من عالم كويتي اسمه عبد العزيز بن أحمد الرشيد البداح الكويتي . صدرت عن الكويت في جمادى الأولى ١٣٣٢ ، أي قبيل وفاة القاسمي .

ومن تصفحها يتضح أن هذا القطر العربي الشقيق لم يخل ، حتى في تلك الحقبة ، من قائم بأمر الله ، حريص على شريعته وعلومها ، وعلى العربية وآدابها .

وإذا كان هذا الكتاب عنواناً ، فإنه عنوان على نهضة علمية كانت قائمة في الكويت .

أضف إلى ذلك أن هذه الرسالة قد تضمنت حرصاً على تحري الحق ، وأدباً مع العلماء ، وهما من سجايا العلماء وطلاب العلم في كل الأزمان .

أما أسلوبه فعربي أصيل مشرق . وإذا كان فيها بعض الخطيئات ، فذلك مما يغتفر في الرسائل الخطية التي يزل فيها القلم .

(٢٩)

بسم الله

من الكويت الى دمشق الشام

أهدي سلاماً أسنى ، وتحية حسنى ، للعالم الفاضل ، والأستاذ الكامل ، صاحب الحق والتحقيق ، والتنقيب والتدقيق ، من شهرته تغني عن التنويه بشأنه ، وفضله ينبي عن رفعة مقامه ومكانه ، الأستاذ الشيخ جمال الدين القاسمي المحترم ، سلمه الله تعالى وأبقاه ، وحرسه وحماه . آمين

وغير هذا ، أيها الأستاذ الأكمل ، فقد أرسلت لجنابكم الشريف كتاباً من من المدينة المنورة ، وذكرت لكم فيه استشكالات عندي على جوابكم بأن الإمام البخاري لم يرو عن الإمام أحمد ، وطلبت من سيادتكم الجواب عنها ، ولكن لم يأتني جواب عن ذلك ، عسى المانع لذلك خيراً .

وإني أخبر سعادتكم الآن بأني أكملت في هذه الأيام الرد على كتاب « ابن عقيل[١] » ، وقد بلغ الرد نحواً من ثلاثة وخمسين كراساً ، ونحن الآن مشتغلون بتصحيحه . . .

---

(١) إشارة إلى كتاب : النصائح الكافية لمن يتولى معاوية .

وغير هـذا ، أيها الأستاذ ، فإني قد طرزت حواشي ذلك الرد بعبـاراتـكم الفائقة ، وإرشاداتـكم الرائقة ، في كتابكم النقد[1] ، ومن جملة تلك العبـارات العبارة التي أجبتم فيها عن البخاري في عدم روايته عن جعفر الصادق .

ومن المعلوم لديكم أن من جملة الوجوه في ذلك الجواب ، هو أن الإمام البخاري لم يرو عن الإمام أحمد ، وعن الشافعي ، إذ الـكلام فيه واضح .

وأنت تعلم أيها الأستاذ ، أني لم يطمئن خاطري للتسليم بهذا الوجه . وحيث أنه لم يطمئن الخاطر لذلك ، فهل ترى أن أذكر المـكاتبة التي جرت بيني وبينك في هذا الخصوص ، وأن أذكر الشبه التي قامت عندي في ذلك ، وإنه لا بأس به ، حيث كان القصد هو طلب الحق ؟ أو ترى عدم ذكر المسألة بالـكليـة ، وطوي[2] بساطها ، وعدم المنـاقشة فيها ؟ وإنما ذكرت لـكم ، أيها الأستاذ ، ذلك لأنني أخشى إذا ذكرت ذلك في الرد أن يسوءكم ، مع أني أطلب رضاكم ، وأستمطر فوائدكم الجمة ، ومقاصدكم المهمة ، فأجني على نفسي من حيث لا أشعر .

ثم أعلم ، أيها الأستاذ ، أنـكم إذا لم تجيبوني عن هـذا السؤال ، والسؤال المتقدم أيضـاً من المدينة ، وأردنا طبع الرد قبل وصول الجواب ، فإني لا أتعرض للمسألة ابتغاء لرضاكم ، الذي هو أشهى من الماء النمير للصديان ، أو الوصال بعد طول الهجران ، وتجنباً عما يخدش وجه المصافاة .

---

(١) إشارة إلى كتاب : نقد النصائح الـكافية للقاسمي .

(٢) كذا في الاصل ، والصواب : طي .

مع أني أيها الأستاذ ، قد علمت بتتبع تلك المسألة من مظانها أن الإمام البخاري روى عن إمامنا الإمام أحمد قطعاً .

ولكن مع هذا ، إيثاراً لرضاكم ، نطوي بساط المناقشة ، مع أنه يترجح عندي أن لو ذكرت ذلك في الرد لما ساءكم ، حيث أنكم[1] من أجل طلب الحق ، ورفع نزغات الخلاف بين الفرق .

هذا وأرجو من إحسانكم العميم إبلاغ سلامي لسيدي الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرزاق البيطار ، والأستاذ الشيخ محمد كرد علي ، والأخ العزيز الشيخ محمد بهجة البيطار . . .

في ٢٤ جماد أول ١٣٣٢

محبكم الآمل

عبد العزيز بن أحمد الرشيد البداح الكويتي

---

(١) كذا في الاصل ، والعبارة على اضطرابها مفهومة .

من محمد نصيف

المختارات التي ستراها في الرسالة التي بعث بها صفيّ القاسمي محمد نصيف من جدة في الرابع من ربيع الأول ١٣٣١ ، وقد أثبتناها لأن فيها وصفاً صادقاً للحالة الاجتماعية والثقافية والسياسية في الحجاز خلال تلك الحقبة .

وقد آثرنا إثباتها كما جاءت ، من غير أي إصلاح في أخطائها ؛ لأن أفكارها واضحة كل الوضوح .

وفي رأينا أنها من الوثائق التاريخية الهامة التي دونت في ذلك العصر .

(٣٠)

جدة في ٤ ربيع الأول ١٣٣١

جناب محترم المقام حضرة الأستاذ العلامة الفاضل سيدي الشيخ جمال الدين افندي القاسمي .

. . .

وفي نظر بعض الناس ابن العالم عالم ، ولو كان سائق حُمُر ، وابن المعلم معلم ، ولو كان ينحت أحجار ، أو يحمل شراب البركة ، والعلم يسري ببركة الميتين .

وأفيد جنابكم أن العلم والعقل مفقودين في الحجاز ، ولا بد أنكم رأيتم رحلة الخديوي ، وما ذكر البتنوني عن الأخلاق في الحجاز ، فهو عين اليقين ، الله يستر ويجمل ، سماعك بالمعيدي خير .

وإن المدارس في الحجاز — كما قلتم — أُحبولة للاعانات ، ولارتزاق الفقرا العجز ، وليس لأولياء الأمور قصد إلا بقاء الأمة في أعظم الجهل ، حتى لا يطلبوا حقوقهم منهم .

وإن في خاطري أُموراً عظيمة ، أنتظر يوم لإظهارها . . . وإنني الآن أطالع « طبائع الاستبداد » للكواكبي ، وكل ما قاله من أحوال المسلمين هو واقع في الحجاز . . .

محمد نصيف

(٣١)

من لويس ماسنيون

91 Rue de L'Université
PARIS — VII
FRANCE

إلى حضرة العالم العلامة عين من أعيان علماء الشام الشيخ جمال الدين القاسمي الأفخم .

عليكم سلام الله تعالى ورحمته وبركاته .

أما بعد فقد جاءنا من بغداد كتاب إجازة لإرسالنا هذا الكتاب الآتي إلى حضرتكم ، والإجازة من أستاذنا المحترم السيد محمود شكري الآلوسي ، هو صاحب كفالتنا ، وأبو عذر مراسلتنا ، بتحضيره لكم سمايات[١] الفقير في تاريخ الإسلام .

ولذلك رتّبتُ في فكري أن أكتب إليكم كتاباً استشاراً[١] استفتاء مستشهداً في بعض مباحثنا الحلاجية .

لما أردت أن أجمع أولاً الفتاوى المستفتى[١] من علماء الإسلام في قضيته وحكمه بإجماع الأمة ، وقد رتبتها في ثلاث طبقات :

---

(١) كذا في الاصل .

قبول (أي اعتذار أو ترحُّم) .
توقُّف .
ردّ (أي تكفير) .

★ ★ ★

وهنا أَسامي العلماء الذين قبلوه بفتوى : الباقلاني (المالكي) — ابن عقيل (الحنبلي ـ وتاب عن ذلك) — الغزالي (الشافعي) — يوسف الهمذاني (الشافعي) — ابن عربي (الظاهري) — عز الدين المقدسي (الشافعي) ـ الشعراني ـ عبد الرحيم (الحنفي) — النابلسي (الحنفي) ـ

وهنا أُسامي العلماء الذين توقُّفُهم مشهور : ابن سريج (الشافعي) ـــ ابن بهلول (الحنفي) ـــ القشيري (الشافعي) ـــ الكيلاني (الحنبلي) ـــ عيسى الرهوي الجعفري (الشافعي) ـــ ابن حجر العسقلاني (الشافعي) ـــ ابن حجر الهيثمي السويدي (الحنفي) ـــ .

وهنا أسامي العلماء الذين نسبوه إلى الكفر : الجُبَّائي (الحنفي) ـــ ابن داود (الظاهري) ـــ ابن شيبان (الشافعي) ـــ أبو عمر الأزدي (المالكي) — ابن حزم (الظاهري) — الجويني (الشافعي) — أبو بكر الخطيب (الحنبلي) — أبو جعفر (الحنبلي) ـــ عيّاض السبتي (المالكي) ـــ ابن الجوزي (الحنبلي) — أبو حيّان (الظاهري) — ابن تيمية ـــ الذهبي (الشافعي) ـــ ابن خلدون (المالكي) — العكّري (الحنبلي) ـــ .

ولما كنت رتبتها استبحثت حلائلها بالتدقيق ، وما وجدت أحد[1] أقوى وأشد

---

(١) كذا في الاصل .

السطوة على الحلاج بالبراهين العقلية والنقلية من شيخ الإسلام ابن تيمية ، ولذلك اقتبست من جواباته في الحلاج متون[1] كثيرة ، منها :

(١) كتاب إلى المنبجي (بحث في الكلمة « أنا الحق ») .

(٢) فتوى رد فيها على ترحّم الحلاج (قدر صحيفتين وطبع في « جلاء العينين » ص ٥٣) .

(٣) شرح العقيدة الأصفهانية الواسطة (جملتين على سحر الحلاج) .

(٤) كتاب ما يقول السادة العلماء (رضع) - أي رضي الله عنهم - في الحلّاج الحسين بن منصور ، هل كان صدّيقاً أو زنديقاً . . . الخ (قدره ستة عشر صحيفة مذكور فيها حالات شيطانية) .

(٥) سؤال إلى شيخ الإسلام . . . في كراس وحد وهو مجموع حِكَم من مذهب الحريرية (الدمشقية) وفيه استشهاد بأبيات للحلاج - ورد عليها شيخ الإسلام بالتدقيق (قدره مئة صفحة) .

أما للنمروين[2] (٤) و (٥) فاستنسختها بإسعاد السيد محمد صادق المالح الدمشقي النسّاخ عند كتبخانة الظاهرية ، وجدها في جزء من أجزاء « الكواكب الدرية » .

ولكن لعلّنا ما وقعنا إلى اليوم على أدق تأليف ألّف شيخ الإسلام ابن تيمية في المسألة الحلاجية ، لأننا سمعنا أخيراً من أُستاذنا العالم السيد محمود شكري الآلوسي

---

(١) كذا في الاصل .

(٢) مثنى نمرو أي رقم .

أن لابن تيمية كتاب[1] خاص رد فيه رداً منفصلاً على الحلاج ، وأن[1] يوجد منه نسخة محفوظة إلى الآن في كتبخانة من كتبخانات دمشق وهي « دار الحديث » ـ وأظنها (تلك الدار الحديث) هي المدرسة الأشرفية المعروفة بدار الحديث النووية ، التي درسوا[1] فيها أبو شامه والنووي والسُّبكي ، وقد جددها في سنة ١٢٧٤ الأمير عبد القــادر الجزائري (ارجع إلى « تحفة الزائر » لابنه عبد المــالك ج ٢ ص ٧٥ ـ ٨١) .

ونلتمس من لطفكم أن تخبّرونا عن هذه النسخة المحفوظة عند « الدار الحديث النووية » ، أي : هي مطوّلة أو مقصّرة (لعلها المتن الذي قد سبق ذكره تحت النمرو (٤) في هذا الجواب) وأن تفيدونا من علمكم المخنبرة لحكم الحلاج ، أي هو على إجماع الأمة الإسلامية .

هذا مع تقديم الاحترام والسلام إلى حضرتكم وآلكم وما يعزكم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

في ٨ آذار سنة ١٩١٢

الفقير إليه سبحانه

(توقيع) : لويز ماسنيون Lonis Massignon

(ختم) : عبده لويز ماسنيون

ملاحظة : نشرنا الرسالة كما وردت ، ولم نعمد إلى تصحيح شيء من الأخطاء اللغوية فيها .

---

(١) كذا في الاصل .

من عبد الرحمن الكتاني

(٣٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

سلام يُعطر عبيره المشارق والمغارب ، وينيل المحبّ من المحبوب أعظم المآرب ، لا يزال يغدو ويروح ، على من تخللت محبته الجسم والروح ، حضرة مولانا الشيخ جمال الدين القاسمي متّع الله الانام بوُجوده ، وأفاض على المعتفين سجالَ كرمه وَجوده ، وقطع شقة البَيْن بيني وبينه ، وأقر بمشاهدته عيني وعينه ، آمين .

قد أُلقي إليّ كتاب كريم ، يخاله الناظر الدرّ النظيم :

وما الدُّرُّ النَّظيمُ لديه شَيْءٌ إذا أَنْصَفْتَهُ فيما تقول

فانشرح به ولله الحمد صدري ، واستنار بلَوامع أنواره السنية فكري ، وزال به ما كان خامر الفؤاد ، مِمَّا تخيله من الصدود والبعاد .

ونِلتُ المُنى لَمَّا قرأتُ سطوره ولم يبق لي شيءٌ أُمَنّي به نفسي

ولعمري إن الشوق إليك في كل حين ينمو ويزيد ، لما يبلغنا عنك من الفضل المديد ، والاتباع للطريق الأقوم ، والوقوف عند ما حدّه الحجاب الأعظم ، ونود أن نكثر الرسائل ، فإنها من أعظم الوسائل ، فلا زلت في عز وإسعاد ، ودلالة وإرشاد .

آمين آمين لا أرضى بواحدةٍ حتى أُبلّغها آلاف آمينا

هذا وما أشرت إليه من إطْلَاعِ العُبيد القاصر حضرتكم على ما له من التحارير ، فأنا عن ذلك أيها الصفيُّ بمعزل ، وليس مع أهل ذلك المنهل من منزل ، لعمر أبيك ما نُسب المعلّى إلى كرم وفي الدنيا كريم ، لكن نرجو من الله تعالى ببركتكم ودعائكم الصالح واعتقادكم فينا أن نحصل إن شاء الله على ما هنالك .

ما كنتُ أهلاً فَهُم رأوْني لذاك أهلاً فصرتُ أهلا

٢٤ جمادى الثانية عام ١٣٢٤

عبد الرحمن بن جعفر الكتاني

(٣٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

. . .

وما طلبتَه من العُبَيْد من تقييد أسماء الكتب الموجودة في خزائن مشاهير الفضلاء ، فهذا أمر متعذِّر جداً ، وغالب من عنده من الكتب النفيسة المعتبرة لا تسمح نفسه بإعارته ، بل ولا يفوه بكونه في ملكه ، خوفاً عليه من الضّياع ، فإن غالب من يستعير كتاباً يأخذه بقصد عدم ردِّه ، فلا يرد المستعير الكتاب إلاّ بمشقة عظمت . ولذلك أكثر الشعراء في التحذير من إعارة الكتب .

ثم إنه لما تعذر عليَّ هذا جنحت إلى تقييد الكتب الموقوفة ، فوجدتها مثل ذلك أو أكثر . وذلك أن عندنا بهذه المدينة المحروسة بالله خزائن عدة من الكتب موقوفه على من ينتفع بها من طلبة العلم ، وأعظمها أربعة : خزانة جامع القرويين ، وخزانة جامع الأندلس ، وخزانة جامع الرصيف ، وخزانة جامع فاس الجديد . وكان في كل واحدة من هذه الخزائن من الكتب النفيسة المعتبرة ، لا سيَّما دواوين مذهب الإمام الأعظم إمامنا مالك بن أنس رضي الله عنه ، ما لا يحصى كثرة .

وكان قيِّم كل خزانة لا يفارقها نهاراً ، ومن احتاج إلى شيء منها أخرجه له إلى حريمها ، فيقضي منه غرضه ثم يرده لمحله . ثم إنه قلَّ الاعتناء من المباشرين

لذلك ، ووقع في ذلك التساهل . فصار كل من أراد كتاباً أخرجه منهـا وأعطى خطه بذلك الكتاب لقيم الخزانة ، إلى أن تفرقت الكتب كلها شذَر مذَر ، وبيع جلها ، لقلة دين المستعيرين ، وعدم خوفهم من الله جل جلاله .

ثم إنه قبل هذه الأيام بأعوام صدر الأمر من الإمام أمير المؤمنين مولانا الحسن رحمه الله بأن يتدارك ما أمكن تداركه منها ، فرُدَّ البعض منها ، ومن الناس من لم تسمح نفسه برد الكتاب لمحله فادعى ضياعه ، واشترى بدله مطبوعاً إن وجده .

ثم جُمع ما تحصل من ذلك بخزانة جامع القرويين ، وصارت لا تفتح إلا مرة واحدة في جميع الأسبوع ، وذلك نحو الساعة من يوم الخميس ، ثم لا تفتح إلا في نظيرتها من اليوم المذكور ، وكثيراً لا تفتح في اليوم المذكور .

ولا يمكِّن القيم شخصاً ما من كتاب إلا إذا أتى له بإذن من قضاة فاس الثلاثة وهم : السيد عبد الله بن خضراء السلاوي ، والسيد حميد بن محمد بناني ، والشريف سيدي محمد العراقي .

ولا يخفاك أيها الخِل الأصفى أنه حيث كان الأمر على ما وُصف ، ففيه كلفة كبيرة ، ومشقة فادحة ، وقد عاين ذلك بعض من كان هنا من قطركم المأنوس ، وهو السيد خليل الخالدي ، وعانى من ذلك مشقة ، وأفضى به ذلك مع قيِّمي الخزانة المذكورة إلى السب والشتم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فلأياً بلأيٍ اقتنص من ذلك ما أمكنه . على أنه ما قصَّر في هذا الأمر هنا ، فقد قيَّد في كناش له فيما بلغني أسماء كتب كثيرة ، هي في خزائن حواضر المغرب . ومع هذا كله فإني سأتكلم مع قيم الخزانة ، عساه يساعدني ويعيرني سجل الكتب

الموجودة هنـاك ، وأوجه لكم منه نسخة ، فإن ما أمرتم به لا ينبغي إهماله ، ولا يسعني إلا امتثاله وإعماله .

ثم بعد كَتْبي هذا اجتمعت به وطلبت منه ذلك ، فقال لي :

ــ ما الحامل لك على هذا ، وأي فائدة فيه ؟

فبينت له ذلك ، فامتنع وقال :

ــ أخاف أن يحصل لي ولك ضرر من هذا الأمر .

قال : وقد رام ذلك خليل الخالدي ، وأطلعناه على بعضها ، وقيَّد ذلك في ورقة ، ثم تحيَّلت عليه حتى أخذتها منه خوفاً من أن تلزمني عقوبة من الولاة من أجل ذلك . هذا كلامه .

وبالجملة فأهل هذا المغرب لا اعتناء لهم بهذا الأمر وأمثاله ، فكم ضاع في هذه البلاد من نفائس ، لو كانت في غيرها من البلاد المشرقية لضاع طيبها في سائر المجالس .

ولقد قضينا العجب من خليل الخالدي في ذلك ، وحرصه عليه ، والأمر لله وحده .

وأما الكتب المطبوعة هنـا ، فها هي تُملى عليك إن شاء الله عند ختام هذا المسطور . . .

١٠ شوال عام ١٣٢٢

عبد الرحمن الكتاني

من عبد الحي الكتاني الحسني

(٣٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل على النبي الفاتح الخاتم وعلى آله

حضرة الفاضل الأوحد ، الأحمد الأمجد ، النحرير البارع ، صاحب الفضل الذائع ، نبراس الكمالات ، ينبوع الإفادات ، العلامة الشيخ جمال الدين القاسمي السلفي أكمل الله مجده ، وأبَّد سعده ، وكان لنا وله ، وتقبَّلَ عملنا وعمله . وسلام على تلك المكارم ، ومحاسن الشيخ : الحديث منها والمتقادم ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، ما دامت لله تعالى سكنات العبد وحركاته .

أما بعد ، وفي كل ربع تُبوأ سعد ، فيعلم الله أن الفقير من يوم فارقتكم وهو لاهج بذكركم ، متشوّق لخبركم ، ناشر لمحاسنكم ، دائم الشوق إلى أن يُعيد ما فات ، من تكرار تلك اللحظات ، التي مرَّت معكم لكن لقصرها كانت كاللمحات ، أسأله الله العظيم رب العرش العظيم أن يجمعنا وإياكم في أحسن الساعات ، وأبرك الأوقات ، وأشرفها لديه وأحسنها عنده ، آمين .

وما أخَّرنا أيها الحِبُّ المتداني عن دوام مواصلتكم ، وكثرة مكاتبتكم ، إلا أهوال دهتنا ، ومصائب دهمتنا ، نسأل الله الفرج وحسن الخاتمة آمين ، خصوصاً في هذه الأيام الأخيرة التي تشوفت فيها إلى بلادنا أطماع الطاغية الفرنسيين ، أخذه الله أخذاً وبيلاً وكان لنـا عليه خير وكيل آمين . فقد ضاق الصدر ، وعظم الهول ، واشتد الكدر ، أللهم اهدنا فيمن هديت ، وعافنـا فيمن عافيت ، إنك سميـع الدعاء ، ورب الفضـل ومرسله ، استجب لنـا في دعوانا ، فإنهم لا يعجزونك ، آمين .

وقد وصلتنـا تلك الهدية السنية ، المجموعة الأصولية ، فابتهجت بهـا غاية الابتهاج ، أدام الله تعالى لكم التوفيق والترشيح لمثل تلك الحسنات الباقيات .

وقد مكَّنت ابن الشيخ الخال السيد عبد الرحمن الكتـاني من نقل رسالة ابن فارس اللغوي الحديثية ، فعسى أن تعمموا النفع بها مع ضراتها ، فإن علم الحديث غربت شمسه في هذا الحين ، وانتقل ضياؤه ، وغير بعيد إحياء كثير من كتبه ورسائله علي أيديكم ، فنسأل الله الكريم لكم الإعانة .

ولتعلم حضرتكم أن الفقير مسرور غاية السرور بوجود مثلكم في هذا العصر ، لما جمعتم من حسن الأخلاق ، وطيب الأذواق ، مع العناية بالأثر ، والاندراج في سلك المسندين ، ومحبة الأثريين ، وإذاعة آثارهم ، والشغف بجمع أخبارهم . فهذا شيء كنا نسمع به ولا نراه ، حتى كاد أن يُنسى سماعه أيضاً .

وإذا قال الحافظ الذهبي ، صدر تذكرة الحفاظ ، وقد كان في عصره من أئمة

الحديث ، ما يكاد أن يزعم الزاعم أنه فاق ذلك العصر بهم على كثير من الأعصار : « أين علم الحديث ، وأين أهله ، كدت أن لا أراهم إلا في كتاب ، أو تحت تراب » انتهى . فماذا نقول نحن ؟

وأهول من ذلك قول ابن حبان ، وقد كان قبل هذه الطبقة بقرون : « لم يكن علم الحديث في زمان قط نعلمه أوجب منه في زماننا هذا ، لذهاب من كان يحسن هذا الشأن ، وقلة اشتغال طلبة العلم به ، لأنهم اشتغلوا في العلم بغيره ، وأعرضوا عن حفظ السند . وقد أخبر عليه السلام بأن العلم ينقص . وأرى العلوم كلها تزاد إلا هذه الصناعة الواحدة ، وأنها كل يوم أنقص ، فكأن العلم الذي خاطب النبي أنه ينقص في آخر الزمان هو معرفة السُّنن ، ولا سبيل إلى معرفة السُّنن إلا بمعرفة الضعفاء والمتروكين . وهذا العلم لا يكون للاسلام قوام إلا به ، ومن الخير تمييز صحيح الحديث من سقيمه ، ومن لا يعرف الثقات من الضعفاء كيف يستحل أن يفتي ؟ » انتهى . هذا كلام ابن حبان الإمام العظيم ، صاحب التقاسيم ، والأنواع .

والظن بالله سبحانه أن يوفقكم لدوام الاشتغال ، ويحملكم على نشر ما فات كثيرين من فضائل هذه الصناعة الشريفة ، ويزيدكم على ما عندكم . كتبت لكم هذا وأنا عالم بإدراككم للذة هذا العلم ، وعظيم شغفكم به ، ولكن الخير قصدت ، وقول رسول الله ﷺ أحب أن اسمعه من غيري ، فهذه نصيحة مشفق يرجو من حسن مكارمكم مثلها يداً بيد .

* * *

وممَّا جرى بخاطري حالة الكتابة أنَّ فضيلتكم كانت شافهتني في دمشق بالتشوق للوقوف على ترجمه بابا يوسف الهروي ، فأحببت إتحافكم بذلك ، فاعلم أن مفتي زبيد ومسند اليمن في وقته الوجيه عبد الرحمن بن سليمان الأهدل ذكر في ترجمة السيد عبد القادر الكوكباني من كتابه النَّفَس اليماني ، أن أعلى أسانيد أبي الفتوح الطاوسي روايته عن المعمر بابا يوسف الهروي ، بفتح الهاء والراء بعدها واو نسبة إلى هراة ، إحدى مدائن خراسـان . قال : وهـذا الشيخ مشهور (بيصد ساله[1]) عاش ثلاثمائة سنة . ذكر ذلك البرهان الكوراني في لوامع اللآلي ، في الأربعين العوالي .

ورأيت بخط شيخنا الوالد ما لفظه : « رأيت الحافظ السنحاوي قال في ترجمة بابا يوسف ما لفظـه : يوسف بن عبد الله الضياء بن الجمـال الهروي ، ويعرف ببابا يوسف ، لقيه الطاوسي في سنة اثنين وعشرين وثمانمائة بمنزله في ظاهر هراة ، وذكر أنه زاد سنه على ثلاثمائة بسبع سنين ! !

واستظهر الطاوسي لذلك بأن عدَّة من شيوخ بلده قالوا : نحن رأيناه في طفولتنا على هيئته الآن ، وأخبرنا آباؤنا بمثل ذلك . وحينئذ قرأ على الطـاوسي شيئاً بالإجازة العامة ، والله أعلم » انتهى من النَّفَس اليماني ، والرَّوح الريحاني ، في إجازة القضاة الثلاثة بني الشوكاني وهم علي وأحمد ويحيى أبناء محمد القاضي بن علي الشوكاني ، صاحب نيل الأوطار .

---

(١) هكذا في الاصل .

وقد أجازني شيخ محدثي هذا العصر القاضي حُسين بن السبعي الأنصاري (أحد أشياخ شيوخ نعمان افندي الألوسي) عن القـاضي أحمد بن محمد بن علي الشوكاني المذكور ، أحد الإخوة الثلاثة ، وهو آخر من روى عنه ، (أي بابا يوسف) فيما أعلم .

أقول : والظاهر أنه غير الذي لقيه ابن بطوطة ، رحالة الدنيـا ، في رحلته بهراة أو بقربها ، فإنه لقي رجلاً هنـاك قال : يُعرف (بيصد ساله) قال : وهم يذكرون أن عمره ثلاثمائة عام وخمسون عاماً فليراجع صحيفة ٢٤٠ فيها طبع سنة ١٢٨٧ المصرية والله أعلم !

* * *

كتبت إليكم بهذه الفـائدة استخراجاً لمثلها منكم ، فإن المؤمن بأخيـه ، والحـكمة ضالة المؤمن .

ويصلكم صحبته كتاب للفقير طُبع بفاس قريباً ، وهو هدية مُقلّ ، ولولا أنه كتاب علم لما تحملت إرساله من المغرب إلى المشرق استصغاراً له ، ولـكن خير ما يَهَبُهُ الرجل لوليه كتب العلم . وسيصلكم ما تحت الطبع أيضاً .

وأرجو من سيادتكم أن تكتبوا على سؤال يوافي سيادتكم صحبته ، وتعطوا أهل العلم هناك ليكتبوا عليه أيضاً ، مثل الشيخ عبد الرزاق البيطـار والشيخ محمد المبارك والشيخ أمين البيطار وأمثالهم من الفضـلاء ، وتعجلوا لنـا بالجواب عنه

عاجلاً بحيث لا يتأخر أكثر من جمعة . والله تعالى يُديم النفع بكم ويزيد في مددكم آمين .

والسلام عليكم ورحمة الله .

في حادي عشر رمضان المعظم سنة ١٣٢٤

خادم الحديث

محمد عبد الحي بن الشيخ عبد الكبير

الكتاني الحسني

لطف به مولاه آمين

* * *

من محمد البشير النيفر

(٣٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

تونس في صفر عام ١٣٢٨

صديقي العلامة المصلح الشيخ محمد جمال الدين القاسمي حيَّاه الله تعالى

شَرَّفني كتابك الكريم منذ شهر صحبة الكتابين الجليلين الناطقين بعلُو كَعبك ، وسعة ذرعك ، فمرحباً بإخائك ، وأهلاً بولائك ، وما أشوقني إلى لقائك .

شرفني كتابك فلم يزدني إلا إيماناً بغيرتك على الأمة ، وتثبيتاً على ما وقَر في النفس من استماتتك في سبيل خدمة المِلة ، ويقيناً بإخلاصك فيما وجهت له وجهك ، ووهبت له كلك .

نظرت كتاب دلائل التوحيد ، فرأيت العقل والحكمة والدين ، إخواناً على سُرُرٍ متقابلين ، فلله قدرتك على إعلاء كلمته ، وخفض كلمة الكافرين ، الذين عبث بعقائدهم شبهات العلوم الجديدة ، والفلسفة الحديثة ، فجعلت للالحاد في قلوبهم مسكناً ، وللدهرية من نفوسهم مقيلاً ومربعاً ، على أنهم لو أُوتوا من

العلم قليلاً لكانوا أثبت الناس ديناً ، وأصحهم يقيناً ، ولكنهم ضَلوا عن جهل ، وألحدوا في آيات الله سبحانه على غير بينة ولا علم ، فَبُورك فيك من قائم بكسر سورتهم ، وتبديد جامعتهم ، قطع الله دابرهم ، وأراحنا والفلسفة التي يتطفلون على موائدها منهم .

أي صديقي العزيز ! ساد الإلحاد على العقائد ، واستوكرت الدهرية السرائر ، والعلماء في أقمصة سابغة من الغفلة ، فما كان أفقر الدين إلى بارٍّ مثلك يعمد إلى الإلحاد فيزعزع أركانه ، ويُقوض بُنيانه ، ويقيم الحق وكأنه ، وإن خدمتك للدين بكتاب دلائل التوحيد لخدمة لا تطاولها خدمة ، وعمل لم يكن كفوءاً له من عمل .

ماذا عسى أن أصف من فضل الكتاب الذي فتك بالباطل وعصابته ، وأخذ بناصر الحق وصحابته ، ونفخ من روح الثبات في يقين المستيقنين ، ومعرفة الخاصة من أولياء البراهين ، فحسبي أن أقول : إنه كتاب دلائل التوحيد الذي مَنَّ به على العالم الإسلامي ، العلامة السلفي ، الشيخ محمد جمال الدين القاسمي ، الذي أنشده الله تعالى لتقويم منآد الحق ، وتمكين الأمة في دينها من مقاعد الصدق ، وتولَّى الله جزاءه ، وضاعف له على عمله ثوابه .

هذا وإن ما كلَّفتموني من البحث عن كتاب محمد بن تومرت أسد الموحدين قد بادرت إليه ، ولكن لم أجد للكتاب من ذكر في البلاد ، فكتبت إلى رجل فرنسي يقيم اليوم بباريس وقد كنت عرفته بتونس أسأله عن الكتاب وأؤكد عليه أن يشتري لي نسخة منه إذا وجده ، وقد بعث إليَّ منذ ثلاثة أيام بنسخة منه

ذكر أنه استعارها من بعض أصدقائه ، وأكد عليَّ في ردَّها بعد قضاء اللبانة منها ، وهي الآن بين يديَّ أنظرها على عجل ، وستصلكم بعد قليل من وصول كتابي هـذا إليكم .

ولعلكم تسعون لترجمة مقدمته ترجمة صحيحة ، فإن فيهـا من الفوائد ما لا يستغني عنه المطالع ، وأستغفر الله أن يضرب العبد لسيادتكم أجلاً وراء الفراغ مِمَّا يكون به النفع العام . والسلام عليكم أولاً وآخراً .

محمد البشير النيفر

حاشية :

لاح لي أن أقترح عليكم السعي بطبع كتاب المفتاح للامام السكاكي رحمه الله ، وأرى أن أكبر داع لإقبال الناس عليه طبعه ملازم ، والاشتراك فيه كذلك ، وكلما طبعت ملزمة أُخذ من المشترك ما يَنوبها من الثمن .

كما أرجوكم أن تتفضلوا بإعلامي عمَّا يوجد في بـلادكم من كتب الأصول المطبوعة ، مع بيان أثمانها ، وبإعلامي بما طبع جنابكم من الكتب ، مع بيان أثمانها أيضاً ، والسلام مُعاد .

من أحمد الشنقيطي

(٣٦)

الحمد لله وحده

إنه السلام الأسني ، والتحية الحسنى ، إلى العالم العلامة وحيد دهره ، وغرة عصره ، من لا تعد مآثره ، ولا تحشى بوادره ، فضيلة الشيخ جمال افندي القاسمي ، حفظه الله تعالى .

من موجبه إليكم أني بخير ، وعسى أن تكونوا كذلك . وإني سافرت من مصر إلى قازان ، كما أخبرتكم به قبل هذا . وكنت قطعت مكاتبتكم قبل هذا امتثالاً لأمركم ، ولكن زال ذلك المانع ولله الحمد . فأخبروني عن شأنكم .

وأخبر فضيلتكم أني لما قدمت هذه البلاد اطلعت على رسالة لبعض نصارى الشام يطعن فيها على أنساب العرب ، وباطن الأمر الطعن في نسب رسول الله ﷺ ، فجمعت رسالة في معارضتها ، وهي في أثناء الطبع ، وسأبعثها إليكم إن شاء الله تعالى . وسلموا على حضرة الأخوين ، وهُنّئتم بهذا العيد .

في غرة شوال سنة ١٣٢٦ — محبكم

أحمد بن الأمين الشنقيطي



الرّسائل الصّادرة



الرسائل الصادرة

الى الاستاذ الامام محمد عبده

— ١ —

سيدي وسندي مفتي الأنام ، وعلامة الأعلام ، وحجة الإسلام ، من أحيي الأمة بروح معارفه ، وأيقظ راقد الجود بمزن عوارفه ، لا برح كعبة الآمال ومثابة الفضل والإفضال .

ألثم بشفاه التعظيم الأنامل الكريمة ، وأبتهل إلى المولى بدوام توجهات سيدي الفخيمة ، وأحمده تعالى أن ذخر لي من رضوان سماحته كنزاً ، ووهب لي من عواطفه شرفاً وعزاً ، وجزاه على أياديه السالفة أحسن جزائه ، وحفظ وجوده فبقاء المكارم في بقائه .

فإني لا أنسى وأيم الله على المدى جزيل إنعامه ، ولا جليل إكرامه ، كما لا أبرح متشوقاً إلى تلك الحضرة التي ودعناها ، وقلوبنا أودعناها ، حضرة الحكمة والعرفان ، حضرة مهبط الأسرار وترجمان القرآن ، التي تشد إلى كعبتها الرحال ،

وتفتخر بالمثول لديهـا أعاظم الرجال ، فطوبى لإخواني العـاكفين في حرم مطلع الأسرار ، والطائفين ببيت مشارق الأنوار ، أولئك الذين صفت بيمنه أذهانهم ، ونطقت بحكمته ألسنتهم .

ولا غرو ، وهم يَرِدُون بحر العلم والأدب ، ويرتادون منزل حجة العجم والعرب ، وإني لأضرع إلى الله أن يمنّ عليّ بضمي وإياهم ثانية في مجالسه الجليلة ، لتنوير اللب بسماع حكمه الجميلة .

حضرة الأستاذ الجليل صفينا الشيخ عبد الرزاق افندي يهدي المقام ، عواطر السلام ، وأشقائي يرجون دعوات سيدنا ورضـاءه ، ويدعون المولى أن يديم على الوجود ضياءه .

* * *

وغداً يسافر من الشام أحد التجار الوطنيين إلى الأقطار المصرية ، وسيتشرف بلثم أنامل سيدنا مصحوباً بأثر من دمشق ، فأرجو وصوله قريباً بالسلامة ، وأن ينوب عنا بأداء ما يجب لسمو مقامه ، عليه أزكى تحية المولى وسلامه .

السبت في ٢٣ محرم ١٣٢٢

محمد جمال الدين القاسمي

— ٢ —

وقد أجابه على رسالته المؤرخة في ٢٧ صفر ١٣٢٢ :

سماحة شيخ الإسلام ، ومفتي الأنام ، لا زال كوكبُ الفتوى منيراً بوجوده ، وبدر العرفان ساطعاً بسعوده ، آمين .

ليت شعري ! بأي لسان أشكر سيدي على ما أهلني لمخاطبته ، ومنّ عليّ بمكاتبته ؟ شرفني بخطاب كأنما خُلق من خلقه حسناً ورقة ، واقتُطع من درّ حكمه لطفاً ودقة . رفعني فيه إلى غاية تتقاصر عنها قيمتي ، ولا تطمح نحوها همتي ، فعلمت أنه يسبغ عليّ نعمته ليكون قد تناولني بالبر من كل طرقه ، قولاً وفعلاً ، وجوهراً وعرضاً ، ولساناً وبياناً .

فبأبي كتاباً هو روضة البصر ، ونزهة الفكر ، كدت أطير فرحاً لما رأيته ، وأطاول الفلاك فخراً لما قرأته ، حتى كان يوم وصوله إليّ عيداً ، وطالعاً سعيداً . وما بلغ مسامع إخوتي وإخواني خبره إلا وأقبلوا لزيارته ، وتيمنوا بطلعته ، وصار ملتثم الشفاه ، وملتمس الأكف والجباه .

ولما خشيتُ أن تُخْلِق جِدّتَه أكُفُّ لامسيه ، ولثمات زائريه ، صنعت له لوحاً زجاجياً ، وإطاراً بهياً ، صوناً لديباجته ، واستبقاءً لبركته ، وليعرف إخواني كيف تحفظ آثار الأساطين ، وأن الأحرى بالادخار للافتخار هي لا مخلّفات السلاطين .

وقد آليت على نفسي أن كل رقيم لسيدي أتخذه على ما شرحت ذخيرة أحفظها ، وتحفة أشرح بها صدري حين ألحظها .

ولقد كنت مع تضاؤلي في نفسي مشتاقاً إلى ورود كتابه شوق المهجور إلى الوصل ، والغـائب إلى الأهل ، لا غفلةً عما أعلمه من شواغل مولاي ، وجهلاً بقيمتي وتقاعدي عن أهلية هذا المقام ، بل لما أعلمه وعهدته من شغفه بجبر الخواطر ، وإدخال السرور على القلوب ، لا سيما لعاشقي آثاره وخَدَمة أفكاره ، ومن لا يسمح بكتبه ، وهو يجود بفضته وذهبه . فالله تعـالى يزيده مما عنده ، ويُسْمي جده ، ويجعل حاسده عبده ، ويكافئه ويكفيه ، ويقيه ويبقيه .

سيدي ومولاي !

طاب الآن من الشام هواؤها ، وصفا جوها ، واعتدل وقتها ، وحسن لزائرها نعتها . فهل يمنّ مولانا علينـا خصوصاً ، وعلى دمشق والقطر السوري عموماً ، بتشريفه لترويح النفس أياماً ، فيرفع لها من فضله أعلاماً ؟ فعسى أن يمن بعطفته ، إذا شرع في سنيّ رحلته .

(وقفت الرسالة هنا ولم أجد لها تتمة ، وهي خاتمة غير معهودة في رسائل الإخوانيات)

— ٣ —

وكان أخوه قاسم خيرالدين في بعلبك مدرساً ، فبعث إليه برسالة يقول فيها :

أخي كان الله له

« . . . عليكم من أنفسكم أن تتعلموا الاستقلال ، وتبحثوا عن طرقه ، وتقتفوا أثر من يسير عليه ، ولا تكونوا ممن يدهشهم كل شيء ، ويسد في وجوههم أبواب المخارج . . . »

والظاهر أن مناظرة جرت بين أخيه وبين علماء الشيعة في بعلبك حول بعض المواضيع ، فكتب أخوه يستوضحه عن بعضها . فأضاف القاسمي في الرسالة نفسها :

« . . . قصة غدير خُمّ من أشهر القصص ، وهي من أقوي حجج الشيعة . وملخصها : أنه عليه الصلاة والسلام ، لما رجع من غزوة تبوك ، مرّ بغدير خم ـ موضع بالجحفة ـ فجمع أصحابه وكرر عليهم : ألست أولى بكم من أنفسكم (ثلاثاً) ؟ وهم يقولون : بلى . ثم رفع يد عليّ وقال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، ألهم وال من والاه ، وعاد من عاداه . والحديث مخرّج عند النسائي وأحمد . وقد طعن في صحته أبو داوود وأبو حاتم الرازي وغيرهما ، كما بسط في موضعه . »

٢٥ جمادى الأولى ١٣٢٨

جمال الدين

— ٤ —

وله من رسالة مؤرخة في يوم الأحد ١٧ ذي القعدة سنة ١٣٠١ ، وكان في أول صباه ، يخاطب فيها أباه :

« إن أحسن زينة تحلت بها وجنات الطروس ، وأحصن تميمة حفيظة لنفائس النفوس ، وألطف من منظمات اللآلي عقوداً ، وأظرف من رياض الأزهار بروداً ، وأزهى روضة إذا بكى الغمام عليها ، تبسم ثغر زهرها ، وأبهى حديقة طابت روائح نشرها ، قد هزّ الشمال أطيارها فصدحت ، وحرك النسيم أزهارها فنفحت ، حمدَ الله على نعمه التي لا يداني جودها غمام ، ولا يقارب حسن مواقعها تبسم زهر من ثغر أكمام ، مع تحيات تفاوح نسمات الروض الممطور ، وتسليمات تصافح جنات أفنان فنون الزهور .

« وبعد فإن العبد ينهي غراماً لم يزل يحركه عامل الاشتياق ، ويهيجه ساكن الأشواق . قد جمع الشوق قلبه ولكن جمع تكسير ، وخفضه البين ولبه ولم يغنه التحذير ، وضمت جوانحه على الود الصحيح السالم ، وتحصنت أحشاؤه عن دخول الجوازم . تنازع في جفنه عامل الوجد والسهر ، وهذا هو الحال فلا تسأل عن الخبر . . . »

ثم أعقب ذلك بشؤون عائليه خاصة

الفقير خادمكم والمرتجي لدعائكم في كل حال

محمد جمال الدين

رسائله الى محمد نصيف

— ١ —

بسم الله تعالى وبحمده

حضرة الأخ الفاضل ، والمحب الكامل ، زاده المولى توفيقاً ، ومشياً على منهج السلف وتحقيقاً ، ونفعنا بمحبته ، وجمعنا في مستقر رحمته ، آمين .

أما بعد ، فيا أيها الأخ في الله ، والمحب لوجه الله ، حضرني اليوم تحرير ، من السيد العلامة النحرير ، حضرة مولانا السيد شكري افندي الآلوسي ، أيده الله ، يذكر لي أن جنابكم حررتم له كتاباً تطلبون فيه من حضرته بعض كتب شيخ الإسلام تقي الدين ، رضي الله عنه وأرضاه ، وجعل في أعلى فرادس الجنان مأواه ، وجازاه عن الإسلام خير ما جازى من ارتضاه ، آمين .

وذلك « الرد على ابن سبعين » ، و « التسعينية » الخ . . . وأنه عرّف حضرتكم في هذا الشأن .

ولقد أدخل السيد شكري افندي عليّ السرور الزائد ، بما نوه لي عن فضلكم ،

وصلاحكم ، وكمالكم ، وغيرتكم على نشر آثار السلف ، لا سيما آثار شيخ الإسلام رضي الله عنه ، فإن هذا غاية أمنيتنا ، ونهاية رغبتنا . وقد حمدت الله تعالى وشكرته على أن قيَّض لهذا الشأن أمثالكم .

ومن مدة كنت كاتبت السيد شكري افندي وعرفته بأن محبي السلف ، من الواجب عليهم الآن أن ينهضوا لإحياء آثارهم ونشرها بواسطة الطبع ، وأن يجاروا غيرهم من الذين ينشرون تلك الكتب التي لا تزيد إلا خبالاً وضعفاً في العقيدة ، فإن أكثر المطابع ترغب الآن في التجارة ، ولا يهمها إلا الكسب الدنيوي ، وإن فاتهم الربح الأخروي ، مع أن في الأحمديين والسلفيين بقية عظمى من أهل الخير والصلاح .

فما هذا التوانى ؟ إن أمثالنا ليحترق ألماً حينما يرى كتب الأشعرية والحنفية وغيرهم امتلأت منها المخازن ، ولا يرى للأحمديين ، ولا للسلفيين ، إلا ما ندر . فأين الغيرة ؟

فيا سيدي ! البدارَ ، البدارَ ، والسباقَ ، السباقَ ، فمالنا إلا أمثال همتكم ، أحياكم المولى الحياة الطيبة ، وزادكم نفعاً وانتفاعاً .

* * *

أخي ! تعلمون أن شيخ الإسلام توفي بدمشق ، وأن رسائله معظمها ، والحمد لله في دمشق . وإن فقد منها شيء ، أو طار من الشام إلى غيرها ، إلا أن في

المكتبة العمومية[1] عندنا من رسائله وقواعده في كتاب « الكواكب » الذي جمعه الشيخ « ابن عروة » ، وكتب فيه جملة وافرة من تآليف شيخ الإسلام ، وبها ما يكفي ويشفي .

ورأيت في بعض المجاميع فيها ما يدهش من مؤلفاته ، مثل كتابه في « التوسل » ، في عشرة كراريس ، وكتابه في « المنطق والجدل » ، و « في أن كل مجتهد هل هو مصيب أم لا » ، وفي « زوار المقابر » ورسالة في « كرية العرش » ، و « تيسير العبادات ، لأرباب الضرورات » ، وقواعد شتى ، ورسائل عديدة في أنواع مهمة ، تهم كل مؤمن بالله واليوم الآخر ، مثل رده على الرازي والفلاسفة ، و « شرح الأصفهانية » وغيرها .

وقد أمر السيد شكري افندي أن أعرض ذلك عليكم ، وهو يعلم أنني ممن يتعشقون آثار شيخ الإسلام ، ويسعى لها جهده ، حتى إني كنت جمعت ثماني وعشرين رسالة له بخطي ، استكتبت كثيراً منها من بلاد شاسعة ، ثم طبعت في مصر من نحو عامين ، عند الخانجي ، على نسختي التي بخط يدي . والآن عندي من رسائله وفتاويه الصغرى ما أعده أعظم كنز . فإن رأيتم أن نسعى لنسخ كل ما هو عندنا في الشام ، بحيث لا نبقي له ، قدس الله روحه ، شيئاً يكون ذلك من أكبر حسناتكم .

ولدينا ، والحمد لله ، من النسّاخ من ينسخ بضبط ، ونحن نقوم على تصحيحه .

---

(١) يريد دار الكتب الظاهرية .

ثم أرى أن نسعى بطبع شيء من رسائله عندنا في الشام ، لأن المطابع الآن كثرت فيها ، والحمد لله ، والقصد الإسراع والسباق إلى هـذه الخيرات ، وإن يكن بعض المطابع في مصر تعتمدون عليها في ذلك ، ولكن القصد إشغال عدة مطابع ، لنرى تلك الدرر انتشرت بسرعة .

ولا يخفى فضلكم أن أعظم واسطة لنشر المذهب السلفي هو طبع كتبه ، **وأن كتاباً واحداً تتناوله الأيدي على طبقاتها خير من مئة داعٍ وخطيب ، لأن الكتاب يبقى أثره ، ويأخذه الموافق والمخالف** . وأعرف أن كثيراً من الجامدين اهتدوا بواسطة ما طبعناه ونشرناه ، اهتداءً ما كان يظن ، والحمد لله على ذلك .

لقد أحزنني ما ذكر لي السيد شكري افندي في كتابه أنه أرسل من سنتين كتاب « معارج السالكين » للشيخ فرج الله ، وأنه إلى الآن لم يطبعه ، فلماذا يا ترى ؟ لذا أرى أن تتعدد محال طبع تلك النفائس .

والآن ، الفقير ينتظر إشارتكم في هذا ، وإنني وأخي أخدم هذا الشيء إلى آخر نفس من حياتنا . وأسأله تعالى أن يحشرنا في زمرة السلف بفضله وكرمه . وعلى قدر ما ترسلونه من الدراهم يكون النسخ أو الطبع ، فالبدار البدار ، والفرصة الفرصة يا أخي !

وما أظن ترون في الشام من له غيرة على آثار الشيخ ، رضي الله عنه ، أمثالنا ، فالآن آن الأوان ، وما بقي إلا الاهتمام بذلك ، حتى أن المرحوم الشيخ عبد العزيز السناني كان كتب للحاج مقبل الذكير عن اهتمامي وحرصي ، وسعيي

الليل والنهار في نشر آثار الشيخ ، وأنتظر جوابه ، ولم أدر بعد ما كان ، حتى قيّض الله لنا غيرتكم وشهامتكم ، أكثر الله من أمثالكم ، ونفع بسعيكم ، وجازاكم كل خير .

في ٢٦ ربيع الأول سنة ١٣٢٧

الفقير إليه تعالى

جمال الدين القاسمي

حاشية ـــ أرجو سرعة الجواب ، والعنوان : دمشق الشام ـ جامع السنانية . . .

- ٢ -

ومن رسالة مؤرخة في ٣ جمادى الاولى ١٣٢٧

. . .

وقد رغبتم أن نعرفكم عن أسماء الكتب الخطية التي في المكاتب ، فهذا بحر لا ساحل له ، وعسى أن نرسل لكم دفتر المكتبة العمومية إذا ظفرنا بنسخة من المطبوع منه . وكنت عرّفتكم أن المهم الآن هو نشر آثار شيخ الإسلام ، الذي بحث وأجاب عن كل مسأله نادرة ، وبحثٍ مهم في الاعتقادات والعبادات والمعاملات . . .

سألتم عن صاحب جريدة « الاتحاد العثماني » ، وإني لا أعلمه إلا محباً للسلف ، مع حرية في المشرب .

وأما ماجاء في رسالة « الغلاييني » ، من قوله : « إخواننا » ، فمراده : الأخوة في الإنسانية قطعاً ، إلا أن كل ما يوهم ، فالأولى اجتنابه .

وأما « النبهاني » فدعوه يَمُتْ بغيظه ، قاتله الله من رجل خرافيّ ، أضرّ بتآليفه كثيراً من البسطاء ، ولكن سوف يخزيه الله بنشر ذلك الكتاب . على أن مظهر هذا العصر هو نبذ أمثال تآليفه العارية من العلم والأدب ، فلا تحرصوا إلا على محاربته ، بنشر آثار شيخ الإسلام وأمثالها ، لا بالمقالات في الجرائد ، فإن الجهاد معه هو في بث أثر السلف ومشربهم .

ومثل النبهاني لما نُشر الدستور خَفَتَ صوته ، وضعف قلمه ، وخفق قلبه ، وعلم أن فخفختة بتلك المؤلفات هدمت من أساسها ، فكيف إذا رأى مثل « نيل الأماني » وأمثاله ، فهنالك القاضية عليه ، عامله الله بما يستحق .

* * *

وقد اطلعت على سؤالكم في **خلق القرآن** في « المنار » ، ورأيت جوابه ، لأن صاحب المنار يرسل إليّ كل شهر عدداً . وكنت وددت لو أن صاحب المنار نقل جواباً لشيخ الإسلام عن هذا السؤال ، فإنه رحمه الله له فيه فتاوى عديدة ، وقد جمعتها على حدة ، فعسى أن تأمروا بأن نطبعها في الشام عندنا . . . وذلك أن مثل هذه المسألة كانت تهمني كثيراً ، وأعلم أن علم الكلام ما سمي بذلك إلا لأجلها ، فتتبعت من كثير من المجاميع فتاويه ، ونقلتها ، فرأيتها أزاحت الإشكال ، وعرّفت الواقف حقيقة المسألة ، وأزاحت كل شبهة ، فرحمه الله ورضي عنه .

* * *

وأما « **صلاة الغائب** » على أولئك الفضلاء الثلاثة ، رحمهم الله ، وقد مضى لوفاتهم مدة ، فجائزة ، لأن صلاة الغائب مشروعة عند الشافعية بلا توقيت . وقد نقل الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » عن الشافعي ، أن الصلاة على الميت دعاء له .

ومعلوم أن الناس أيام الاستبداد كانت ممنوعة أن تذكر هؤلاء بألسنتها ، فضلاً عن التجميع للصلاة عليها ، فالصلاة عليها وقتئذ كالقضاء لما فات . على أنها ،

كما قال الشافعي ، دعاء له ، حتى ذهب الشعبي ، وابن جرير الطبري ، إلى جواز فعلها بدون طهارة ـ كما في كتاب رحمة الأمة ـ فالمسألة لا حرج فيها من هذه الجهة .

وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ خرج يوماً ، فصلى على أهل أُحد صلاته على الميت بعد ثماني سنين ، وما ذاك إلا لأن القصد الدعاء كما قاله الشراح .

وقد روى الترمذي ان أُم سعد ماتت ، والنبي ﷺ غائب ، فلما قدم صلى عليها ، وقد مضى لذلك شهر .

★ ★ ★

يصلكم هدية منا كتاب دلائل التوحيد ، وشذرة في السيرة النبوية . . . والكتاب الأول تفرغت فيه للرد على الدهريين ، لعنهم الله ، الذين كثروا في مصر والهند وأطراف سورية ، وأضحوا يبثون شبههم بواسطة كثير من المؤلفات الأجنبية ، والمجلات النصرانية .

وقد بحثت عمن ألف وأشبع الكلام في الرد على هؤلاء الطبيعيين ، فلم أعثر . ولكن الباري تعالى أعاننا ، والله يعلم ما عانيت ونقبت ، حتى يسر بفضله هذا الكتاب .

وقد حججتهم بما يعترفون ، وذلك أني نقضت كلامهم بكلام الفلاسفة الذين يعولون عليهم ، ونقلت كثيراً من كلام شيخ الإسلام ، وابن القيم ، كما ترونه ، وبالجملة فهو كتاب ، بحمده تعالى ، مفيد في هذه الأوقات فائدة عظمى . . .

- ٣ -

ومن رسالة مؤرخة في ٨ جمادى الثانية ١٣٢٧ :

. . .

ذكرتم عن آل . . . ما ذكرتم ، فالحمد لله على توافق الخاطر فيهم ، ونعوذ بالله من حياة جهلاء الأغنياء . . .

وذكرتم عن قيامكم بوكالة الأمير المحبوب ، أيده الله ، وما كنتم لقيتم من سلفه . وهذه سنة الله في المصلحين ، إلا أن العاقبة لهم بوعده تعالى . وسوف يعلي المولى قدركم ، ويحيي أبد الآباء بالخير ذكركم ، فاحفظوا هذه النعمة بالشكر على الدوام ، زادكم مولاكم من الفضل والإنعام . ولا أحب أن تظهروا الاستقالة ، أو التأفف من الوكالة المذكورة ، فإن وجود مثلكم في هذه الوكالة رحمة للأمير ، ولمن تتقاضون الحقوق منه للأمير ، ومن أين له أن يظفر ، والحمد لله ، بمثلكم عفة وكمالاً ، وفضلاً وإفضالاً .

وهكذا مشربي ونصيحتي لإخواني الذين يستشيرونني في الاستقالة من بعض المناصب في الحكومة ، مع علمي بأن بقاءهم رحمة ، وأنه لا يأتي خلف لهم يحاكيهم ، ولربما كانت استقالة المصلح أو الخيّر أو التقيّ بلاء ، وثلمة لا تسد . فوجود الكامل في وظيفة أو منصب يعلم الناس كيف يكون الكمال ، كيف يكون الورع ، كيف تكون الرحمة بالناس ، كيف تكون المعاملة بالحسنى ، وهكذا .

فمن أين يحظى بنظيره إذا استقال ؟ فالحمد لله الذي أرانا أناساً يقتدى بفعالهم مثلكم .

لم ينعم المولى على الناس في هذه الأيام نعمة مثل حرية النفس والقول ، بعد أن كان يتخوف المرء من أخيه وابنه ! فقاتل الله زمن الاستبداد ماذا صنع ، وماذا أثر في فساد التربية والأخلاق ، ونسأله تعالى أن يلهم إخواننا أن يتلقوا الحرية بمعناها الصحيح ، بعونه وكرمه .

أما . . . الذي أقام الفتنة المعلومة على صاحب المنار ، فأبشركم الآن بأنه اتهم بأنه من الجمعية الحميدية الفسادية ، التي بث السلطان المخلوع أعضاءها لقلب الدستور ، وإعادة الاستبداد باسم الدين ، وقد جلب من نحو أسبوع ، وقبض عليه في السوق ، وتبعه ألوف من الناس والولدان ، واستنطق في دائرة البوليس ، ثم خلي سبيله لينظر في أجوبته . ثم الآن الحكومة مشددة في البحث عنه . وقد فرّ واختبأ ، وأخزاه الله هو وجماعته .

* * *

ومن الغريب أن السيد رشيد لما قدم استقبلناه على المحطة إكراماً له ، ولكونه أكرمنا حينما كنا بمصر عام ١٣٢١ ، لما كنا نزلاء عند المرحوم المفتي ، ولما أقام الجاهل الفتنة عليه ، وتابعه أمثاله من الجهمية المتعالمين ، أتهمونا بأنا على مشربه ، وتهددونا بأنواع التهديدات ، حتى هجرت الجامع قريباً من ثلاثة أشهر ، ولم أبارح إلا للجمعة في جامع قرب داري ، وأرادوا أن يغروا بنا العامة زعماً بأن مشربنا « الوهبنة » مما ينفر العامة ، وحصلت حالة عجيبة ، حتى أرادوا عزلنا من

الوظيفة ، لولا أنهم لم يقدروا بواسطة البراءة السلطانية بأيدينا . . .

فوالله الذي لا إله إلا هـو ، الآن أخذ الانتقام الإلهي منهم مأخذه ، وكل من قام علينا رمي بأنه من الجمعية الفسادية ، فمنهم من نفي ، ومنهم من استنطق في الحكومة ، ومنهم الفار ، ومنهم المختبئ ، ومنهم المرعوب ، ومنهم ومنهم . . . والحمد لله على أن أظفرنا بهم ، وسوف نرى من لطفه وفضله المزيد والله لا يضيع أجر الصابرين .

علم أولئك الجهمية أن الدستور يرفع من شأن العلم والعلماء ، ويحط من قدر من رفع ذلك الدور بغـير أهلية ، فقاموا يغمزون العلماء بالوهبنة ، ويرمونهم بالمروق ، شأن الحسدة في عصر شيخ الإسلام ، الذين كانوا يلقبون الأحمدية بالحشوية والمشبهة .

وعلى ذكر « الحشوية » ، أقول لكم : إن العصر اختلف اصطلاحه ، فالآن اصطلح أهل مصر ودمشق على تلقيب الجامدين والمتعصبين والجهمية والقبوريه بالحشوية . فلله هذا الانعكاس الذي عاد عليهم . فاحفظوا هذه النكتة ، ولا يلتبس عليكم ماتقرؤنه في مؤلفاتنـا ، او جرائد سورية ، من نبز بعض النـاس بالحشوية ، فإنما هم الجهمية .

هكذا الاصطلاح الآن عكس ما كان في عصر شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم . ولله في خلقه شؤون .

هم يعلمون ، والحمد لله ، عفتنا كآبائنا وأجدادنا ، وعدم ترددنا إلى الحكام

والقضاة ، إلا لداع ضروري جداً ، او لمن كان على المشرب منهم ، وانكبابنا الليل والنهار ، فعلى مَ يحاربوننا ؟

فحسبنا الله ! وسيزهق الله باطلهم بحوله وقوته .

إني ، ولله الحمد ، نشأت على حب مؤلفات شيخ الإسلام ، والحرص عليها ، والدعوة إليها . وأعتقد ان كل من لم يطالع بها لم يشم رائحة العلم الصحيح ، ولا ذاق لذة فهم العقل السليم ، وهم يعلمون ما ندعو إليه ، وما نسعى لإشهاره ، فطوراً يرموننا بالاجتهاد ، وطوراً بما قدمنا ، وسيأخذ الحق بناصيتهم إن شاء الله .

★ ★ ★

كان الشيخ فرج أرسل لي نسخة الجزء الأول من نيـل الأماني ، فرأيت في صحيفة (٤٣) تنويه السيد حفظه الله بمجموعة الأصول ، التي جمعناها ، فأحببت إرسال نسختين لكم . . .

ولا يخفى أخي أن فن الأصول فن عظيم ، من لم يقرأه لا يعلم مآخذ الأئمة ، ولا مسند الأحكام .

وقد ذكر « ابن اللحام » في قواعده أن بعض العلماء أوجب قراءته قبل الفروع . ثم إني نظرت فرأيت أكثر الكتب المتداولة صعبة ، تكاد ان تكون كالألغاز ، ولا ثمة من متن يقرب المتناول للمبتدىء ، فبذلت من الجهد في التنقيب ما الله به عليم ، حتى ظفرت بهذه المتون الثلاثة ـ وإن كانت الورقات شهيرة منها لكنها غير كافية إلا إذا ضم إليها ما يفوقها في التوسع ـ وقد عانيت في المتن الرابع مشقة

زائدة ذكرتها في آخر الكتاب ، ولم أشر على الطابع بذكر اسمي في عنوان الورقة الأولى ، لأن الطبع كان في أيام الاستبداد ، والأعداء ينتظرون مغمزاً ، كما عمل السيد حفظه الله في « نيل الأماني » .

ولقد وددت لما ذكرتم اهتمامكم بالرحلة إلى الشام ان تتجدد الهمة لكم ، فترحلون إليها ، سيما في هذه الأوقات التي طاب المسير إليها ، لاعتدال هوائها ، ولطف الاصطياف فيها ، بالنسبة إلى حرارة بلدكم العامر .

وأحببت أن تنووا بالرحلة طلب العلم ، ونقرأ معكم مجموعة متون الأصول كلها ، ونذاكركم فيما لا يتسع الورق لبسطه ، **لأن في النفس أموراً أتحرق والله على إنجازها ، وأود الظفر بأخ في الله يؤازرني على نشر ما ينفع الأمة ، فان الدنيا يا أخي دار ممر ، وغداً نلحق بأسلافنا ، والدهر والله لا يمهل ، وشغل الدنيا لا نهاية له . فالفرص الفرص ، والغنيمة الغنيمة ، والعمر واحد والرزق واحد ، فالحياة إذا لم تكن مقصورة على ما ينفع ، وإلا فما هي بحياة .**

نعم ، ما كل وقت يتفرغ الإنسان ، وعليه إذن بالنية والعزيمة ، وهذا ما أشرتم إليه ، فالحمد لله ، أثابكم الله .

ولقد وددت ان أسير والله إلى تلك الديار ، إن لم تسعدكم الفرص ، ولكن العذر لا يخفى على اللبيب ، والمأمول من كرم المولى ان يمنّ بجمع الأشباح ، كما تعارفت الأرواح .

* * *

أذكر لكم بهذه المناسبة ان فاضلاً من الاسكندرية ، شاباً نشيطاً ، متخرجاً من بعض المدارس ، قدم دمشق العام الماضي للاصطياف أربعة أشهر ، واستأجر داراً ، ثم سأل عن عالم يقرأ عليه هذه المدة بعض الفنون ، فدله على الفقير من أحسن ظنه ، فاجتمعنا به ، وأنسنا بمشربه ، وقرأ علينا طرفاً من فن الأدب - لأنه بغيته - وكان يتخلل دروسنا في ذاك الكتاب دروس أُخرى .

ولما عزم على الإياب إلى بلده رغب ان يصحب بعض مؤلفاتنا ليطبعها ، فأشار عليه شقيقي - بعد إباء منا - بكتاب « لقطة العجلان » للزركشي ، وكنت وضعت عليه شرحاً لطيفاً .

والكتاب المذكور يحوي اربعة فنون ، ورؤوس مسائلها ، وأهم قواعدها ، مع الإيجاز اللطيف ، بحيث ان قارئه بإتقان يشارك أكبر عالم مكث في المدرسة أربعين عاماً .

وتلك الفنون الأربعة : فن التوحيد ، والأصول ، والحكمة ، والمنطق ، وكلها مما تعرت عن شوائب التطويل ، والمسائل الفارغة ، فأخذه وطبعه ، وقد حضرني في المزمة الأخيرة بشارة ، ومتى تم إرسال صندوقه نرسل لحضرتكم منه نسخاً .

وناشئتنا الجديدة ، أعني طلبة العلوم في هذه الآونة ، إذا لم ترجع إلى كتب علمائنا المتقدمين المهمة ، القريبة التناول - المسماة الآن بالرسائل المدرسية - وإلا فتضطر ان تقرأ من كتب المدارس الأجنبية ، او من كتب أُخرى غير منقحة ، ولا يخفى ما في ذينك الأمرين من الخلل .

فالمهم الآن هو إصلاح دائرة معارفنا من كتب سلفنا . غاية الأمر ان المهم هو الانتخاب ، وهذا هو الصعب ، لتشتت ذلك في المكاتب ، وعدم وجود من يتفرغ للتنقيب ، إلا من وفقه الله ، وقليل ما هم .

ومما يحيك في نفسي جمع متون منوعة من فنون مختلفة ، تكون قريبة التناول ، يعني سهلة العبارة ، صغيرة الحجم ، لإمام من القرون المتقدمة ، عرفه التاريخ .

وقد صار لي نحو من أربع سنين وأنا أسعى وراء هذه الغاية ، حتى اجتمع لديّ نحو من عشرة متون على الشريطة ، ولا أزال أبحث عن بعض فنون أخرى ، فمتى ظفرنا قدمناها لمن يرغب في طبعها ، وسأعرفكم متى تمت عن أسمائها ، وأسماء مؤلفيها .

وهذا بعض ما في النفس من التحرق على تقريب العلم لمتناوليه ، فان المطولات والحواشي والمجلدات حالت بيننا وبين كثير من المهات من علوم أخر .

وطريقتنا هذه ، إذا تم كتبها بعونه تعالى ، تجعل طالب العلم يشارك في كل فن في أقرب وقت ، وسأذكر لكم إن شاء الله تعالى ما أقاسي الآن من تصحيحه وشرحه تعليقاً من كتاب مهم لا نظير له في الأصول ، في كتاب لحضرتكم آخر بعونه تعالى .

ولا يخفى على حضرتكم ان لا غنى لطالب العلم عن فنّ ما . هذا شيخ الإسلام ، قدس سره ، كان ذم المنطق والفلسفة . ولكن ليت شعري ، لولا تضلعه منهما ، من أين كان يناقش فيهما ، وهل تمكن عليه الرحمة من التنبيه على ما ناقش ، إلا بذلك العلم الواسع ؟

وأرى ان المتون الصغيرة هي بمثابة قاموس صغير يعرف اصطلاح القوم ، فمتى وقف على الاصطلاح مجملاً ، كفاه ذلك عن عناء التطويل .

وأنتم ترون ان كثيراً من المباحث في الأصول والتوحيد وغيرهما ، تخللها من عبارات فنون أخرى ما يضطر إلى معرفته . وما القصد إلا التقريب ، وتسهيل المسافة ، والجهاد في التعلم مهما أمكن .

وأهتم الآن في خلسة من بعض أوقاتي لاختصار « الاقناع » الذي طبعه الحاج مقبل اختصاراً على المهم من عباراته ، ليكون كتاباً مدرسياً تدرسه الطلبه في المكاتب ، والعامة ، لأن حجمه وضخامته تحول دون الوقوف على نفائسه بالنسبة للمبتدئين ، مع انه فيــه فروعاً ما رأيتها في كتاب من كتب فقه الأئمة الثلاثة ، وذلك مما يهم معرفته جداً .

* * *

حكى لي الشيخ الرواف ان قد حضر لنجد نسخ من شرح شمس الحق على سنن أبي داوود موقوفة ، فإن يكن باقياً عنـد أربابها نسخ فليرسلوا منهـا إلينا ، فإن لنا حصة صباح كل ثلاثاء وجمعة لإقراء الـكتب الستة بجامع السفانية .

ما ترونه في مجلة المقتبس من مقالات لصلاح الدين القاسمي ، فهو أخي الأصغر ، فادعوا له بالخير ، وأظنه سيصحب الوفد الذاهب من سورية للآستانة لمواجهة السلطان ، بمثابة كاتب خاص لهم .

وأرسلوا لنا نسخاً من « فصل المقال » إن كان عندكم . . .

ملحق

اليوم في ٨ جمادى الثانية ١٣٢٨ تناولت كتابكم الثاني ، وبه أفدتم عن أخذ الكتابين . وقصدي في الشريطة في الثاني ان يطبع إما الآن ، وإما بعد ، بمعنى ان يُعَدَّ في جملة ما ينوى طبعه إن شاء الله كالأول .

وقد سألنا محمد افندي كردعلي عن طبع ذاك الكتاب ، فأجاب بأن مطبعته الآن لا تقوى على طبع الكتب الضخمة ، لأن حروفها والمتعلمين فيها من الطبقة الجديدة ؛ لقرب العهد بالحرية ولوازمها . نعم يمكن طبع رسائل صغيرة ، وهو ما نعزم عليه إن شاء الله ، في طبع كتاب « إغاثة اللهفان ، في حكم طلاق الغضبان » ، الذي أرى وجوب السعي في نشره بين الأمة ، وتعريفهم الحكم الفصل في هذه المسألة ، التي أكثر الناس مبتلون بها ، أعني : الطلاق في حالة الغضب ، وقد بين فيها البيان الشافي ، وفصل التفصيل الوافي . وكذلك فتاوى الشيخ ونقوله في مسألة الكلام . . .

جمال الدين

— ٤ —

ومن رسالة مؤرخة في ١١ رجب ١٣٢٧ :

. . .

الآن ! أخي أهتم بمسألة غريبة : وذلك انه كان أُهدي لي رسالة لأحد الحضارمة العلويين ، طبع الهند ، في لعن معاوية ، ووجوب بغضه ، رغب إليّ مؤلفها أن أتبصر رسالته بإنصاف ، (وقد رأيت السيد في المنار أشار لها ، ولكن بكلمات موجزة جداً) ، فلما قرأت رسالته كلها بالحرف ، أعجبني اقتدار المؤلف على الاستنباط والاستشهاد ، وسبك العبارة في قالب بهيج ، إلا أني انتقدت عليه أشياء عديدة ، فأحببت ان اكتب له رأيي ، فلما اخذت القلم مشى بي حتى بلغ الآن ما كتبته نحواً من كراسين ، وكنت أظن ان الانتقاد لا يتجاوز الورقات .

والمسألة عجيبة في بابها ! من قرأ التاريخ والقصص المروية فيه ، وما أصاب الآل الكرام ، والنكبات التي تسببت على الخلافة الحقة ، ونحو ذلك ، يتأثر ، ويرى في تأليف الحضرمي شية من الحق . لكن من رأى ان الأمر اشتبه حتى على بعض الصحابة ، إذ توقفت عن بيعة عليّ عدة منهم حار .

إلا أني أرى ان مخالفة السلف في هذه المسألة ، وفتح باب اللعن والسب ، الذي لا يعود على الأمة بفائدة علمية ولا عمرانية ، لا بل يفتح باب الحط من كرامة السلف الذين رووا عن معاوية ، ومن معه من الصحابة ، كالشافعي وأحمد وإسحاق

والبخاري وأصحاب الكتب الحديثية ، إلى غير ذلك من المفاسد التي كَتَبْتُها .

وقد رأيت ان أتوسع في ذلك بقدر الإمكان ، ونعتدل في الأمر ، تأليفاً لقلوب الخلف على من مضى ، ومشياً على قدم السلف في الاعتناء بمرويّ أولئك ، مع عدم التعرض لما وقع ، او تأويله ، او إرجاعه إلى عالمه سبحانه .

نعم ، نحن لا ننكر على من قام عنده دليل نيّر وبرهان قاطع ، عمل به ، أوصله إليه اجتهاده ، لأنه لا ملام على من بذل جهده ، أو حسنت نيته . إلا ان من قام لديه برهان أقوى ، وحجة أقطع ، لزمه ان يدعو خصمه إليه بالحكمة ، فإن أجاب فبها ، وإن لم يقتنع فما علينا إلا إبانة ما لدينا . وقد كتبت إلى مؤلفها ، وذكرت له ان القصد الاعتدال ، والمشي مع البرهان الأقوى .

وقد أشار عليّ صديقنا الشيخ الرواف ان تطبع على حدة ، فقلت عسى ان يتيسر لها ذلك بعونه تعالى إذا تمت . . .

— ٥ —

ومن رسالة مؤرخة في ٤ شعبان ١٣٢٧ :

. . .

تسألون عن أولئك[1] : هل هم على مذهب السلف ؟ فيا أخي ! لا يعرف مذهب السلف ، إلا المشتغل بعلم السلف ، وأين المشتغل به ، أو السائل عنه ؟

---

(١) الظاهر أن المقصود بلفظ « أولئك » : الطبقة التي أخذت العلم في المدارس الحديثة ، كما تشير إلى ذلك بقية العبارة .

ليس في ساحل البلاد ، على طوله وعرضه ، من يدرس مذهب السلف ، أو يبحث عن كتبه ، أو عن الحق في تلك المسائل . وهل الذي يدعونا إلى السعي في طبعها ونشرها إلا إبلاغها لمثل أولئك ؟ ولقد ذكرت لكم أن كتاباً يطبع خير من ألف داع وخطيب .

فدع عنك يا أخي العناء في البحث ، والسؤال عنهم ، واكتف الآن بكونهم نصراء للحق ، خصماء للقبوريين إذا بدت لهم مسألة بدليلها قبلوها ، وإلا ردوها ، فهم جماعة متنورون ، نبهاء ، أذكياء ، كتاب ، منشئون ، إلى هنا . وأما العلوم العقلية والنقلية ، ومباحثها ، وتحقيق الحق من مسائلها ، فليسوا من هذا الوادي .

ولقد قضت السياسة الحميدية الملعونة بالنفرة من العلم وإماتته ، لكثرة اضطهاد أهله . وعندي أن العالم الذي نبغ في أيام ملكه وكان في بلاده ، لاحدى عجائب الدنيا ، لأن من يصبر على الاضطهاد ، ويطلب العلم للعلم ، ويعلم أن سعة علمه مدعاة لرميه بكل وصمة ، وأن أكبر العيوب والذنوب تأليف ينشره ، أو فكر يذكره ، من صبر على ذلك ، فلا أعجب منه !

وحينئذ فلا تعجب ممن لم يعرف مذهب السلف ، بل ولا مذهب الخلف ، بل وما هو علم الكلام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم ، عسى الباري أن يجمع شملنا ، وأقص عليك من أنباء هذا المحيط ما لا يحاط به .

- ٦ -

ومن رسالة مؤرخة في ٥ شعبان ١٣٢٧ :

. . .

كان خطر لي من نحو خمسة عشر عاماً أن أكثر النـاس تميل إلى الأوراد ، وأن الأوراد التي بأيدي الناس المنسوبة الى القطب الفلاني ، والولي الفلاني ، كلهـا أدعية لا بأس بهـا ، إلا أن رفض المأثور عن النبي ﷺ ، والإقبال على غيره ، خلاف الأكمل والأفضل ، إن لم نقل : اتباع للابتداع ، فلذا أهمني ذاك الأمر ، فعمدت أولاً إلى جمع أدعية القرآن ، ثم أدعية الفرج بعد الشدة ، مجردة عن الأسانيد ، وسميتها « منتخب التوسلات » .

ثم ألفت مجموعة أخرى سميتها « الأوراد المأثورة » ، ذكرت أوراد الصباح والمساء ، وما يقال في السحر ، وغير ذلك ، وكله على الشريطة . . .

وحبذا يوم نرى فيه لا ينتشر إلا المأثور ، ولا يعتقد إلا الحق ، وما ذلك على الله بعزيز . . .

- ٧ -

ومن رسالة مؤرخة في ٢٩ شعبان ١٣٢٧ :

. . .

كثيراً ما كنت أقول لإخواني : إن مذهب المالكية في الرسوم هو المذهب المعتدل في هذا الباب ، فإن ما لم يكن مجسماً ، وإنما هو انطباع صورة ، كانطباع الصورة في المرآة ، ليس فيه ما ينكر ، سيما وقد اندفع سيل هذا الأمر في كل مكان ، وليس في الدين من حرج .

وقد رأى كثير من المحققين أن السر الذي نُهي عنه لأجله ، عُدِم الآن ، لأن النهي أولاً كان لقطع شأفة الشرك ، وتعظيم المخلوق كالخالق ، أو السؤال منه ، والخضوع له ، ولا أحد الآن يلاحظ ذلك ، بل ولا يخطر له .

نعم ، إن وضع الصورة في الحائط القبلي ، أو تعليقها في الجدر ، مما تنقبض له نفسي . والذي أراه أن يحفظ في خزانة ، ويراجع عند الشوق أو الذكرى .

وقد اتفق في العام الغابر أن قدم دمشق أحد العلماء المستشرقين من الروس ، ممن صرف لتحصيل اللغة العربية ، وقراءة شيء من فنونها ، جانباً من عمره وماله ، فرغب إلى أحد الأمراء في دمشق أن يتردد إلى عالم يحل له شيئاً من إشكالات في نفسه ويقرأ عليه جانباً من مقدمة ابن خلدون ، فدله على الفقير ، ولازمنا شهراً ، وانصرف والحمد لله بحالة تسر .

وقبل أن يسافر ألحَّ على الفقير بأخذ رسمه ، فاعتذرت له بأني لم يسبق لي هذا الأمر مع صعوبة في نفسي لقبوله ، فقال : هذا لا يمكن لي قبوله ، ولا ترضاه مني جمعية المستشرقين في بلادي ، فان المجمع العلمي ثمة لايقبل ممن ساح أو تجول ، ولقي عالماً أو شهيراً إلا بأن يُري رسمه ، ويؤيد مصداق مدعاه ، ولم يزل يخجلني إلى أن تم الأمر ، وأخذ الرسم ، وسر سروراً لامزيد عليه ، وقال : الآن أفخر بمن لقيت ، وأدلي ببرهان ، « والأعمال بالنيات » . . .

- ٨ -

. . .

وبعد فهذه القاعدة الموعود بها ، وهي من المضنون بها ، ظفرنا بها في مجموع عند بعض الإخوان ، وصححناها بغاية الإمكان ، فضموها إلى الكتب المهمة ، لأنها على اختصارها حوت قواعد وضوابط لم يحرر نظيرها ، ويجدر بها ، وايم الحق ، أن تفرز كتاباً على حدة ، يقرأ للطلبة ، ويدرس مراراً ، لما اشتملت عليه مما يأخذ بيد الواقف عليها إلى معرفة التفسير الذي هذا الفن نحن في أشد الحاجة إلى نشر ما يسهل الوصول إليه ، والتوفيق بيده تعالى .

تناولت أمس أوراق الملزمة الأولى من « إغاثة اللهفان » ، وقد سررنا بالبشارة بطبعها ، لما أنها أنجح ما ألف للاصلاح في الزوجية والعائلات ، وتحقيق أيمان الطلاقات ، فان سعادة الأمة في زيجتها هو معرفة الحالة التي تنحل بها العصمة قطعاً بلا خلاف ، والحالة التي لا أثر لها في حل عصمة الزوجية . فاذا وقفت لمعرفة هذه

الحالة ، والجري عليهـا ، والفتوى بها ، سعدت ، لأن سعادة الأفراد سعادة البيوتات ، والعكس بالعكس . وهــذا الكتاب نرجو منه تعالى أن ينبه المتفقهة والمفتين على فيصل الحق في هذا الباب .

ولا جرم هنا أن ما ينجم عنه من الفوائد والمعارف هو في صحيفة مولانا الفاضل ، بارك الله لنا في همته ، ونفع الأمة بخيراته ، ويحق للسلفيين الآن أن يفاخروا بأمثالكم ، ويدعوا لكم بالحيـاة الطيبة ، زادكم المولى توفيقـاً ، وكان لكم عوناً ومعيناً آمين .

في ١٩ ذي القعدة ١٣٢٧

جمال الدين

بعد تاريخه وصل كتاب « رفع الالتباس ، عن بعض الناس » ، وهو كتاب لطيف جـداً ، موضوعه يهم المعتني بدراسة البخاري ، وقريباً نصل إليه إن شاء الله ، فتضاعف لحضرتكم الدعوات المستجابات ، بحوله تعـالى وقوته . وسأفاتحكم بعد إن شاء الله في المطبوعات الهندية .

فقد حدثني سائح سلفي يسمى الشيخ طاهر الطرابزوني كان في بغداد عند صديقنا السيد شكري افندي ، ثم وفد إلى حلب فدمشق ، وسافر من أسابيع — أن قـد رأى في دهلي ولاهور وأمرتسر ومبنى كتباً في الحديث مدهشة ، فأسفت غاية الأسف ، لعـدم سببٍ من تجار الكتب عندنا يربط تجارتهم بالكتب الهندية ،

وقد كان من نحو عشرين سنة رجل يعامل الهنديين ، ويجلب كثيراً من مطبوعاتهم ، وتنوّر الشاميون من وقتئذ تنوراً مهماً ، بيد أن الرجل توفي ، ولم يخلفه أحد ، ولم يتابعه غيره على عمله ، فبقيت الكتب الهندية ، وما يجدّ هناك غير معروفة في بلادنا أبداً ، مع افتقار خدمة السنة إليها افتقاراً مدهشاً .

ولقد دلني الشيخ طاهر على بعض السلفيين في الهند ، فكاتبتهم وأهديتهم من دلائل التوحيد ، ورغبت إليهم أن يرسلوا شيئاً منها[1] إلينا ، يحتسبونه لوجه الله ، بل صرحت لبعضهم أن يرقم عليها « وقفاً » لتكون مسبلة لكل أحد من خدمة الحديث .

وأفادني الشيخ طاهر المذكور أن السلفيين في الهند لهم إخوان يقدرونهم قدرهم ، ويعنون بهم العناية المدهشة ، ولا بد أن حضرتكم لكم وقوف أكثر من الجميع ، لأن بلدتكم المحروسة مفتاح للهند ، عدا عن معارفكم الواسعة ، بارك الله بها .

وقد شوقني إلى اقتناء كتاب تفسير البغوي المطبوع بالهند ، وودت لو يتاح لنا من يجلبه ، لأني رأيت شيخ الإسلام في فتاويه نوه به ، وكان يراه أرقى من كتب في التفسير على مشرب السلف . والسبب أن تفسيري الذي سميته « محاسن التأويل » وبلغ اثني عشر مجلداً ، تمَّ والحمد لله في رمضان ، والآن عدت إلى

---

(١) أي من مطبوعات الهند .

قراءته وتنقيحه ، وجعلت له موعداً ليلتين في الجمعة ، فيهمني أن أقف على مشرب البغوي .

وقد اطلع الشيخ « عالم جان » على جزء منه ، فسُرّ به ، لأني التزمت فيه أن أذكر كل ما لشيخ الإسلام ، وابن القيم ، في الكلام عن الآيات الكريمة ، مما أظفرني الحق تعالى به من كلامهما ، رضي الله عنهما ، فإن المفسرين بعدهما لم يهتموا بالنقل عنهما مع أني أسفت أن تذهب تحقيقاتهما لكثير من الآيات سدى فعُنيت العناية التامة بجميع ما قالوه ، وبهذا خرج تفسيرنا بديع الأسلوب ، لأنه حُلِّيَ وزُيِّن بكلام هذين الشمسين الفردين .

وكانت الفكرة به بدأت معي من سنة ١٣١٦ ، حتى تم والحمد لله في هذا العام ، ولكن العود إليه بالحرف مهم ، لما يتجدد لنا من المباحث ، ومن الظفر بنصوص أُخرى للشيخين وغيرهما ، أعاننا الله على إكمال تنقيحه بحوله وقوته .

وليت صديقنا الشيخ أبا بكر خوقير ، أيده الله ، يتحفنا بفهرست ما عنده من الكتب الهندية لننتقي منها ما يهمنا ، وننضطر إليه ، لأن الوقت لا يتسع للكل . . . وفقنا الله جميعاً لخدمة الأمة ونفعها ، والأخذ بيدها ، وآتانا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة . . .

في ٢٢ ذي القعدة ١٣٢٧

جمال الدين

- ٩ -

ومن رسالة مؤرخة في ٧ محرم سنة ١٣٢٨

. . .

وقد اطلعت على سؤالكم في المنار في السماء ، وجواب السيِّد ، ولم أر فيه مغمزاً . ومن علم أن السماء تطلق لغة على معان يجمعها كل ما علا ، سهل الخطب عليه .

نعم ، انتقدت على السيد جوابه بعدم جواز دفع الزكاة للمدرسة التي سئل عنها ، وقوله : إنها ليست من الأصناف التي تصرف إليها الزكاة ، حتى كتبت إليه كتاباً خاصاً ذاكرته في ذلك . والسبب أن هذه المسألة مهمة جداً فان من جملة مصارف الزكاة « وفي سبيل الله » في آية « إنما الصدقات للفقراء الخ . . . »

وقد زعم الفقهاء أن « سبيل الله » هو المجاهدون . والحال أن اللفظ الكريم أعمّ ، « فان سبيل الله » ـ كما في النهاية ـ هو كل عمل خالص ، سلك به طريق التقرب إلى الله تعالى ، بأداء الفرائض والنوافل وأنواع التطوعات . قال : وإذا أُطلق ، فهو في الغالب واقع على الجهاد ، حتى صار لكثرة الاستعمال كأنه مقصور عليه . ا هـ . فالقصر عليه عرفيّ لا شرعيّ ، لأن لفظ الآية عام ، ولا يخصصها

إلا نص آخر ، من كتاب أو سنة ، وليس شيء منهما موجوداً في تخصيص « سبيل الله » .

فاذن « سبيل الله » كل أمر فيه تقرب إلى الله . فاذا دفع الإنسان من ماله إعانة لمدرسة ، أو لطريق ، أو لمشروع خيري ، أو طبع كتاباً ، أو اشترى شيئاً منها لمحتاج ، أو نحوه ، فكله من سبيل الله الذي يجوز حسبانه من الزكاة المفروضة ، حتى قال في « الإقناع » من فقه الحنابلة : الحج من السبيل نصاً ، فيأخذ إن كان فقيراً من الزكاة ما يؤدي به الحج فرض حج ، أو عمرة ، أو يستعين به فيه . وذكر القاضي جوازه في النفل كالفرض . ا هـ كلامه .

وعليه ، فلو دفع لفقير ما يؤدي به الحج فرضا ، أو نفلاً ، له أن يحسبه من الزكاة ، لأنه من « سبيل الله » . وهكذا كل ما يستعان به على طاعته سبحانه .

وهذه الفتوى تسهل على كثير من الأغنياء الدفع من أموالهم لبعض المهمات التي يحتاج إليها ، ويحسبونه أنه لا يحسب من زكاتهم ، فيتوقفون أو يدفعون على كره ، فاذا علموا سماحة الإسلام ويسره ، وأنه عُدّ من مصارف الزكاة « سبيل الله » ، هان الأمر عليهم ، والله سبحانه لم يجعل علينا في الدين من حرج . . . وقد ذكرت للسيد رشيد أدلة قوة هذا القول ، وإن لم ينص عليه أحد من المتأخرين . . .

— ١٠ —

ومن رسالة مؤرخة في ١٣ ربيع الثاني ١٣٢٨ :

. . .

نسخنا لحضرتكم كتاب « الناسخ والمنسوخ » لابن الجوزي ، وهو كتاب مهم ، لا يوجد له نظير فيما نعلم ، وطبع لابن الجوزي مختصره في ثلاث ورقات ، وأما هذا فكتاب جمع فأوعى في هذا الباب .

. . . قدر لي من أسبوعين أن أسير إلى المدينة المنورة . ذلك أن نسيبنا خليل بك العظم وأخوه عبد الله بك عزما على الرحلة إليها ، فرأيتني تحركت همتي ، وقوي نشاطي إلى مرافقتهما . ومعلوم أن المسافر برفيقه ، ومثلي يعوزه من يخدمه ويتفقد شؤونه ، لضعف بنيتي .

فسافرنا الاثنين ٢٤ ربيع الأول ، ووصلنا في أربعة أيام ، وأقمنا ثمة عشرة أيام ، بيومي الدخول والخروج ، ودخل عليّ من السرور برؤية المسجد الحرام ، والحجرة الشريفة ، والروضة الطاهرة ، وذكرى السيرة النبوية ، ومشرق نور الهداية ، مالا يمكن التعبير عنه .

وكنت أدهش لوجود كثيرين من القائمين على قدم التجريد للعبادة والتلاوة ، ومهما جهدت في التكبير والتغليس ، فأجد من سبقني ، حتى من النساء في رواقهن ، فكنت أسر وأحمد المولى على ذلك .

وودت لو ان رفقتي انتظرت ما أكتب لكم بذلك ، حتى آخذ منكم جواباً لأحد أصحابكم ، إلا أنهم عجلوا .

وعلى كل فقد تعرفنا ببعض علمائها ، وزرت مكتبتها ، واختلست في هـذه الأيام القليـلة ما نقلت فيها رسالة للامام ابن حزم في مسائل الأصول ، وهي مقدمة كتابه « المحلى » ، ولعلي أشير على صديقنا محمد افندي كرد علي أن ينشرها في مجلة المقتبس .

وقد أسفت لكثرة البدع المعروفة هناك ، وانتشارها . وأعجب من هذا العجب تلقين بعض المتعممين للزائرين إياها ببضع دريهمات ، والعياذ بالله تعالى . وأعجب من كل ذلك سكوت العلماء ، إلا أنه يظهر أن لا عالم يقدر على التفوه بذلك ، لما تمكن في الأنفس من اعتقاد ذلك ديناً ، وكثير من الناس من يبيع دمه دون ذلك ، ولا قوة إلا بالله !

والمدينة في حاجة كبرى إلى مصلح ، وأمير منور غيور ، يسعى في تنوير طرقها ، واتساع عمرانها ، وتمهيد سبل رقيها المادي والأدبي . وقد سمع مني شيئاً من ذلك صديقنا محمد افندي فأدرجه في « المقتبس » اليومي أول أمس .

هـذا ، ولم يبق علينا سـوى الحج للبيت الحرام ، لأني رحلت عام ١٣٢١ لبيت المقدس ، وفي هـذه الأيام المدينة المنورة ، فكان هذا التقدير كالمشي على ناموس الترقي الذي يذكره العصريون ، وعسى أن يمنّ علينا بمسك الختـام ، في التشرف بحج البيت الحرام ، إنه الكريم الوهاب . . .

- ١١ -

ومن رسالة مؤرخة في ٢٠ ربيع ثاني ١٣٢٨

. . .

رسالة الشيعي ، أرسلتُ على أثر انتشارها نسخة للسيد رشيد رضا في الآستانة ، ونسخة للسيد شكري افندي الالوسي ، فأرسل لي السيد الالوسي جواباً يتضمن الرد عليها موجزاً ، وقد رغب بعض إخواننا بنشر ما بعد الديباجة منه ، فقلت لهم : لا يجوز نشر شيء إلا بإذن صاحبه . . .

* * *

أرجو منكم أن تطالعوا الرد على ابن عقيل بتروٍّ زائد ، وأُعيد النظر فيه ، لأني أراه بحمده تعالى لم يكتب نظيره في هذا الباب ، وقد رغبتُ عن كل ما كان يعهد أولاً من الآثار الضعيفة ، والحكايات الواهية ، إلى مباحث فلسفتها دينية ، وحكمتها عقلية ، ولذلك لم أنقل إلا ما أُثر عن فلاسفة السلف ، وما أظن ان يردَّ عليه نظيره ، والذي يكتب ضده مغالط ، او مسفسط ، مع اعتقادنا ان العصمة للمعصوم ، وان القوة لله جميعاً . . .

- ١٢ -

ومن رسالة مؤرخة في الثلاثاء ٢ رمضان ١٣٢٨

. . .

ولئن فرج الله عن الأحرار والمصلحين في هذه الأيام ، ولكن لم يمت شيطان أولئك المفسدين الذين يلبسون لكل دولة لباسها ، ويسعون بالمصلحين لذوي الحل والعقد منها بما يمكن الإصغاء إليه .

نسأله تعالى ان يعيذنا وإياكم من شرورهم وكيدهم ، ويديم نصرنا عليهم . . .

- ١٣ -

ومن رسالة مؤرخة في ١٤ شوال ١٣٢٨

. . .

كنت هيأت للأستاذ التلمساني رسالة لي ليطبعها ، ثم تذكرت انا في الصيف ظفرنا بنسخة ورسالة مهمة للبركوي ، انتصر فيها للشيخين فيما ذهب إليه ، لا بل زاد عليهما كما ترونه من مطالعتها . وقد تعانيت كثيراً في تصحيحها ، لأن الأصل المطبوع محرف للغاية .

وهذه الرسالة تأثيرها على الجامدين والجهمية أكثر من تأثير مؤلفات الشيخين

في الموضوع ، لأن الإمام البركوي شهرته عظيمة ، ولا يظن الجامدون بمثله ان يصدع بما يصدع به ، لأنهم يحسبون ان هذا البحث لم ينفرد به إلا الحنابلة ، وأما رجل حنفي تركي يوافقهم على ذلك ، فلا يخالونه . إلا ان هذا الرجل ، رضي الله عنه ، لقد أبان عن فضل عظيم ، ودين قويم ، وقلب سليم . . .

- ١٤ -

ومن رسالة مؤرخة في ٥ محرم ١٣٢٩ :

. . .

للتأخير آفات ، ولا أُحب من رجال الحق ، وأبطال دعامة السنة أمثالكم إلا المواصلة بالعمل فيما يفيد الأمة ، فإني أرى الجهمية وذوي الفساد والإفساد يواصلون الليل والنهار لتقوية مشربهم ، فأحرى برجال السنة ، وأبطال الحق ، ونعوذ بالله من العوائق .

★ ★ ★

طبع كتاب في « سنغافوره » رداً على ابن عقيل ، فأرسله لي ابن عقيل هدية ، وأخبرني بأن شيخه ابن شهاب أخذ في الرد على الرد ، والآن يرسل لي في البريد من رد الرد ملزمة بعد ملزمة .

ولا مانع من إبداء المرء فكره ، ما دامت النية سليمة ، والقصد توخي الحق ، إلا ان ما كتبناه ، والحمد لله ، هو الفيصل لمن أنصف ، والمكابرة لا تجدي « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » . . .

- ١٥ -

ومن رسالة مؤرخة في ٢٢ صفر الخير ١٣٢٩ :

. . .

سررت بما أنتم عليه من الهمة والنشاط ، والدعوة بالحكمة لمن سلك سبيل الجدل والاشتطاط .

من أجمل الاتفاقات أني كنت في دعوة أحد الأصدقاء ، فرأيت عنده جزئين من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، طبع الحلبي ، وقد مررت على نصوص كثيرة في الشرح ، في شرح إحدى الخطب ، في منع سيدنا علي من لعن معاوية وجماعته ، ، رواها الشارح من طرق كثيرة ، وأسفت أني لم أظفر بها من قبل ، إلا أن العذر أن الكتاب طبع في مصر من عهد قريب . . . ومعلوم أن خير ما يُحتج به الخصم مما يعتقد . . .

ولقد صدقتم في أن الأولى أن يهتموا في سنغافورة بما حاق ويحيق بالإسلام والمسلمين ، من البدع والخرافات ، وسيل شبه العدو الجرار ، فوا أسفاه ، لقد صار بأسهم بينهم ، وهم عما أحاط بهم غافلون .

ثم نخبركم بأنا جمعنا رسالة سميناها « فتاوى الأشراف ، في العمل بالتلغراف » ، رددنا بها على من حاول حظر العمل بالتلغراف ، وعدم الوثوق به ، وجلبنا إليها فتاوى المتأخرين ، وما استنبطناه من نظائر هذه المسألة ومآخذها . . .

وإني لأعجب من الحشوية الجامــدين عندنا ، لا سيما التجار ، مع أني فيما أرى حق التاجر ومن يعامل بالتلغراف ، إذا اطلع على فتوى في جواز تعامله ، أن يبذل في سروره بذلك ما قدر عليه ، لأنه بريء من شبهة ربمـا يوردها عليه المتصولحون . فان من المعلوم أن سر العبادات ، هو حسن المعاملات .

فما بال التجار المتصولحين يستحلون التعامل بالتلغراف ، وفيــه أكل أموال الناس ، ثم يتوقفون في العمل به في الصيام أو الفطر أو غيره ؟ فهل يقال إن البيع والشراء ليس من الدين ، وأن المرء له أن يتبايع كيف شاء هواه ؟ حاشا . . .

- ١٦ -

ومن رسالة مؤرخة في ١٩ ربيع الثاني ١٣٢٩ :

. . .

يقرأ عندي إمام طابور ، أصله من حلب ، وأبوه هناك ، وعندهم مكتبة خطية موروثة عن آبائهم ، فدعاني في هذه الأيام للسفر إلى بلده أياماً للاطلاع على هـذه المكتبة ، ومكاتب أخرى حكى لي عنها ، وربمـا أُسافر إليها بعد أيام ، وسأعرفكم بمـا نراه ثمة من الكتب السلفية ، لأني أُقيد أسماءها في دفتر على حدة .

ويقول لي صديقنا محمد افندي كرد علي : إن الرحله ضرورية لي ، لما يرى من إكبابي على ما أنا عليه ، ولا تجوال لي ولا رياضة في البلدة ، لذلك يقول لي : إن لم ترْتضْ في مثل هذه الأوقات وتسترح ، وإلا فأخاف على صحتك . ولكن ماذا أصنع ؟ ولا أرى والله الصحة والنشاط إلا فيما أنا عليه ، وإذا تركت القلم أو الكتاب فأراني كالسمك إذا فارق الماء . . .

- ١٧ -

ومن رسالة مؤرخة في ١٧ ذي القعدة ١٣٢٩ :

. . .

تعلمون أن المحب للسنة النبوية يهمه أن يكون عنده آثارها . والبارحة كنت عند بعض الشيوخ فأطلعني على مُدٍّ من القزدير، معمول على مد نبوي، مسلسل مكياله على ورقة ملصقة عليه، مذكور عليها سنده، فخطر لي أن هذا المكيال مأخوذ عن مكيال مدنيّ، كما ذكر عليه .

فقلت : لعل عند أخي الأفندي مداً نبوياً موروثاً، أو معمولاً على مد قديم، فان كان، فأرجوا أن تعملوا لي مداً على مدكم، وتذكروا لي سنده كما ذكر عليه . . .

- ١٨ -

ومن رسالة مؤرخة في ١٨ ذي الحجة ١٣٢٩ :

. . .

وقد ظفرت من مدة شهر بكتاب لشيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على البكري، وهو رجل كان معاصراً له، يشبه السبكي، إلا أنه شيخ طريقة،

فألف كتاباً رد به على الشيخ ، فطلب من الشيخ الرد عليه فرد ، وهو من نوادر الكتب ، لأنه ذكر فيه ما لم يذكره في غيره ، وهو مسوق في تاريخ ابن كثير في ترجمة البكري ، ومنه نقلت تلك النسخة .

وقد كتبت عنه لحضرة العلامة مولانا السيد محمود شكري افندي الآلوسي ، لآخذ رأيه في اطلاعه على نسخة ثانية ، وفي التشويق لطبعه ، فأخبرني بأنه كتب إلى بعض محبيه يشوقهم في ذلك . والكتاب مهم للغاية . . .

- ١٩ -

ومن رسالة مؤرخة في ٢٠ ربيع الأول ١٣٣٠ :

. . .

كان الأخ الشيخ محمد حسين أرسل كتاباً فيه أسئلة مطولة ، ومحال اشتبه عليه مرادنا منها ، حتى وهم أننا ممن يقدم العقل على النقل ، ويرحم الله القائل :

وكم من عائب قولاً صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم

فلو راجعنا قبل أن يكتب ، لكان خيراً له . ومع ذلك رأيت من واجب الصداقة معه أن أعرفه حقيقة المراد ، وأكشف له عما التبس عليه ، فاقرؤوا عليه ذلك كله ، ولو في مجالس ، فعسى أن تنجلي له غشاوات تلك الإشكالات . . .

- ٢٠ -

ومن رسالة مؤرخة في ١٩ جمادى الثانية ١٣٣٠ :

. . .

كنت فاتحت الأستاذ التلمساني بأمر خيري يعود عليه بمثوبة عظمى ، وخصصته بالذكرى ، أولاً : لما أعهده أنه أكبر السلفيين سناً ، وأنشطهم لتأييد من أُحصروا في سبيل الله ، بتأييد عقيدة السلف ، والقيام بالعلم النافع ، فأجابني بخلاف ما أملت منه ، معتذراً بما لا يروج عند المتحابين في الله .

وظني أني لو كاتبت بعض من هم على خلاف المشرب ، لأجابوا سراعاً ، ولكن معاذ الله أن نوالي إلا الصالحين القانتين . . .

ثم أرسلت إليه جزءاً من مجلة المقتبس ، الذي فيه تقريظ المجموعة ، والتنويه به ، مع كتاب له ، وإلى الآن لم آخذ جواباً ، وما هكذا شأن الإخوان . ولولا مقامه عندنا وسنه ، لما فاتحته ، لأني ممن يتخيرون للمراسلة خيار الخيار ، تحدثاً بنعمته تعالى .

* * *

خطر لي من نحو شهرين أن أؤلف كتاباً في العقائد ، يكون جامعاً واسعاً ، يحوي مسائل الكلام كلها ، وأضم إليه أقوال المتقدمين والسلفيين ، وأرتبه ترتيب علماء الكلام ، يضم ما حققه شيخ الإسلام ، أثر كل مسألة ، حتى إذا تم بعونه

تعالى وفضله ، يرى فيه محب هذا العلم أمنيته ، لا سيما مما حققه شيخ الإسلام رحمه الله ، فإني آسف كل الأسف لحرمان كتب الكلام المتأخرة من تحقيقاته ، التي هي لباب اللباب .

ولعل علماء الفرق ينتفعون منه كلهم ، لأنهم إذا رأوه على ترتيب ما ألفوه ، ونقل لهم فيه ما عرفوه ، أقبلوا إليه ، لأني لا أرى في الأيدي كتاباً جديراً بالدرس في هذا الفن ، لأنه إما من الكتب المعروفة ، ولا حظّ لمذهب السلف فيها ، وإما من غيرها ، وليست مرتبة ترتيب الفن . . .

- ٢١ -

ومن رسالة مؤرخة في ١٦ شوال ١٣٣١

. . .

وإنه ليهمني ان يتروح أخي بمطالعة ما نرسله بتمامه ، وإعادة النظر فيه ، لما يعلم ، مما يحوي على دقائق حل المشكلات التي يجدر والله ان يرحل لاقتباسها . . .

يعلم الأخ ان الفقير يحرص على بث العلم النافع من أي فن ، لا سيما ما اندرس وتنوسي . فإني أرى من المهم السعي في بثه ونشره . ويعلم الحق أني لو أوتيت ما يمكنني القيام بطبعه على نفقتي لما تأخرت في طبع كل ما جمعت ، ولكن يكفي (كما يقول الأستاذ الشيخ طاهر الجزائري) الفقير : ان يجمع ويؤلف . . .

* * *

قدم في رمضان سلطان مراكش (مولاي عبد الحفيظ) ، فسلمت عليه ،

وأهديته من مطبوعاتنا ، فسرّ كثيراً منها ، لا سيما بكتاب « حيـاة البخاري » و « الفتوى في الإسلام » . . .

وقد ذكرت له اسم كتـاب في أصول الفقه كنت ظفرت به في المكتبة العمومية بدمشق لابن رشيق المـالكي ، وكنت نسخته وقرأتـه للطلبة مرتين ، وعلقت عليه شرحاً موجزاً ، فرغب إليّ ان أهديه له ، وأن يطبعه على نفقته . . . وحضرته رقيق الحاشية ، ومتواضع ، وسخيّ .

مما قدمناه لكم كتاب « نقد عين الميزان » للشيخ محمد بهجة البيطار ، أحد ملازمي دروسنا الليلية والنهارية ، وهو ممن يرجى له مستقبل علم حسن إن شـاء الله تعالى . . .

- ٢٢ -

ومن رسالة مؤرخة في ١٠ ذي القعدة ١٣٣١ :

. . .

كنت عرفتكم بعناية (مولاي عبد الحفيظ سلطان مراكش السابق) بنا لما حل دمشق ، وأني رغبت إليه في طبع كتاب في أصول الفقه للامام ابن رشيق المالكي . . .

وقد وردت عليّ بشارة من حيفا من مكاتبه بها يذكر لي ان حضرة السلطان أمر بتقديم الكتاب للطبع في مصر ، فأرجوكم بصورة مخصوصة ان تزوروه في مكة ، إن قدر لكم الحج بعونه تعالى ، وتنوبوا عني بشكره على عنايته بنا ، وبأمره بطبع الكتاب المذكور شكراً يليق بمقامه ، وفي لطفكم الكفاية . . .

- ٢٣ -

ومن رسالة مؤرخة في ٢١ ربيع الأول ١٣٣٢ :

. . .

شغلت الآن بعمل جديد ، وكنت أظن ان المرء كلما تقدم في السن أخذ في الراحة ، وإذا الأمر بالعكس ، كما قال القائل :

كلمـا قلنـا استرحنـا جاءنا شغل جديـد

فإني لما صرفت ابني ضياء الدين لطلب العلم ، أخذت أُفكر في طريقة تسهل عليه فن النحو وكتبه التي تمتحن بها الطلبة ، فشرعت أرتب بعض الكتب الشهيرة لأجله ، على طريقة السؤال والجواب ، مع عناية بلطائف المسائل ونكتها ، لا كقرطمة بعض المطبوعات التي أراها أشبه بمسخ للفن . فهذا الشغل لم يكن على بالي ، ولذا لم أتمكن من النظر في أجوبة صديقنا الحافظ محمد حسين التي سألنا عن مسائلها ، فمعذرة إليه . . .

- ٢٤ -

ومن رسالة مؤرخة في ١٦ جمادى الأولى ١٣٣٢ :

. . .

كنت جمعت رسالة في المسح على الجوربين ، وكان نسخها الشيخ حامد للشيخ محمد حسين الحافظ . ثم تراءى لي من مدة أن أعيد النظر عليها ، فأعدت النظر ، وزدت في مباحثها زيادات مهمة ، وتوسعت بذكر مذاهب المجتهدين فيها كلهم ، وقد عزم إخواننا على الأخذ في طبعها بعد أسبوع ، فأرجو ان يرسل لنا الشيخ محمد حسين الأصل المحفوظ عنده ، لكونه عدلنا عنه ، ولا أجوّز نسبته لي ألبتة ، وإذا شئتم ان تأخذوه وتحرقوه ، فافعلوا ، لأن المبيضة الآن هي التي عولنا عليها .

ثم وصلني كتاب من الهند ، ومعه عدة رسائل من « الداهية الكبرى على الرائية الصغرى » ، ولم يطبعوا معها رسالة ابن البيطار تلميذنا ، مع أنها لطيفة في بابها ، وإنما ذكروا خطبتها فقط . . .

* * *

ثم أقصّ عليكم نبأً غريباً : وهو أني ذكرت لصديق لي في الشام أن يكاتب أحد أصدقائه في المدينة (لأني إلى الآن لم أتعرف بصديق ثمة على المشرب) لينسخ لي من المكتبة المحمودية في المدينة المنورة (فصل المسح على الجوربين من كتاب المحلى

لابن حزم الموجود فيها بتمامه) لأعيد النظر على ما قاله ابن حزم في هذه المسألة ، لأني عام رحلت إلى المدينة نسخت جانباً من هذا الفصل من المحلى . فكتب صديقي إلى صديقه ، ويظهر أنه نشيط ، فأجابه وأجابني بما صورته بعد كلام :

« فذهبت ، وطلبت الكتاب ، فلم أجده لسوء حظي . وسبب ذلك أن « حافظ الكتب قال : إن شيخ الحرم السابق منع من بقائه هنـا ، لأن بعض « الوهابية ينقلون منه ما يخالف العموم ، فأسفت على أمة هذه حالها » اه كلام المراسل ، فتأمل هذا واسترجع !

ثم خطر لي لعل أحد الوجهاء في المدينة المنورة من أصحابكم ، أو وكيل الإمارة الجليلة بها ، يمكن ان ينسخ (فصل المسح على الجوربين من الجزء الأول منه) رعاية لخاطره ووجاهته .

فأرجوكم غاية الرجاء أن تكتبوا حالاً لمن يعزّ عليكم ، ويمتثل أمركم ، أن ينسخ لكم هذا الفصل ، وترسلوه إذا فعلوا سريعاً ، لنلحقه بالرسالة التي نريد طبعها وعرفوني بما يتم من هـذا الأمر .

ولا شك أن الكتاب لم يزل في المكتبة ، إلا ان الوجيه او الكبير هنـاك لا يستطيع قيم المكتبة ان يخالفه ، وكلنا ممن يجب عليه ان يسعى لخدمة العلم ، وبث الفوائد ، وأنتم والحمد لله ممن سبق في هذا المضمار ، وأعان بقوله وفعله وجاهه وماله ، جزاكم المولى عن العلم وأهله خير الجزاء .

* * *

وثمة نبأ آخر حدث في الشام مدة غيبتنا عنها ، وهو أن رجلاً مغربياً ، يسمى الشيخ عبد السلام (ممن يتردد على الأكابر ، ويعيش بإكرامهم ، وعنده شمة من طلب العلم ، لكثرة اجتماعه بالمتعممين) حرضه شخص على طبع رسالة للشيخ أحمد الأقحصاري الرومي ، تشبه رسالة « البركوي » المطبوعة في « الرد الوافر » ، بل هي مأخوذة منها ، والنفقة من المحرض ، فطبعها ونشرها مجاناً ، فقامت قيامة الجامدين ، وشكوه للوالي ، ولكن ما استفادوا إلا الخيبة ، ولكن لم تزل إلى الآن سَمَر القبوريين ، وموضع أسفهم .

وقد خطب خطيب منهم ينهى الناس عنها ، وقال : قد نشرت الآن رسائل - يعني هذه الرسالة ، ورسالة الداهية الكبرى[1] - والأغرب ان طابعها المذكور ليس من جماعتنا ، ولا على مشربنا ، ولا أدري ماذا دفعه ، أدراهم أنقدها ، أو غير ذلك ؟

ولعلنا نظفر برسالة منها ؛ ونقدمها في البريد لحضرتكم ، لأن إرجاف القبوريين خوَّف باعة الكتب من جلبها ، وصارت تفرق للأصدقاء الطالبين فيما بلغنا . . .

(١) كذا في الأصل ، وفي العبارة نقص ، ولكن المعنى واضح .

ووجدت في دفتر للشيخ حامد النقي صورة رسالة وجهها الفاسي الى الشيخ عبد الرحمن الكتاني جاء فيها :

سرني ما تفضلتم به من خلو القطر (مراكش) من مشاغبين ومبتدعين ، وتلك نعمة عظمى ، ومزية كبرى ، اختص بها هذا القطر الكريم من بين سائر الأقطار .

وأما غيره فقد حلّ به من غرائب المطبوعات والمجلات ، ما تحار له الأفكار ، وما يمثل عصر الرازي والعضد ، ومن تقدمهما ، ممن أحاطت به المذاهب والآراء ، وألجأت إلى البحث والتنقاب ، والتشمير عن ساعد الاهتمام ، لإزهاق الباطل ، وإعلاء الحق .

ومن غرائب هذا العصر ، بل من فوائده ، التي كان لها أحسن أثر في نفوس العلماء ، هو وقوفهم من الأئمة المتعصب عليهم ، والمرميين بالشذوذ ، على ما يجلو أمرهم ، ويسمي شأنهم ، ويحلهم من منابذهم محل المعذور ، بل المأجور .

هذا ابن حزم وابن رشد وابن عربي والفارابي وابن تيمية وابن القيم والغزالي وأمثالهم ، كثيراً ما كان يمر ببعض الكتب رميهم بما برأ الله ساحتهم منه ، ولربما كان يعلق شيء من ذلك في أذهان بعض النابتة ، فلا يزال معه نفور

وكراهيـة لهم ولاسمهم ، لا على أنه وقف على ما يحقق ذلك ، بل لمجرد أن الـكتاب الفـلاني نقل ذلك ، وصاحبه قد يكون معاصراً ، ولا يخفى أمرها ، أو مقلداً حسَّن الظن بمقلده ، لصفـاء قلبه ، وخلوص طويته ، ولـكن الحقيقة بنت البحث .

* * *

لما جمعت الهمة للرد على الدهريين في كتابهم المرسل من اليابان ، أعياني أن أجد ضالتي في كتب الـكلام المتداولة ، إذ رأيتها كأنها جمعت لزمن غير هـذا الزمن ، او لبلاد غير هذه البلاد ، فطفقت أنقب عما يردُّ تلك الشبه الضـالة ، من كلام الأساطين ، الذين جمعوا بين الفلسفة والدين ، فما رأيت لديَّ إلا كلام أولئك الأئمة المذكورين ، رضي الله عنهم ، فحمدت الحق تعالى أن ذخر لنـا من جواهرهم ما تتحلى به المعارف في كل عصر ، ويفتقر إليه ـ إذا أعوز الحـال ـ كل قطر ، ثم أسفت كل الأسف لما يُرْمَون به تعصباً ، او عدم اطـلاع على الحقيقة . وهل بعد كلام المرء ، وإقراره ، وتصنيفه ، جدال ، وهل ذهب أحد إلى التنقيب عن القلوب ، والأخذ بالظنون ؟ أما وقد طبعت المؤلفـات ، وأدلى كل من أربابها بالبراهين ، فما بقي إلا تمحيصها ، والنظر إليها بإنصاف .

فمن رأى الحق في جانب وجب عليه اقتفاؤه كيفما كان « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » ، ومن رأى ضعفـاً في الاستدلال ، أو نقصاً في المقال ، فما عليه إلا أن يبين الحقيقة ، مبرهناً عليها ، حسب جهده وطاقته .

وبالجملة . فيامولانا ، قد كشفت المطبوعات عما يفيد الأمة فائدة لا يقدر قدرها ، وكأن الحق تعالى ، وله الحمد علم ما يحيط بالحنيفية ـ أيدها الله ـ من مكايد أعدائها ، فأفاض برحمته على الأمة مدرار هذه المطبوعات ، للسلف والخلف ، حتى توسعت بها الأفكار ، وعظمت منها العدة للكفار . . .

١٥ محرم ١٣٢٧

جمال الدين

* * *

مؤلفاته

وهب القاسمي القدرة على التأليف والجمع والوضع منذ حداثة سنه ، ولعل أقدم ما وقعتُ عليه من آثاره ، مجموع لطيف ، سماه « السفينة » جمعه عام ١٢٩٩هـ ، وله من العمر ست عشرة سنة ، فيه مختارات من مطالعاته في كتب شتى ، سترى تفصيلها حين البحث عن هذا المجموع في ثبت كتبه .

ومضى رحمه الله يكتب دون انقطاع في الليل وفي النهار ، في القطار ، في النزهة ، في العربة ، في المسجد ، في سدته ، في بيته ، وأظن أن الطريق وحده هو الذي خلا من قلمه .

وقد كان في جيبه دفتر صغير وقلم ، يقيد الفكرة الشاردة فيه إذا عنت له حيثما كان .

وقد ألف خلال رحلته إلى مصر « شذرة من السيرة المحمدية » ، كما أنهى كتابه « ما قاله الأطباء المشاهير في علاج البواسير » في نزهة بين الأصحاب في ربوة دمشق . كذلك كتب جزءاً من « قواعد التحديث » في بيت المقدس .

وهكذا لم يصرفه عن التدوين والتأليف صارف . حتى المرض ، فأنت ترى في بعض كتبه أنه قد ألفها وهو مريض ، يجد الراحة في الاهتمام بها وقد طبع بعض كتبه خلال حياته ، وطبع بعضها بعد وفاته ، وما زال بعضها الآخر ينتظر النور .

حكم رحمه الله على كتبه بنفسه فقال في إحدى مذكراته اليومية : « كل مؤلف لي قبل ١٣٢٠ فلي فيه وقفة[1] » . وقد أطلعني ، منذ أول شبابي ، على هذا الحكم عمي قاسم خير الدين رحمه الله ، وقال : كأن هـذا الكلام وصية من أبيك في عدم طبع كتبه التي ألفهـا قبل ١٣٢٠ ولم تطبع .

ويلوح لي أنه رحمه الله قد أدرك أن طبع الكتاب ، إنمـا يعني نشر عقل صاحبه على الناس . وقد كان القاسمي إنساناً كسائر الناس ، تطور عقله في مراحل شتى ، وانفتحت أمامه في دراساته ومطالعاته ورحلاته آفاق جديدة ، على مر السنين ، فما راق له أيام شبابه ، أضحت له فيه « وقفة » أيام كهولته .

وهو بهذا التعبير الدقيق ، لم يُلْغِ كل ما كتب قبل ١٣٢٠ ، وإنما ترك فيه باب النظر . يدل على ذلك الدلالة الواضحة تفسيره « محاسن التأويل » . فقد شرع في جمع الجزء الأول عام ١٣١٧ ، ثم أعاد النظر عليه ، ولم يعدل فيه إلا القليل ، لأنه مباحث في كليات علم التفسير .

أما الجزء الثاني الذي تناول فيه تفسير الفاتحة وبعض سورة البقرة ، فقد وضعه عام ١٣١٧ ، ثم أعاد النظر عليه عام ١٣٢٩ ، فشطبه برمته او كاد ، ولم يبق مما وضعه عام ١٣١٧ إلا صفحات قلائل ، كما سنتحدث عن ذلك في ثبت الكتب .

وسترى في ثبت كتبه أن أكثر كتبه في خدمة الشريعة المطهرة ، يجلو فيها حقائقهـا على مذهب السلف . إلا أنه كتب في مواضيع أخرى متعددة ، لم أر أحداً من المُحْدَثين قد تناولها .

---

(١) مفكرة - ٩ جمادى الاولى ١٣٢٤

فهو إلى جانب التفسير والحديث والتوحيد والعقائد والأصول ، يكتب في تاريخ الجهمية والمعتزلة ، والجرح والتعديل ، والشاي والقهوة والدخان ، والصناعات الشامية ، وتاريخ دمشق الشام ، والقلب ، وقتل الجماعة المتمالئة بالواحد ، ومذاهب الأعراب وفلاسفة الإسلام في الجن ، والفتوى في الإسلام ، ووجوب العمل بخبر البرق في إثبات الشهور ، ويؤرخ رحلاته إلى النبك ووادي العجم ، ويضع كتاباً في الأخلاق ، ويختصر إحياء علوم الدين ، كما يختصر قوت القلوب ، ولا يفوته إصلاح المجتمع في مسائل الطلاق فيؤلف كتاباً يسميه « تصحيح أنكحة الناس » ، ويؤلف كتاباً عن « الآراء الفلسفية في الموت » .

ويؤذيه خصومه بإمام يفتات عليه ، فيضع رسالة في إقامة الحجة على المفتات على الإمام الراتب ، ويرى البدع تفشو في المساجد فيضع كتابه « إصلاح المساجد ، من البدع والعوائد » .

وتبهره الطبيعة بجمالها فيجمع ما قيل عن الفصول الأربع ، ويرى مياه دمشق وفواراتها فيجمع ما قيل في مدح الفوارة ، ويتألم لهذه الموالد التي تقرأ في المجتمعات وقد طغى عليها الحشو والموضوعات ، فيؤلف مولداً يسميه « شذرة من السيرة المحمدية » ، ويضع مثله عن « الإسراء والمعراج » .

ويرى الناس يتعبدون بأدعية ليس لها أصل ، فيعود إلى الكتب الموثوقة يجمع منها « منتخب التوسلات » و « الأدعية المأثورة » و « مناجاة وتضرعات » ، ويظهر الفونوغراف في عصره ، فيحاوره في شأنه أحد أصفيائه ، فيكتب فيه بحثاً طريفاً .

ولم نرد من هـذا السرد إحصاء المواضيع التي عني بها رحمـه الله فألف فيها ، وإنمـا هدفنا إلى التمثيل ليس غير . كتب هـذا كله ، وسنه لم تتجـاوز التاسعة والأربعين .

ومن دواعي الأسف أن بعض ما كتب القاسمي قد فقد ، لأسباب عديدة . وقد ذكرنا بعض هذا المفقود في آخر البحث ، لأن ذكره قد جاء في الثبت الذي ورد في المجلد السابع عشر من المنار ، ولابد من العثور عليه ذات يوم .

وها نحن نورد ثبت كتبه ، مع تاريخ وضعها ، وكلمة موجزة عن كل منها :

١ — السفينة

أقدم ما عثرت عليه بخط القاسمي مجموعة صغيرة كتب عليها بخطه الثلث الجميل ما نصه : (هذه السفينة مجموعة من الفوائد اللطيفة ، والمسـائل الشريفة ، بخط الفقير محمد جمال الدين أبو الفرج عفي عنه سنة ١٢٩٩) . كان له يومئذ من العمر ست عشرة سنة .

والمهم في هذه (السفينة) أنها دلالة واضحة على عقل الفتى في هـذه السن المبكرة ، فلقد قيل قديماً : « اختيار المرء قطعة من عقله » .

وفي الصفحتين الأوليين أبيات متفرقة لشعراء مختلفين ، ثم في الصفحات الباقية مجموعة من الحكم والنوادر والوصايا والنصائح الأخلاقية والأحاديث النبوية والفوائد واللطائف والمسائل والألغاز والأوراد ، شعراً ونثراً .

أخذها عن الكتب التالية : حياة الحيوان للدميري ، المفيد للجلال السيوطي ، بعض المجاميع (كذا) ، التبر المسبوك للغزالي ، الجامع الصغير ، دقائق المنهاج للنووي ، تذكرة الأنطاكي ، شرح شروط الأمامة ، وصايا الشيخ شمس الدين العمري ، الميزان للشعراني ، شرح العزيزي على الجامع الصغير ، مختار الصحاح ، أبو شادوف ، المستطرف ، ألف نادرة ونادرة ، أعلام الناس ، قاضي خان ، الباجوري ، الفناري ، الوطواط في الأدب ، الطلعة في السبعة .

وأكثر هذه الكتب معروف ، وقد غاص عليها قبل أن يطر شارباه ، واستخرج منها ما يقوّم اللسان ، ويقوي الجنان ، ويبعث على التأمل ، ويزيد في مكارم الأخلاق .

و (السفينة) أربعون ورقة في ثمانين صفحة من القطع الصغير .

* * *

ومن مختاراته في الشعر :

يفارقني من لا أريد فراقه ويصحبني في الناس من لا أُريده

* * *

ومن مختاراته في النثر :

قال ابن المعتز : القلب معدن ، والعقل جوهر ، والقلم صائغ ، والخط صناعة .

* * *

ومن مختاراته في الأحاديث :

قال ﷺ : « آفة الظَّرْف الصَّلَف ، وآفة الشجاعة البغي ، وآفة السماحة

المنّ ، وآفة الجمال الخيلاء ، وآفة العبادة الفترة ، وآفة الحديث الكذب ، وآفة العلم النسيان ، وآفة الحلم السفه ، وآفة الحسب الفخر ، وآفة الجود السرف . »

وإنما قدمنا مختارات من مختاراته ، لترى كيف ابتدأ حياته في التدوين .

٢ — الطائر الميمون ، في حل لغز الكنز المدفون

رسالة لطيفة شرح فيها « لغز الكنز المدفون » وهو لغز وضعه أحد الأدباء عن « الماء » وتصدى لشرحه قبله تقي الدين المقريزي .

وضعها عام ١٣١٣ في نحو ١٢ صفحة ، طبعت مرتين بدمشق .

ثم أتبعها بألغاز نحوية وضعها عام ١٣٠٥ ـ ١٣٠٦ وأجاب عنها أكابر أدباء عصره ، وطبعت مع الرسالة ، في نحو ١١ صفحة .

٣ — الكوكب المنير ، في مولد البشير النذير

« مختصر إلى الولادة ، من مولد ذات السيادة ، العالمة ، العاملة ، العارفة الكاملة ، الشيخة عائشة الباعونية . أغدق الله على جدثها سحائب النورانية . آمين »

قال في آخره : تم على يد مختصره الفقير ، إلى الغني الكبير ، محمد جمال الدين أبي الفرج القاسمي ، الأشعري ، الدمشقي ، النقشبندي ، الخالدي ، الشافعي ، في ٤ ربيع الأنور سنة ١٣٠٦

ويلاحظ استغناؤه عن جميع هذه الألقاب في مؤلفـاته الأخرى ، واكتفاؤه باسمه ، لعدوله عن الطريقة النقشبندية ، كما أشار إلى ذلك في ترجمته لنفسه .

وهذا المختصر كاد يخلو من الغلو والأوهام ، التي اعتاد الناس قراءتهـا في الموالد المألوفة .

٤ ـــ كناشة

قال على غلافها إنه جمعها ابتداءً من يوم الثلاثاء في ١٥ محرم الحرام ١٣٠٧ . ولم يذكر انتهاءه منها ، خلافاً لعادته .

وقد ضمت هـذه الكناشة فوائد متنوعة في الفقه والحديث والأدب والتـاريخ وبعض التراجم لأعـلام من عصره كالشيخ حسن جُبَيْنَه المتوفى ١٣٠٦ ، والشيخ أرسلان التقي المتوفى ١٣٠٠ ، والشيخ حامد التقي المتوفى ١٢٦٦ ، والشيخ علي جبينة المتوفى ١٢٥٧ ، والشيخ عبد القادر الشالاتي المتوفى ١٣٠٣ .

كما تضمنت مراسلات بين علماء العصر ، ممـا لا يمكن أن يوجد إلا في هذه (الـكناشة) .

وهي مؤلفة من اثنتين وأربعين صفحة من القطع المتوسط ، ولم يجعل لها خاتمة ، بل وجد ما يقارب نصفها من الأوراق البيض ، مما يدل على أنه كان يرغب في إضافة أبحاث أخر إليها ، إلا أن ضيق العمر حال دون ذلك .

٥ ــ المنزه الأرفع ، في الفصول الأربع

جمع فيه ما وقع عليه في مدح وذم الفصول الأربع نثراً وشعراً عام ١٣٠٩

٦ ــ الكواكب السيارة في مدائح الفوارة

جمعه عام ١٣٠٩ وكله من شعر المولدين والمتأخرين .

٧ ــ بذل الهمم في موعظة أهل وادي العجم

وصف جامع لرحلته إلى قضاء وادي العجم (قطنا) ، وقيامه بالتدريس خلال شهر رمضان عام ١٣٠٩ .

وقد التزم فيه السجع ، وجمع كثيراً مما قيل من روائع الشعر في شهر رمضان للأقدمين والمتأخرين ، كبشار بن برد ، وابن الرومي ، والبحتري وغيرهم .

ومن فوائد هذا الكتاب :

١ ــ أنه أحصى فيه المشاهير في جميع القرى والمناطق التي وعظ فيها .

٢ ــ أنه أوضح التقسيمات الإدارية في ذلك العصر لهذا القضاء .

وقد ذكر في آخره أنه كان الفراغ من تبييضه يوم الثلاثاء الثالث عشر من شوال سنة ١٣٠٩ .

ووجدت على غلافه تسعة أبيات لأديب عصره الشيخ محمد المبارك في مدح هذه الرسالة .

٨ — وفاء الحبيب وعده ، بإيضاح جهة الوحدة

جمعها من تقرير وإملاء شيخه العـلامة الشيخ بكري العطار في يوم عاشوراء الأربعاء سنة ١٣١٠ .

٩ — إيضاح الفطرة ، في أهل الفترة

قال في مقدمته :

« . . . قد اتفق أني تذاكرت مع بعض أهل الفضل والخبرة ، في مسألة الاختلاف في أهل الفترة . . . فحثني أن أبحث في نصوصها . . . »

وقال في ختامه :

« تم ما قصدنا جمعه في هـذه الرسالة ، وكان الفراغ منهـا عام ١٣١١ . . . »

وهي في ٦٠ صفحة .

١٠ — الأنوار القدسية على متن الشمسية

شرح فيه القسم الأول من كتاب « الشمسية » في المنطق ـ قسم التصورات ـ ويقع في ٢٧٦ صفحة من القطع المتوسط .

فرغ منه ليلة الخميس لعشر بقين من شهر جمادى الأولى عام ١٣١٢ هـ ، فهو من إنتاجه المبكر .

١١ — ثمرة الفسارع ، إلى الحب في الله تعالى وترك التقاطع

العنوان يدل على الموضوع . جمعها في ١٩ شوال ١٣١٣ في نحو ست صفحات من القطع الصغير .

١٢ — رفع المناقضات ، بين ما يزيد في العمر وبين المقدرات

قال في المقدمة :

« أما بعد فهذه رسالة سميتها . . . نذكر أولاً نقول المحققين ، ونختمها بما يفتحه الباري إن شاء الله في هذا المقام المتين . . . »

ولكن اقتصر على النقول وحدها ، وهي ممتعة ، في نحو عشر صفحات من القطع الصغير ، وترك بياضاً في عشر صفحات أُخرى ، وكأنه كان عازماً على التعليق ، ولم يكتب له ذلك . والرسالة غير مؤرخة .

١٣ — المسند الأحمد على مسند الإمام أحمد

قال في مقدمته :

« أما بعد فهذه تعليقات وجيزة على مسند الإمام ناصر السنة أحمد بن حنبل

رضي الله عنه . سميتها « المسند الأحمد ، على مسند الإمام أحمد » وفقنا الله لما يحبه ويرضاه آمين .

انتهى من تأليفه في ٦ ذي الحجة الحرام ختام سنة ١٣١٣ في ٦٨ صفحة .

١٤ — بديع المكنون في مسائل أهل الفنون (جزآن)

قال في مقدمته :

« ضمنته فوائد علمية قل أن يظفر بها أحد ، إلا بعناية المولى الصمد » .

أشار على غلاف الجزء الاول أن « ابتداء جمعه في ذي القعدة ١٣١٣ » .

يقع الجزء الأول في ٢٢٨ صفحة من القطع المتوسط .

ويقع الجزء الثاني في ١٥٤ صفحة .

أكثر مواضيعه تصحيح للعقيدة ، وردّ إلى أصول الإسلام الصحيح . وفيه قليل من اللغة والأدب .

١٥ — ينابيع العرفان ، في مسائل الأرواح بعد مفارقة الأبدان

في نحو ٢٠ صفحة ، فرغ منها في سلخ رجب ١٣١٤ والعنوان ينبئ عن الموضوع ، وقد اقتبسها من كتاب الروح للامام ابن القيم .

١٦ — طراز الخلعة في حل قول الرملي : « وأقسام الاسم ثمة »

قال في مقدمته :

« أما بعد فهذه رسالة سميتها . . . . فقد أوردها على إجمالها ثم حاولت الأجلاء حلها ، ولم يأت من كتب عليها من المصريين بكنه ولا رسم ، حتى ظفرت بكشف لثامها للعلامة الشيخ خالد الكردي ثم الدمشقي . . . . »

وتاريخها ٧ ربيع الثاني ١٣٠٥ وتقع في ست صفحات ، وأعاد النظر عليها في ٥ ربيع الأول ١٣١٤ .

١٧ — هداية الألباب ، لتفسير آية : « وطعام الذين أوتوا الكتاب »

رسالة في ثماني صفحات . جمعها « في أربع عشرة بقين من رجب ١٣١٤ » .

١٨ — الجواب السني عن سؤال السيد أحمد الحسني

بحث موجز للسيد أحمد الحسني الجزائري في منسوخ القرآن .

شرحه القاسمي في إحدى وعشرين صفحة من القطع المتوسط .

قال في ختامه : « يقول شارحه لطف به مولاه : قد منّ المولى تعالى بجمعه في العشر الأخير من رمضان سنة ١٣١٤ . . .

« هذا وإن المؤلف زيد فضله كان ارتجل سؤاله لبعض الشؤون ، فأملاه يراعه بلا توقف على مراجعة فن من الفنون . . . »

وقد وجدت على غلافه الأول تقريظاً بخط السيد محمد مرتضى الحسني مؤرخاً في ١٤ ذي القعدة ١٣١٤ .

كما ضُم إليه في نهايته تقريظ للشيخ عبد الرزاق البيطار مؤرخ في غرة ربيع الأول ١٣١٥ .

١٩ — الارتفاق بمسائل الطلاق

دقق في بعض المسائل المتعلقة بالطلاق وأهمها :

١ — فيمن طلق ثلاثاً .

٢ — في طلاق سكران .

٣ — في طلاق الغضبان .

٤ — في الحلف بالطلاق .

٥ — في طلاق الحائض والنفساء والموطوءة في طهرها .

٦ — في حكم من حرم أَمَتَه أو زوجته أو متاعه .

٧ — في أحكام الخلع .

٨ — في أنه لا نكاح إلا بوليّ .

وقد أتمها في ٢٢ صفحة بين العشاءين ليلة منتصف شعبان ١٣١٤

٢٠ – فصل الكلام في حقيقة عود الروح للميت حين السلام

والعنوان ينبيء عن فكرة الرسالة ، وهي في نحو ١٧ صفحة .

جاء في ختامها :

« بقلم جامعها محمد جمال الدين القاسمي في ٥ ربيع الأول ١٣١٤ » .

٢١ – إفادة من صحا ، في تفسير سورة والضحى

لعبيد ربه الذليل الحقير محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي عفي عنه .

قال في ختامها :

« تم جمعها في ٢٩ ذي الحجة الحرام ختام عام ١٣١٤ » .

تقع في ثماني صفحات من القطع الصغير .

٢٢ – تنوير اللب ، في معرفة القلب

مقالة في ثلاث صفحات ، كتبها في ٢٧ ربيع الثاني ١٣١٥ .

ونشرت في العدد الثاني والستين من جريدة الشام .

٢٣ – جواب المسألة الحورانية

قضى عيد الأضحى عام ١٣١٤ في حوران فسأله أحد الألباء الأحباء عن شبهة

الجبرية ، وعما قيل : « إن لسان الحقيقة ، يعذر الخليقة ، إذ هم صائرون إلى مشيئته تعالى ، فهم مجاز لأقداره » .

وقد جاء الجواب في إحدى عشرة صفحة في شهر محرم ١٣١٥ بما لا يخرج عن مذهب السلف .

وأتبعه بفصل في الرد على مذهب المعتزلة : « إن أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة العبد وحدها . » في نحو أربع صفحات .

٢٤ ـــ منتخب التوسلات

قال في مقدمته :

« أما بعد فهذه أدعية وتوسلات . . . صدرتها بالدعوات القرآنية ، وأتبعتها بأدعية مأثورات ، من كتب المحدثين الثقات . . . »

وهو متمم لكتابه (الأوراد المأثورة) ، وهدف فيه إلى نفس الغرض ، من الابتعاد عن كتب الأدعية الخرافية التي اشتهر تداولها بين أيدي العامة .

جمعه عام ١٣١٥ وطبعه بدمشق عام ١٣١٨ في ٢٨ صفحة من القطع الصغير .

٢٥ ـــ الطالع السعود على تفسير أبي السعود

شرع فيه في شهر رجب ١٣١٥ ولم يكتب منه إلا ٣٨ صفحة .

قال في مقدمته :

« هذه كلمات وجيزة « على تفسير العلامة أبي السعود ، حوت تخريج آثاره مما تدعو إليه الحاجة .

« والذي حداني إلى خدمة هـذا التفسير الجليل ، أني رأيته أنقى ديباجة ، وأخلص ألفاظاً ، وأشد انسجاماً في إيضاح التنزيل ، فترى عبارته جوهراً صافياً ، ونسقاً مطرداً ضافياً ، لا يتوقف دونها الفهم ولا تجهد عندها روية ذي العلم . . . بل كسي من وشي البيان ، ما صار به نسيج وحده في تفاسير القرآن . . . »

وإنما أوردنا هـذه الكلمة من المقدمة لأنها تعبر عن رأيه وهو في الثانية والثلاثين من عمره ، في هذا التفسير .

٢٦ — شمس الجمال ، على منتخب كنز العمال

في نحو ٢١٤ صفحة من القطع الكامل .

فرغ منه بعد صلاة الجمعة غرة محرم الحرام ١٣١٦ .

قال في مقدمته :

« إن من أسنى ما ألف في الحديث وأبدعه ، وأعذبه مورداً ، وأحكمه وأجمعه كتاب منتخب كنز العمال . . . »

ثم أورد قصيدة من نظمه في مدح هذا الكتاب .

ثم قال : « وقد استخرت الله تعالى في جمع حاشية عليه وجيزة ، تُبرز من من عقود مبانيه درر معانيه العزيزة . . . »

٢٧ — آداب العالم والمتعلم والمفتي والمستفتي

قال على غلافه :

« تجريد الفقير محمد جمال الدين القاسمي من مقدمة شرح المهذب للنووي رضي الله عنه . »

وقال في ختامه : « وكان الفراغ من تجريده في شهر شعبان سنة ١٣١٧ » .

ووجد في خاتمة نسخة أخرى : بحمده تعالى :

« وقد عورضت بأصلها ، وتم العراض في أوائل شعبان سنة ١٣١٨ ، وذلك بعد الفجر في السدة اليمني من جامع السنانية . »

٢٨ — بيت القصيد في ترجمة الإمام الوالد السعيد

هو ترجمة لوالده سعيد القاسمي ، كتبه على طريقة الأقدمين ، وضمنه ما قيل في رثائه ، والتعازي التي وردت إليه بوفاته وشيئاً من شعره .

أنهى جمعه في الخامس من شوال ١٣١٨ ، ولكن يبدو أنه أعاد عليه النظر بعد هذا التاريخ ، كما هو واضح من الشطب ، ومن بعض الاضافات والهوامش .

والترجمة في نحو ثلاث وعشرين صفحة . والباقي في نحو ١١٥ صفحة من شعر المترجم .

٢٩ — الأوراد المأثورة

كأنه أراد من هـذا الكتاب محـاربة بعض الكتب الخرافية التي جمعت من الأدعية والأوراد ما ليس له صلة بالسنة المطهرة . فاقتصر في هذا المجموع على ماصح عن الرسول الأعظم ﷺ .

وقد قدم له بمقدمة في فضل الذكر والدعاء .

وأتبعه ببحث في أهم آداب الدعاء المروية .

قال في ختامه :

« وكان الفراغ من هذا المجموع ضحوة الأربعـاء في ٢٧ شوال سنة ١٣١٩ بمنزلنا بدمشق حرسها الله تعالى . »

وقد طبع في بيروت عام ١٣٢٠ هـ ، ويقع في ٦٤ صفحة .

٣٠ — زبدة الأخبار ، في ولدان الكفار

رسالة في نحو ١٢ صفحة ، حقق فيها الحكم الشرعي في الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفـار ، وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف ، ومن مات في في الفترة ولم تبلغه دعوة .

قال في خاتمتها :

« عارضتها بأصل مسودتي في سويعة بعد الجمعة[1] في ١١ ربيع الأول سنة ١٣١٩ »

ولم نعرف تاريخ المسودة .

٣١ — زوال الغشاء ، عن وقت العشاء

ألفها بعد عام ١٣١٩ ، أو خلاله ، كما يستدل على ذلك من مقدمتها ، في نحو عشر صفحات من القطع العادي حقق فيها الوقت الذي تبدأ فيه صلاة العشاء رداً على عالم مصري قرر : أن هذه الصلاة تبدأ بعد خمس وأربعين دقيقة من غروب الشمس .

٣٢ — إعلام الجاهر ، على قتل الجماعة المماثلة بالواحد

رسالة في نحو ١٣ صفحة ، حقق فيها من الناحية الشرعية ، ما يسمى في عصرنا هذا « جهالة الفاعل » في القضايا الجنائية .

وقد قال في مقدمتها :

« أرسل رئيس محكمة استئناف الجزاء في سورية يسأل من علماء الشام عن هذه الفتوى وذلك في ٢٤ جمادى الثانية سنة ١٣١٩ ونصها :

(١) لعله : بعد ظهر الجمعة .

« تعمد عشرون شخصاً مثلاً إتلاف زيد ، وكل واحد منهم أخذ بارودة ، وجميع بواريدهم من نوع واحد ، فصوبوا بواريدهم إلى زيد عامدين قتله ، وأطلقوها عليه في آن واحد ، فأصيب زيد برصاصة منهم وقُتل ، وما أمكن تعيين الرصاصة المصيبة من بارودة أي شخص خرجت من بواريد الأشخاص المذكورين . فهذه المسألة . نسترحم تفصيلات الفقهاء الكرام بخصوص حكم قتل زيد المرقوم . » انتهى .

وقد كتب الجواب في ١٠ رجب ١٣١٩

٣٣ ـــ تعطير الشام ، في مآثر دمشق الشام

تاريخ حافل للشام ، في أربعة مجلدات ضخام . شرع فيه عام ١٣٠٨ وأتمه عام ١٣١٩ .

اعتمد فيه على أكثر من خمسين كتاباً من كتب التاريخ ، ومعظمها كان لعهده مخطوطاً . تناول فيه بحوثاً شتى ، أهمها تراجم من دخلها قبل الإسلام وبعده ، استغرقت نحواً من جزئين في أكثر من خمسمئة صفحة .

ولعل من أهم ما ورد فيها ترجمة الأمير عبد القادر الجزائري ، وتاريخ جهاده مع المستعمرين الفرنسيين ، بقلم أخيه السيد أحمد الحسني الجزائري في نحو مئة صفحة . ولقد كان كاتبها شاهد عيان لأكثر الحوادث التي أرخها .

وتضمن الجزء الثالث ذكر أمراء دمشق بعد فتحها ، وغرائب الأنباء منذ بدء الفتح إلى عهد المؤلف ، وأبواب دمشق ، وتاريخ قلعتها ، ومشاهير جوامعها ، مرتبة

على حروف المعجم ، ومدارسها ، وزواياهـا ، وخانقاهاتها ، ومستشفياتها ، ودور كتبها ، وصناعتها ، وأوقافها القديمة ومبراتها ، ومناورها ، وساعتها الغريبة ، ومواسمها الطبيعية ، وزراعتها . . .

أما الجزء الرابع فقد خصصه لمتنزهاتها ورياضها وعيونها ، وجناتها وبعض ماقيل فيها من الشعر .

٣٤ ــ تعليقات على أوائل سنن أبي داود

في نحو ٢٢ صفحة من القطع الكامل . لم يعرف لهـا تاريخ ، وإن كنت أرجح أن أكثرها كتب قبل ١٣٢٠ .

٣٥ ــ قواعد أصولية

لم يذكر لها تاريخ ، في ثلاث صفحات .

٣٦ ــ قواعد تفسيرية

لم يذكر لها تاريخ ، في نحو صفحتين .

٣٧ ــ الاحتياط ، للخروج من الخلاف

في بضع صفحات ، لم يذكر لها تاريخ .

٣٨ ـ ما قاله الأطباء المشاهير ، في علاج البواسير

أَطْلَعْتُ عليها الأستاذ العميد الدكتور عزة مريدن فتفضل بكتابة الكلمة التالية :

« اطلعت على الرسالة المخطوطة التي كتبها بيده عام ١٣٢٠ عالم الشام المرحوم محمد جمال الدين القاسمي وسماها : « ما قاله الأطباء المشاهير في علاج البواسير » ، فوجدت فيها ما يدل على سعة البحث والاطلاع ، وعلى وفرة المراجع التي أخذ عنها المؤلف ، وتبين لي أن كثيراً مما جاء في هذا المخطوط من الأدوية لا يزال مستعملاً حتى اليوم .

« وقد أتى فيها ذكر ماهية البواسير بشكل لا يختلف كثيراً عما يعرفه الطب الحديث . ثم عرج على ذكر أسباب البواسير ، والمستعدين لها ، وتشريحها ، وأعراضها ، وأهميتها ، وتعرض لذكر فوائد الدم الذي يسيل من البواسير مما أثبته العلم الحاضر ، ولاسيما إذا كانت الأسباب في الكبد ، ثم ذكر حمية المريض .

« وقد أُعجبت بكلمة المبسور للمصاب بهذا المرض ، مثلما نقول المكبود ، والمقلوب ، والمعمود ، للمصاب بالكبد أو القلب أو المعدة .

« ونقل حين ذكر الأدوية عن ابن سينا من المتقدمين مثلما نقل كثيراً عن المتأخرين ، فجاءت رسالة بذلك جامعة لكل ما يريد الباحث معرفته مما قيل عن هذا المرض قديماً وحديثاً .

« ولئن كانت الرسالة لم تتضمن من الأدوية ما عرفت تأثيراته في الأيام الأخيرة ،

فلأن المؤلف رحمه الله تعالى لم يلحق عهد المرديات ، وعهد النهضة الطبية الحديثة .
ومع ذلك فإن الرسالة تظل تحمل قيمتها العلمية والأثرية ، فضلاً عما تحمله بين طياتها من معاني الدأب ، والدقة في البحث ، والحرص على الاطلاع ، مما كان يتصف به صاحب الرسالة .

« وإني لأنصح بمطالعة هذه الرسالة لكل ما ذكرته من الأسباب . »

٣٩ ـ قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث

بدأ في تصنيفه في إحدى الجمادين عام ١٣٢٠ . ثم قابله مرة أخرى في ١٩ ذي الحجة ١٣٢٤ .

طبع في دمشق عام ١٣٥٢ — ١٩٣٥ في أكثر من ٤٠٠ صفحة .

ثم طبع ثانية في القاهرة عام ١٣٨٠ — ١٩٦١ .

قال عنه الإمام السيد رشيد رضا :

« وقد بلغ ـ المؤلف ـ في مصنفه هذا سدرة المنتهى من هذا العلم الاصطلاحي المحض [١] . . . »

« وخلاصة القول : إننا لا نعرف مثله في موضوعه وسيلة ومقصداً ومبدأ وغاية [٢] . . . »

---

(١) ص ١٠ من المقدمة .

(٢) ص ١٧ من المقدمة .

٤٠ — الفصل المبين على عقد الجوهر الثمين

(شرح الأربعين العجلونية)

قال في مقدمته :

« عنَّ لي أن أكتب شرحاً عليها — الأحاديث — يوضح ما تدعو إليه حاجة الواقف لديهـا ، من شرح بعض أحاديثها الشريفة ، وذكر تراجم أرباب المسانيد المنيفة ، وضبط ما أبهم من أسماء الرواة ، وسوق فوائد ولطائف عن الثقات ، وبيان بعض أوهام سرت للمصنف من عثرات الأفهام ، فشرعت في ذلك ، مستعيناً به تعالى ، فهو نعم المعين . »

والكتاب في ١٥١ صفحة .

قال في خاتمته :

« قد كنت سودت هذا الشرح في عام ١٣١١ ، ثم زدت فيه وهذبته على حسب التفرغ له ، ووقف الآن بنا جواد القلم ، وذلك في عام ١٣٢٠ ، فالحمد لله على ما أفضل وأنعم . »

٤١ — درء الموهوم ، من دعوى جواز المرور بين يدي المأموم

رسالة في خمس صفحات ، كتبها عام ١٣٢٠ . والعنوان يوضح الموضوع .

٤٢ ــ غنية الرحمة على كشف الغمة

شرح فيه كتاب كشف الغمة عن جميع الأمة للشعراني .

لم أجد له تاريخاً ، في نحو ١١٥ صفحة ، وقد وصل فيه إلى بحث (كتاب الطهارة وأحكام المياه) ولم يتمه .

أرجح أنه شرع فيه قبل عام ١٣٢٠ وأعاد النظر عليه بعده .

٤٣ ــ مجموعة لطيفة ، في نصوص إجازات منيفة

(وهي إجازات الفقير جمال الدين القاسمي من أشياخه الكرام ، بوأهم المولى دار السلام آمين .)

جمعها في شهر رجب عام ١٣٢٠ . له على بعضها تعليقات مفيدة .

بلغ مجموعها ٤٢ صفحة من القطع المتوسط .

٤٤ ــ مجموع رسائل في أصول التفسير وأصول الفقه

الأولى ــ في أصول التفسير للامام جلال الدين السيوطي .

الثانية ــ في أصول الفقه للامام ابن حزم الأندلسي .

الثالثة ــ مجمع الأصول للحافظ جمال الدين بن عبد الهادي المقدسي .

نشرها وحققها وشرحها وعلق حواشيهـا وطبعها بدمشق عام ١٣٢١ في نحو (٦٣) صفحة .

٤٥ — شذرة من السيرة المحمدية

في نحو ست وثلاثين صفحة من القطع الصغير ، قال في ختامه :

« اتفق تمام تبييضه في منتصف شوال نهار الأحد في الجامع الأزهر في الرواق العباسي أيام رحلتي لمصر القاهرة عام ١٣٢١ » .

أراد من هذه الشذرة الموجزة أن تتلى في الموالد المألوفة ، وقد اقتصر فيها على لباب اللباب مما ورد في أصح الكتب والأخبار . وقد ضمنهـا فصلين هامين أحدهما في إعجاز القرآن ، وثانيهما في غرر من الوصايا النبوية .

وختمها بأربعة فوائد :

الأولى — في أصل قصة المولد .

الثانية — في التحذير من البدع في مجامع تلاوة هذه القصة .

الثالثة — في القيام عند ذكر الولادة .

الرابعة — فيمن أحدث المجتمع للمولد .

والتسمية تدل على الغرض من التأليف .

طبع في مصر عام ١٣٢١

٤٦ ــ الشذرة البهية في ألغاز نحوية وأدبية

طبع عام ١٣٢٢ هـ مع (الطـائر الميمون) الوارد ذكره قبـلاً . وهو مجموعة شعرية فيها بعض الألغاز ، وقد كان هذا معهوداً بين علماء وأدباء ذلك العصر .

٤٧ ــ رسالة في الشاي والقهوة والدخان

تناول في هذه الرسالة التي أعاد النظر على مسودتها ونقحها في مجالس من ثلاثة أيام آخرها مساء الجمعة في ٧ صفر ١٣٢٢ ، مباحث عدة تتعلق بأسمائها وصفاتها النباتية واجتنائها ، وما قيل فيها من الشعر ، ومضارها وأحكامها الشرعية .

طبعت في دمشق في نحو ٥٥ صفحة عام ١٣٢٢ .

٤٨ ــ محاورة في الفونوغراف

جمعها أخوه المرحوم قاسم خير الدين القاسمي . وهي مراسلات جرت بين القاسمي وبين السيد محمد أبو طالب الحسني الجزائري عام ١٣٢٢ .

والموضوع ــ في وقته ــ طريف . والمحاورة تقع في نحو ١٥ صفحة .

٤٩ — إقامة الحجة على المصلي جماعة قبل الإمام الراتب

تم تأليفها في ١٧ جمادى الثانية ١٣٢٢ .

طبعت للمرة الأولى في دمشق عام ١٣٤٢ في نحو ٧٢ صفحة .

سبب وضع الرسالة ما تعرض له القاسمي من افتئات الباغين عليه في إمامة الناس .

وقد ضمت هـذه الرسالة بحثاً ختامياً رائعاً في أكثر من عشرين صفحة ، وضحت فيها غيرته على الحق ، وحماسته للعدل ، وحرصه على الألفة بين المسلمين . ولعل هذه الصفحات من خير ما كتب القاسمي تصويراً لحال الجامدين ، ولما يلقى المنورون من عنتهم وإرهاقهم .

٥٠ — الآراء الفلسفية في الموت ، وفي علاج الخوف منه ، وفي رفع الأوهام منه ، وفي رحمة وجوده ، وفي أن الحياة الحقيقية بعد الموت .

في نحو ٢٨ صفحة من القطع الصغير .

جمعها في ١٥ ذي الحجة ختام سنة ١٣٢٢ وعنوانها الطويل دليل على خطورة المواضيع التي عالجها في هذه الرسالة .

٥١ — رسالة في علم الأصول

في نحو مئة صفحة من القطع الكامل .

أرخ نهاية مقدمتها في ٩ جمادى الثانية ١٣٢٣ .

قال في مقدمتها :

« اقتصرت فيها على لباب اللباب ، نسجتها على منوال جديد ، دعاني لجمعها ما رأيت في مصنفات هذا الفن من الدخيل . »

وقد تضمنت مباحث هامة ، في الفتيا والاجتهاد وغيرها . وبعض فصولها ما زال بقلم الرصاص ، مما يدل على أنه لم يعد نظره فيها رحمه الله .

٥٢ — إصلاح المساجد ، من البدع والعوائد

تم جمعاً وتسويداً في ٢٤ رمضان ١٣٢٣ . ثم قابله مؤلفه على مسودته وزاد عليه في مجالس آخرها رابع عيد الأضحى ١٣٣٠ .

طبع في مصر عام ١٣٤١ .

هذا الكتاب ينسجم مع الدعوة الإصلاحية العامة التي عاش المؤلف حياته في سبيلها . وقد أحصى فيه أكثر البدع الشائعة في المساجد ، وبيّن تاريخ تسربها ، ووجوب الامتناع عنها . ولم يقتصر بحثه على الديار الشامية وحدها ، وإنما شمل جميع الأصقاع الإسلامية التي زارها ، ولاحظ انتشار البدع فيها .

٥٣ — رد على مسيحي يزعم أن نعيم الجنة روحاني لا جسماني

رسالة في ثلاث صفحات . قال في مقدمتها :

« قص علينا في قرية (افتريس) من قرى الغوطة في ١٣ صفر ١٣٢٣ شاب من المسلمين يتعلم في إحدى مدارس المسيحيين أن راهب المدرسة ألقى عليهم خطاباً بين فيه أن نعيم الآخرة للروح وحدها . . . »

٥٤ — الأجوبة المرضية ، على ما أورده كمال الدين بن الهمام على المستدلين بثبوت سنة المغرب القبلية .

ألفه لثلاث بقين من جمادى الأولى سنة ١٣٢٣ .

وطبع في دمشق عام ١٣٢٦ في ٣٧ صفحة .

قال عنه السيد الإمام محمد رشيد رضا[1] :

« كتاب صفحاته ٣٦ ، وإذا كان يعد صغيراً في ورقاته ، فهو كبير في موضوعه ، بل يقال بادىء الرأي : إنه أكبر من المسألة التي وضع لبيانها ، وهي سنية الركعتين قبل فريضة المغرب . . .

« الكتاب صغير في حجمه ، كبير في معناه وفائدته ، فهو كالمعول الصغير ،

(١) المنار : السنة ١٢ ، العدد ١٠

يهدم به البناء الكبير . هو يهدم تلك الشبهة الباطلة التي كبرت واتسعت ، حتى أحاطت بأذهان أكثر الناس ، وهم الذين يقولون إن علماءنا الذين سبقونا هم الذين أحاطوا بعلوم ديننا ، فيجب أن نأخذه منهم لا من كتبه المقدسة . . .

« فكتاب الأجوبة المرضية ، على صغره ، يبين لكل ذي بصيرة أن المسلمين لا يستغنون بكتب فقهاء المذاهب ، مهما جل مؤلفوها ، عن القرآن والسنة . . . »

٥٥ — النفحة الرحمانية شرح متن الميدانية في علم التجويد

قال في مقدمته :

« أما بعد فإن أولى ما تصرف فيه الهمم العوال ، كلام الله المتعال ، وأهم ما يبتدأ به تجويد آياته ، وإصلاح المنطق بكلماته ، وكان من أقرب ما ألف للمبتدىء في هذا الفن الرساله الشهيرة بالميدانية ، وفي سنة ١٣٠٣ هـ كتبت عليها بعض تعليقات سميتها (النفحة الرحمانية) ، ثم طلب مني بعدُ تنقيحها ، وضم تكملة لها في آداب التالي والتلاوة ، فأجبت ، وعلى الله توكلت . . . »

طبع عام ١٣٢٣ هـ .

٥٦ — كتاب الأولياء

في نحو ١٥ صفحة ألفه عام ١٣٢٤ .

قال في مقدمته :

« وقع البحث في ٣ ربيع الأول ١٣٢٤ في محفل ضم من العلماء ومشايخ الصوفية ثلة ، في حقيقة الولي . . .

« ثم بعد انفضاض المجلس صرت أترقب وقتاً من الزمن أختلس فيه كتابة شيء في هـذا البحث غير ما أنا مرتب وقتي عليه ، فلم أجد فرصة لذلك إلا في دمّر من منتصف الشهر المذكور فشرعت في ذلك ثمة ، وسبرت أولاً آيات التنزيل في هذا المقام .

« ولما أتممت ما جمعت في نحو يومين ثمة ، أضفت له بعد رجوعي منها ما راجعته لذلك ، مما تراه آخر الكتاب . . . »

٥٧ — موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين

أشار إليه في رحلته إلى مصر[١] ، وأن الأستاذ الإمام محمد عبده هو الذي قال له : إن أحسن ما ينفع العامة هو كتب الغزالي ، بشرط تجريدها من الواهيات . وقد عمد بعد عودته من مصر بسنتين ، أي عام ١٣٢٣ هجرية إلى اختصار إحياء علوم الدين ، وسماه « موعظة المؤمنين » .

وقد طبع الكتاب مرات ، وهو من الكتب المقررة في أكثر المدارس

---

(١) راجع ص ١٠٧ من هذا الكتاب .

والكليات الشرعية في العالم الإسلامي ، ويعتبر من خير الكتب في الأخلاق الإسلامية .

أتم الجزء الأول في غرة ذي الحجة الحرام ختام عام ١٣٢٣ هـ . وأتم الجزء الثاني ليلة الجمعة السادسة عشرة من ربيع الثاني قبيل العشاء عام ١٣٢٤ هـ .

٥٨ — شرح أربع رسائل في الأصول

الأولى — من أصول الشافعية لابن فورك الأصبهاني .

قال في آخرها :

« نقلت هذه الرسالة من مجموع بديع كتب سنة ثلاث وستين وسبعمئة . . . »

الثانية — للشيخ محيي الدين بن عربي .

جردها من الباب الثامن والثمانين من الفتوحات المكية ، عن النسخة التي قوبلت على أصل مؤلفها بقونية ، في رجب ١٣٢٤ .

الثالثة — في المصالح المرسلة لنجم الدين الطوفي .

جرده من شرح الطوفي للأربعين النووية في شرح حديث « لا ضرر ولا ضرار » عن نسخة مخطوطة عام ٧٥٦ ، في بضعة أيام آخرها مساء الثلاثاء ٦ شعبان ١٣٢٤ .

الرابعة — للحافظ السيوطي .

جردها من كتاب النقاية للسيوطي في بيروت في ١٥ شعبان ١٣٢٤ .

وطبعت جميعاً في ذلك العام في بيروت في نحو ثمانين صفحة .

٥٩ — تفسير آية : « إنا عرضنا الأمانة على السموات ... » الآية

تلخيص في ثلاث صفحات لمذاكرة جرت مع زمرة من أهل الفضل في دمر في ١٤ ربيع الأول ١٣٢٤ ، أوضح في هذه الصفحات رأيه في الآية .

٦٠ — سؤال مستشرق وجواب حكيم

الظاهر أن هـذا العنوان ليس من وضع المؤلف ، لأنه بغير خطه ، ولأنه لم يألف هذا الأسلوب من التسمية ، ولا أن ينسب لنفسه الحكمة .

حدثني تلميذه الشيخ حامد التقي أن مستشرقاً روسياً حضر إلى دمشق وقد ألقى الجواب عليه ارتجالاً ، وكان الأستاذ التقي والمرحوم الدكتور صلاح الدين القاسمي يكتبان بين يدي المحاضر أقواله .

وفي مذكراته الخـاصة بتاريخ ٧ جمادى الثانية ١٣٢٤ :

« وفي الضحوة جاء المستشرق على عادته وسألني سر تشكيل المذاهب وتعددها فأمليت عليه جملة كتبها أخي صلاح الدين وستكون رسالة إن شاء الله مهمة » .

والأوراق التي بين أيدينا أشبه بمحضر جلستين ، سجل فيه الحوار على طريقة السؤال والجواب .

وقد تناول المواضيع التـالية :

١ — كيف وجدت المذاهب وما سبب اختلافها وتنوعها .

٢ — المجتهدون وتنوع المذاهب .

٣ — هل يوجد كتاب في تشكيل المذاهب ؟

٤ — كيف يجوز أن يقول القاضي : قضيت بها على مذهب الشافعي مثلاً ، وهو حنفي أو مالكي ؟

٥ — لماذا قيد القضاة بمذهب أبي حنيفة ؟

٦ — من هم الرفاعية والقادرية ؟

والجواب في نحو ٢٦ صفحة من القطع المتوسط .

٦١ — جواب الشيخ السناني في مسألة العقل والنقل

نشر في مجلة المنار عام ١٣٢٥ . والعنوان ينبيء عن الموضوع .

٦٢ — مجموعة خطب

جرد فيه كثيراً من خطب الإمام الغزالي في الإحياء ، وأضاف إليها خطباً أُخرى مقتبسة من الخطب النبوية ، وخطب الصحابة ، وخطب الأئمة المشاهير ، وهي في العقائد والعبادات والمعاملات والشمائل النبوية . . .

قال في مقدمته :

« ظفرت بحمده تعالى بخطب لعهد سنة (٦٥٣) ، وديوان كان يخطب به في مصر عام (٧٧٢) ، وآخر يرجع لحول (٨٧٣) ، وخطب يمنية لزمن (١٠٧٩) ،

فاقتبست من الجميع أهم خطبها ، وأعظم ضروريات فقهها وأدبهـا ، واقتطفت من خطب المتأخرين ما وافق المشرب . . »

والكتاب أعد لخطب الجمعة ، ولإخراج خطبائهـا عن الخطب التقليدية التي كانوا لا يحيدون عنها ، وللعودة إلى خطب السلف النافعة .

قال في ختامه :

« تم جمعها في منتصف الليـلة التاسعة من شهر رمضان المبـارك عام ١٣٢٥ بدمشق الشام . »

وطبع في السنة نفسها .

٦٣ ــ قاموس الصناعات الشامية

هذا الكتاب معجم لما في بلاد الشام من صناعات ، أوحى بفكرته جمال الدين القاسمي إلى أبيه محمد سعيد . وقد قام الأب بكتابة قسم منـه ، ابتداءً من حرف الألف إلى حرف السين . ثم أتم المعجم الولد بمعونة نسيبه خليـل العظم إلى حرف اليـاء .

وهو المرجع الوحيد لتاريخ الاقتصاد في بلاد الشام عن تلك الحقبة ، فضلاً عن أنه سجل أنواعاً كثيرة من الصناعات قد اندثرت .

وفي الكتاب مزايا أخرى عديدة تراها في مقدمته ، وفي الدراسات التحليلية التي كتبت عنه باللغتين العربية والفرنسية والتي نشرت في الشرق والغرب .

نشره معهد الدراسات العليا في باريس عام ١٩٦٠ . وقد طبع بدمشق ، ويقع في مجلدين عدد صفحاتهما (٥٣٥) .

وألحق بفهرس عربي فرنسي للصناعات الواردة فيه .

تم وضع الجزء الأول في عام ١٣١٧ هـ .

وتم وضع الجزء الثاني في شعبان ١٣٢٥ هـ .

٦٤ — دلائل التوحيد

« بلغت مدة تسويده أربعة أشهر ، أولها العشر الأخير من رمضان ١٣٢٥ ولما أعدت النظر في تنقيحه طرأ ما أوقف النظر فيه شهري صفر وربيع . . . »

وطبع للمرة الأولى بدمشق عام ١٣٢٦ في ٢٠٧ صفحات ، ثم طبع غير مرة في مصر .

وهذا الكتاب الفريد ، الذي عالج فيه أدلة التوحيد ، وبراهين النبوة ، ومعجزات القرآن الكريم ، وإعجازه ، مسلسل الآراء ، حسن الترتيب والتبويب ، تحسّ فيه تدفق شعور المؤمن ، وترى بين سطوره الغيرة على الدين ، والسخط على الإلحاد والملحدين .

وإني لأرى أن خير تعريف بالكتاب إحالة القارىء عليه ، ليرى ما فيه من الجهد ، والقوة في الدفاع عن العقيدة الصحيحة ، مزداناً بأحلى ما كتب الأقدمون والمحدثون من الأئمة والفلاسفة وعلماء الكلام .

٦٥ — نقد النصائح الكافية

وضع السيد محمد بن يحيى بن عقيل كتاباً سماه « النصائح الكافية لمن يتولى معاوية » ، وبعث بنسخة منه إلى القاسمي ، وطلب إليه رأيه فيه . وكان ابن عقيل « أيد مذهب من جرح معاوية ورهطه ، ورأى أن تعديلهم زلة وغلطة ، وبنى عليه جواز لعن معاوية وسبه . »

وقد ألف القاسمي جوابه وسماه « نقد النصائح الكافية » ، فأنصف فيه معاوية وعلياً ، وأعطى لكل واحد منهما حقه .

والكتاب يدور حول مسألة خطيرة ، تتعلق بالمرويّ عن معاوية وأمثاله ، وفيه كثير من أسس الشريعة . وقد حررها بما عرف عنه من الحرية والإنصاف .

أنجز وضع الجواب في ٢١ رمضان ١٣٢٧ ، وطبعه بدمشق عام ١٣٢٨ في نحو ٥٠ صفحة .

٦٦ — شرح لباب المحصول في علم الأصول لابن رشيق

الأصل مخطوط ، وهو اختصار لكتاب المستصفى للغزالي .

قال في مقدمة الشرح :

« استخرت الله تعالى في تعليقات تنم عن أسراره ، وتمحص الحق في مجال

الخلاف ومضماره ، فالحق ضالتنا المنشودة ، وطريقتنا المعهودة . . . »

وقال في ختامه :

« وقد تم ما أردنا تعليقه في ضحوة السبت لخمس مضين من شعبان عام ١٣٢٧ بمنزلنا بدمشق المحروسة . . . »

٥٧ — حواشي على الروضة الندية ، شرح الدرر البهية

« لصديق حسن خان »

علق الحواشي على نسخة طبعت في المطبعة العصرية عام ١٢٩٦ .

قال في ختامها :

« تم إقراءً وتصحيحاً وتعليقاً في مجالس متفرقة من أعوام مضت ، كان آخرها بعد عصر الأربعاء ١١ شعبان ١٣٢٨ في حجرتنا بمدرسة عبد الله باشا العظم بدمشق الشام . »

٥٨ — مذاهب الأعراب وفلاسفة الاسلام في الجن

نشره تباعاً في المقتبس (المجلد الخامس) . ثم أفرده في كتاب مستقل ، جاء في نحو (٥٠) صفحة .

قال في مقدمته :

« هذا كتاب يبحث في مذاهب الأعراب في الجن ، وعما قاله عنهم فلاسفة

الإسلام . وهي مسألة ما زالت ولم تزل موضوع الباحثين في كل ملة ونحلة . وقد رأيت أن أفرد لها بحثاً خاصاً تتوفر فيه الشروط اللازمة له ، فتفرغت مدة من الزمن أمكنني بها القيام بالتنقيب في الأسفار النافعة ، قديمها وحديثها ، حتى إذا تم لي الاستقرار والاستقصار ، جمعت شتاتها من عشرات من المصنفات ، فجاءت مقالة وعت ما أثر عمن يهتدى بهديهم من رجال العلم واللغة والأدب . . . »

وقد نقل في الصفحة ٤٧ ما جاء في معجم لاروس عن هذا الموضوع ـ الجن ـ ، وفي الصفحة ٤٨ ما جاء في دائرة المعارف البريطانية .

٥٩ ــ الإسراء والمعراج

وضعه عام ١٣٢٩ وطبعه عام ١٣٣١ في نحو ٣٢ صفحة .

روى فيه قصتي الإسراء والمعراج معتمداً على الكتاب والسنة ، وقد مال إلى أن الإسراء جسدي وإلى أن المعراج روحي .

وهذا الكتاب ، مع قصة المولد التي سماها « شذرة من السيرة المحمدية » ، أراد منهما البعد عن المبالغات والموضوعات التي امتلأت بها بعض كتب المتأخرين المتداولة بين أيدي الناس ، يقرؤونها في المجتمعات المعروفة ، فلا يفقهون معنى المولد ولا الإسراء والمعراج إلاَّ في هذه الخرافات والأباطيل . وقد هدف إلى بيان أسرارها وحكمها وفوائدها معتمداً بعد الكتاب والسنة ، على أقوال أئمة السلف .

٦٠ ــ إرشاد الخلق إلى العمل بخبر البرق

أتمه في شوال ١٣٢٩ ، وطبعه في السنة نفسها في دمشق في نحو مئة صفحة .

حقق فيـه موضوع وجوب الأخذ بالأخبـار البرقية ، فيما يتعلق بالعبـادات كإثبات رمضان والأعيـاد ، وقد جاءت معالجته على طريقة بعيدة عن التعقيد ، وكانت في الزمان الذي وضعت فيه من الغايات الكبرى في إصلاح المجتمع الإسلامي .

٦١ ــ أجوبة المسائل

جمع فيه بعض الأجوبة التي أرسلها إلى بعض السائلين بين عام ١٣٢٩ و ١٣٣٠ في نحو خمسين صفحة من القطع الصغير .

وقد أشار على غلافه أن هذا المجموع هو « الجزء الأول » .

ولم نعثر على غيره من الأجزاء .

من الأسئلة التي أجيب عليها :

١ ــ هل يمكن أن يكون الإسناد في الحديث صحيحاً والمتن موضوعاً ؟

٢ ــ تأويل النقل بالعقل .

٣ ــ هل في القرآن مجاز ؟

٤ ــ معاني « السماء » في القرآن .

٥ — الإشهاد في الطلاق .

٦ — سرقة نور الكهرباء .

وغير ذلك من المسائل .

٦٢ — العقود النظمية ، في ذكرى مولد النبي ﷺ وأخلاقه العظيمة ، ومحاسن شريعته القويمة .

جمع فيها ثلاث قصائد : للأبوصيري ، وللقيرواني ، ولعائشة الباعونيه .

النسخة الموجودة في مكتبتي بخط الأستاذ محمد بهجة البيطار ، كتبها في ٩ ذي الحجة ١٣٣٠ .

٦٣ — ميزان الجرح والتعديل

نشر أولاً في المنار ، ثم جمع في نحو (٤٠) صفحة عام ١٣٣٠ . سبق له في كتابه « حياة البخاري » أن بحث في (تخريج البخاري عمن رُمي بالابتداع) .

ثم تراءى له أن يوسع هذا البحث ، فألف هذا الكتاب ، الذي فرّق فيه بين الاجتهاد والرأي ، وبين التكفير والتفسيق وما إليهما . وهو بحث عظيم ، دار حوله في كثير من كتبه ، ثم أوسعه تحقيقاً في هذا الكتاب .

٦٤ — حياة البخاري

نشره أولاً عام ١٣٣٠ في مجلة العرفان ، التي كانت تصدر في صيدا ، ثم جرده كتاباً مستقلاً في أكثر من ثلاثين صفحة .

تناول فيه حياة هـذا الإمام بالتفصيل ، من نسبه ، فولادته ، فمبدأ طلبه الحديث ، إلى رحلته وتنقله في البلاد . . . إلى وفاته .

وأشار إلى سيرته وأخلاقه وشعره ، وما حصل له من المحنة من كيد حساده ، وأبحاث أخرى هامة .

ولعل أهم ما في هذا الكتاب ما ورد في ص ١٦ تحت عنوان : « فقه البخاري واجتهاده المطلق » ، وأتبعه في ص ١٧ ببحث سماه : « شذرة من اختيارات البخاري الدالة على اجتهاده ووقوفه مع الدليل الذي يراه » .

قال في ختام هذا البحث :

« هذه شذرة من اختياراته كنت علقتها في قراءتي الثالثة للصحيح دراية ، لأدلّ بها على ارتقائه ذروة الاجتهاد . . . »

٦٥ — شرح العقائد

قال على غلافه :

« ابتداء جمعه في أواخر جمادى الأولى ١٣٣٠ » .

وهو من الكتب التي ألفها في أواخر حيـاته ، فجاءت جامعة لخلاصة علمه واطلاعه في علمي التوحيد والكلام .

وقد أورد فيه من الأبحاث الهامة ، والدراسات المستفيضة العميقة ، ومناقشات بعض الفرق الإسلامية ، والرد عليها ، ما يجعل هذا الكتاب في مصاف أمهـات الكتب التي حررت العقيدة الإسلامية من جميع شبه الزيغ والضلال .

وهو في نحو ٢٢١ صفحة .

٦٦ ـــ نسب السادة القاسمية

قدم له ببحث في الأسرة النبوية الطاهرة ، وانتقال شرفها عن طريق البنات إلى الأسباط . وقد استغرق هذا البحث اثنتي عشرة صفحة .

ثم أعقبه بالنسب ، وترجم لبعض أعلامه المشاهير .

ثم أورد بعد النسب فائدتين :

الأولى ـــ في إثبات الشرف من قبل الأمهات .

الثانية ـــ في دخول أولاد البنات في الوقف على الذرية أو أولاد الأولاد .

وقال في خاتمته :

« كمل هـذا النسب الشريف جمعاً وتأليفاً وترتيباً بقلم مؤلفه وكاتبه العبد

الضعيف ، الفقير إلى فضل مولاه اللطيف ، محمد جمال الدين القاسمي في ١٥ محرم عام ١٣٣١ . . . »

وتلا ذلك تواقيع أعلام العصر الذين اطلعوا على هذا المؤلف .

٦٧ ــ الوعظ المطلوب ، من قوت القلوب

اختصر فيه كتاب « قوت القلوب » المعروف لأبي طالب المكي ، على نفس الطريقة التي اختصر فيها إحياء علوم الدين للغزالي ، وسمى مختصره : « موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين » .

وهذا المختصر يقع في ٢١٤ صفحة من القطع العادي . وقد أتمه « قبيل عصر يوم الأربعاء ١٩ شعبان ١٣٣١ في قرية جب جنين من أعمال البقاع ، أيام تجوله في بعض قراه ترويحاً للنفس من مرض ألم به . »

وهذا الكتاب من أواخر ما ترك رحمه الله ، وهو من أهم الكتب الباحثة عن الأخلاق والآداب الإسلامية ، لا سيما بعد أن « جرد الأصل من آثار وأخبار منكرة عند أولي العرفان . »

٦٨ ــ شرف الأسباط

وضع هذا الكتاب لإثبات أن شرف النسب ، كما ينتقل من الآباء ، ينتقل من الأمهات ، وأن لا فرق بينهما .

وقد ضم هذا الكتاب الأدلة من الكتاب والسنة واللغة وأقوال الفقهاء . . . وتضمن كذلك بحثاً بيوليوجياً في آثار الوراثة. ثم أعقبه بذكر نسب المؤلف ، مع ترجمة لمشاهير رجاله .

أتمه في محرم عام ١٣٣١ وطبع في السنة نفسها بدمشق .

٦٩ — جوامع الآداب ، في أخلاق الأنجاب

« كان المؤلف ابتدأ بتسويده عام ١٣٢٢ ، ثم أعاد النظر إليه مرات ، إلى أن تم تبييضه في شعبان ١٣٣١ بدمشق » .

طبع للمرة الأولى في مصر عام ١٣٣٩ ـ ١٩٢١ في نحو ١٥٠ صفحة .

قال عنه العلامة المغربي رحمه الله[١] :

« . . . الكتاب شجرة أثمار ، بل هو لعمري كنز نضار . وإنه من أنفع الكتب التي نحتاج إليها معشر العرب في نهضتنا الحاضرة ، وخير ما يقتنيه الآباء والأمهات ، وجميع القائمين على تربية الأحداث والناشئين . كما أنه أحسن الكتب التي يجب أن توضع بين أيدي الفتيان والفتيات يدرسونها ، ويترشفون زلال معينها . . . »

وفي الكتاب بحوث مبتكرة في الزمن الذي ألف فيه ، كحب الوطن ، وآداب النائب في مجلس النواب .

(١) مجلة المجمع العلمي العربي - ج ٤ - مجلد ١ - ص ١٢٣

٧٠ — الاستئناس لتصحيح أنكحة الناس

هدف القاسمي في هذه الرسالة إلى صيانة أعراض المسلمين ، وتنزيه أنسابهم ، وتحرير موضوع « الحلف بالطلاق » .

وضعها في جمادى الأولى ١٣٣٢ ، وتوفي بعد وضعها بأيام .

طبعت في العام نفسه في نحو أربعين صفحة ، وأعيد طبعها عام ١٣٧٧ بمصر .

كانت آراء القاسمي فيها أحد المصادر التي أشير إليها في المذكرة الإيضاحية (الأسباب الموجبة) لقانون الأحوال الشخصية الذي صدر في سورية عام ١٩٥٣ .

٧١ — المسح على الجوربين

وضعها في مجالس آخرها ربيع الثاني ١٣٣٢ .

طبعت في دمشق للمرة الأولى بعد وفاته بقليل من العام نفسه .

أعيد طبعها في مصر عام ١٣٧٧ ، وقد قدم لها الفقيد المحدث أحمد شاكر بقوله :

« إن أستاذنا عالم الشام ، الشيخ محمد جمال الدين القاسمي . . . ألف رسالة نفيسة في المسح على الجوربين طبعت بدمشق سنة ١٣٣٢ . . . وقد قرأتها وأفدت منها علماً جماً ، وروحاً قوياً ، في ذلك العهد البعيد ، حين كنا في مطلع الشباب ، متشوفين إلى العلم الصحيح ، علم الكتاب والسنة . . . »

وهو في نحو ٦٦ صفحة .

٧٢ — محاسن التأويل

هو تفسيره لكتاب الله العظيم . انكب عليه منذ عام ١٣١٧ حتى آخر أيامه . يقع في ١٢ مجلداً ضخماً ، وقد قضت ضرورات المطبعة أن يكون في سبعة عشر مجلداً .

ولطبع هذا الكتاب وإخراجه إلى النور قصة :

ذلك أنني منذ أن أخذت في الإدراك والوعي ، كنت أسمع في بيتنا أن كنزنا الذي لا يعدله كنز ، هو هـذا التفسير الذي أفنى الوالد عمره في تأليفه . ووقعت حادثة أكدت لي ذلك .

فقد بتنا ذات ليلة في بيتنا الذي كان يقع في زقاق المكتبي ظاهر باب الجابية من مدينة دمشق القديمـة ، وإذا مدافع الفرنسيين تقصف المدينة القديمة وتحرقها بقنابلها ، كان ذلك عام ١٩٢٥ . ولم يغمض لنا جفن طول الليل .

وقبيل الفجر ، أحسسنا في الحي ضجيجاً غير معتاد ، فخرجنا نتلمس الخبر ، فرأينا الناس يزحفون من بيوتهم كيوم القيامة ، فسألنا :

— إلى أين ؟

قالوا : إلى حي العمارة !

قلنا : ولمَ ؟

قالوا : لأن قنصل الإنكليز مقيم فيهـا ، ولا تجرؤ فرنسا على ضرب هـذا الحي بقنابلها .

وكان الناس يحملون في أيديهم ما غلا من متاعهم .

فعدنا إلى البيت ، ورأيت أخويّ رحمهما الله ـ ضياء الدين ومسلم ـ يحمل كل واحد منهما خمساً من مجلدات التفسير الاثني عشر ، ويترفقان بي فلا أحمل إلا مجلدين ، وننطلق جميعاً إلى حيّ العمارة ، حيث كانت تقيم شقيقة لنا فيه .

إنه كنزنا الوحيد ، وليس في البيت ما يستحق الإنقاذ إلا هذا التفسير .

وبقيت في ذهني هـذه الصورة حتى اليوم ، كأروع ما تكون الصور ، في الحرص على مخلفات الآباء للأبناء .

★ ★ ★

ولم أفكر في طبع التفسير ، لأنني كنت أسمع أنه عرض على بعض أصحاب المكتبات والناشرين فاستثقل نفقاته .

إلى أن كنت ذات يوم من أيام عام ١٩٥٦ في مكتبي ، وإذا بساعي البريد يدفع إليّ رسالة لم أتبين مصدرها للوهلة الأولى ، ثم عرفت أنهـا من أندونيسيا ، فقرأت على مغلفها « إلى والدنا المكرم السيد جمال الدين القاسمي وأولاده بدمشق الشام المحروسة زيدت معاليهم آمين » .

فأخذتني الدهشة أن توجه رسالة إلى أبي بعد اثنين وأربعين عاماً من وفاته ، ففضضتها وإذا فيها استئذان بإعادة طبع كتابه « موعظة المؤمنين » .

ودفعت الرسالة إلى صديقي الأستاذ صبري العسلي ، وقلت له : أنظر !

قال : ماذا ؟

قلت : رجل يكتب إلى جمـال الدين القاسمي من أندونيسيا بعد وفاته باثنين وأربعين عاماً ! !

قال : هذا هو الخلود ، فأبوك حي في أذهان الناس ما دام في الدنيا إسـلام ومسلمون وشريعة إسلامية .

* * *

قلت لنفسي : ماذا فعل جمال الدين القـاسمي في موعظة المؤمنين حتى يطلب الناس من أقاصي الدنيا إعادة طبعه ؟ إنه لم يفعل أكثر من اختصار إحياء علوم الدين للغزالي الذي طبع مرّات .

صحيح أن اختيار المرء قطعة من عقله ، وقد يكون هذا المختصر أنفع من الأصل ، ولكن ليس فيه دليل على علم القاسمي ولا على عقله الكامل .

إن الذي يدل على هذا كله وعلى أكثر منه هو تفسيره « محاسن التأويل » ، فما لي لا أطبعه إذا كان الناس يستثقلون نفقاته . إني سأطبع منه في كل عام جزءاً ، وأنا قادر بحمد الله على ذلك .

واتصلت على الفور بالمطبعة الهاشمية بدمشق ، فأجبت بأن المسؤول عنها مريض ، ولعله يحضر غداً ، وبينما أنا في الحديث الهاتفي ، إذ يدخل عليّ صديق ويقول :

— وماذا تريد أن تطبع ؟

قلت : تفسير أبي .

قال : ولماذا لا تطبعه في مصر ، فمطابعها ودور النشر فيها أقوى وأقدر ؟

ففكرت قليلاً ، ثم قلت : صحيح . ولا جناح عليّ في التأخير !

إن هذا الكتاب لم ير النور منذ أكثر من أربعين عاماً ، فماذا لو بقي أياماً أخر .

★ ★ ★

وسنحت لي فرصه الاشتراك في المؤتمر الثاني للمحامين العرب الذي انعقد في القاهرة في شهر آذار عام ١٩٥٦ ، ونسخت الجزء الثاني من الكتاب ، وحملته معي مع أصله .

واتصلت بالأخ السيد محمد الحلبي ، وحدثته في الكتاب ، ودفعته إليه ، فاستمهلني أياماً جاء بعدها يقول :

— لقد قررت أن أطبع الكتاب على نفقتي ، فقد سألت خبيري . وقال لي :

— هذا كنز ينبغي أن لا يفوتني .

قلت : من خبيرك ؟

قال : الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي .

فلم أشعر إلا والدمع قد انحدر من عيني ، وقلت :

— لا يمكن أن يضيع الفضل ، ولو غيبته ظلمات خزائن الكتب أربعين عاماً ، أو ألف عام !

وما أظن أنك تطمع في أن ألخص هذا التفسير ، الذي قال لي عنه الأستاذ مصطفى الزرقا : « إن قراءته تحتاج إلى عمر كامل ، فكيف ألفه أبوك ، ولم يبلغ الخمسين من العمر ؟ »

ولكني محدثك عن بعض ملاحظاتي خلال نسخه : فقد كتب رحمه الله آيات الكتاب العزيز بالحبر الأحمر ، وكتب تفسيرها بالحبر الأسود ، بخطه الفارسي الجميل الأنيق ، من ألفه ليائه .

وإذا كنت قد وجدت في بعض كتبه خطوطاً أخرى لإخوته أو تلامذته ، فإني لم أجد في هذا التفسير إلا خط جمال الدين . وإذا كنت عثرت على مسودة ومبيضة لبعض كتبه ، فإني لم أعثر على غير نسخة واحدة من محاسن التأويل ، وسألت تلاميذه فقالوا : لقد كتبه مرة واحدة على أصله الذي بين يديك ! !

جرى في تفسيره على إظهار أسرار الشريعة وحقائقها على طريقة السلف الصالح حراً دون قيد ، يفسر القرآن بالقرآن ، وبالحديث ، وبأقوال الصحابة والتابعين ، والأئمة من مختلف المذاهب .

فتراه ينقل عن المحدثين وقدامى المفسرين ، نَقْلَه عن المعتزلة والزيدية والشيعة والظاهرية وغيرهم . لا يتحرج في ذلك ، ما رأى الحق في أقوالهم ، أو القول السديد في آثارهم .

ويغوص على الكتب المخطوطة في دار الكتب الظاهرية ، فيفني فيها أياماً وأياماً ، حتى يظفر بجملة رائعة ، أو بحكمة بالغة ، أو بفائدة شاردة . ويعرفنا بكثير

من الكتب التي لم تر النور حتى اليوم ، كالبقاعي ، والجشمي ، وغيرها .

وإذا كان تفسير البغوي في هذه الأيام مطبوعاً ، فقد كان في أيامه مخطوطاً . ومن عرف صعوبة المطالعة في المخطوطات ، عرف العناء الذي أصاب القاسمي ، وهو يبحث في تفسير البغوي عن رأي أو فكرة .

* * *

بدأ تفسيره عام ١٣١٧ وأتمه عام ١٣٢٩ ، ثم أعاد النظر فيه ، فإذا به يشطب الجزء الثاني برمته تقريباً ، وفيه تفسير الفاتحة وبعض سورة البقرة . وشَطْبُه هذا الجزء دليل على روح العالم المحقق ، الذي لا يقف عند ما كتب وقوف المعجب ، بل يعدل عن الرأي أو القول إلى غيره ، ويحسن بي أن أشير إلى أن شطبه أنواع : فقد شطب بعض الأسطر ، وما زال تحتها مقروءاً ، وطمس بعضها طمساً كاملاً ، كأنه خجل أن ينسب الرأي إليه . وأغرب من هذا كله أنه عمد إلى بعض الأوراق فاستأصلها استئصالاً كلياً ، ولم يعد لها وجود .

هذا التفسير كتب معظمه في سدة جامع السنانية ، كما أشار إلى ذلك في خاتمة أكثر الأجزاء . وقد ذهبت إلى المكان الذي كان يجلس فيه ، فإذا هو نافذة (شباك) من نوافذ الجامع الغربية ، عريضة ، فرشها بقطعة من السجاد عتيقة ، وبجلد خروف ، ونشر حوله مصادره ، يكتب ويؤلف دون انقطاع ولا ملل . وكان هذا المكان أهدأ من البيت ، وأدعى إلى التأمل والتفكير ، فهو جزء من بيت الله ، بعيد عن الضوضاء ، كثير الإيحاء .

في هذا المكان ختم جمال الدين القاسمي تفسير كتاب الله العظيم .

ستة عشر عاماً متواليات وهو يبحث وينقب ، ويتحمل مسؤولية الرأي ، ويترك للعالم الإسلامي كنزاً ، كنا محقين ، يوم لم نحمل غيره من بيتنا الذي كان مهدداً بالهدم والحريق .

٧٣ — شرح لقطة العجلان للزركشي

الأصل للامام بدر الدين الزركشي ، من رجال المئة الخامسة .

لخص فيه مبادئ أربعة علوم : الأصول والمنطق والحكمة والكلام .

ووضع الشرح في نحو من أربعة أشهر آخرها منتصف ربيع الأول عام ١٣٢٥ .

طبع في القاهرة عام ١٣٢٦ في نحو من ١٧٠ صفحة .

٧٤ — تنبيه الطالب إلى معرفة الفرض والواجب

جمع فيها (١٠٣) قواعد لتفريق الواجب من غيره ، لئلا يصبغ المباح بصبغة الوجوب !

وطبع في مصر ١٣٢٦ — ١٩٠٨ في نحو سبعين صفحة .

٧٥ ــ الفتوى في الاسلام

نشر أولاً في المجلد السادس من المقتبس . ثم أفرد في كتاب مستقل ، في نحو (٧٢) صفحة .

قال في مقدمته :

« لا نريد أن نبحث في الفتوى من حيث يعرفها الناس أنها وظيفة يتولاها من يوظفه شيخ الإسلام ، لأن سبيلها المذكور معروف ومعلوم . . . وإنما نروم الكشف عن منشأ الفتوى في الإسلام ، وكيف كانت في القرون الثلاثة العظام ، ثم فيما بعدها ، ومن كان يتولاها . . . ثم ما اشترط في أُولي الفتوى . . . يتبع هذا مباحث منوعة ضافية الذيول . . . »

وهذا الكتاب من أهم الكتب التي وضعها القاسمي ، فهو على صغر حجمه قد أشار إلى مباحث ذات خطر ، كحاجة المفتين إلى العلوم الرياضية ' ووجوب تولية الأكفياء ، والعقل والعلم ' وتعرض العلماء للأذى ، وإفساد السياسة للعلم والعلماء ، كما رأيت ذلك مفصلاً في بحث آرائه وأفكاره .

نشر في مجلة المقتبس أولاً عام (١٣٢٩ هـ) ، ثم جمع في كتاب مستقل .

٧٦ ـ تاريخ الجهمية والمعتزلة

قال في مقدمته :

« دعاني إلى العنـاية به ما رأيت ـ لمـا أفضت بنا النوبة في قراءة صحيح البخاري إلى « كتاب التوحيد والرد على الجهمية » ـ أن كلام الشراح عليه موجز ، وأنه ليس في الأيدي كتاب جمع تاريخهم وأحرز . . . »

وقد نشر أولاً مقالات متسلسلة في المجلد السادس عشر من مجلة المنار ، ثم جرد في كتاب مستقل ونشر عام ١٣٣١ .

وقد اعتبره أحمد أمين من المصادر الرئيسية لكتابه فجر الإسلام وضحاه وظهره ، حينما بحث عن المعتزلة والجهمية .

٧٧ ـ كتاب بدون عنوان ولا تاريخ

مؤلف من ٤٢ فصلاً في ٥٦ صفحة ، وإن كان يبدو أنه قد جمع فصوله في أوقات متفرقة ، لأنه نقل فيه عن المنار ، وعن جريدة « ثمرات الفنون » كما اقتبس فصلاً ـ هو التاسع والثلاثون ـ عن الأستاذ الإمام محمد عبده نشر في ثمرات الفنون .

أما مواضيع هذا الكتاب ، ففي الذروة من الخطورة ، لأنها تعالج إلى جانب قضايا العقيدة الصحيحة ، والاجتهاد ، بعض قضايا المجتمع الإسلامي .

كتب لم يعثر عليها

والكتب الآتيــة لم أعثر عليهــا ، وإنما ورد ذكرهــا في الثبت المنشور في مجلة المنــار :

٧٨ — إزالة الأوهام ، بمــا يستشكل من ترك سيدنا عمر لكتابة الكتاب الذي همَّ به عليه الصلاة والسلام .

٧٩ — الأقوال المروية ، في من حلف بالطلاق الثلاث في قضية .

٨٠ — بحث في جمع القراآت المتعارف .

٨١ — الجوهر الصاف ، في نقابة الأشراف .

٨٢ — جدول في مخارج الحروف وصفاتها .

٨٣ — حسن السبك ، في الرحلة لوعظ قضاء النبك .

٨٤ — رسالة في أوامر من مشايخ الإسلام .

٨٥ — رسالة في المسح على الرجلين .

٨٦ — الطالع السعيد ، في مهمات الأسانيد .

٨٧ — اللف والنشر ، في طبقات المدرسين تحت قبة النسر .

ولا بد من العثور على هــذه الكتب ، عاجلاً أو آجلاً ، لأنها في مكتبة القاسمي التي لم يضع منها شيء ، وإنما اضطرب ترتيبها بسبب انتقالهــا من مكانها ثلاث مرات .

خاتمة

ها أنا ذا أصل إلى نهاية الكتاب ، وأنا أشعر أنني أذوب خجلاً من أبي ، ومن القارىء ، لأنني أعتقد أنني لم أقدم في هذه الصفحات دراسة ، وإنما قدمت عرضاً ، فما هكذا تكون الدراسة لرجل كجمال الدين القاسمي ، لا سيما وأنه مازال بين يديَّ قرابة عشرين دشتاً لم أفتحها ، ولا أعرف ما فيها ، وكل ما أدريه أنها مليئة بأوراق مخطوطة متنوعة ، بعضها قديم مغرق في القدم ، وبعضها حديث .

ولقد كنت حرياً أن أؤخر طبع هذا الكتاب إلى ان أقرأ ما في هذه الدشوت . ولكن وقع لي ما دعاني إلى العجلة في الطبع . ذلك بأنني لقيت منذ شهور أستاذنا عز الدين علم الدين التنوخي ، فلما سألني عن هذا الكتاب ، أجبته بأن كثيراً من المواد ما زال مجهولاً عندي ، ولا بد من الاطلاع عليه . فقال لي :

اسمع !

ضمني مجلس مع الشيخ طاهر الجزائري ، وشيخ العروبة أحمد زكي باشا رحمهما الله في المكتبة السلفية بالقاهرة بحضور الاستاذ محب الدين الخطيب صاحبها . وقد سأل الجزائري شيخ العروبة عن كتاب كان يحققه ، وإلى أية مرحلة وصل فيه ؟

فأجاب : لقد انتهى تحقيقه ، إلا أنني علمت بأن منه قطعة مخطوطة في القسطنطينية ، وإني أبحث عن رجل يذهب إليها لينسخ لي هذه القطعة . فإذا بالشيخ طاهر يحتد ويقول لأحمد زكي بالعامية الشامية :

— يا أخي ! أنت آخذ بعمرك براءة (يعني وهل أنت متأكد من امتداد عمرك ، أو أنك أخذت عهداً من ربك بالبقاء طويلاً) إطبع ما بين يديك لينتفع الناس به ، فإذا جاءتك المخطوطة جعلتها ملحقاً .

قال أستاذنا التنوخي : وقد قنع أحمد زكي باشا برأي الشيخ ، وطبع ما بين يديه . لذلك أوصيك بأن تطبع ما بين يديك ، ثم تجعل الباقي ملحقاً أو جزءاً ثانياً .

★ ★ ★

وقد وقع لي ما أكد لي رأي الأستاذ التنوخي ، وإن كان لا يحتاج إلى تأكيد . فقد رأيت المنايا تتخطف الأحباب على غير ميعاد ، وآمنت بأن الموت أقرب إلى المرء من حبل الوريد . ذلك بأنه كانت لي زوج رزقها الله جميع صفات المرأة الصالحة ، وكنت بالعيش معها قرير العين ، مرتاح النفس ، وكانت لي سكناً ، وجعل الله بيني وبينها مودة ورحمة هي المرحومة السيدة ناهدة بنت محمد شريف الطويل ، فاختارها إلى جواره على حين غرة وهي في ميعة الصبا ، وريّق الشباب ، في ١٦ رجب ١٣٨٥ — ٩ تشرين الثاني ١٩٦٥ ، فمزق فراقها قلبي ،

وفرّح كبدي ، لا سيما وأنها قد أعانتني في بعض فصول الكتاب ، جمعاً ، ونسخاً ، وقراءة . فسارعت إلى طبعه ، خيفة أن أموت ، فلا يستطيع أحد بعدي أن يخدمه كما خدمته .

فإلى روحها الطاهرة في جنان الخلد أحر دعائي بالرحمة على ما قدمت لي من معونة في تصنيف الكتاب وجمعه ، مقروناً بأعمق حزني على فقدها ، الذي كاد يصرفني عن كل شيء ، إلا عن الاهتمام بهذا الكتاب . فلقد كانت تغار عليه ، ولا تغار منه ، وتقدس حميها تقديساً ندر أن رأيته بين الكنات .

★ ★ ★

كذلك أرى الواجب يدعوني إلى أن أنوه بالأستاذ الصديق العالم البحاثة الأديب أبي سَرِيّ أكرم زعيتر ، الذي كان أول من نصحني منذ عشر سنين ، بوضع كتاب عن أبي ، وما كان هذا الأمر يخطر لي ببال . فإليه يعود الفضل في ولادة هذه الفكرة ، وفي ابتدائها بالنشوء ، وفي إخراج هذا الكتاب .

أما أخي وصديقي الأستاذ الشاعر الناثر أبو سلمى عبد الكريم الكرمي ، فقد كان له فضل قراءة الكتاب كله قبل دفعه إلى المطبعة ، وقد أرشدني إلى كثير من الملاحظات التي انتفعت بها ، واستقام عوج الأصل بسببها .

وأما أستاذنا علامة الشام الشيخ محمد بهجة البيطار فقد أبى عليه وفاؤه لشيخه جمال الدين القاسمي إلا أن يقرأ الكتاب من ألفه إلى يائه بعد الطبع ، ليحصي الأخطاء المطبعية فيه .

وبعد فإذا كان الحياء من أبي ومن القارئ يلفني لأنني لم أوف البحث حقه من الدراسة ، ولأن الكتاب خلا مثلاً من بيان الآراء التي تفرد فيها القاسمي في تفسيره عمن سبقه من المفسرين ، ومن كثير من الأفكار الأخرى التي ضمتها كتبه الباقية ، فحسبي أنني شرعت فيما كان ينبغي أن يشرع فيه ، والقاسمي ليس ملكاً لأولاده ولا لأحد من الناس ، وهذه كتبه تطوف العالم الإسلامي ، وتدرس في كليات الشريعة .

فمن رأى من أهل العلم نقصاً أكمله ، ومن وجد فتقاً رتقه ، ومن أحس بي عجزاً سدده ، أو عوجاً قومه .

« رَبَّنا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا » ،

« وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » ؟

دمشق الجمعة في ٢٠ ذي القعدة ١٣٨٥
١١ آذار ١٩٦٦

ظافر القاسمي

تصويبات

ص	س	خطأ	صواب
١١	٥	بجميع	بجمع
٤٦	١٣	بالسوء	بالسوء من القول
١٣٤	٧	مغسلين	مغلسين
١٤٠	٩	وبعد	بعد
٢٦٠	٩	ثلاث وعشرون	ثلاثاً وعشرين
٢٦٧	١١	أُخَرِ	أُخَرَ
٢٨٠	٣	فَأَصْلِحْ	فَأَصْلَحَ
٢٨١	١٧	عشْرة	عشَرة
٣١٩	٩	ولو شاء	ولو شاء لجمعهم
٣٦٢	٣	ما لم	بما لم
٤١٥	٤	داراً	درّاً
٤٦٩	١٣	وإن	إنّ
٥٣٧	٧	إن	فَإِنَّ
٥٣٧	٩	فندمغه	فيدمغه
٥٨٤	٦	حمدَ	حَمْدُ
٥٩٣	٨	الآباء	الآباد
٦٠٠	٩	مع أنه	مع أن



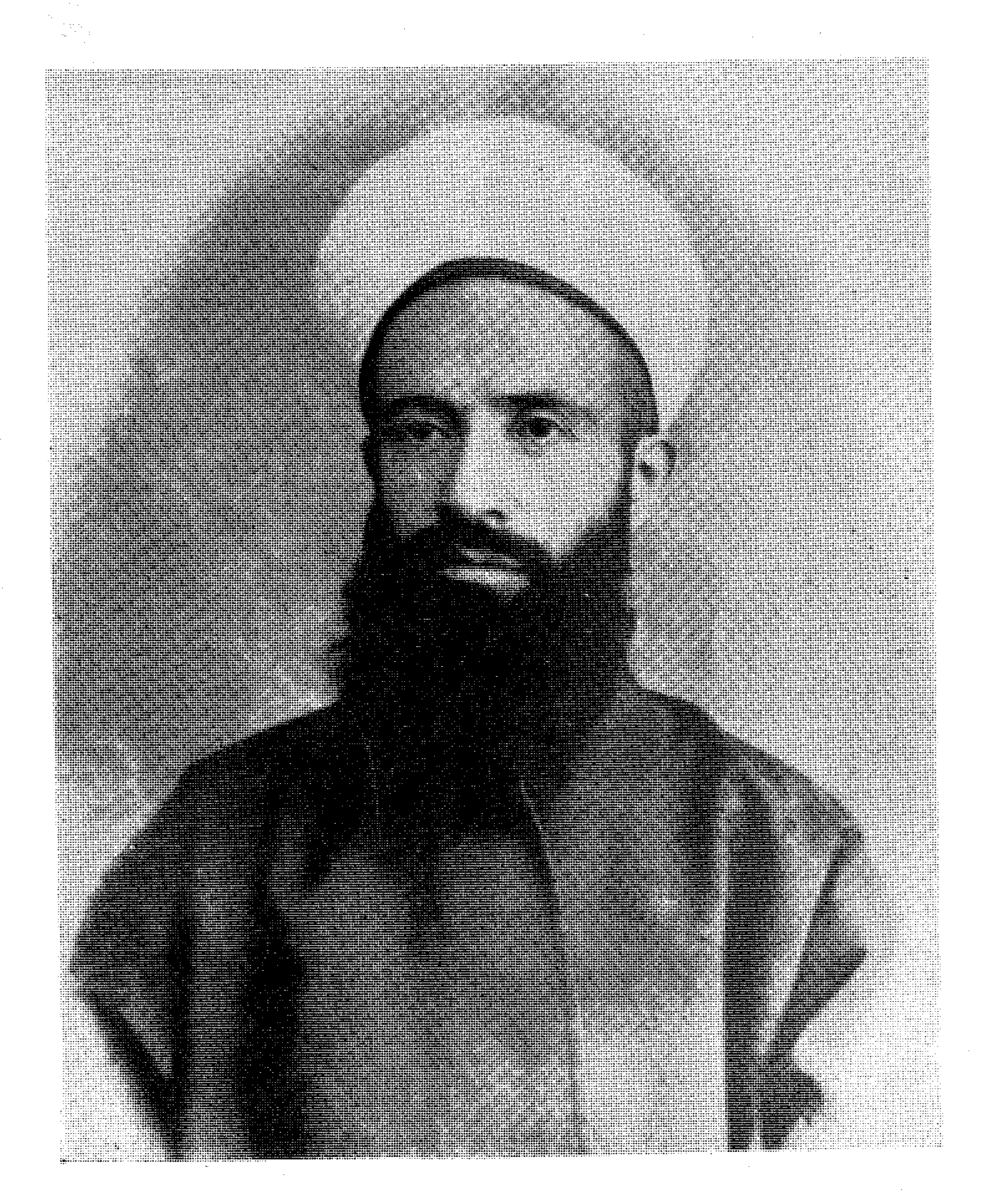
استدراك

١ ــ في الصفحة (٥٢٦) حاشية تضمنت أن في عبـارة الأصل خطـأ واضحاً . وقد نبهني الأستاذ البيطار إلى أنها تضمين من المقصورة الدريدية ، فليس فيها خطأ .

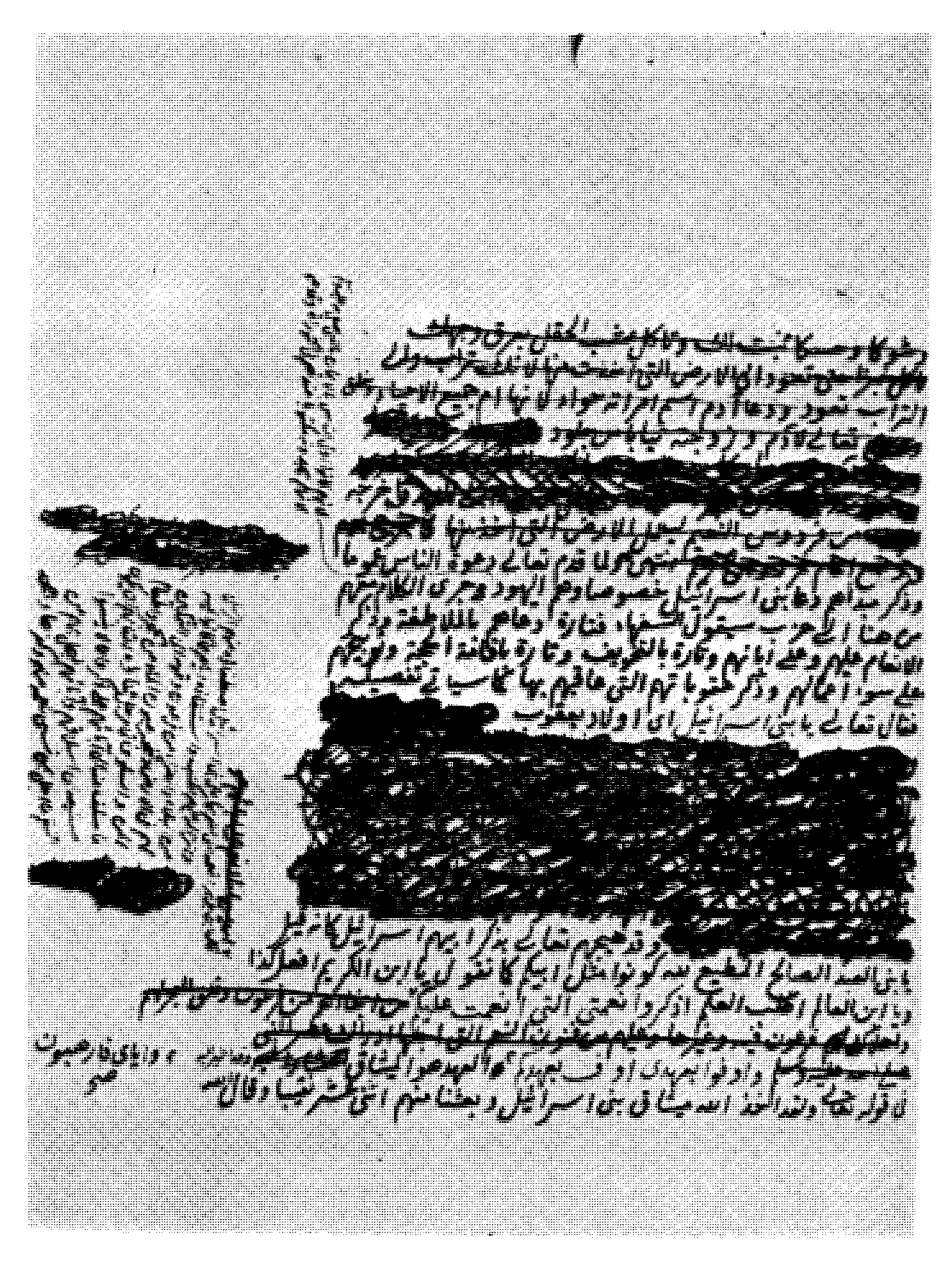
٢ ــ في الصفحة (٥٦٢) سطر (٨) بيت شعر لم ينتبه إليـه حين التصحيح ، وكان ينبغي أن يوضع في سطر مستقل وهو :

لعمر أبيك ما نُسب المعلّى　　　إلى كرمٍ وفي الدنيا كريم





محمد جمـــال الدين القاسمي



انموذج من مسودات كتبه ـ راجع ص ٧٠

البنيان وقامت النفوس في اصطفاق المزاهر ومعاقبات الندمان ونبذت
الصنائع وجهل قدر المعروف وماتت الخواطر وسقطت همم النفوس وزهد في
لسان الصدق وعقد المكرمات فأبعد غايات كاتبنا في كتابه أن يكون حسن
الخط قويم الحروف وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتا في مدح قينة
أو وصف كأس وأرفع درجات لطائفنا أن يطالع شيئا من تقويم الكواكب
وينظر في شيء من القضاء وحد المنطق ثم يعترض على كتاب الله بالطعن وهو
لا يعرف معناه وعلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتكذيب وهو
لا يدري من نقله قد رضي عوضا من الله ومما عنده بأن يقال فلان لطيف وفلان
دقيق النظر يذهب إلى أن لطف النظر قد أخرجه عن جملة الناس وبلغ به علم ما
جهلوه فهو يدعوهم الرعاع والغثاء والغثر وهو لعمر الله بهذه الصفات أولى وهي
به أليق لأنه جهل وظن أن قد علم فهاتان جهالتان ولأن هؤلاء جهلوا وعلموا أنهم
يجهلون (قوله) هذا المعجب بنفسه الزاري على الإسلام برأيه نظر من جهة
النظر لا حياه الله بنور الهدى وثلج اليقين ولكنه طال عليه أن ينظر في علم
الكتاب وفي أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته وفي علوم العرب ولغاتها
وآدابها فنصب لذلك وعاداه وانحرف عنه إلى علم قد سلمه له ولأمثاله المسلمون
وقل فيه المتناظرون له ترجمة تروق بلا معنى واسم يهول بلا جسم فإذا سمع الغمر
والحدث الغر قوله الكون والفساد وسمع الكيان والأسماء المفردة والكيفية
والكمية والزمان والدليل والأخبار المؤلفة راعه ما سمع وظن أن تحت هذه
الألقاب كل فائدة وكل لطيفة فإذا طالعها لم يحل منها بطائل إنما هو الجوهر يقوم
بنفسه والعرض لا يقوم بنفسه ورأس الخط النقطة والنقطة لا تنقسم والكلام
أربعة أمر وخبر واستخبار ورغبة ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب وهي الأمر
والاستخبار والرغبة وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر والآن حد
الزمانين مع هذيان كثير والخبر ينقسم إلى تسعة آلاف وكذا وكذا مائة من

(قوله) عقد المكرمات بفتح العين وسكون القاف وروي بضم العين وفتح
القاف والمكرمات الخ أي زهد الناس في أعمال البر التي ينالون بها المراتب
عند الله تعالى اهـ قوله الغثر هم الجهال والأغبياء وأحدهم أغثر اهـ

أنموذج من دراسته للكتب ـ راجع ص ٨٨ ـ الهوامش بخط القاسمي

(الجزء الأول)
من شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر
القاموس للإمام اللغوي محب الدين أبي
الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني
الواسطي الزبيدي الحنفي
نزيل مصر المعزية
رحمه الله تعالى
آمين

وقف هذا الجزء والتسعة بعده الفقير محمد جمال الدين القاسمي على أولاده وأولادهم ثم على أقربائه
من بعدهم ثم على طلبة العلم في شعبان سنة ١٣١٩

(الطبعة الأولى)
(بالمطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر)
(المحمية سنة ١٣٠٦)
(هجرية)

أنموذج من وقفه لكتبه ـ راجع ص ٩١

مولاي الاستاذ العلامة ايده الله

لم اقصر الى اليوم عن تقديم اجواب الادباء على ما كان في النية
من التشرف بالنفس الى الشام فكنت كل يوم مصدقاً القدم
محل القلم و مقدما النفس مقام النفس ومازلت كذلك
والشواغل تدهشني والمسائل تحيط بي حتى ايقنت الآن
ان امر هذه الزيارة مؤجل فجئت استميح منكم العفو عن تأخر
جوابي والاعتقاد انه ليس من قلة جود بي بل والله يشهد
ان خيالكم دائما امام الناظر وذكركم مستمرة للقلب والخاطر
وقد شرف الاستاذ الطاهر فجاء لقيانه عندنا كما يجئ
بعد العطش السحاب الماطر وكثير الليالي نجتمع فياحبذا
لو انتظم العقد بوجودكم وشتاؤنا ربيع ومحلنا الآن بديع
فلو رأيتم زينة العيد اعاده الله عليكم سانحة من بالاقبال في بيروت
لكان الانس تم عظيما والعقد نظيما وسلامي الى حضرة الشقيق الاديب
والاطفال الله تعالى

محبه
شكيب

أنموذج من الرسائل الواردة (شكيب أرسلان) — راجع ص ٣٩٢ و ٤٩٧

إدارة مجلة المنار

(شارع درب الجماميز بمصر)

Direction de la Revue [Al-Manar]

• Caire, Egypte •

مصر في ١٢ ربيع الآخر سنة ١٣٢٧ – ٢ مايو ١٣٨٥ ١٩٠٩ م

من محمد رشيد رضا إلى أخيه في الله عز وجل جمال الدنيا والدين وبقية السلف الصالحين

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ؛ وبعد فإني لا أدري كيف استطعت أن أقيم

في بيروت خمسة أسابيع وأنا بالقرب منكم ولا أمتع نفسي بمجالستكم كما كانت

أشد ما يطيب ذكركم مع من يعرفكم كالأمير شكيب ومع من أعرف بفضلكم من الفضلاء

ولا أعد من العذر ما بلغني من [illegible] بالعزلة واعتصامكم بصومعة الوحدة بعد ما كان من الفتنة

ولا ما كانت عليه في بيروت من اضطراب البال وكثرة الأعمال مع التكاسل والإهمال

وإنما أقول إنني لم أكن موفقا للتمتع بهذه النعمة وربما كان العزم في كل أسبوع على السفر

بالسبب الذي كان [illegible] الوقت قصيرا وإن جعله القدر بعد ذلك طويلا

قرأت في الأهرام رسالة من دمشق ذكر فيها كاتبها أن خطيبي فتنة رمضان حاولا [illegible]

فتنة أخرى [illegible] فيها على [illegible] الآستانة وصاحا بالعامة أن اقتلوا الوهابية في هذه الفرصة

[illegible] ... ولكن [illegible] ما أوقدا فهل كان هذا النبأ صحيحا

كيف حال الأستاذ الأكبر الشيخ عبد الرزاق أفندي كنت عازما على الكتابة إليه اليوم ولكن

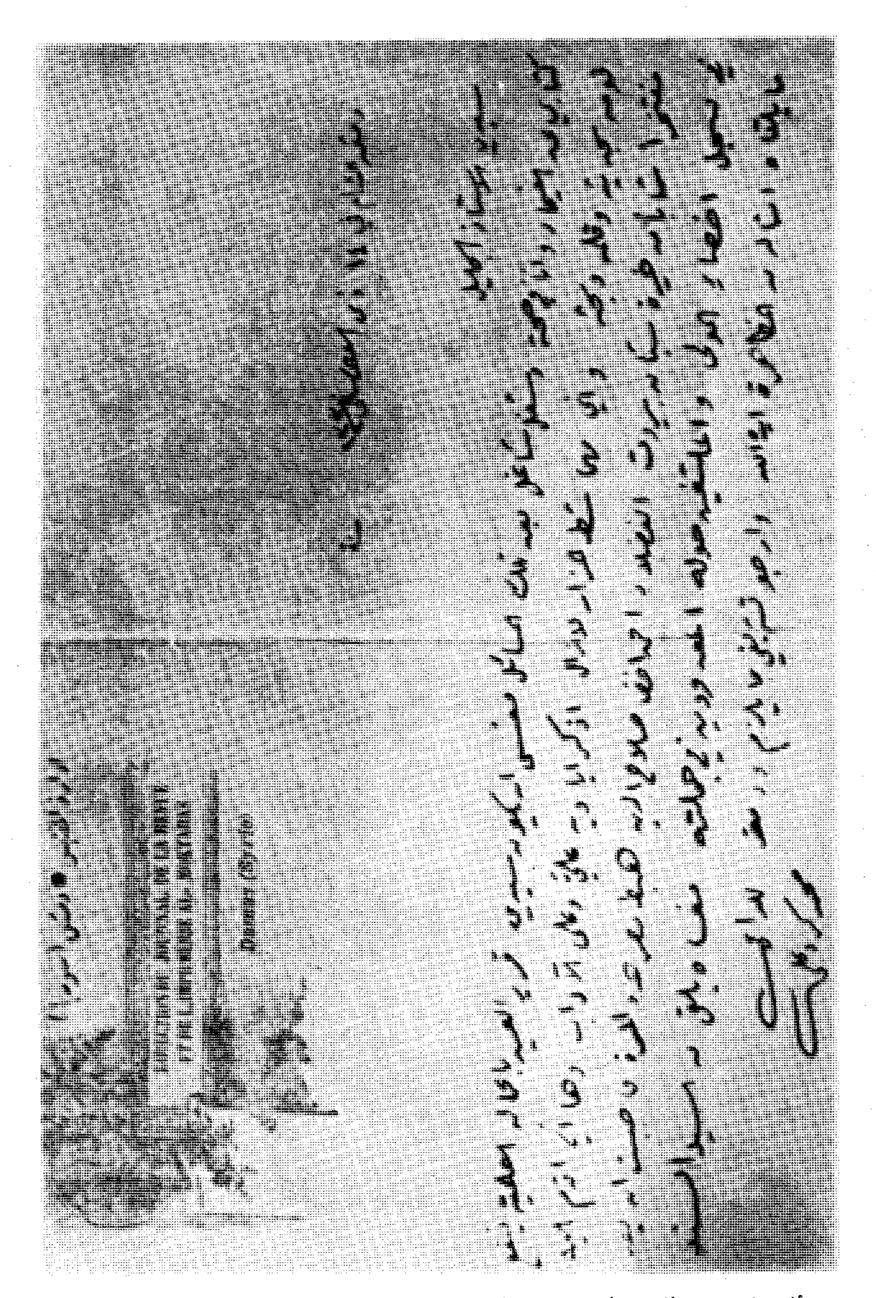
ضاق الوقت وقرب موعد سفر البريد فأرجأت الكتاب وذلك [illegible]

وكيف حال شقيقكم [illegible] ولا أدري هل [illegible] في دمشق [illegible]

[illegible]

[illegible]

أنموذج من الرسائل الواردة (رشيد رضا) ـ راجع ص ٥٢٢



أنموذج من الرسائل الواردة (محمد كرد علي) ــ راجع ص ٥٤٣

أنموذج من الرسائل الواردة (لويس ماسينون) — راجع ص ٥٥٧

فهرس

من مفكراته الخاصة ٣٤٠

تم طبع هذا الكتاب على مطـابع المطبعة الهاشمية بدمشق يوم الاثنين
الواقع في ٣٠ ذي القعدة ١٣٨٥ ـ ٢١ آذار ١٩٦٦